العتبة العباسية المقدسة
المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية

دراسات نسوية

بحوث تأصيلية ونقدية في قضايا المرأة والاسرة

الموضوع

الأسرة

مجموعة باحثين

دراسات نسوية:
الأسرة

بسم الله الرحمن الرحيم

العتبة العباسية المقدسة
المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية

دراسات نسوية

بحوث تأصيلية ونقدية في قضايا المرأة والأسرة

الأسرة

مجموعة باحثين

العتبة العباسية المقدسة
المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية

دراسات نسوية : بحوث تأصيلية ونقدية حول قضايا المرأة والاسرة : الاسرة / مجموعة مؤلفين ؛ اشراف سماحة السيد احمد الصافي.- الطبعة الأولى.-النجف، العراق.-العتبة العباسية المقدسة، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، ١٤٤٥ هـ. = ٢٠٢٤.
٥٥٩ صفحة : مخططات ؛ ٢٤ سم.-(سلسلة دراسات نسوية)
يتضمن إرجاعات ببليوجرافية.
ردمك : ٩٧٨٩٩٢٢٦٨٠٢١٧
١. الأسرة في الاسلام. أ. الصافي، احمد، 1383 هجري- مشرف. ب. العنوان.

LCC : BP188.3.F3 .D57 2024
مركز الفهرسة ونظم المعلومات التابع لمكتبة ودار مخطوطات العتبة العباسية المقدسة
فهرسة اثناء النشر

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٧٠٦) لسنة (٢٠٢٤م)

دراسات نسوية: الأسرة

إشراف: سماحة السيد أحمد الصافي

الهيئة العلمية: السيد ليث الموسوي، السيد هاشم الميلاني، الشيخ حسن الهادي، السيد محسن الموسوي

مدير التحرير: الشيخ حسين إبراهيم شمس الدين

تأليف: مجموعة باحثين

الناشر: العتبة العبّاسيّة المقدّسة / المركز الإسلاميّ للدراسات الاستراتيجيّة

الطبعة: الأولىٰ، ٢٠٢٤ م

www.iicss.iq
islamic.css@gmail.com

المحتويات

مقدّمة المركز ٩

الفصل الأول: قضايا الأسرة في الإسلام

الأسرة في الإسلام / فريبا علاسوند ١٣
١. التعريف والأهمية ١٣
٢. الأسرة مؤسسة طبيعية أم تاريخية؟ ١٥
٣. بنية الأسرة ٢٠
٤. فعاليات الأسرة وتطبيقاتها ٢٥
٥. عوامل متانة الأسرة ٣٠

ماهية العائلة وخصوصياتها ووظائفها / محمود حكمت نيا ٣٧
القسم الأول: ماهية العائلة ٣٧
القسم الثاني: خصوصيات العائلة ٣٩
القسم الثالث: وظائف الأسرة ٥٣

سبل الإسلام لرقيّ أداء الأسرة ونموّها / محمدرضا سالاري‌فر ٩١
أوّلًا: دور المعتقدات الدينيّة في الأسرة ٩١
ثانيًا: الوصايا الأخلاقيّة لرفع فاعليّة الأسرة ٩٨
ثالثًا: تعاليم الإسلام العمليّة لرفع فاعليّة الأسرة ١٠٥
رابعًا: أهم استراتيجيّات سلامة الأسرة وتحسين فاعليّتها من منطلق الإسلام ١١٦

محاولة نظرية لبناء نموذج إسلامي للاستقرار العائلي / حسين بستان النجفي ١٢٧
العوامل المؤثرة على الاستقرار الأسري في النصوص الدينية ١٣٠
١. توفير الاحتياجات الطبيعية للزوجين ١٣٤
٢. الخصائص الفردية للزوجين ١٤٣
٣. بنية الأسرة ١٤٧
٤. خلفيات تكوين الأسرة ١٥٢
٥. العوامل الاجتماعية ١٥٣

المرأة والأسرة في إطلالة على سُنّة النبي الأكرم / محمدرضا زيبائي نجاد ١٦٣
١. تغيير الأفكار في الثقافة الجاهلية ١٦٣
٢. رسم هوية المرأة ١٧١
٣. حماية الأسرة ١٨١

الفصل الثاني: قضايا الأسرة في الفكر الغربي

الأسرة وتيّار مناهضة النسوية في الغرب / غيضان السيد علي ٢١١
أوّلًا: أشكال الأسرة ووظائفها ٢١٢
ثانيًا: الأسرة وتاريخ الحركة الأنثويّة ٢١٥
ثالثًا: الأصول الفكريّة للحركة النسوية والتمرّد على النظام الأسريّ ٢٢٠
رابعًا: تفكيك الزواج والأسرة ٢٢٦
خامسًا: تيار مناهضة الأنثويّة في الغرب ومناصرة الأسرة ٢٢٨
النقد المنظّم لكلّ دعوات الحركة النسويّة ٢٣١
إقرار الفروق الفطريّة بين النوعين ٢٣٢
دعم النظام الأخلاقيّ في الأسرة والمجتمع ٢٣٣
التكامل بين الرجل والمرأة ٢٣٤
الاحتفاظ بالأدوار التقليديّة للجنسين داخل الأسرة ٢٣٥
سادسًا: هل توافق تيار مناهضة الأنثويّة في الغرب مع تعاليم الدين الإسلاميّ؟ ٢٣٥

نقد الغرب وأنظمته في الحياة والعلاقات الأسريّة / سارة دبوسي ٢٤٣
أولًا: في التعريف بالفضاء الغربيّ ٢٤٤
ثانيًا: ما المقصود بالغرب؟ ٢٤٥
ثالثًا :قراءة في واقع العلاقات الأسريّة الغربيّة ٢٤٦
رابعًا: عوامل تغيير الأسرة الغربيّة ٢٤٩
خامسًا: الحركات النسويّة الغربيّة والتيّار اللادينيّ ٢٥٨
سادسًا: الأسرة الغربيّة من المعنى إلى اللامعنى ٢٦١
سابعًا: التفكك الأسريّ الغربيّ على محكّ النقد ٢٦٣

الحركة النسويّة وتحدّيات الأمومة / سهيلة صادقي فسائي ٢٧١
الأمومة، الاتجاهات والآراء ٢٧٤
النسويّة والأمومة ٢٧٦

التغلّب على بيولوجيّة التناسل والإنجاب: التناقضات والتحدّيات ٢٨١
الأمومة والإسلام والنسويّة الغربيّة ٢٨٥

الأسرة الغربية الحديثة / رامز أحمد **٣٠١**
بمثابة مقدمة: ثلاث فرضيّات أساسيّة ٣٠١
أولًا: تحوّلات وعوامل: الثورة الصناعيّة ٣٠٦
ثانيًا: العائلة الحديثة: سمات وخلاصات ٣١٧

الفصل الثالث: قضايا الأسرة على ضوء العلوم الإنسانية

التمييز بين الجنسين في الأسرة / حسين بستان النجفي **٣٢٩**
الإختلافات الجنسيّة الطبيعيّة ٣٣٠
القبول الإجتماعي للأدوار الجنسية ٣٣٦
تقسيم العمل المنزليّ ٣٤٩
تقسيم السلطة في الأسرة ٣٦٤
العنف الجنسيّ في الأسرة ٣٧٦

ثبات الأسرة واستقرارها / حسين بستان النجفي **٣٩٥**
١. قداسة العلاقة الزوجية ٣٩٦
٢. حسن الاختيار ٣٩٨
٣. الزَّواج الاختياريّ ٤٠٢
٤. التوقُّعات المعقولة ٤٠٣
٥. الجمال والتَّزيُّن ٤٠٤
٦. الإشباع الجنسيّ ٤٠٦
٧. المحدوديَّة في العلاقات الجنسيَّة ٤٠٨

تقييم حدود الأسرة في علم النفس / جعفر هوشياري ومحمد مهدي صفورائي باريزي **٤١٥**
مفهوم الأسرة ٤١٨
حدود الأسرة في علم النفس ٤١٩
أنواع حدود الأسرة ٤٢٠
تقييم ونقد الحدود في علم النفس ٤٢٦
حدود الأسرة من وجهة نظر الإسلام ٤٣١

دور الأسرة في الحدّ من الانحرافات الاجتماعية / شمس الله مريجي **٤٥٣**
١. أهمية الحياة الاجتماعية ٤٥٣
٢. أسباب الانحراف ٤٥٥
٣. التنشئة الثقافية ٤٦٠
٤. أساليب الأبوين في التنشئة الثقافية ٤٧٢

النسبة بين حجاب المرأة والتماسك الأسري في التعاليم الدينية / سعيد نظري توكلي **٤٨٧**
الدوافع العاطفية / النفسية في تكوين الأسرة ٤٨٨
القوانين الدينية واستحكام الأسرة ٤٩٥

دور الأسرة في التنمية الثقافية / حميد پارسانيا وعبد الله زكي **٥٢٣**
١. جذور البحث ٥٢٦
٢. المفاهيم ٥٢٨
٣. المباني النظرية ٥٣٣
٤. عناصر التنمية الثقافية ٥٣٧
٥. خصائص الاعتماد الثقافي على النفس ٥٣٩
٦. أسلوب التحقيق ٥٤٠
٧. بحث وتقييم دور الأسرة في التنمية الثقافية على أساس التعاليم الإسلامية ٥٤١

مقدّمة المركز

بعد مضي عشرات العقود من مواجهة العالم الإسلاميّ الحداثةَ الغربيّة، وما دار من سجالٍ محتدمٍ بين مختلف التيّارات الموافقة أو المخالفة، أصبح المكنز الإسلاميّ غنيًّا بالمعلومات والتجارب سواء في الجانب التأصيليّ أم النقديّ لدفع الشبهات المثارة على المبادئ. وقد آن الأوان لتقديم مشاريع ودراساتٍ فكريّةٍ وثقافيّةٍ تأصيليّةٍ ونقديّةٍ غير منفعلةٍ في جميع الميادين، وبالاعتماد على النصّ الدينيّ والتراث الفكريّ الذي أنجزهُ علماء الإسلام.

ولم يكن موضوع المرأة والأسرة بمعزلٍ عن ذلك الجدل الواسع القائم بين الفكر الإسلاميّ والتيّار العلمانيّ في العالم الإسلاميّ، بل ربّما يتصدّر موضوع المرأة والأسرة موضوعات ذلك الجدل، وقد بدأ مبكرًا في طليعة الأزمات المتولّدة جرّاء الغزو الفكريّ والثقافيّ والعسكريّ الغربيّ على العالم الإسلاميّ.

من هذا المنطلق جاءت هذه السلسلة (دراساتٌ نسويّة) لتلقي الضوء على هذا الأمر المهمّ، وتشارك سائر الأعمال المنشورة من قبل الفكر الإسلامي في تأصيل هويّة المرأة المُسلِمة، والدفاع عنها، وردّ الشبهات المثارة ضدّها، ولتكوين تراكمٍ معرفيٍّ نظريّ، وبناء جيلٍ ذي بنيةٍ معرفيّةٍ وسلوكيّةٍ رصينة، يحافظ على هويّته الدينيّة، ويتطلّع نحو المستقبل الزاهر باعتماد عناصر القوّة في الماضي والحاضر.

تنهضُ هذه السلسلة بأقلام الباحثين تأليفًا وترجمةً، على نحو ملفّاتٍ بحثيّةٍ، يحملُ كلُّ مجلّدٍ منها أو أكثر عنواناتٍ خاصّةً تعالج الموضوعات المتّصلة بالمرأة والأسرة برؤيةٍ دينيّةٍ معاصرة، تسهم في إثراء البعد النظريّ إلى جانب الأبعاد العمليّة التي تقوم بها العتبة العبّاسيّة المقدّسة في المجال النسويّ، والتي أسهمت في إزاحة بعض ما علق بشباب وفتيات اليوم من شوائب العولمة الحديثة.

وبعد صدور الجزء التجريبي من السلسلة بعنوان « دراسات نسوية: المفاهيم والكليات» نقـدّم للقرّاء الأعزاء الجـزء الأول الذي بين أيدينـا، حيث تمت معالجـة القضايا المرتبطة بالأسـرة فيه، مراعين بذلك المسـائل التي تحتل الصدارة في النقاش الفكري المعاصر، من قبيل أسـس استحكام الأسرة واستقرارها، الرؤية الإسلامية المستندة إلى الأيات والروايات حول الأسـرة، نقد الفكر الغربي المعاصر حول العلاقة بين الزوجين، الأمومة...وغيرها من القضايا.

ولا بدّ في الختام من شـكر الأخوة العاملين في مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسـلامي على ما وفّروه لنا من مواد بحثية منشـورة في بعض الكتب الصادرة من قبلهم، حيث وجدنا أن هـذه الفصول – التي أشـرنا في هامـش كل منها إلى مصدرها الدقيـق– تغطي جزءًا من الموضوعات التي أردنا أن نغطيها في هذا الكتاب.

وقد قسّمنا هذا الكتاب إلى ثلاثة فصول مركزية:

الفصل الأول: ويشـتمل علـى جملة من المعالجات المهمة لقضايا الأسـرة على ضوء المتون الأصيلة الدينية.

الفصل الثاني: وهو فصل خاص طرحنا فيه قضايا الأسرة في الفضاء الغربي مع نقده.

الفصل الثالث: هو الفصل الذي ذكرنا فيه جملة من القضايا المرتبطة بالأسرة على ضوء العلوم الإنسانية كعلم الاجتماع وعلم النفس.

وآخـرُ دعوانا أنْ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصلاةُ والسـلامُ على رسـولِه الأمين، وآلِهِ الميامين.

الفصل الأول:
قضايا الأسرة في الإسلام

الأسرة في الإسلام[1]

فريبا علاسوند[2]

تمهيد

تُمثل الأُسرة أســاس المجتمع ونواته، ولها منزلة مهمة في الشريعة الإسلامية فهي ثمرة اتحاد الجنســين، الذكر والأنثى، عَبر رابطة الزواج الطبيعية، أما هيكل ذلك الأساس فيتألف مــن مراتب ودرجات إذ تســتند إدارته إلى القانون الإلهي. وللأُســرة فوائــد ومنافع مختلفة ومتعددة أهمها التكاثر والسكينة، كما إن مسألة الحفاظ على الأسرة وتمتين قواعدها وتثبيت أركانها – التي تقع على عاتق أعضائها وعلى المؤسسات الإجتماعية على حدّ سواء – تؤدي إلى تثبيت الأنظمة الإجتماعية الأخرى كذلك.

١. التعريف والأهمية

تختلــف آراء علماء الإجتماع حول تعريف الأُســرة، فمنهم من يؤكد التعريف التقليدي المعروف لها غالبًا ما تشــمل تلك التعاريف الأسَــر المركزية المُتغايرة الجنس القائمة على أســاس رابطــة الدم (الوالديــن والأبناء والأخــوات والإخوة».[3] وفي مقابل هؤلاء يســعى علماء اجتماع آخرون إلى التوســع في تعريف الأُسرة[4] ليشمل كل أنواع التعايش المحدودة

---

١. هذا البحث مستلّ من كتاب المرأة في الإسلام الصادر عن مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ٢٠١٧م. (المبحث الأول من القسم الثاني)، من صفحة ٢٣٥ إلى صفحة ٢٥٩.

تعريب: أحمد الموسوي وعباس جواد.

٢. استاذة في الحوزة العلمية في قم المقدسة.

٣. ساروخانی، مقدمه‌ای بر جامعه‌شناسی خانواده، ص ١٣٤.

٤. ومن ذلك التعاريف الآتية للأسرة:

-«الأســرة هي مجموعة من الأفراد الذين تربطهم علاقة الزواج أو الــدم أو التبني (كتبنّي الأطفال من غير أعضاء

بالجُدران).[١]

ومن وجهة نظرنا فإن للأسرة تعريفًا واضحًا في أذهان العلماء والأفراد الآخرين بصرف النظر عن الوقائع الخارجية، ومن الأركان الأساسية للأُسرة في التعريف المذكور ما يأتي:

١. أن تنشأ الأُسرة بواسطة العلاقة التي تربط بين شخصيْن من جنسين مختلفيْن والتي تتمثل بما يُسمى بالزواج القانوني.

٢. أن يشكل الزوجان الأسرة بهدف استمرارها وبقائها.

وتُعتبر الأُسرة الوسيلة المُثلى للتكاثر والمؤسسة الأكثر انتشارًا في المجتمع فهي (أي: الأسرة) تضمن إنتاج القوى البشرية العاملة في المجتمع، وعليه، فإن سلامة جميع أعضائها (وخاصة الأبناء) من كل النواحي تؤثر تأثيرًا كبيرًا على سلامة المجتمع بأكمله.

الأسرة) بمنزلة الزوج أو الزوجة أوالأم أوالأب أو الأخ أو الأخت ويعيشون في مكان مُعيّن لينتجوا ثقافة مشتركة». (ساروخانى، درآمدى بر دايره المعارف علوم اجتماعى).

«الأسرة هي مجموعة من الأفراد الذين تربطهم علاقة الزواج أو الدم أو التبني (كتبنّي الأطفال من غير أعضاء الأسرة) بمنزلة الزوج أو الزوجة أوالأم أوالأب أو الأخ أو الأخت ويعيشون في مكان مُعيّن لينتجوا ثقافة مشتركة». (م.ن).

- «الأسرة هي مجموعة من الأشخاص الذين تربطهم علاقات جنسية محددة وثابتة بحيث تؤدي تلك العلاقة إلى التكاثر وتربية الأطفال». (م.ن).

-«الأسرة هي مجموعة من أفراد المرتبطين بعضهم ببعضهم الآخر بواسطة علاقة الزواج أو الدم اوالتبني(أو أي علاقة جنسية أخرى محددة وثابتة) وتشتمل على الشروط الآتية: قبول الإلتزام والتعهد في ما بينهم ضمن إطار العلاقة الفردية الحميمة والاهتمام بالهوية الجماعية والاعتراف بالهوية المستقلة للجماعة». (أنظر: جاس، رشد انسان: روانشناسى رشد از تولد تامرگ، ص ٢٣٨).

١. يحاول بعض ومن خلال استبدال كلمة «الأسرة» (Family) بمُصطلح «أهل البيت» (Household) إدخال معان ومفاهيم أخرى للأسرة ضمن التعريف مثل الإشارة إلى أي علاقة خاصة داخل البيت الواحد بما في ذلك العلاقات المذكورة والعلاقة المتمثلة بوجود أب واحد للأبناء أو العلاقة القائمة بين الجنس المماثل والعلاقات الجماعية الأخرى وغيرها. ومن وجهة نظر هؤلاء فإنه ينبغي علينا التوسع في تعريف الأسرة بسبب وجود العلاقات الواقعية كالتي ذكرناها في أعلاه، بحيث يكون التعريف الجديد متناسبًا مع نظرة ما بعد الحداثة ليشمل التعريف المذكور كذلك النظريات السياسية والبرامج التي تشمل الأفراد المعنيين بهذا النوع من العلاقة. (أنظر: برناردز، درآمدى به مطالعات خانواده، ص ٥٣-٦٤).

وتحظى الأسـرة بأهمية استثنائية في مُعظم المذاهب والأديان، فمن وجهة نظر بعض علماء الأنثروبولوجيا فإن الأُسـرة تُمثـل وحدة تضم أفرادًا تربطهم معًا علاقـات عاطفية مختلفة، وهي ملاذ وملجأ آمِن للأفراد، وإذا تفرّق أفراد الأُسـرة فإن باستطاعتها جمعهم ولمّ شملهم تحت سـقفها وتعزيز التعاون والمشـاركة في ما بينهم.[١] ويعتقد إدغـار مورن مؤلف كتاب «الهوية الإنسانية» بأن الأُسرة ما زالت تُمثل المركز النفسي الأساس، فاسم الأسرة يُحدّد هوية الأفراد الشـخصية، وتلعب الأسرة في السـنوات الأولى من تأسيسها دورًا رئيسًا في تشكيل شـخصية الأبناء وتقرير مصيرهم في المسـتقبل، ناهيك عن أن شخصية كل من الأب والأم تظل محفورة في ذاكرة الأبناء ونفوسهم إلى آخر لحظة من حياتهم.[٢] وماتفتأ الأديان الإلهية تؤكد أهمية الأسـرة أكثر من أي مصدر إنساني آخر، وفي الإسـلام يُعد الزواج – الذي يعدُّ حجر الزاوية بالنسبة إلى الأسرة- أهمّ بنية اجتماعية على الإطلاق.[٣]

هذا، ويتم تقييم الأفراد داخل الأُسـرة بحسـب مواقعهم فيها، فالوالدان، وخاصة الأم، يتمتعان بمكانة خاصة، وفي المذهب الشيعي أكدت الروايات اتخاذ آل البيت عليهم السلام المعصومين قدوة وأسـوة للعلاقات والروابط الأسرية الإنسـانية حيث يكتسب كل عضو في هذه القدوة (سواء في ذلك الأب والأم والجدّ والجدَّة والولد والبنت) أهميته الخاصة حسب موقعه فيها كما إن لكل من أولئك مسؤولياته الخاصة تجاه الآخرين.

٢. الأسرة مؤسسة طبيعية أم تاريخية؟

عندما نقول إن منشـأ الأُسرة طبيعي فمعنى ذلك أن أسـاس تشكيلها يتوقف على المَيل نحو الجنس الآخر كما إن بنية الأسرة بحكم الطبيعة هي بنية تتألف من سلسلة من الدرجات والمنـازل وبحاجة إلى مُدير واحد. لكن ههنا سـؤالًا يطرح نفسـه وهو: مـا هي الإلزامات المترتبة على الأسرة إذا كان منشؤها طبيعيًا؟

---

١. مورن، هويت انسانى، ص ٢٢٠.

٢. م.ن، ص ٢٢٢.

٣. قال رسـول الله صلى الله عليه وآله: «ما بُني بناء في الإسـلام أحَبّ إلى الله تعالى من التزويج» (الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ٣٨٣).

إن وجود جذور طبيعية للأسـرة وبنيتها تجعل منها وجودًا قابلًا للدفاع، ويرى بعض أن كون مصدر الأسرة طبيعيًا دليل على قُدسيتها، وهذا ما نلاحظه كذلك في الديانة المسيحية،[١] لكن في الدين الإسـلامي فإن كون الشـيء طبيعيًا لا يوجب قُدسـيته إلا فـي بعض الموارد عندما يكون ذلك الشيء الطبيعي موجبًا للسعادة ومحبوبًا عندئذٍ يكتسب ذلك الشيء الصفة الطبيعية والقُدسـية معًا. وتضم النصوص الدينية في هذا الشـأن الكثير من الأدلة التي سوف نشير إليها في السطور القادمة.

لا شـك في أن نقطة البداية بالنسـبة الى الإسـرة هي الزواج، وفي القرآن الكريم تُعرَّف الزوجيـة بأنها المبدأ العام للخلـق، مثل قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ كُلِّ شَـيْءٍ خَلَقْنَـا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾.[٢]

وتشير آيات أخرى إلى أن الإنسـان ليس مخلوقًا مُستثنى من هذه القاعدة: ﴿**وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا**﴾.[٣]

ثم إن هذه العلاقة المسـندة إلى إرادة الله سـبحانه ومشـيئته ينبغي أن تكون بين جنسيْن مُخالفيْن: ﴿**وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا**﴾.[٤]

وأن العلاقـة المذكورة التي تسـتند إلى إرادة الله تعالى التكوينية والتشـريعية تؤدي إلى السعادة والطمأنينة والسكينة: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾.[٥]

---

١. تشـير النصوص في الديانة المسيحية إلى أن حُب الزوج لزوجته وحبها لزوجها هو تجلّ لحب الله تعالى، كما إن خلق السيدة حواء عليها السلام لتكون زوجة لسيدنا آدم عليه السلام ووحدتهما معًا تحت مظلة الزواج والفروق الطبيعية الموجودة بين كل منهما إلى جانب تكاثرهما من خلال الولادة، هي ثلاثة مبادئ مهمة للأسرة في الديانة المسيحية (انظر: McArthur, *the Fulfilled Family & God's Design for Your Home*, P: X-XIII)

٢. الذاريات: ٤٩.

٣. النبأ: ٨.

٤. النحل: ٧٢.

٥. الروم: ٢١.

وهكـذا، فإن الأُســرة في أولــى خطواتها تُمثل الأرضيــة التكوينية والجـذور العاطفية والروحية، فالميول العاطفية والاحتياجات الجســدية التي يمكن إشباعها وتلبيتها عَبر رابطة الزواج يمكنها أن تضفي الراحة والطمأنينة، فضلًا عن أن الزواج هو عامل رئيس لزيادة النسل والتكاثر، وعليه، فإن عدم وجود وسيلة أو طريقة أخرى لبقاء الجنس البشري سوى الزواج بين الرّجل والمرأة يدلّ على كون هذه العلاقة هي علاقة طبيعية وهو ما يزيد من قوتها ومتانتها.

ويشير القرآن الكريم إلى أنّ الرغبة في الجنس المماثل هو انحراف وخروج عن الطريق السّــويّ، وفي الآية ٢٩ من ســورة العنكبوت وعلى لسان سيِّدنا لوط عليه السلام وهو يخاطب قومه الفاسقين، يقول (عزّ وجلّ): ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾.

وذكر المُفكِّرون المســلمون في هذا الباب أقوالًا سديدة، فالعلامة الطباطبائي رحمه الله يرى أن تشــكيل الأسرة قائم على أســاس الحاجات الطبيعية لدى كل من الرجل والمرأة، ويعلّق على ذلك بقوله: «خلق الله ســبحانه النســاء وجهزهن بما يوجب أن يســكن إليهن الرجال وجعل بينهم مودة ورحمة فاجتذبهن الرجال بالجمال والدلال والمودة والرحمة فالنساء هنّ الركن الأول والعامل الجوهري للإجتماع الإنساني... فبدأ بأمر ازدواج الذكر والأنثى وظهور التناسل بذلك ثم بنى عليه الإجتماع الكبير المتكون من الشعوب والقبائل».[١]

ومن ناحيــة أخرى وبحكم الطبيعة، فــإنّ زواج الرجل والمرأة ينجم عنه وجود النســل والأبنــاء؛ ولهذا يُقال إن الهدف الطبيعي من الزواج هو التكاثر والتوالد والنّســل. ولا يمكن إيجاد النســل البشري إلا بواســطة الزواج الطبيعي بين جنســيْن مختلفيّن (الرجل والمرأة). وقد اشار الأستاذ محمد تقي مصباح اليزدي إلى بعض المبادئ والأهداف المتعلقة بالأُسرة وتكوينهــا منها ما هو طبيعي كمبدإ تلبية الحاجة الجنســية أو ومبدإ تلبية الحاجات العاطفية وأهداف أخرى مثل النســل والتكاثر.[٢] وأما الأستاذ الشهيد مرتضى مطهّري فيرى كذلك أن الحياة الأســرية هي حياة طبيعية مئة بالمئة؛ لأن الإنسان وبشكل طبيعي يُعتبر منزلًا مخلوقًا،

١. الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ٤، ص ٢١٦-٢١٧.
٢. مصباح اليزدي، مشكات، ص ٣٠٦-٣١٦.

ويعتقد أيضا أن الطبيعة أوجدت بعض الوسائل والحالات التي من شأنها أن تحثّ الإنسان وبعض الحيوانات الأخرى على العيش كأُسَر والتوالد والتكاثر.[١] ويؤكد الشهيد مطهري أن أساس كون هذه العلاقة طبيعية هو الاختلافات والفروق الطبيعية التي اقتضتها المشيئة التكوينية في وجود كلّ من الرجل والمرأة.[٢]

وفي مقابل النظرية التي تقول إن العلاقة الزوجية هي علاقة طبيعية، ثمة نظرية أخرى تعتبر الأسرة ظاهرة تاريخية، واستنادًا إلى هذا فإن الأسرة تُمثّل مجرّد مؤسسة عقدية يتم تأسيسها وفقًا للاحتياجات والظروف القائمة في وقت مُعيّن وبأشكال مختلفة ومتفاوتة. وعلى مدى التاريخ بنى الإنسان الأسرة نظرًا إلى الحاجات والظروف التي تُفرض على حياته. هذا، وقدم مؤيدو هذه النظرية الكثير من التفسيرات والتحليلات حول هذا الموضوع، على سبيل المثال، يستند الماركسيون في تحليل ماهية الأسرة إلى المبدإ العام الخاص بتحليل جميع المواضيع، ويدّعي هؤلاء أن الملكية الخاصة وأساليب إنتاج رؤوس الأموال والمحافظة عليها أدّت إلى قيام الرجال بتأسيس الأسرة بأشكال وأنماط مُعيّنة تتناسب مع تلك الأغراض حيث يصبح الرجال في تلك الأنماط الأسرية هم المالكون للأسرة وتتخذ العلاقة الزوجية شكلًا حصريًا بين فردَيْن مختلفَيْن في الجنس.[٣] وكما نلاحظ فإن هذه الرؤية تتنافى تمامًا مع التعاليم الإسلامية والآيات القرآنية الشريفة التي أشارت إلى زواج سيّدنا آدم عليه السلام مع السيدة حواء عليها السلام في بداية خلق الإنسان واعتبار الزواج عمومًا بين الرجل والمرأة سنّة إلهية وطبيعية.

وتشير بعض الآراء الإجتماعية إلى قيام الأفراد – واستنادًا إلى حاجاتهم- بالاتجاه نحو تشكيل الأسرة بأنماط مُعيّنة كالأسرة الممتدة (Extend Family) أحيانًا أو ما يسمى بالأسرة النووية في أحيان أخرى، وفي الوقت الحاضر مثلًا ظهرت أنواع أخرى من الزيجات كزواج المساكنة (Cohabitation Non Marital Family). وبصرف النظر عن أفضلية نمط أو رجحان

١. مطهری، نظام حقوق زن در اسلام، ص ١٤٩-١٥٠.

٢. م.ن، ص ١٥٣، فما بعد.

٣. أنجلز، منشا خانواده مالکیت خصوصی ودولت، ص ٨٥، ٨٩، ١٠٦-١٠٩، ١١٦.

آخر، فإن مؤيدي هذه الفكرة يرون أن الأسرة تمتلك واقعًا متطورًا ولا يؤمنون بوجود الأسرة المثاليــة أو النموذجيــة (pattern) وأن الحديث عن الأســرة كواقع حقيقــي إنما هو حديث مُضلّل.[١]

وتجدر الإشــارة إلــى أن هؤلاء يغفلون باســتمرار عن وجود الأســرة وثباتها بشــكلها التقليــدي مع وجود التغييــرات، وبعبارة أخرى: فإنه على الرغم من ظهور أنماط وأشــكال متعددة للتعايش في المجتمعات تبقى الأســرة القانونية والمؤلفة من جنسيْن مختلفيْن قائمة وباقية كما إن ظهور الأشكال المذكورة لم يؤثر في قيمة الأسرة الحقيقية.

هذا، ويؤيد بعض المفكِّرين المســلمين الجُدد كذلك فكرة كون الأســرة هي مؤسســة تعاقدية، فعلى ســبيل المثال، يقول بعض أولئك: «لا يمكننــا إقامة دليل محكم على وجود سلسلة من الأنظمة الطبيعية في هذا العالم (بما في ذلك النظام السياسي والنظام الإقتصادي والنظام الأُســريّ) تتناسب مع خريطة الخلقة، وفي مقابل ذلك توجد أدلة كثيرة تتعارض مع هذا الأمــر».[٢] ويبدو بطبيعة الحــال أن الفئة الأخيرة لا تتفق مع مُنتقدي (الأســرة الطبيعية) الغربيين في جميع الجوانب فنظرة هؤلاء حول كون منشــإ الأســرة هو منشــأ تاريخي تعود في الأســاس إلى هيكلية الأســرة ونظامها الحقوقي مثل نمط تشكيل الأسرة وزعامة الرجل ومسؤولية المرأة داخل الأسرة وما شابه ذلك.

وجدير بالذكر أنه مع وجود هذه النظرية تبقى مســألة كون منشــإ الأسرة هو منشأ طبيعي هي الشــائعة والســائدة، وقد نقل جون برناردز في كتابه «الأســرة والزواج في بريطانيا» عن رونالد فليتشــر(Ronald Fletcher) قوله: «تتمركز الأسرةالإنسانية حول الميول والحاجات البيئية والمعيشــية والتزاوج والتكاثــر وتربية الأبناء ورعايتهم».[٣] ولا شــك في أن مثل هذه الأحكام التي نجدها في كُتب الاجتماع القديمة والمعاصرة متوفرة بكثرة، وفي هذه الأحكام

١. برناردز، درآمدس به مطالعات خانواده، ص ٧٩-٨٨.

٢. مجتهد شبستری، نقدی بر قرائت رسمی از دین، ص ٥٠٢.

٣. برناردز، درآمدی به مطالعات خانواده، ص ٢٦-٢٧.

تمثل المسائل الطبيعية منشأ تشكيل الأسرة، ولعل الجوانب الحياتية والتطبيقات الأسرية هي السبب في منع استمرار بقاء النظرية التي تدّعي بأن منشأ الأسرة هو عقدي أوتاريخي في مقابل كونه منشأً طبيعيًا.

ويؤكد بعض علماء الإجتماع أيضًا قائلين: «إن الجوانب الحياتية والأخلاقية بل وحتى التاريخية (الثبات والاستمرار) أدت بالعلوم الاجتماعية التي تُعتبر في الأصل علومًا نقدية وراديكالية إلى الحفاظ على المسافة في ما بينها وبين الأسرة والتقليل من نَقدها إيّاها[١].

٣. بنية الأسرة

يوجد العديد من الآراء والنظريات في الوقت الحاضر حول ماهية بنية الأسرة، ومنها ما يأتي:

نظام زعامة الأسرة وفقًا للقانون الإلهي

إن النظرة الإسلامية الشائعة حول بنية الأسرة هي أنها – وبشكل طبيعي- تُمثل نظامًا مكونًا من سلسلة من الرتب والقيادة، ومعنى هذا أن الأسرة هي عبارة عن منظومة يُديرها شخص ما برتبة (مُدير) يمتلك حق اتخاذ القرار النهائي بشأنها وتقع على عاتقه مسؤولية تمشية أمورها ومتابعتها. واستنادًا إلى هذه النظرة فإن الشخص المذكور (وهو المدير) هو رجل الأسرة، ونعني بذلك الزوج، حيث تتجلّى زعامته للأسرة في محوريْن أساسيّيْن هما:

القيمومة

تشير كلمة «القيمومة» إلى العلاقة بين الرجل والمرأة، والقرآن الكريم مصدر هذه القيمومة حيث يقول تعالى: ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ**﴾.[٢] فعندما تأتي كلمة «القيمومة» مع حرف الجرّ «عَلَى» فإنها تشمل معنى

---

١. م.ن، ص ٢٥-٢٦.

٢. النساء: ٣٤.

الإعالة والولاية وحمل مسؤوليات أخرى كذلك،[١] وثمة فروق واضحة بين كلمتي «القيمومة» و«الولاية» كمصطلحيْن حقوقيّيْن، فالولاية تعني تسلط المولى على مولاه وحقّه في التصرف بأمواله، وهي (أي: الولاية) تختلف عن معنى القيمومة، ومن الواضح أن الرجال لا يملكون مثل هذا الحق على نسائهم في التصرف أو التسلط، ووفقًا للآراء الفقهية فإن للمرأة الحق في التصرف بأموالها بشكل مستقل عن الزوج.

وبالنظر إلى أن حكم ولاية الزوج يستلزم طاعة زوجته له فقد صرّح بعض الفقهاء بأن قوامة الولاية قائمة على الطاعة.[٢]

وبعبارة أخرى: فإن قوامة الرجال تتمثل في إدارة الأسرة ورئاستها،[٣] ويقتضي هذا الأمر تمكين أعضاء الأسرة الزوج وإذعانهم لقوّاميته وامتثالهم لقراراته وأوامره التي يفرضها عليهم، بمّن فيهم الزوجة. ومن المعلوم أن هذه القِوَامة إنما هي للمحافظة على مصالح الأسرة وأعضائها، ومن خلال احترام المرأة لهذه السلطة والتمسّك ببنودها فإنها تساهم في دَعمه ومساعدته من أجل استقرار أركان الأسرة واستمرار بقائها. واما الزوج، فعليه اعتبار زعامته وولايته للأسرة ميزة حقوقية وفرصة ينبغي استغلالها لرفع مستوى الأسرة ماديًا ومعنويًا. وقد نبّهت الروايات الإسلامية الزوج إلى ضرورة أن يحافظ على قدرته وسلطته على زوجته وأن ذلك أفضل له من أن تراه ضعيفًا ومنكسرًا،[٤] وهذا يعني أن الزوج الذي يكون في هيئة الحامي المقتدر لأسرته يساعد على تعزيز استناد زوجته إليه وإتّكائها عليه.

---

١. ابن منظور، لسان العرب، ج ٥، ص ١٩٢.

٢. الحسيني المراغي، العناوين الفقهية، ج ٢، ص ٥٥٧-٥٥٨.

٣. لكن ينبغي هنا التأمل في ما إذا كان بالإمكان اعتبار الآية ٣٤ من سورة النساء دليلًا قيادة زعامة الرجل للأسرة أم أنه يجب علينا البحث عن دليل آخر غير ذلك؟ خاصة إذا ما علمنا أن الآية المذكورة تشير فقط إلى العلاقة التي تربط بين الرجل والمرأة.

٤. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ١٢٠.

الولاية

تتألف الأسرة من الزوج والزوجة والأبناء، ويخضع الأبناء لولاية الأب وزعامته(باعتباره القيِّم عليهم) إلى حين البلوغ الشرعي، وما دام الأبناء قاصرين فإنه لا يحقّ لهم التصرُّف في أموالهم أو اتخاذ قرار ما بشـأن حياتهم الشخصية. وخلال تلك المرحلة يتعيَّن عليهم جميعًا اتباع أوامر الأب (أو جدّهم لوالدهم أو القيّم الشـرعي عليهم)، وهكذا، فإن سـلطة الولاية نافذة وسارية على الأبناء لا محالة.

الديمقراطية داخل الأسرة

تعتبر هذه الرؤية أن الأسـرة ليس لها رئيس أو مُدير مُعيّن –سـواء أكان رجلًا أم إمرأة– ولاريـب في أن تصوّر مثل هذا الوضع ليس ممكنًا إلا بعد أن نبحث بدقة في نظرية الأسـرة الديمقراطية. ومن المؤيدين لهذه النظرية عالم الاجتماع المعاصر أنطوني غيدنز حيث يرى أن الضرورة تقتضي إدارة الأسرة على أساس مبدإ المساواة والديمقراطية، كما يعتقد أنه من غير الممكن التنازل عن مبدإ المساواة بين الرجل والمرأة.[١] وفي مثل هذه الأسرة ينبغي لكل من الزوج والزوجة النّقاش والبحث من أجل الوصول إلى قرار مشترك، وللأبناء داخل هذه الأسرة كذلك الحق في المشاركة في اتخاذ القرارات التي تمسّ أمورهم الشخصية وهم في ذلك متساوون مع الوالديْن.

ولنقد هـذه النظرية نقول إن إقحام الأبنـاء في اتخاذ القرارات المشـتركة أمر غير مُتاح دائمًـا خاصة إذا ما علمنا أن المبدأ الآخر الذي يدعو إليه غيدنز هو الاسـتقلال،[٢] فاسـتنادًا إلـى النظرية المذكورة فإن أيًّا من الوالدين لا يُعتبر – من الناحية القانونية – المرجع الرئيس لاتخاذ القـرارات، وفي العديد من الحالات قد لا يصل الـزوج والزوجة إلى إدراك أو فهم مشـترك لموضوع ما، إذن، ووفقًا لهذه النظرية، سيبقى أعضاء الأسرة رهن النقاش والبحث

١. غيدنز، راه سوم بازسازى سوسيال دموكراسى، ص ١٠٤.
٢. م.ن، ص ١٠٥.

والجدال والاختلاف في وجهات النظر ولن تلوح في الأُفق أي إشـارات لانتهاء تلك الحالة المضطربـة، ولا ريب في أن الاختـلاف حول بعض الأمور قد يضرّ فـي القدرة على اتخاذ القرار الحاسـم أصلًا، وفي مثل هذا الوضع سـتدخل الأسرة طريقًا مسدودة ولن تتمكن من حل مسـائلها إطلاقًا، وربما أدى عدم إيجاد حل مناسب لبعض المسائل إلى وقوع الأضرار على الحياة المشتركة بشكل عام.

إن جميع الإشـكالات الواردة على المجتمع الذي يخلو من وجود الرئيس يمكن أن تَرد كذلك على هذا النوع من الأسرة التي تتبنّى إدارة ورئاسة مشتركة، فعلى الرغم من أننا لا نُنكر إمكانية إيجاد الحلول للعديد من المسـائل والأمور من خلال مناقشتها والبحث فيها، إلا أن غياب الإدارة داخل الأسرة ربما أدّى إلى وقوعها في أزمة اتخاذ القرار المناسب أثناء حدوث الخلاف ودخول ذلك في إطار المسـائل الحقوقية وإمكانية حدوث شـجارات عائلية حول المسـائل الأخلاقية. وتجدر الإشارة هنا إلى أن واضع هذه النظرية قد لمّح إلى وجود بعض المشاكل التي تواجهها نظريته تلك، ولذلك نراه يسارع إلى القول بضرورة إيجاد التعادل بين الاستقلالية والمسؤولية.[١] ومن وجهة نظر صاحب النظرية فإنه لا يمكن إنكار صعوبة ترسيخ الديمقراطية داخل الأسـرة كما هي الحال مـع المنظومات الأخرى؛ بل وصعوبة العيش في ظل ذلك كذلك.[٢]

١. م.ن.

٢. م.ن، ص ١٠٧.

نظام القيادة الأسرية على أساس التعاقد[١]

ثمة نمط آخر يمكن تصوره لإدارة الأسرة وهو نظام القيادة على أساس التعاقد، وفي هذا النظام يكون الشكل الأول لتعيين الرئيس للأسـرة بحكم القانون (والتقنين الشرعي)، ويتم تعيين رئيس للأسرة في النظام المذكور (في المرحلة الثالثة منه) في بداية تشكل الأسرة وفقًا لعقد مُبرَم بين الزوجيْن، وهذا يعني أنه لا مكان للوحي الإلهي أو القانون الشرعي ولا دخل لهما في ذلك أبدا؛ بل يضفي الزوجان معًا الصفة الحقوقية على رئيسهما.

ونلاحظ في هذه الرؤية أن ضرورة وجود المدير والرئيس لإدارة الأسـرة وتعيينه منوطة بإرادة كل من الزوج والزوجة، وعليه، فإن الأسرة في هذه النظرية كذلك هي عبارة عن منظومة تتألف من سلسـلة من المراتب والدرجات، وبموجب هذه النظرة أيضًا فإن رئاسـة الأسـرة وقيادتهـا لا ترتبط بالضرورة بالقـدرات الطبيعية للأفراد الذين يتـم تعيينهم لهذا المنصب، فالنظام الحقوقي الذي تحتاج إليه الأسرة في هذه الحالة يتعلّق بالقرار الذي يتم بموجبه قبول الرجل أو المرأة لهذه المسـؤولية. على سبيل المثال، إذا تقرر إيكال مسؤولية رئاسة الأسرة إلـى المرأة عندئذٍ ينبغي إيجاد تعريف جديد لوضع الذكور في ما يخصّ دورهم الاقتصادي تجاه الأسرة والمسؤوليات الأسرية والكثير من المسائل الأخرى.

وفـي نقدنا لهذه النظرية نقول: فضلًا عن أنها لا تعير أهمية للقدرات والطاقات الطبيعية للأفراد في موضوع إدارة الأسـرة، فإن فيها الكثير من النقاط الغامضة والمُبهمة. فعلى سبيل المثال، لم تبين هذه النظرية مقدار التغيير الحاصل في النظام الحقوقي الخاص بمسألة إدارة الأسـرة إذا ما تمت إناطة مسؤولية إدارة الأسرة إلى المرأة، أو ما ستؤول إليه الإدارة الأسرية عندما تواجه المرأة (باعتبارها الرئيسـة للأسرة) ظروفًا استثنائية كالحمل والولادة مثلًا. هل سـيُضطّر الرجال في هذه الحالة واسـتنادًا إلى قانون الأسـرة للقيام بأعمال المنزل ومراقبة الأطفال ورعايتهم وما إلى ذلك؟ ما هي التحديات التي ستظهر نتيجة لابتعاد الأبناء عن أمهم

١. انظر حول هذا الموضوع: «تعامل وتعارض بين فقه وحقوق بشر، لقاء مع آية الله الموسوي البجنوردي»، ص ١٢؛ انظر أيضًا: حكمت نيا وآخرون، فلسفه حقوق خانواده: أصول وقواعد، ج ٢، ص ٦٠.

وعملها ودوامها الكامل واضطرار الأب إلى الجلوس والبقاء داخل المنزل؟ هل باستطاعة الرجال (أو الأزواج) الاستمرار في الامتثال لقواعد الأخلاق الخاصة بالرعاية والعناية وفقًا للنظريات الأخلاقية ليكونوا بذلك حاضنين ومربّين مثاليين لأبنائهم؟ هذه مجموعة صغيرة فقط من الإشكالات الواردة على النظرية المذكورة.

٤. فعاليات الأسرة وتطبيقاتها

هذه المقولة قريبة للغاية من بحث أهداف الزواج، فأهداف الأسرة في هذا الكتاب هي عبارة عن غايات قرّرها الله سبحانه لها في التكوين والتشريع، أما الفعاليات والتطبيقات فتمثل في الفوائد والمنافع التي يمكن للأفراد الحصول عليها أو إيجادها داخل الأسرة. ويتفق المختصون بالدراسات الأسرية وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلماء الدين على جميع فعاليات وتطبيقات الأسرة أو مُعظمها.[١] وفي ما يأتي إشارة موجزة إلى بعض تلك الفعاليات:

الفعاليات الجسدية والنفسية

تُعتبر الأسرة الطبيعية (المعيارية) أفضل نموذج للحفاظ على سلامة الأفرادج الجسمية والوصل إلى المعايير المطلوبة للسلامة. ففي البداية يصل كل من الرجل والمرأة إلى السلامة الجسمية والنفسية وذلك من خلال وضع قدراتهم الشهوانية والعاطفية على طريق العلاقات الزوجية القانونية وفي تأكيده هذه الفعالية يقول سبحانه تعالى في كتابه العزيز: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾.[٢]

تشير الآية الشريفة إلى أن السكينة والطمأنينة والمحبة القلبية والإيثار والحب الذي يظهر

---

١. المقصود بالفعاليات هو الفعاليات الضرورية المتعلقة بحفظ الأنواع أو المجتمع أو فئة اجتماعية، وقد عدّ (مردوك)- عالم الإجتماع المعروف – أربع فعاليات أساسية للأسرة هي: الفعاليات الجنسية والاقتصادية والتعليمية والتكاثرية. (أنظر: برناردز، درآمدى به مطالعات خانواده، ص ٧٤)، فيما أكد بعض آخر من العلماء على فعالية التكاثر والمحافظة والحماية وجعل تنظيم العلاقات الجنسية مسألة اجتماعية والعواطف والتعاون والمركز الاجتماعي. (انظر: اعزازى، جامعه شناسى خانواده با تأكيد بر نقش: ساختار و كاركرد خانواده در دوران معاصر، ص ١٦٩-١٧٠).

٢. الروم: ٢١.

في إطار الكلام والعبارات الودية وأداء كل من الزوج وزوجته وظائفه ومسؤولياته على قَدم المساواة تجاه الآخر، تشير إلى أن ذلك كله يُعدّ من الآيات الربّانية.

ثم في المرحلة التالية، ولا سيمامع ولادة الأبناء، يحصل الوالدان على جائزتهما العاطفية والنفسية الكبيرة من خلال ردود الأفعال الأولى المعبّرة عن الرضا إزاء ذلك الضيف الجديد، ويقومان بدورهما بمساعدة أبنائهما من الناحية النفسية. وليس بإمكان الإنسان الشعور للمرة الأولى بأنه محبوب بشكل متميّز إلا داخل إطار الأسرة، ولا شك في أن لهذه المسألة دورها الفعال في النمو العاطفي والنفسي لكل شخص. ووفقًا لهذه العناصر الغريزية كذلك يرعى الكبار الصغار ويبذلون كل جهودهم في سبيل المحافظ على سلامتهم. وفي بعض الأحيان يحافظ أعضاء الأسرة على الكبار (الوالدين والأجداد مثلًا) إلى جانب الصغار في تلك الأسرة.

وفي المرحلة الثالثة يصبح أعضاء الأسرة أكثر سلامة وسرورًا وبهجة من خلال التزامهم جميعًا بقواعد الأسرة والبيت كالحضور معًا على مائدة الطعام ورعاية كل منهم للآخر في حالات المرض؛ بل والتواصل معًا من الناحية العاطفية أيضًا.

الفعاليات الجنسية

من الحالات المؤثرة التي نشهدها في الوقت الحاضر هي قيام بعض الأشخاص بإشباع غرائزهم الجنسية خارج إطار الزواج القانوني وذلك بسبب التفسخ الأخلاقي والفساد، وقد أدى عدم شرعية هذا الأسلوب وفقدانه للوجاهة الأخلاقية الى رفضه من قبل الوجدان الأخلاقي في المجتمع، ولذلك نرى فئات مُعينة تحاول الاصطياد في الماء العكر وإشاعة مقولة النسبية الأخلاقية والتوسع في مفهوم الزواج والأسرة وما شابه ذلك في مسعى لها إلى إضفاء الصفة القانونية على مثل تلك العلاقات غير الشرعية وتبرير نتائجها وعواقبها،[1] فضلًا عن النتائج والعواقب السيئة التي يمكن أن تنجم عن مسألة تحرير القدرات الجنسية وإطلاقها

١. ومثال ذلك ما يقوم به بعض لإضفاء الشرعية على الأزواج الأحرار وزواج المثليّين وتشريع قانوني يسمح بإجهاض الأجنة بدعوى إراحة بال الأزواج في إقامة العلاقات الجنسية.

وتجاوز كل ما يُستقبَح أخلاقيًا في التصرفات والتهرب من القوانين الخاصة بتنظيم العلاقات الجنسية بين الرجال والنساء، ومن تلك العواقب انهيار المبنى الأسريّ، إلى جانب العواقب الوخيمة الأخرى. ومن الطبيعي أن يعمل تحديد السلوك الجنسي داخل إطار الأسرة على السيطرة على تلك القوة الغريزية ويجعل من تقديم الخدمات الجنسية أمرًا التزاميًا وبالتالي حثّ الأفراد على تحمل مسؤولياتهم إزاء نتائج تلك الخدمات كالتكاثر مثلًا، فضلًا عن أن وجود الحب والعشق بين الأزواج من شأنه أن يُجبرهم على مراعاة آداب الزوجية وأخلاقيات هذه العلاقة. وتعمل هذه المسائل على تدعيم أواصر الأسرة وتثبيت أركانها وتساهم في زيادة نسبة الطهارة الأخلاقية داخل المجتمع.

هذا وتتضمن النصوص الدينية تصورات إيجابية حول العلاقة الزوجية،[١] فإشباع القوى الشهوانية لدى الأزواج بشكل مُرض وكافٍ يؤدي إلى تعزيز المحبة وتقوية العلاقة بينهم. وأشارت آيات القرآن الكريم إلى هذه الحاجة ذات الحدّيْن بكلمات وعبارات ضمنية وكنايات مستعارة وعفيفة، مثل استخدام كلمة «المباشرة» وكون الأزواج لباسًا لبعضهم بعضًا[٢] و«الغشاية» – بمعنى التغطية– ما إلى ذلك.[٣] وبالنظر إلى كون المرأة أكثر حياءً مقارنة بالرجل الذي يتصف بالفعالية الجنسية القوية فقد أكدت الروايات الإسلامية الاختلاف المذكور ودعت إلى ضرورة التركيز على كل من المرأة والرجل معًا إزاء حاجتهما الشهوانية.[٤]

---

١. انظر على سبيل المثال: الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٤١، ص ١٠؛ النوري، مستدرك الوسائل، ج ١٤، ص ١٥٠.

٢. قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ ،الأعراف: ١٨٧.

٣. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾، الأعراف: ١٨٩.

٤. انظر على سبيل المثال: الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ٨٢، ٨٣، ١١٢، ١٧٥، ١١٧، ١٨٣، النوري، مستدرك السائل، ج ١٤، ص ١٧٩، ٢٢١. ولمزيد من المعلومات انظر: سالارى فر، خانواده در نگرش اسلام وروانشناسى، ص ٤٥-٥٣.

الفعاليات الإقتصادية

غالبًـا ما نلاحظ تطوّر الحالة الإقتصادية لدى عـدد كبير من الأفراد مع دخولهم القفص الذهبـيّ (قفـص الزوجية)؛ بـل وتتراكم الثـروة لدى بعضهـم الآخر، فمـن المعروف أن الشـخص الأعزب يميل إلى الصّرف والبذخ بينما ينظر المتزوِّج عادة إلى المستقبل ويسعى إلى الإدّخار والسـيطرة على عملية الإنفاق ويهتـم بذلك أيّما اهتمام، فبإمكان الأفراد داخل الأسـرة الحصول على كل ماهو ثمين لكن بقيمة أقل كالغـذاء أو الطعام الذي يتم تحضيره داخل المنزل والألبسة التي تعدّها الزوجة مثلًا وتخيطها. من ناحية أخرى، يصبح الأفراد أكثر قدرة على العطاء في مجال الأعمال وتصبح لديهم حوافز أكبر للقيام بالنشاطات والفعاليات الإقتصادية، وكل ذلك بفضل الراحة والهدوء اللذيْن يجدهما الفرد داخل أسرته وبيته.

الفعاليات التربوية والاجتماعية[١]

لا ريـب في أن الأفراد الذين يترعرعون داخل الأسـرة يُصبحون مواطنين صالحين أكثر من غيرهم؛ بل وتشـير أغلب الدراسات اتي أُجريت حتى الآن إلى بطلان الإدّعاء القائل بأن الأطفـال الذين يكبرن تحت وصاية أحد الوالدين – لا كليهما – يمكنهم الارتقاء والازدهار تمامًا كالأطفال الذين يُربّيهم الوالدان معًا.[٢]

وتُعتبر الأسرة أول مان لتلقي العلوم وإتقانها، وهنا يحضرنا المَثل المعروف الذي يقول: «العلـم في الصِّغَر كالنّقش على الحَجَر». فالأسـرة برأي كثير مـن الباحثين والمتخصصين تُمثل الناقِـل الأصلي للعلوم والقيم والتصورات والأدوار والعـادات الخاصة بجيل ما إلى الأطفال.[٣]

هذا، ويمرّ كل من الولد والبنت بعد الزواد بأُولى الحالات الجادة للاختلاف في الأذواق

---

١. نقصد بالفعاليات الاجتماعية ههنا تعلّم الأفراد لتقاليد وأساليب التعامل مع الآخرين داخل المجتمع أو المشاركة في المجموعات الإجتماعية لكي يتمكنوا من ممارسة نشاطاتهم في إطار ذلك.

٢. غيدنز، راه سوم، بازسازى سوسيال دموكراسى، ص ١٠٤.

٣. رايس، رشد انسان: روانشناسى رشد از تولد تا مرگ، ص ٢٤٠.

خلال علاقتهما الزوجية، وأثناء تلك المرحلة كذلك يتعلم كل منهما حالة التحمل والمداراة والصبر، وإذا استطاعا إدارة عواطفها بشكل صحيح فسيكون بإمكانهما الوصول إلى نقطة الكمال والتكامل معًا. وكذلك الحال مع الأبناء حيث تبدأ حياتهم بالاختلاط بالمجتمع داخل أُسَرهم إذ يستطيع أعضاء الأسرة من خلال تعاليمهم وتأديبهم غير الرسمي تعليم أبنائهم كذلك التقاليد والعلوم والتصرفات الدينية والمبادئ الأخلاقية وصياغة العلاقات الاجتماعية، ويمكن إنتقال تلك التعاليم والعلوم عَبر مجموعة من الأحاديث والتصرّفات الشائعة على مستوى الأسرة وخاصة من الوالديْن، ولا شك في أهمية التحدث إلى الأبناء وتعليمهم المُثُل والدور الفعال الذي يؤديه ذلك فيهم في هذا المجال.[١]

وعلى الرغم من أن الأبناء في هذا العصر يتلقّون مُعظم معلوماتهم وتعاليمهم غير الرسمية من الأم، إلا أنه تقع على الأب مسؤوليات ووظائف أخرى حيث يبدأ دوره منذ اللحظة الأولى لولادة الأبناء، وخلال مرحلة الصبا والشباب لدى الأبناء يتحوّل دور الأب من دون المُمَرِّض والمُتعاطِف وجدانيًا الذي يُعتبر مكملًا لدور الأم في تلك السنين، إلى دور الهادي والمُرشِد. وتذكر الروايات الإسلامية أن تعليم الأبناء الأدب والسعي في تلقينهم التعاليم الدينية يدخل في إطار مسؤوليات الآباء.[٢] وجدير بالذكر أن موضوع تربية الأبناء وتأثير الوالديْن والأسرة في هذه المسألة يبلغ الغاية في الأهمية؛ بحيث أكّدت جميع النصوص الدينية التي تناولت هذا الموضوع ضرورة التدقيق في اختيار الزوجة والمراقبة الأخلاقية ومراعاة الظروف الزمانية والمكانية أثناء انعقاد النطفة وآداب الرضاعة والتصرّفات العاطفية للوالدين مع الأبناء والتحدّث إليهم واللعب معهم.[٣]

---

١. م.ن.

٢. المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٠١، ص ٩٥.

٣. انظر على سبيل المثال: الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ١٨٨.

٥. عوامل متانة الأسرة

الدقــة في اختيار الزوجة: ترتبط متانة الأســرة بالدرجة الأولى بتأســيس أُســرة مُحكمة الأركان، فاختيار الزوجة بشــكل صحيح ودقيق له دور كبير في تشــكيل أسرة قوية الأساس ومتينة. وقد أشارت الروايات الإسلامية إلى بعض المواصفات الواجب توفرها في الزوجة المُراد اختيارها ويمكن لكل واحدة من تلك المواصفات أن تســهم بشــكل فعال في إيجاد الأسرة القوية.

ومن الصفات والموارد الجســمية أو الجســدية التي أكدت الروايات الإسلامية ضرورة وجودها في الزوجة قدر الإمكان هي: التأكد من عدم كون الزوجة عقيمًا لا تَلِد.[١] وأن تكون حسنة الوجه والصورة،[٢] ومجموعة من الصفات النفسية كاتصاف المرأة بالذكاء وبُعدها عن الحماقة والبلاهــة،[٣] وبعض الصفات الأخلاقية مثل التدين والتقوى والإيمان بالله تعالى،[٤] والتواضع والقناعة والسخاء واللين،[٥] وتجنّبها للمعاصي كاحتساء الخمر والزّنا،[٦] وغير ذلك مــن الصفات الحميدة الواجب توفّرها في المرأة وتمييز الأخلاق الســيئة فيها والحذر منها. وكمــا ذكرنا قبــل هذا فإن بعضًا من تلك الصفات يُعتبر أكثــر أهمية من غيره كعدم الإنجاب

---

١. «إن خير نسائكم الولود» (الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ١٤).

٢. «... امرأةٌ ذات دِينٍ وجَمال» (النوري، مستدرك الوسائل، ج ١٤، ص ١٦٩).

٣. «إياكم وتزوج الحمقاء، فإن صُحبتها ضياع وولدها ضِياع» (المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٠٠، ص ٢٣٧).

٤. «عليك بذَواتِ الدين» (الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ٢٢)؛ «تزوّجوا في الحجر الصالح فإن العرق دسّاس» (الطبرسي، مكارم الأخلاق، ص ١٩٧)؛ «... زوجها ممن يتقي الله فإن أحبها أكرمها وإن أبغضها لميظلمها». (تنكابني، الحديث، ج ١، ص ١٧٧).

٥. «الهيِّنة اللينة» (الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ١٥)؛ «من بركة المرأة خفة مؤنتها»(المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٠٠، ص ٢٣١)؛ «لا غنى بالزوج عن ثلاثة أشياء في ما بينه وبين زوجته وهي الموافقة ليجتلب بها موافقتها ومحبتها وهواها، وحسن خلقه معها، واستعماله استمالة قبلها بالهيئة الحسنة في عينها، وتوسعته عليها» (الحراني، تحف العقول، ص ٣٢٢)؛ «إن من شرار رجالكم البهّات البخيل الفحّاش» (الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ١٨).

٦. النور: ٣؛ «ولا يتزوج شارب خمر فإن منفعل فكأنما قادها إلى زنا» (المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٠٠، ص ٢٧٣).

والعقم لدى المرأة[١] وحُسن الخُلُق لدى الرجل،[٢] ومن الصفات ما هو نسبيّ تقريبًا كالجمال والحُسن فيها.[٣]

العقائد الدينية لدى الزّوجين: لا شـك في أن إيمان الفرد بالله (عَزّ وَجَلّ) يُكسـبه رؤية مختلفة وتصوّرًا ذا وجوه فضلًا عن أن ذلك يمنحه صفة التوكل عليه سبحانه والرضا بقضائه والأمل في غدٍ مُشرق واعد، كما إن خوف الشخص من أهوال يوم القيامة قد يكون دافعًا له نحو أداء واجباته والقيام بفرائضه والسـيطرة على غرائزه، فكل واحد من هذه الأمور إذن قد يُسبب له مشاكل كبيرة ويوقعه في مهالك عظيمة. ومن المعلوم أن الأشخاص المؤمنين بالله الواحـد القهّار يمكنهم تحمل بعضهم بعضًا أكثر من غيرهم والتخلص من قيود عبادة الذات وسلاسل تقديسها.

ولا شك في أن الزواج وتشكيل الأسرة لا يخلو من نسبة مُعينة من المخاطرات والمشاكل حتى في أفضل الحالات، فالزواج الأول غالبًا ما يكون تجربة فريدة وغريبة بالنسبة إلى الرجل والمرأة حيث يعيش كل منهما حالة الزوجية أو الأمومة ويختبرها للمرة الأولى. ومن الأفراد مَن يُظهر سلوكًا مُعينًا خلال العلاقة الزوجية لم يكن قد عهده من قبل والسبب في هذا هو أن أيًّا من الرجل والمرأة لم يكن قد مرّ بهذه التجربة من قبل، وقد يكون ذلك بمثابة مفاجأة غير متوقعة لبعض الأشخاص. ومن الأفراد من يدخل مرحلة الزوجية حاملًا معه أهدافًا وشعارات وأُمنيات خاصة به وعندما يواجه مثل تلك الأوضاع الغريبة عليه يشعر بحالة من الاندحار أو الفشـل، وفي أحيان أخرى لانرى وجود أي مشكلة بين الشخص وبين شريك حياته أو أحد من أعضاء أسـرته، لكن تظهر في ما بعد مشـاكل أخرى غير متوقعة مثل الإفلاس والمرض خـلال حياته الزوجية. من الواضح أن الخطـوة الأولى التي يجب اتخاذها عند حصول مثل

١. «تزوجوا بكرًا ولودًا ولا تزوّجوا حسـناء جميلة عاقرًا، فإني أُباهي بكم الأُمم يوم القيامة» (الحر العاملي، وسـائل الشيعة، ج ٢٠، ص ٥٤).

٢. «لا تزوجه إن كان سيء الخلق» (م.ن ، ص ٨١).

٣. «من تزوج أمرأة لا يتزوجها إلا لجمالها لم يرَ فيها ما يحبّ» (م.ن، ص ٥٠؛ انظر كذلك: سـالاري فر، خانواده در نگرش اسلام وروان شناسی، ص ٣٥-٤٢.

هــذه الحالة تتمثّل في إدراك الطرف الآخر وضع شــريكه وتفهّمه له وتقبّله ذلك الوضع من أجل الوصول إلى حالة التعادل النفســي. فإيمان الفــرد بالله (عَزّ وَجَلّ) يمكن أن يعينه على اجتياز تلك المرحلة الحساسة لِما لذلك من خاصيّات وامتيازات عدة.

مراعاة الفروق والسعي للوصول إلى التفاهم المشترك: لا ريب في أن عقد الزواج وحده لا يكفي لإيجاد حياة ســعيدة ومريحة؛ بل الزواج الموفق هو الزواج الذي يســتمر في التقدم والتعالي والتحسن والارتقاء. فعندما يُقرر شخصان يختلفان في ما بينهما من الناحية الجنسية والشــخصية والثقافية والتربوية بل وحتى الوراثية، عندما يقرر هذان الشــخصان العيش معا بشــكل مشــترك فإنهما لن يصبحا متّحديْن ما لم يبذل كل منهما جهده للإستفادة من قدراته وإرادته، وعليه، فإن أولى الخطوات اتي تضمن المحافظة على الأسرة وتطوير فعالياتها تتمثل فــي تقبل الفروق الموجودة لدى الطرف الآخر والاعتراف بها، ومن تلك الفروق ما يصعب تغييرهــا أوالتغلب عليها بســهولة، وفي بعــض الأحيان لا توجد ثمة ضــرورة أصلًا للتغيير وحينئذٍ تذهب الجهود والضغوط المبذولة لتغيير الشــخص سدى، كأن يكون أحد الزوجين خجولًا بعض الشــيء بســبب تأثره بالعوامل التربوية أو الوراثية. فإذا قرر شخصان المضي فــي إتمام زواجهما مــع علمهما الكافي بوجود مثل تلك الصفــات أو الحالات الظاهرية أو السلوكية، فينبغي عنئذٍ لكل منهما تقبل ذلك في ما بعد وعدم الإصرار والمكابرة على تغييره، وفي الحالات التي يمكن يها إيجاد التغيير لدى الفرد يجب منحه الوقت الكافي لذلك.

هذا، ولا تقل الفروق المتعلقة بالجنس أهمية عن غيرها من الفروق الأخرى، فقد يكون منشــأ تلك الفروق فطريًا أودينيًا. ومن وجهة نظر القرآن الكريــم فإن تلك الفروق قد تكون سببًا لتثبيت العلاقات وتقويتها وسهولة تعامل الأفراد مع بعضهم، لكن المهم هو أن يإمكان كل من الرجل والمرأة- باعتبارهما جنســين مختلفين – تشكيل دائرة كاملة. فمعرفة قدرات الطرف الآخر وطاقاته من ناحية والتعرّف إلى نقاط ضعفه وعجزه من ناحية أخرى يمكن أن يــؤدي إلى تطبيق الأفعال الصحيحة لدى كل من الزوجيْن، ويكفي أن يضع كل من الزوجيْن نفسه مكان الآخر قدر المستطاع لكي يتمكن من إدراك موقفه وتفهم وضعه وحالته ثم إيجاد أسس مناسبة للتفاهم والتعايش.

وتُعتبر الفروق والاختلافات الثقافية أيضًا جزءًا مهمًا من الحياة المشتركة لا يمكن تجاهلها أو التغاضي عنها، فبسبب تأثر الفرد (الرجل أو المرأة) لفترة طويلة نسبيًا بالعوامل الثقافية والتربوية قبل الزواج ينبغي للزوجين إعطاء الفرصة الكافية لبعضهما من أجل زوال الآثار التربوية الخاطئة لدى أي منهما لتُستبدَل بصفات وآثار أخلاقية حميدة. ولا ننسَ هنا أن الزوجين بحاجة إلى نموذج سلوكي مناسب يلتزم كل منهما بتطبيق ما لديه وفقًا للنموذج المذكور، فالتعرّف إلى السيرة العطرة للمعصومين عليهم السلام مثلًا قد يساهم كثيرًا في هذا المجال، كما لا غنى لهما عن الاستعانة بالنصائح والاستفادة من التشاور مع المتخصصين والسعي المخلص لإيجاد التغييرات المناسبة.

حُسن العلاقة والتعامل: ومن الأمثلة حول الصفات الخاصّة بحسن تعامل الفرد مع الطرف الآخر الصّدق والظنّ الحَسن والتفاؤل وروح القناعة والتحمّل والصبر والمُداراة والسخاء والغيرة المنطقية والمهارات الكلامية لإنشاء العلاقة الودية والقوية والعلاقات والروابط المعيارية غير الكلامية كالغضّ من البصر (العفيف والودي الذي يُرضي الطرف الآخر في الوقت والظرف المناسبيْن) والقيام والجلوس بتواضع وحياء والمشاركة الوجدانية والمساواة.

احترام التسلسل الهرميّ في الأسرة بين الأزواج والوالديْن والأبناء: ومن شأن هذه القاعدة أن تعين كلا من الزوج والزوجة على الحفاظ على مكانتهما داخل الأسرة واعتمادهما كمرجعيْن مثاليّيْن لأعضائها في حل المشاكل والتربية الأخلاقية واتخاذ القرارات واستمرارية تلك المرجعية.

معرفة الحقوق (الواجبة والمستحبّة) والمسؤوليات المتبادلة والمبادرة إلى تنفيذها: الحلول المناسبة للمشاكل العاطفية والجنسية: بصرف النظر عن المساعي والجهود التي يبذلها كل عضو داخل الأسرة من أجل إعلاء مكانتها واستمراريتها، فقد تكون مسألة تثبيت أركان تلك الأسرة مرهونة في بعض الأحيان بعناصر خارج الأسرة كذلك. ففي الوقت الذي تُعتبر فيه الأسرة الخلية الأصلية في بناء المجتمع إلا أنه تقع على كل من المجتمع والحكومة

مسؤوليات وواجبات في هذا المجال، وعليه، ينبغي لجميع المؤسسات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية المساهمة من أجل دَعم الأسرة وتقوية أركانها. وكلما تعاظم التعاون بين الأعضاء داخل الأسرة ونَمت فيهم روح التعاضد أصبحت الأسرة أكثر قوة وأكبر مناعة، وهكذا، فإنه لا يجب على العناصر من خارج الأسـرة أن تتسبّب في قطع العلاقات بين أعضائها أو تكون عاملًا لانهيار سمة التعاون والتعاضد بينهم.

المصادر

١. ساروخاني، باقر، مقدمة اى بر جامعه شناسى خانواده، طهران، منشورات سروش، ١٩٩٦م.
٢. مورن، إدغار، هويت انسانى، ترجمة: امير نيكپى، طهران، منشورات قصيده سرا، ٢٠٠٣ م.
٣. الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، قم، منشورات رابطة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة، لا تاريخ.
٤. مصباح اليزدي، محمد تقي، مشكات، طهران، مركز انتشارات، ٢٠٠٦م.
٥. مطهري، مرتضى، نظام حقوق زن در اسلام، طهران، منشورات صدرا، ط٤١، ٢٠٠٥م.
٦. أنجلز، فريدريك، منشا خانواده مالكيت خصوصى ودولت، طهران، منشورات جامي، ٢٠٠١م.
٧. برناردز، جون، درآمدى به مطالعات خانواده، ترجمة: حسين قاضيان، طهران، منشورات نى، ٢٠٠٥م.
٨. مجتهد شبستري، محمد، نقدى بر قرائت رسمى از دين، طهران، منشورات طرح نو، ٢٠٠٠م.
٩. الحسيني المراغي، مسير عبد الفتاح، العناوين الفقهية، ج ٢، ص ٥٥٧-٥٥٨.
١٠. الحر العاملي، محمدبن الحسن، وسائل الشيعة، ج ١٤، قم، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ١٩٩٥م.
١١. غيدنز، أنتوني، راه سوم بازسازى سوسيال دموكراسى، ترجمة: منوچهر صبورى كاشانى، طهران، منشورات شيراز، ١٩٩٧م.
١٢. «تعامل وتعارض بين فقه وحقوق بشر، لقاء مع آية الله الموسوي البجنوردي»، مجلة: فرزانه الفصلية، العدد ٨، شتاء عام ١٩٩٦م.
١٣. أعزازي، شهلا، جامعة شناسى خانواده با تاكيد بر نقش: ساختار وكاركرد خانواده در دوران معاصر، طهران، منشورات روشنگران و مطالعات زنان، ٢٠٠١م.
١٤. رايس، ف. فيليب، رشد انسان: روانشناسى رشد از تولد تا مرگ، ترجمة: مهشيد فروغان، طهران، منشورات ارجمند، ٢٠٠٨م.

١٥. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، بيروت، مؤسسة الوفاء، ١٤٠٤ه.
١٦. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار احياء التراث العربي، ١٤١٢ه.
١٧. سالاري فر، محمد رضا، خانواده در نگرش اسلام وروان شناسی، قم، اكاديمية الحوزة والجامعة، ٢٠٠٥م.
18. McArthur, John, ***the Fulfilled Family & God's Design for Your Home***

ماهية العائلة وخصوصياتها ووظائفها[1]

محمود حكمت نيا[2]

القسم الأول: ماهية العائلة

ماهية العائلــة قضية لها دورها المؤثر بدرجة عالية في معرفة العائلة وتشــخيص حقوق المرأة. وتختلــف معرفة ماهية العائلة عمّا يقال في تعريف العائلــة. في تعريف العائلة نحن بصدد تشخيص هذه المؤسسة كأمر واقع موجود، ونروم الآن معرفة ماهية العائلة وما يؤدي إلى ظهورها من منظار فلســفة الحقوق. في هذا المجال بالمقدور الإشارة إلى وجهات نظر مختلفة.

النظرة الأولى: العائلة بوصفها عقدًا

هبــط البعض بالعائلــة إلى مجرد كونها عقدًا مثل باقي العقود. على ســبيل المثال ذهب فريــق إلى أن العائلة عقد لإنجــاب الأولاد لذلك فهي تفقد معناها بعد إنجاب الأولاد. وفي هذه الحالة ســيكون لحقوق الزوجة والزوج وواجباتهما ومسؤولياتهما جذورها التعاقدية، وسيكون بوسع المرأة والرجل أن يتخذا قرارهما في خصوص حقوقهما وواجباتهما من أجل تنظيم حياتهما المشتركة.[3]

---

١. هذا البحث مستلّ من كتاب حقوق زن و خانواده للكاتب محمود حكمت نيا، سازمان انتشارات بژوهشگاه فرهنگ و انديشه اسلامى. تهران. ١٣٩٠ هجرى شمسى. من صفحة ٥٧ إلى صفحة ١١٥.

تعريب: حيدر نجف

٢. حقوقي وكاتب وباحث إسلامي، وحاصل على الدكتوراه في القانون من جامعة تربيت مدرس.

٣. صحيفة إيران، عدد خاص بالمرأة، «الزواج المؤقت والمعاشرة من دون زواج في الغرب».

في دراسة مثل هذه الرؤية يجب القول إن وجود الأولاد في العائلة يجعل من التعذر في هــذه الحالة الاكتفاء بتعاقدية العائلة. ومن المؤكد أنه لا يمكن النظر للأولاد كمجرد أشــياء واتخــاذ القرار في خصوصهم ضمن إطار العقــد. الولد كائن عاجز، له حقوق مختلفة، لكنه عاجــز عن تطبيق حقوقه بنفســه، ومن دون دعمه وحمايته لا يمكن التفاؤل كثيرًا باســتمرار النسل البشــري. طبعًا قد تضمن عواطف الأبوة والأمومة بقاءه ولكن لا يمكن الاكتفاء بهذا القدر، لأن نظرة لثقافات كثير من البلدان تدلنا كيف أن مسار الثقافة يسير باتجاه تحطيم القيم والعواطف البشرية.

كما أن الاستحقاق الطبيعي لكون العائلة عقدًا هو ظهور نماذج متعددة كثيرة من العائلة. مثلًا في بعض البلدان يتعهد الأفراد ضمن عقد معين بحماية بعضهم إلى جانب الحفاظ على حياتهــم الفردية. يقيم كل واحد من المــرأة والرجل في بيته لكنه يــودع حصة من دخله في صندوق مشترك لكي يستطيعا إذا أنجبا ولدًا أن ينهضا بتعهداتهما حيال ولدهما.[١]

والخلاصة أننا لو أردنا تفسير العائلة في إطار عقد فيجب أن نتقبل لوازم ذلك واستحقاقاته والتــي قد تتجــه في هذه الحالة أكثــر ما تتجه صوب إشــباع الملذات البشــرية الآنية وربما المنحرفة.

النظرة الثانية: العائلة بوصفها مؤسسةً

النظرة الأخرى للعائلة هي أن هذه المؤسســة هي في الواقع مؤسســة أو منظمة حقوقية قانونية صمّمها المشــرِّع فــي ضوء أهداف معينة ولا خيار للمــرأة والرجل إلّا في الانضمام أو عدم الانضمام لها. وهما طبعًا يســتطيعان إلى حد ما وبمراعاة الأطر العامّة تسويد قواعد خاصة على علاقاتهما. وعليه بعد الانضمام لها تسود الأفراد حقوق مقررة مسبقًا ليس للأفراد إلّا القليل من الخيار والحرية في تعيينها.[٢] لا تبتني حقوق المرأة في هذه الرؤية إلّا على إرادة المشرِّع. ويأخذ المشرِّع بالحسبان الكثير من المصالح الفردية والاجتماعية في تقرير حقوق

١. نوّابي نژاد، شــكوه، خانواده معاصر گونه‌شناســی و مشكلات آن(الأســرة المعاصرة.. أنواعها ومشكلاتها)، ص ١١٣.

٢. راجع: كاتوزيان، مقدمه علم حقوق، ص ٢٧١-٢٧٢.

المرأة والرجل والأولاد في العائلة.

القسم الثاني: خصوصيات العائلة

معرفة العائلة عن طريق خصوصياتها ووظائفها من سبل فهم حقوق المرأة وتسويغها بصورة أفضل. معالجة قضية العائلة بواسطة علم المفردات التحليلي حسب النصوص الدينية من الأساليب الجيدة لتحقيق هذا الهدف. في العصر الحديث من أجل دراسة بعض الموضوعات الاجتماعية يستخدم أسلوب تحليل حجم المفردات ونموذج استخدامها. ويستخدم هذا الأسلوب خصوصًا في العثور على الاتجاهات العامة للحكومات وتحليل مساراتها في ساحات التنافس عن طريق الوصول إلى نتيجة في خصوص حجم المفردات والمصطلحات المستخدمة في موضوع معين في الوثائق الرئيسية العليا ووضعها بجوار بعضها ومقارنتها، وقد تؤدي هذه العملية إلى نتائج ربما يذكرها منظِّمو وواضعو هذه الوثائق بصراحة. ويمكن استخدام هذا الأسلوب في دراسة المسائل المتعلقة بقضايا العائلة في النصوص الدينية من قبيل القرآن الكريم.

كما نعلم، فإن القرآن الكريم هو أهم مصدر معرفي وحياني ومصدر تشريعي لقوانين الإسلام الاجتماعية خصوصًا في بيان الاتجاهات والسياقات الأساسية العامّة. القرآن مصدر وحياني بقي مصونًا من التحريف ولا يوجد أيّ شك في صدوره عن الله الحكيم وإنزاله على الرسول الأكرم محمد ﷺ.

في نظرة إجمالية إلى القرآن الكريم يتسنى القول إن للعائلة في هذا المصدر الوحياني مكانتها السامقة، وقد نسخت التعاليمُ الوحيانية التقاليدَ الجاهلية، ومنحت شخصيةً مبرزة للمرأة، وأوجدت تحولًا أساسيًا في النظرة المعرفية لها. وبنظرة عامّة يمكن الإشارة إلى النقاط التالية:

أشار القرآن الكريم في آيات عديدة منه إلى قيمة العائلة وأبعادها. فمثلًا أشار في إحدى

الآيات إلى فلسـفة الزواج وأهمية السكينة والاستقرار في العائلة،[١] وأشار في آية أخرى إلى خلق المرأة والرجل من نفس واحدة، وألمح بشكل غير مباشر إلى التناسل وإنجاب الأولاد كوظيفـة من وظائف العائلة.[٢] ومن الأمور الأخرى المذكورة في القرآن الكريم حول العائلة قضية تعدد الزوجات وأحكامها،[٣] والتأكيد على إشباع الحاجة الجنسية ضمن الإطار المشروع واجتنـاب الانحراف،[٤] والزواج المؤقت،[٥] وذكر الأحكام والقواعد داخل العائلة،[٦] وصيانة العائلـة من العدوان،[٧] والتوصية بالزواج والشـروط الأخلاقية للزوج،[٨] والتلاؤم الأخلاقي بين الزوجين،[٩] والتأكيد على أخلاق الدخول إلى البيت،[١٠] وأسلوب التعامل مع الزوجة،[١١] وأسلوب حل المشـكلات والخلافات العائلة،[١٢] وإدارة العائلة،[١٣] والتأكيد على المهر،[١٤] ونفقـة الزوجة،[١٥] والحيلولة دون الطلاق،[١٦] والسـماح بالطلاق فـي حالات الضرورة،[١٧]

---

١. الأعراف: ١٨٩. الروم: ٢١.
٢. النساء: ١. النحل: ٧٢.
٣. البقرة: ٣.
٤. المؤمنون: ٥-٧. النور: ٣٣.
٥. النساء: ٢٥.
٦. البقرة: ٢٣٣. النساء: ٢٢-٢٤.
٧. النور: ٢٧-٢٨.
٨. النور: ٣٢.
٩. النور: ٢٦.
١٠. النور: ٦١.
١١. النساء: ١٩.
١٢. النساء: ٣٤-٣٥.
١٣. النساء: ٣٤.
١٤. النساء: ٤، ٢٠، ٢٤، ٢٥.
١٥. البقرة: ٢٣٣.
١٦. النساء: ٣٥.
١٧. النساء: ١٣٠.

وأنواع الطلاق،[١] وحقوق المرأة المطلقة،[٢] والعدة،[٣] وحقوق الأولاد وتربيتهم.[٤]

بالإضافة إلى ذلك، تحتل العائلة في سنن المعصومين عليهم السلام مكانة سامية، ويُستمد جزءٌ كبير من مقررات حقوق العائلة من هذا المصدر. وإن نظرة إجمالية للنصوص الروائية الشيعية يدلنا على غزارة هذا المصدر وأهميته.

طبقًا للركائز المعرفية والقيمية الإسلامية، ثمة للعائلة وظائف وأدوار قبلية تدور حول محور الحفاظ على كرامة أعضاء العائلة، وتتشكل مقررات هذه الوظائف من مزيج من الحقوق والأخلاق التي تطبق في مجالات وميادين متنوعة.

وفيما يأتي إطلالة إجمالية على خصوصيات العائلة في النظام الحقوقي والأخلاقي الإسلامي.

المبحث الأول: الخصوصيات القيمية للعائلة

تعد العائلة وتشكيلها في النظام القيمي المبتني على التعاليم الإسلامية قيمة مهمة وكبيرة بحد ذاتها، ويعتبر ذلك من السنن والأمور المستحبة.

من جهة، تعدّ هذه القيمة قيمةً أساسية وتعتبر من جهة ثانية قيمة ذرائعية أداتية لأنها تعد السبيل للوصول إلى قيم أخرى مثل التضحية والإيثار والتعاون وما شابه ذلك. كما أن أسلوب بيان الإسلام للقيمة له أهميته البالغة وفيه نقاط مهمة. فقد استُخدِم في التعاليم الإسلامية أسلوبُ بيان قيمة العائلة وأهميتها بطريقة الفحص والمقارنة بين قيمة العائلة وباقي القيم الأكيدة المسلم بها. ويمكن التعبير عن هذه المقارنة على النحو التالي:

وردت قيمة الزواج وتكوين الأسرة في بعض النصوص بعد قيمة الإسلام نفسه. فقد جاء

---

١. البقرة: ٢٢٩-٢٣٠.

٢. النساء: ٢٤١.

٣. البقرة: ٢٢٨-٢٣٤.

٤. النور: ٥٩. البقرة: ٢٣٢.

في حديث شريف أن الزواج يضمن نصف إيمان الشخص ودينه.[١]

الصلاة والصيام عبادتان مهمتان في النظام العبادي الإسلامي. وتجري المقارنة في هذا النظام بين عبادة الإنسان الأعزب والإنسان المتزوج فتكون ركعتان يصليهما إنسان متزوج أكبر قيمة من صلاة وصيام إنسان أعزب طوال يوم كامل[٢] أو أثمن وأكبر قيمةً من سبعين ركعة يصليها إنسان أعزب.[٣]

وقد تطرق أولياء الدين لهذا الموضوع بين المسلمين على أحسن نحو وسعوا لتكريس هذه القيمة: جاء رجل للإمام الباقر عليه السلام فسأله الإمام ألك زوجة؟ فأجابه بالنفي. فقال الإمام ردًا على هذه الحال بما معناه لا أحب أن أُعطى الدنيا وكل ما فيها على أن أبيت ليلةً من دون زوجة. ثم تابع عليه السلام كلامه قائلًا إن ركعتين يصليهما المتزوج خير من صلاة أعزب طوال الليل وصيامه طوال النهار.[٤] كما عدت مساعدة الآخرين في الزواج أمرًا محبّذًا وأوصيَ المسلمون بالمشاركة في هذا الأمر الخيري. جاء في الأحاديث مثلًا أن من زوَّجَ مسلمًا أو مسلمة نظر الله له نظرة رحمة يوم القيامة.[٥] مثل هذه النظرة للعائلة جعلت عقد الزواج في النظام الفقهي الإسلامي ذا ماهية عبادية ومن الأمور التي تقرِّب الإنسان إلى الله.

---

١. «عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ بُنْدَارَ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ عَنِ الْجَامُورَانِيِّ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي حَمْزَةَ عَنْ كُلَيْبِ بْنِ مُعَاوِيَةَ الْأَسَدِيِّ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله مَنْ تَزَوَّجَ أَحْرَزَ نِصْفَ دِينِهِ، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ فِي النِّصْفِ الْآخَرِ أَوِ الْبَاقِي». الكليني، الكافي، ج ٥، ص ٣٢٩.

٢. «ثُمَّ قَالَ [الصادق عليه السلام] الرَّكْعَتَانِ يُصَلِّيهِمَا رَجُلٌ مُتَزَوِّجٌ أَفْضَلُ مِنْ رَجُلٍ أَعْزَبَ يَقُومُ لَيْلَهُ وَيَصُومُ نَهَارَهُ». م ن.

٣. «عِدَّةٌ مِنْ أَصْحَابِنَا عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنِ ابْنِ فَضَّالٍ عَنِ ابْنِ الْقَدَّاحِ قَالَ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ع رَكْعَتَانِ يُصَلِّيهِمَا الْمُتَزَوِّجُ أَفْضَلُ مِنْ سَبْعِينَ رَكْعَةً يُصَلِّيهَا أَعْزَبُ». م ن، ص ٣٢٨.

٤. «عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ بُنْدَارَ وَ غَيْرُهُ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْبَرْقِيِّ عَنِ ابْنِ فَضَّالٍ وَ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنِ ابْنِ الْقَدَّاحِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ع قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ع فَقَالَ لَهُ هَلْ لَكَ مِنْ زَوْجَةٍ فَقَالَ لَا فَقَالَ أَبِي وَ مَا أُحِبُّ أَنَّ لِيَ الدُّنْيَا وَ مَا فِيهَا وَ أَنِّي بِتُّ لَيْلَةً وَ لَيْسَتْ لِي زَوْجَةٌ ثُمَّ قَالَ الرَّكْعَتَانِ يُصَلِّيهِمَا رَجُلٌ مُتَزَوِّجٌ أَفْضَلُ مِنْ رَجُلٍ أَعْزَبَ يَقُومُ لَيْلَهُ وَ يَصُومُ نَهَارَهُ». الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ٢٤٢.

٥. «عن حمزة بن محمّد العلوي ، عن علي بن إبراهيم ، عن أبيه ، عن عثمان بن عيسى ، عن سماعة بن مهران عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أربعة ينظر الله عز وجل إليهم يوم القيامة: من أقال نادمًا، أو أغاث لهفان، او أعتق نسمة، أو زوّج عزبًا». الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ٢٦.

المبحث الثاني: التناغم مع التكوين

يتلاءم تشـكيل العائلة مع أسس الوجود والمعرفة به. وقد أشارت بعض الآيات القرآنية إلى هذه الفكرة على أحسن نحو.

١. التناغم مع النظام الزوجي في الكون

كما مر بنا في قسـم أسس نظام حقوق المرأة، من القواعد التكوينية المذكورة في القرآن الكريم أن الكائنات خلقت على شكل أزواج.

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.[١]

وعندما صدر الأمر للنبي نوح عليه السلام بالإبحار في السـفينة، أُمِـرَ أن يأخذ فيها من كل كائن حيّ زوجين.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.[٢]

وخلقة الإنسـان من مصاديق هذه القاعدة الكلية حيث خلق الله الإنسـان زوجين رجلًا وامرأة:

﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾.[٣]

ويشير سبحانه في آية أخرى إلى جنسي هذين فيقول:

﴿يَـا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُـعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.[٤]

تشـير هذه الآيات إلى أن نظام التكوين مصمم بشـكل زوجي ومن عنصر ذكوري وآخر أنثوي. وإذا جرى الحديث عن تشـكيل الأسرة من الزواج بين الرجل والمرأة، فهذا حديث

---

١. الذاريات: ٤٩.

٢. هود: ٤٠.

٣. النبأ: ٨.

٤. الحجرات: ١٣.

منسـجم متناغم مع هذا النظام التكويني. بعبارة أخرى نقول إن النظام التشريعي منسجم مع النظام التكويني. وأي تحرك بشـري للخروج من هذا النظام – والذي يطرح اليوم في بعض المجتمعات على شـكل الشذوذ الجنسـي – لهو خروج من هذا النظام وشيء غريب أجنبيّ عليه.

لذلك وُعِدَ الذين يخرجون عن هذا النظام ويريدون الزواج مع جنس مثيل لهم، وخصوصًا الرجال منهم، بعذاب وعقاب شديدين.

٢. الخلقة من نفس واحدة

في الخلق على شكل أزواج مؤشـر على تفاوت وانفصال، لكن القرآن الكريم يشير في خصـوص خلق الإنسـان إلى الخلق من نفس واحدة خُلِقَ منهـا الرجل والمرأة. وفي بعض الآيات القرآنية هناك أشـارات إلى استمرار النسل البشـري بوصفه ثمرة هذه القضية. يقول الله سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.[١]

ويتكرر ما يشبه هذا المعنى في آية قرآنية أخرى تقول:

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِـى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِـنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَـهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾.[٢]

وفي آية أخرى يشـير سبحانه إلى أبعاد الأسرة ووظيفتين مهمتين من وظائفها هما تأمين الاحتياجات العاطفية والإنجاب بشـكل مباشـر، وإلى إشـباع الحاجة الجنسية بشكل غير مباشر:

﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا

١. النساء: ١.

٢. الزمر: ٦.

﴿خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.[١]

يفهم من ظاهر الآيات أعلاه أن الرجل والمرأة خلقا من نوع واحد وجرى الحديث في جميع هذه الآيات عن الخلق الزوجي أي الخلق على شكل أزواج والذي يحكي عن تلك القاعدة الكلية والدال على حاجة وتبعية هذين الموجودين أحدهما للآخر. وتتجلى ذروة الصلة والتبعية لهذين الموجودين في الآية ١٨٩ من سورة الأعراف المباركة الدالة على سكن واستقرار الرجل إلى جانب المرأة.

٣. التناغم مع العقيدة الأخروية لدى الإنسان

ترابط الحياة الأسرية مع الحياة الأخروية ميزةٌ أخرى من ميزات العائلة في المنظور الإسلامي. يقول سبحانه في وصف أصحاب الجنّة:

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾.[٢]

ترسم هذه الآية صورة لأهل الجنة حيث يتساءل بعضهم عن ماضي بعض ويستفسرون عن السبب في حسن عواقب بعضهم. وتقول إنهم يعتقدون أن مفتاح الجنة بالنسبة لهم هو اعتماد «الشفقة» في علاقاتهم العائلية.

يقول علماء اللغة بخصوص مفهوم الشفقة إن «الشفق» و«الشفقة» هي النصيحة النابعة من خوف على الذي نقدم له النصيحة.[٣] وإذن، فالشخص المشفق يحب الآخر ويقلق عليه مما قد يؤذيه ويؤلمه ويزعجه. ومتى ما تعدت هذه المفردة بحرف الجرّ (مِن) تجلى معنى الخوف فيها أكثر. ومثال ذلك قوله سبحانه: ﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾.[٤] لكنها إذا تعدّت بحرف الجرّ (في) فسيكون معنى العناية والاهتمام أظهر فيها، وذلك من قبيل قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾.[٥]

---

١. الأعراف: ١٨٩.

٢. الطور: ٢٥-٢٦.

٣. الفراهيدي، كتاب العين، ج ٥، ص ٤٤. إبن منظور، لسان العرب، ج ١٠، ص ١٨٠.

٤. الأنبياء: ٤٩.

٥. الطور: ٢٦.

يذهب الشيخ الطوسي في تفسيره إلى أن الإشفاق هو رقّة القلب بسبب الخوف من شيء (مشفقين أي خائفين رقيقي القلب). ويشير إلى أن الشفقة على النقيض من الغلظة.[١] والرسالة التي تحملها الآية هي أن أعضاء الأسرة الواحدة يجب أن يكونوا مشفقين بعضهم على بعض، بمعنى أن يهتموا بعضهم ببعض ويقلق بعضهم على بعض. يقول العلامة الطباطبائي حول هذه الآية إن معناها هو أننا كنا نهتم في حياتنا الدنيا لسعادة أسرتنا ونفكر بنجاتهم من خطر الضلال ونعاشرهم بإحسان وندعوهم إلى الحق ونقدم لهم النصيحة.[٢]

وعليه فالشفقة في العائلة تستلزم النقاط التالية:

حسن المعاشرة: فلا شك أن سوء المعاشرة يسبب إيذاءً وألمًا لسائر أعضاء العائلة وهو على الضد من الشفقة.

السعي لإسعاد أفراد الأسرة: يضحّي أفراد الأسرة بعضهم من أجل إسعاد بعض وتحقيق الرفاه والدعة والراحة لهم.

الإرشاد: على أعضاء الأسرة أن يسعوا للفوز بالقرب الإلهي والنجاة من العذاب الأخروي.

المبحث الثالث: العاطفة في أجواء الأسرة

أجواء الأسرة أجواء زاخرة بالعاطفة. في هذه الأجواء تسود المحبة على العلاقات بين أفراد الأسرة. ولهذا الطابع العاطفي دوره الكبير في سكينة أعضاء الأسرة وارتياحهم.

اهتم الحكماء القدماء للدور المحوري للعاطفة والأخلاق في تنظيم الأسرة واعتبروا تدخل الحكومة والدولة في شؤون الناس مضرًا بهم، لذلك فصلوا في تقسيمهم للحكمة العملية سياسةَ المدن عن تدبير المنزل.[٣]

---

١. الطوسي، التبيان، ج ٩، ص ٤١٠.

٢. الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ١٩، ص ١٥.

٣. محقق داماد، «تحليلي از آراء ابن سينا در مورد خانواده»، ص ٧٠٧.

المبحث الرابع: خفاء البيئة العائلية

البيئة العائلية بيئة تتصف كثير من العلاقات بين أعضائها وخصوصًا العلاقات بين الزوج وزوجته بالخفاء والسرية، فلا يعلم بها أحد غيرهما. وقد تتعرض هذه الحالة لبعض الآفات والتهديدات، ومن آفاتها أن المرأة أو الرجل قد يسيئ استغلال الطابع السرّي للأسرة. على سبيل المثال قد لا يصون أحد الزوجين حريم الأسرة الآمن فيخون زوجه. وتستوجب هذه الخيانة ضمن شروط معينة عقوبة الإعدام مع أن من الصعب إثبات هذه الجريمة شرعيًا وقانونيًا.

المبحث الخامس: انسجام العائلة بحفظ استقلال أعضائها وكرامتهم

من جملة امتيازات الإسلام فيما يتعلق بموضوع العائلة أنه يعترف باستقلال المرأة والرجل وكرامتهما في ظل انسجام العائلة وتلاحمها. العائلة موقع لتكامل المرأة والرجل، ولكل واحد منهما استقلاله من الناحية القانونية والحقوقية. بعبارة أخرى، نحن هنا أمام ثلاثة موضوعات: من جهة كل فرد من أفراد البشرية له كرامته. وقد تحدثنا في الأسس الأنثروبولوجية لنظام حقوق المرأة في الإسلام بشيء من التفصيل حول كرامة الإنسان ووعائها وساحتها وتسويغها.[1] ومن جهة ثانية يتمتع الأفراد في حيواتهم الفردية والاجتماعية بالاستقلال. عندما تتشكل العائلة وتبدأ الحياة المشتركة ويضاف لها الأولاد تبقى هذه الكرامة والاستقلال محفوظين. تحفظ المرأة بتقبلها الحياة المشتركة حيثيتها الإنسانية واستقلالها، وبذلك تحفظ وتراعي المصالح الجمعية للأسرة. ولهذا التنسيق أبعاد سوف ندرسها في حقوق المرأة الاقتصادية وغير الاقتصادية.

---

١. حكمت نيا، فلسفه نظام حقوق زن، صص ١٨٤-١٩١.

المبحث السادس: التنظيم

الأسـرة نظام قانوني وتحدد القوانين قواعد تشكيله واستمراره أو حلّه وإنهائه. كما أشير فـي اتجاهـات العائلة تم قبول هذا العنصر فـي النظام الحقوقي الإسـلامي. والأمر هنا من الأهميـة بحيث خصّص البـاري عزَّ وجلَّ عددًا غير قليل من الآيـات القرآنية لإصلاح نظام الأسرة.

المبحث السابع: الخصوصيات المميزة لحل الخلافات داخل الأسرة

النظر في الخلافات الأسرية وحلها قضائيًا من الأمور الشديدة التعقيد، فمن ناحية هناك الأمـور العاطفية والأخلاقية التي لها دورها في هذه الخلافات، ومن ناحية ثانية تعود جذور كثير من الخلافات إلى شؤون شخصية خفية للأشخاص لا يرغب الطرفان في إعلانها والبوح بها.

لذلك توجد في النظام الحقوقي الإسلامي تدابير وحلول مناسبة لهذه الأمور. وبالمقدور تلخيص هذه الحلول على النحو التالي:

١. الاستشارة

مبدأ الاستشارة والمشورة من المبادئ المهمة في حلّ المشكلات والخلافات العائلية. يقرر القرآن الكريم تعاليم فيما يتعلق بمدة إرضاع الوليد وأجرته والأصول الحقوقية للجمع بين حقوق الوالد والوالدة والأولاد، ويشـير إلى مبدأ الشورى والمشورة فيما يتصل باتخاذ القرارات حول الأولاد:

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾.[١]

بعـد تحليل الموضوع نصل إلـى فكرة أن موضوع الرضاع ليس لـه أحكام إلزامية على المـرأة، ومن ناحيـة فإن تكاليف إعالة الطفل تقع على عاتق الـزوج، لكن النقطة التي ينبغي الالتفـات لها هي الجانب العاطفي في العلاقة بين الأم وولدها، وعليه فالأمُّ لا تُلزَمُ بإرضاع

١. البقرة: ٢٣٣.

الولـد، لكن الإرضاع مؤثر في اتخاذ القرار. ويعد التشـاور بيـن الأب والأم ومعهما عاملًا مناسبًا للوصول إلى الحل والقرار الصحيح في هذا الخصوص.

مفردة «التشـاور» تعني الاجتماع والجلوس في مجلس المشـورة، وهذه الجملة بسبب حرف «الفاء» في بدايتها تعتبر تفريعًا على الحق الذي تم تشـريعه مسبقًا للزوجة والذي رُفِعَ الحرج بواسـطته. إذن، ليسـت الحضانة والإرضاع واجبًا لا يتغير علـى المرأة، بل هو حق يمكنها أن تطالب به لنفسها ويمكنها أن تتركه.

وعليه، يمكن أن تكون نتيجة التشاور أن يكون كلاهما راض بفطم الوليد عن الرضاع من دون أن يكـون أحد الطرفين غير راض أو مكرهًا. كما يمكن أن تكون النتيجة أن يودع الأب ولده عند امرأة أخرى لترضعه إذا كانت الزوجة غير راضية بالإرضاع، أو على افتراض أن لبنها غير صالح، أو أن لا يكون لها لبن أصلًا، أو لأسباب أخرى. طبعًا هذا كله عندما يكون الزوج قد أعطى كل مسـتحقات الزوجة عن طيب وإحسان، ولا يكون هناك شيء يتنافى مع حقوق الزوجة. وهذا ما يفيده القيد المذكور في الآية الكريمة: ﴿**إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ**﴾.[١]

٢. الاستعانة بالأسس والقواعد الأخلاقية

مـن جملة أهم الحلول للوصول إلى السـكينة والرغد اسـتعانة أفراد الأسـرة بالقواعد الأخلاقية. ما يجعل الاسـتعانة بهذه القواعد واعتمادهـا حالةً مرجحة على غيرها هو لطف هذه القواعد وتناسـبها مع البيئة العائلية. إذ إن اعتمـاد القواعد في العائلة يجب أن لا يؤدّي إلى اضطراب العائلة وتشـتّتها وفسادها. لذلك يؤكد القرآن الكريم على الصفات والفضائل الأخلاقية مثل العفاف والطاعة[٢] ويأمر بممارسات وخصال مثل الصفح والعفو[٣] والموعظة والنصيحة[٤] والمصالحة والتصالح.[٥]

---

١. البقرة: ٢٣٣.

٢. النساء: ٣٤.

٣. التغابن: ١٤.

٤. النساء: ٣٤.

٥. النساء: ١٢٨.

بعبارة أخرى ليست بيئة العائلة بيئة تجارة وكسب ولا تشبه قواعدها قواعد أمور المغابنة وما شاكل. العنصر الأكثر تأثيرًا وحسمًا في هذه البيئة هو التعاطف والتعاون. ومع أن جميع الأفراد يجب عليهم أن يبذلوا قصارى جهدهم وفي كل الظروف لكي يسلكوا سلوكًا حسنًا ويتخلّقوا بالأخلاق الحسنة، فإن أجواء الأسرة وبيئتها هي بيئة قد تظهر فيها بعض المشكلات وسوء الخلق. وفي هذه الحالة أيضًا تقتضي مصالح العائلة أن يصبر أفراد العائلة بعضهم على بعض ويتحملوا بعضهم بعضًا، ولا يزيدوا أجواء العائلة تشنجًا وتوترًا، ولا يتسرعوا في تعقيد الأمور والسير بها إلى تخوم اللارجعة.[١]

٣ . استخدام العقاب علاجًا

القضايا داخل العائلة أسرار بين أعضاء العائلة وقد لا يكون من الصواب إفشاؤها. بعض هذه الخلافات قد تندرج ضمن إطار الحياة والعلاقات الجنسية للأفراد وهي بالتالي شخصية وخصوصية تمامًا لذلك يوصى بحلها ضمن الإطار الشخصي الخصوصي. يشير القرآن الكريم إلى مثل هذه الحالات بالآية الكريمة:

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾.[٢]

كما يلاحظ في هذه الآية فإنها تشير إلى اختلاف الزوج والزوجة في الشؤون الجنسية

---

١. على سبيل المثال أوصت بعض الروايات والأحاديث بالصبر والتحمل في الحياة العائلية. فجاء في إحدى الروايات أن الرجل الذي يصبر على أخلاق زوجته السيئة ويحتسب ثواب ذلك عند الله يجازيه الله على ذلك ثواب الشاكرين. والمرأة التي لا تداري زوجها ولا تصانعه وتفرض عليه ما لا يستطيع فلن يقبل الله منها إحسانها ويغضب عليها يوم القيامة (الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ١٦٠. الصدوق، الأمالي، ص ٥١٦. الطبرسي، مكارم الأخلاق، ص ٤٣١). وجاء في رواية أخرى عن الرسول ﷺ أنه قال ما معناه إن الرجل إذا صبر على سوء أخلاق زوجته جزاه الله على ذلك أجر أيوب، وإذا صبرت المرأة على سوء أخلاق زوجها جزاها الله على ذلك ثواب آسيا بنت مزاحم (زوجة فرعون) (م ن، ص ٢١٣).

٢. النساء: ٣٤.

والتي قد تفصح عن نفسها أحيانًا على شكل نشوز الزوجة. وعوامل النشوز مختلفة من النواحي الروحية والنفسية وسائر المشكلات العائلية. ناهيك عن معالجة الأمراض الروحية والنفسية قد يريد كل واحد من الزوجين حل المشكلة في أجواء خلوته. وفي هذا الخصوص تطرح الآية المذكورة أعلاه ثلاثة طرق. وهذه الطرق الثلاثة معطوفة على بعضها بحرف الواو، لذلك من المحتمل أن القصد هو أن الزوج يمكنه استخدامها ثلاثتها معًا في وقت واحد. ولكن بالنظر لماهية المشكلة وأمزجة الأفراد وطرائقهم ينبغي القول إن ثمة تراتبية بين طرق الحل الثلاثة المذكورة في الآية.[١] بمعنى أن الزوج يجب في البداية أن يدخل من باب الموعظة، ثم من باب إظهار المضايقة والهجران، وأخيرًا العقوبة البدنية مما قد يساهم في حل المشكلة. وبالنظر لصدر الآية وغيرها من الآيات القرآنية – التي تفيد أن رأس العائلة يجب أن يكون مشفقًا على أفراد العائلة –[٢] يُستنتج أن مثل هذا الشيء هو أسلوب علاجي ولا يقصد منه إطلاقًا إيذاء المرأة أو الانتقام منها. وسوف يتم تسليط الضوء أكثر على هذا الموضوع في جانب الحقوق غير الاقتصادية.

٤. مفهوم الحكمية والمصالحة داخل الأسرة

إصلاح ذات البين من المفاهيم الأخلاقية التي يؤكد عليها الإسلام.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾.[٣]

ويعلمنا رسول الإسلام الأكرم ﷺ أن إقامة المصالحة والسلام خير من سنة يقضيها المرء في الصلاة والصيام.[٤]

لذلك تم تخصيص أجر عظيم للمتصالحين ولمن يسعون لإيجاد الصلح بين المتخاصمين

---

١. راجع: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ٤، ص ٧٣. الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ج ٤، ص ٧٢. المكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٣، ص ٣٧٣. السبزواري (المحقق)، كفاية الأحكام، ص ١٨٩.

٢. ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ (الطور: ٢٦).

٣. الأنفال: ١.

٤. المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٢٣.

وتكريسه. ويقول الرسول الأكرم ﷺ في هذا الشأن ما معناه إن من سعى للصلح بين شخصين صلت عليه ملائكة الله إلى أن يعود وخصّه الله بثواب ليلة القدر.[١]

ومن المصاديق المهمة للصلح المصالحة بين الزوجين، وهو ما أمر الله به بكل صراحة. ويأتي الصلح في هذه الحالة تبعًا لشجار أو خلاف يحصل بين الزوجين، وهو شجار قد يكون ناجمًا عن طبيعة سلوك الزوجة أو الزوج. فتارة يكون سلوك الزوج هو السبب في الشجار والمشكلات العائلية. وفي هذه الحالة تأمر الآية القرآنية التالية بالصلح بين الزوجين:

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.[٢]

كما هو واضح من الآية الكريمة تساء الزوجة هنا من سلوك زوجها، وهذا ما ينمّ عنه شأن نزول الآية. قيل في شأن نزول هذه الآية إن الصحابي رافعًا بن خديج كانت له زوجتان إحداهما كبيرة في السن والثانية شابة، وحدثت خلافات ومشاكل عائلية فطلق نتيجة لذلك زوجته الكبيرة السن، لكنه قال لها قبل انتهاء العدة إنه مستعد للصلح معها وإعادتها إذا رغبت في ذلك شريطة أن تصبر وتتحمل إذا فضَّلَ عليها زوجته الثانية الشابّة، أمّا إذا رفضت فسوف يطلقها ويمكنها أن تنتظر إلى أن تنتهي العدة، فاختارت الخيار الأول فتصالحا ونزلت الآية الشريفة لتبين حكم هذه القضية.[٣]

لا يوجد في هذه القضية حكم لكن التشجيع على الصلح والترغيب فيه واضح من منطوق الآية. وفي آية أخرى حول سلوك الزوجة حيث يكون الخلاف ناجمًا عن سلوكها لا عن سلوك الزوج، ثمة إشارة إلى إسلوب التحكيم:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾.[٤]

---

١. «وَمَن مَشَى في صُلحٍ بين اثنَينِ صَلَّت عليه الملائكةُ حتى يرجِعَ، وأُعطِيَ أجرَ ليلةِ القدرِ». الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٣، ص ١٦٣.

٢. النساء: ١٢٨.

٣. المكارم شيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٤، ص ١٥٠.

٤. النساء: ٣٥.

٥. تدخل الحاكم لحل المشاكل العائلية

«ولاية الحاكم على الممتنع» هي إحدى القواعد الفقهية. طبقًا لهذه القاعدة إذا امتنع شخص عن أداء حقوق الآخرين أو عن النهوض بواجباته وتكاليفه، سيكون بوسع الحاكم المسؤول في المجتمع الإسلامي أو موظفيه المنصوبين من قبله القيام بتلك الواجبات التي امتنع الشخص الممتنع عن القيام بها نيابة عنه، وذلك من باب ولايتهم عليه.

وتسري هذه القاعدة على شؤون الأسرة أيضًا، فإذا لم ينهض الزوج بواجباته المالية تجاه أفراد أسرته كان من حق الحاكم إرغامه على ذلك، وإذا امتنع عن ذلك تدخل الحاكم مباشرة لمعالجة الموقف واستقطع تكاليف العائلة من ممتلكات الزوج.

٦. حل الخلافات العائلية عن طريق المحاكم

الطريقة الأخيرة لحل الخلافات العائلية هي مراجعة المراجع القضائية والمحاكم، لكن محاكم العائلة وأسلوب المرافعات فيها يختلف عن سائر المحاكم بسبب الحالة الخاصة للأسرة وقضاياها.

القسم الثالث: وظائف الأسرة

للأسرة في كل نظام ثقافي واجتماعي وظائفها ومهماتها التي تكتسب الأسرة معناها من خلالها. ووجود هذه الوظائف هو الذي يفرز قواعد ومقررات معينة. وعندما تتغير هذه الوظائف في المجتمع فقد يتغير شكل العائلة تبعًا لها أو قد تشهد العائلة تحولًا أساسيًا نتيجة لذلك. ولا يوجد اتفاق حول عدد وظائف الأسرة.[1] وفيما يلي نسلط الضوء على وظائف الأسرة في بنية النظام الحقوقي والأخلاقي في الإسلام.

---

١. ترنر، جاناثان، مفاهيم و كاربردهاى جامعه‌شناسى، ص ٢٦٣. كوين، مباني جامعه شناسي، ص ١٧٩-١٨١. صانعي، جامعه شناسي ارزشها، ص ١٩٩.

المبحث الأول: الإشباع الشرعي المنظم للحاجة الجنسية

الحاجة الجنسية من الاحتياجات الغريزية عند الإنسان. وهي حاجة لا تختص بالإنسان فهي مشهودة عند الحيوانات أيضًا. ويكمن استمرار نسل الإنسان والحيوانات في إشباع هذه الحاجة بشكل طبيعي. ويعود الفارق الأساسي بين الإنسان والحيوان في هذا الخصوص إلى أسلوب إشباع الحاجة الجنسية، فالإنسان يتبع ضوابط سلوكية وحقوقية وأخلاقية معينة بإرادته واختياره لتلبية هذه الحاجة. وقد يخرج إشباع هذه الحاجة عن مساره الطبيعي فيترك ذلك تأثيرات خطيرة على وظائف الأسرة.

ولعل إقامة العلاقات الجنسية المتنوعة والتعطش للتنويع الجنسي من مصاديق عدم مراعاة الضوابط السلوكية، وهو ما يمكن ملاحظة نماذج له في التاريخ.[١]

والكلام الآن حول أسس شرعية إشباع الحاجة الجنسية وإطاره القانوني. هناك في هذا المضمار منحيان: منحى سيادة الإرادة بمعنى أن يكون الفرد حرًا في تلبية احتياجاته الجنسية فيستطيع إشباع رغباته الجنسية باختياره نوع العلاقات الجنسية دون أدنى قيد أو شرط. والنتيجة المنطقية لمثل هذا المنحى هو التركيز بشكل كبير في التجريم على عنصر العنف وعدم الرضا في العلاقات الجنسية. طبعًا حتى في هذا المنحى قد تفرض المبادئُ الأخلاقية بعضَ القيود والشروط من قبيل منع زنا المحارم.

المنحى الثاني هو أن تكون شرعية العلاقات الجنسية ذات أساس إلهي. في هذا المنحى وفي ضوء الأساس الإلهي للحقوق ومبدأ الصيانة في العلاقات الجنسية يجب على الفرد العمل ضمن الحدود والإطار الذي يحدده المشرِّع. ففي هذا المنحى قد لا يكون مجرد الرضا كافيًا لشرعية العلاقات الجنسية، ولهذا تخرج جرائم العفاف في النظام الحقوقي الإسلامي عن حيّز حق الناس وتكتسب ماهية الحق الإلهي، ولا تقوم على مجرد الإكراه العنف وعدم الرضا. إنما تعد إقامة علاقات جنسية خارج الأطر القانونية جريمة، مع أن الإكراه والعنف من شأنهما تشديد العقوبات. في هذا المنحى يخضع أسلوب تلبية الحاجة

١. محمود، المرأة المسلمة، ص ٣٧-٤٠.

الجنسية حتى مع الزوجة إلى مقررات حقوقية وأخلاقية خاصة، وقد تقرر ضمانات تنفيذية لمواجهة المخالفات.

بالإضافة إلى القواعد والضوابط الحقوقية تدلنا نظرة إجمالية للنصوص الروائية على درجة الأهمية البالغة التي يوليها الإسلام لهذه القضية حيث قرر في هذا النطاق قواعد أخلاقية وصحية، بل وبيّن على نحو الدقة أوقات ممارسة العلاقة الزوجية وأحكامها.[١]

وأدبيات القرآن الكريم في هذا الصدد أدبيات خاصة مميزة. فالذين يلبون حاجتهم الجنسية ضمن إطار الشريعة هم المحصنون. والإحصان من مادة «حصن» بمعنى القلعة. وفي ضوء هذا المعنى تسمّى النساء صاحبات الأزواج وكذلك النساء العفيفات الطاهرات اللاتي يحفظن أنفسهن من الممارسات الجنسية مع الآخرين غير أزواجهن أو الخاضعات لحماية وإشراف الرجال، يُسمّينَ بالمحصنات.[٢] والمسافح من الجذر «سفح» بمعنى جريان الماء أو الأعمال العبثية أو المفرطة الزائدة، والسفاح بمعنى الزنا.[٣] استخدم القرآن الكريم مفردة المحصن للتعبير عن الذين يستطيعون تلبية حاجتهم الجنسية بالطريق الشرعي. وما يقابل «المحصنات» في الأدبيات القرآنية هو «المسافحات» و«المتخذات أخدان». تطلق كلمة المسافحات على النساء اللاتي يرتكبن أعمالًا مخلة بالعفاف علانية. ويطلق تعبير متخذات أخدان على اللاتي يرتكبن أعمالًا مخلة بالعفاف بشكل سرّي خفيّ.[٤]

في ضوء هذه الأمور، الذين يمتلكون إمكانية تلبية حاجاتهم الجنسية بطريق شرعي ومع ذلك يتجاوزون الضوابط، يواجهون عقوبات أثقل بعد تحقق شروط معينة. لذلك قرر المشرع عقوبة الرجم للرجل المحصن إذا زنا وللمرأة المحصنة إذا زنت مع رجل بالغ.[٥]

---

١. الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ص ٢٣٥-٢٣٦. الحلي، نهاية الأحكام، ص ٢٦١.

٢. المكارم شيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٣، ص ٣٣٢.

٣. م ن، ص ٣٣٤.

٤. النساء: ٢٥.

٥. قانون الجزاء الإسلامي، المادة ٨٣.

المبحث الثاني: الإنجاب وحفظ النسل البشري

وظيفة أخرى من وظائف الأسرة هي الحفاظ على النسل البشري ضمن بنية ونظام قانوني شرعي. وربما جاز القول إن هذه الوظيفة هي أهم وظائف العائلة. إن أهمية هذه الوظيفة من وظائف العائلة بالشكل الذي جعلت بعض علماء الأنثروبولوجيا والإنسان مثل مالينوفسكي[١] يحصرون ماهية العائلة فيها، فيعرِّفوا العائلة بأنها عقد يتم من أجل إنجاب الأولاد ورعايتهم وتربيتهم.[٢] ويعتقد وليام ولف[٣] أن العائلة ما عدا السنة أو السنتين الأولتين – اللازمتين لتربية الأطفال – وجودٌ ميّت، إذ ليس للعائلة من وظيفة غير إنجاب الأولاد وتربيتهم.[٤]

ولكن هل لهذه الوظيفة أصالتها الذاتية في الأسرة أم هي مجرد وسيلة للوصول إلى مطامح إنسانية أخرى؟ كان ازدياد عدد الأفراد في بعض الحضارات القديمة مؤشرًا على القوة والاقتدار، وكان الإنجاب مهمًا من أجل إعداد وتنشئة أفراد لتكوين القوات المسلحة المدافعة. لهذا السبب عُد الإنجاب ولا سيما إنجاب الذكور الأقوياء أمرًا مهمًا في هذه الحضارات.[٥] وفي الثقافة الإسلامية يعتبر الأولاد وأنْ يكونَ للإنسان أولاد من نعم الله على الإنسان، وبنظرة أخروية للإنسان وفي ضوء الاعتقاد بعدم انقطاع الإنسان عن عالم ما بعد الموت، عدت مكانة الولد الصالح مؤثرة في الثواب الأخروي للوالدين.[٦]

ورغم ما لهذه الوظيفة من أهمية فهي مجرد وظيفة واحدة فقط من وظائف العائلة ولا

---

1. Bronislaw Kasper Malinowski.

٢. رنجبر، محمود، و ستوده، هدايت الله، مردم‌شناسی با تکیه بر فرهنگ مردم ایران (علم الإنسان في ضوء ثقافة الشعب الإيراني)، ص ١٢٢.

3. William Wolf.

٤. توفلر، صعقة المستقبل، ص ٢٣٩.

٥. محمود، المرأة المسلمة، ص ٣٧.

٦. طبقًا لبعض الروايات إذا مات الإنسان تنقطع صلته بالدنيا إلا فيما يتعلق بما أبقاه من صدقة جارية أو علم ينتفع به الآخرون أو ولد صالح يذكره ويدعو ويستغفر له «إذا مات ابنُ آدمَ انقطع عملُه إلا من ثلاثٍ : صدقةٍ جاريةٍ ، وعلمٍ ينتفعُ به ، وولدٍ صالحٍ يدعو له» (المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٨٨٥. المتقي الهندي، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، الرواية ٤٣٦٥٥).

يمكن القول إن وظائف العائلة منحصرة فيها. اهتمت تعاليم الإسلام بهذه الوظيفة ويمكن بمراجعة النصوص الدينية أن نلاحظ أن الله أودع بحكمته في نظام التكوين والخلقة جميع العناصر اللازمة للإنجاب في وجود الرجل والمرأة، ووضع من الناحية التشريعية مقررات وضوابط دقيقة لهذا الغرض. وإن وجود هذه القضية ضمن وظائف الأسرة يشطب بخط البطلان على طروحات المثليين في تشكيل أنماط أخرى شاذة من الأسر.

ومثلما يلاحظ فإن لهذه الوظيفة عنصران:

أ. إنجاب المرأة والرجل هو من أجل الحفاظ على النسل البشري. ويشير الله تعالى في آية قرآنية إلى الإنجاب ضمن الإشارة إلى خلقة الإنسان من نفس واحدة واستقراره وسكينته إلى جوار زوجه:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.[١]

بالإضافة إلى ذلك، يعدد الله في عدة آيات من سورة الفرقان صفات عباد الرحمن. ومن هذه الصفات أنهم يسألون الله أن يفرحهم ويقرّ أعينهم بأزواجهم وأولادهم وذرّيتهم وأن يجعلهم الله قدوة للمؤمنين المتقين **﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾**.[٢] لذلك نرى بعض الأنبياء الإلهيين مثل النبي زكريا عليه السلام رغم تقدّمه في العمر ومع أن زوجته كانت عاقرًا لا تلد لكنه طلب من الله أن يهبه أولادًا،[٣] وقد استجاب الله دعاءه ووهبه ولدًا ذكرًا اسمه يحيى.[٤] إن إنجاب الأولاد في العائلة من الأهمية بحيث أنّ القرآن الكريم عبّر عن زوجة النبيّ زكريا عليه السلام قبل أن تنجب على لسان زكريا بكلمة «امرأتي»[٥] ولكن بعد إنجابها النبيّ زكريا عليه السلام استخدم القرآن الكريم على لسان النبيّ زكريا عليه السلام كلمة

---

١. الأعراف: ١٨٩.

٢. ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان: ٧٤).

٣. ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٩).

٤. ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى﴾ (الأنبياء: ٩٠).

٥. ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (آل عمران: ٤٠).

«الزوجة» للتعبير عنها.[١]

ب. مثل هذا الإنجاب يجب أن يتم ضمن الإطار القانوني الشرعي. ومبدأ الشرعية مبدأ معروف تعترف به كافة المجتمعات. والتحقيقات التي تم إنجازها لحد الآن تؤيد هذا التعميم، فجميع المجتمعات تميز بين الأولاد الشرعيين والأولاد غير الشرعيين، فهي تعترف بشكل من الأشكال بوجود ولادات غير شرعية وأولاد غير شرعيين.[٢]

وتقرر التعاليم الإسلامية وجود كلا الأمرين بصورة متناسقة متلازمة. وبمراعاة هذا الإطار يتحقق النسب الشرعي ووجودها هو الأرضية اللازمة لتحقق الكثير من القواعد التي تسود السلوك في العلاقات الاجتماعية. وترشدنا مراجعة الحقوق الإسلامية إلى أن العديد من التكاليف والحقوق الاجتماعية صمّمت وشرّعت على أساس النسب الشرعي،[٣] لذلك نجد مفردات مثل «طهارة المولد» و«ولد الزنا» ذات أهمية كبيرة في الأدبيات الدينية والفقهية، وهناك بحوث ونقاشات حول هذا الموضوع من النواحي الفقهية والأخلاقية وحتي الكلامية.[٤]

من مجمل النقاط التي مرّت بنا حول وظيفة الإنجاب والحفاظ على النسل، يمكن

---

١. ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (الأنبياء: ٩٠).

٢. اسپنسر، «مكانة الأسرة في الغرب»، ص ٨٤.

٣. اشترطت طهارة المولد في بعض الأمور. وبالطبع فثمة نقاشات واختلافات حول بعض هذه الأمور ينبغي أن تدرس في مظانها. وهذه الأمور هي: الشهادة، والإمامة، والقضاء، والمرجعية، والدية، والطهارة والإرث (راجع: علم الهدي، الانتصار، ج ٣، ص ٢٠٩. الطوسي، النهاية، ص ٦٨١. الخميني، تحرير الوسيلة، ج ٢، ص ٥٥٩. الخوئي، الاجتهاد والتقليد، ص ٢٢٧، وكتاب الصلاة، ج ٥، ص ٤٠، ومباني تكملة المنهاج، ج ١، ص ١١). يجب القول إن شرعية النطفة من حقوق الولد التي يتحمل الوالدان المسؤولية حيالها، إذ في حال عدم تحمل هذه المسؤولية لن يتسنى للولد أن يتمتع ببعض المواقع الاجتماعية.

٤. من البحوث المطروحة حول ولد الزنا فلاحه وإيمانه وكفره. ولهذه البحوث جذورها التاريخية ويجب أن تدرس من زوايا كلامية وفي ضوء أدلة عقلية ونقلية أخري. وقد كان السيد المرتضي من الفقهاء الذي درس الموضوعات والشبهات الكلامية المتعلقة بولد الزنا إلى جانب بحوثه ودراساته الفقهية (راجع: علم الهدي، رسائل المرتضي: الانتصار، صص ٥٠٢ و ٥٠٣، و: ج ١، ص ٣٩٩، و: ج ٣، ص ١٣٢).

الاستنتاج بأن لهذه الوظيفة عنصرين: أحدهما هو حصول الإنجاب، والثاني هو أن يكون هذا الإنجاب شرعيًا.

في خصوص العنصر الأول يجب القول إن الطريقة المألوفة للإنجاب هي العلاقة الجنسية الطبيعية، ولكن مع تطور العلوم وتقنيات الأحياء ظهرت أساليب وطرائق اصطناعية للإنجاب والتناسل. وعمومًا يحصل الإنجاب بطريقتين إحداهما جنسية والثانية غير جنسية.[١] ويمكن لكل واحدة من هاتين الطريقتين أن تتم بشكل اصطناعي باستخدام بعض التقنيات.[٢] والمقصود من الإنجاب الجنسي هو استخدام الخلايا الجنسية الذكورية[٣] والأنثوية[٤] وتركيبها لتكوين بويضة مخصّبة[٥] لها قابلية الانشطار الخلوي والتكاثر والتحول إلى إنسان. وفي الأسلوب الاصطناعي تتم هذه المراحل خارج الرحم، وبعد إحراز القابلية للانشطار الخلوي واستمرار الكتلة الخلوية الناتجة عن ذلك يتم نقل هذه الكتلة إلى رحم المرأة المعنية.[٦] طبعًا كانوا في الماضي يستخدمون أسلوبًا آخر فيضعون سائل المني أو الحيامن بعد إعدادها أو تنضيجها في أجزاء مختلفة من الأعضاء التناسلية للمرأة بشكل مباشر.[٧] وهنا تطرح أسئلة فقهية وحقوقية متعددة حسب من يكونه صاحب الخلايا الجنسية أو الحيامن، وحسب أسلوب تنفيذ العملية.

وحول العنصر الثاني ينبغي القول إن بعض الأفراد لا يراعون الضوابط القانونية أحيانًا وهو ما قد يؤدي إلى ولادة أولاد غير شرعيين. وفيما يلي نناقش على وجه الإيجاز حالات

---

١. النباتات وبعض الحيوانات ومنها أنواع من السحليات تتكاثر عن هذا الطريق. في هذه الطريقة تنتج الأنثي عن طريق غاميتها كائنًا مماثلًا لها ومن نوعها من دون أي اتصال جنسي. وبذلك سيكون الكائن المولود بهذه الطريقة أنثي على الدوام. وتسمي هذه الطريقة من التناسل والتكاثر التناسل غير الجنسي (إسلامي، الاستنساخ من وجهة نظر المسيحية الكاثوليكية والإسلام، ص ٧٤).

٢. م ن؛ ص ٦٨.

٣. غاميت ذكوري.

٤. غاميت أنثوي.

5. Zygote.

6. In Vitro Fertilization (IVF).

7. Intra-Unerine Insemination

مخالفة العنصرين المذكورين. كما أن بعض الأفراد قد ينسبون أحيانًا وبشكل تعاقدي أبناءَ غيرهم إليهم بناءً على قاعدة التبنّي. وهذا ما سوف ندرسه أيضًا في صفحات آتية.

١. الإنجاب الجنسي الاصطناعي

كان حل مشكلة عدم الإنجاب[1] من الهموم الأساسية لكثير من الأزواج والأطباء على مدى التاريخ. وفي العصر الحاضر ومع تقدم العلوم والتقنيات المختلفة تيسّر الإنجاب بالنسبة لمثل هؤلاء الأفراد، وهو ما يتم عن طريق تقنيات المساعَدة على الإنجاب.[2] واستتبعت إمكانية هذه العملية نقاشات حول جوازها شرعًا وقانونًا. وقد نظر الفقهاء لهذه القضية في ضوء قلقين أو همّين اثنين: يتعلق الهمّ الأول باللقاح الاصطناعي بين خلايا جنسية لرجل وامرأة غير متزوجين ووضع التركيبة أو النطفة في رحم تلك المرأة أو في رحم امرأة ثانية. ويتعلق الهمّ الثاني بارتكاب أعمال محرمة أثناء عملية اللقاح وزراعة البويضة المخصّبة (النطفة) في الرحم، من قبيل لمس الأجنبية.

والطريقة المعتمدة غالبًا هي أن يتم تركيب الخلايا الجنسية للمرأة والرجل بلقاح خارج الرحم وتكون البويضات المخصبة جاهزة بالنسبة لهم. وفي بعض الأحيان يكون عدد الأجنّة الناتجة عن هذه العملية أكثر من حدود الحاجة، وفي هذه الحالة قد يُنقل مثل هذا الجنين إلى رحم امرأة ثانية. الأصل في مثل هذا الافتراض هو جواز نقل جنين امرأة وزوجها إلى رحم امرأة ثانية ليست هي صاحبة النطفة. وعلى افتراض الجواز سوف تطرح أسئلة حول أحكام الطفل المولود من هذه العملية من قبيل أحكام النَّسَب والمحرمية والولاية والميراث والنفقة.

ويتسنى تقسيم مجموعة آراء الفقهاء والحقوقيين الإسلاميين في هذا الخصوص إلى عدة فئات[3]:

---

1. Infertility

2. Assisted Reproductive Technologies (ART)

٣. رضانيا معلم، محمد رضا، باروری‌های پزشکی از دیدگاه فقه و حقوق (التخصيب الطبّي من وجهة نظر الفقه والحقوق)، ص ١٢٠-١٢٣.

١. جواز الإنجاب والتخصيب الاصطناعي جوازًا مطلقًا بكل أقسامه وأشكاله: والدليل الأساسي على هذا الرأي الفقهي هو أصالة الإباحة بالإضافة إلى الادعاء بأنه لا يمكن العثور على دليل شرعي مقبول لصالح حرمة هذا العمل. بالطبع يرى هذا الفريق من الفقهاء وكسائر الفقهاء أن من الواجب واللازم اجتناب كل المحرمات في عملية التخصيب الاصطناعي.

٢. المنع المطلق حتى إذا كانت هناك ضرورة. وبعض فقهاء أهل السنة على هذا الرأي. والدليل الرئيس على هذا الرأي عندهم هو بعض الآيات القرآنية[1] التي عَدّت الإنجاب من ماء دافق أو التي تحدثت عن قرارٍ مكينٍ يراد منه رحم المرأة. لقد صاغ هؤلاء الفقهاء رأيهم هذا اعتمادًا على مثل هذه النصوص القرآنية، فذهبوا إلى أن مثل هذه الأمور التكوينية يمكن أن تدل على قواعد تشريعية.

٣. جواز الإنجاب الاصطناعي بين الزوجين جوازًا مطلقًا، وجوازه جوازًا مشروطًا بين الأجانب (غير المتزوجين): لم يفرِّق بعض الفقهاء بين أنواع التخصيب الطبي بين الزوجين من حيث الجواز، لكنهم اعتبروا التلقيح بين حيمن وبويضة أجنبية بطريقة الـ آي. يو. آي حرامًا. وفي حال تمت هذه العملية بطريقة الـ آي. في. أف، وعن جهل (أو كانت غايتها الأولى شيئًا غير التخصيب والإنجاب) فيعتبروها جائزة. استدلالهم على رأيهم هذا هو أن التلقيح بطريقة الـ آي. يو. آي حرام لصراحة أحاديث حول موضوع «وضع نطفة أجنبية في رحم امرأة أجنبية»، أما في الحالات الأخرى فلا يعثر على أي دليل يفيد المنع.

٤. جواز الإنجاب الجنسي الاصطناعي جوازًا مطلقًا: في هذا الرأي ملاك الجواز أو المنع هو تركيب حيمن وبويضة الزوجين أو تدخل عامل خارجي في العملية، أما أسلوب العملية فليس له أي تأثير في جواز أو حرمة أصل الموضوع والدليل الذي يسوقونه على ذلك هو بعض الآيات القرآنية والأحاديث والأدلة العقلية والاستحسانية وفلسفة تشريع النكاح والملاك الموجود في حرمة الزنا، والتبنّي، وما إلى ذلك.

على كل حال، حتى لو افترضنا حصول الإنجاب الاصطناعي فيجب البحث حول علاقة

---

١. البقرة: ٢٢٣. الطارق: ٦. المؤمنون: ١٣. المرسلات: ٢١.

الطفل بسائر الأفراد ذوي العلاقة بالإنجاب. ومن الأسئلة الأساسية حول الإنجاب الجنسي الاصطناعي أو غير الجنسي ما يتعلق بنسبة الطفل المولود بهذه الطرائق والأساليب. وحيث إن حديثنا في هذه الصفحات حول حقوق المرأة في الأسرة، وقد يكون الطفل المولود أنثى، فيجب تعيين والده ووالدته النسبيين، وكذلك لمعرفة حقوق الأمّ يجب تشخيص الأمّ النسبية في مجموعة عوامل الإنجاب. وهكذا يتضح موقع الطفل في هذه العائلة وتتعين العناوين المرتبطة بالحقوق والواجبات.

اعتبر بعض المحققين أن ملاك شرعية النسب هو الإنجاب وبالنتيجة تركيب حيمن وبويضة الزوجين، واستنتجوا عدم شرعية تدخّل عامل أجنبي في تكوين الجنين،[1] فميّزوا على هذا الأساس بين أشكال مختلفة للمسألة.

ومن أجل اتضاح الأشكال المختلفة لا بدّ من التمييز بين فرضين اثنين. أحيانًا يدور الكلام حول ولد ناتج عن حيمن وبويضة الزوجين، وتارة يدور الكلام حول ولد ناتج عن غاميت (مشيج) أو زيغوت (بويضة مخصّبة) لرجل وامرأة غير متزوجين. يستبطن الشكل الأول فرضيات مختلفة، وينبغي هنا تمييز أربعة افتراضات عن بعضها:

إذا كانت عملية التلقيح قد تمت في زمن الزوجية يمكن القول إن القدر المتيقن من مفاد قاعدة الفراش وقاعدة إمكان إلحاق الولد بالأب يشمل هذا الفرض، مع أن بعض الفقهاء اعتبروا نسب الأمّ مفروضًا فشكّكوا في استقامة نسب الأب.[2]

والفرض الثاني هو عندما تتم بعض عمليات تركيب الحيمن والبويضة قبل قيام علاقة الزوجية، وبعد الزواج يتم نقل البويضة المخصبة إلى رحم الزوجة الحالية. ولهذا الفرض بحد ذاته عدة فروع: إما أن يكون في نيّة الطرفين أن يتزوجا أو لا يكون ذلك في نيّتهما، وفي كلا الحالين فإن نقل البويضة المخصبة حصل إمّا قبل الزواج أو بعده. وقد أبدى الفقهاء في هذا الخصوص آراءً متنوعة. بعضهم اعتبروا النسب شرعيًا في جميع الحالات والأشكال،

---

١. م ن، ص ٣١٤-٣١٥.

٢. الطباطبائي الحكيم، منهاج الصالحين، ص ١٩٧؛ النجفي، جواهر الكلام، ج ٤١، ص ٢٩٨.

وبعضهم مال نحو التمييز.

الفـرض الآخر هو حينما يعود الولد الناتج عن هـذه العملية إلى ما بعد انحلال النكاح. في هذه الحالة إذا كان الطلاق رجعيًا كان نسـب الولد شـرعيًا فيلحق بوالده ووالدته. أما إذا كان انحلال النكاح بالطلاق البائن فسـيعتبر الرجل والمـرأة اجنبيين على بعضهما، وبذلك يعتبر الطفل المولود من هذه النطفة المتكوِّنة في هذه الفترة كالطفل الناتج عن تركيب حيمن وبويضة رجل وامرأة أجنبيين على بعضهما.

الفـرض الآخر عندما يكون الطفـل الناتج بعد موت الزوج. فإذا كانـت المرأة في عدة الوفـاة زوجةً أو في حكم الزوجة كان الطفل المولود شـرعيًا ويلحـق بأبيه وأمه. هذا مع أن بعض الفقهاء يعتقدون أن الإلحاق يكون بالوالدة فقط خصوصًا إذا تمَّ ذلك بدون إرادة الزوج ووصيته.[١]

إذا اعتبرنـا الموت فاسـخًا للعلاقـة الزوجية[٢] سـتعتبر المرأة أجنبية وسـيكون تركيب الحيمن والبويضة تركيب غاميت رجل وامرأة أجنبيين على بعضهما وسـيتبع النسـب حكم تلـك الحالة.[٣] طبعًا إذا كان الحيمن والبويضـة قد تم تلقيحهما وتركيبهما قبل موت الزوج، ومـا حصل في فترة عدة الوفاة هو نقل البويضة الملقحـة (المخصبة) أو الزيغوت إلى رحم المـرأة ليس إلّا، فإن البعض يعتبرون ذلك من قبيل نقل الجنين الحاصل عن حيمن وبويضة الزوجين. وهذا في حالة أن هؤلاء الفقهاء يأخذون فترة الحمل بمعناها الموسـع حيث تبدأ من زمن تشكيل الزيغوت.

فـرض أن الولـد ناتج عن غاميت أو زيغـوت لرجل وامرأة غيـر متزوجين له هو الآخر

---

١. فاضل اللنكراني، جامع المسائل، ص ٦٠٣-٦٠٤.

٢. من الموضوعات التي تبحث والتناقش ما تتلخص فحواه في السؤال: هل تنتهي صلة الزوجية بالموت أم إنها تستمر رغم الموت؟ تدرس هذه القضية في الفقه في مباحث من قبيل تكلفة كفن الزوجة، وتغسيل الزوجين أحدهما من قبل الآخر، وما شابه من الأمور. البعض أنكر بقاء مثل صلة الزوجية بعد الموت (راجع: يوسف البحراني، الحدائق الناضرة، ج ٤، ص ٦٤. الطباطبائي الحكيم، مستمسك العروة الوثقي، ج ٤، ص ١٦٤)، ويذهب البعض إلى بقاء الزوجية حتى بعد الموت (فاضل الهندي، كشف اللثام، ج ١، ص ١١٠. النجفي، جواهر الكلام، ج ٤، ص ١٥٣).

٣. الطباطبائي الحكيم، فقه الاستنساخ البشري وفتاوي طبية، ص ٥٠.

حالات مختلفة: فتــارة يكون الولد ناتجًا عن حقن حيمن أجنبي أو بويضة أجنبية أو كلاهما في الأعضاء التناسلية لامرأة متزوجة أو امرأة بلا زوج. وتارة يكون ناتجًا عن لقاح أو تركيب خــارج الرحم ومن ثم تنقل التركيبة إلى الرحم. وتطــرح حول كل واحد من هاتين الحالتين نقاشات وآراء متعددة فتؤخذ بالحسبان عوامل مؤثرة في تحقق النسب سواء كان نسبًا للأب أو للأم.

٢. الاستنساخ البشري

الاستنســاخ البشــري جانب آخر من جوانب تقدم العلوم في العصــر الحاضر. فخلافًا للطريقة المألوفة المعروفة للإنجاب بلقاح حيامن الذكر مع بويضة الأنثى، يتم الإنجاب هنا عن طريق الاستنساخ بطريقة غير جنسية، وذلك بأن يأخذوا نواة بويضة غير مخصّبة ويدخلوا فيها نواة خلية جســمية لفرد معين فيعيدوا إنتاج بويضة لذلك الفرد بـ ٤٦ كروموزومًا. وبعد ذلك يحفّزون البويضة بواســطة تيار كهربائــي أو أدوية كيمياوية لتقوم بالانشــطار الخلوي والتكاثــر والنمو. ثم تصل البويضة في المختبر إلى مرحلــة تعدد الخلايا وكثرتها فتُنقل بعد ذلك إلى رحم مضيف مناسب أو أمّ بديلة.[١]

هناك موضوعــان مهمان فيما يتعلق بالاستنســاخ البشــري، أحدهما: هل الاستنســاخ البشري عملية جائزة؟ والثاني: بغض النظر عن جواز أو عدم جواز هذه العملية، ما هو الوضع الحقوقي للشخص الناتج عن عملية الاستنساخ البشري؟

ثمة أدلة وآراء مختلفة حول جواز أو عدم جواز الاستنســاخ البشــري. وقد صنف بعض الباحثين هذه الأدلة ضمن تقسيم كلّي إلى أدلة كلامية وعقيدية، وأدلة فقهية وحقوقية، وأدلة أخلاقية، وأدلة اجتماعية ونفســية، وأدلة علمية.[٢] وقدم فقهاء الشيعة بدورهم آراء متنوعة في ضوء أدلتهم ومصادر استنباطهم.[٣]

---

١. راجع: إسلامي، شبيه‌سازى انسانى از ديدگاه آيين كاتوليک و اسلام، ص ٧٥-٨٢.

٢. م ن، ص ٢١١-٤٣٠.

٣. هناك اختلافات بين علماء الشــيعة حول جواز الاستنســاخ في مجال النباتات والحيوانات. من وجهة نظرهم يعود جــواز مثل هذه الأعمال إلــى أصالة الإباحة حيث لا يوجــد دليل مقنع على منعها. وهناك رأيان أساســيان حول

وتطـرح بحوث ونقاشـات مهمة فيمـا يتعلق بالوضـع الحقوقي للشـخص الناتج عن الاستنسـاخ البشـري. هنا ينبغي دراسـة موضوعين بصورة منفصلة. أحدهما: ما هي علاقة الشـخص المستنسَخ (الناتج عن الاستنساخ) مع صاحب الخلية؟ والثاني: ما هي علاقته مع المرأة التي زُرِعت البويضة في رحمها؟

الشيء الأكيد – من ناحية سلبية – هو أن الشخص الناتج عن الاستنساخ ليس «ولد زنا»، بيد أن تعيين موقعه وطريقة تمتعه بحقوقه في العائلة وتحليل واجبات المرأة والرجل تجاهه أمور تحتاج إلى آراء إيجابية. على سـبيل المثال إذا نسـبنا الشخص المستنسَخ إلى صاحب الخلية فسـتكون هناك علاقة عائلية بينهما. وكذلـك إذا اعتبرنا علاقته مع صاحبة الرحم في حكم الرضاع فستنتج عن ذلك قواعد وأحكام المحرمية.[1]

٣. الأولاد غير الشرعيين

المطلوب هو أن يولد الأطفال ويترعرعوا في المؤسسـة الأسرية بطريقة شرعية، ولكن ليس الجميع ملتزمين بالقيم والسـلوكيات المقبولة، وقد يصـدر عنهم بفعل عدم مراعاتهم

الاستنسـاخ البشـري بين علماء الشـيعة: أ. الجواز المطلق: حيث أجاز بعض الفقهاء الاستنساخ البشري استنادًا على القاعدة الفقهية: «كل شـيء لك حلال حتى تعلم أنه حرام بعينه فتدعه» وأصالة الإباحة. ومن هؤلاء الفقهاء الشيعة آيات الله العظمي السيد الخامنئي، والسيد السيستاني، والشيخ فاضل اللنكراني، والشيخ بهجت، والشيخ نوري همداني، والزنجاني، والشيخ جوادي آملي، والشيخ مؤمن، والسيد محمد حسين فضل الله، والسيد محمد سعيد الحكيم. ب. الجواز المحدود والحرمة الثانوية: يعتقد آيات الله العظمي جواد التبريزي (التبريزي، صراط النجاة؛ ج ٣، ص ٣٩٤)، والمكارم شـيرازي، وكاظم الحائري، وإبراهيم الجناتي أن الاستنسـاخ البشري إذا أدي إلى اختلالات في النظام (لأسـباب من قبيل تعذر معرفة الأفراد وهوياتهم وتمييزهم بعضهم عن بعض أو زعزعة المؤسسة الأسرية) فهو غير جائز (راجع: إسلامي، لاستنساخ البشري من منظار المسيحية الكاثوليكية والإسلام، ص ٤٦٥-٥٠٠).

١. راجع: الحائري، الفتاوي المنتخبة، ص ٢٥٨. الحكيم، مستمسك العروة الوثقى، ص ٦٦. معاونية التعليم والبحث العلمي في السـلطة القضائية، مجموعة النظريات الاستشارية الفقهية: الشؤون الحقوقة؛ ج ٣، صص ٩٣-١٠١. الأردبيلي، الموقع الإعلامي للمكتب الحقوقي في وزارة الصحة والعلاج والتعليم الطبي، «قسـم الاسـتفتاءات الفقهية».

للضوابـط الحقوقية والأخلاقية عمل يؤدي إلى ولادة طفل غير شـرعي. مثل هذا الفعل قد يكـون ناجمًا عن عمـل الزنا المحرم أو قد يكون ناتجًا عن أشـكال من التلقيح الاصطناعي أو الاستنسـاخ البشـري غير الشـرعي. ومع أن الرجل والمرأة هما المذنبان هنا، لكن ينبغي الاعتراف بأن ولدهما سيعاني هو الآخر من مشكلات كبيرة رغم أنه لا ذنب له، لذلك تنبغي دراسة حقوقه بروح الحماية والدعم.

٤. تبنّي الأولاد

كان تبنّي الأولاد من الأعراف والسـنن الجاهلية قبل الإسلام. وقد كان الأولاد الذكور في الثقافة الجاهلية يزيدون من اقتدار الشخص ومكانته وجاهه، لذلك كان الرجال يحاولون زيادة قدراتهم بزيادة عدد أولادهم الذكور حتى لو كان ذلك عن طريق التبنّي. وكانوا إذا تبنوا ولدًا أجروا عليه أحكام الولد الصلبي وحقوقه كلها، فإذا كان الولد بالتبنّي بنتًا مثلًا صار حرامًا على من يتبناها الزواج منها، وإذا مات الأب المتبنّي ورثه ولدُهُ بالتبنّي كسائر أولاده الصلبيين. وهكذا كانت تجري عليهما سائر الأحكام التي تجري بين الآباء وأولادهم الصلبيين.[١]

وحيث إن تبنّي الأولاد كان عرفًا راسخًا في حياة العرب قبل الإسلام فقد تصرف الإسلام بطريقة دقيقة لإصلاح هذا العرف الجاهلي. يقول الله سبحانه في إلغاء الشكل الجاهلي لهذا العرف: ﴿**وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ**﴾.[٢] تؤكد هذه الآية الكريمة على أن الله لم يجعل الذين تتبنونهم أبناءكم الحقيقيين حتى تجري عليهم أحكم الأولاد الصلبيين. ويتابع سبحانه القول لتكريـس عدم اعتبار التبنّي مقارنًا بيـن اعتبارات الناس والقوانين الإلهيـة: ﴿**ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ**﴾.

أي إنكم تنسـبون إلى أنفسـكم أولاد أناس آخرين، وهذا مجرد كلام تقولونه بأفواهكم وليـس له من تأثير أكثر من هذا. وهذا التعبير إنما هو كناية عن عدم تأثير هذا الكلام. ومعنى

١. راجع: الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٤، ص ١١٩-١٢٠. الرازي الجصاص، أحكام القرآن، ج ٢، ص ٩٩. الطباطبائي، فقه الاستنساخ البشري وفتاوي طبية، ج ٢، ص ٢٦٥.

٢. الأحزاب: ٤.

أن كلام الله هو الحق في هذه الآية هو أن الله يخبر بما هو الحقيقة والواقع، وإذا حكم حكمًا ترتبت آثاره عليه وتطابق مع المصلحة الواقعية والحقيقية.[١] ومعنى هدايته أن كل من يهديه الله يفرض عليه طريق الحق الذي فيه الخير والسعادة، وفي هاتين الجملتين إشارة إلى أنكم يجب أن تتخلوا عن كلامكم وتأخذوا بكلام الله بعد أن وجدتم كلامكم عديم الأثر وغير صحيح وكلام الله نافعًا دومًا ومتطابقًا مع الواقع.

ولأجل أن ينسخ الله هذا العرف الجاهلي يتطرق لأسلوب كلام الناس فيقول:

﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.[٢]

عندما تريدون تعريف ولدكم بالتبنّي أو مناداته فنادوه بنسبته إلى أبيه الحقيقي وقولوا يا ابن فلان ولا تقولوا يا ابني، فمناداتهم بأسماء آبائهم أقرب إلى العدل والقسط.

من أجل محو كل مظاهر هذا العرف الجاهلي، وبنظرة علاجية دقيقة، تطرح الأشكال والحالات الخاصة أيضًا. ففي الزمن والثقافة الجاهليين قد لا يكون آباء بعض الأولاد معلومين مَن هُم، وفي هذه الحالة قد يتصور الناس أن مثل هذا العمل جائز وبوسعهم أن يعتبروا هؤلاء أولادهم ويخاطبوهم كونهم أولادهم. هنا يُذكِّر اللهُ بطريق آخر له طابعه الشرعي في الإسلام فيقول:[٣]

﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾.[٤]

من وجهة نظر الإسلام هذا العرف باطل وملغى فلا يستطيع أحد تغيير العلاقات العائلية وأحكامها، لكن الإحسان وإعالة الأطفال من قبل العوائل شيء محبّذ ومحمود،[٥] ويمكن تقبل إعالة وحضانة الأطفال على أساس عقود، وإيجاد حالة المحرمية عن طريق الرضاع

١. المؤمنون: ١٠٠. الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ١٦، ص ٤١٢.
٢. الأحزاب: ٥.
٣. م ن، ج ١٦، ص ٤١٣.
٤. الأحزاب: ٥.
٥. الخامنئي؛ أجوبة الاستفتاءات، ج ١، ص ٣١٨.

في بعض الأحيان، والاستفادة من آليات الوصية وأحكام المحاكم لتمتع الأولاد بحقوق الميراث وحقوق الولاية للحماية. وحيث إن هذا الأسلوب معتمد في بعض البلدان ويعد ضربًا من الإحسان والتعاون على البرّ لذلك شرّعت له قوانين معينة.

٥. القواعد والأسس الحقوقية للإنجاب الشرعي

هناك ثلاث قواعد أو أسس حقوقية تتعلق بوظيفة الإنجاب الشرعي هي: قاعدة الفراش التي تُعتمَد في إثبات النسب، وقاعدة اللعان المتعلقة بنفي الولد، وقاعدة الرضاع المختصة بتوسيع دائرة أفراد الأسرة بشكل ناقص.

أ. قاعدة الفراش

من طرق إثبات النسب التمسك بقاعدة (أمارة) الفراش. تعود هذه القاعدة في أصلها إلى الحديث النبوي المعروف «الولد للفراش وللعاهر الحجر». وهذا الحديث مشهور إلى درجة أن بعض المحققين ادعوا قطعية صدوره عن الرسول الأكرم ﷺ، وذهبوا إلى أن ثبوته وصدوره من الأمور المقطوع بها بين المسلمين.[١]

من أجل تطبيق هذه القاعدة يجب أن يتوفر مفهوم الفراش وإمكان الإلحاق، وعليه يجب أن تكون علاقة الزوجية أو ما هو في حكم علاقة الزوجية قد تحقق ويجب أن يكون الجماع قد حصل واقعيًا، كما ينبغي إحراز انقضاء الحد الأدنى من مدة الحمل، وعدم انقضاء الحد الأقصى لمدة الحمل، وعدم وجود موانع أخرى من قبيل الشيخوخة الشديدة للزوج[٢]. [٣]

في ضوء هذه الشروط، درس الفقهاء تطبيق هذه القاعدة في موضوعات من قبيل الولد الناتج عن النكاح الصحيح،[٤] والطفل الناتج عن التلقيح الاصطناعي،[٥] والطفل الناتج عن

---

١. الموسوي البجنوردي، القواعد الفقهية، ص ٢٥.

٢. م ن، ص ٣٢.

٣. المصطفوي، مائة قاعدة فقهية؛ ص ١٨٥. بجنوردي، القواعد الفقهية، ص ٣٨.

٤. م ن، ج ٣١، ص ٢٣٢.

٥. م ن، ج ٤، ص ٣٠. الخميني، تحرير الوسيلة؛ ج ٢، ص ٦٢١. الخامنئي، جوبة الاستفتاءات، ج ٢، ص ٦٩.

النكاح الفاسد، أو الوطئ بالشبهة،[١] والطفل المولود بعد الطلاق من الزوج.

ب. قاعدة اللعان

تستخدم قاعدة الفراش لإثبات النسب. وتوجد في مقابلها قاعدة اللعان الموضوعة بهدف تمتين أواصر العائلة وسلامة النسب فيها. يذكر الله تعالى في الآيات الأولى من سورة النور الحد الجزائي للزاني والزانية. وبعد ذلك وبنظرة ثاقبة لآفات ومشكلات إثبات الزنا، يشرِّع الباري عزَّ وجلَّ حدَّ القذف، فإذا نسب شخصٌ الزنا لشخص ولم يستطع إثبات ذلك ضُرِبَ ثمانين جلدة كحد للقذف. النقطة المهمة هي أن إثبات الزنا بشروطه الصعبة عسير جدًا في بيئة العائلة، ومن جهة ثانية فإن عدم إثباتها يستوجب حد قذف ضد مدعيها. كما أن سكوت أحد الزوجين حيال هذا العمل الفظيع لزوجه بسبب خوفه من عقوبة القذف يؤدي إلى تصاعد وتفاقم الخلافات بينهما مما يلحق الضرر البالغ بوظائف العائلة، بل ربما تسبب في أخطار على حياة أحد الزوجين. لذلك من أجل صيانة العائلة والحؤول دون خلافات أسرية شديدة قُرِّرت آلية «اللعان» وبالنتيجة حل المؤسسة العائلة وإنهاؤها. يقول الله عزَّ وجلَّ في الآيتين ٦ و ٧ من سورة النور:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

من الواضح جدًا أنه لا يمكن في مثل هذه الاتهامات عدم الاكتراث لدفاع الزوجة عن نفسها، لذلك تطرق الباري عزَّ وجلَّ في آيات لاحقة لدفاع الزوجة عن نفسها وقال:

﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

يتضح جليًا موقع اللعان في النظام الحقوقي الإسلامي من خلال مراجعة شأن نزول هذه الآيات. في إطار شأن النزول يرولا عن ابن عباس أن سعدًا بن عبادة (أحد كبار شخصيات

١. النجفي، جواهر الكلام، ج ٢٩، ص ٢٤٣-٢٥٦.

الأنصار) قال للرسول الأكرم ﷺ أمامَ جماعةٍ من الصحابة ما معناه أنه لو كانت عقوبة توجيه تهمة الزنا لشخص ثمانين جلدة وإذا لم يستطع إثبات ادعائه فما عساي أفعل إذا دخلت بيتي ورأيت بعيني رجلًا فاسقًا مع زوجتي قائمين على حرام؟ فإذا انتظرتُ حتى يحضر أربعة رجال لينظروا ويروا ثم يشهدوا معي فسيكون ذلك الرجل قد ترك فعله الحرام وهرب، وإذا أردتُ قتله فلن يقبل أحدٌ ذلك منّي بدون شهود وسيطالني القصاص لأني قتلته، وإذا شهدتُ على ما رأيتُ واشتكيتُ منه جُلدتُ ثمانين جلدة!

أدى طرح هذه الشبهة ووقوع حادثة بهذا المضمون إلى نزول آيات اللعان. طبقًا لهذه الآيات يجب على الزوج أن يقسم على صحة ادعائه، ويجب على الزوجة أن تقسم على إنكارها، وعندئذ يُفسخ النكاح بمراعاة التشريفات الإجرائية، وتنقطع نسبة الولد المتعلق باللعان مع الزوج لكن نسبته مع والدته تبقى،[1] وعندها تتكون العائلة من الأمّ وولدها. درس الفقهاء آلية اللعان وناقشوها في كتبهم الفقهية بدقة، وعددوا شروطها وآثارها.[2]

ج. قاعدة الرضاع

تتحقق صلة القرابة بين الأفراد بطرق متعددة، ومن هذه الطرق طريقة الرضاع التي توجب في حالات معينة صلة قرابة، أي إذا أرضعت امرأةٌ طفلًا رضيعًا ضمن الشروط المقررة فإن ذلك ينتج علاقة قرابة بين الطفل الرضيع والمرضعة والأشخاص المرتبطين بها حسب الضوابط والمقررات، وتسمى علاقة القرابة هذه بالقرابة الرضاعية.

الحكمة من قاعدة الرضاع هي أن المشرع اهتم فيما يتعلق بحرمة النكاح بالعلاقة النفسية والجسمية والمعنوية بين الرضيع والمرضعة فضلًا عن وجود علاقة الدم التكوينية المبتنية على الفطرة والطبيعة. في هذه القاعدة تنوجد علاقة محرمية (حرمة الزواج) بشكل دائمي

١. مكارم شيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٤، ص ٣٢٨. الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص ٨٢. الطبرسي، مجمع البيان، ج ١٧، ص ٢٠٢.

٢. راجع: الصدوق، عيون أخبار الرضا، ص ٢٤٩، والمقنع، ص ٣٥٥. الحلبي، الكافي، ص ٣٠٩. الطوسي، الخلاف، ج ٥، ص ٣٠، والمبسوط، ج ٥، ص ١٨١. المحقق الحلي، شرايع الإسلام، ج ٣، ص ٦٤٩.

بيــن الطفــل ومرضعته لوجود علاقة عاطفية بينهما تشــبه علاقة الأمومــة نتيجة إرضاعها له فــي طفولته. لذلك يجب القول إن القرابة الرضاعية من نفس ســنخ القرابة النســبية، لأنهما متشــابهتان في إيجاد علاقة تكوينية بين الرضيع ومرضعته. بعبــارة أخرى الرضاع كالولادة يؤدي إلى وجود إضافة ونسبة بين شخصين أو أكثر. مفاد قاعدة الرضاع أن العناوين الجارية في القرابة النسبية[1] والتي تعد من موانع النكاح تجري أيضًا فيما يتعلق بالقرابة الرضاعية.

مــن وظائف قاعدة الرضــاع أنها يمكــن أن تكون مفيدة فــي البنية الثقافيــة والحقوقية للمسلمين كحل بالنسبة للذين يعانون من الحرمان من الأولاد، إذ إن وجود علاقة المحرمية في العلاقات مهم جدًا حسب الثقافة الإسلامية، فعدم وجود علاقة محرمية يخلق الكثير من القيود للأفراد. على ســبيل المثال المرأة التي تتبنّى طفلًا ذكرًا وتربّيه وتكبّره ترغب أن تكون محرمًا عليه وتتعامل معه كما تتعامل مع ابنها الصلبي لكن ذلك غير متاح لها حسب القواعد الشــرعية الأولية إذ لا يوجد سبب ومبرر للمحرمية بينه وبين ذلك الابن المتبنّى، لكن قاعدة الرضاع تعالج لها هذه المشكلة.

القضية الأخرى هي أن قاعدة الرضاع تشــمل جميع العناوين النســبية لكنها لا تشمل ما ينوجد بالقرابة الســببية (المصاهرة) لأن الحديث يصرح بـ «ما يحرم من النســب». طبعًا إذا توفــر دليل آخر كان الأمر بحثًا آخر لكن القاعدة لا تشــمله لأن الرضاع يحلُّ محلَّ النســب ويقوم مقامه، والنسب غير المصاهرة.

النقطة الأخرى في مفاد الرضاع هي أن النتيجة والأثر الذي تتركه قاعدة الرضاع ينحصر في منع الزواج ونشــر الحرمة بيــن المرتضع والآخرين ولا صلة له بالآثــار الأخرى للقرابة النســبية مثــل الإرث والنفقة والحضانة وما إلى ذلك. وعليه فقاعــدة الرضاع مؤثرة فقط في تشــكيل العائلة لكنهــا لا تزيد من الأفراد الداخلين في نظام العائلــة. وحيث إنَّ تكوُّن علاقة القرابة والمحرمية يبتني على القواعد والأصول الشرعية فقد بيّن المشرِّع جميعَ شروط إقامة مثل هذه العلاقة بكل دقة. وهذه الشــروط هي كما يلي: أن يكون اللبن (الحليب) ناتجًا عن

١. النساء: ٢٤.

وطـئ جائز (أي يكون اللبن ناتجًا عن حَمْل شـرعي)، وأن يكون مـص اللبن من ثدي الأم (المرضعة) مباشـرة،[١] وأن تحصل الرضاعة قبل بلوغ الطفل سن العامين،[٢] وأن تراعى كمية ومقدار معين في عملية الإرضاع.[٣]

لا يختلف فقهاء الإمامية على الشـرط الأول[٤] ويعتبرونه شـرطًا مجمعًا عليه.[٥] أي على افتراض أن اللبن كان ناتجًا عن وطئ جائز وروعيت الشـروط الأخرى فإن المحرمية سوف تحصل وتتحقق، وهذا المستوى من الشروط هو القدر المتيقن من القاعدة. أما إذا لم يتحقق الشرط الأول فسيكون ذلك خروجًا من القدر المتيقن ويجب دراسة حكم المسألة والتدقيق فيها. على سـبيل المثال من الافتراضات التي يجب التدقيـق فيها افتراض أن اللبن ناتج عن وطئ فيه شـبهة،[٦] ولبن امرأة لـم يولد وليدها بعـد،[٧] ولبن امرأة بعـد انفصالها عن زوجها (انفصالهـا عنـه بالطلاق أو بوفاة الـزوج أو غير ذلك)، واللبن الناتج عـن لقاح اصطناعي، واللبن الحاصل عن الزنا.

الغالبية العظمى من فقهاء الإمامية يقولون إنه من أجل تحقق المحرمية بواسـطة الرضاع يجب أن يمتص الطفلُ اللبن من ثدي المرضعة مباشرة، أما إذا أخذوا اللبن من الثدي وسقوه

---

١. لأن الارتضاع المشار إليه في الأدلة الفقهية لا يتحقق إلا في هذه الحالة، لذلك لا يقال للطفل الذي يشرب من لبن البقرة بأنه ارتضع من البقرة (راجع: الأنصاري، كتاب النكاح، ص ٢٩٣).

٢. م ن، ص ٢٩٧.

٣. م ن، ص ٣٠١.

٤. الفاضل الآبي، كشف الرموز، ج ٢، ١٢١. الشهيد الثاني، الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية، ج ٥، ص ١٥٥.

٥. راجع: الأنصاري، كتاب النكاح، ص ٢٩٠. بجنوردي؛ القواعد الفقهية، ص ٣٢٣.

٦. المشهور أنهم اعتبروا الوطئ بالشبهة كالنكاح. وقد شكك المحقق الحلي في ذلك في كتابه شرايع الإسلام. وذهب العلامة الحلي في موضع ما إلى عدم الإلحاق ووافق الإلحاق في موضع آخر، وقد شكك في الأمر في موضع ثالث (راجع: الأنصاري، كتاب النكاح، ص ٢٩٢، وراجع أيضًا: النجفي، جواهر الكلام، ج ٢٩، ص ٢٤٤. الطوسي، المبسوط، ج ٥، ص ٢٩١-٢٩٢. الحلي، السرائر، ج ٢، ص ٥٣٥.

٧. راجـع: الخميني، تحرير الوسـيلة، ج ٢، ص ٢٣٧. الطوسـي، الخلاف، ج ٥، ص ١٠٨، المسـألة ٢٢. الكركي (المحقق)، جامع المقاصد، ج ٢١، ص ٢٠٣. الجزائري، التحفة السنية، ص ٢٦٤. الخوانساري، جامع المدارك، ج ٤، ص ١٨٣. الطباطبائي حائر، رياض المسائل، ج ١٠، ص ١٣٣. الروحاني، فقه الصادق، ج ٢١، ص ٣٥٤.

للرضيع أو شرب الرضيع لبنًا محلوبًا مسبقًا من ثدي المرضعة فهذا لا يحقق المحرمية.

وحول الشـرط الثالث يُطرح النقاش القائل هل يختص هذا الشرط بالمرتضع فقط أم أن ولد المرضعة أيضًا يجب أن يكون عمره أقل من سنتين؟ المشهور أن مراعاة هذا الشرط لازم في الطفل الرضيع، ولا ضرورة له في ولد المرضعة.[١]

المبحث الثالث: تربية أفراد الأسرة

الوظيفة التربوية من جملة وظائف الأسرة المهمة. طبقًا للأسس والركائز الإسلامية وبناءً علـى قواعد الأمر بالمعـروف والنهي عن المنكر، يتحمل جميع أفراد المجتمع الإسـلامي مسـؤولياتهم تجاه مصير بعضهم، ويحاسبون على ذلك.[٢] وتكتسب هذه القضية أهمية أكبر في العائلة. يتحمل الأب والأمّ وظيفة تربوية تجاه أولادهم. ويعد هذا الشيء في البداية تكليفًا على عاتق الوالدين، ويعتبر من عوامل نجاتهم. ومن النتائج التي تسـتخلص من هذا الكلام أن سائر أفراد الأسرة من حقهم أن يتلقوا التربية الصالحة.

وكمـا قلنا في خصـوص تلاؤم العائلة مع النزعة الأخروية، فإن من عوامل فلاح البشـر في الآخرة الاهتمام بأفراد الأسـرة المصحوب بالخوف. ومن شأن هذا الخوف أن يجعلهم مهتمّين بتربية أفراد الأسرة لا سيما تربيتهم الدينية، وليس لاأباليين حيال هذه التربية.

وأسلوب التربية من جملة الأمور المهمة. وهنا نكون أمام سؤال يقول: إلى أيّ حد يمكن للوالدين الاستفادة من الأساليب التربوية؟ ومبعث السؤال هو أن الطفل من الناحية الإنسانية له وجوده وشخصيته المستقلة المحترمة، وبالتالي لا بدّ من الولاية للتصرف في وجوده. وقد منح المشرع في ضوء قضية التربية وقاعدة الإحسان ضمن حدود التأديب، منحَ الوالدين حق معاقبة الطفل.

---

١. النجفي، جواهر الكلام، ج ٢٩، ص ٢٩٦. النراقي؛ مستند الشيعة؛ ج ١٦، ص ٢٥٠.

٢. ﴿وَلْتَكُـن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَـنِ الْمُنكَرِ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤). ﴿وَالْمُؤْمِنُـونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٧١).

ومع تطور العملية التربوية وتحولها إلى شأن تخصصي ووجود طرق وأساليب علمية لها، مال البعض إلى نبذ الوظيفة التربوية للوالدين وقالوا بإمكانية إيكال تربية الأولاد لأشخاص يحترفون هذه المهنة. وفقًا لهذه الرؤية ينقسم الوالدان إلى «والدين صلبيين» أو «والدين بالدم» و«والدين مهنيين». ويستدل هؤلاء على ذلك بالقول إن تربية الأطفال تستلزم مهارات لا يتمتع بها الجميع، ومن باب التشبيه يقولون إن العملية الجراحية المعقدة لا توكل إطلاقًا لشخص عادي غير متخصص، بل حتى من أجل أبسط الأعمال والوظائف في دائرة معينة أو شركة يُخضعون الشخصَ لاختبارات عديدة، لكن المجتمع يسلِّم أجياله القادمة والعناصر الأكثر حيوية وأهمية التي يتشكل منها لأيدي أيٍّ كان بدون أي تقييمات مهنية وأخلاقية.[١]

«الوالدان المهنيان» سيكونان مراكز عائلية يربّون فيها عدة أجيال من دون أن يعانوا من مشكلات الحياة العادية من قبيل أن يضطروا مثلًا لتغيير أماكنهم أو أشغالهم عدة مرات، ويمنحون بذلك الفرصة للطفل كما كان الحال عليه في العوائل القديمة، لكي يجعل عدة أفراد أكبر منه قدوة له.[٢]

ولا يبدو أن هذا الأسلوب يواجه مشكلة من النواحي الحقوقية والقانونية ومن حيث التناغم مع الأصول والقواعد، إذ ينبغي في قضية حق التربية أو واجب التربية تفكيك مسألتين عن بعضهما: الأولى هي أن مثل هذا الحق أو الواجب موجود من الناحية القانونية، والثانية أن المباشرة ليست شرطًا في تنفيذ وتطبيق هذا الحق أو الواجب، وبالتالي يمكن إحالة واجب التربية إلى آخرين. والنقطة الوحيدة التي يمكن أن تلاحظ هي حكم إلزام العوائل بصرف النظر عن حق تربية الأولاد، ذلك أن وجود مثل هذا الحق محرز بالنسبة للوالدين، وحرمان الوالدين من هذا الحق يحتاج إلى أدلة كافية، وهنا لا تبدو الأدلة كافية. طبعًا بالمستطاع تقسيم العوائل وفق هذه الرؤية إلى قسمين، والقول بجواز أو حتى لزوم اعتماد الأسلوب أعلاه في أحد القسمين. القسم الأول هو العوائل المتمتعة بالأهلية لتربية الأولاد، والتي يجب العمل على رفع مستوى معارفها ومعلوماتها ووعيها بمساعدة مراكز تربية الأولاد وتوفير إمكانية

١. توفلر، آلفين، شوك آينده (صدمة المستقبل)، ص ٢٤٥-٢٤٦.
٢. م ن.

الاستعانة بمراكز تساعدهم على تربية الأولاد، ولكن لا يمكن سلبهم حق تربية الأولاد. أمّا القسم الثاني فهو العوائل التي تعاني من اختلالات ومشاكل واضطرابات إلى درجة يخشى معها من بقاء الطفل في كنف هذه العوائل. في خصوص مثل هذه العوائل يجب إحراز عدم أهلية ربّ الأسرة لتربية الأبناء واتخاذ الإجراءات اللازمة حسب المقتضيات. ومن الإجراءات والخطوات الممكنة في هذا المضمار الاستعانة بالمراكز المهنية المحترفة لتربية الأولاد.

المبحث الرابع: التأمين المنطقي للاحتياجات العاطفية والنفسية وتوفير أجواء الهدوء والاستقرار لأفراد الأسرة

الرباط الشرعي بين المرأة والرجل وتشكيل الأسرة له دور كبير في تحقيق السكينة والاستقرار لأفراد الأسرة. وليس لهذه السكينة وظيفتها ودورها الداخلي فقط، بل لها آثار مهمة في العلاقات الخارجية والاجتماعية وفي الرشد والسلامة النفسيين للفرد. وهذه القضية على جانب من الأهمية إلى درجة أنها تدرس بشكل مستقل وتبحث تحت عنوان العلاج بالعائلة[1]. [2] وقد اعتبر الله سبحانه في قرآنه الكريم السكينة داخل الأسرة من آياته الإلهية، حيث يقول في الآيتين ٢٠ و ٢١ من سورة الروم المباركة:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

ويقول عزَّ وجلَّ في آية أخرى:

1.Family Therapy

٢. اهتم المتخصصون في العالج النفسي منذ فترة بتأثير العائلة في الحافظ على السلامة النفسية للفرد. فمنذ أول كتاب صدر في هذا الشأن عام ١٩٤٨ تحت عنوان «العلاج بالعلاقة الزوجية» لمؤلفه بلامتيلمن وإلي الآن تكونت حول هذا الموضوع اتجاهات ونظريات مختلفة. وتشمل هذه الاتجاهات التداوي بالعائلة بالتحليل النفسي، والتداوي بالعائلة التجربي، والتداوي بالعائلة المعرفي السلوكي، والتداوي بالعائلة البنيوي، والتداوي بالعائلة الاستراتيجي، والتركيز على الحلول (التداوي بالعائلة؛ الموقع الإعلامي لموسوعة شبكة رشد و راجع أيضًا: خديوي زند، «مراحل التداوي بالعائلة»، ص ٢-٢٥).

﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.[١]

النقطة المهمة هي أن القرآن الكريم يذكر أمورًا أخرى غير الزوج والزوجة كبواعث سكينة وهدوء للإنسان. فبعض الآيات القرآنية تذكر الليل بوصفه سكنًا للإنسان.[٢] وفي آيات قرآنية أخرى عدّت بعضُ أجزاء البيت محلًا للسكينة والهدوء،[٣] وفي إحدى الآيات اعتبرت الصلاة على الرسول الأكرم ﷺ مبعث سكن وهدوء نفسي للإنسان.[٤] وفي هذه الغمرة عدت السكينة الناجمة عن وجود الزوج أو الزوجة من الآيات الإلهية بالنسبة لبعض الناس المتفكّرين المتعمقين، بينما بالنسبة لحالات السكينة الأخرى المذكورة أعلاه جرى الكلام عن فضل الله وعلامات الله وآياته بالنسبة لمن لهم سمع ويشكرون الله.

في هاتين الآيتين جرى التأكيد على السكينة والمودة والرحمة، إلى درجة أن أحدهما يعتبر الآخر صاحبًا وعونًا، وعندما تحمل المرأة تتجلى ذروة التعاون بين المرأة والرجل حيث يرفعان أيديهما بالدعاء إلى الله طالبين منه أن يرزقهما ولدًا صالحًا طيّبًا.

إن التعاون والمواكبة بين الزوج وزوجته هو الذي بوسعه توفير هذه السكينة، وإذا لم يتوفر هذا التناغم فلن تتحقق الوظيفة المهمة للعائلة. في الحالات التي لا تتحقق فيها هذه الوظيفة من وظائف العائلة يطلق القرآن الكريم على الزوجة اسم «امرأة». فمثلًا عندما يتحدث عن

---

١. الأعراف: ١٨٩.

٢. ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (يونس: ٦٧).
﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (القصص: ٧٣).
﴿اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ (غافر: ٦١).
﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (الأنعام: ٩٦).

٣. ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ (النحل: ٨٠).

٤. ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (التوبة: ١٠٣).

زوجات نوح[١] ولوط[٢] وفرعون[٣] وعزيز مصر،[٤] وأبي لهب[٥] لا يسمّي زوجاتهم «زوجةً»، بل يطلق عليهن كلمة «امرأة». وفي ذلك دلالة على أن وظيفة العائلة لم تتحقق، بل تحقق من العائلة شكلها القانوني فقط.

وترتهن هذه الوظيفة للوضع الاجتماعي أيضًا. يعتقد بعض الباحثين أن هياج المستقبل وصخبه يدفع الناس إلى أحضان العائلة أكثر فأكثر. العائلة وفقًا لهذه النظرية أشبه بجذر يحمله الفرد معه أينما ذهب، وهي مثل المرفأ الذي يصون الإنسان حيال عواصف التغييرات. والخلاصة هي أن البيئة المحيطة كلما كانت متزلزلة وجديدة كلما ازدادت أهمية العائلة.[٦]

في الفكر الرأسمالي أيضًا جرى الاهتمام بوظيفة السكن والسكينة التي تضطلع بها العائلة. وحسب تحليل أطلقه بعض المفكرين عندما انتقل مكان العمل إلى خارج البيت بدأ مسار انفصال الصناعة عن العائلة، واعتبر النطاق العائلي من النواحي المكانية والزمانية نطاقًا منفصلًا عن العالم الخارجي أو عن نطاق الإنتاج، وهكذا جرى الفصل بين عالم العائلة وعالم الإنتاج. كانت المرأة في البيت ترعى بيتها وتدير شؤونه فهي ربّة بيت، وكان الرجل يعمل ويكسب الرزق لعائلته. إلى جانب هذه الفكرة التأمت تعليمة بعنوان «أيديولوجيا البقاء في البيت». وكان الشعار الرئيس لهذه الأيديولوجيا تثمين الدور البيتي للمرأة والتشديد على المساحات والنطاقات الخاصة بكل من المرأة والرجل. وهكذا أصبح عدم العمل شيئًا ذا قيمة بالنسبة لنساء الطبقات العليا والمتوسطة. وبتحقق هذا الانفصال إلى جانب أيديولوجيا البقاء في البيت تحقق عمل خاص للعائلة في النظام الرأسمالي. وقد كان هذا العمل الخاص منهجًا لتقليل التعارضات المثيرة للتوتر، بمعنى أن البيت والعائلة يمكنهما أن يكونا مكانًا

١. الأعراف: ٨٣. النمل: ٥٧. العنكبوت: ٣٣.
٢. التحريم: ١٠.
٣. القصص: ٩. التحريم: ١١.
٤. يوسف: ٣٠ و ٥١.
٥. المسد: ٤.
٦. توفلر، صدمة المستقبل، ص ٢٤٠.

آمنًا هادئًا للرجال الذين يعيشــون في المجالات العامة صنوفًا من الاشــتباكات والتنافسات والتعارضات التي تسود الحياة العامة. وهكذا عد البيت في العالم الحديث الطافح بالصناعة والســرعة والتعقيد ملاذًا وملجــأً[1] أو بيتًا طيّبًا،[2] وجرى التأكيد على عمــل المرأة في البيت بوصفها رســولة «حبّ واهتمام» وعامل تحرير روحي للرجال من مشــكلاتهم التي يعانونها في أماكن أعمالهم. المرأة هنا رمز الصبر والتحمل والشــجاعة الانفعالية والمشاعر اللطيفة والتفاعل الأعمق، وهذا هو أساس القول بهذا الرأي والدور المناسب للمرأة.

ليس لهذه القضية قابلية التحول إلى شكل حقوقي فيما يرتبط بالعلاقة الخاصة بين الرجل والمرأة، لكن الدولة بوسعها في سياساتها توظيف وضع المجتمع لتأمين استقرار العائلة.

المبحث الخامس: إقامة نظام رعاية وحماية لأفراد الأســرة العاجزين في فترات الطفولة والشيخوخة

يحتاج الإنسان في مراحل معينة من حياته مثل الطفولة والشيخوخة، أو في أحوال خاصة يمــر بها، يحتاج إلى الرعاية والحماية والمســاعدة. وبوســع العائلة النهــوض بهذه الرعاية والحماية على أحســن وجه. وهذا النظام من الرعاية والحماية متناســق مع الشؤون النفسية والأخلاقيــة والحقوقية. في هذا النظام هناك جزء يتعلق برعاية الوالدين للأولاد وهناك جزء يرتبــط برعاية الأولاد للوالدين. وقد أولى القــرآن الكريم أهمية مميزة لكلا الجزئين، فالآية ٢٣٣ من سورة البقرة ترسم الأبعاد الرعائية للأمّ على أفضل شكل حين تقول:

﴿وَالْوَالِــدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُــنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

بالرجوع إلى هذه الآية تتضح الأبعاد الحقوقية والأخلاقية للموضوع بشكل جيد. وكما

1. Haven
2. Sweet Home

يتجلى من الآية فمن واجب الأمّ من الناحية الأخلاقية إرضاع أولادها. ويمكن إيكال هذا الواجب إلى غير الأمّ. ومدة القيام بهذا الواجب الأخلاقي هو سنتان. وإذا نهضت الأمّ بهذا الواجب ستقع تكاليفها من ناحية حقوقية على عاتق الأب خلال هاتين السنتين، كما أن الآية ترسم حدود الأمّ بنحو حسن وهو أن من واجب الأمّ أن لا تتعرض للأذى والضرر. بالإضافة إلى ذلك تُذكِّر الآية بمبدأ التشاور في القيام بالواجبات المطلوبة من النواحي الأخلاقية وبعض النقاط الحقوقية. والخلاصة هي أن القرآن الكريم في معرض بيانه لنظام الرعاية يهتمّ أكبر الاهتمام بالطفل الرضيع ومصالح الطفل والمرأة والرجل والعائلة بأبعادها المختلفة.

ومقابل هذا الواجب يتحمل الأولاد أيضًا واجبات أخلاقية وحقوقية من حيث احترامهم ورعايتهم لوالديهم. يوصي الله تعالى الجميع ضمن أمر عام بالإحسان للوالدين قائلًا:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.[1]

وتكتسب هذه الوظيفة أهمية أكبر بكثير عندما يبلغ الوالدين سن الشيخوخة. فالتعامل معهما باحترام وأخلاق حسنة مهم جدًا في هذه المرحلة من عمرهما. وقد قرر الله سبحانه أوامر خاصة لهذه المرحلة:

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.[2]

تدل جميع هذه الآيات على نظرة الإسلام العميقة للعائلة والوالدين. وهي نظرة ترفع معنويًا من مستوى وظيفة الرعاية التي تتحملها العائلة. إذ لو أردنا معالجة هذه الوظيفة من

---

١. الأحقاف: ١٥.

٢. الإسراء: ٢٣-٢٤.

زاويــة التحليل الاقتصادي فقد نصل إلى نتيجة أن هذه الوظيفة ليســت لها أهمية تذكر. وقد قال البعض ناظرًا للمسألة من هذه الزاوية:

«فــي عصر عبادة المادة والنزعة الفردية كلُّ شــيء على الضد مــن الوالدين. والواقع أنه من زاوية اقتصادية صرفة كما أن الأشكال المختلفة للمنطق الاقتصادي تتحرك نحو مجابهة الآباء والأمهات، أضحت تربية الأولاد نشاطًا غير اقتصادي. بشكل عام لم ينظر الوالدان أبدًا لأولادهما باعتبارهم مجرد ممتلكات مالية، ولكن على امتداد التاريخ وبين جميع الثقافات غالبًا ما اكتسب الوالدان عن طريق تربية الأولاد وتنشئتهم بعض الموارد المادية على الأقل، من قبيل مســاعدة الأولاد لوالديهم في مواقيت الحراثة والزراعة والحصاد، ورعاية الأولاد لآبائهم وأمّهاتهم في فترات الشيخوخة وما إلى ذلك. أمّا اليوم وفي الزمن المعاصر فلم يعد هناك أي واحد من هذه الأســباب والدوافع الاقتصادية قائمًا لإنجاب الأولاد وتنشئتهم. بل على العكــس من ذلك، ففي العصر الحديث أمســى الأولاد ذووي تكاليف عالية جدًا على الوالدين ولــم يعد لهم إلّا أقل القليل من المردود الاقتصــادي النافع لآبائهم وأمهاتهم. في الوقت الحاضر تبلغ تكاليف تربية طفل إلى ســنّ الثامنة عشــرة حوالي ١٤٥ ألف دولار».[١] وبالنظر لهــذه التكاليف والاســتثمار الملحوظ، عندمــا يكبر الأطفال من النــادر أن ينفقوا مداخليهــم علــى والديهم أو يدعموهما بأيّ شــكل آخر من الدعم المالــي. في نهاية القرن العشــرين يوفر الأطفال الحبّ والابتسامة والرضا العاطفي لكنهم لا يحققون أية مداخيل أو خدمات لوالديهم».[٢]

هــذه النظــرة الاقتصادية النفعية غيــر محبّذة من وجهة نظر الإســلام، فقــد أوصى الله سبحانه بالإحسان للوالدين وشدد عليه إلى جانب عبادته من دون النظر لأيّة مردودات مادية واقتصادية، وطلب من كل واحد من الناس التعامل مع والديه بمنتهى الاحترام والرحمة.

١. هيولت وفست، جنگ عليه والدين، ص ٢٠ (الهامش).

٢. م ن؛ ص ٤٠ (الهامش).

المبحث السادس: التنشئة الاجتماعية[1]

التنشـئة الاجتماعية مـن أهمّ وأرأس المفاهيم فـي علم الاجتماع، وقد أشـبعها علماءُ الاجتمـاع،[2] والمختصون في علـم النفس الاجتماعـي،[3] وعلمـاء الأنثروبولوجيا[4] (علم الإنسان)، والمفكرون السياسيون،[5] وباحثو العلوم التربوية،[6] أشبعوها بحثًا ودراسة بمختلف أبعادها وجوانبها.[7] التنشـئة الاجتماعية عملية ممتـدة يتعلم خلالها الفرد التأقلم مع جماعة (أو مجتمـع) وأن يتصـرف تصرفات ترتضيها تلـك الجماعة (أو المجتمـع). يعتقد غالبية علماء الاجتماع أن التنشـئة الاجتماعية تشمل بالضرورة كل عملية التعلم التي يتلقاها الفرد على امتداد حياته، ولها تأثيرها الحاسـم الرئيس على سـلوك الكبـار والأطفال ومعتقداتهم ومواقفهم.[8] في عملية التنشـئة الاجتماعية يتعرف الشـخص على معتقدات مجتمعه وقيمه وأعرافه وتقاليده، ويتعلم أساليب الحياة الاجتماعية.[9]

العائلة من أهم المؤسسـات التي تحصل فيها عملية التنشئة الاجتماعية، حتى أن التنشئة الاجتماعية للأفراد لها علاقة طردية مع بنية وكيفية ونوع ارتباط أفراد العائلة بعضهم ببعض. إن آصرة الوالدين مع أولادهم تعد في إطار تحليل جذري من أقوى وأقدم الأواصر الإنسانية والوشـائج البشـرية. وهذه الآصرة الأساسـية هي أرقى مصدر للتلاحم الاجتماعي. لذلك

---

1. Socialization
2. Sociologists
3. Social psychologists
4. Anthropologists
5. Politicians
6. Educationalists
7. Owens and Settersten, *New frontiers in socialization*; Vol 7, p. 13. Andersen and Taylor, *Sociology: The Essentials*, pp. 73-100. Greenberg, *Political Socialization*, p. 3-4. Brezinka, *Socialization and education: essays in conceptual criticism,* pp. 1-17.
8. "Socialization" in *Encyclopaedia Britannica*. Arnett; "Broad and Narrow Socialization: The Family in the Context of a Cultural Theory", p. 618.
٩. زين آبادي، « جامعه پذيرى حجاب»، ص ١٨١.

عندمـا تتحلحل هذه الرابطة وتتآكل تلاحظ التبعـات المدمرة لذلك على المجتمع.[١] وتؤيد ذلـك التجارب التي أجريت علـى الحيوانات. فقد أثبت بعض الباحثيـن ومنهم عالم نفس الحيوان أتش. أف. هارلو[٢] ضمن مجموعة من دراساته المعروفة على صغار القردة، الأهمية الفائقة لمحبّة الوالدين وعشـقهم لأولادهم. قام هذا الباحـث بفصل عدد من صغار القردة المولودين توًّا عن والديهم ووضع لهم والدين بدلاء اصطناعيين. ومع أن هذه القردة الصغار توفرت لهم كافة لوازم الرشـد والنمو الجسـمي لكنها لم تبلغ التنمية الواقعية، فقد أصبحت القردة الصغار المحرومة من والديهم الواقعيين عندما كبرت كائناتٍ باهتةً خاملةً تصدر عنها سـلوكيات عجيبة وانطوائية. وعندما كبرت صغار القردة هذه لـم يكن لها أيّ إدراك للأخذ والعطـاء في مجالات التعلم واللعب والتغذية والتفاعـلات العاطفية وما إلى ذلك، وكانت قردةً كبارًا عاجزةً عن التواصل أو التزاوج مع مثيلاتها من القردة.[٣]

ومن الواضح ما هو مضمون تجربة هارلو هذه بالنسـبة للإنسـان أيضًـا. فمجرد النجاة الجسـمية لا تعني سلامة الفرد، والتنمية الكاملة للإنسان تستلزم شيئًا أعمق وأعقد بكثير من الماء والطعام. إن هذا الشـيء بحاجة إلى حبّ دائـم يحرس الفرد ويحميه. وعلى حد تعبير عالم النفس ويلارد غيلين: «من أجل إيجاد طاقات مماثلة في الطفل يجب رعايته بحبّ».[٤]

هذه هي الطاقة التي تؤسّس لحب الذات وعزة النفس. عندما يتعلم الطفل أن يحب ذاته يسـتطيع أن يهتم بالآخرين أيضًا اهتمامًا عميقًا. وهكـذا فحب الوالدين لأولادهم وحنانهم عليهم لا يسـاعد فقط في تنمية الإنسـان بالمعنـى الكامل بل يغذّي المجتمـع الأكبر أيضًا ويحرسـه ويصونه. وفي المقابل عندما يكون الطفل محرومًا من حنان الوالدين وحبّهم فإنه ينشأ في وضع طفولي كما هو الحال في تجربة هارلو، ولا ينمو في داخله إطلاقًا حبّ الذات ولا حبّ الآخرين.[٥]

---

١. راجع: م ن، ص ٤٩.

2. Harry Frederick Harlow (October 31, 1905 – December 6, 1981)

٣. م ن، ص ٥٠ (الهامش).

٤. م ن، ص ٤٩–٥٠.

٥. م ن، ص ٥٠–٥١.

يلوح أن المحبة والتربية المسؤولة لها دور أساسي في عملية التنشئة الاجتماعية. وقد اهتمت بعض النصوص الروائية اهتمامًا واضحًا بدور الأسرة والقرابة والتضامن الاجتماعي في هذه العملية. فمن التعاليم التي أكّد عليها الإسلام تكريس صلة القرابة وصلة الأرحام وآثارها ونتائجها في الحياة الفردية والاجتماعية،[١] وعلى المحبة،[٢] والشفقة على الأطفال،[٣] والتشديد على منح دور للأطفال في العائلة وإعدادهم للدخول في المجتمع[٤] وما إلى ذلك.

ومن البديهي أن الطفل يصاب بأضرار قد تكون فادحة من سوء معاملة والديه له أو إهمالهم له. وقد أخضع بعض الباحثين هذه القضية للتحليل والدراسة على نحو مستفيض. وهكذا يشير علم النفس المعاصر إلى الأضرار الناجمة عن الأساليب التربوية الخاطئة في العوائل، ويتخذ أحيانًا تجاهًا طافحًا بالعداء للوالدين، حتى أنه يستخدم أحيانًا تعابير من قبيل «الوالدان المسمومان» ويوصي بترك الوالدين والانفصال عنهما: «انتصار طفلُ الداخل[٥] يستدعي نبذ الوالدين والأقارب، والعثور على عائلة جديدة يختارها الابن لنفسه،

---

١. على سبيل المثال ورد في أحد الأحاديث أن صلة الأرحام توجب تطهير الأعمال ودفع البلاء وزيادة الأموال وإطالة الأعمار وزيادة الرزق وإيجاد المحبة في العائلة. الكليني، الكافي، ج ٢، ص ١٥٢.

٢. المحبة حالة على جانب كبير جدًا من الأهمية في الحياة الاجتماعية ومما يوصي به الإسلام توصية مؤكدة ولها دورها الحاسم في عملية التنشئة الاجتماعية للأفراد. تشمل مديات هذه المحبة الصانعة للإنسان من ناحية حب الله لعباده ومخلوقاته، ومن ناحية ثانية حب المسلمين لله ورسوله وأهل البيت عليهم السلام والإخوة والأخوات الدينيين (أفراد المجتمع) وخصوصًا المحبة والشفقة تجاه الأسرة والأبناء والأقارب. النقطة اللافتة هي أنه في التعاليم الإسلامية علاوة على تجلي التضامن الاجتماعي في مفهوم الأمة، تكتسب هذه المحبة طابعًا اجتماعيًا متينًا وتتجاوز حدود العائلة والأبناء إلى درجة أن هذه المحبة للناس تستوجب وتستجلب حب الله للإنسان. كمثال لذلك راجع: الصدوق، ثواب الأعمال، ص ١٨٥.

٣. كمثال على ذلك روي لنا في سيرة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنه كان يكثر من تقبيل أحفاده الحسن والحسين عليهما السلام فاستغرب من ذلك أحد الصحابة واسمه الأقرع بن حابس وقال للرسول إن لي عشرة أولاد لم أقبل أي واحد منهم ولا مرة، فقال له الرسول صلى الله عليه وآله: من لا يرحم لا يرحم (الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٤٨٥).

٤. من قبيل الرواية التي توصي بإيكال الأعمال الصعبة للأطفال لكي يكونوا حلماء إذا كبروا (م ن، ج ١٥، ص ١٩٨، الحديث ٢).

5. Inner-Child

وهذا مؤسف بالنسبة للوحدات العائلية الموجودة». يقول برادشو[1]: «من أجل حماية طفل داخلكم – وهو يقوم بتشكيل حدود جديدة – يبدو من الضروري وجود عائلة جديدة. إذا لم تكن عائلتكم الأصلية في طريقها إلى التحسّن فمن غير الممكن تقريبًا أن تتوقّعوا منها الحماية، وعليه أوصيكم بالابتعاد عن عائلتكم والبحث عن عائلة جديدة تحميكم ولا تسبّب لكم الخزي والخجل».[2]

هذا الكلام ليس في مقام إنكار دور التنشئة الاجتماعية ووظيفتها، بل يصرّ أكثر ما يصرّ على أن العائلة لا تعمل غالبًا بشكل صحيح في تعيين القيم ونقلها والنهوض برسالتها. وكما هو واضح فإن تعيين القيم ومعرفتها والنهوض بالدور المسؤول في نقلها له موقعه المهم في عملية التنشئة الاجتماعية. بمعرفة القيم والمعتقدات يمكن إدارة عملية التنشئة الاجتماعية. وعليه يمكن لمعرفة العائلة والوالدين بالقيم ودرجة إيمانهم بالمعتقدات والأعراف والتقاليد أن تكون ذات دور وتأثير في مستوى نقلها إلى الأبناء.

1. John Elliot Bredshaw (born June 29, 1933)

٢. هيولت وفست، جنگ عليه والدين، ص ١٦٣.

المصادر

١. القرآن الكريم.
٢. ابن إدريس الحلي، محمد بن منصور، السرائر، قم، نشر إسلامي، ١٤١٠ هـ ق.
٣. إسلامي، حسن، شبيه‌سازى انسانى از ديدگاه آيين كاتوليک و اسلام (الاستنساخ البشري من منظار المسيحية الكاثوليكية والإسلام)، قم، دراسات الأديان والمذاهب، ١٣٨٧ هـ ش [٢٠٠٨م].
٤. الأنصاري القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، بيروت، مؤسسة التاريخ العربي، ١٤٠٥ هـ ق.
٥. توفلر، آلفين، شوک آينده (صدمة المستقبل)، نقله إلى الفارسية حشمت الله كامرانى، طهران، دار سيمرغ، ١٣٧٤ هـ ش [١٩٩٥م].
٦. ترنر، جاناثان، مفاهيم و كاربردهاى جامعه‌شناسى (مفاهيم علم الاجتماع واستخداماته)، نقله إلى الفارسة محمد فولادى ومحمد عزيز بختيارى، قم، مؤسسة الإمام الخميني، ١٣٧٨ هـ ش [١٩٩٩م].
٧. بجنوردي، محمد حسن، القواعد الفقهية، تحقيق مهدى مهريزى، محمد حسين درايتى، قم، الهادي، ١٣٧٧ هـ ش [١٩٩٨م].
٨. البحراني، يوسف؛ الحدائق الناضرة، قم، نشر إسلامي، ١٣٦٣ هـ ش [١٩٨٤م].
٩. التبريزي، جواد، صراط النجاة، قم، دار برگزيده، ١٤١٨ هـ ق.
١٠. التفتازاني، سعد الدين، المختصر النافع، قم، مكتبة الطباطبائي، بدون تاريخ.
١١. الجزائري، عبد الله، التحفة السنية، طهران، طبع كتاب، ١٣٧٠ هـ ق.
١٢. الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح، بيروت، دار العلم للملايين، ١٤٠٧ هـ ق.
١٣. الحائري، كاظم، الفتاوى المنتخبة، قم، دار البشير، ١٤٢٨ هـ ق.
١٤. حجتي، مهدي، قانون مجازات اسلامى در نظم حقوقى كنونى (قانون الجزاء الإسلامي في النظام الحقوقي الراهن)، طهران، دار ميثاق عدالت، ١٣٨٤ هـ ش [٢٠٠٥م].

١٥. الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، قم، آل البيت، ١٤٠٩ هـ ق.
١٦. حكمت‌نيا، محمود، فلسفه نظام حقوق زن، قم، سازمان انتشارات پژوهشگاه فرهنگ و انديشه اسلامى، ١٣٩٧ هـ ش.
١٧. الحكيم، محسن الطباطبائي، منهاج الصالحين، بيروت، دار التعارف للمطبوعات، ١٣٦٩ هـ ق.
١٨. الحكيم، محمد سعيد، فقه الاستنساخ البشري وفتاوى طبية، دار الهلال، ١٤٢٥ هـ ق.
١٩. ـــــــــــــــ، منهاج الصالحين، بيروت، دار الصفوة، ١٤١٥ هـ ق.
٢٠. الحلي، الحسن بن يوسف، شرايع الإسلام، طهران، علمية إسلامية، ١٣٧٧ هـ ق.
٢١. الخامنئي، علي، أجوبة الاستفتاءات، طهران، دار النبأ للنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ ق.
٢٢. خديوي زند، محمد مهدي، «هنگامه هاى خانواده درمانى: ديدگاهى در آسيب شناسى و روان‌درمانى خانواده» (مراحل التداوي بالأسرة)، مجلة تازه هاي روان درماني (مستجدات العلاج النفسي)؛ العددان ٢٥ و ٢٦، خريف وشتاء ١٣٨٢ هـ ش، صص ٢-٢٥.
٢٣. الخميني، روح الله، تحرير الوسيلة، قم، نشر آثار إمام، ١٤٢١ هـ ق.
٢٤. الخوانساري، أحمد، جامع المدارك، قم، إسماعيليان، ١٣٦٤ هـ ش [١٩٨٥م].
٢٥. الخوئي، أبو القاسم، الاجتهاد والتقليد، قم، دار الهادي، ١٤١٠ هـ ق.
٢٦. ـــــــــــــــ، كتاب الصلاة، بدون مكان، ١٣٤٨ هـ ق.
٢٧. ـــــــــــــــ، مباني تكملة المنهاج، قم، مدينة العلم، ١٤١٠ هـ ق.
٢٨. الرازي الجصّاص، أحمد بن عليّ، أحكام القرآن، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥ هـ ق.
٢٩. رضانيا معلم، محمد رضا، باروری‌های پزشکی از ديدگاه فقه و حقوق (التخصيب الطبّي من وجهة نظر الفقه والحقوق)، قم، بوستان كتاب، ١٣٨٣ هـ ش [٢٠٠٤م].
٣٠. رنجبر، محمود، و ستوده، هدايت الله، مردم‌شناسى با تكيه بر فرهنگ مردم ايران (علم الإنسان في ضوء ثقافة الشعب الإيراني)، طهران، دار نداء آريانا، ١٣٨٤ هـ ش [٢٠٠٥م].
٣١. زين آبادي، مرتضى، «جامعه پذيرى حجاب» (التنشئة الاجتماعية للحجاب)، مجلة كتاب زنان، العدد ٣٨، شتاء ١٣٨٦ هـ ش [٢٠٠٨م]، صص ١٨٠-٢٢٠.

٣٢. السبزواري، محمد باقر، كفاية الأحكام، قم، علمي، ١٤٢٣ هـ ق.
٣٣. الصدوق، عليّ (ابن بابويه القمّي)، عيون أخبار الرضا عليه السلام، نقله للفارسية حميد رضا مستفيد وعلي أكبر غفاري، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٨٠ هـ ش [٢٠٠١م].
٣٤. ـــــــــــــــ، من لا يحضره الفقيه، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٨٥ هـ ش [٢٠٠٦م].
٣٥. ـــــــــــــــ، المقنع؛ قم، منشورات الرضي، ١٣٦٨ هـ ش [٢٠٠٩م].
٣٦. الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، نقله إلى الفارسية موسوي همداني، طهران، دار العلم، ١٣٨٥ هـ ش [٢٠٠٦م].
٣٧. الطباطبائي الحائري، علي؛ رياض المسائل؛ قم: نشر إسلامي، ١٣٦٥ هـ ش [١٩٨٦م].
٣٨. الطبرسي، الحسن، مكارم الأخلاق، قم، منشورات الشريف الرضي، ١٩٧٢م.
٣٩. الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، تصنيف محمد روحي ومحمد تقي فياض بخش، طهران، إحياء الكتاب، ١٣٨٧ هـ ش [٢٠٠٨م].
٤٠. الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان، قم، الإعلام الإسلامي، ١٣٦٧ هـ ش [١٩٨٨م].
٤١. ـــــــــــــــ، المبسوط في فقه الإمامية، تحقيق محمد تقي كشفي، طهران، المكتبة المرتضوية، ١٣٨٧ هـ ق.
٤٢. ـــــــــــــــ، الخلاف، قم، مؤسسة نشر إسلامي، ١٣٦٦ هـ ش [١٩٨٧م].
٤٣. ـــــــــــــــ، النهاية، قم، مؤسسة نشر إسلامي، ١٣٧٥ هـ ش [١٩٩٦م].
٤٤. العاملي (الشهيد الثاني)، زين الدين، الروضة البهية، قم، انتشارات داوري، ١٤١٠ هـ ق.
٤٥. علم الهدي، السيد المرتضى، الانتصار، قم، مؤسسة نشر إسلامي، ١٤١٥ هـ ق.
٤٦. ـــــــــــــــ، رسائل المرتضى، تحقيق مهدى رجائى، قم، دار القرآن الكريم، ١٤٠٥ هـ ق.
٤٧. الفاضل الآبي، زين الدين، كشف الرموز، طهران، نشر إسلامي، ١٤٠٨ هـ ق.
٤٨. الفاضل اللنكراني، محمد، جامع المسائل، قم، أمير، ١٣٧٧ هـ ش [١٩٩٨م].
٤٩. الفاضل الهندي، بهاء الدين محمد، كشف اللثام، قم، مكتبة المرعشي النجفي، ١٤٠٥ هـ ق.

٥٠. الفخر الرازي، محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ.
٥١. الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، قم، دار الهجرة، ١٤٠٩ هـ ق.
٥٢. كاتوزيان، ناصر، مبانى حقوق عمومى (أسس الحقوق العامة)، طهران، دار گستر، ١٣٧٧ هـ ش [١٩٩٨م].
٥٣. الكركي (المحقق)، نور الدين أبو الحسن، جامع المقاصد، قم، آل البيت عليهم السلام، ١٣٨٧ هـ ش [٢٠٠٨م].
٥٤. الكليني الرازي، محمد بن يعقوب، الكافي، بيروت، دار الأضواء، ١٩٩٢م.
٥٥. محقق داماد، مصطفى، تحليلى از آراء ابن سينا در مورد خانواده (دراسة تحليلية لآراء ابن سينا حول الأسرة)، طهران، دار إطلاعات للنشر، ١٣٧٩ هـ ش [٢٠٠٠م].
٥٦. المتقي الهندي، علاء الدين، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، بيروت، الرسالة، ١٤٠٥ هـ ق.
٥٧. المجلسي، محمد باقر، مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول صلى الله عليه وآله، تصحيح هاشم رسولي؛ طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٦٣ هـ ش [١٩٨٤م].
٥٨. محمود، عليّ عبد الحليم، المرأة المسلمة، بيروت، دار الوفاء، ١٤٢٢ هـ ق.
٥٩. مصطفوي، محمد كاظم، مائة قاعدة فقهية، قم، نشر إسلامي، ١٤١٢ هـ ق.
٦٠. مكارم شيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٨٤ هـ ش [٢٠٠٥م].
٦١. النجفي، محمد حسن، جواهر الكلام، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٦٨ هـ ش [١٩٨٩م].
٦٢. النراقي، أحمد، مستند الشيعة، مشهد، دار آل البيت عليهم السلام، ١٤١٥ هـ ق.
٦٣. نوّابي نژاد، شكوه، «خانواده معاصر گونه‌شناسى و مشكلات آن» (الأسرة المعاصرة.. أنواعها ومشكلاتها)، مجلة كتاب نقد، العدد ١٧، ١٣٧٩ هـ ش [٢٠٠٠م].
٦٤. الموقع الإعلامي للمكتب الحقوقي في وزارة الصحة والعلاج والتعليم الطبي، قسم الاستفتاءات الفقهية، «استفتاءات من عبد الكريم الموسوي الأردبيلي»، في العنوان الألكتروني:
http://lawoffica.mohme.gov.ir/religious_inquiry/view_inquiry.jsp?id=9 visited on June 2011.

٦٥. «التداوي بالعائلة»، في الموقع الإعلامي للشبكة الوطنية لمدارس إيران (رشد)، قسم الموسوعة، في العنوان:
http://daneshnameh.roshd.ir/mavara/mavara-index.php...SSOReturnPage=Check& Rand=0 visited on June 2011.

66. "Socialization" in ***Encyclopaedia Britannica*** Online, available at <http:// www.britannica.com / EBchecked / topic/551773/socialization> visited on June 2011.

67. Brezinka, Wolfgang, ***Socialization and education: essays in conceptual criticism***, translated by james Stuart Brice, US, CT: Greenwood Publishing Group, 1994.

68. Greenberg, Edward S., ***Political Socialization***, US, New Jersy: Transaction Publishers, 2009.

69. Owens, Timothy Joseph and Richard A. Settersten, ***New frontiers in socialization***; Vol 7, Uk, Oxford: Elsevier, 2002.

سبل الإسلام لرقيّ أداء الأسرة ونموّها[1]

محمدرضا سالاري‌فر[2]

أوّلًا: دور المعتقدات الدينيّة في الأسرة

لقد أوضحت الروايات الشريفة التي تناولت موضوع اختيار الزوج والزوجة ضرورة تماثل المعتقدات الدينيّة بين الزوجين؛ فالمعتقدات الدينيّة المتماسكة لكليهما لها دور محوري في حياة الزوجين، وتأثير إيجابي مباشر في توطيد علاقات أفراد الأسرة. بل وتظهر دراسات علميّة كثيرة أهميّة وتأثير المعتقدات الدينيّة في تحقيق الطمأنينة وتبديد التوتر.

١. الإيمان بالله: إنّ أهم معتقد ديني هو الإيمان بالله الواحد؛ أنّ التوحيد يجعل الإنسان يشعر بالهدف في حياته ومن إن وجوده ووجود الكون كله ذات مغزى وليس عبثيًّا وبالتالي يقترن عمله بالانسجام[3] ونفسه بالطمأنينة[4] كما أنّه يكرس كل سلوكه وحياته الأسرية لاستحقاق رضى الله.[5]

---

١. المصدر: كتاب نحن والأسرة الجزء الثاني، تأليف مجموعة باحثين، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، ٢٠٢١، من صفحة ٣٩١ إلى صفحة ٤٢٧.

تعريب: حسين حسين بور.

٢. باحث في الفكر الإسلامي والعلوم الإنسانية، من إيران.

٣. ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ (الزمر: ٢٩)، و﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٥٦).

٤. ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨) و﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الفتح: ٤).

٥. ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٢).

أنّ الفـرد الذي يشـعر بالمراقبـة الإلهيّة[١] ويؤمن بـأنّ الله أقرب إليه مـن حبل الوريد[٢] سيحاول في تعامله مع أسرته وفي أداء وظائفه استرضاء الله، كما أن الإيقان بأنّ الله عادل لا يفرض أي ظلم على عباده[٣] ولا يضيع حق أي أحد كائنًا من كان،[٤] عامل ردع لضبط سـلوك وتصرفات أعضاء الأسـرة. فكلما تقوى هذا الشعور لدى الإنسان قلّت مشاكله واستغنى في الوقت نفسه عن وجود مراقب وحاكم خارجي لحل معضلاته. ويترك الإيمان بأن الله رحيم ولطيف،[٥] وقدير وجبار،[٦] وحام ونصير[٧] لكل مخلوقاته بما فيها الإنسـان، آثارًا إيجابيّة على حياته الفردية والأسرية ويرسى التعاطف والاحترام الذي هو مظهر من الرحمة الإلهيّة، وهو الأمر الذي يردع المشـاكل ويحل كثيرًا منها. وأنّ التوكل على الله الذي يعني الثقة والإتكاء بقدرتـه وتأثيرها في كل الحياة هو من آثار الإيمان بالله.[٨] يرى الإنسـان المؤمن أنّ الله يدير الكون وترجع تغييرات العالم كلها إليه وتحيط إرادته بها. أنّ الإنسان لكي يواجه قضايا الحياة بحاجة إلى عاملين اثنين:

١. توفر الأسباب الماديّة الخارجيّة

٢. التحلّي بروح المعنويّة لمواجهة المسائل بشكل أفضل

---

١. ﴿هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الحديد: ٤).

٢. ﴿نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (القاف: ١٦).

٣. النساء: ٤٠، يونس: ٤٤، التوبة: ٧٠، وآيات كثيرة أخرى.

٤. الكهف ٣٠.

٥. ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ الأنعام: ٥٤ و﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ الأنعام: ١٤٧ و﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ هود: ٩٠ و﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ النحل: ٧.

٦. ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ الذاريات: ٥٨ ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ الحديد: ٢٥ ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ البقرة: ١٦٥ ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ الكهف: ٣٩.

٧. ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ الزمر: ٣٦، و﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ النسـاء: ٦، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ النسـاء: ٤٥، و﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ الفرقان: ٣١.

٨. ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ الأنفال: ٢، و﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ الرعد: ٣٠.

أنّ التوكل على الله يوفر كلا العاملين؛ قد يصيب الإنسان الشعور بوهن الارادة والعجز، والخوف، والحزن والتوتر ممّا يفقده السيطرة على الموقف وبالتالي لن يستطيع استحصال السبل والقدرات المتاحة لحل مشاكله. التوكل على الله يقوّي إرادة المرء وبالتالي يحصّنه من الاختلالات النفسيّة ويجعله ذا قوّة وعزيمة لتذليل عقبات الحياة والوصول إلى الانسجام والتعادل. تجابه الأسر طيلة حياتها مشاكل عديدة بعضها يتمثل بالشأن الاقتصادي وما يتعلّق به من الدخل المحدود، والإفلاس وسرقة الأموال والبطالة، والبعض الآخر بالصحّة الجسديّة كالمرض، والإعاقة والموت، والبعض الآخر بمسألة التقبل والفهم. وفي هذا السياق إذا كان أعضاء الأسرة متمتعين بإيمان قوي يتغلّبون على جميع هذه المشاكل، وفضلًا عن ذلك فإن الإيمان يمنح الإنسان بارقة أمل في الأوقات العصيبة وانسداد الأفق إلى أن تنحل معضلاته بطريقة لم يكن يتوقعها أبدًا.[١] والنقطة الهامّة في هذا السياق هي التوصية المتبادلة للأفراد بالتوكل وهي وظيفة ملحة أكثر بالنسبة للنساء واعتبرت إيجابيّة وذات فائدة أكبر.

ومن آثار الإيمان التسليم بما قدره الله، واستبطان هذا شعوريًّا يتطلب تأهيلًا معرفيًّا وعاطفيًّا فإنّ الفرد يجب أن يشعر بكل جوارحه بجبروت وسيطرة الله على كل ما يجري في العالم وقدرته على العطاء[٢] ومن أنّه أعلم بمصالحه منه وأكثر حرصًا على تحقيق سعادته وخيره، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله عز وجل: «إنّ من عبادي المؤمنين عبادًا لا يصلح لهم أمر دينهم إلا بالغنى والسعة والصحة في البدن فأبلوهم بالغنى والسعة وصحة البدن فيصلح عليهم أمر دينهم، وإنّ من عبادي المؤمنين لعبادًا لا يصلح لهم أمر دينهم إلا بالفاقة والمسكنة والسقم في أبدانهم فأبلوهم بالفاقة والمسكنة والسقم، فيصلح عليهم أمر دينهم وأنا أعلم بما يصلح عليه أمر دين عبادي المؤمنين...» و«عبدي المؤمن لا أصرفه في شيء إلا جعلته خيرًا له فليرض بقضائي» و«فإنّي أنا الله الرحمن الرحيم»،[٣] لذا فإن كل أحداث العالم تجري لصالح وخدمة البشر. إنّ الاذعان

١. ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ الطلاق: ٢ و٣.

٢. ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ الكهف: ٣٩، و﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ الإسراء: ٢٠.

٣. الكليني، الأصول من الكافي، ج٢، ص٦٠-٦٢.

بمنطق الأحداث التي تجري بمشيئة الله لهي مناسبة تمامًا للفرد الذي يؤمن بما وراء الطبيعة ويتعلّق بالله عاطفيًّا فإن خلاف ذلك يصعب عليه حياته، فعن أبي عبد الله عليه السلام قال الله (عزّ وجلّ): «وليرض بقضائي أكتبه في الصديقين عندي» و«من رضي بالقضاء أتى عليه القضاء وعظم الله أجره ومن سخط القضاء مضى عليه القضاء وأحبط الله أجره»[1]، وستكون هذه الحالة ذات فائدة أكبر للإنسان عندما يرى أنّه لا دور لإرادته في صناعة أحداث العالم، أحداث كالزلازل، والفيضانات، والأمراض المستعصية، وموت الأعزاء. إنّ حدوث مثل هذه النوائب الخارجة عن إرادة الإنسان تعرض الأسرة إلى مشاكل في التفاهم والتساهل، فعلى سبيل المثال لو تعرضت الأسرة الى موت أحد أعضائها أو ابتلائه بمرض مستعص، سترتبك ويحاول كل عضو إلقاء اللائمة على عضو آخر وتحميله المسؤوليّة أو يحمل الأب والأم أنفسهما وغير ذلك. وتشهد بعض الأسر انتكاسات جراء مرض أو شلل طفل لها حيث قد لا يبري الوالدان من هذا الجرح الغائر إلا بعد مرور سنوات عجاف. وبالتأكيد اذا استسلم الوالدان لقدر الله تخف معاناتهما. إنّ الرضا بحكم الله يجعل أعضاء الأسرة يتعاملون مع المشاكل بإيجابيّة وعلى أنها مكملة لحياة الإنسان بشكل عام وبالتالي يستعدون لمقارعة أي حادثة كيفما كان حجمها بعيدًا عن الانتكاس والتفتت. لقد أقرت دراسات كثيرة دور المعتقدات الدينيّة في ترسيخ الرضا في الزواج كما برهنت دراسات أخرى إنّ الدين يمثّل أهم عامل لثبات وديمومة الزواج.

٢. الإيمان بالنبوّة والإمامة: ثاني أهم ركن للإيمان هو الاعتقاد برسل الله[2] الذين عرفوا تاريخيًّا بالأنبياء. والوصاية ونيابة الأنبياء التي تعرف بـ «الإمامة» في المذهب الشيعي[3] تأتي استكمالًا لرسالة الأنبياء.[4]

---

١. م.ن، ص١٠٢.

٢. ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ البقرة: ٢٨٥.

٣. كالأحاديث التي تتعلق بآية ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ الشعراء: ٢١٤، وحديث الثقلين وحديث «الخلفاء بعدي اثنا عشر».

٤. الطباطبائي، الشيعة في الإسلام، ص١٨٠-١٨٩.

يتجلّى دور الإيمان بالنبوّة والإمامة في بعدين: الأول، تعلم الشؤون الدينيّة خاصة الحياة بناء على الأسس الدينيّة، فإن الطريقة المثلى لتعلّم الدين تتمثّل بعد القرآن في أحاديث النبي ﷺ وأوصيائه، بل إنّ الفهم الصحيح للقرآن لا يحصل إلا عن طريق معرفة واستيعاب أحاديث الأولياء عليهم السلام. وأننا توخينا هذا النهج في الكتاب كلّه والآن نتعرض إلى بعد نموذجية الأولياء عليهم السلام. إنّ مبدأ المحاكاة المتأصل في الإنسان منذ الطفولة يمثّل العامل الأهم في التعلم إذ إنّ تقليد الأطفال للقدوات السامية عند مواجهة المشاكل أمر مفيد جدًّا،[1] فمن بين المناهج المتعدّدة للتعليم تشكل محاكاة القدوة المنهج الأكثر تأثيرًا ونجاعة. وفيما يخص العلاقات بين أعضاء الأسرة تلح ضرورة محاكاة القدوات الدينيّة إلحاحًا أكثر، ذلك أن الاعضاء لكي يتعلموا السلوك الحسن والتعامل المهذب في الأسرة يحتاجون أكثر ما يحتاجون إلى نماذج أخلاقية عمليّة تلعب دور البوصلة لهم، لذا فإن تعريف النماذج الرفيعة مثمر جدًّا في سياق تحسين عمل الفرد والأسرة وتعاملهما مع مسائل الحياة. ويعرف القرآن النبي محمّد ﷺ كأسوة حسنة للذين يتطلّعون إلى الكمال المعنوي[2] كما أن سير الأولياء في جميع مواقفها معلمة وموجّهة للإنسان حيث تعلمه فيما يخصّ الأسرة طريقة اختيار الزوج، والنفقة، وحفل الزواج، وآداب المعاشرة في كافة المناحي، والتصرف مع الأولاد والوالدين، والدنيا بشكل عام، وإنّا سنشير إلى هذه المسائل كلّها في سياق تعريف نماذج الحياة الأسريّة الرفيعة.

٣. الإيمان بالحياة الأخرى: إنه ثالث الأسس إيمانيًّا فتصور حياة أخرى بعد الموت ومن ثم القيامة ومحاسبة الأفراد على سلوكهم وأعمالهم في الحياة الدنيا يؤثر تأثيرًا بالغًا على حياة الناس. ينسحب تأثير المعاد على شتّى مناحي حياة الإنسان إلا أننا هنا نتناول تلك التأثيرات التي تخص الحياة الأسرية فحسب. إنّ عالم اليوم على الرغم من التطورات العلميّة وانخفاض مشاكل الحياة التي يشهدها، ينتشر التوتر والقلق النفسيان فيه بسرعة ويرجع جانب مهم منها إلى الشعور بالخواء والعبثيّة في الحياة المعاصرة ويعزّز هذه الأحاسيس فقدان

---

١. بي ريا، علم نفس النمو على ضوء المصادر الإسلامية، ج٢، ص٥٥٥.

٢. ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ الأحزاب: ٢١.

الإيمان بالمعاد. وتترك هذه العبثية تأثيرًا سلبيًّا على حياة الأسرة، فإن نموذج الأسرة الماديّة ينحسر اهتمامها في حياة ضيقة ومحدودة تفتقد إلى هدف سام الأمر الذي يسهل جدًّا انفصالها وتفككها. أما الإيمان بحياة أخرى تملأ حياة الأسرة أهدافًا ومعنى تجعل أعضاءها يقتربون أكثر إلى بعضهم البعض لذا فإن نموذج الأسرة هذا يقف أعضاؤه جنبًا إلى جنب متضامنين لسنوات طويلة في مواجهة أزمات عصيبة كالإعاقة وهم راضون بما قدر لهم في حياتهم.

والأثر الثاني للإيمان بالمعاد هو إيجاد الدافع والحيوية في الأفراد وقد أشارت أحاديث الأولياء الى الأجور والنعم الآخروية مكافأة للفرد الذي يؤدي واجباته الأسرية وهذا من شأنه أن يحض الأفراد الى توخي السلوك الحسن في الأسرة فتقوّي مثلًا الآية التالية[١] حافز الأفراد لأداء الواجبات الأسرية.

وأمّا الأثر الثالث الذي يرتبط بالأثر الثاني للإيمان بالمعاد يتمثل في مواجهة عقبات الحياة، فإن الأسرة التي تتعرض لموت أحد أعضائها أو إعاقته، أو لأزمات اقتصاديّة شديدة لا يساندها لمجابهة هذه المعضلات أمر كالإيمان بالمعاد.

إنّ من المشاكل ما لا يمكن تعويضها أبدًا والتحلّي بأمل الأجور الآخرويّة وحده يمكنه أن يخفف من وطئتها ويبعث السكينة في نفوس المتعرضين لها؛ وبعض من هذه الأجور هي التالي: اقتصاديًّا؛ «إن المصائب هدايا الله وأجر الفقير محفوظ في خزائنه»[٢] و«الفقر عند الناس رذيلة ولكن عند الله في القيامة زينة»[٣] «لا تزدروا الفقراء الشيعة وأسرهم فإن كل رجل منهم يساوي أفراد قبيلة باكملها شفاعة»[٤] و«سينظر الله يوم القيامة الي الفقراء نظرة اشفاق ويقول: أقسم بعزتي وجلالي أني لم أفقركم إذلالًا لكم،[٥] فلتروا الآن ما الذي امنحكم تعويضًا للدنيا».[٦]

---

١. الزخرف: ٧٠-٧٢.

٢. الكليني، الأصول من الكافي، ج٢، ص٢٦٠.

٣. المحمدي الريشهري، ميزان الحكمة، ج١٠، ص ٤٦٦٢.

٤. المجلسي، بحار الأنوار، ج٧٢، ص٣٥.

٥. م.ن، ص١١.

٦. الكليني، أصول من الكافي، ج٣، ص٣٦١ و٣٦٤.

أمّا عن الذي يفقد طفلًا له فبشــر بأنه ســيفصله عن الجحيم جدار سميك[١] أو ستشرع له أبواب الجنة[٢] كما أنّ الذي يعتصم بالله وقت المصيبة وعد بالجنة.[٣] ونفسيًّا اعتبر الفرد الذي يكبر المصائب الصغار سيقع في ورطة مصائب أكبر.[٤]

أما عن المرض فقد قيل: «سهاد ليلة وجعًا من المرض أكثر أجرًا من عبادة سنة بحالها»[٥] و«من يمرض لمدة ثلاثة أيام ولا يشــكوا ذلك إلى زائريه سأعوضه بلحم ودم أفضل؛ فاشفيه وهو مبرء من الذنوب أو ألحقه بجواري»[٦] وعن مداراة المريض والعناية به قيل: أنّ الفرد الذي يظل يومًا واحدًا مع مريض يرعاه، سيحشره الله مع إبراهيم الخليل عليه السلام وسيعبر جسر الصراط بســرعة البرق. من يستجيب إلى حاجة مريض يطهّر من الذنوب كيوم ولدته أمه.[٧] وإن الذي يطعم المرض غذاء مفضلًا لديه، ســيغذيه الله من فواكه الجنة،[٨] إنّ كل هذه الأحاديث التي تتعلّق بالحياة الأخرى لهي حوافز لأعضاء الأســرة لكي يدعموا بعضهم البعض في الشدائد ويعزّزوا أنفسهم في الخسائر التي لا تعوض بما وعدهم الله من جزيل النعم في الآخرة.

يتجلّى الأثر الرابع للمعاد بقوّة الضبط والردع؛ إنّ معظم مشــاكل الأسرة يكمن في عدم ترويض الســلوك الفظّ الذي ينتهك حقوق الآخرين ويفسد ســكينتهم بالعجيج والضجيج، وأفضــل آلية للترويض تتمثّــل بالإيمان بالمعاد، فتخيّل الفرد لمدى عقوبات ســحق حقوق النــاس وعدم القيام بالواجبات تثنيه إلى حدّ ما عن ارتكابها. والقرآن ينذر المؤمنين وأهليهم

---

١. المجلسي، بحار الأنوار، ج٨٢، ص١٣١.

٢. الصدوق، الخصال، ص١٨٠، ح٢٤٥.

٣. ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ البقرة: ١٥٦، البحراني، البرهان في تفسير القرآن، ج١، ص١٦٤.

٤. ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٢٠، ص٩٨.

٥. الكليني، الكافي، ج٣، ص١١٤.

٦. م.ن، ص١١٥.

٧. المجلسي، بحار الأنوار، ج٧٦، ص٣٦٦.

٨. م.ن، ج٨١، ص٢٢٤.

أن يقــوا النار التي وقودها الناس والحجارة.[١] إحدى عقوبات ســوء خلق الفرد على ســبيل المثال هي الضغط النفســي الهائل عليه فــي عالم البرزخ بحيث حتى لو قــام بواجباته على أكمل وجه في الأســرة سيقع تحت ســندان العناء ومطرقة الضغط عقابًا لسوء خلقه[٢] كما قد ذكرت أحاديث الأولياء عواقب الإســاءة إلى الزوجة[٣] ومعرفة هذه العقوبات قد تكون خير رادع للفرد من تبني السلوك السيء.

ثانيًا: الوصايا الأخلاقيّة لرفع فاعليّة الأسرة

نناقش هنا تلك الصفات الأخلاقيّة التي تســاهم في إقامة علاقات أســرية مناسبة تسمو بها معنويًّا.

١. الصدق: إنّه من الصفات المؤثّرة في علاقات الأســرة حيث يوفر مناخ الثقة المتبادلة وبالتالي مد جسور التواصل.

يعني الصدق في التحليل النفساني ذلك القول والسلوك الذي يتطابق مع نيّة ودافع فاعله، أي بعبارة أبسط أن الفرد الصادق هو من يتكلم بوضوح وصراحة. عندما لا يكون الفرد صادقًا في علاقته الكلاميّة والجسديّة فإنه يقيم علاقة متناقضة ذات وجهين حيث فحوا كلامه يوحي إلى شيء وكيانه ونيته يوحيان إلى شيء آخر.

ويســتجيب الآخر في هذه الحالة إلى مفاد كلامه أو سلوكه بيد أنه حينما يجد مرامه أمرًا مختلفًا عن كلامه سيحتار في التعامل مع أقواله وسلوكه الأخرى. فلو انتبه إلى كلامه وأفعاله ســتفوته نيته الحقيقيّة ولــو انتبه إلى دوافعه المحتملة قد يحكم عليه حكمًا قاســيًا، هذه هي الســمة البارزة للأسر المضطربة. فغياب الصدق في الأســرة يسبب انعدام الثقة وسوء الظنّ الذين يهيئان الأرضيّة للخلاف الأسري. ولذلك قد أكّد الأولياءﷺ على الصدق كثيرًا إدراكًا منهم بأن الكذب يزعزع الثقة المتبادلة بين الأعضاء، فقد ورد عن عطاء بن يســار قال: «قال

---

١. التحريم: ٦.

٢. المجلسي، بحار الأنوار، ج٦، ص٢٢٠.

٣. م.ن، ج١٠٣، ص٤٧٣.

رجل للنبي ﷺ: أكذب أهلي؟ قال: لا خير في الكذب»،[١] واعتبروا الصدق معيارًا للإيمان.[٢] إنّ الصدق يرسي قواعد الثقة المتبادلة وبالتالي يشيد صرح الصداقة والأخوة و«يكسب الصادق بصدقه ثلاثًا: حسن الثقة به، والمحبة له والمهابة عنه»،[٣] ولذا تحقيقًا لمطالب تطور الأسرة وصحة علاقة أعضائها ينبغي أن تكون العلاقات الكلاميّة والجسديّة (لحن الصوت، والهيئة الجسديّة للأعضاء تجاه بعضهم، وطبيعة النظرات المتبادلة، وحركات الجسد) كلها مباشرة وشفافة وصريحة، حيث لا يتطابق كلام الفرد مع ملامح وجهه وحركة جسده ولحن صوته فحسب وإنما تتطابق مع دوافعه وأفعاله اللاشعوريّة أيضًا، يعني أن تشير كل صفحات سريرته إلى شيء واحد فقط. فعلاقة كهذه تجعل أعضاء الأسرة يتصفون بالسلوك القويم والمتكامل، وبالإلتزام والصدق، وبالجدارة، والإبداع،كما يجعلهم يتعاملون مع المشاكل بشكل مناسب.

٢. حسن الظن: إنّ حسن الظن من الصفات الأخلاقية المؤثرة في الأسرة وهي تقوم على أرضية الثقة المتبادلة. يؤدي حسن الظن تجاه الآخرين وتجاه الحياة والله دورًا مهمًّا في صحة الأسرة وهي تمثل خير وقاء ودواء للمشاكل. ولكي يرسي الزوجان حسن الظن بينهما يتوجب عليهما أن يتعرفا جيّدًا على بعضهما البعض في بداية زواجهما والتأكد من أن كل منهما يتمتع بالصفات اللازمة مع رعايتهما للأصول الأخلاقيّة. وإذا توفرت هذه الصفات يمكن لأعضاء الأسرة في ظل الثقة المتبادلة أن يتخلصوا نهائيًّا من سوء الظن، وقد شدّدت النصوص الدينيّة على حسن الظن تجاه الإخوة الدينيين، كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يقلبه»،[٤] وتفسير حركاتهم وسكناتهم

---

١. المجلسي، بحار الأنوار، ج٦٩، ص٢٥٤.

٢. ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ النحل: ١٠٥، و«يجبل المؤمن على كل طبيعة الا الخيانة والكذب». المجلسي، بحار الأنوار، ج٧٢، ص١٧٢.

٣. آمِدى، غرر الحكم ودرر الكلم، ح١١٠٣٨.

٤. الكليني، الأصول من الكافي، ج٢، ص٢٦٩.

على محمل حسن. وطلب من المسلمين بصريح العبارة اجتناب الظن لأن بعض الظن إثم[١] فهو يسهل على الفرد الإساء قولًا وعملًا تجاه الآخرين.[٢] وفي محيط الأسرة يتوجب على الزوجين وأبنائهما أن يبتعدوا كل البعد عن الظن المتبادل، وما لم يحصل لديهم حجّة منطقية دامغة أو استدلال علمي يبرهن لهم وقوع الخطأ فعلًا عليهم أن يحسنوا الظن تجاه بعضهم. إن إحدى المشاكل المتجذرة في العلاقات الفردية هي عدم فهم مرمي ودوافع الآخر وبالتالي تفسير كلامه على محمل معاكس، لذا يوصي الإسلام أن يحمل الأفراد كلام الآخرين على أحسن محمل ممكن. من نافل القول أن استبطان هذه الوصية الإسلامية في الأسرة من شأنها إيجاد تربة خصبة لنمو علاقات مناسبة بين الاعضاء. ينبغي أن تسود بيئة نفسانية في الأسرة يسمح للاعضاء أن يركزوا أكثر على الجوانب الإيجابية لأحدهم الآخر ويتجنبوا تضخيم الجوانب السلبية، وهو ما يكفل بإرساء حسن الظن في محيط الأسرة.

إن حسن الظن والتعليلات الإيجابية لما يجري يؤثر إيجابًا على مواجهة المشاكل وبالمقابل فإنّ سوء الظن والتشاؤم قد يعرض الأفراد الى حالات عاطفيّة سلبية ممّا يضعف من مناعتهم أمام المشاكل.

وسيكون جسمه معرضًا لشتّى الأمراض. إن حسن الظن يشجع الأفراد بوضع خطط لحل المشاكل ومن ثم الانتظار أن تتكلل هذه الخطط بالنجاح الأمر الذي يحثه على بذل مجهود أكبر، لذا يمكن القول بأن النظرة المتفائلة في الحياة تؤثر إيجابا على الأحوال العاطفية للفرد وبالتالي تتحسن العلاقات بين أعضاء الأسرة على أثر ذلك.

والجانب الثالث لحسن الظن الذي عبرت عنه النصوص الإسلامية بحسن الظن تجاه الرب يؤثر إيجابًا أيضًا على الحياة الأسرية. إن الفرد المؤمن يرى الله مؤثرًا في كل أمور العالم وحياة الإنسان فإذا كان لا يحسن الظن به ومتشائمًا من نزول رحمته عليه ستسود الدنيا في عينيه ويبلغ منتهي اليأس والخيبة ويظل عاجزًا عن فعل أي شيء إيجابي ومفيد، من هنا

١. ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ الحجرات: ١٢.
٢. الكليني، الأصول من الكافي، ج٢، ص٢٦٥ و٢٦٦.

فقد اعتبر التشاؤم بالله اسوأ إثم قد يرتكب، حيث ورد عن الرسول ﷺ أنّه قال: «أكبر الكبائر سوء الظن بالله»،[١] وأوصى الأولياء عليهم السلام المسلمين التفاؤل بالله بشتى الطرق[٢] فمثلًا قالوا: لو ظنّ أحدهم بالله ظنًّا حسنًا سيوفّر له الحياة السعيدة تقديرًا لحسن ظنّه.[٣]

٣. القناعة: تعتبر القناعة وعدم الانسياق وراء المظاهر من الصفات الأخلاقيّة المهمة حيث أشارت النصوص الإسلامية إلى تأثيرها الإيجابي على الدنيا والآخرة.[٤] قد ازدادت في وقتنا الحاضر الحياة الاستهلاكية والانحراف نحو كل ما يشبع رغبة التجمل. فالتطور الذي أحدث شرخًا كبيرًا في مستوى المعيشة بين الأسر زاد من توقع أعضاء الأسر ذات الدخل المتوسط والمحدود وبالتالي وقعت خلافات كثيرة بين الأعضاء في هذه الأسر تذمرًا من معيشتهم. لذا قد أوصى الإسلام درءًا لهذه الخلافات بأن يتحلّى الجميع بالقناعة، فإن الذي يتحلّى بالقناعة راض بما يسد حوائجه الضرورية فحسب[٥] ولا يكبد نفسه عناء جني دخل ومال أوفر. فلو اقتنع الزوجان بما يوفرانه من مدخول وكفا عن أتعاب أنفسهما والآخرين بحثًا عن مزيد من المال سيعيشان حياة رغدة، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «من قنع بالمقسوم استراح من الهم والكد والتعب».[٦] وأوصى الإسلام المرأة أكثر بالالتزام بالقناعة[٧] لعل تعليل ذلك راجع إلى أن الرجل هو الذي يتكفل بتوفير نفقات البيت وبالتالي يتحمل ضغوطات نفسية أكبر لذلك فإن قناعة المرأة تخفف عنه وطئة هذه الأعباء والضغوطات النفسيّة.

---

١. المتقي الهندي، كنز العمال، ح٥٨٤٩.

٢. المجلسي، بحار الأنوار، ج٧٠، ص٣٣٦ و٣٨٥.

٣. الكليني، الكافي، ج٢، ص٧٢.

٤. فقد فسر الامام علي عليه السلام الآية ٩٧ من سورة النحل؛ «فلنحيينه حياة طيبة» قائلًا أن المقصود من الحياة الطيبة هي الحياة لمصحوبة بالقناعة (نهج البلاغة، الحكمة ٢٢٩).

٥. الكليني، الأصول من الكافي، ج٢، ص١٣٩.

٦. النوري، مستدرك الوسائل، ج١٥، ص٢٢٤.

٧. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١٤، ص١٨.

ولكي تحقق الأسر مطلب القناعة ينبغي عليها أن تقارن أنفسها دومًا مع الأسر ذي المستوى المعيشي المتواضع نسبيًّا،[١] وتحاول أن تتواصل معها فعكس ذلك لا يجلب إلّا الهم والنكد، كما يمكنهم أن يوجهوا جبلة الطمع نحو النمو والتكامل الروحي والمكسب العلمي بدل اللهث وراء الكسب المادي. لو نجحت أسرة ما من تحقيق هذا الأمر وغضت النظر عن الحياة المادية[٢] فإنها ستتخلص من الهم والحسرة[٣] وتتكون لديها عزة نفس[٤] تغنيها عن النواقص، فقد ورد في خطبة أمير المؤمنين عليه السلام: «..مع قناعة تملأ القلوب والعيون غنى»،[٥] ويحظى أعضاؤها بحياة طيبة وممتعة، وقال عليه السلام أيضًا: «جمال العيش القناعة» و«أطيب العيش القناعة».[٦] لقد اعتبر الأولياء عليهم السلام الفرد القانع بحظه ورزقه من أسعد الناس، وعنه أيضًا عليه السلام أنّه قال: «إن أهنأ الناس عيشًا من كان بما قسم الله له راضيًا».[٧] وخلاف ذلك، يظل أفراد الأسرة دومًا يعيشون أحوال النكد والمرارة وهم يتطلعون إلى المزيد من الغنى المادي، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «خمس من لم تكن فيه لم يتهنأ بالعيش .. القناعة».[٨]

٤. الصبر: إنه صفة أخرى من الصفات الأخلاقيّة ويعتبر سمة أساسيّة للزوجة المناسبة، ويمكن اسخلاص ذلك من خلال ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «ثلاثة لا تمسهم النار المرأة المطيعة لزوجها... المرأة الصابرة على عسر زوجها والبار لوالديه».[٩] كما يتبوّأ الرجل الصبور مرتبة خاصة في الجنة، قال صلى الله عليه وآله: «إنّه في الجنة درجة لا يبلغها إلا الإمام العادل أو ذو رحم

١. الكليني، الكافي، ج٨، ص٢٤٤.

٢. ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، طه: ١٣١.

٣. الآمدي، غرر الحكم ودرر الكلم، ص٩٤١.

٤. نهج البلاغة، الرسالة ٣٠، الآمدي «القناعة تؤدي الى العز» غرر الحكم ودرر الكلم، ص٣٩١.

٥. نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢.

٦. الآمدي، غرر الحكم ودرر الكلم، ص٣٩١.

٧. م.ن، ص٣٩٣.

٨. المجلسي، بحار الأنوار، ج٦٦، ص٣٩٠.

٩. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١٤، ص١٢٤؛ شفيعي المازندراني، سر السعادة، ص١٠١، ما يشابه هذا الحديث موجود في: المتقي الهندي، كنز العمال، ح٤٣٣٤٧.

وصول أو ذو عيال صبور».[١] إنّ الصبر يرتبط بالقناعة ولكن لأهميته الفائقة قرّرنا أن نناقشه لوحده؛ يمثّل الصبر والحلم الدرع المثالي لصد مشاكل الأسرة فلو جزع الاعضاء عند أول مشكلة تطرأ سيكون الخلاف الأسري أمرًا لا مفر منه. والصبر بوصفه سمة نفسانية يستطيع أن يردع الأزمات وقد اعتبرته النصوص الإسلاميّة جزءًا لا يتجزأ من الإيمان، فقد ورد عن الإمام علي عليه السلام في خطبته أنّه قال: «فإن الصبر من الايمان كالرأس من الجسد».[٢] إنّ الفرد الذي لا يتمتّع برباطة الجأش ليس إلا عبئًا على الآخرين فضلًا عن أنّه يعلق علامة استفهام كبيرة على صدق إيمانه، وعنه أيضًا عليه السلام أنّه قال: «فإنه لا دين لمن لا صبر له».[٣] وفيما يتعلّق بمسائل الأسرة قد يتطلب تحقيق الأهداف المنشودة وقتًا طويلًا فاذا لم يتحل الأعضاء بالصبر اللازم وأظهروا بالمقابل تسرعًا واستعجالًا سيقعون في الارتباك والتخبط وبالتالي يزيدون من صعوبة الموقف مما يكون حائلًا كبيرًا أمام ما يرومونه، وفي ذلك قال عليه السلام: «من صبر خفت محنته وهانت مصيبته» و«إذا صبرت للمحنة فللت تحدّها»، و«فاصبر مغمومًا أو مت متأسفًا» و«إن للنكبات غايات لا بدّ أن ينتهي إليها... فإن أعمال الحيلة فيها عند إقبالها زائد في مكروهها»،[٤] وأمّا فيما لو تحلوا بالصبر سيبلغون مقاصدهم عاجلًا أو آجلًا، «لا يعدم الصبور الظفر وإن طال به الزمان» و«استشعروا الصبر فإنه ادّعى إلى النصر».[٥]

قد يبدو في بعض الأحيان تصرف غير مناسب يحدث انفعالًا سريعًا من الآخر تبعد الشقة بينهما ولكن إذا التزم الأخير بالحلم سيتجنب هذا الخلاف دون شك ويدفع الآخر أن يتعامل معه على ضوء الصبر وضبط النفس.[٦] إن الذين لا يتحلون بالصبر وينفعلون بسرعة يقومون بتصرفات يندمون عليها بسرعة، كما ورد عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «من صبر صبر الأبرار

---

١. المجلسي، بحار الأنوار، ج١٠١، ص٧٠.
٢. نهج البلاغة، الحكمة ٨٢.
٣. المجلسي، بحار الأنوار، ج٤٨، ص٩٢.
٤. درايتي، معجم الفاظ غرر الحكم، ص٥٧٧، نهج البلاغة، الخطبة ٢١٧، المجلسي، بحار الأنوار، ج٦٨، ص٩٥.
٥. نهج البلاغة، الحكمة ١٥٣، م.ن، الخطبة ٢٦.
٦. المجلسي، بحار الأنوار، ج٧٨، ص٧٩.

ولا سلا سلو الأغمار».[١]

بعيدًا عن مشاكل العلاقات التواصلية يواجه الإنسان في حياته عقبات كثيرة كالفقر المالي والأضرار الجسديّة والنفسيّة تستدعي شبح الخلاف ليخيم على محيط الأسرة وقد تتفاقم هذه الخلافات والأزمات لتصل الى درجة لو لم يتسلح الفرد لها بسلاح الإيمان الديني ستطيح به، لذا يدعو الله الناس إلى الصبر ويبشر الصابرين بالرحمة.[٢]

وقد اعتبر الله تعالى إنّ الصابرين سيوفون أجرًا بغير حساب[٣] وأنه تعالى -في سياق آيات كثيرة- محب[٤] ورفيق[٥] ونصير[٦] للصابرين. إن كل هذه الآيات لهي حافز كبير تدفع الفرد لضبط النفس والتحلّي بالصبر أمام المشاكل، كما هناك أحاديث كثر للأولياء في هذا الشأن ذات تأثير توجيهي كبير: «لكل مصيبة تخوضها صابرًا يكتب لك عند الله أجر»[٧] و«من يصبر في الشدائد ويتخطاها بحلم وعزاء سيبلغه الله ثلاثمائة درجة سموًا».[٨]

النقطة الأخيرة فيما يتعلّق بالصبر تتمثّل بضرورة توصية أعضاء الأسرة بعضهم البعض بالصبر[٩] حيث يزيد أوّلًا من صبر الفرد ثم يقوي حافز الآخرين للإستعانة بالصبر.

٥. الكرم: إن الكرم والجود من الصفات الضرورية جدًّا لأعضاء الأسرة خاصة للرجل[١٠] فإن بئس الرجال البخلاء.[١١] إن الرجل لكونه المعيل يتحتم أن يتّصف بالسخاء لرفاه أهله فلو

---

١. نهج البلاغة، الحكمة ٤١٣.
٢. البقرة: ١٥٥.
٣. الزمر: ١٠.
٤. آل عمران: ١٤٦.
٥. البقرة: ١٥٣ و٢٤٩؛ الأنفال: ٤٦ و٦٦.
٦. آل عمران، ١٢٥.
٧. نهج البلاغة، الحكمة ٢٩٢.
٨. الكليني، الأصول من الكافي، ج٢، ص ٩١.
٩. ﴿وتواصوا بالصبر﴾، العصر: ٣.
١٠. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١٤ ص١٨.
١١. م.ن.

كان شحيحًا سينكد حياتهم إلى درجة يصبحون يتمنّون موته، كما ورد عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه قال: «ينبغي للرجل أن يوسع على عياله لئلا يتمنوا موته».[١]

اعتبر الأولياء البخل جامع مساوئ العيوب[٢] حيث فضّلوا الشاب المنغمس في الذنوب على الشيخ العابد البخيل.[٣] لقد شدّد الإسلام كثيرًا على ضرورة توفير الرفاه للعائلة واعتبر الاستفادة من نعم الله أمرًا مستحسنًا.[٤] لكن يجدر التنبيه إلى أنّ الإسلام قد ميّز بين الرجل والمرأة فيما يخصّ السخاء والبخل حيث لا يوجب على المرأة التحلي بالسخاء[٥] وتعليله هو أنّ المرأة عليها أن تكون مدبّرة كي لا تبدّد مصاريف البيت وبالتالي تعرض الأسرة إلى مشاكل ماليّة، ولكن فيما يتعلّق بأموالها الشخصيّة فتعامل معاملة الرجل فيعد بخلها أمرًا سلبيًّا.

ثالثًا: تعاليم الإسلام العمليّة لرفع فاعليّة الأسرة

يتضمّن الإسلام فيما يخصّ سلوك أعضاء الأسرة، تعاليم مفصّلة ومؤثّرة لتحسينها وتحسين أدائهم في الأسرة. يتعلّق قسم من هذه التعاليم العمليّة بعلاقات أعضاء الأسرة الكلاميّة منها وغير الكلاميّة، ويتعلّق القسم الآخر ببيئة البيت، وإدارة الأسرة، والعبادات في البيت التي تؤثّر مباشرة أو ضمنًا في العلاقات الأسريّة الداخليّة، وحان الآن أن نناقش هذه التعاليم.

١. العلاقات الكلاميّة: فيما يخصّ طريقة إقامة العلاقات الكلامية، ثمّة فوارق كثيرة قائمة بين الأطفال والبالغين كالوالدين، فالأطفال بحاجة إلى فتح مجال لهم ليتكلموا ويعبّروا عن أحاسيسهم وأفكارهم فهو عامل مهم جدًّا لنموهم ونضجهم وأما عكس ذلك وعدم السماح لهم بالتكلم لا يؤدّي إلّا إلى كبت عواطفهم وإفقار قدراتهم العقليّة، عمومًا

---

١. م.ن، ج١٥، ص٢٤٩.

٢. نهج البلاغة، الحكمة ٣٧٨.

٣. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١٥، ص٢٥٣.

٤. الكليني، الفروع من الكافي، ج٦، ص٤٤٧.

٥. نهج البلاغة، الحكمة ٢٣٤.

يمثل محيط الأسـرة المكان المثالي لنموّ المقدرة الكلاميّة وإثبات الذات كلاميًّا. العلاقات الكلاميّة في البيت أكثر أهميّة وأولويّة بالنسبة للمرأة منها للرجل الذي يكفي مجرّد حضوره. وتشير التعاليم الإسلاميّة إلى طريقة الكلام لا سيّما مضمونه، في كل تفاصيله فيتوجّب أوّلًا أن تتّصف محادثة أعضاء الأسـرة فيما بينهم بالاحتـرام؛ فمثلًا أن يكون لحن الصوت هادئًا ويسوق القرآن تجنيبًا للأفراد من التحدث بصوت مرتفع وناشز في كل مكان سيّما في الأسرة، مثال بشاعة صوت الحمير.[١] ومن علائم الاحترام في المحادثة أن يتخاطب الزوجان بأسماء يحبانها،[٢] والمسـتوى الثاني هو التعبير عن الحب بين الأعضاء عبر الكلام الأمر الذي يعمق العلاقـات العاطفيـة بينهم، وورد عن النبـيّ محمّد ﷺ أنّه قال: «قـول الرجل إني أحبك لا يذهـب من قلبها أبدًا».[٣] والنقطة الثالثة هي التعبير الشـكر والتقدير بين أعضاء الأسـرة عبر الكلام فقد اعتبر الشـكر للوالدين يعادل الشـكر لله قيمة.[٤] وعلى الزوجيـن أن يثنيا العمل المناسب لأحدهما الآخر، فاحدى الصفات الإيجابية للمرأة هي الثناء والتقدير في الأسرة[٥] أمّا خلاف ذلك فيترك آثارًا سـلبية جدًّا على الأسرة لا سيّما على نفسها هي.[٦] ويتوجب على الرجل بدوره أن يشكر ويقدّر كلامًا ما تقوم به الزوجة في الأسرة فذلك من شأنه أن يشجعها[٧] ويعزّز الوشائج بينهما.

أنّ الثناء والشـكر من نعم الله[٨] له أهميّة كبرى في الأسرة حيث يزيد رضى الأعضاء من

---

١. ﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾، لقمان: ١٩.

٢. «ثلاثة يصفين ود المرء لأخيه المسـلم.. يدعوه بأحب الأسماء إليه» الكليني، الاصول من الكافي، ج٢، ص٦٤٣. وإن كان هـذا الحديـث يتعلق بالأصدقاء إلا أنه يمكن تطبيقه على علاقة الزوجين ذلك أن صداقتهما أمتن صداقة ممكنة؛ أيضًا مصطفوي، جنة الأسرة، ج١، ص١٧.

٣. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج٢٠، ص١٠.

٤. ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾، لقمان: ١٤.

٥. السيوطي، الدر المنثور، ج١، ص١٥٢.

٦. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١٤، ص١١٥.

٧. م.ن.

٨. ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، الضحى: ١١.

الحياة، وقد أشار القرآن الى ذلك واعتبر أنّ شكران النعم نافع للفرد نفسه بالدرجة الأولى.[١] يتجلّى قسم من شكران الفرد لله في شكر أولئك الذين أحسنوا في حقّه فمن لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق.[٢] وقد يلعب هذا الأمر دورًا كبيرًا في الأسرة، ذلك أنّه لا أحد كالوالدين، فعن الإمام الرضا عليه السلام أنّه قال: «من لم يشكر والديه لم يشكر الله»،[٣] وعن النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله أنّه قال: «ما أفاد رجل بعد الإيمان خيرًا من امرأة ذات دين وجمال سره إذا نظر إليها..»، والزوج،[٤] والأبناء[٥] يمكنه أن يلبّي الحوائج الماديّة والعاطفيّة للفرد.

وبعض الممارسات تعيق إقامة علاقات كلامية مناسبة ينبغي لأعضاء الأسرة أن يتجنبوها قدر المستطاع، تصرفات كالتذمر، ومقاطعة حديث الآخرين، والمماحكة والمناطحة في أمور تافهة والانحراف عن موضوع الحديث، والتهديد، والإهانة، والسخرية، والانتقاد اللاذع، والثرثرة.[٦] وتشير التعاليم الإسلامية الى بعض من هذه العراقيل وتضيف أمور أخرى عليها كالتهامس والتناجي بين عضوين وسط اجتماع الأسرة فهو أمر غير لائق لأنه يؤذي ويحزن سائر الأعضاء، فقد ورد عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «إذا كان القوم ثلاثة فلا يتناجى منهم اثنان دون صاحبهما فإن ذلك مما يحزنه ويؤذيه»،[٧] لذا ينهى القرآن منه بشدة[٨] كما أنه قد نهى من الكذب وأشرنا الى ذلك في موضوع صفة «الصدق». تحفظ القرآن على الكذب سواء كان لأغراض جدية أو للممازحة، وقد أشار إلى ذلك الإمام علي عليه السلام عندما قال: «لا يجد عبد طعم الإيمان حتى يترك الكذب هزله وجده»[٩] لأنه يفسد أجواء الوضوح والصراحة

---

١. ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾، لقمان: ١٢.

٢. «من لم يشكر المنعم من المخلوقين لم يشكر الله» الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج٦، ص٥٤٢.

٣. المجلسي، بحار الأنوار، ج٧٤، ص٦٨.

٤. النوري، مستدرك الوسائل، ج١٤، ص١٦٩.

٥. الأحاديث التي تتعلق بدور وأهمية الإبن في الأسرة وقد ناقشناها في الفصل الثاني.

٦. برنشتاين، المعالجة الأسرية، ص١٦١.

٧. الكليني، الأصول من الكافي، ج٢، ص٦٦٠.

٨. المجادلة: ٧-١٠.

٩. الكليني، الكافي، ج٤، ص٣٧.

بين الأفراد، وعنه أيضًا عليه السلام أنّه قال: «الكذب يؤدي إلى النفاق» و«الكذب يوجب الوقيعة».[١] أنّ الأولياء لكي ينهوا الناس من مقاطعة حديث الآخرين ويشجعوهم لضبط النفس شبهوا هذا العمل بخدش وجه الآخر، وهو ما أشار إليه النبي محمّد صلى الله عليه وآله بقوله: «من عرض لأخيه المسلم في حديثه فكأنما خدش في وجهه».[٢] وقد نهى القرآن من سخرية الآخرين خاصة سخريّة النساء.[٣] سنناقش الممارسات الكلامية المعيقة للعلاقات في الأسرة في موضوع حل الخلافات الأسرية.

٢. الصلات غير الكلامية: لا ينحصر علاقات الأفراد عبر الكلام فحسب بل يرتبطون أيضًا شعوريًّا أو لا شعوريًّا عبر هيئة جسدهم تجاه أحدهم الآخر، والمسافة التي يتخذونها، وطريقة جلوسهم وتحيّزهم، وملامح الوجه كالبشاشة أو الوجوم، وحركات الجسد كالاتصال البدني والبصري، هذا ويعتبر لحن الصوت جزءًا من الصلات غير الكلامية وقد تحدثنا عنه سابقًا. ينبغي لأعضاء الأسرة أن يقيموا صلات كلامية كالتالي: الهيئة الجسديّة المتناظرة (كأن يجلسا أو يقفا معًا)، أن يجلسوا مقابل بعضهم البعض متجنبين الجلوس خلف بعضهم البعض، وأن يكون مسافة جلوسهم عن بعض مترًا، وأن تكون حركات بدنهم مناسبة وأن يكون اتصالهم البصري مناسبًا غير مؤذ وحاد. لو لم تتحقق هذه الشروط فلن تقام علاقات مناسبة ومرضية بين الأعضاء.

تتضمن التعاليم الإسلاميّة فيما يتعلّق بالعلاقات غير الكلاميّة لأعضاء الأسرة نقاطًا لافتة تساق ضمن الوصايا المختلفة. إحدى هذه النقاط المهمّة هي حسن الخلق الذي يتجلّى بعضه في الصلات غير الكلاميّة إذ يوصي الأفراد أن يتعاملوا مع الآخرين خاصة أعضاء الأسرة بوجه بشوش[٤] ذلك أن أسارير الوجه المتهللة تجذب القلوب[٥] وتزيد المحبة[٦] وتبعث

١. الآمدي، غرر الحكم، ح١١٨١، و٧٤٧.
٢. الكليني، الأصول من الكافي، ج٢، ص٦٦٠.
٣. ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ﴾، الحجرات: ١١.
٤. الكليني، الأصول من الكافي، ج٢، ص١٠٧.
٥. الآمدي، غرر الحكم، ص٩١.
٦. الكليني، الأصول من الكافي، ج٢، ص١٠٧.

بالفرح والحيوية وتزيل الضغائن من القلوب.[١]

وقد قيل عن المؤمن أنه يكظم غيظه ويستقبل الناس وهو متهلل الوجه[٢] وفضلًا عما قلناه تحسن البسمة المفروشة على الوجوه[٣] العلاقات وبالعكس تصعر الخد يفسدها وقد نهى القرآن عنها بشدة.[٤] إن النظر الودود المتبادل بين الأزواج من شأنه أن يبعث الحيوية فيهم،[٥] كما أن النظرة الودودة للوالدين تعتبر عبادة[٦] وكذا شجعت نظرة الوالدين الرؤوفة تجاه الأبناء وأفراحهم، قال النبيّ محمّد ﷺ: «إذا نظر الوالد إلى ولده فسرّه كان للوالد عتق نسمة»،[٧] وبالمقابل اعتبرت الحملقة والنظرات الحادة والناقمة لأعضاء الأسرة فيما بينهم خاصة تجاه الوالدين[٨] أمرًا كريهًا يهز العلاقات العاطفيّة الإيجابية.

وفيما يخص هيئة الجسد يوصي الإسلام بالتواضع ونبذ الحركات التي توحي بالخيلاء والتيه حفظا وتمسكًا بالعلاقات العاطفية الإيجابية.[٩] التواضع أن يكون تواضعًا هو أن لا يعتبر الفرد نفسه بالمقارنة مع الآخرين أعلى شأنًا ورتبة[١٠] والتواضع ينسحب على هيئة الجسد أيضًا[١١] لذا قد أوصى القرآن الأبناء أن يخفضوا جناح الظل من الرحمة لوالديهم.[١٢]

---

١. الآمدي، غرر الحكم، ص٩٢.

٢. م.ن، ص٩١.

٣. الكليني، الأصول من الكافي، ج٢، ص١٨٨.

٤. ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ لقمان: ١٨.

٥. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١٤، ص٣٧، النوري، مستدرك الوسائل، ج١٤، ص١٦٩.

٦. النوري، مستدرك الوسائل، ج١٥، ص٢٠٥.

٧. تنكابني، الحديث، ج١، ص٢٩٩.

٨. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١٥، ص٢١٧.

٩. «ثمرة التواضع المحبة». الآمدي، غرر الحكم، ح٥١٧٩.

١٠. ديلمي، وآذربايجاني، الأخلاق الإسلامية، ص١٤٠.

١١. واعتبر الامام الصادق عليه السلام القعود في مكان اخفض احدى علائم التواضع. الكليني، الأصول من الكافي، ج٢، ص١٢٢.

١٢. ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ الأسراء: ٢٤.

يظهر التواضع نوعًا من الانخفاض في هيئة الجسد ويظهر في المقابل الغرور والنرجسية حالــة انتفاخية من الجســد حيث يحاول الفرد المغــرور دومًا أن يحتل حيّزًا أوســع وأعلى مكانيًّا[١] وتحيل كلمتا «الآنفة» و«تصعر الخد»[٢] إلى هذا الأمر. إذن ينبغي على أعضاء الأسرة لاقامة علاقات مناســبة أن يطبقوا التواضع على حركات جسدهم أيضًا لذا أوصى الرجل أن يتخلق بسلوك[٣] يظهر تواضع الجسد. وبالنسبة للمرأة اعتبر تواضعها أمام زوجها من الصفات الحميدة لها[٤] فيما يعد تكبرها سلوكًا سيئًا.[٥]

٣. بيئــة البيت: يتمثّل قســم آخر من تعاليم الإســلام العملية ببيئة البيــت وآدابه؛ آداب كالنظافة البدنية لاعضاء الأســرة،[٦] ومحيط البيت[٧] فعلى الأعضاء كلهم خاصة الزوجين أن يهتموا بمظهرهم فإنه يزيد من المحبة بينهم.

إنّ تواجد الرجل في البيت وبين أســرته لا ســيّما في الليل مهم للغايــة[٨] فقد اعتبر النبي ﷺ جلوس الرجل مع أســرته أحب إلى الله من اعتكافه وتحنثه في مسجد المدينة «جلوس المرء عند عياله أحب إلى الله من اعتكاف في مسجدي».[٩] كما أنّ الأكل مع الأسرة أيضًا يعد مهمًّا للعلاقات فيقول النبي ﷺ عــن هذه النقطة: «كل رجل يمد مائدة الأكل ويدعوا زوجه وأبنائه إلى الأكل معه وثم يبدأ التناول بذكر الله ويختم ذلك أيضًا بذكر الله ينزل الله رحمته

١. النراقي، معراج السعادة، مبحث التكبر.
٢. قاموس دهخدا، مفردة «الانف» و«الخد».
٣. كالقاء التحية عند الدخول في البيت يعد من مؤشرات التواضع.
٤. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١٤، ص١٤ و١٥.
٥. م.ن، ص١٨.
٦. م.ن، ص١٨٣.
٧. محمدي ريشهرى، ميزان الحكمة، ج١٠، ص١٩٣.
٨. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١٤، ص١٢٢.
٩. إحسان بخش، آثار الصادقين، ج١٥، ص٢٩٣.

ومغفرتــه عليه قبل أن تجمــع المائدة».[١] إن هــذه الوصية في وقتنا الحاضــر الذي اتصفت مجتمعاته بالصناعية والعمل المنظم حيــث يقضي الرجل والمرأة حتى منتصف الليل وبعد خلود الأطفال للنوم، وقتهم خارج المنزل أصبحت أكثر إلحاحًا.

إنّ في ظل هذه الظروف الصعبة يشكل تكاتف الأعضاء معًا عاملًا مؤثّرًا جدًّا في التغلب على المشاكل ويتعين على الوالدين أن يأخذا ذلك بعين الاعتبار.

وفيما يتعلّق بدخول وخــروج الرجل من البيت قد أوصيت المرأة والرجل بعدة وصايا: أن تخــرج المرأة إذا لم يكن لديها ظرف طــارئ، لتوديع الرجل عند خروجه من المنزل وأن تخطو خلفه بعــدة خطوات قبل أن تعود إلى المنزل، وعندما يعود أن تســتقبله بحفاوة.[٢] إنّ هذا التصرف من شأنه أن يزيد الحبّ بينهما. وأما واجب الرجل هو أن يبادل زوجته المشاعر نفسها ويسمعها كلامًا طيّبًا ويسامح ما قد يبدر منها من زلات[٣] وعليه أيضًا عندما يدخل إلى البيت أن يلقي التحية[٤] وأن يمتنع من الدخول دون استشعار أهل البيت فعليه أن يدخل بطريقة يســتعلم بها من في البيت. ثم عندما يدخل يسلّم على الجميع فهذا يعبر عن احترامه ودعائه لهــم ويبعث بالطمأنينة والحب[٥] في الأســرة وأخيرًا إعلان عنه لدخــول البيت. والغاية من وراء ذلك هي أن تســتعد الأسرة جيّدًا فتستقبله بهيئة تسر ناظره ومن هنا شدّدت آيات قرآنية وأحاديث كثيرة على التحلي بهذه الآداب.[٦]

من الآداب المهمة الأخرى التي على الرجل أن يتوخاها هي تقديم الهدايا في مناســبات

---

١. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١٦، ص٤٢٢.

٢. المجلسي، بحار الأنوار، ج٧٦، ص٣ و٤ و١١.

٣. مصطفوى، جنة الأسرة، ج١، ص٣٠.

٤. المجلسي، بحار الأنوار، ج٧٦، ص٣-١١.

٥. الطباطبائي، تفسير الميزان، ج١٠، ص٢٠.

٦. ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ النور: ٦١، و﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ إبراهيم: ٢٣؛ الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١٤ ص١٥٨ و١٦١.

الفرح كأيام العيد والعودة من السفر فهي تؤثر في كسب حب ورضا الزوجة والأبناء، فقد ورد عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «بالاحسان تملك القلوب» و«إذا أردت أن تحبك المخلوقون فأحسن إليهم»،[١] فقد قال النبي صلى الله عليه وآله: «قدموا لبعضكم البعض هدايا لكي تزداد المحبة وتزكي القلوب من الضغائن»[٢] وقال أيضًا: «عندما تعودون من السفر اجلبوا لأهلكم ما تستطيعونه من هدايا».[٣] إن هذه الآداب تحسن العلاقات العاطفية بين أعضاء الأسرة. النقطة المهمة في الهدية ليست الهدية في حدّ ذاتها وإنما ما ترمز إليه من اهتمام وحب بالمهدي إليه وهي رمز أيضًا للصداقة، والفحص عن سعر الهدية يعد أمرًا مذمومًا.[٤]

٤. إدارة شؤون الأسرة: من النقاط المهمّة للأسرة التعاون في إدارة شؤون البيت. الأمر الذي قد أكدت عليه التعاليم الإسلامية كثيرًا[٥] فهو يعد أساس الحياة المشتركة. لقد وزعت التعاليم الإسلامية واجبات الأعضاء على نحو بحيث تستطيع الأسرة ككيان أن تؤدّي مهامها كما يجب. وصحيح أن بعضًا من أمور البيت لا يقع ضمن مسؤوليّات الرجل والمرأة ولكن النقطة الأساسيّة هي التعاون الذي يتم بينهما، وقد جاء في أحاديث الأولياء ما يحفز الزوجان بالتعاون فمثلًا قيل عما تقوم به المرأة في الأسرة: «لو اعطت المرأة بعلها شربة واحدة من الماء يكتب لها أجر ضعف أجر عبادة وصيام سنة كاملة لها ومقابل كل شربة من الماء تشيد لها مدينة في الجنة ويغفر لها ستون ذنبًا»[٦] و«المرأة التي تحول أغراض المنزل من مكان إلى آخر تنظيفًا للبيت يلتفت إليها الله ومن يلتفت إليه الله لن يعذب في الاخرة».[٧]

---

١. المجلسي، بحار الأنوار ج٧٧ ص١٤٠؛ محبوب محمود؛ الآمدي، غرر الحكم، ح١٩٠٩.
٢. المجلسي، بحار الأنوار، ج٧٥، ص٤٤.
٣. المجلسي، حيلة المتقين، ٤١٨.
٤. دهخدا، الأمثال والحكم، ج١، ص١٦٧.
٥. ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ المائدة: ٢.
٦. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١٤، ص١٢٤.
٧. المجلسي، بحار الأنوار، ج١٠١، ص١٠٦.

ومــن الوصايا العملية اللافتــة في أحاديث الأولياءﷺ مســاعدة وخدمة الرجل في أمور المنزل، فيوصي النبي ﷺ الإمام عليًّاعليه السلام مثلًا: «لا يساعد رجل زوجه في البيت إلا ويكتب له مقابل ذلك أجر بعدد شعر بدنه وعبادة وصيام سنة كاملة مع صلاة لياليها، ويكتب له أيضًا أجور الأنبياء الصابرين كالنبي داوود ويعقوب وعيســىعليهم السلام، يــا علي إن الذي لا يمتنع عن خدمة أسرته يسجل الله اســمه مع الشهداء ويمنحه مقابل كل يوم خدمه وكل خطوة خطاها وتعب أجورًا جزيلة. يا علي خدمة لساعة واحدة في البيت أفضل من عبادة ألف سنة، وألف حجة وعمرة و.. إشــباع ألف جائع.. وإعطاء ألف دينار. وإنه لا يفارق الدنيا إلا ويرى مقامه في الجنة، يا علي لا يخدم في البيت إلا الصديق أو الشــهيد أو الرجل الذي يريد الله أن يهبه خير الدنيا والآخرة».[١] إنّ هذه الوصايا من شــأنها أن تحفز المؤمنين بالخدمة في البيت فهي عمــل ذات بعد روحي وديني وبالتالي لن تبقى أمام الرجال حجة دينيّة يتذرعون بها للتنصل من القيام بالخدمة في البيت.

كما مرّ بنا فإن التعاليم الإســلامية تعتبر الرجل هو القوام في الأسرة وتتجلى هذه السمة أكثر ما تتجلّى في الخدمة بالبيت. إن أحد الآثار الإيجابية لخدمة الرجل في البيت تتمثل في نشــر روح التعاون بين الأعضاء وســيادة العواطف الإيجابية في جو الأسرة. وسوسيولوجيًّا يعتبر التعاون مبدأ أساسيًّا في الزواج وإنشاء الأسرة، والهدف الرئيس من التعاون هنا ليست المســاعدة الفردية وإنما حفظ كينونة الأسرة بالأساس. تمثّل نزعة التعاون العصب الحياتي للأسرة حيث يهجس كل عضو بحوائج الآخرين وتوفير أسباب الراحة لكل أعضاء الأسرة؛ بعبــارة أخرى ليس المغــزى من الزواج تحقيق حوائــج الزوجين الفرديــة وإنما هو تحقيق طموحات وأهداف الأســرة ككل. إن وصايا الأولياء العملية لأعضاء الأسرة خاصة الرجل فيما يخص المســاعدة فــي أمور البيت لهي خير مهما يحض الأعضــاء بالتوجه نحو تحقيق أهداف الأسرة.

---

١. م.ن، ص١٣٢.

وإحدى الوصايا الأخرى للرجل هي الأخذ برأي وذوق أعضاء الأسرة فيما يتعلق بوضع البيت والأكل وسائر الأمور الداخلية للبيت. فخليق بالرجل أن يفضل رغبة ورأي زوجته وأبنائه على رأيه، وأن يكون متناغمًا معهم في الأمور الداخلية للبيت، فإن فرض الرأي والقناعة عليهم ليس إلا من علائم المرض والخلل في الإيمان، كما ورد عن النبيّ محمّد ﷺ أنّه قال: «المؤمن يأكل بشهوة عياله (أهله) والمنافق يأكل أهله بشهوته»[١] الذي يقتضي الأخذ بسليقة وذوق الأعضاء في الأمور المنزلية وعدم فرض الرأي عليهم. وتجعل هذه الوصية الزوجة وباقي الأعضاء يشعرون بهوية مستقلة وإيجابية الأمر الذي يساعدهم على تفتح مواهبهم وازدهارها. ولكن الرجل أو المرأة الذي يفرض سلطته المطلقة على البيت ويسلب زوجه وأبنائه حق التعبير عن رأيهم وفكرهم، فإنه يثلم بذلك هويتهم وكرامتهم.

ومن وصايا الإسلام الهامة الوفاء بالوعد الذي حذر من النكث به كما لم يحذر من شيء آخر،[٢] إذ يؤثر الوفاء بالوعد على نفسية الزوجة والأبناء تأثيرًا تربويًّا مباشرًا؛ حيث يلتزمون بهذه الصفة الحسنة ويمسي الوالدان يحظون بقيمة أكبر عندهم كما قال الامام الكاظم عليه السلام: «إذا وعدتم الصبيان ففوا لهم لأنهم يظنون أن رزقهم بأيديكم»[٣] إن الله لا يغضب لشيء كغضبه للنساء والأولاد.[٤] إن النكث بالوعود يخلف آثارًا نفسيّة سيئة على أعضاء الأسرة ذلك أنهم على الأغلب لا يبررون ما يسوقه الرجل من أعذار لنكثه بالوعد وبالتالي لا يستوعبون مشاعره النفسية.

٥. العبادة في الأسرة: من الوصايا المهمة للإسلام التعبد[٥] في الأسرة فإحدى مسؤوليّات أعضاء الأسرة تتمثّل بتوجيه أحدهما الآخر دينيًّا والحفاظ على الأعضاء من الانزلاق في

---

١. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١٥، ص٢٥٠.

٢. م.ن، ص٢٠٧.

٣. م.ن، ص٢٠١.

٤. م.ن، ص٢٠٢.

٥. ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ البقرة: ٢٣٨، و﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا﴾ النساء: ١٠٣.

الضلال أو المعاصي وتجنيبهم من تداعياتها في الدنيا والآخرة[١] ويتأتى حفظ الأسرة بالطرق التاليـة: دعوة الأعضاء بالتعبـد وتعليمهم الواجبات الدينيّة، ونهيهـم من التصرف الخاطئ والشـنيع، وتشـجيعهم بالتخلق بالسـلوك الحسـن[٢] وقد ذكرت النصوص الدينيّة أن ادعوا أبنائكـم إلـى الصلاة عندما يبلغون السـابعة من عمرهم، كما في قـول أمير المؤمنين عليه السلام: «فمروا صبيانكم بالصلاة اذا كانوا بني سبع سنين..»،[٣] ولكن لتحقيق هذا الأمر على الداعي أن يكون مثالًا لما يدعو.

ويمكن أن تتم هذه الدعوة بطرق شـتّى تمثل طريقة الاقتداء بالقدوة الخيار الأنجع[٤] لقد كانت إحدى وصايا الله المهمة للأنبياء هي دعوة ذويهم للصلاة، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّـه قال: «أحب الأعمال إلى اللـه الصلاة وهي آخر وصايا الأنبيـاء»،[٥] كما تحكي لنا النصوص الدينيّة كيف كان الله يوصـي النبي محمدًا صلى الله عليه وآله بأن يأمر أهله بالصلاة وأن يواظب عليهـا هو.[٦] وقال الإمام الباقـر: إنه عندما نزلت هذه الآية كان يأتـي النبي فجر كل يوم إلى بيت علـي وفاطمة عليها السلام ويقول: «الصلاة، الصـلاة فليغمركما الله برحمتـه» وظل يفعل ذلك حتـى ارتحاله من الدنيا.[٧] وقد كان النبي إبراهيـم يدعوا من الله أن يجعله وذريته من مقيمي الصلاة.[٨] لأن الصلاة تؤثّر كثيرًا على أخلاق وسـلوك أعضاء الأسـرة وتمثّل جسرًا معرفيًّا-عاطفيًّـا مع الله[٩] وقـد وصفت أحاديث الأولياء التأثير الرادع للصلاة بأحسـن صورة. إقامة

---

١. ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾، التحريم: ٦.

٢. المجلسي، بحار الأنوار، ج٧١، ص٨٦.

٣. الكليني، الكافي، ج٣، ص٤٠٩.

٤. نهج البلاغة، الحكمة ٧٣.

٥. الصدوق، من لايحضره الفقيه، ج١، ص١٥١ و٦٣٨.

٦. ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾، طه: ١٣٢.

٧. البحراني، البرهان في تفسير القرآن، ج٥، ص٢٠٢.

٨. ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ إبراهيم: ٤٠.

٩. ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ العنكبوت: ٤٥.

الصلاة في ساعات اليوم المختلفة كجهاز تحكم يعمل حسب إرادة الفرد في أزمان محدّدة. ويؤثّر الدعاء وشعائر أخرى كالصيام في ترسيخ العلاقات المناسبة بين الاعضاء.

إنّ محيط الأسـرة ينبغي أن يعكس العلاقة الروحية للأعضاء مع الله[١] وأن يتأثر سـلوك ودوافع وعواطـف ورؤى الأعضاء من هذا الارتباط ففي نهاية المطاف تؤثر إقامة الشـعائر الدينيّة في الأسرة على سلوك أعضائها تأثيرًا إيجابيًّا جدًّا.

رابعًا: أهم استراتيجيّات سلامة الأسرة وتحسين فاعليّتها من منطلق الإسلام

لتأمين كفاءة الأسرة بشكل يحقق فيه كل أعضاء الأسرة الأهداف والوظائف التي اقترحها الإسلام يجب رعاية بعض الشروط والصفات. في المرحلة الأولى بناء على أهداف الإسلام القيمية في تكوين الأسرة كتدين الأعضاء، يكفل إيمان الأعضاء بالتوحيد، والمعاد، ورسالة الأنبيـاء وأوصيائهم، كفاءة الأسـرة، فيما الإيمان الرقيق لا يحقّق جـزءًا كبيرًا من الأهداف والوظائف التي أوجبها الإسـلام. كما وترتبط الواجبات الدينيّة الخاصّة بهذه المسألة وهي بدورها تحقق جزءًا من أهداف إنشاء الأسرة.

ويتركز المفهوم المحوري الثاني في نظام الأسـرة من منظور الإسـلام بالعدالة اذ تعتبر عنصـرًا مركزيًّا في المعالجة الأسـرية. وتعني العدالـة الانتصاف في الحـبّ والتعبير عنه، والتقديـر، واحترام الفرد، والأمان العاطفي، وفي كل الأمور المادية والمعنوية بشـكل عام؛ فمثلًا يوفر الوالدان بمجهوداتهم الجسديّة والاقتصاديّة وكذا حبّهم وعنايتهم، النمو للأولاد. وتقتضي العدالة أن يرد الأولاد بالمقابل بالابتسامة والازدهار وإقامة علاقات إيجابية، وبعد سنوات بالشكر والتقدير، أو حتى بالمساعدات الاقتصادية. إن العدالة في العلاقات الإنسانية فيما يخص الجدارة، والمبادرات الإنسانية الإيجابية تمثّل أساس الحياة المتعادلة. وفق نظريّة العدالة يجب أن تؤخذ وجهات نظر كل أعضاء الأسـرة وكذا شـعورهم بالمساهمة في بناء

١. لقـد شـدّدت أحاديث الأولياء بتخصيص مـكان للصلاة في البيت كمـا نهوا عن وجود ما يبعد أجـواء البيت من الروحانية والبركة كالحيوانات الأليفة ووضع صور مغرية. (المجلسي، بحار الأنوار، ج٧٣ ص١٥٩-١٦٢).

الأسـرة، بعين الاعتبار والإسـلام يرى الى أن العدل أساس الأنظمة البشـريّة، فالإمام علي عليه السلام قال: «العدل أسـاس، به قوام العالم».[١] أو بعبارة أدق تعني العدالة أن توضع الأمور في مواضعها،[٢] وهذا مفهوم يختلف مع الموازنة والمسـاواة. إن إجراء العدالة بالمعني التوازني في نظام الأسـرة أمر مسـتحيل، ذلك إن مسـاعدة الأبناء لوالديهم مهما كانت كبيرة لا تبلغ رصيد ما بذله الوالدان بحق الأبناء، مع العلم بأن الإسـلام يؤكد بالنسبة للوالدين على إجراء العدالـة المتزنـة، وعمومًا تعتبر العدالة بمعني مراعاة حقوق الأعضـاء بعيدًا عن القصور أو الانتهاك من بديهيّات الأسرة. لكن يبدو إن الإسلام فيما يخصّ علاقات أعضاء الأسرة يراهن على مفهوم أوسع من العدالة وهو التساهل الذي يؤثّر تأثيرًا اكبر من العدالة في الأسرة.

ويعني التسـاهل، التعامل اللطيف واللين، وحسـن مصاحبة الأفراد بعيدًا عن أي غلظة وحدة في العلاقات،[٣] ويسـاعد التسـاهل حسب الإسلام في تحسـين أداء الأسرة أكثر من أي سـمة أخرى. ينطوي التسـاهل على العفو؛ أن يعامل الفرد المتساهل الآخر بلين ولطف رغـم تزلّفه في الحق، ففي الحديث عن الإمام علي عليه السلام عـن النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله أنّه قال: «من صبر على خلق المرأة سـيئة الخلق.. أعطاه الله ثواب الشـاكرين»،[٤] وقـد أكّد الأولياء أكثر ما أكّدوا على التسـاهل في علاقة الزوجين، فقد أوصوا الرجل بالتسـاهل مع زوجته في كل الظروف، وعنه عليه السلام أيضًا أنّه قال: «فدارها على كل حال وأحسـن الصحبة لها»،[٥] لأسـباب ككـون المرأة أمانة فـي رقبة الرجل «إنهن أمانة فلا تضارهن» أو أنّ رعاية المرأة وسـعادتها

١. م.ن، ج٧٨، ص٨٣.

٢. نهج البلاغة، الحكمة ٤٣٧.

٣. «مداراة الناس ملاينة الناس وحسـن صحبتهم» المجلسـي، بحار الأنوار، ج٧٢، ص٤٣٨؛ «مداراة من غير عنف» ج٨٤، ص٣١.

٤. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١٤، ص١٢٤.

٥. م.ن، ص١١١؛ «فإنهن عوان عندكم» النوري، مستدرك الوسائل، ج٢، ص٥٥١.

بيــد الرجل، «فإن الله قد ملكه ناصيتهــا وجعله القيم عليها»[١] أو أنها ضعيفة، على الرجل أن يراعي حالها، «اتقوا الله في الضعيفين يعني بذلك اليتيم والنساء»،[٢] فينقل عن النبي انه قال: «أوصانــي جبرئيل بالمرأة حتى ظننت أنه لا ينبغي طلاقها إلا من فاحشــة مبينة»[٣] ويتّضح لنا من هذا الحديث إن الإســلام يتوقع من الرجل تســاهلًا أكبر في العلاقــة الزوجيّة. ويتطلب ترسيخ التساهل في الأسرة، شروطًا معرفيّة وعاطفيّة للأعضاء لا سيّما الزوجين. ولأننا تناولنا هذا الموضوع ســالفًا خاصة في الفصل الثاني نكتفي هنا بإشــارة عابرة. وفي البعد المعرفي تتمثّل النقطة المهمّة في معرفة الزوجين لاختلافاتهما النفسيّة والجنسيّة بحيث يدرك كلاهما ســمات وميزات الآخر ويأخذها بعين الاعتبار في التعامل معــه، والنقطة الأخرى يجب أن يعي الزوجان أنهما ينتميان لأســر ذي خلفيّات ثقافيّــة وتربويّة مختلفة يحمل كل منهما قيمًا وسمات تختلف مع الآخر، إن إدراك هذا الاختلاف خطوة مهمة في طريق الانسجام وتمثل شرطًا لازمًا لترسيخ التساهل في الحياة الزوجية. كما يوفر الاهتمام بالفوارق النفسيّة للوالدين مع الأبناء واستيعاب ظروف الاخر، الأرضية للتساهل بين كل أعضاء الأسرة، وعاطفيًّا توفر محاولة إقامة علاقات إيجابية تتجلى فــي التعبير عن المحبة والابتعاد عن الحقد والكراهية والاهتمام الايجابي اللامشروط، الشروط التحفيزية والعاطفية للتساهل.

تتمثّــل بعض ملامح تســاهل الرجل في ما يلي: تحمل ســوء خلــق الزوجة،[٤] والصفح عــن أخطائها و«إن جهلت غفر لها»،[٥] وحســن الصحبة،[٦] الإحســان والمعروف «رحم الله

١. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١٤، ص١٢٢.
٢. م.ن، ص١٢٤.
٣. م.ن، ص١٢١.
٤. م.ن، ص١٢٤.
٥. م.ن، ص١٢١.
٦. م.ن، ص١٢٠.

عبدًا أحسن فيما بينه وبين زوجته»،[١] وعدم استخدام العنف ضدّها وإغضابها[٢] أو إيذائها[٣] مساعدة المرأة في الأمور الداخليّة للبيت،[٤] والنزول عند رغباتها، فعن النبي محمّد ﷺ أنّه قال: «المؤمن يأكل بشهوة عياله والمنافق يأكل أهله بشهوته».[٥] إن طبيعة العلاقات الأسريّة بسبب ظروف المرأة قد تقضي بإساءة تصرّفها تجاه الرجل فيجدر على الأخير أن يتساهل معها وهو الخيار الأنسب، فيما إذا أراد الرجل استيفاء كل حقوقه من المرأة يحدث ذلك غالبًا على حساب بعض من حقوق الأخيرة.[٦]

وأوصيت المرأة بأن تتساهل إلى ما تستطيع مع الرجل وتتغاضى عن بعض حقوقها[٧] تماسكًا للأسرة وحفظا لأداء وظائفها. وإسلاميًّا ليست للمرأة واجب أعظم بعد واجبها الديني من وظيفتها تجاه زوجها، قال رسول الله ﷺ:

«فمن اعظم الناس حقا على المرأة؟ قال رسول الله: زوجها»[٨] ويعتبر بالنسبة للمرأة جهادًا في سبيل الله، فقد رُوي عنه ﷺ أنّه قال: «جهاد المرأة حسن التبعل».[٩]

وفي الجانب النفساني يتركّز جل اهتمام المرأة على زوجها بحيث لا يوجد بالنسبة إليها شيء أكثر قيمة منه.[١٠] وتتمثل بعض ملامح تساهل المرأة بما يلي:

---

١. م.ن، ص١٢٢.

٢. «ولا تكرهوا النساء ولا تسخطوا بهن» النوري، مستدرك الوسائل، ج١٢، ص٢٥١.

٣. م.ن، ص٢٥٠، الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١٥، ص١١٦.

٤. المجلسي، بحار الأنوار، ج١٠١، ص١٣٢.

٥. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١٥، ص٢٥٠.

٦. يمكن استشفاف ذلك من هذا الحديث: «قال رسول الله ﷺ: ثلاثة ان لم تظلمهم ظلموك سفلة وزوجتك وخادمك» المجلسي، بحار الأنوار، ج٧١، ص١٣٩.

٧. آية ٢٨ من سورة النساء من شأنها ان تكون مثالا على هذا الموضوع: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾.

٨. الحرا لعاملي، وسائل الشيعة، ج١٤، ص١١٢ و١٢٦.

٩. م.ن، ص١١٦.

١٠. «ما يعدل الزوج عند المرأة شيء» الكليني، الفروع من الكافي، ج٥، ص٥٠٦.

أن تلبي في شتى الظروف حوائج زوجها العاطفيّة رغم إجحافه لها، فعن النبيّ محمّد ﷺ أنّه قال: «لا تبيت ليلة وهو عليها ساخط قالت: يا رسول الله ﷺ وإن كان ظالمًا؟ قال نعم»،[١] وأن تحاول مسايرته في كافة شؤون الحياة، وأن تكسب موافقته حتى في أمور كالنذر وإعطاء الصدقة، والصوم المستحب،[٢] وأن تخدمه في البيت،[٣] وأن تحاول في الخلافات رأب الصدع عاطفيًّا بأسرع وقت ممكن،[٤] وأن لا تؤذي زوجها مطلقًا، وأن تتعامل معه بلين ولطف ودون تكلّف،[٥] وأن تسامحه في ما أخطأ، عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «جهاد المرأة أن تصبر على ما ترى من أذى زوجها وغيرته».[٦] إنّ مرونة الأسرة الذي يمثّل أحد مقومات الأسرة القويمة لا يتحقّق إلّا في ضوء التساهل، فالمرونة تساعد أعضاء الأسرة أن يلبوا عن طريق الحوار والمعاملة المناسبة وتحمل الآخر، حوائجهم المتبادلة فيما تصلّب الأسرة وعدم مرونتها المصاحبة للسلطوية والاخضاع والنزاعات الدائميّة، يفاقم مشاكل وأضرار الأسرة.

ويمثّل التّساهل في علاقات الوالدين والأبناء أساس العلاقات المناسبة للأسرة؛ على الوالدين أن يعاملا أبنائهما بلطف بعيدًا عن أي إكراه وحدة وعنف، فعن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «ولا تقسروا أولادكم على آدابكم»،[٧] كما ورد أيضًا عن النبيّ محمّد أنّه قال: «ولا يرهقه ولا يخرق به»،[٨] وقد يتوجب عليهما أن يهتما أكثر بأحد الأبناء دون الآخرين حفظًا

١. م.ن، ص١١٢.
٢. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١٤، ص١١٢.
٣. م.ن، ص١٢٣.
٤. م.ن، ص١١٦.
٥. م.ن، ص١٥.
٦. م.ن، ص١١١.
٧. إبن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٢٠، ص٢٦٧.
٨. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١٥، ص٢٠٠.

للعلاقات بينهم[١] ولكن من دون أن يتخطيا مبدأ العدالة، وأن يسامحا أخطائهم، وعنه أيضًا ﷺ أنّه قال: «يقبل ميسوره ويتجاوز عن معسوره»،[٢] وثم أن لا يسمحا بأن تتّجه العلاقة معهم إلى طريق التدهور والتباعد.[٣] وبالمقابل يتوجب على الأبناء احترام والديهما في مطلق الأحوال،[٤] وحتى لو تعرضوا لاضطهاد من قبلهما ينبغي أن يستمروا باحترامهما.[٥] إن احترام الوالدين مهمّ الى درجة بحيث حتى لو تشدّدا في المسائل الدينيّة لا يجدر بالأبناء معاملتهما بسوء، وأن يظلّا متواصلين معهما بإحسان ومعروف، قال الله (عزّ وجلّ): ﴿**وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا**﴾.[٦]

١. تنكابني، الحديث، ج٣، ص٦٧.
٢. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١٥، ص٢٠٠.
٣. م.ن، ص١٩٩.
٤. م.ن، ص٢١٧ و٢٢٠.
٥. م.ن، ص٢١٧.
٦. لقمان: ١٥.

الخاتمة

لقد تناولنا في هذه المباحث بعض التعاليم الإسلامية التي تتعلق بالأسرة، ويمكننا بنمذجة هذه التعاليم المستمدة من القرآن وأحاديث النبي ﷺ والأئمة المعصومين عليهم السلام بسلوك الأولياء أنفسهم أن نضفي عليها غنى خاصًّا. إنهم لا يوصون بشيء إلا وقد جسدوه أوّلًا في سلوكهم، كما أن تصرفاتهم في البيت على درجة عالية من الكمال لا يتأتى للناس بلوغه، وهم على علم بذلك ولكن مع هذا أوصوا الناس بالاقتداء به.[١] إن محاكاة سلوكهم طريق أسهل لتحسين أداء الأعضاء في الأسرة، فإحدى طرق التعلم الناجعة هي مشاهدة النموذج السلوكي المناسب، فإن الفرد يتلقاها وبالتالي يطبقها في الوقت المناسب. ويشكّل هذا النوع من التعلم قسمًا كبيرًا من معرفة الإنسان ومن العوامل المؤثرة في هذا التعلم أن يكون النموذج متمتعًا بشخصيّة قويّة وذات جدارة عالية وقريبة للمحاكي، ويذكر أن النماذج المشهورة بالنجاح والنجاعة هي أكثر لفتًا لانتباه الناس.

و لقد كان الأولياء مدركين لهاتين القاعدتين؛ أهميّة اتباع النموذج،[٢] وقوة ووجاهة شخصيّة النموذج، فعليه كانوا يوصون الناس بالاقتداء بنماذج مناسبة. وإحدى هذه النماذج المناسبة حسب القرآن هي شخصية النبي ابراهيم[٣] عليه السلام ويرشح القرآن أيضًا النبي محمد ﷺ كنموذج مميّز[٤] واعتبره الإمام علي عليه السلام وهو الذي صاحبه في حله وترحاله بأنه أفضل غدوة.[٥] إنّه[٦] ﷺ وأهله حسب القرآن يتمتعون بسمات خلقية فريدة بعيدة كل البعد عن أي شائبة ورجس.[٧] ويتألف أهله من: ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام وزوجها الإمام علي عليه السلام، وأبناؤهما

---

١. «انكم لا تقدرون على ذلك ولكن اعينوني بورع واجتهاد وعفة وسداد» نهج البلاغة، الرسالة ٤٥.

٢. يعرج الامام علي عليه السلام في خطبة له على هذا الموضوع: «وإن لكل مأموم إمام يقتدي به» نهج البلاغة، الرسالة ٤٥.

٣. الممتحنة، ٤.

٤. ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ الأحزاب: ٢١.

٥. نهج البلاغة، الخطبة ١٦٠.

٦. ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم: ٤.

٧. ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ الأحزاب: ٣٣ و﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ النجم: ٢ و٣.

الذي اصطحبهم النبي ﷺ معه في مشهد المباهلة الخطير الذي كان تمثل وفق القرآن مسألة الحياة أو الموت[١] وتبرهن أمثلة تاريخيّة عديدة على السلامة الأخلاقيّة والكمال لهذه العائلة وتقر ذلك الشيعة والسنّة.

ويقول الإمام علي عليه السلام عن ذلك: «أنظروا أهل بيت نبيكم فألزموا سمتهم واتبعوا أثرهم فلن يخرجوكم من هدىً»[٢] وبناء على هذا الأساس ونظرًا الى كون انشاء الأسرة يمثّل أحد واجبات الفرد المهمة في حياته، نشير إلى نماذج سلوكية من أولياء الدين عليهم السلام كي تكون عاملًا لاقتداء الأعضاء بها تحسينا لأداء الأسرة.

يمكن من المحاور التي نوقشت في هذا البحث استخلاص خطوط عريضة لأسرة صالحة إسلامية.

في الأسرة الصالحة تراعي الهرمية بشكل جيد، ويتمتع الوالدان بسلطة كبيرة، ويحترمهما الأولاد حتى وهم في سن متقدمة احترامًا خاصًّا، وتحترم الزوجة سلطة زوجها وتصغي الى كلمته، وتؤدي في الحلقة الزوجية الوظائف كما يجب ويسود الحبّ والاحترام فيها كما تلبي الحوائج المتبادلة فيها، والوالدان يقومان بواجباتهما بحماس وشغف ويدركان قيمة ذلك.

الأسرة التي تتناغم مع الحدود الإسلامية المرسومة، يراعى فيها حدود الحجاب والعلاقات مع غير المحارم، والحدود داخل الأسرة، كما يلتزم الأعضاء كلهم بالتقوى وتجنب ارتكاب المعاصي كالإستماع إلى الموسيقى والغناء المثير، وتعاطي الخمر، والإغتياب وتوجيه التهم، ورذائل كالتعالي والحسد، ولكن قد تحصل بعض الأخطاء إلا أن غاية الأعضاء ونواياهم صالحة، كما أن حقوق الأعضاء محفوظة في ظل سيادة العدالة.

إن المحور الأساس في علاقات أعضاء الأسرة إسلاميًّا يتمثل في تساهل الأعضاء فيما بينهم، وتؤخذ صلة الرحم لا سيّما مع والدي الزوجين بعين الأهمية كما يعتبر التعامل

---

١. ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾، آل عمران: ٦١.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ٩٧ و١٦٠.

والتكافل الإجتماعي بين الأقرباء قيمة أساسية في الأسرة الإسلامية. أن التكافؤ والتماثل بين الزوجين يعد عاملًا مهمًّا لبناء أسـرة مناسبة وناجحة من منظور الإسلام. والأسرة الإسلاميّة ليست محصنة بشكل مطلق من المشاكل والخلافات إلا أن أعضائها دائمًا يراعون الحدود، وبعد الخلاف وتهدئة النفوس يحاول كل منهم معالجة المشـكلة وإصلاح سـلوكهم وسد نواقصهم.

تتمتّع الأسـرة الصالحة الإسـلامية بثلاث مفاهيم مركزيّة هي الإيمان القويم، والعدالة، والتساهل.

المصادر

١. القرآن الكريم.
٢. الآمـدي، ابوالفتح، غرر الحكم، تحقيق: مصطفى الدرايتي، ط١، قم المقدسـة، مكتب الإعلام الإسلامي، الحوزة العلميّة، ١٣٦٦.
٣. ابن ابي الحديد، شـرح نهج البلاغة، ج٢٠، تحقيـق: محمد أبو الفضل إبراهيم، قم – إيران، دار إحيـاء الكتب العربية، الطبعة الثانية، (١٩٦٧ م – ١٣٨٧ ه) جميع الحقوق محفوظة منشـورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي ١٤٠٤ ه ق.
٤. إحسان بخش، صادق، آثار الصادقين، ج١٥، طهران، ستاد برگزارى نماز جمعه، ١٣٧٣ هجري شمسي.
٥. البحراني، سيد هاشم، البرهان في تفسير القرآن،بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٣ هـ.
٦. برنشـتاين،فيليپ اچ، وبرنشتاين، مارسى تى، زناشـويى درمانى، مترجم: حسن عابدى نايينى، غلامرضا منشئى، نشر رشد، ط ٤، ١٤٠٠ ش.
٧. بي ريا، ناصر، علم نفس النمو على ضوء المصادر الإسلامية، طهران، مؤسسة سمت، ١٩٩٦.
٨. تنكابني، فريد، روايات تربيتى از مكتب اهل البيت عليهم السلام، قم، دفتر نشـر فرهنگ اسـلامى، الطبعة ١٣، ١٣٧٧.
٩. الحر العاملي، وسائل الشيعة، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ط٢، ١٤١٤.
١٠. درايتـى، مصطفى، معجم الفاظ غرر الحكم، ط١، قم، مكتب الإعلام الإسـلامي في الحوزة العلمية، ١٤١٣-١٩٩٣.
١١. دهخدا، على اكبر، الأمثال والحكم، طهران، نشر ارس، ١٤٠١ هجري.
١٢. ديلمي، احمد، وآذربايجانى، مسعود، الأخلاق الإسلامية، قم، دفتر نشر معارف، الطبعة الثانية، ١٣٨٠ هجري شمسي.
١٣. السـيّد الرضيّ، نهج البلاغة، المحقق:الدكتـور صبحي الصالح، دار الكتـاب اللبناني، بدون تاريخ.

١٤. السيوطي، الدر المنثور، ج١، تحقيق: عبد الله التركي، ط١، ١٤٢٤-٢٠٠٣.
١٥. شفيعي المازندراني، سيد محمد، راز خوشبختي، نشر عطرآگين، ١٣٨٤ ش.
١٦. الصدوق، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه، ج١، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
١٧. الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة، بدون تاريخ.
١٨. ــــــــــــــــ، الشيعة في الإسلام، بيروت، بيت الكاتب، ط١، ١٩٩٩.
١٩. الكليني، الأصول من الكافي، ج٢، تحقيق: علي أكبر الغفاري، ط٤، ١٣٦٥ش.
٢٠. المتقي الهندي، كنز العمال، المحقق: بكري حياني - صفوة السقا، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة، ١٤٠٩-١٩٨٩م.
٢١. المجلسي، محمدباقر، بحار الأنوار، ج١٠١، تحقيق: محمد مهدي السيد حسن الموسوي الخرسان، السيد إبراهيم الميانجي، محمد الباقر البهبودي، ط٣، ١٤٠٣-١٩٨٣.
٢٢. ــــــــــــــــ، بحار الأنوار، تحقيق: السيد إبراهيم الميانجي، محمد الباقر البهبودي، ط٢، ١٤٠٣-١٩٨٣.
٢٣. ا ــــــــــــــــ، حلية المتقين، تحقيق: خليل العاملي، ط١، دار الأمير، ١٤١٤-١٩٩٤.
٢٤. المحمدي الريشهري، محمد، ميزان الحكمة، ج١٠، قم، دار الحديث، ١٤٢٢هـ.
٢٥. مصطفوي، سيد جواد، بهشت خانواده، ج١، نشر دارالفكر، ١٣٨٥ ش.
٢٦. النراقي، احمد بن محمد مهدي، معراج السعادة، قم، مؤسسة انتشارات هجرت، بدون تاريخ.
٢٧. النوري، حسين، مستدرك الوسائل، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ط٢، ١٤٠٨-١٩٨٨.

محاولة نظرية لبناء نموذج إسلامي للاستقرار العائلي[1]

حسين بستان النجفي[2]

مقدمة

إن هذا المقال بعد أن يفترض مجموعة واسعة من الأسس الدينية والفلسفية والمنهجية التي تم عرضها في كتاب «خطوة نحو العلم الديني (٢) منهج استخدام النصوص الدينية في العلوم الاجتماعية» وبعد الفحص في الآيات والأحاديث مما أدى إلى جمع ما يقرب من مائة عامل يؤثر على استقرار الأسرة أو عدم استقرارها على المستوى الجزئي أو الكلي، يحاول هذا المقال عرض إطار نظري وتفسيري لمسألة الاستقرار الأسري، وذلك من خلال تحليل هذه العوامل وعرض الارتباط المنطقي بينها[3] (بستان النجفي، ١٣٩٠).

ولذلك فإن السؤال الذي يحاول هذا المقال الإجابة عليه هو أنه: من وجهة نظر الإسلام، كيف يتم تعريف الأسرة المستقرة وعلى أساس أي عوامل؟ وما نسميه «النموذج الإسلامي للأسرة المستقرة» يحتوي على إجابة شاملة لهذا السؤال. ولا يخفى أن العديد من المنظرين يصوغون هذه المجموعة من العوامل على شكل عدة نظريات أو نماذج نظرية، ولا ينبغي اعتبار النموذج الذي سيتم عرضه هنا هو النموذج الوحيد الممكن في هذا المجال.

---

١. المصدر: هذه المقالة نشرت باللغة الفارسيّة بعنوان «كوششي نظري در جهت ساخت مدل اسلامي ثبات خانواده» في مجلّة مطالعات زنان و خانواده، التي تصدر في جمهورية إيران الإسلاميّة، السنة الأول (١٣٩٢)، العدد الأول، التسلسل ١، الصفحات ٦٩ إلى ٩٨.

تعريب: د. محمدعلي إسماعيلي

٢. أستاذ مساعد بقسم علم الاجتماع في معهد الحوزة والجامعة.

٣. بستان النجفي، گامی به سوی علم ديني.

ومــن الجدير بالذكر أن هــذا النموذج النظري يمكن اعتباره قابــلًا للمقارنة مع نظريات الكفاءة،[1] وذلك لتواجد جوانــب معيارية في هذا النموذج. إن نظريات الكفاءة هي نظريات تفســيرية- معيارية تســتخدم نوعًا من النمذجة المثالية. والنموذج المقدم فيها هو في الواقع شــكل خاص من نموذج النــوع المثالي الذي يكون بالإضافة إلى إمكانيــة مقارنة الواقع به، يوفر إمكانية النقد والتقييم[2]. وبناء على ذلك فإن النموذج الذي ســيتم تقديمه، بالإضافة إلى توضيح العوامل الحقيقية للاستقرار الأسري، يحتوي على نموذج مثالي.

ولا يمكننا في مجال العلوم الإسلامية أن نذكر على وجه التحديد مفكرًا قام بعمل جدي من أجل بناء نموذج أو نظرية اجتماعية حول الأســرة. ومن خلال البحث في أعمال الخبراء المســلمين في هذا المجال، لن نجد ســوى نقاط متناثرة، رغم أنها غنية بالمعلومات وذات منهج معياري في كثير من الأحيان. وللمرحوم العلامة الطباطبائي والأستاذ مرتضى مطهري تأملات قيمة في هذا المجال عند استعراضهما حقوق المرأة وبعض المواضيع المتعلقة بها. وكان مقال «تفســير عدم الاســتقرار الأسري على أساس نظرية الأســتاذ مطهري»[3] محاولة لصياغة آراء المرحوم مطهري في شكل نظرية متماسكة.

هذه النظرية التي يمكن تســميتها بنظرية العلاقــة الفطرية، تعتبر ثلاث فئات من العوامل الأولية والثانوية والداعمة مؤثرة على اســتقرار العائلة، وذلك من خلال تقديم منهج التفسير العلّي. تشير العوامل الأساسية للاستقرار العائلي إلى الاختلافات الجنسية الفطرية والطبيعية التــي تلعب الدور الرئيســي في ربط الرجل والمرأة. كما تشــير العوامل الثانوية للاســتقرار العائلــي والتي تلعب بشــكل خاص دورا في تعزيزه واســتمراره، إلى الســلوكيات الإرادية المتجــذرة في الخصائص الفطرية للرجــل والمرأة أو العوامل الأوليــة من جهة، ومن جهة أخرى، تتأثر بالعوامل الاجتماعية والثقافية. ويعتبر تقســيم العمل بين الجنسين في الأسرة،

1. Competence Theories

2. Bohman, *New Philosophy of Social Science*, pp.87-90

٣. بستان النجفي، «تبيين بى ثباتى خانواده با تكيه بر نظريه استاد مطهرى».

قوامية الرجل في الأسرة، وترك العلاقات الجنسية والمتع خارج إطار الزواج، من أهم العوامل الثانوية. وأخيرا، تشير العوامل الداعمة إلى العوامل المحفزة أو الرادعة التي ليست لها جذور طبيعية، بل لها جانب تربوي وبيئي وتعمل على تعزيز الروابط الأسرية. نعم! إنها لكي تقوم بهذا الدور على أفضل وجه ممكن، يجب أن تكون متناغمة مع العوامل الطبيعية الأولية والعوامل الثانوية. تعتبر من أهم العوامل الداعمة أمور مثل التوعية بأبعادها المختلفة والتربية الأخلاقية والإجراءات القانونية وفق مبدأ انطباق النظام التشريعي مع النظام التكويني والتحكّم الاجتماعي عبر التدخل الإيجابي من الأقارب والمعارف والأصدقاء والجيران وكذلك التدخل من المؤسسات الحكومية لمنع الانتهاكات والعنف الأسري.

في البداية نذكر عناوين العوامل المؤثرة على الاستقرار الأسري، وهي مستخرجة بشكل مباشر أو غير مباشر من النصوص الدينية. نذكرها بإيجاز تام من دون ذكر أدلتها القرآنية والحديثية، والتي تم عرضها بالتفصيل في رسالة تحمل عنوان «شرح عدم استقرار الأسرة في إيران المعاصرة على أساس نموذج إسلامي».[١]

١. بستان النجفي، تبيين بى ثباتى خانواده در ايران معاصر بر پايه الگوى اسلامى.

العوامل المؤثرة على الاستقرار الأسري في النصوص الدينية

جدول الخصائص الفردية للزوجين

الخصائص	التقييم	الخصائص	التقييم
الجذب الطبيعي المتبادل بين الرجل والمرأة	+	السلوك اللائق للزوج مع الزوجة	+
الإشباع المتبادل للحاجة الجنسية	+	حياء الزوج والزوجة	+
الدعم الروحي المتبادل	+	الاهتمام بمصالح الزواج الخفية	+
العدالة في السلوك والكلام	+	خدمة الرجل للعائلة	+
الفقر المالي	_	تنمية طرق العيش للعائلة	+
تقوى الزوج والزوجة	+	اهتمام الزوجة بزوجها	+
الإيمان	+	تجميل الزوج والزوجة لبعضهما البعض	+
الصبر	+	حسن الوجه	+
التسامح والتلائم	+	وفاء الزوجين بالتزاماتهما	+
اللين	+	حب الدنيا	_
الغيرة من الزوج	+	الغفلة	_
اعطاء هدية	+	النظر إلى الأجانب	_
القناعة	+	الصداقة مع الأجانب	_
التعبير عن الحب للزوجة	+	سوء الخلق	_
طاعة الزوجة للزوج	+	الأنانية	_

متابعة جدول الخصائص الفردية للزوجين

الخصائص	التقييم	الخصائص	التقييم
الجذب الطبيعي المتبادل بين الرجل والمرأة	+	السلوك اللائق للزوج مع الزوجة	+
الإشباع المتبادل للحاجة الجنسية	+	حياء الزوج والزوجة	+
الدعم الروحي المتبادل	+	الاهتمام بمصالح الزواج الخفية	+
العدالة في السلوك والكلام	+	خدمة الرجل للعائلة	+
الفقر المالي	_	تنمية طرق العيش للعائلة	+
تقوى الزوج والزوجة	+	اهتمام الزوجة بزوجها	+
الإيمان	+	تجميل الزوج والزوجة لبعضهما البعض	+
الصبر	+	حسن الوجه	+
التسامح والتلائم	+	وفاء الزوجين بالتزاماتهما	+
اللين	+	حب الدنيا	_
الغيرة من الزوج	+	الغفلة	_
اعطاء هدية	+	النظر إلى الأجانب	_
القناعة	+	الصداقة مع الأجانب	_
التعبير عن الحب للزوجة	+	سوء الخلق	_
طاعة الزوجة للزوج	+	الأنانية	_

متابعة جدول العوامل المؤثرة على الاستقرار الأسري في النصوص الدينية

خلفيات تكوين الأسرة	ت	العوامل الهيكلية للأسرة	ت	العوامل الاجتماعية	ت
الزواج غير المعقول	_	قوامية الزوج	+	توسيع التربية الدينية في المجتمع	+
اختيار الزوجة بمعايير مادية	_	دفع نفقة الزوجة	+	تعليم الحقوق والمهارات الزوجية	+
التعارف قبل الزواج	+	التمييز بين الجنسين في الأدوار	+	الرؤية المقدسة تجاه الأسرة	+
اختيار الزوجة الدينية	+	أحادية الزوجة	+	الإدانة الاجتماعية للطلاق	+
اختيار الزوجة من عائلة نبيلة	+	غياب الزوج لفترة طويلة	_	تعميم الأمر بالمعروف في المجتمع	+
التكافؤ الديني والثقافي بين الزوج والزوجة	+	إنجاب الطفل	+	علاقات القرابة والصداقة والجوار	+
قدرة الزوج المالية	+			التدخل غير المناسب من الآخرين	_
خصوبة الزوجة	+			دعم النظام الحكومي	_
الزواج الإجباري				الاختلاط الجنسي في المجتمع	_
موافقة الوالدين على زواج البنت	+			توسيع الحجاب الديني	
الزواج المخطط له	+			تجميل الزوجة لغير الأزواج	_
الزواج في الأيام المناسبة	+			التوسع في الأنماط الأسرية البديلة للأسرة	_
ذكر الله عند انعقاد النطفة	+			ترويج المحرمات الجنسية	_
التغذية المناسبة خلال فترة الحمل	+				
تربية الأبناء على الأخلاق والآداب	+				
تعليم القرآن والأحكام للأطفال	+				

وكما هو واضح في الجدول، فإن العوامل المذكورة تنقسم إلى أربع فئات: الخصائص الفردية للزوجين، وبنية الأسرة، وخلفيات تكوين الأسرة، والعوامل الاجتماعية. ويشير كل واحد منها إلى مجموعة من العوامل الوسيطة المؤثرة على الاستقرار الأسري. لكن العامل الرئيسي والمباشر لاستقرار الأسرة، وفق النموذج الإسلامي للأسرة المستقرة، هو توفير الاحتياجات الفطرية للزوج والزوجة. وتظهر العلاقة بين هذه العوامل في الرسم البياني أدناه وسيأتي وصفها وتحليلها.

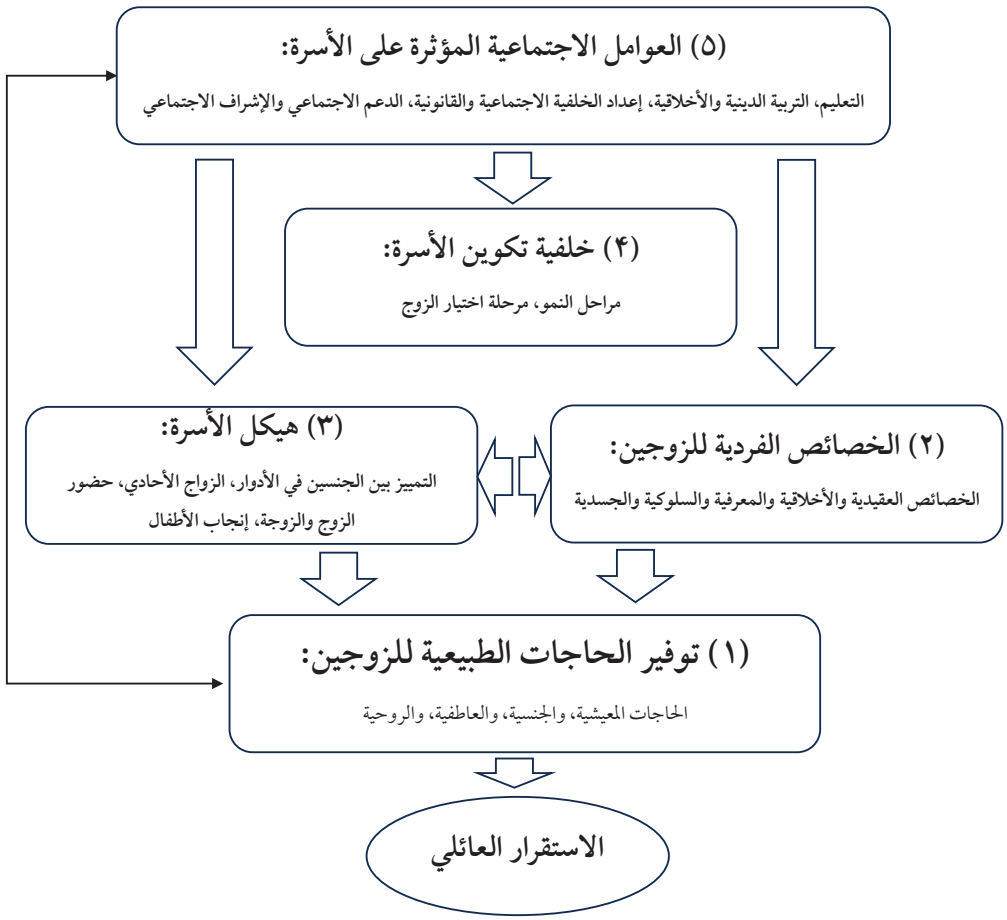

ووفقًا لهذا النموذج فإن العامل المباشر لاستقرار الأسرة هو توفير الاحتياجات الطبيعية للزوجين. ولكن مع ذلك فإن العوامل المؤثرة في هذا المجال (الفئة الأولى) تتأثر بعوامل الفئة الثانية والثالثة، وهما بدورهما تتأثران بعوامل الفئة الرابعة، كما تؤثر عوامل الفئة الخامسة على جميع الفئات الأربع للعوامل المذكورة.

وبالنظر إلى تعقيد الحقائق الاجتماعية، ينبغي أن نتذكر أن رسم مثل هذه المخططات يخضع دائمًا لتبسيط الواقع. نعم! ينبغي بذل الجهود لتقليل هذه المشكلة. فيما يتعلق بهذا الرسم البياني، تجدر الإشارة إلى أن التأثيرات السببية ذات الاتجاه الواحد، والتي غالبًا ما يتم عرضها بأسهم ذات اتجاه واحد، تشير إلى العمليات الغالبية. ولهذا لا ينافي أنه في بعض الحالات يمكن أن يظهر تأثير ذو اتجاهين بين العوامل المذكورة.

على أية حال، فمن أجل تحليل محتوى هذا النموذج النظري بمزيد من الدقة، سيتم التعبير عن بعض النقاط حول افتراضاته ومفاهيمه وآلياته السببية، بشكل منفصل لكل من الفئات الخمس للعوامل المذكورة.

١. توفير الاحتياجات الطبيعية للزوجين

وبما أن النموذج النظري المطروح يقدم توفير الحاجات الفطرية للزوجين كعامل أساسي ومباشر للاستقرار الأسري، فقد تمت في هذا المحور محاولة تحليل هذه القضية الأساسية وتم خلاله البحث عن المسائل التالية: الأساس الفطري للنظرية الإسلامية، التعرف على الحاجات الفطرية وخصائصها، التعرّف على مفهوم توفير الحاجة وكيفية تأثير توفير الحاجة على الاستقرار الأسري.

أ. الفطرية

تدور هذه القضية حول الأساس الفطري لنموذج النظرية الإسلامية، والذي يسبب قيام هذا النموذج تجاه النظريات الاجتماعية للأسرة. يحتل عنصر الفطرة مكانة هامة جدًا في النموذج الإسلامي للأسرة، ويؤثر على جميع العناصر الأساسية الأخرى مثل العقلانية

والوعي والإرادة والحاجـات. ومن ناحية أخرى، فإن النظريات الاجتماعية للأسـرة، التي تسـير على خطى التيار العام للفكـر الغربي، لم تأخذ في الاعتبـار أي مكان لمفهوم الفطرة في تفسيراتها. ولهذا السبب تم التأكيد في هذه النظريات على مفاهيم مثل العقلانية والوعي والإرادة الفردية كمفاهيم أساسـية في تفسير الأفعال والظواهر الاجتماعية، بغض النظر عن الجانـب الفطري لهذه الأمور. وعلى وجه الخصوص، فإن العقلانية الأداتية التي تهدف إلى الحصول على أقصى قدر من المنفعة الشـخصية يتم افتراضها كأساس أنثروبولوجي بل قد يصرح بها.

ولتوضيح أهمية هذا العنصر في نظرية الأسـرة، من المفيد أن نشـير إلى نظريات تكوين هذه المؤسسة الاجتماعية واستمرارها. وقد أكد مجموعة من الخبراء في شرح أصل الأسرة، على العوامـل الاجتماعية والثقافية فقط مثل ظهور حكم تحريـم الزنا مع المحارم، ويرون أنه قبل ذلك لم يكن هناك شـيء اسـمه الزواج والأسـرة وكانت الفوضى تحكم العلاقات الجنسـية[١]. والجانب المقابـل، يرى البعض أن العوامل الطبيعية لعبـت أيضًا دورًا مهمًا في تكوّن الأسرة[٢]. ويبدو أنهم يقصدون بالعوامل الطبيعية الغريزةَ الجنسية، ولا يقصدون الفطرة بمعناها الخاص. هذا مع أن النصوص الدينية تشـير إلـى أن الدوافع العاطفية ذات الجذور الفطرية تشارك أيضًا في ميل الجنسين الذكور والإناث إلى الزواج والحياة الأسرية. منها قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[٣]. فإن هذه الآية الشـريفة تعدّ خلق الزوجين ليجدا السـكينة بجانب بعضهما البعض من آيات الله، كما أسـندت خلق الحب والمودة بينهما إلـى الله بلفظ «جَعَلَ» الذي يدل على الأصل الفطري للانجذاب الزوجي المتبادل.

ومن الواضح أنه بحسـب رفض الأسـاس الجبري في نظر الإسلام، فإن الميل الفطري

---

١. ساروخاني، مقدمه اى بر جامعه شناسى خانواده، ص ١٤٧-١٥٥.

2.Ingoldsby, "Family Origin and Universality", p.72

٣. الروم: ٢١.

للإنسان للزواج وتكوين الأسرة ليس له جانب جبري. وبالتالي فإن مواجهة هذا الميل الفطري ومثل هذه الحركات التى قام بها قوم لوط وأتباعهم في العصر الجديد بتفضيل الشذوذ الجنسي، لا يمكن أن تستمر على المدى الطويل، وذلك لعدم توافقها مع متطلبات الطبيعة البشرية.

وعلى أية حالٍ، فإن إنكار أو تجاهل عنصر الفطرة في تفسير استمرارية العلاقة الزوجية الممزوجة بالحب والمودة في كثير من الأسر، رغم عدم تكافؤ السلطة بين الزوج والزوجة ورغم وعي المرأة بهذا التفاوت، ستنشأ مشكلة. وهذه هي المشكلة التي واجهتها نظرية الصراع. وفقًا لما ذكره منتقدو هذه النظرية، فإنه على الرغم من أن معايير الحياة الأسرية تتطلب من المرأة أن تتمتع بقدر أقل من الحرية الجنسية وواجبات أثقل في المنزل، إلا أن النساء يجدن الزواج والأسرة جذابين. وهذا يدل على أن الحب يمكن أن يوجد حتى في غياب توازن السلطة. وقد بالغ منظرو مدرسة الصراع في توفير رغبة الناس في تحقيق المساواة المطلقة[1]. تعاني النظرية النسوية أيضًا من نفس المشكلة؛ لأنها غير قادرة على تقديم تفسير مقنع حول الزواجات غير المتكافئة ولكن السعيدة[2].

لكن النموذج الإسلامي للأسرة المستقرة، الذي يعتمد على أساس الفطرة، يقدم حلا مناسبا للمشكلة المذكورة ويجيب أيضا على أسئلة تعجز النظريات المنافسة عن تقديم إجابات عليها، مثل السؤال عن سبب عالمية عوامل تكوين الأسرة واستمرارها والسؤال عن سبب الطبيعة الغير الزمنية لهذه العوامل.

1.Curry, and others, *Sociology for the Twenty-First Century*, p.272

2.White, *Advancing Family Theories*, p.5.

ب. الحاجات الفطرية

ينبغي أن تؤخذ في الاعتبار عدة نقاط في مسألة تحديد الحاجات الفطرية. النقطة الأولى تتعلق بتحديد مصاديق الحاجات الفطرية. حدد علماء علم النفس العديد من مصاديق الحاجات الفطرية. منها، ما جاء في نظرية «الحاجات الأساسية لماسلو[1]، التي تعد من النظريات المؤثرة في علم النفس، حيث تم فيها تحديد خمسة أنواع من الحاجات الأساسية للإنسان بطريقة هرمية. وهي كتالي: الحاجات الجسدية (وهي تشمل الحاجة إلى الهواء والماء والغذاء والنشاط والنوم والحماية من البرد والحر والتنقل والنشاط الجنسي ونحوها) وحاجات السلامة (وهي تشمل الحاجة إلى الأمن والنظام والاستقرار ووجود الراعي و التحرر من الخوف والقلق)، واحتياجات الحب والانتماء (بما في ذلك الحاجة إلى الحب وإقامة العلاقات الاجتماعية والانتماء للمجموعة والأصدقاء والزوجة والأبناء)، والحاجة إلى احترام الذات (من النفس ومن الآخرين) و الحاجة إلى الازدهار الذاتي وتحقيق القدرات والاستعدادات[2].

يبدو أن تقسيم الحاجات الفطرية إلى أربع مجموعات معيشية، جنسية، وعاطفية، وروحية، كما يفترض في النموذج الإسلامي للأسرة، هو تقسيم شامل يغطي الحاجات المطروحة في نظرية ماسلو؛ لأن الاحتياجات المادية مثل الحاجة إلى الهواء والماء والغذاء والنوم والحماية من البرد والحر وكذلك الحاجة إلى الأمن، كلها يدخل في مجموعة الاحتياجات المعيشية. وتم وضع الحاجة إلى النشاط الجنسي في مجموعة مستقلة. كما أن الحاجة إلى الحب والانتماء والاهتمام تُصنّف تحت مجموعة الاحتياجات العاطفية، كما أن الحاجة إلى الاحترام هي إحدى الاحتياجات الروحية للإنسان. وأما الحاجة إلى الازدهار الذاتي بمعناه العام فهي تتحد مع الحاجات الروحية من حيث المصاديق كما أن الحاجة إلى الازدهار الذاتي بمعناه الخاص تعدّ إحدى الحاجات الروحية للإنسان.

1.Abraham Maslow

٢. سليمى وداورى، جامعه شناسى كجروى، ص٣١٦-٣١٧.

وبشـكل عام، يمكن تقسيم الحاجات الروحية إلى فئتين: الحاجات الدينية مثل الحاجة إلى معرفة الله وعبادته، والحاجة إلى التواصل مع الأولياء الإلهيين والحاجات الدنيوية مثل الحاجة إلى العدالة والحاجة إلى الاحتـرام والمكانة الاجتماعية. وفيما يتعلق بالحاجة إلى الازدهار الذاتي أو تحقيق القدرات والاستعدادات، فيبدو أن بعض أمثلة هذه الحاجة تنتمي إلـى مجموعة الحاجات الروحيـة الدنيوية، وبعضها الآخر ينتمي إلـى مجموعة الحاجات الروحية الدينية. ورغم أنه ربما يمكن من منظور عرفاني إحالةُ كل هذه الأمثلة أو معظمها إلى الحاجات الروحية الدينية؛ لأن الجهود التي يبذلها الإنسـان لتحقيق قدراته الداخلية هي في الواقـع جهود واعية أو غير واعية لتحقيق الكمال المطلق، وبعبارة أخرى، لتحقيق الاتصاف بالصفات الإلهية. فعلى سـبيل المثال، يمكن تفسير رغبة النساء في أن يصبحن أمهات، وهو ما يتماشـى مع تحقيق إحدى قدراتهن الأساسية، في ضوء احتياجاتهن الروحية، التي تعزى إلى الاتصاف بالصفات الإلهية مثل الخالقية والرازقية والرحيمية.

أمـا النقطة الثانية فقد خصصت للتعبير عن أهميـة العدالة. فمن وجهة نظر يمكن اعتبار العدالة فضيلة أخلاقية، ومن وجهة نظر أخرى يمكن اعتبارها سـمة سـلوكية، وهي في كلتا الحالتين تندرج ضمن فئة الخصائص الفردية للزوجين وإلى جانب عوامل أخرى مؤثرة على الاسـتقرار الأسـري. ومن وجهة نظر أخرى، يمكن اعتبار العدالة بمثابة المثال الاجتماعي الذي يجب على جميع الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية والسياسـية أن تسـعى إلى تحقيقه إلـى جانب النظام التربوي. ولكن المقصود هنا هو التأكيد على إمكانية اعتبار العدالة إحدى الحاجات الروحية الفطرية للإنسـان، والتي على أساسـها يمكن اعتبار الحاجة إلى العدالة إحدى العوامل الأساسية لاستقرار الأسرة، إلى جانب الحاجات الفطرية الأخرى.

والأساس الفلسفي لهذا الادعاء هو رأي كثير من المفكرين المسلمين الذين قبلوا الجذور الفطرية للأحكام المتعلقة بحسن العدل وقبح الظلم واعتبروها أحكاما يقينية يفهمها ويعترف بها كل إنسان، بغض النظر عما إذا كان قد خضع للتربية الاجتماعية[١].

١. سـبحاني، رسـالة في التحسـين و التقبيح، ص٤٥؛ خرازي، بداية المعارف الإلهية في شرح عقائد الإمامية، ج١،

النقطــة الثالثة تتعلق بإمكانيــة التعارض بين الحاجات الفطرية. فمن الطبيعي أن نشــهد صراعات فيما بينها، نظرًا لتنوع الاحتياجات المادية والروحية للإنسان والمحدودية الزمانية والمكانية والثقافية وقلة الإمكانية وغيرها، والتي تتواجد دائمًا تجاه تحقيق هذه الاحتياجات. وهنا يصبح دور القوة العاقلة مهما في تحديد الأولويات وحل الصراعات. ومن الواضح أنه كلما زاد اســتفادة الإنســان من العقل العملي واتباعه لمعاييره، كلما كانت قراراته في اتجاه الحصول على الســعادة الحقيقية، وكلما حرم الإنســان من هذا العقل، كلما زاد سوء الفهم والضلالة، وتكون قراراته المبنية على العقل الأداتي في طريق إشباع رغباته النفسية.

النقطة الرابعة هي أنه على الرغم من أن الحاجات الأربع هي فطرية في الأســاس، إلا أن العوامل البيولوجية والجغرافية والاجتماعية والثقافية حيث كانت تؤثر على نوعيتها وكميتها وعلــى تقديم بعض الحاجات على غيرها، فإنــه لا يمكن وضع حد محدد وثابت لها. فعلى ســبيل المثال، قد يتغير تعريف الاحتياجات المعيشية من وقت لآخر ومن حالة إلى أخرى. أو قد نشهد في موقفٍ ما أهمية وأولوية الاحتياجات العاطفية مقارنة بالاحتياجات الأخرى، ويكون تأثير هذه الأمور على كيفية تفســير اســتقرار الأســرة واضحا تمامًا. ولذلك فإنه عند اســتخدام النموذج الإسلامي للأسرة المستقرة في البحوث التجريبية لا بد من اخذ الفوارق الفرديــة والثقافيــة والتاريخية بعين الاعتبار لأجل تحديد مســتوى تلبيــة الحاجات الفطرية للزوجين.

وعلى ضوء هذه النقطة، وهي تغير الحاجات، خاصة بسبب تدخل العوامل الثقافية، فإننا نواجه أحيانا مشكلة اســتبدال الحاجات الطبيعية بالاحتياجات الكاذبة. فعلى سبيل المثال، إن الحاجة إلى الاســتمتاع بحياة مترفة هي حاجة زائفة قد تحل في مواقف اجتماعية وثقافية معينة محل الحاجة الطبيعية للتمتــع بالمرافق المادية الكافية للحياة. ولا داعي للتوضيح أن النموذج الإسلامي للأسرة المســتقرة لا يعتبر توفير الاحتياجات الزائفة للزوجين عاملا من عوامل استقرار الأسرة؛ لأن أقصى ما يقتضيه هذا الأمر هو التأثير قصير المدى والمؤقت على

ص١١٥-١١٦.

رضاهما. ولكن مع ذلك يمكن أن يسبب عدم توفير هذه الاحتياجات الزائفة عدم الاستقرار في الأسـرة؛ لأن الفعال هنا هو شـعور الزوج بالحرمان، وهذا الشعور موجود بالتساوي في فرضيتي الحرمان الحقيقي والحرمان غير الحقيقي.

وأخيـرا، يتم التذكيـر في النقطة الخامسـة، بأهمية الفروق الطبيعية بين الجنسـين على ضوء دورها في استقرار الأسرة. ومن المفروضات المهمة لنموذج الأسرة الإسلامية وجود مجموعة من الفروق الطبيعية أو المتلائمة مع الخصائص الطبيعية بين الرجل والمرأة. وعلى هذا فإن الحديث عن الحاجات الطبيعية للزوجين يشـير إلـى أن احتياجات الرجل والمرأة تختلف أحيانًا. وبالتالي، فإن توفير الاحتياجات الطبيعية للزوجين لا يتم دائما بطريقة واحدة. فعلى سـبيل المثال، فإن نوع هيكل الأسـرة الذي ينشـأ من قوامية الزوج وتقسـيم الأعمال المنزلية بحسب الجنسين، يقوم على الفروق الطبيعية بين الرجل والمرأة ويعكس الاختلاف في طرق إشباع الحاجات الطبيعية.

وفـي هذا الصدد تبرز مسـألة مهمة وهي كيفية تفسـير الحاجة الروحيـة إلى العدالة في ضوء الفروق الطبيعية بين الرجل والمرأة. وهي قضية يمكن اعتبارها أحد الجذور الرئيسـية للاختلاف بين وجهات النظر حول الإسـلام والنسـوية. وبجملة واحدة يمكن القول: رغم أن فكرة المساواة طرحت في وجهات نظر نسوية تماشيا مع الحاجة إلى العدالة، إلا أن هذه الفكرة أخطأت في مجال تحديد مصداق العدالة وذلك بسـبب تجاهل الفروق الطبيعية بين الجنسين. لأن العدالة الحقيقية تقتضي الاهتمام بالاختلاف في الحاجات الفطرية بين الرجل والمرأة، خاصة في الجوانب العاطفية والجنسية.

ج. مفهوم تلبية الاحتياجات

يسـتخدم مفهوم تلبية الاحتياجات في هذه المقالة ليعني الإشـباع الفعلي للاحتياجات بطريقة منتظمة نسبيًا وراسخة ومستدامة. ولهذا السبب، فهو لا يشمل الإشباع المتقطع وغير المسـتمر للحاجات. وتجدر الإشـارة إلى أنه في كثير من الحالات يتـم توفير الاحتياجات

الطبيعية بنيةٍ مسبقة وفي شكل إجراءات تهدف إلى تحقيق هذا الهدف. مثل الأنشطة المنزلية والعمليــة التي يقوم بها الزوجان من أجل تلبية الاحتياجات المعيشــية المشــتركة. لكن في بعض الأحيان، قد لا تكون هناك نية مســبقة، وفي هذه الحالة يمكن اعتبار تلبية الاحتياجات المذكــورة بمثابة وظيفــة خفية للأفعال مع أهــداف أخرى. وذلك مثل توفيــر الاحتياجات المعيشية للوالدين من خلال الأبناء، الذين قد لا يكون لديهما مثل هذا الدافع على الإطلاق عندما يتزوج الوالدان ويقرران إنجاب الأطفال.

د. أثر تلبية الاحتياجات على الاستقرار الأسري

تتضمن هذه القضية نقاطًا حول مدى التأثير السببي لتوفير الاحتياجات الطبيعية للزوجين على الاستقرار الأسري.

النقطة الأولى هي أنه على الرغم من أن مفهوم تلبية الحاجات يتضمن قيد الإشباع الفعلي للحاجات، إلا أن التأثير الفعلي لتلبية الحاجات على اســتقرار الأسرة لا يخضع لهذا القيد؛ لأنــه في بعض الحــالات، فإن مجرد أمل الزوجين في تلبية احتياجاتهما يؤثر على اســتقرار الأسرة. على ســبيل المثال، قد يؤدي أمل الزوجين الفقيرين في تلبية احتياجاتهما المعيشية في المستقبل، إلى تحقيق الاستقرار لأسرتهما. ولذلك فإن استقرار الأسرة يكون أحيانًا نتيجة تلبية الاحتياجات وأحيانًا نتيجة الأمل في تلبية الاحتياجات في المستقبل.

النقطة الثانية أنه يبدو للوهلة الأولى أن استقرار الأسرة يعتمد على الإشباع الكامل لجميع الحاجات الأربعة، لكن في الواقع فإن إشباع بعض الحاجات قد يملأ الفراغ الناتج عن عدم إشباع غيرها من الحاجات نظرًا لأهميتها بالنسبة للزوجين، وبالتالي يتحقق الاستقرار للأسرة. على سبيل المثال، يعد إشباع الحاجات الجنسية أمرًا مهمًا للغاية بالنسبة للرجال، خاصة في الفترة الأولى من الحياة المشــتركة، مما يســهل عليهم تحمل مشكلة عدم تلبية الاحتياجات الأخرى. كما أن توفير الاحتياجات المعيشــية للزوجة، مع افتــراض اعتمادها الكامل على الدعم المالي من زوجها، قد يلعب أحيانًا دورًا فعالًا في استقرار الأسرة، على الرغم من عدم

توفير الاحتياجات الأخرى للمرأة. ولذلك فإن العلاقة السببية بين توفير الحاجات واستقرار الأسـرة وفقا للنظرية المذكورة سـتكون بحيث يعتبر توفير واحدة على الأقل من الحاجات الفطرية الأربعة شـرطا ضروريا لاستقرار الأسرة ويعتبر عدم توفير أي منها شرطا كافيا لعدم استقرار الأسرة.

النقطة الثالثة هي أنه في إشـباع الحاجة الجنسـية كعامل من عوامل الاستقرار الأسري، وكذلـك في توفير بعض الاحتياجات العاطفية الخاصة التـي لا تتوقع إلا من الزوجين، يتم اعتبار الحصرية؛ بمعنى أن إشباع الحاجات الجنسية والاحتياجات العاطفية الخاصة يساعد على اسـتقرار الأسرة إذا كان حكرًا على الأسرة فقط، وإذا كان إشباع هذه الحاجات خارجًا عن احتكار الأسرة فإنه يصبح عاملًا من عوامل عدم استقرار الأسرة. لكن توفير الاحتياجات المعيشية والروحية وكذلك الاحتياجات العاطفية العامة، حتى لو لم تكن حصرية ويتم تنفيذها أحيانًا خارج الأسـرة، يمكن أن يحقق الاستقرار للأسرة. وغني عن القول أن قولنا: «يمكن» سـببه أن توفير مثل هذه الاحتياجات خارج الأسـرة ليس له بالضرورة تأثير على الاستقرار، بل في بعض الأحيان قد يوفر الأرضية لعدم الاسـتقرار الأسـري. على سبيل المثال، يخلق الاستقلال الاقتصادي للمرأة وضعًا لم يعد فيه توفير احتياجات معيشة الزوجات يعتمد على الأسـرة، وهذا يزيد من احتمال عدم الاستقرار الأسـري. كما أنه وفقًا للعديد من الأبحاث داخل وخارج المملكة، فإن معدل طلبات وإجراءات الطلاق من قبل النساء العاملات أعلى بكثير مقارنة بالنساء غير العاملات[١].

النقطـة الرابعة هي أن توفير كل من الاحتياجات الأربعة كما يؤدي بشـكل مباشـر إلى اسـتقرار الأسرة، كذلك قد يؤدي بشـكل غير مباشر إلى تحقيق بعض الاحتياجات الأخرى وبالتالي إلى اسـتقرار الأسرة. فعلى سـبيل المثال، فإن إشباع الحاجات الجنسية في الأسرة بالشكل الصحيح، بالإضافة إلى تأثيره المباشر على الاستقرار الأسري، يساهم في الاستقرار

١. سكالن، جامعه شناسى تاريخى خانواده، ص ١٨١؛
Aghajanian, "Family and Family Change in Irani", p.23.

الأسري من خلال التأثير الإيجابي على عملية إشباع الحاجات العاطفية للزوج والزوجة. كما أن توفير الاحتياجات المعيشية قد يؤدي إلى إشباع الاحتياجات العاطفية أو الجنسية وبالتالي يزيد من استقرار الأسرة.

النقطة الخامسة هي أنه بحسب الفرق بين التوقعات الثقافية للمجتمعات والتوقعات الشخصية للأفراد من الزواج، يمكن التمييز بين احتياجات الزوجين الروحية الدينية وغيرها، من جهة أن توفير الاحتياجات الأخرى أمر مقبول في معظم الثقافات كشيء يتوقع من الزوج أن يلعب دورا فيه، في حين أن الزوجين عادة لا يتوقعان من بعضهما البعض توفير احتياجاتهما الروحية الدينية، على الرغم من أنهما إذا لعبا دورًا في هذا المجال سيكون فعالًا في زيادة رضاهما عن الحياة الزوجية. كما تجدر الإشارة إلى أن عامة الناس يفهمون بوضوحٍ احتياجاتهم المعيشية والجنسية والعاطفية وحتى احتياجاتهم الروحية الدنيوية، لكن معظم الناس ليس لديهم المعرفة اللازمة باحتياجاتهم الروحية الدينية. وهذه الفروق تجعل توفير الحاجات الروحية والدينية للزوجين ذا تأثير خفي على استقرار الأسرة، في حين أن تأثير تلبية الحاجات الأخرى على استقرار الأسرة واضحٌ نسبيا.

٢. الخصائص الفردية للزوجين

وفي هذا المحور تم اقتراح جزء آخر من عوامل الاستقرار الأسري على المستوى الجزئي. ويمكن تصنيف هذه العوامل تحت خمسة عناوين رئيسية وهي الخصائص الاعتقادية والأخلاقية والمعرفية والسلوكية والخصائص الجسدية. والعوامل التي تنتمي إلى هذه الفئات الخمس، بالإضافة إلى دورها المباشر في توفير الاحتياجات الفطرية، تساهم أيضًا في استقرار الأسرة من خلال تأثيرها المتبادل على بعضها البعض.

أ. الخصائص الاعتقادية

تشير الخصائص الاعتقادية إلى تدين الزوجين وعلى وجه التحديد، عقيدتهما وإيمانهما الدينية. يؤثر الإيمان على استقرار الأسرة بطرق مختلفة نذكر هنا أربعة منها:

١. توفير الاحتياجات الروحية من خلال إعطاء معنى للحياة وتعزيز روح الرضا والثقة بالله لدى الإنسان وإعطائه الأمل بالمستقبل مما يؤدي إلى زيادة قدرته على التكيف مع شدائد الحياة وصعوباتها. ومن مظاهر هذا الأمر هو الأخذ بعين الاعتبار الفوائد الخفية للحياة الزوجية، والتي لا يمكن توقعها إلا من المؤمنين. وعلى هذا الأساس، فإن الشخص المؤمن كما لا يتخلى عن جهوده لتلبية الاحتياجات وتكوين عائلة مرغوبة، لا ييأس عندما يواجه مشاكل مثل الفقر والخلافات العائلية، بل يبقي قلبه مفتوحًا لوعود الله تعالى ويحول مرارة الحياة إلى الحلاوة من خلال ذكر الله تعالى.

٢. توفير الاحتياجات العاطفية يتم من خلال تأثيرها على تعزيز المحبة المتبادلة بين الزوجين. وأثر الإيمان على الحب له وجهان: الجانب الأول، أي: أثر إيمان الإنسان في زيادة حبه لزوجته، مما قد ورد في عدة أحاديث، منها قول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «اَلعَبدُ كلَّما إزدادَ لِلنِّساءِ حُبًّا إزدادَ فِي الإيمانِ فَضْلًا»[1]. والجانب الثاني، وهو أن إيمان الإنسان وعمله الصالح يجذب محبة زوجته إليه، وهذا مما يستفاد من هذه الآية من القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾[2].

٣. توفير مختلف الاحتياجات المعيشية والجنسية والعاطفية والروحية من خلال تعزيز الفضائل الأخلاقية، والتي سنشير فيما يلي إلى دورها الفريد في تقوية الأسرة. ولكن هنا ينبغي التركيز بشكل خاص على دور (الصبر) كفضيلة أخلاقية، لأن الإيمان والصبر مرتبطان بقوة، فقد شبّه الإمام علي عليه السلام العلاقة بين الصبر والإيمان بالعلاقة

---

١. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١٤، ص٩-١٠.

٢. مريم: ٩٦.

بين الرأس والجسد[١].

٤. توفير مختلف الاحتياجات المعيشية والجنسية والعاطفية والروحية من خلال تعزيز دافعية الفرد لاتباع الأحكام الشرعية في صورة الفرائض والمستحبات وترك المحرمات والمكروهات، فإن لمعظمها دورا في استقرار الأسرة. منها الأحكام المتعلقة بالحقوق المتبادلة بين الزوج والزوجة. وتجدر الإشارة إلى أنه في هذه الحالة الرابعة، لا يعتبر الإيمان عاملًا إلى جانب العوامل الأخرى المؤثرة على استقرار الأسرة، بل هو عامل فوقي بالنسبة إليها، فإنه بالإضافة إلى تأثيره المباشر، له القدرة على تفعيل العوامل الأخرى أيضًا.

ب. الخصائص الأخلاقية

والمقصود بالصفات الأخلاقية هو اتصاف الأزواج بالفضائل الأخلاقية. وفيما يتعلق بدور هذا العامل في الاستقرار الأسري، يمكننا الإشارة إلى حقيقة ملموسة وهي أنه في كثير من الأسر، حتى مع وجود عوامل الاستقرار الأسري الأخرى، فإن سوء أخلاق الزوجين أو أحدهما وحده يسبب الخلاف وعدم التوافق. ومن ناحية أخرى، يمكن أن نجد عائلات، رغم حرمان الزوجين فيها من العوامل الأخرى، إلا أن تزينهما بالفضائل الأخلاقية هو الذي كان سببا في استمرارية الأسرة وتماسكها. ولهذا السبب فإن النظرة الواقعية تقتضي أن نعطي مساهمة أكبر في استقرار الأسرة لعنصر الأخلاق مقارنة بالعديد من العوامل الأخرى ونعتبر عدم استقرار الأسرة إلى حد كبير نتيجة للرذائل الأخلاقية. ولا شك في أن الأزواج إذا اتصفوا بالفضائل الأخلاقية مثل الصدق والوفاء والاحترام واللطف والرحمة والتواضع والتسامح والعفو والإحسان والإنصاف، وتجنبوا عن الرذائل الأخلاقية مثل الأنانية والتفوق واحتقار الآخرين والحسادة والبخل، والطمع والحقد والنفاق، فحينئذ يتم التخلص من الكثير من التوترات والسلوكيات السيئة والخلافات المدمرة من الحياة الأسرية. ويكون لهذه الصفات الأخلاقية في كثير من الأحيان تأثير مباشر في تلبية الحاجات الفطرية لدى الزوجين، ولكن

١. المجلسي، بحار الأنوار، ج٦٤، ص٢٣٢.

في بعض الأحيان يكون تأثيرها غير مباشر، مثل تأثير الالتزام العام بالأخلاق الجنسية كالحياء والحماس، في تقليل السلوكيات الجنسية المنحرفة و بالتالي له تأثير في نهاية المطاف على الاستقرار الأسري.

ج. الخصائص المعرفية

تشمل الخصائص المعرفية مجموعة واسعة جدًا من الوعى والمعارف المفيدة للاستقرار الأسـري والتي يمكن للزوجين الاسـتفادة منها، مثل معرفة العوامل المؤثرة على الاستقرار الأسـري، والقيم الأسرية، وحقوق الأسرة، والفروق الطبيعية بين الرجل والمرأة، ومهارات التواصـل مع الزوجة. وبالنظر إلى هـذه النقطة الواضحة وهي أن العلـم هو مقدمة العمل، فإن تأثير هذا العامل على اسـتقرار الأسرة مما لا شـك فيه؛ لأنه كلما زاد وعي الزوجين في المجالات المذكورة، كلما زاد احتمال انسجام أخلاقهما وسلوكياتهما الفردية والخصائص الهيكلية للأسـرة مع معرفتهما. وعلى هذا الأساس، يمكن الادعاء بأن الخصائص المعرفية تؤثر على اسـتقرار الأسـرة من خلال تهيئـة الأرضية لتحقيق مجموعة واسـعة من العوامل الفردية والهيكلية لاستقرار الأسرة.

د. الخصائص السلوكية

تشـير الخصائص السـلوكية في هذا النمـوذج النظري إلى مطابقة سـلوكيات الزوجين مع الأحكام الشـرعية، ومن ثم فهي تشـمل فعل الواجبات والمستحبات وترك المحرمات والمكروهات. ويمكن الإشارة بشكل خاص حول فعل الواجبات وترك المحرمات إلى دور التقوى في استقرار الأسرة؛ لأن نتيجة التقوى خلق عامل تحكّم داخلي في الإنسان يمنعه من اللجوء إلى الأفعال القاسـية. كما أن هناك عددًا من العوامل مستوحاة من الآيات والروايات التي شجعت الأزواج على استخدام مهارات التواصل في شكل أوامر استحبابية.

هـ. الخصائص الجسمية

تشـير الخصائص الجسمية إلى جميع الخصائص المتعلقة بجسم الإنسان، والتي تشمل الصحة والقدرة والجمال وغيرها. ومن الواضح أن هذه الخصائص تؤثر أيضًا على استقرار الأسرة بشكل أو بآخر، نظرًا لدورها في تلبية الاحتياجات المختلفة للزوجين.

٣. بنية الأسرة

وعلى العكس من الخصائص الفردية التي تشـير إلى الأفعال والصفات والحالات التي تعـرض على الفرد من حيث فرديته، تشـير الخصائص البنيوية إلـى الخصائص التي تصف كيفيـة تركيب الناس ككلٍّ وتفاعلهما مع بعضهم البعض. ويهتم هذا المحور بأربع سـمات هيكلية فعالة في استقرار الأسرة، وهي التمييز بين الجنسين في الأدوار والأنشطة في الأسرة، والزواج الأحادي، ووجود الزوج والزوجة معًا، وإنجاب الأطفال.

أ. التمييز بين الجنسين في الأدوار

وفقا لنظرية الأسرة المستقرة فإن التمييز بين الجنسين في الأدوار مع وجود مؤشرين هما قوامية الزوج والتقسـيم الجنسي للعمل المنزلي، من العوامل المؤثرة على استقرار الأسرة. وفي شـرح كيفية هذا التأثير يمكن القول: باعتبار أن مفهـوم (قوامية الزوج) تم تحديده في النصوص الدينية من خلال مكونات مثل حق الخضوع الجنسي[١]، حق الطلاق[٢]، والحق في مراقبة خروج المرأة من المنزل[٣]ووجوب دفع نفقة الزوجة[٤]، يكون لنموذج (قوامية الزوج) قدرة أفضـل وأكثر لتلبية الاحتياجات المختلفة العاطفية والجنسـية والمعيشـية للزوجين، وذلـك باعتبار تلائـم هذا النموذج مع الفـروق الطبيعية بين الرجل والمـرأة، وخاصة رغبة

١. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١٥، ص ٣٤٠.
٢. م.ن.
٣. م.ن، ج١٤، ص١١٢.
٤. م.ن، ص٢٢٣-٢٢٦.

الرجـل في السـيطرة على المرأة ورغبة المـرأة في الاعتماد على قـوة الرجل وقبول دعمه، وكذلك الاختلافات المتعلقة بالإنجاب. وهذا النموذج يعمل نحو استقرار الأسرة من خلال توفير أرضية أكثر ملائمة لإشباع الحاجات الجنسية للرجال الذين لديهم استثارة جنسية أسرع وأكثر وفرة ولا يمكن السـيطرة عليها مقارنة بالنسـاء، وذلك من خلال إشباع غريزة التفوق الذكـوري والتي تظهر أيضًا في الجنـس الذكري للعديد من الحيوانـات، ومن خلال توفير الاحتياجات المعيشـية للمرأة بسـهولة أكبر، خاصة خلال فترة الإنجاب التي تعد الأصعب علـى المـرأة. وبالإضافة إلى ذلك، إذا لم يتم تفسـير رغبة المرأة فـي الاعتماد على الرجل من حيث احتياجات المرأة المعيشـية فقط، بل من حيـث احتياجاتها العاطفية أيضًا، فيمكن الادعاء بأن نموذج (قوامية الزوج) له تأثير على اسـتقرار الأسرة من خلال توفير احتياجات المرأة العاطفية أيضًا.

إن تقسـيم الأعمال المنزلية بين الجنسـين من خلال أداء واجبات الرعاية من قبل المرأة وأداء واجب توفير نفقات المعيشـة من قبل الرجل، والـذي يتجذر إلى حد كبير في الأدوار المختلفة للرجل والمرأة في عملية الإنجاب الطبيعية، هذا التقسيم يؤثر على الأقل من خلال ثلاثة طرق على استقرار الأسرة:

١. اسـتمرار حاجة المرأة إلى دعم زوجها المالـي وحاجة الزوج إلى دعمها في القيام بالأعمال المنزلية، فإن ذلك يعزز الدافع لتلبية هذه الحاجة المتبادلة لدى الزوجين. هذا في حين أن التقسيم المتساوي للأعمال والمسؤوليات داخل المنزل وخارجه، علـى الرغم من أنه قد يؤدي إلى رضا الزوجين على المدى القصير، إلا أنه يزيد من احتمالية عدم الاستقرار الأسري وذلك من خلال زيادة الاستقلال الاقتصادي للمرأة وبالتالي تقليل الاحتياجات المعيشية بين الزوج والزوجة بعضهما البعض.

٢. إزالـة ضغط العمل خارج المنزل عن المـرأة أو تقليله، فإنه يوفر لها الفرصة لتكون أكثر نجاحًا في تلبية احتياجات زوجها الجنسية والعاطفية، وبالتالي فإن حاجتها إلى جذب حب الرجل ستشبع أيضًا بشكل أفضل.

٣. إعفاء المرأة من المسؤوليات خارج المنزل وتركيزها على الأنشطة داخل المنزل، فإنما يلعبان دورا هاما في تفرغها للاهتمام بشؤونها الروحية، والبقاء في مأمن من أضرار الاختلاط الجنسي في الأماكن العامة على نموها الروحي.

ومن الضروري الانتباه إلى أن التمايز بين الجنسين في الأدوار في الأسرة، وإن كان له تأثير على استقرار الأسرة في حد ذاته، إلا أنه في بعض الأحيان قد يوفر الأساس لتحقيق بعض عوامل عدم الاستقرار الأسري. مثلًا عندما يعارض الرجل طلب زوجته رغم إصرارها على الحصول على وظيفة مربحة. ففي مثل هذه الحالة، من الممكن تمامًا أن يؤدي الاختلاف بين الزوج والزوجة إلى عدم الاستقرار الأسري، لكن السبب الرئيسي لهذه المشكلة ليس التمييز بين الجنسين في الأدوار، بل يجب البحث عن جذورها في الخصائص الأخلاقية السلبية للزوجين في على المستوى الجزئي والضغوط الاقتصادية أو التغيرات الثقافية على المستوى الكلي.

ب. الزواج الأحادي

وفقا لنموذج الأسرة الإسلامي، فإن عدم الاستقرار في الأسر المتعددة الزوجات ينشأ من عوامل مثل الظلم وأوجه القصور الأخلاقية الأخرى. وإذا تم تعدد الزوجات وفق الشروط الشرعية، أي القدرة المالية للزوج، والعدل بين الزوجات، مع مراعاة المعايير الأخلاقية، فلن يكون له أثر سلبي مثير للاهتمام على استقرار الأسرة. بل في بعض الحالات، يمكن أن يكون المفتاح لحل بعض المشاكل الخطيرة التي لها القدرة على الإضرار باستقرار الأسرة. ولذلك، نواجه أحيانًا أمثلة قامت فيها الزوجة الأولى بمبادرة تمهيد الطريق للزواج الثاني لزوجها. لكن مع ذلك لا يمكن إنكار أن الزواج الأحادي يوفر أرضية أكثر ملائمة لتلبية الاحتياجات العاطفية للزوجة وخلق الرضا لديها. ولهذا السبب، فإن احتمال تحقيق الاستقرار في الأسرة الأحادية أعلى مقارنة بالأسرة متعددة الزوجات.

ج. حضور الزوج والزوجة

إن توفيـر بعض احتياجـات الزوجين يعتمد على وجودهما معًـا، وهو أمر واضح تمامًا بالنسبة للحاجات الجنسية. وفيما يتعلق بالاحتياجات العاطفية والمعيشية يمكن القول أيضًا: إن انفصـال الزوجين عن بعضهما البعض على المـدى الطويل يجعل من الصعب تلبية هذه الاحتياجات، وبالتالي استقرار الأسرة.

د. إنجاب الطفل

إن إنجاب الطفل هو سمة بنيوية أخرى للأسرة، تلعب دورا فعالا في تقوية الأسرة لكونه يوفر الأرضية لتلبية بعض الحاجات الفطرية للزوجين. وفي الجانب المقابل، فإن الأسرة التي ليس لديها طفل، معرضة لعدم الاستقرار على الرغم من بعض عوامل الجذب فيها. وفي بيان دور الطفل في اسـتقرار الأسـرة من حيث توفيره الحاجات المعيشة أو العاطفية أو الروحية للزوجين، يمكن طرح وجوه مختلفة:

- الأطفال وتوفير الاحتياجات المعيشية

بمـا أن الرغبة في إنجاب الأطفال في المجتمعات التقليدية يكون لها في بعض الأحيان جانب اقتصادي، فإن وجود الأطفال في هذه المجتمعات يمكن أن يسـاهم في اسـتقرارها بسبب توفير الاحتياجات المعيشية للأسرة.

- الأطفال وتوفير الاحتياجات العاطفية

يمكن تفسير دور الطفل في استقرار الأسرة من حيث تأثيره في توفير الاحتياجات العاطفية للوالديـن. وبالطبع فإن حب الوالدين للطفل له سـمة خاصة تميزه عن غيره من المشـاعر، وهو الدور الذي يلعبه الطفل في النمو الوجودي للوالدين بحيث يصبح حزنه وسعادته حزنًا وسعادة لأنفسهما ويعتبر توفير احتياجاته تلبية احتياجاتهما. كما ورد عَنْ هِشَامِ بْنِ سَالِمٍ قَالَ: قُلْتُ لِلصَّادِقِ ﷺ مَا بَالُنَا نَجِدُ بِأَوْلَادِنَا مَا لَا يَجِدُونَ بِنَا؟ قَالَ: لِأَنَّهُمْ لَسْتُمْ مِنْهُم»[1].

١. المجلسي، بحار الأنوار، ج٧٩، ص٧٢.

- الأطفال وتوفير الاحتياجات الروحية

يتم تحقيق تأثير الطفل على الاحتياجات الروحية للزوجين بعدة طرق: الطريقة الأولى، وهي خاصة بالأمهات، هي تأثير ولادة الطفل في تلبية حاجة المرأة إلى ازدهار موهبتها الروحية وهي اتصافها بالصفات الإلهية وهي الخالقية والرازقية.

الطريقة الثانية تتم من خلال التأثير الفعلي على التعالي الروحي للزوجين، وهو يشير إليه كثيرٌ من النصوص الدينية، بما في ذلك النصوص التي تعتبر العديد من المكافآت الروحية للوالدين، وخاصة الأمهات، مقابل الأنشطة المتعلقة بالإنجاب ورعاية وتعليم الأبناء[١]. ومن الواضح أن هذه الأنواع من المكافآت لا ينبغي أن يقتصر مظهرها على جانب الآخرة فحسب، بل إن جانبها الآخر هو الآثار الروحية لهذه الأعمال في الدنيا، مثل زيادة التقوى، وتنوير القلب، وتطهيره من الدنس وظلمة الذنوب. وهذه الآثار تساعد بالتأكيد في إحباط الكثير من عوامل عدم الاستقرار الأسري.

الطريقة الثالثة هي أن وجود الطفل يحفز الآباء المتدينين على تحقيق المكافأة الروحية التي تحصل لهما نتيجة تربيته. هذه الفئة من الآباء يختارون الاستمرار في العيش معًا على الرغم من المشاكل الزوجية، وذلك لأجل أملهم في تحقيق هذه المكافأة، وبهذا الاختيار يساعدون في توفير احتياجاتهم الروحية.

أما الطريقة الرابعة فهي أنه بحسب أن رغبة الإنسان في إنجاب الأطفال ترجع جذوره إلى الرغبة في الخلود، فإن الآباء يعتبرون حياة أبنائهم استمرارًا لحياتهم الخاصة[٢] ويرى الكثير من الآباء أن الخلودَ من خلال أطفالهم ليس فقط في ولادة الطفل، بل يبحثونه في تربيته الصحيحة ويحاولون إشباع هذه الحاجة الروحية من خلال (ترك اسم جيد). ومما لا شك فيه أن العديد من الأزواج يعتبرون الطلاق عائقا أمام تحقيق هذا الهدف.

وأخيرًا، الطريقة الخامسة تتعلق بالحالات التي يرتبط فيها الطلاق باللوم الثقافي ويسبب

---

١. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١٥، ص١٧٥.

٢. كلاين برک، روان شناسی اجتماعی، ص١١٣.

مشـكلة المكانة الاجتماعية، خاصة للأزواج الذين لديهم أطفال، ففي هذه الحالة فإن كثيرا منهم يتجنبون الطلاق و بهذا الطريق يحققون بالفعل إحدى احتياجاتهم الروحية، وهي تلبي الحاجة إلى الاستفادة من المكانة الاجتماعية.

٤. خلفيات تكوين الأسرة

تشـير خلفيات تكوين الأسـرة إلى مجموعة من العوامل التي تؤثر على استقرار الأسرة من خلال التأثير على خلفية أفراد الأسـرة. وتلعب هذه العوامل دورًا فعالًا بشكل غير مباشر في توفير الحاجات الفطرية للزوجين وبالتالي في اسـتقرار الأسـرة، و ذلك من خلال خلق الأسـاس لتكوين الخصائص الفردية الإيجابية لدى الزوجين والخصائص البنيوية الإيجابية في الأسـرة. وتنقسـم العوامل الخلفية بشـكل عام إلـى فئتين: عوامل تتعلـق بمراحل نمو الزوجين وعوامل تتعلق بمرحلة اختيار الزوج.

أ. مراحل نمو الزوجين

تحتوي القضايا المسـتخرجة من النصوص الدينية على مجموعـة من العوامل المؤثرة على استقرار الأسرة، والتي تتحقق في مراحل نمو الزوجين في الفترات التي تسبق ولادتهما وبعدهـا وحتى زواجهما. ومـن أهم هذه العوامل: ذكـر الله عند الحمـل، واختيار الوقت المناسـب للحمل، والتغذية السـليمة أثناء الحمـل، وتربية الأبناء علـى الأخلاق والآداب الشـرعية، وتعليمهم أحكام الدين. ولا شـك أن العوامل المذكورة أعلاه ليسـت على نفس المستوى من حيث تأثيرها على الاستقرار الأسري، والعاملان الأخيران أي التربية والتعليم، يلعبان دورًا أبرز بكثير. إن إدراج هذين العاملين في إطار النموذج الإسلامي يمنحهم القدرة على الاهتمام بالدور المهم لعامل التعلم في تفسيراتهم.

ب. مرحلة اختيار الزوجة

وبناء على النصوص الدينية فإن مجموعة من العوامل المؤثرة على اسـتقرار الأسرة في هذه المرحلة هي: التعارف قبل الزواج، اختيار الزوج الديني، اختيار الزوج من عائلة كريمة،

التشابه الديني والثقافي بين الزوج والزوجة، القدرة المالية للزوج المستقبل، خصوبة الزوج المستقبل، الزواج الاختياري، موافقة الوالدين على زواج الابن، الزواج المبرمج والزواج في الوقت المناسب.

ومن الجدير بالذكر أن العديد من الدراسات وجدت أن الزواج في سن مبكرة فعال في زيادة احتمالات الطلاق[١] وبهذا فقد أكدوا على تأثير سن الزواج كعامل أساسي على استقرار أو عدم استقرار الأسرة. ولكن وفقا للنموذج الإسلامي، فإن ارتفاع معدل الطلاق في الزواجات التى تقع في سن مبكرة، لا يعود إلى طبيعتها، بل ترجع جذوره إلى عوامل أخرى مثل أوجه القصور التعليمية والتربوية والثقافية والاقتصادية.

٥. العوامل الاجتماعية

العوامل الاجتماعية لاستقرار الأسرة هي العوامل التي تنتمي إلى المستويين المتوسط والكلي من المجتمع، والتي عادة ما تؤثر بشكل غير مباشر على عملية تلبية الاحتياجات الفطرية للزوجين ويتم تأثيرها من خلال العوامل الخلفية أو الخصائص الهيكلية للأسرة أو الخصائص الفردية للزوجين. وإن كان في بعض الحالات قد يتم تأثيرها بشكل مباشر. ويمكن أن نذكر على سبيل المثال تدخّل أنظمة الدعم في مجال الدعم المالي للأسر الفقيرة وتدخّل نظام التحكّم الاجتماعي في مجال الحصول على حقوق الأسرة. تؤدى هذه التدخلات إلى توفير الاحتياجات الاقتصادية للأسرة.

تشمل العوامل الاجتماعية مجموعة واسعة من العوامل التي تعود إلى المحاور الرئيسية التالية: التعليم، التربية الدينية والأخلاقية للمجتمع، تهيئة الأرضية الاجتماعية، تهيئة الأرضية القانونية، الدعم الاجتماعي والإشراف الاجتماعي. وفيما يلي شرح مختصر لكل محور من هذه المحاور.

---

١. قدسى والمساعدون، «بازدارنده ها و تسهيل كننده هاى اقتصادى-اجتماعى طلاق»، ص٥٣؛ كلانترى والمساعدون، «مرور سه دهه تحقيقات علل طلاق در ايران»، ص١٢٩؛
Burr, *Theory Construction and the Sociology of the Family*, p.119; Sabini, *Social Psychology*, p.519.

أ. التعليم

كما ذكرنا سابقًا، فإن تحلي الزوجين بالوعي اللازم للحياة الأسرية، يؤثر على الاستقرار الأسري، بما في ذلك معرفة العوامل المؤثرة على الاستقرار الأسري، والقيم الأسرية، وحقوق الأسرة، والفروق الطبيعية بين الرجل والمرأة، ومهارات التواصل مع الزوج. ومن هذا المنطلق يمكن اعتبار كافة المؤسسات التعليمية والاستشارية ووسائل الإعلام الجماهيرية الناشطة في المجالات المذكورة، من العوامل غير المباشرة التي تؤثر على الاستقرار الأسري.

ب. التربية الدينية والأخلاقية

يفترض في هذا النموذج النظري أن تدين المجتمع وسيادة المعايير الدينية على تصرفات الأفراد والمؤسسات الاجتماعية لهما تأثير عميق على استقرار الأسرة؛ لأن الدين يقدّم نظاما معياريا يهيمن على الجميع ويوجه مواقفهم وأفعالهم في جميع المجالات بما في ذلك مجال الأسرة، نحو الاتجاه المنشود بحيث يصعب عادة مخالفة هذا الاتجاه.

وعلى هذا الأساس ينبغي التذكير بأهمية التربية الدينية والأخلاقية للمجتمع، وأهمية مهمة العلماء والدعاة في هذا المجال، والتي أكد عليها القرآن الكريم.[١] بالإضافة إلى ذلك، يمكن للمؤسسات التعليمية والتربوية الأخرى للمجتمع مثل المدارس ووسائل الإعلام في عصرنا هذا، أن تلعب أيضًا دورًا خاصًا في هذا المجال؛ لأن مهمة إرشاد الناس على طريق الإيمان والأخلاق مهمة كبيرة وثقيلة لدرجة أن علماء الدين لن يتمكنوا من تحقيق الكثير من النجاح في القيام بها دون مساعدة المؤسسات الأخرى.

---

١. التوبة: ١٢٢.

ج. تهيئة الأرضية الاجتماعية

مما لا شك فيه أن الأسر التي تعيش في سياق اجتماعي وثقافي مناسب، توفّر المزيد من الفـرص لتلبية الاحتياجات الفطرية للزوجين، من خـلال خصائصهما الفردية والخصائص الهيكلية للأسرة. وعلى العكس من ذلك، تلعب الظروف الاجتماعية والثقافية غير المناسبة دورًا رئيسـيًا في زيادة معدل عدم الاستقرار الأسـري، وذلك من خلال وضع العراقيل أمام تحقيـق الحاجات الطبيعية للزوجين أو من خلال توفيـر إمكانية تلبية الحاجات خارج إطار العلاقات الأسـرية. يشمل السياق الاجتماعي والثقافي عوامل ومجالات مختلفة، نذكر هنا بعضًا منها.

كما ذكرنا، فإن الحصرية في إشـباع الحاجات الجنسـية في إطار الزواج الشـرعي هي من أهم العوامل الفعالة في دفع النـاس إلى الزواج، وفي المرحلة المقبلة، في الحفاظ على الاستقرار الأسري. ولذلك كلما وفّر المجتمع دعمًا ثقافيًا أقوى لهذه الحصرية ووفّر أرضية أفضل لتحقيق مناخ اجتماعي غير جنسـي، كانت الأسـرة أكثر اسـتقرارًا في ذلك المجتمع مقارنة بالمجتمعات الأخـرى. ويعترف الباحثون الغربيون أيضًا بأنه في الحالة التي لا يعتبر فيها أفراد المجتمع الأسرة المكان الحصري لإشباع الحاجات الجنسية، فإن مستوى الالتزام العام بالحفاظ على هذه المؤسسة الاجتماعية ينخفض إلى حد كبير[١].

إن محدودية التواصل البصري والسـمعي واللمسي وما إلى ذلك مع الجنس الآخر هو عامل اجتماعي آخر يؤثر على اسـتقرار الأسـرة، وهذا مما يساعده بثلاث طرق على الأقل: ١) تقليل أرضيات العلاقات الجنسـية غير المشـروعة في المجتمع وبالتالي حصرية إشباع الحاجات الجنسية في الإطار الأسري؛ ٢) الحصرية في إشباع الحاجات الجنسية في الإطار الأسـري؛ ٣) توفير الاحتياجات الروحية للزوجين من خلال خفض الحساسـيات الطبيعية للشؤون الجنسية في المجتمع إلى أدنى مستوى، بحيث يخلق أقل قدر من الانشغال العقلي للرجـل أو المرأة عند ما يدخلان السـاحة الاجتماعية. ولا شـك أن التخلص من مثل هذه

١. هلر، زنان، جامعه مدنى و دولت، ج٣، ص٥٨.

الانشغالات العقلية هو الشرط الأساسي لذكر الله والروحانيات، مما له أثر كبير في استقرار الأسرة.

السياق الاجتماعي الآخر الذي له تأثير على استقرار الأسرة هو توسيع علاقات القرابة والصداقة والجوار. ومع توسع هذه العلاقات التي تشمل مختلف جوانب التعليم والتربية والدعم والتحكّم، يتم توفير مجالات أكثر ملائمة لتوفير احتياجات الزوجين المعيشية والجنسية والعاطفية والروحية.

وأخيرا، لا بد من الإشارة إلى أحد العوامل الثقافية الأكثر تأثيرًا على استقرار الأسرة، وهو كيفية الرؤية وكيفية تقييم أفراد المجتمع لمفاهيم مثل الزواج والطلاق. ومن المؤكد أن المجتمع الذي ينظر إلى الزواج باعتباره رباطًا مقدسًا ويعتبر الطلاق عارًا، فإن احتمال نمو ظاهرة الطلاق يكون أقل بكثير.

د. تهيئة الأرضية القانونية

إن العديد من العوامل الفردية والاجتماعية التي تؤثر على استقرار الأسرة لا تتمتع بالضمانات التنفيذية اللازمة في حد ذاتها، وبالتالي تحتاج إلى دعم قانوني لتحقيقها، وإليكم مثالان:

- يعتبر دفع النفقة للزوجة، كأحد عوامل استقرار الأسرة، من حقوق الزوجة على الزوج في الإسلام، وقد روعيت في ذلك الجوانب القانونية والقضائية. وبحسب الروايات، فإن عدم دفع النفقة للزوجة سيؤدي إلى الحق في رفع دعوى قضائية على الزوج، وإذا لم يمتثل، سيكون للزوجة الحق في طلب الطلاق[١].
- إن التمييز والفصل بين الأساليب المشروعة وغير المشروعة لإشباع الحاجات الجنسية ووضع عقوبات مشددة على مرتكبي الأساليب غير المشروعة مثل الاغتصاب والبغاء والزنا مع المحارم واللواط والاستمناء، يوفر أساسًا قانونيًا مناسبًا لاستقرار الأسرة.

---

١. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١٥، ص٢٢٣.

وغني عن القول أن تأثير النظام القانوني على الاستقرار الأسري له علاقة وثيقة بالفروق الطبيعية بين الجنسين، مما يجعل مسألة انطباق النظام التشريعي مع النظام التكويني، وبعبارة أخـرى، الأخذ بعين الاعتبار الخصائص الطبيعية للرجل والمرأة في المجتمع، مهمًا. ووفقًا للنموذج الإسـلامي، كلما تم الالتزام بهذا الانطباق، كلما تم ضمان اسـتقرار الأسرة بشكل أفضـل. ولهذا السـبب فإن تحريم الطلاق قانونًا لا يعتبر عاملًا فعالًا في اسـتقرار الأسـرة، لأنـه يخالف الخصائص الطبيعية للرجل والمرأة. ومن ناحية أخرى، فإن التسـامح المفرط لمحاكم الأسـرة في الغرب في قبول طلبات الطلاق من الرجل والمرأة على حد سواء، كان عاملًا فعالًا في عدم الاسـتقرار الأسـري، وذلك لأجل عدم توافقه مع الخصائص الطبيعية لكلا الجنسـين. وأما حقـوق الزوج والزوجة في الإسـلام، والتي تقوم علـى النظر الدقيق لخصائصهما الطبيعية[1]، فهي توفر أساسًا أكثر ملائمة لاستقرار الأسرة.

هـ. الدعم الاجتماعي

كما ذكرنا أعلاه، فإن توفير الاحتياجات الجنسية وبعض الاحتياجات العاطفية الخاصة للزوجين أنفسـهما، يقتصر على الزوجين أنفسهما، وبالتالي فإن تزويد الزوجين من أي نوع من الدعم الاجتماعي الذي يسـاعدهما على توفير الاحتياجات الأخرى أو يساعدهما على توفيـر الاحتياجات الجنسـية والاحتياجات العاطفية الخاصة، يمكـن أن يكون له تأثير مثير للاهتمام على استقرار الأسرة. ومما لا شك فيه أن تلك الأسر التي تواجه المزيد من المشاكل والقصور في تلبية احتياجاتها، تكون الحاجة إلى مثل هذا الدعم أكبر للحفاظ على اسـتقرار الأسرة فيها.

وبشـكل عام يمكن تقسيم الدعم الاجتماعي إلى فئتين: ١) الدعم غير الرسمي ويشمل دعم الأقارب والجيران والأصدقاء والمعارف؛ ٢) الدعم الرسمي للجهات الحكومية.

وفيما يتعلق بالدعم غير الرسمي، فإنه يمكن أن نذكر من باب المثال دور شبكات القرابة

---

١. بستان النجفي، اسلام و تفاوت های جنسی در نهادهای اجتماعی.

والجوار وما شـابه ذلك، في مجالات مختلفة مثل تسهيل عملية البحث عن الزوج والزواج مما يسـاعد على اسـتقرار الأسـرة من خلال الحد من الانحرافات الجنسـية في المجتمع، وكذلك الدعم المالي، والدعم الخدمي، والدعم العاطفي، والدعم الروحي، والوساطة في الخلافات الزوجية، وغيرها.

كما أن الدعم الرسـمي الذي تقدّمه الحكومة للأسـرة، له أمثلـة مادية وروحية مختلفة، فعلى سـبيل المثال نذكر الدعم المالي المباشـر، وتقديم القروض السـكنية، وتوفير فرص العمل، وتوجيه رأس المال والإنتاج في مسار يتوافق مع القيم الأسرية، وكذلك إنشاء وتنظيم المؤسسات التعليمية والثقافية والصحية والطبية والخدمية والرفاهية والترفيهية. وبالطبع فإن كل هـذه الدعمات بغض النظر عن الدعم التعليمي والتربوي والقانوني الذي تم الاهتمام به في المحاور السابقة.

و. الإشراف الاجتماعي

إن وجـود عوامل إشـرافية فـي المجتمـع والتي تمنع عدم اسـتقرار الأسـر من خلال ممارسـة التحكّم المناسـب على العوامل وعملية توفير الاحتياجات الفطرية للزوجين، هو أحد العناصر المهمة في النظرية الإسـلامية. وللإشـراف الاجتماعي، كالدعم الاجتماعي، أمثلة متنوعة وواسـعة تعود في الإسلام إلى الواجب العام وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وحيث إن أداء هذه المهمة محدد في صيغ فردية واجتماعية وحكومية، فمن الممكن استعراض الإشراف الاجتماعي فيما يتعلق بمؤسسة الأسرة، في شكلين رسمي وغير رسمي:

يشـير الإشـراف الاجتماعي غير الرسمي إلى الإشـراف والتدخل المسـؤول من قبل الوالدين والأقارب والمعارف والأصدقاء والجيـران وعامة الناس للأجل منع الانحرافات الفردية والاجتماعية وعلى وجه التحديد، الظلم وانتهاك حقوق الزوجين من قبل أنفسـهما أو من قبل الآخرين وكسر القيم المرتبطة بالسلوكيات الجنسية على مستوى المجتمع.

ويقصد بالإشـراف الاجتماعي الرسمي تدخّل المؤسسات الحكومية وخاصة المحاكم

ومراكز تنفيذ القانون والسجون لتنفيذ القوانين القضائية فيما يتعلق بالانحرافات المذكورة أعلاه. ومما لا شك فيه أن التدخّل الصحيح والبعيد عن الإفراط والتفريط للمؤسسات المذكورة في حل النزاعات والعنف الأسري والنزاعات غير الأسرية التي تمس الأسرة، وكذلك في ضبط الانحرافات الجنسية على مستوى المجتمع، له الأثر الكبير في تقليل هذه الظواهر السلبية كعقبات خطيرة أمام استقرار الأسرة.

الاستنتاج

يمكن تلخيص أهم نتائج هذا المقال في المحاور التالية:

١. لا يؤكد النموذج الإسلامي للأسرة المستقرة، على استخدام المفاهيم النظرية المعقدة والمتخصصة تماما، وذلك على عكس النهج السائد في التنظيرات الاجتماعية؛ بل يتشكل بشكل رئيسي في سياق مجموعة من المفاهيم العرفية واليومية، وهذا سببه أن هذا النموذج له نهج متخذ من النصوص ويتلقى افتراضاته وفرضياته الرئيسية من النصوص الدينية التي يستهدف معظم رسائلها جمهور الناس.

٢. إن هذا النموذج على جنب اعتباره توفير الحاجات الطبيعية للزوجين عاملا رئيسيا لاستقرار الأسرة، فقد حاول أيضا تحديد العوامل الوسيطة المؤثرة عليه، سواء على المستوى الجزئي أو على المستوى الكلي. وتؤخذ في الاعتبار أيضًا في هذا النموذج العوامل اللاإرادية التي تؤثر على استقرار الأسرة، بالإضافة إلى العوامل الإرادية وهي الأفعال الإرادية للأفراد. وبهذه الطريقة، فإن النهج الشامل نسبيًا لهذا النموذج يوفر أرضية مناسبة لصياغة استراتيجيات وسياسات شاملة وتخطيط كلي.

٣. وكما ذكرنا في المقدمة، فإن هذا النموذج النظري، بالإضافة إلى توضيح العوامل الحقيقية للاستقرار الأسري، يحتوي على نموذج مثالي؛ لأن الأسرة المتناغمة مع العوامل الاجتماعية والخلفية والبنيوية، والتي تتكون من زوجين واعيين على أكمل وجه، ولديهما الإيمان والفضائل الأخلاقية، والأسرة التى توفّر الاحتياجات

المعيشــية والجنســية والعاطفية والروحية للزوجين على أكمل وجه، ليست سوى أســرة مثالية ولا ينطبق حتى على الأشــخاص الكاملين والمعصومين، لأن الكمال الفردي لهؤلاء لم يقترن بتحقق المجتمع المرغوب. ومع ذلك، يمكن استخدام هذا النموذج المثالي كأساس للمقارنة مع الواقع ونقده.

٤. يمكــن محاولة مراجعة هذا النموذج وتعديله بشــكل مســتمر من خــلال الرجوع إلى النصوص الدينية واســتخلاص القضايا الإضافية منها، وكذلك الاســتلهام من فرضيــات الأبحاث الاجتماعية. ومن الواضح أن إثبــات كفائته يعتمد على تطبيقه في البحوث التجريبية أيضًا.

المصادر

١. القرآن الكريم.
٢. بستان النجفي، حسين، إسلام و تفاوت‌های جنسیتی در نهادهای اجتماعی، قم: پژوهشگاه حوزه و دانشگاه، ١٣٨٨ هـ.ش.
٣. ـــــــــــــ، «تبیین بی ثباتی خانواده با تکیه بر نظریه استاد مطهری»، اسلام و علوم اجتماعی، السنة الأولی، ١٣٨٨هـ.ش، ش ١.
٤. ـــــــــــــ، تبيين بي ثباتي خانواده در ايران معاصر بر پايه الگويي اسلامي، پايان نامه دكترى پژوهشگاه حوزه و دانشگاه، ١٣٩١ هـ.ش.
٥. ـــــــــــــ، (١٣٩٠) گامي به سوى علم ديني (٢) روش بهره‌گيرى از متون ديني در علوم اجتماعي، قم: پژوهشكاه حوزه و دانشكاه، ١٣٩٠ هـ.ش.
٦. الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، ٢٠ج، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (بلا تأ).
٧. خرازي، سيد محسن، بداية المعارف الالهية في شرح عقائد الامامية، ٢ج، قم: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين في الحوزة العلمية، ١٤١٨ ق.
٨. ساروخانی، باقر، مقدمه‌ای بر جامعه شناسی خانواده، طهران: سروش، ١٣٧٠ هـ.ش.
٩. سبحاني، جعفر، رسالة في التحسين و التقبيح، قم: مؤسسة الامام الصادق عليه السلام، ١٣٢٠ ق.
١٠. سگالن، مارتین، جامعه شناسی تاریخی خانواده، ترجمة: حمید الیاسی، طهران، مرکز، ١٣٧٥هـ.ش.
١١. سلیمی، علی و داوری، محمد، جامعه شناسی کجروی، قم، پژوهشگاه حوزه و دانشگاه، ١٣٨٥هـ.ش
١٢. قدسی، علی محمد والمساعدون، «بازدارنده‌ها و تسهیل کننده‌هاي اقتصادي- اجتماعي طلاق»، مطالعات راهبردی زنان، السنة الرابع عشر، عدد٥٣، ١٣٩٠ هـ.ش، صص ٢٣-٨٥.
١٣. کلانتری، عبدالحسین والمساعدون، «مرور سه دهه تحقیقات علل طلاق در ایران»، مطالعات راهبردی زنان، السنة الرابع عشر، ش ٥٣، هـ.ش، صص ١٢٩-١٦٢.

١٤. كلاين برگ اتو، روان شناسی اجتماعی، ترجمة علی محمد كاردان، طهران، اندیشه، ١٣٦٨ هـ.ش.

١٥. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١۴٠٣ ق.

١٦. هلر، اگنس، زنان، جامعه مدنی و دولت، ترجمة سحر سجادی، جنس دوم، ج ٣، به كوشش نوشین احمدی خراسانی، طهران، توسعه، ١٣٧٨ هـ.ش.

17. Aghajanian, A., "Family and Family Change in Iran", (4/20/2012), (http://faculty.uncfsu.edu/aaghajanian/papers/iraned2.pdf).

18. Bohman, J., ***New Philosophy of Social Science***, Oxford: Polity Press, 1994. Burr, Wesley R. ***Theory Construction and the Sociology of the Family***, New York, London and Toronto: John Wiley & Sons, 1973.

19. Curry, T., Jiobu, R & Schwirian, K., ***Sociology for the Twenty-First Century***, Upper Saddle River and New Jersey: Prentice Hall, 1997.

20. Ingoldsby, Born B., "Family Origin and Universality", Ingoldsby and Smith (eds.), ***Families in Global and Multicultural Perspective***, Thousand Oaks: Sage Publications, Inc, 2006.

21. Sabini, J., ***Social Psychology***, New York and London: W. W. Norton & Company, 1995.

22. White, James M., A***dvancing Family Theories***, Thousand Oaks and London: Sage Publications, 2005.

المرأة والأسرة في إطلالة على سُنّة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله [1]

محمد رضا زيبائي نجاد[2]

المقدمة

للوصول إلى الحجم الذي تحتاجه المرأة والأسرة المعاصرة في إصلاح وإعادة النظر في الحركة والنشـاط الذي تحتاج إليه، يمكن النظر إلى الصورة المرسومة للمرأة في الروايات المأثورة عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، والتحوّلات التي أحدثها الإسلام في شخصية ومنزلة المرأة، ومن خلال بيان الأهداف والغايـات، يمكن العمل على تحليل آفات وبيان متغيّرات العصر الراهن، وتنظيم نموذج شـخصية المرأة المسـلمة والأسرة الإسـلامية في ضوء سيرة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله بوصفه هو الأسوة الحسنة. ومن خلال النظر على نحو الإجمال إلى سُنّة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يمكن لنا التوصّل إلى أن سياسـة النبي في الدفاع عن شخصية المرأة وحقوقها كانت تقوم على عدد من المحاور:

١. تغيير الأفكار في الثقافة الجاهلية

كما نعلم فإن المرأة ـ على ما سـمعنا كثيرًا ـ كانـت تترعرع منذ البداية ضمن بيئة زاخرة بالعناء والعنت. حتى أن الرجل إذا أنجبت زوجته بنتًا كان يغضب ويشعر بالعار، وقد وصف الله سبحانه وتعالى هذه الظاهرة، بقوله: ﴿ **وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾.[3]

---

١. المصدر: آسـيب شناسى خانواده (مجموعه مقالات)، دفتر مطالعات وتحقيقات زنان، مركز امور زنان وخانواده رياست جمهورى ، طهران، ١٣٩٤، ص ٧٧ – ١٢٠.

تعريب: حسن علي مطر

٢. رئيس معهد بحوث المرأة والأسرة، قم المقدسة.

٣.النحل: ٥٨ ـ ٥٩.

إن التقليل من شـأن المرأة واحتقارها، إنما كان ينحسر ويتراجع حيث تتحوّل المرأة إلى وسـيلة لإشـباع رغبة أتباع الشـهوات من الرجال، وعندها تجد حضورًا صارخًا للمرأة في القصائد الغزلية والعاطفية للشـعراء في شـبه الجزيرة العربية،[١] أو تنجـب المرأة أبناء لقبيلة زوجها. لم يكن للمرأة في العصر الجاهلي يد في اختيار زوجها وشـريك حياتها، ولم يكن لها نصيب من مهرها، بل وكانت بعد موت زوجها تورث كجزء من التركة وأمواله المنقولة.[٢] والملفت للانتباه أننا نجد في هذه الثقافة أن أهم الأوثان في شبه الجزيرة العربية (اللات ومناة والعزّى) هنّ بنـات الله، وكان الملائكة بدورهم من الإنـاث أيضًا.[٣] في ظلّ هذه الأوضاع اتخـذ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله سياسـة فـي الدفاع عن شـخصية المرأة تقوم من جهـة على النقد الصريـح للتقاليد القديمة القائمة على النقد المصداقي لسـنن مـن قبيل: عدم امتلاك المرأة إرادة فـي الزواج، وعدم حصولها على شـيء من الأرث. ومن ناحيـة أخرى في بيان الرؤية الإيجابية حول منزلة المرأة وحقوقها. ومن خلال الدراسـة المتزامنة للقرآن الكريم والسـنة النبوية وتاريخ عصر الجاهلية وصدر الإسـلام، يمكن التوصل إلى هذه الحقيقة القيّمة وهي أن نهـج النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فيما يتعلـق بموضوع المرأة، كان دفاعًا فاعلًا يسـتند إلى عقيدة راسـخة، وليس مجرّد حركـة منفعلة وخطوة تدعو إليها الضرورة والاضطرار. إن مشـاهدة الثقافة المناهضة للمرأة في عصر ظهور الإسـلام ـ والتي تتجلّى في بعض الأحيان في ردود الأفعال السـلبية لبعض الصحابة في مواجهة الخطوات الإصلاحية لرسول الله صلى الله عليه وآله ـ تشير إلى حجم المشـاكل التي كان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يواجهها في عملية إصلاح الأفكار، ومدى الطمأنينة التي كان يتحلّى بها في هذا الشـأن. لقـد قام النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بعدّة أمور في إطار تغيير هذه الأفكار الخاطئة:

---

١. ديورانت، تاريخ تمدن، ج ١، ص ٢٠١.

٢. السبحاني، فروغ ابديت، ج ١، ص ٥٠.

٣. النحل: ٥٧؛ النجم: ٢١ ـ ٢٧؛ وانظر أيضًا: ديورانت، تاريخ تمدن، ج ١، ص ٢٠٦.

المساواة بين الرجل والمرأة في الإنسانية

إن القول بالتساوي بين الرجل والمرأة في الإنسانية، وفي بلوغ قمم الكمال المعنوي، يُعدّ من أصول رؤية الإسلام التي ورد التأكيد عليها والاهتمام بها في القرآن الكريم،[١] وفي سنّة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وروايات أهل البيت عليهم السلام. بالنظر إلى البيئة الثقافية الحاكمة على شبه الجزيرة العربية، نجد أن إبلاغ آيات القرآن الكريم بواسطة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لا يتمّ التفريق فيها بين الرجل والمرأة، فهي تعدهما بالجنة، ويفرض عليهما مسؤولية واحدة في إصلاح المجتمع الإسلامي في إطار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة،[٢] والإيمان بولاية الله ورسوله صلى الله عليه وآله، وقد وعدهما الأجر العظيم والمغفرة على الإيمان والتسليم والصدق والصبر والخشوع والصوم ورعاية العفاف،[٣] ويُشدّد العقوبة على إيذاء المؤمنات والافتراء عليهن،[٤] ويطلب من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات،[٥] ويقبل منهم التوبة،[٦] ويطلب منهم البيعة،[٧] وهذا كله يؤكد على نظرة الإسلام الإيجابية تجاه شخصية المرأة، والتحوّل الذي أوجده النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في القيام بتلك المسؤولية.

إن رسم صورة المؤمنات في يوم القيامة على شكل نور لأعمالهن يسعى بين أيديهن،[٨] والتعريف بالسيدة آسية زوجة فرعون، ومريم بنت عمران بوصفها مثلًا للمؤمنين والمؤمنات،[٩]

١. النحل: ٩٧؛ النساء: ١٢٤؛ غافر: ٤٠؛ آل عمران: ١٩٥.
٢. التوبة: ٧١ ـ ٧٢.
٣. الأحزاب: ٣٤.
٤. النور: ٢٣؛ الأحزاب: ٥٨.
٥. محمد: ١٩.
٦. الأحزاب: ٧٣.
٧. الممتحنة: ١٢.
٨. الحديد: ١٢.
٩. الهندي، كنز العمال، ح: ٤٥٣١. يمكن العثور على احاديث متعددة بهذا المضمون في مصادر أهل السنة. يضاف إلى ذلك أن هناك الكثير من الآيات القرآنية التي تدل على المساواة بين المرأة والرجل في الجوهر الوجودي والقيمة الذاتية.

يثبت أن المرأة في الثقافة النبوية تستطيع بسلوكها الطاهر أن تكون منارة يستضيء بها الرجال المؤمنون.

التشجيع والحث على تنشئة الفتيات وتوفير الحماية لهن

إن ثقافة الجاهلية حيث ترى البنت جديرة بالاحتقار لأنها تمثّل عبءًا على أبيها وأهله، ولا تنفع لغير توفير المتعة الجنسية لأبناء الآخرين، ويرون الأنثى أدنى من الذكر، عمد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ـ من خلال ترسيخ مفهوم رازقية الله سبحانه وتعالى ـ إلى تخفيف الشعور بثقل المحافظة عليهن من على كواهلهم، وفي إطار عبارات من قبيل: أفضل الناس من أراد الخير للنساء، وما أهانهن إلا لئيم، وما أكرمهن إلا كريم، وجعل الجنة أجر الدفاع عنهن. ومن هنا فإنه يشحذ همم الرجال من أجل إكرام النساء والفتيات، ومن هنا فقد ورد في المأثور عنه صلى الله عليه وآله، أنه قال: «لا تكرهوا البنات، فإنهن المونسات الغاليات».[١] والحديث القائل: «نعم الولد البنات، ملطفات مجهزات مؤنسات مباركات مفليات».[٢] وقوله: «[البنت] ريحانة أشمها ورزقها على الله عزّ وجل».[٣] وقوله: «من ابتلى بشيء من هذه البنات فأحسن إليهن، كنّ له سترًا من النار».[٤] وقوله: «خيركم خيركم لنسائه وبناته».[٥] وجاء في المأثور أيضًا: أتى رجل وهو عند النبي صلى الله عليه وآله، فأخبر بمولود أصابه؛ فتغير وجهه! فقال له النبي صلى الله عليه وآله: «ما لك؟! .. الأرض تقلها والسماء تظلها، والله يرزقها وهي ريحانة تشمها».[٦] وفي المأثور أيضًا: «إن الله تبارك وتعالى على الإناث أرقّ منه على الذكور، وما من رجل يدخل فرحة على امرأة بينه وبينها حرمة إلا فرّحه الله يوم القيامة».[٧]

---

١. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٥٦٤، ح: ٢٤٨١.
٢. الحر العاملي، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج ٢١، ص ٣٦٢، ح: ٢٧٣٠٦.
٣. م.ن، ج ٢١، ص ٣٦٥، ح: ٢٧٣١٤.
٤. النوري، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ج ١٥، ص ١١٨، ح: ١٧٧١٨.
٥. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٤٧٢، ح: ١٥٢٢.
٦. الكليني، الكافي، ج ٦، ص ٤، ح: ٦.
٧. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٣٦٧، ح: ٢٧٣١٩.

مواجهة ظاهرة وأد البنات والأمر بإكرام النساء والفتيات

إن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قد واكب القرآن الكريم في شجب هذا التقليد الجاهلي. عندما صوّر قيس بن عاصم في حضور النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حادثة وأده لبنته حية، اغرورقت عينا رسول الله بالدموع، وقال: «إن هذه لقسوة، وإن من لا يَرحم لا يُرحم».[١] وقال في موضع آخر [ما معناه]: «من كانت له بنت، ولم يدفنها حية، ولم يذلها، ولم يفضل ولدًا ذكرًا عليها؛ أدخله الله الجنة».[٢] ومن ناحية أخرى، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله قد أمر بالإحسان إلى النساء وإلى الفتيات بحيث لا يبقى مجال لتوهم تهميشهن أو القول بأنهن أدنى من الذكور:

- «خياركم خياركم لنسائه».[٣]
- «ما أكرم النساء إلا كريم، ولا أهانهنّ إلا لئيم».[٤]
- «ساووا بين أولادكم في العطية، فلو كنت مفضلًا أحدًا لفضلت النساء».[٥]
- «أخبرني أخي جبرئيل، ولم يزل يوصيني بالنساء حتى ظننت أن لا يحل لزوجها أن يقول لها: أف».[٦]

نسبة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله نفسه إلى النساء

لقد عمد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في معرض التعريف بشخصه إلى نسبة نفسه إلى النساء، فقال: «أنا .. ابن العواتك .. [أنا] ابن الفواطم».[٧] ومراده من ذلك أن في سلسلة أمهاته من النساء من يحملن اسم عاتكة وفاطمة. وإن تأكيد النبي على ذكر أسماء النساء في إطار التعريف بأفضل شخصيات العالم، يثبت مكانة المرأة ومنزلتها المتقدّمة في الإسلام.

---

١. السبحاني، فروغ ابديت، ج ١، ص ٤٨.
٢. شهيدي، زندگاني فاطمة زهراء عليها السلام، ص ١١٨.
٣. المجلسي، بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٣٨٩، ح: ٤٧.
٤. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٤٧٢، ح: ١٥٢٠.
٥. م.ن، ص ٥١٩، ح: ١٧٢٨.
٦. النوري، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ج ١٤، ص ٢٥٢، ح: ١٦٦٢٧.
٧. المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٦، ص ١٠٣، ح: ٤٠.

الاهتمام بالشخصيات الفذّة

إن الوصف الوارد في كلام النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في بيان منزلة سيدة النساء فاطمة الزهراء عليها السلام والسيدة خديجة الكبرى عليها السلام، يثبت بوضوح أن المرأة يمكنها أن تصل إلى أعلى مراتب الانقطاع إلى الله، وأن تخرق الحجب الظلمانية والنورانية وتصل إلى معدن العظمة الإلهية. إن اختيار السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام للمباهلة[١] ـ مع وجود من يدّعي الفضل والسابقة ـ وتعيينها بوصفها عنصرًا محوريًا بين أصحاب الكساء ـ الذين أنزل الله في شأنهم آية التطهير[٢] ـ يثبت منزلة المرأة في السيرة النبوية. والأهم من ذلك أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يقول في بيان شأن فاطمة الزهراء عليها السلام وسائر أصحاب الكساء عليهم السلام: «أنا حرب لمن حاربكم، وسلم لمن سالمكم».[٣]

كما كان للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله اهتمام خاص بالسيدة خديجة الكبرى عليها السلام أيضًا، فكان لا يفتأ يذكرها على الدوام حتى بعد وفاتها؛ إلى الحد الذي أثار حفيظة عائشة، فقال في الردّ عليها: «... لقد آمنت بي إذ كفر الناس .. وواستني في مالها إذ حرمني الناس».[٤]

بيعة النساء

لقد أخذ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله البيعة من النساء أكثر من مرّة: في بيعة العقبة التي تمّت قبل الهجرة، حيث كان هناك حضور لثلاث نساء بين سبعين شخصًا من الذين جاؤوا من المدينة لمبايعة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وأثناء فتح مكة أمر الله النبي صلى الله عليه وآله أن يأخذ البعة من النساء رسميًا.

---

١. آل عمران: ٦١.

٢. الأحزاب: ٣٣. لقد تمّ رسم مكانة السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام في حديث الكساء بوضوح (للمزيد من الاطلاع، انظر: مفاتيح الجنان).

٣. الهندي، كنز العمال، ج ١٢، ص ٩٧، ح: ٣٤١٦٤. كما ورد التأكيد على شخصية فاطمة الزهراء عليها السلام في كلمات الأئمة الأطهار عليهم السلام أيضًا. من ذلك ما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام، أنه قال: «لقد كانت [فاطمة] عليها السلام مفروضة الطاعة على جميع من خلق الله من الجن والإنس والطير والوحش والأنبياء والملائكة». (انظر: البحراني، عوالم العلوم والمعارف، ج ١١، ص ١٩٠)، وقد ورد عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام، أنه قال: «نحن حجج الله على خلقه، وأمّنا فاطمة حجّة الله علينا». (انظر: الطيب، تفسير أطيب البيان، ج ١٣، ص ١٣٥).

٤. الحسّون، وأم علي مشكور، أعلام النساء المؤمنات، ص ٣٢١ ـ ٣٢٤.

ومــن الجدير ذكره أنه على الرغم من أن البيعة تعنــي التعهد والالتزام بالتعاون وبذل الطاعة للحاكم الإســلامي ـ مما له في الأصل ماهية سياســية ـ إلا أن بيعة النســاء كانت تنطوي في الغالب على أبعاد أخلاقية وأسرية. حيث كانت تشتمل في أهمّ بنودها على وظائف اجتماعية تخصّ النســاء، ومن أبرزها حفظ العفاف وتعزيز أواصر الأسرة. وفي هذه البيعة أخذ العهد من النســاء على أن لا يُشــركن بالله، وأن لا يسرقن، ولا يقاربن الزنا، وأن لا ينسبن أولادهن إلى غير آبائهم، وأن لا يخالفن رسول الله صلى الله عليه وآله في أفعال الخير والبر.[١]

توجد هنــا نقطتان تثيران الاهتمام، وهمــا أولًا: إن المجتمع الذي يُنظــر فيه إلى المرأة بوصفها بضاعة للاســتمتاع والتداول، يُعدّ الحديث عن بيعة النساء ثورة ثقافية. وثانيًا: يبدو أن نموذج مشاركة النساء في إصلاح المجتمع من وجهة نظر الإسلام، يمثل نموذجًا جنوسيًا بمحورية العفاف وحفظ كيان الأسرة.

إعداد النساء النموذجيات

إن خير شــاهد على جدوائية برنامج ما في أيّ مذهب أو دين، عبارة عن بحث ودراســة الأبعاد الشــخصية للذيــن تربّوا على تعاليم ذلك المذهب والديــن. إن الالتفات إلى الأبعاد الشخصية للنساء اللاتي تربين في كنف المدرسة التربوية للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وحظين بتأييده، لا ســيّما إذا لم ينحصر وجود هذه الشخصيات بشخص واحد فقط، يثبت رؤية الإسلام إلى شخصية المرأة. عندما تنبري السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام ـ وهي صغيرة أو وهي يافعة ـ للدفاع عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في مواجهة المشركين، وتدعم المقاتلين من خلال تواجدها في ميادين القتال، وعندما تنهض الســيدة فاطمة عليها السلام وحدها ـ بســبب جفــاف المعين الثوري ـ وتعمل على فضح المؤامرات، ومن خلال أنجع وســائل المواجهة السياســية المتمثلة بوصيتها في أن تدفن ســرّا وفي جنح الليل؛ ليبقى ملف ظلامة أهل البيــت عليهم السلام مفتوحًا إلى الأبد وحتى نهاية التاريخ، وعندما تعتبر السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام قيمة الاهتمام بحفظ المعارف والعلوم

١. الممتحنة: ١٢. وانظر أيضًا: السبحاني، فروغ ابديت، ج ٢، ص ٣٤٥.

الوحيانية مساوية لنفس ولديها الأثيرين على قلبها، وعندما تصبح السيدة خديجة الكبرى عليها السلام من المؤيدين للدين الجديد، وتنفق كل ثروتها وبضاعتها الاقتصادية في هذا الطريق، وعندما تقوم السيدة زينب الكبرى عليها السلام بتوظيف جميع علومها التي أخذتها من المدرسة النبوية في مواجهة تاريخية بشجاعة يُضرب بها المثل لفضح قصور الظلم والفجور، يتمّ رسم الحضور الاجتماعي والثقافي والسياسي للمرأة في صفحة التاريخ بحيث يمكن لها أن تكون شعلة ومنارة تضيء الطريق أمام جميع النساء المسلمات إلى آخر الزمان.

إن ظهور المئات من النساء المحدّثات والفقيهات والعارفات والمتكلمات والمعلمات في جميع القرون، من اللائي حصلن على هامش قليل للظهور بسبب هيمنة الثقافات الخاطئة، يثبت أنه يمكن ـ من خلال إصلاح الثقافات على أساس السيرة النبوية ـ عقد الآمال على إعداد النساء اللاتي يذهبن إلى أبعد من دائرتهن الزمانية والمكانية، ويفكرن بالتحولات التاريخية. إن تحوّل شخصية المرأة في ضوء السيرة النبوية ليس بالمسألة التي يمكن أن تخفى على أنظار المحققين والباحثين من المسلمين وغير المسلمين؛ فقد ذكر ويل ديورانت في هذا الشأن: «... لقد ساوى [النبي محمد صلى الله عليه وآله] بين المرأة والرجل من حيث التشريفات القضائية، والاستقلال المالي؛ فأعطى الحق للمرأة في الاشتغال بجميع الأعمال القانونية، وأن تحتفظ بمالها لنفسها، وأن ترث، وأن تتصرّف في أموالها كما تشاء؛[1] وقد أبطل هذه العادة الجاهلية التي كانت تقضي بضم النساء إلى التركة التي يرثها الأبناء بعد موت آبائهم؛ وجعل سهم المرأة في الإرث نصف إرث الرجل، ومنع من تزويج المرأة دون رضاها ... . واحترم النساء على الدوام، وأبدى تعاطفًا خاصًا معهن ومع جميع النساء المسلمات».[2]

---

١. النساء: ٣٤.

٢. ديورانت، تاريخ تمدن، ج ١، ص ٢٣١ ـ ٢٣٤.

٢. رسم هوية المرأة

إن إعـادة قـراءة القـرآن الكريم والسـنة النبوية، تعمـل على إيضاح ضـرورة الاهتمام بالاختلافات التكوينية بين المرأة والرجل، والاختلاف في المسـؤوليات والأدوار ـ لا سيّما في الأوضاع الراهنة والمستحدثة حيث يترك تحديث الأدوار الجنسية آثارًا عميقة في الحياة الفردية والأسرية والاجتماعية للشخص المسلم ـ أكثر من أيّ وقت مضى.

لا شـك في أن الإسلام في ضوء دعمه وحمايته للمنزلة والشخصية الإنسانية للمرأة، لم يقل بوجود تشابه بين المرأة والرجل من حيث الاستعدادات الطبيعية وفي ما يتعلق بالاضطلاع بالمسـؤوليات والأدوار والحقوق. لقد أقام التدبير الإلهي الحكيم مدارين مختلفين لنشاط هذين الجنسين والظرفيات الوجودية لكل واحد منهما بما يتناسب مع المهام المتوقعة منهما، وأقام بين التكوين والتشريع تناغمًا كاملًا. وقد اتخذ ـ في إطار الاستفادة القصوى من الرجل والمرأة في الاضطلاع بالأدوار الجنسية ـ بعض السياسات الخاصة، نذكر منها ما يلي:

بيان الأدوار الجنسية وأهميتها

إن الأدوار الجنسـية الأهم التي تمّ تصويرها للمرأة عبارة عن الزوجية والأمومة، وليس هناك أيّ نشاط نسوي يرقى في أهميته إلى أهمية هذين الدورين الخطيرين؛ كما أن الاضطلاع بـدور إدارة المجتمع والأسـرة وإحلال الأمن الاجتماعي يُعد مـن جملة الأدوار التي تلقى على عاتق الرجال. ويبدو من تقسـيم الأدوار أن المنظور الأصلي للمرأة هو الاهتمام بالبيت والأسـرة. وإن طلب الإمام علي عليه السلام والسـيدة الزهراء عليها السلام من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فيما يتعلق بتقسيم النشاطات، وتكفّل السيدة فاطمة عليها السلام بأعمال البيت، وتولي الإمام علي عليه السلام مسؤولياته خارج البيت،[1] يشـير إلى الفصل الجنسـي بينهما في حقل المهام والأدوار. ولم يتمّ التأكيد من بين الأدوار النسـوية الخاصة، كما تمّ التأكيد على دور الزوجية. إن الاضطلاع الصحيح بهذا الـدور بعد الزواج واجب وضروري؛ كما أنه يُعد في أهميتـه وقيمته بمنزلة الجهاد في سـبيل الله سبحانه وتعالى. وفي هذا الشأن عدّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومون عليهم السلام

١. الحر العاملي، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج ٢٠، ص ١٧٢، ح: ٢٥٣٤١.

حُسن التبعّل والصبر على مشاكل الحياة الزوجية بالنسبة إلى المرأة جهادًا يضاهي بذل المال والأرواح بالنسبة إلى الرجل في جهاده.[١] وقد تمّ التعريف بالمرأة الصالحة ـ في سياق تعداد شمائلها ـ بوصفها من أفضل النعم التي يحصل عليها الرجل المسلم. وإن الكلمات المأثورة عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في هذا الشأن، تثبت هذا الموضوع، ومن ذلك قوله:

ـ «جهاد المرأة، حُسن التبعّل».[٢]

ـ «مهنة إحداكن في بيتها تدرك جهاد المجاهدين إن شاء الله».[٣]

ـ «ما استفاد امرؤ مسلم فائدة بعد الإسلام أفضل من زوجة مسلمة تسرّه إذا نظر إليها، وتطيعه إذا أمرها، وتحفظه إذا غاب عنها في نفسها وماله».[٤]

ـ «جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: إن لي زوجة إذا دخلت تلقتني، وإذا خرجت شيعتني، وإذا رأتني مهمومًا، قالت لي: ما يهمّك، إن كنت تهتم لرزقك فقد تكفل لك به غيرك، وإن كنت تهتم بأمر آخرتك فزادك الله همًا. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن لله عمّالًا، وهذه من عمّاله، لها نصف أجر الشهيد».[٥]

والدور النسوي السامي الآخر هو الأمومة، وهو وإن لم يكن واجبًا على المرأة، ولكنه من أفضل خياراتها. إن التعاليم الإسلامية رصدت لأعمال الأمومة منذ انعقاد النطفة إلى لحظة الولادة والحضانة والرضاع من الأجر ما لا يُعدّ ولا يُحصى؛ فقد روي في الأثر عن رسول الله صلى الله عليه وآله، أنه قال:

ـ «الجنة تحت أقدام الأمّهات».[٦]

ـ «إذا حملت المرأة كانت بمنزلة الصائم القائم المجاهد بنفسه وماله في سبيل الله، فإذا

---

١. المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٧، ص ١٦٦، ح: ١٩١.

٢. الكليني، الكافي، ج ٥، ص ٥٠٧.

٣. پاينده، نهج الفصاحة، ح: ٢٨٩٢؛ الفتال النيسابوري، روضة الواعظين، ج ٢، ص ٣٧٦.

٤. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ٤٠، ح: ٢٤٩٧٩.

٥. م.ن، ج ٢٠، ص ٣٢، ح: ٢٤٩٥٤.

٦. النوري، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ج ١٥، ص ١٨٠، ح: ١٧٩٣٣.

وضعــت كان لها من الأجر ما لا يدري أحــد ما هو لعظمه، فإذا أرضعت كان لها بكل مصّة كعدل عتق محرر من ولد اســماعيل، فــإذا فرغت من رضاعه ضرب ملك كريم على جنبها وقال: استأنفي العمل فقد غفر لك».[١]

وفي المقابل فقد تمّ رصد أدوار ومهام خاصّة للرجال، وقد وردت الكثير من الخطابات في حثّ الرجال على الاضطلاع بهذه الأدوار، ومن بينها الجهاد في سبيل الله سبحانه وتعالى.

الأمر بحُسن أداء العمل

بما يتناســب وأهميــة كل دور وحجم تأثيره في بنــاء الفرد والأســرة والمجتمع، تزداد الحساســية تجاه كيفية القيام بذلك الدور أيضًا. ومن هنا يمكن الوقوف على حساسية الدين في مجال الاضطلاع بــالأدوار الرجالية في إطارة إدارة المجتمع والأســرة، ومهام الزوجية والأمومة بالنسبة إلى النساء.

لقد تعرّضت المفاهيم الدينية إلى رســم مسؤوليات الرجل والمرأة تارة في إطار وصف خصائص الرجال والنساء من الذين يضطلعون بأدوارهم على نحو جيّد أو سيء، وتارة أخرى في إطار الأوامر والتوجيهات المباشــرة، من أجل الأداء الأفضل لهذه الأدوار وتوزيعها بين هذين الصنفين. كما يمكن فهم مسؤولية ربّ الأسرة وكيفية الاضطلاع الصحيح بهذا الدور؛ فقد ورد في الحديث المأثور عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

«حق المرأة على الزوج أن يطعمها إذا طعم، ويكســوها إذ اكتســى، ولا يضرب الوجه، ولا يقبّح ولا يهجر إلا في البيت».[٢]

ـ «خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم».[٣]

ـ «الخلق كلهم عيال الله ، فأحبهم إلى الله عزّ وجلّ أنفعهم لعياله».[٤]

---

١. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٤٥١، ح: ٢٧٥٥٧.

٢. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٤٤٦، ح: ١٣٩٠؛ وانظر أيضًا: الطوسي، تهذيب الأحكام، ج ٧، ص ٤٥٧، ح: ٣٨.

٣. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٤٧٢، ح: ١٥١٩، ١٣٧٦ هـ ش.

٤. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ٣٤٤، ح: ٢١٧٢٠.

ـ «صلّوا على أطفالكم فإنهم من أفراطكم».[١] «برّوا آبائكم يبركم أبناؤكم، وعفّوا عن نساء الناس تعف نساؤكم».[٢]

ـ «لئن يؤدّب أحدكم ولده خير له من أن يتصدق بنصف صاع كل يوم».[٣]

ـ «ما أطعمت زوجتك فهو لك صدقة، وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة».[٤]

ـ «من فقه الرجل أن يصلح معيشته، وليس من حبّ الدنيا طلب ما يُصلحك».[٥]

ـ «حق الولد على والده أن يحسن إسمه وأدبه، ويضعه موضعًا صالحًا».[٦]

ـ «من حق الولد على الوالد أن يعلمه كتاب الله والرمى والسباحة .. وأن يطعمه من الرزق الحلال، وأن يزوّجه إذا بلغ».[٧]

وهناك الكثير من الروايات المأثورة عن النبي الأكرم ﷺ، والناظرة إلى مسؤولية المرأة فيما يتعلق بشؤون الزوجية والأمومة، نذكر منها:

ـ «إن خير نسائكم الولود الودود العفيفة العزيزة في أهلها، الذليلة مع بعلها، المتبرجة مع زوجها الحصان على غيره، التي تسمع قوله وتطيع أمره، وإذا خلابها بذلت له ما يريد منها، ولم تبذل كتبذل الرجل».[٨]

ـ «خير نسائكم الطيبة الريح، الطيبة الطبيخ، التي إذا أنفقت أنفقت بمعروف، وإن أمسكت أمسكت بمعروف، فتلك عامل من عمّال الله، وعامل الله لا يخيب ولا يندم».[٩]

---

١. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٥٤٥، ح: ١٨٤٥.

٢. الكليني، الكافي، ج ٥، ص ٥٥٤، ح: ٥.

٣. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٤٧٦، ح: ٢٧٦٢٨.

٤. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٦٩٥، ح: ٢٦١٧، ص ٧٨٧، ح: ٣١٣٧.

٥. م.ن، ص ٧٧٣، ح: ٣٠٤٧.

٦. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٣٨٩، ح: ٢٧٣٧٧.

٧. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٥٤٥، ح: ١٣٩٣.

٨. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ٢٨، ح: ٢٤٩٤٢؛ پاينده، نهج الفصاحة، ص ٤٧٧، ح: ١٥٤٣.

٩. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ٣٠، ح: ٢٤٩٤٢.

ـ «ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله عزّ وجل خيرًا له من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرّته، وإن أقسم عليها أبرّته، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله».[١]

وسئل رسول الله عن المسوفات من النساء، فقال:

ـ «المرأة التي يدعوها زوجها لبعض الحاجة، فلا تزال تسوّفه حتى ينعس زوجها وينام، فتلك لاتزال الملائكة تلعنها حتى يستيقظ زوجها».[٢]

«إن خير نسائكم الولود الودود العفيفة، العزيزة في أهلها، الذليلة مع بعلها، المتبرجة مع زوجها ... ألا أخبركم بشرار نسائكم؟ الذليلة في أهلها العزيزة مع بعلها، العقيم الحقود التي لا تتورع من قبيح، المتبرجة إذا غاب عنها بعلها، الحصان معه إذا حضر».[٣]

ـ «قلب شاكر، ولسان ذاكر، وزوجة صالحة تعينك على أمر دنياك ودينك خير ما اكتنز الناس».[٤]

الدفاع عن الأدوار والمهمات

في ضوء ما نجده في الثقافة الإسلامية والسيرة النبوية، يمكن إعادة النظر من زاوية نقدية إلى سياسة منظومة التخطيط في الدولة على مدى ثلاثين سنة، وذلك من أجل تصحيح هذا الأداء في المستقبل. إن إثارة الأسئلة النقدية لا تأتي لغرض توجيه التهم إلى الأشخاص والمؤسسات بالغفلة أو قلة العمل أو الانحراف، وإنما الهدف من ذلك هو الاهتمام بالأمور التي يمكن لها أن تشكل في المستقبل حاضنة للتحوّل في إطار التخطيط.

١. ما الذي تمّ فعله على مستوى التثقيف في إطار بيان الأدوار الجنسية والمسؤوليات الخاصة لكل واحد من الجنسين وحثّهما وتشجيعهما على أداء الأدوار الملقات على عاتقه؟

---

١. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٦٩٥، ح: ٢٦١٥؛ الكليني، الكافي، ج ٥، ص ٣٢٧، ح: ٥.

٢. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٦٢٨، ح: ٢٢٣٧؛ الكليني، الكافي، ج ٥، ص ٥٠٨، ح: ٢.

٣. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٤٧٥، ح: ١٥٣٥؛ الكليني، الكافي، ج ٥، ص ٣٢٤، ح: ١. وانظر أيضًا: الصدوق، من لايحضره الفقيه، ج ٣، ص ٣٩١، ح: ٤٣٧٦.

٤. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٦٠٠، ح: ٢٠٩٤.

٢. ما هـي البرامج المتبعة (ومن بينها تطوير المهارات) من أجل العمل على تحسـين القيام بالأدوار الجنسية؟

٣. ما هي سياسة دعم الأدوار الجنسية، وكيف يتمّ توظيف الخطط التنموية والسياسات والخطط العامة والقوانين المصادق عليها ـ ومن بينها قوانين العمل ـ في خدمة تقوية وجدوائية الأدوار الجنسية؟

٤. كيف يتمّ توجيه مطالب النسـاء في إطار تقوية الأدوار الجنسية والجدوائية الخاصة بهن في الأسرة والمجتمع؟

٥. ما هي الخطط المتوفرة لدينا من أجل اسـتمرار وتطوير الأدوار الجنسية؟ من ذلك على سـبيل المثال كيف يتم تعريف ودعم وتوجيه الأمومة في عصر العولمة وعصر الاتصالات بما يتناسـب مع الظروف والشرائط الجديدة؛ كي تتمكن من الاضطلاع بدورها في إعداد الجيل الطليعي والنافع والمقاوم والأصيل؟

حيـث يتعـرّف كل مذهب ودين علـى أدوار بمثل هـذه الأهمية، ويذهـب التوقع إلى الاضطـلاع بتلك الأدوار بشـكل جيد، يجب لا محالـة أن يتمّ التمهيـد لحماية ودعم تلك الأدوار، سـواء في إطار الأسـاليب التربوية من أجل تطوير وإعداد الأشخاص الذين يُنتظر منهم الاضطلاع بهذه الأدوار، سواء في إطار المفاهيم الأخلاقية والأساليب التربوية من أجل حماية الآخرين لهم، أو في إطار تنظيم الآليات الحقوقية. وقد تمّ الاهتمام بهذا الأمر المهم في موضوع الأدوار الجنسـية وفي التعاليم الدينية بشكل جيد. ومن بينها الآيات والروايات تأمر باحترام الوالدين والتواضع لهما وحسـن التعامل معهمـا،[١] والتي تعمل على بيان حق الوالديـن على الولد،[٢] والتي تعلق رضا الله برضا الوالدين،[٣] وتعدّ عقوق الوالدين من كبائر

١. البقـرة: ٨٣، ١٨٠، ٢١٥؛ النسـاء: ٣٦؛ الأنعام: ١٥١؛ الإسـراء: ٢٣؛ لقمان: ١٤؛ النوري، مسـتدرك الوسـائل ومستنبط المسائل، ج ١٥، ص ٢٠٤، ح: ١٨٠١٨؛ الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٤٤٨، ح: ٢٧٦٦٥.

٢. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٤٦٨، ح: ٢٧٦٠٧، وص ٤٩١، ح: ٢٧٦٧٢؛ وص ٤٩٢، ح: ٢٧٦٧٣، وص ٥٠٥، ح: ٢٧٧٠٨.

٣. النوري، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ج ١٥، ص ١٧٤، ح: ١٧٩٠٨.

الذنوب،[١] وترى المعاشـرة بالمعروف في العلاقات الأسـرية من وظائف الزوج.[٢] وعلاوة علـى ذلك تتمّ دعوة الأشـخاص أحيانًا إلى الاضطلاع بحُسـن أداء الدور من خلال إضفاء صبغة إلهية إلى الدعم الاقتصادي والمعنوي للأسـرة،[٣] أو بيـان عقوبة الظلم والإهمال في حق الأسـرة،[٤] وتارة أخرى يُراد من الأشـخاص أن يقبلوا بقرارات الطرف المقابل في دائرة الاضطلاع بالمسـؤوليات.[٥] من ذلك ـ على سـبيل المثال ـ أن أهمية دور الأمومة الذي هو عبارة عن مزيج من الحضانة ونقل القيَم الأخلاقية وآداب الحياة إلى الأجيال القادمة والتنمية العاطفية والشخصية لهم، يحتاج إلى سيادة الطمأنينة من الناحية الاقتصادية وتكريم الأمومة وإشباع عاطفة الأم التي تضطلع بمسؤولية التنمية العاطفية للولد. وهنا بالإضافة إلى تحشيد الأدوات الحقوقية من أجل توفير الحماية الاقتصادية للأمومة، فقد أسهمت التعاليم الأخلاقية بدورهـا لتعريف الأم بأهمية موقعها، وتحويل الأمومة إلى مركز الاهتمام بها وتقديم الدعم لهـا أيضًا. إن كلمات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله تعمل بوضوح على التعريف بالوالدين ـ ولا سـيّما الأم ـ بوصفهما مركز الحماية وأنواع الدعم العاطفي، ومن الحديث القائل:

ـ «إن رسول الله صلى الله عليه وآله أتته أخت له من الرضاعة فلما نظر إليها سُرّ بها وبسط ملحفته لها فأجلسها عليها، ثم أقبل يحدثها ويضحك في وجهها، ثم قامت فذهبت، وجاء أخوها فلم يصنع به ما صنع بها، فقيل له: يا رسـول الله، صنعت بأخته ما لم تصنع به. فقال: لأنها كانت أبرّ بوالديها منه».[٦]

---

١. م.ن، ح: ٨١١٩؛ پاينده، نهج الفصاحة، ص ٦٩٧، ح: ٢٦٢٧.

٢. النساء: ١٩.

٣. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٤٢٧، ح: ١٢٩٦.

٤. م.ن، ص ٦٦٤، ح: ٢٤١٧؛ الكليني، الكافي، ج ٥، ص ٦٧؛ الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٤٦٧، ح: ٢٧٦٠١، وص ٥٤٢، ح: ٢٧٨١٤.

٥. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ١٥٧، ح: ٢٥٣٠٠؛ پاينده، نهج الفصاحة، ص ٣٣١، ح: ٨٨١، ١٣٧٦ هـ ش.

٦. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٤٨٨، ح: ٢٧٦٦٥.

ـ «سأل رجل رسول الله ﷺ ما حق الوالد على ولده؟ قال: لا يسميه باسمه، ولا يمشي بين يديه، ولا يجلس قبله، ولا يستسبّ له».[١]

ـ «إياكم وعقوق الوالدين؛ فإن ريح الجنة يوجد من مسيرة ألف عام ولا يجدها عاق ولا قاطع».[٢]

ـ «جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، من أبرّ؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أباك».[٣]

ـ «جاء إلى النبي ﷺ رجل فقال له: إني ولدت بنتًا وربيتها حتى إذا بلغت فألبستها وحليتها ثم جئت بها إلى قليب فدفعتها إلى جوفه، فكان آخر ما سمعت منها وهي تقول: يا أبتاه، فما كفارة ذلك؟ قال: ألك أم حية؟ قال: لا، قال: فلك خالة حية؟ قال: نعم، فقال: فأبررها فإنها بمنزلة الأم يكفّر عنك ما صنعت».[٤]

ـ «ما من رجل ينظر إلى والديه نظر رحمة، إلا كتب الله له بكل نظرة حجة مبرورة».[٥]

وجاء في الأثر:

ـ «ملعون من سبّ أباه، ملعون من سبّ أمّه».[٦]

ومن ناحية أخرى فإن أهمية دور الزوجية وحاجة المرأة إلى الحصول على السكينة النفسية والطمأنينة والإدارة والدعم الاقتصادي، قد أدّت إلى أخذ شكل حقوقي وآلية داعمة للدفاع عنها في إطار الأحكام الأخلاقية. وفي هذا الشأن بالإضافة إلى الآيات القرآنية ـ التي تبيّن أسلوب التعامل مع الزوجة في إطار عبارات من قبيل قوله تعالى: ﴿ **عَاشِرُوهُنَّ**

---

١. م.ن، ج ٢١، ص ٥٠٥، ح: ٢٧٧٠٥.

٢. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٥٠١، ح: ٢٧٦٩٧؛ پاينده، نهج الفصاحة، ص ٥٠٣، ح: ١٦٦٥.

٣. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٤٩١، ح: ٢٧٦٧٠، وص ٤٩٢، ح: ٢٧٦٧٢، وص ٤٩٢، ح: ٢٧٦٩١.

٤. م.ن، ج ٢١، ص ٤٩٩، ح: ٢٧٦٩١.

٥. النوري، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ج ١٥، ص ٢٠٤، ح: ١٨٠١٨.

٦. إبن أبي فراس، مجموعة ورام، ج ١، ح: ١١١؛ پاينده، نهج الفصاحة، ص ٧٢١، ح: ٢٧٤٤.

﴿بِالْمَعْـرُوفِ﴾[١] ـ نجد أن كلمات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قد تعرّضت إلى بيان مفاهيم الدعم وتوفير الحماية بشكل عام وخاص. وقد قامت سياسة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله هنا أيضًا على إضفاء صبغة إلهيـة لأنواع الدعم، وذلك من أجل الربط بين الحياة الأرضية والمسـار المعنوي التكاملي للإنسـان أيضًا، ويقوم في الوقت نفسـه على تشجيع ربّ الأسرة وحثّه نحو توفير المزيد من الدعم للزوجة، ومن ذلك قول النبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

ـ «إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها حتى ما تجعل في فيّ امرأتك».[٢]

ـ «ليس منّا من وسّع الله عليه، ثم قتّر على عياله».[٣]

وعن النبي أنه سـئل عن شخص أنفق ماله قبل موته، ولم يترك منه شيئًا لأولاده الصغار، فقال:

ـ «لـو أعلمتمونـي أمره ما تركتكم تدفنوه مع المسـلمين؛ يترك صبيـة صغارًا يتكففون الناس».[٤]

ـ «ملعون ملعون من ضيع من يعول».[٥]

ـ «أوصاني جبرئيل عليه السلام بالمرأة حتى ظننت أنه لا ينبغي طلاقها إلا من فاحشـه مبينة».[٦]

«من حق المرأة على زوجها أن يشبع بطنها ويكسو جثتها، وإن جهلت غفر لها».[٧]

ـ «مـن ظلم امرأة مهرها فهو عند الله زان، يقـول الله ـ عزّ وجل ـ له يوم القيامة: عبدي، زوجتك أمتي على عهدي فلم توف بعهدي، وظلمت أمتي، فيؤخذ من حسناته فيدفع

---

١. النساء: ١٩.

٢. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٤٢٧، ح: ١٢٩٦.

٣. م.ن، ص ٦٦٤، ح: ٢٤١٧.

٤. الكليني، الكافي، ج ٥، ص ٦٧.

٥. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٥٤٣، ح: ٢٧٨١٤.

٦. الكليني، الكافي، ج ٥، ص ٥١٢، ح: ٦.

٧. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٥٦٧، ح: ٢٧٧٢٠.

إليها بقدر حقها، فإذا لم تبق لم حسنة أمر به إلى النار بنكثه للعهد».[١]

حيث يتمّ الاهتمام بالأسرة بوصفها اللبنة الأولى في المجتمع، ويُعدّ الانسجام والتناغم شرطًا في جدوائيتها، فإن دور الأسرة يُعتبر أمرًا بالغ الحساسية، ويكون أفرادها ـ ولا سيّما الزوج من بينهم ـ مكلفًا بالتنسيق معها واحترام موقعها ومنزلتا. وعلى هذا الأساس فإن توفير الحماية والدعم لموقع ربّ الأسرة، إنما يصبّ في الواقع في تقوية وجدوائية الأسرة، وليس دعمًا لشخص حقيقي. فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله، أنه قال:

ـ «إن للزوج من المرأة لشعبة ما هي لشيء».[٢]

ـ «جاءت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وآله، فقالت: يا رسول الله، ما حق الزوج على المرأة؟ فقال لها: أن تطيعه، ولا تعصيه، ولا تصدق من بيته إلا بإذنه، ولا تصوم تطوعًا إلا بإذنه، ولا تمنعه نفسها وإن كانت على ظهر قتب، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه، وإن خرجت بغير إذنه لعنتها ملائكة السماء وملائكة الأرض وملائكة الغضب وملائكة الرحمة حتى ترجع إلى بيتها».[٣]

لا بدّ ومن الالتفات هنا إلى نقطتين، وهما:

أولًا: إن تعزيز الأدوار يتناسب على الدوام مع أهمية الدور وموقعه وماهيته وكيفية توقعاتنا من ذلك الدور. ومن هنا فإن دعم الأمومة، حيث يكون نشاطًا يتمحور حول العاطفة فإنه يتجلى في إطار الدعم العاطفي، وإن دعم إدارة الأسرة حيث يحتاج إلى تناغم أفراد الأسرة مع قرارات المدير وربّ الأسرة، يتمّ بيانه في إطار الأمر بالتبعية له والحفاظ على سلطته ووجوب التناغم معه.

وثانيًا: إنه على الرغم من أن أهم حقل لظهور تفكيك الأدوار عبارة عن حقل العلاقات الأسرية، لا ينبغي اعتبار هذه المسألة المهمّة بمعنى تجاهل الأدوار في حقل العلاقات

---

١. م.ن، ص ٤٦٧، ح: ٢٧٠٦١.

٢. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٣٣١، ح: ٨٨١.

٣. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ١٥٧، ح: ٢٥٣٠٠.

الاجتماعيــة. ومن هنا فقــد تعرّضت بعض المفاهيــم إلى بيان اختــلاف الأدوار في الحياة الاجتماعيــة، ومن بينها عدم وجوب الجهاد وصلاة الجمعة على النســاء وعدم اضطلاعهن بدور القيادة و القضاء.[١]

٣ . حماية الأسرة

في المفاهيم الدينية، نواجه أهمية تشــكيل وتعزيز وجدوائية الأسرة، كما نواجه الموقع والدور الخاص للمرأة في الحياة الأســرية أيضاً. فيما يتعلق بالأســرة سوف نضع الروايات والأحاديث المأثورة عن النبي الأكرم ﷺ ضمن عدّة محاور:

تشكيل الأسرة

لقــد تمّ الالتفات في هذا الشــأن إلى أهميــة الزواج وتكوين الأســرة، وكذلك تمّ رصد آليــات لدعم وتعزيز بناء الأســرة أيضًا. إن الذي يتضح من خلال دراســة هذه الكلمات هو أن التدابير المتبعة، تســعى من جهة إلى العمل على إجراء الإصلاحات الثقافية في إطار بيان أهمية الزواج، ونفي العزوبة، وتعزيز الإيمان بالدعم الإلهي ورفع مستوى الأمل بالمستقبل، والتقليل من المخاوف الاقتصادية لدى الشــباب، ومن ناحية ثانية تتمّ دعوة الأســر وأولياء الأمــور إلى إعداد الأرضية لتزويج الشــباب، والتأكيد من جهة أخرى على تســهيل ظروف الزواج، كما في الحديث القائل:

ـ «ما بُني بناء في الإسلام أحبّ إلى الله عزّ وجلّ من التزويج».[٢]

ـ «من أحب أن يلقى الله طاهرًا مطهرًا، فليلقه بزوجة».[٣]

ـ «من ترك التزويج مخافة العيلة فقد ساء ظنه بالله ـ عزّ وجلّ ـ إن الله ـ عزّ وجلّ ـ يقول:

---

١. م.ن، ص ٢١٣، ح: ٢٥٤٥٧.

٢. م.ن، ص ١٤، ح: ٢٤٩٠١.

٣. م.ن، ص ١٥، ح: ٢٤٩١٢، وص ١٩، ح: ٢٤٩١٤.

﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[١]».[٢]

ـ «اتخذوا الأهل، فإنّـه أرزق لكم».[٣] «ثلاثة حق على الله عونهم: ... والناكح الذي يريد العفاف».[٤]

ـ «مـن عمل في تزويج بين مؤمنين حتى يجمع بينهما، زوّجه الله ـ عزّ وجلّ ـ ألف امرأة من الحور العين، كل امرأة في قصر من درّ وياقوت».[٥]

ـ «إذا جاءكـم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفسـاد كبير».[٦]

ـ «خير النكاح أيسره».[٧]

ـ « أفضل نساء أمتي أقلهن مهرًا».[٨]

ولم يرد تشجيع طائفة من النساء وحثّهن على عدم الزواج إلا في مورد واحد، وحتى هذا المورد هو الآخر يعود سببه إلى أهمية الحفاظ على كيان الأسرة أيضًا؛ فقد ورد في الأثر:

«ثلاثة في ظلّ العرش يوم القيامة؛ يوم لا ظلّ إلا ظله: ... وامرأة مات زوجها وترك عليها أيتامًا صغارًا وقالت: لا أتزوّج على أيتامي حتى يموتوا أو يغنيهم الله».[٩]

---

١. النور: ٣٢.

٢. م.ن، ج ٢٠، ص ٤٢، ح: ٢٤٩٨٣، وص ٤٢، ح: ٢٤٩٨٤، وص ٤٣، ح: ٢٤٩٨٦.

٣. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ٤٣، ح: ٢٤٩٨٥.

٤. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٤٠١، ح: ١٢١٩.

٥. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ٤٦، ح: ٢٤٩٩٦.

٦. م.ن، ص ٧٦، ح: ٢٥٠٧٣.

٧. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٤٧٠، ح: ١٥٠٧.

٨. النوري، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ج ١٤، ص ١٦٢.

٩. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٤٠٢، ح: ١٢٢٠.

تعزيز أواصر الأسرة

إن همّــة الدين تنصبّ علــى توثيق وتعزيز عُــرى العلاقة الزوجيــة وأن يعمرها الحبور وتغمرها الســعادة، والحدّ حتى الإمكان من النزاع والخلاف واســتهلاك الطاقة، والحيلولة دون الطــلاق، وإن حدث الطلاق يتمّ العمل مهما أمكن على الحدّ من تداعياته الســلبية. إن تأكيد التعاليم الإسلامية على الاهتمام بحُسن الخُلُق والتديّن، ولا سيّما بالنسبة إلى الرجل، يمكن له أن يُحدث هذا الأثر المهم، وهو أن يتمّ بناء العلاقات الأسرية على أساس المدارات والصفح، وعلى أساس الخشية من الله بوصفها كابحة للقوى في الحقل الشخصي والخاص.

إن النظرة إلى سياســة الإســلام في حقل كبح العنف الأســري، ولا سيّما في الأحاديث النبوية، يثبت الرؤية الشمولية والجامعة في هذا الشأن. إن هذه الرؤية وإن كانت تسمح أحيانًا باللجوء إلى الأســاليب الردعية لمواجهة الظلم في حدود الأســرة من قبل الدولة، إلا أنها لا تعتبر ذلك حلًا أساســيًا للنزاعات الأسرية؛ وذلك لأن الاكتفاء بالطرق القانونية ـ بالنظر إلى خصوصية الأسرة، وعدم إمكان تقديم البيّنة في أغلب الموارد، والألفة الموجودة بين المرأة والرجــل، وعدّ رضا أيّ واحد منهما بإقامة الدعوى علــى الآخر، والخوف من تبعات إقامة الدعوى من قبل المرأة ـ لا يمكن أن يكون طريقًا أساسيًا للحدّ من العنف الأسري. ومن هنا فقد صبّ الإســلام كل همّه على أمر التثقيف وتعزيز الأسس الأخلاقية، والتأكيد على بعض المطالب المهمّة في هذا الشأن:

التأكيد على المداراة وحُسن الخُلُق

ـ «ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه».[١]

ـ «من ســعادة المرء حسن الخلق، ومن شــقاوته سوء الخلق».[٢] «من لم يكن له حظ من المداراة، لم يكن له نصيب من كل خير».[٣]

---

١. م.ن، ص ٧٠٢، ح: ٢٦٥٤.

٢. النوري، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ج ٨، ص ٤٤٧، ح: ٩٩٥٩.

٣. م.ن، ح: ٣٠٥٧.

ـ «من كان سـهلًا هيّنًا ليّنًا، حرّمه الله على النار».[١] «يسّـروا و لا تعسّـروا، و بشروا و لا تنفروا».[٢]

الدعوة إلى الصبر وكبح جماح الغضب

ـ «من كظم غيظًا وهو يقدر على إمضائه، حشا الله قلبه أمنًا وإيمانًا يوم القيامة».[٣]

ـ «إن في الجنة درجة لا يبلغها إلا إمام عادل، أو ذو رحم وصول، أو ذو عيال صبور».[٤]

ـ «من صبر على سـوء خلق امرأته واحتسـبه أعطاه الله بكل مرة يصبر عليها من الثواب مثل ما أعطى أيوب على بلائه».[٥]

ـ «من صبر على خلق امرأة سـيئة الخلق، واحتسـب في ذلك الأجـر، أعطاه الله ثواب الشاكرين».[٦]

النهي عن الإعداد لمقدمات العنف

تشـير بعض المفاهيم إلى هذه المسـألة المهمّة، وهي أن الشخص قد يعمل ـ من خلال إيجاد الضغط النفسي، وعدم التمكين في قبال موقع ومكانة الآخرين أو التهاون في الاضطلاع بالمسؤوليات ـ على توفير أسباب العنف مع نفسه أو فسخ العلاقات الأسرية:

«من أضرّ بامرأة حتى تفتدي منه نفسها، لم يرض الله له بعقوبة دون النار؛ لأن الله يغضب للمـرأة كما يغضب لليتيم ... وأيما امرأة اختلعت مـن زوجها لم تزل في لعنة الله وملائكته ورسـله والناس أجمعين، حتّى إذا نزل بها ملك الموت قال لها: أبشـري بالنار فإذا كان يوم

---

١. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٧٥٠، ح: ٢٩١١.

٢. الأحسائي، عوالي اللآلي، ج ١، ص ٣٨١، ح: ٥.

٣. م.ن، ص ٧٢٨، ح: ٢٧٧٨؛ الكليني، الكافي، ج ٢، ص ١١٠، ح: ٧.

٤. المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٩٠، ح: ٩.

٥. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ١٦٣، ح: ٢٥٣١٥.

٦. م.ن، ص ١٧٦، ح: ٢٥٣٤٨.

القيامــة قيل لها: ادخلي النار مع الداخليــن».[١] «أيّما امرأة قالت لزوجها: ما رأيت منك خيرًا قط، فقد حبط عملها».[٢]

ـ «أيما امرأة آذت زوجها بلســانها لم يقبل الله منها صرفًا ولا عدلًا ولا حسنة من عملها حتى ترضيه، وإن صامت نهارها، وقامت ليلها، وأعتقت الرقاب، وحملت على جياد الخيل في سبيل الله، وكانت أول من يرد النار، وكذلك الرجل إذا كان لها ظالمًا».[٣]

وفي المقابل فقد أمر الأزواج بالعمل على توفير الأجواء والأرضيات الأخلاقية الإيجابية تمهيدًا لرفع الضغائن والإئحن وتقوية وشــائج المودة والنشاط. وإن أهمية هذا الأمر بحيث أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله على الرغم من شدّة حرمة الكذب، قد أباح الكذب في هذا المورد؛ إذا أدّى إلى إرضاء الزوج في العلاقات الزوجية:

«كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا ثلاث: ...، والرجل يكذب المرأة فيرضيها، ...».[٤]

ـ «إن الرجل إذا نظر إلى امرأته ونظرت إليه، نظر الله تعالى إليهما نظرة رحمة».[٥]

ـ «قول الرجل للمرأة: إنّي أحبّك، لا يذهب من قلبها أبدًا».[٦]

ـ «تهادوا فإن الهدية تسل السخيمة».[٧]

القضاء على أسباب سوء الظن

إن العنف ينشــأ أحيانًا من السلوكيات التي تعمل بوعي أو بغير وعي على إعداد الأرضية لسوء ظن الآخرين وردود أفعالهم. وتقوم سياسة الإسلام في هذا الشأن على تجنّب الظهور في مواضع التهمة:

---

١. م.ن، ج ٢٢، ص ٢٨٢، ح: ٢٨٥٩٧.

٢. پاينده، نهج الفصاحة، ص ١٩٨، ح: ٢٢٦.

٣. المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٦، ص ٣٣٤، ح: ١.

٤. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٦١٢، ح: ٢١٦٥.

٥. م.ن، ص ٢٧٨، ح: ٦٢١.

٦. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ٢٣، ح: ٢٤٩٣٠.

٧. النوري، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ج ١٣، ص ٢٠٤، ح: ١٥١١٠.

ـ «من حق الرجل على الزوجة ... أن لا تخرج من بيته بغير إذنه ... وأن لا تدخل إلى بيته من لا يحب».[١]

ـ «أولى الناس بالتهمة، من جالس أهل التهمة».[٢]

ـ «إن من حق المرأة على زوجها ... أن لا يصعّر لها خدًا، ولا يترك البيت هجرانًا لها».[٣]

خفض مستوى التوقعات

على الرغم من تعرّض الخطابات الدينية إلى رسم المسؤوليات، إلا إنها تسعى إلى رفع أسباب العنف من خلال خفض مستوى التوقعات وتقبل الأعذار على القصور وانتشار ثقافة الوعي والرضا بالموجود:

ـ «[يا بنيّ] لا تسألين ابن عمك شيئًا، إن جاءك بشيء، وإلا فلا تسأليه».[٤]

ـ «ألا أخبركم بشرار نسائكم؟ ... ولا تقبل منه عذرًا ولا تغفر له ذنبًا».[٥]

تقبيح العنف والغضب والأمر بكبح جماحه

لقد تمّ هنا تقبيح العنف بكلا معنيه: الجسدي والنفسي والضغط على الآخر، ويبدو أنه قد تم اتخاذ سياسة تهدف إلى نشر ثقافة يقع فيها الشخص العنيف تحت وطأة الأفكار العامة، وتأنيب الضمير:

ـ «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب».[٦]

---

١. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٤٤٦، ح: ١٣٨٩؛ وانظر أيضًا: الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢٢، ص ٢٨٣، ح: ٢٨٥٩٨.

٢. المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٩٠، ح: ٣.

٣. م.ن، ج ٧٥، ص ٤٤٦، ح: ١٣٩٠.

٤. المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٣١، (نقلًا عن: تفسير العياشي). وانظر أيضًا: الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ٢١٥، ح: ٢٥٤٦٣.

٥. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ٣٣، ح: ٢٤٩٥٧.

٦. پاينده، نهج الفصاحة، ص ١٦٠، ح: ٢٨.

ـ «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام، والسابق يسبق إلى الجنة».[١]

ـ «ما أكرم النساء إلا كريم، ولا أهانهنّ إلا لئيم».[٢]

ـ «ليس منّا من وسّع الله عليه، ثم قتّر على عياله».[٣]

ـ «ما تجرّع عبد جرعة أفضل عند الله من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله».[٤]

ـ «أيضرب أحدكم المرأة ثم يظل معانقها».[٥]

ـ «فأيّ رجل لطم امرأته لطمة، أمر الله ـ عزّ وجل ـ مالك خازن النيران فيلطمه على حرّ وجهه سبعين لطمة في نار جهنم، وأيّ رجل منكم وضع يده على شعر امرأة مسلمة، سمّر كفه بمسامير من نار».[٦]

ـ «شرار رجالكم البهّات الجريء، الفحّاش، الآكل وحده، والمانع رفده، والضارب عبده، والملجئ عياله إلى غيره».[٧]

ـ «شرّ الناس المضيق على أهله».[٨]

الدعوة إلى إصلاح العلاقة الزوجية والنهي عن الاختلافات الأسرية

ـ «ما عمل ابن آدم شيئًا أفضل من الصلاة وصلاح ذات البين وخلق حسن».[٩]

ـ «من خبّب[١٠] زوجة امرئ ... فليس منا».[١١]

---

١. المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٨٩، ح: ١٢.

٢. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٤٧٢، ح: ١٥٢٠.

٣. النوري، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ج ١٥، ص ٢٥٦، ح: ١٨١٥٩.

٤. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٦٩٧، ح: ٢٦٢٨، ص ٧٠٥، ح: ٢٦٦٨. وانظر أيضًا: الكليني، الكافي، ج ٢، ص ١١١، ح: ١٣.

٥. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ١٦٧، ح: ٢٥٣٢٣.

٦. النوري، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ج ١٤، ص ٢٥٠، ح: ٤.

٧. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ٣٣، ح: ٢٤٩٥٧.

٨. الهندي، كنز العمال، ح: ٤٤٩٧٢.

٩. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٧٠١، ح: ٢٦٥١.

١٠. خبّب: أغرى أو خدع. (المعرّب).

١١. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٧٥٣، ح: ٢٩٢٩؛ أبو حنيفة، دعائم الإسلام، ج ٢، ص ٤٤٨.

ـ «إن الله أحبّ الكذب في الإصلاح، وأبغض الصدق في الفساد».[١]

ـ «من فرّق بين والدة وولدها، فرّق الله بينه وبين أحبائه في الجنة».[٢]

إن سياسة الإسلام الأخرى في إطار تعزيز وتوثيق عُرى الأسرى ـ على ما تقدّمت الإشارة إليه ـ هي العمل على الحدّ من الأسباب الداعية إلى الطلاق، والأمر بالتناغم والانسجام والوفاق. وفي هذا الشأن يعدّ شجب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله للطلاق وذمّه إلا في موارد استحالة الوفاق،[٣] جديرة بالتأمّل:

ـ «ما من شيء أبغض إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ من بيت يخرب في الإسلام بالفرقة يعني الطلاق».[٤]

ـ «مرّ رسول الله صلى الله عليه وآله برجل فقال: ما فعلت امرأتك؟ قال: طلقتها يا رسول الله، قال: من غير سوء؟ قال: من غير سوء. قال: ثمّ إن الرجل تزوج فمرّ به النبي صلى الله عليه وآله فقال: تزوجت؟ فقال: نعم. ثمّ مرّ به، فقال: ما فعلت امرأتك؟ قال: طلقتها، قال: من غير سوء؟ قال: من غير سوء؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن الله ـ عزّ وجلّ ـ يبغض (أو يلعن) كل ذوّاق من الرجال وكل ذواقة من النساء».[٥]

ـ «أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير بأس، فحرام عليها رائحة الجنة».[٦]

ـ «تزوجوا ولا تطلقوا؛ فإن الطلاق يهتز منه العرش».[٧]

---

١. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٣١٣، ح: ٧٨٢.

٢. النوري، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ج ١٣، ص ٣٧٥، ح: ١٥٦٨٩١.

٣. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢٢، ص ١٣، ح: ٢٤٧٨٩١.

٤. م.ن، ص ٧، ح: ٢٧٨٧٤.

٥. م.ن، ص ٨، ح: ٢٧٨٧٩.

٦. م.ن، ص ٢٨٣، ح: ٢٧٥٩٨.

٧. م.ن، ص ٨، ح: ٢٧٨٨٠.

فائدة الأسرة

إن الأســاليب العامّة والكلية لجدوائية الأسرة تقوم على عدّة أصول، نشير فيما يلي إلى بعضها، على النحو الآتي:

اختيار الزوجة الصالحة

إن الخطوة الأولى في إطار العمل على رفع مستوى فاعلية وجدوائية كل مجموعة تكمن في اختيار الأفراد والأعضاء الكفوئين للاضطلاع بمسؤوليتهم ومهامهم في تلك المجموعة، والأسرة بدورها ليست استثناءً من هذه القاعدة، ومن هنا فقد جاء في الأثر قول المعصوم عليه السلام: «النكاح رق، فإذا أنكح أحدكم وليدة فقد أرقها، فلينظر أحدكم لمن يرق كريمته».[١]

- «تخيّــروا لنطفكم فأنكحوا الأكفّاء وأنكحوا إليهم .. تخيّروا لنطفكم فإن النســاء يلدن أشباه إخوانهن وأخواتهن».[٢]
- «خير متاع الدنيا المرأة الصالحة».[٣]
- «عن رســول الله صلى الله عليه وآله، قال للناس: إياكــم وخضراء الدمن، قيل: يا رســول الله، وما خضراء الدمن؟ قال: المرأة الحسناء في منبت السوء».[٤]
- «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحســبها، ولجمالها، ولدينها؛ فاظفر بذات الدين تربت يداك».[٥]
- «مــن تزوج امرأة لمالهــا وكله الله اليه، ومن تزوجها لجمالهــا رأى فيها ما يكره، ومن تزوجها لدينها جمع الله له ذلك».[٦]

---

١. م.ن، ج ٢٠، ص ٧٩، ح: ٢٥٠٨٠. بســبب ما ينطوي عليه الزواج من تكاليف وأحكام مُلزمة؛ فقد ورد التعبير عنه في الروايات بالرقية والأسر بالنسبة إلى كلا الزوجين بلا فرق بين الرجل والمرأة.

٢. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٣٨٠، ح: ١١٣١، ص ٣٨١، ح: ١١٣٢.

٣. المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٠٠، ص ٢٢٢، ح: ٣٧.

٤. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ٣٥، ح: ٢٤٩٦٣.

٥. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٣٩١، ح: ١١٨٣.

٦. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ٥٠، ح: ٢٥٠٠٧، ص ٥١، ح: ٢٥٠٠٩.

السعي إلى تمكين الأسرة وحلّ المشاكل الأسرية من داخل الأسرة

يبدو أن الدين يسعى بحيث يمهّد الأمور إلى الأسرة بحيث تعمل ـ بدلًا من التبعية والاعتماد على معونات الناس أو الدولة ـ على أن تقوم الأسرة في حدود الإمكان بتلبية احتياجاتها وحل مشاكلها الداخلية بنفسها. واليوم يتعرّض الاتجاه المتمحور حول الدولة في حل مشاكل جميع أفراد المجتمع وتوسيع دائرة مطالب العامة، إلى انتقادات واسعة من قبل الخبراء وذوي الاختصاص، حيث يذهب هؤلاء إلى الاعتقاد بأن هذه السياسة تؤدّي قبل كل شيء إلى ضمور الأسرة، وتجعلها غير قادرة على حلّ مشاكلها بنفسها، الأمر الذي يفاقم من المشاكل ويوسّع من دائرتها.[١] وعلى هذا الأساس يجب توجيه عناصر الدعم والحماية حتى الإمكان نحو تقوية الأسرة في القيام بوظائفها. ومن ناحية أخرى فإن الفقر ـ كما أشار بعض الخبراء والمختصين في الشأن الاجتماعي ـ في النظام القيَمي القائم على هيمنة وسيادة الاهتمام بالدنيا، ويكون الرفاه المادي فيه هو الغاية من التنمية الاجتماعية، سوف تكون نتيجته الذل والهوان.[٢]

إن الفصل بين المسكنة والشعور بالفقر، إنما يأتي للإشارة إلى هذه النقطة، وهي أن الأسرة الفقيرة التي تعاني من شحّ الإمكانات ولكنها تستطيع التأقلم مع الأوضاع الشديدة والقاسية، يمكنها تجاوز المفازات الخطيرة؛ بيد أن الأسر التي تشعر على الدوام بالفقر عند مقارنتها لنفسها مع الطبقات العليا، ولا تقوى على التأقلم مع الوضع القائم، سوف تكون عرضة للأذى والضرر.

تقوم سياسة الدين على حثّ الأسرة وتشجيعها على الكفاح الاقتصادي، ودعوة ربّ الأسرة إلى إنتاج الثروة، وتنظيم سلال الإنفاق ولا سيّما من قبل الزوجة؛ كما يعمل على توجيه الثقافة الاجتماعية على أساس محورية الزهد والقناعة بحيث لا يؤدّي البؤس إلى شعور وإحساس دائم بالفقر والحقارة الاجتماعية، ويدعو الأسرة إلى دعم الأفراد الفقراء فيها اقتصاديًا. ويبدو أن تعاليم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في بعض الأبعاد في الحدّ الأدنى يمكن

١. غاردنر، جنگ عليه خانواده، ص ١١٣ ـ ١٦٤.

٢. رفيع پور، آناتومی جامعه يا سنة الله، ص ٤٥٨.

تفسيرها في هذا الاتجاه؛ فقد ورد في المأثور:

ـ «اشتدت حال رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله فقالت له امرأته: لو أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله فسألته، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وآله فلما رآه النبي صلى الله عليه وآله قال: من سألنا أعطيناه، ومن استغنى أغناه الله، فقال الرجل: ما يعني غيري، فرجع إلى امرأته فأعلمها فقالت: إن رسول الله صلى الله عليه وآله بشر فأعلمه فأتاه، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من سألنا أعطيناه، ومن استغنى أغناه الله حتى فعل الرجل ذلك ثلاث، ثم ذهب الرجل فاستعار معولًا ثم أتى الجبل فصعده فقطع حطبًا ثم جاء به فباعه بنصف مدّ من دقيق، فرجع به فأكله، ثم ذهب من الغد فجاء بأكثر من ذلك فباعه فلم يزل يعمل ويجمع حتى اشترى معولًا، ثم جمع حتى اشترى بكرين وغلامًا، ثم أثرى حتى أيسر، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وآله فأعلمه كيف جاء يسأله وكيف سمع النبي، فقال النبي صلى الله عليه وآله: قلت لك: من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله».[١]

ـ «ملعون ملعون من ألقى كله على الناس، ملعون ملعون من ضيّع من يعول».[٢]

ـ «من أراد أن يكون أغنى الناس، فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يد غيره».[٣]

ـ «من فتح على نفسه باب مسألة فتح الله عليه باب فقر».[٤] «من عال والديه فهو في جهاد».[٥]

ـ «ما أكل أحد طعامًا خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده».[٦]

وبطبيعة الحال لو عجزت الأسرة عن حلّ مشاكلها، تنتقل مسؤولية دعمها وتوفير

---

١. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٥٣٠، ح: ٢٧٧٧٤.

٢. م.ن، ص ٥٤٣، ح: ٢٧٨١٦، ص ٥٤٣، ح: ٢٧٨١٧.

٣. م.ن، ص ٥٣١، ح: ٢٧٧٧٨.

٤. المجلسي، بحار الأنوار، ص ٣١٦، ح: ٧٣.

٥. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٦٥٧، ح: ٢٣٧٧.

٦. م.ن، ص ٦٩٨، ح: ٢٦٣١.

الحمايــة لها وتقع على عاتق الآخرين ومن بينها المؤسســات الحكومية: «من تكفل بمعاش أسرة مسلمة، غفر الله له ذنوبه».[١]

تعزيز موقع الوالدين ومسؤولياتهما

تقدّمت الإشارة إلى هذا المورد في بحث دعم الأدوار وتعزيزها.

الاهتمام بحاجات ورغبات أفراد الأسرة

لقد تمّ الالتفات إلى هذه النقطة ولا سيّما بشأن ربّ الأسرة؛ حيث يكون أكثر عرضة لآفة تأليه الذات لما يتمتع به من الاقتدار والسلطة، ومن هنا فقد ورد في الحديث:

ـ «المؤمن يأكل بشهوة عياله، والمنافق يأكل أهله بشهوته».[٢]

ـ «إن المؤمن يأخذ بآداب الله؛ إذا وسع الله عليه اتسع، وإذا أمسك عنه أمسك».[٣]

سلوكيات الأسرة في السنة النبوية

إن سلوكيات الأسرة في موارد من قبيل: التناسل، وإحلال الطمأنينة والسكينة والانضباط الجنسي والتنشئة الاجتماعي، من الأهمية بحيث شغلت حيّزًا كبيرًا من المفاهيم الإسلامية، ولا سيّما منها السنة النبوية. وفيما يلي نشير إلى بعضها:

الحث على التناسل والتكاثر

ـ «تزوجها سوءاء ولودًا ولا تزوجها جميلة حسناء عاقرًا، فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة، أما علمت أن الولدان تحت العرش يستغفرون لآبائهم، يحضنهم إبراهيم وتربّيهم سارة في جبل من مسك وعنبر وزعفران».[٤]

---

١. المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٣٨٩، ح: ٢.

٢. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٥٤٢، ح: ٢٧٨١٤.

٣. م.ن، ص ٥٤٠، ح: ٢٧٨٠٨.

٤. م.ن، ج ٢٠، ص ٥٤، ح: ٢٥٠١٩.

ـ «بيت لا صبيان فيه، لا بركة فيه».[١]

ـ «إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة؛ فيقول: يا ربّ من أين لي هذا؟ فيقول: باستغفار ولدك لك».[٢]

الاهتمام بحسن تربية الأولاد من الناحية الجسدية والروحية

إن ملاحظة التعاليم الدينية وإلقاء نظرة عابرة عليها تكفي لإثبات الاهتمام الكبير بالأولاد، حيث يتمّ بيانها أحيانًا حتى في إطار بيان الموضوعات الجزئية، ومن بينها آداب الرضاعة، وتقبيل الأولاد وإعطاء الهدايا إليهم. يمكن لنا أن ندرك أن أهمية البناء الإنساني في رؤية الإسلام واضحة جدًا، ويسعى من خلال اهتمام الوالدين بالأولاد بوصفهم من الباقيات الصالحات وإثبات الأجر على تربيتهم تربية صحيحة، جعلهم مسؤولين فيما يتعلق بمقولة التربية، ويعمل من خلال ذلك على توفير ضمانة لتطوير الأجيال في المستقبل. إن الاهتمام بسعادة الولد في الروايات ـ على ما تقدّم بيانه ـ يبدأ من اختيار الزوجة، ويستمر إلى فترة الحمل والرضاع وسنوات الشباب:

ـ «ما من لبن رضع به الصبي أعظم بركة عليه من لبن أمه».[٣]

ـ «لا تسترضعوا الحمقاء؛ فإن اللبن يغلب الطباع».[٤]

ـ «جعل الله تعالى رزقه في ثديي أمه، في أحدهما شرابه وفي الآخر طعامه».[٥]

ـ «استحسنوا أسماءكم؛ فإنكم تدعون بها يوم القيامة».[٦]

ـ «لا تضربوا أطفالكم على بكائهم؛ فإن بكاءهم أربعة أشهر شهادة أن لا إله إلا الله،

---

١. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٣٧٤، ح: ١٠٩٦.

٢. م.ن، ص ٢٧٨، ح: ٦٢٣.

٣. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٤٦٨، ح: ٢٧٨٠٤.

٤. م.ن، ص ٤٦٧، ح: ٢٧٦٠٢، ص ٤٦٧، ح: ٢٧٦٠٣.

٥. م.ن، ص ٤٥٣، ح: ٢٧٥٦١.

٦. م.ن، ص ٣٨٩، ح: ٢٧٣٧٥، ص ٣٩٠، ح: ٢٧٣٧٩.

وأربعة أشهر الصلاة على النبي وآله عليهم السلام، وأربعة أشهر الدعاء لوالديه».[١]

ـ «من كان عنده صبي فليتصاب له».[٢]

ـ «الولد سيد سبع سنين، وعبد سبع سنين، ووزير سبع سنين، فإن رضيت خلائقه لإحدى وعشرين سنة، وإلا ضرب على جنبيه، فقد أعذرت إلى الله».[٣]

ـ «من لم يرحم صغيرنا ويجلّ كبيرنا فليس منا».[٤]

ـ «عرامة الصبيّ في صغره، زيادة في عقله في كبره».[٥]

ـ «من قبّل ولده كتب الله له حسنة، ومن فرّحه فرّحه الله يوم القيامة، ومن علمه القرآن دعي بالأبوين فكسيا حلتين تضيء من نورهما وجوه أهل الجنة».[٦]

ـ «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: ما قبّلت صبيا لي قط، فلما ولى قال رسول الله: هذا رجل عندي أنه من أهل النار».[٧]

ـ «أحبوا الصبيان وارحموهم، وإذا وعدتموهم شيئًا ففوا لهم؛ فإنهم لا يرون إلا أنكم ترزقونهم».[٨]

ـ «صلى رسول الله بالناس الظهر، فخفف في الركعتين الأخيرتين. فلما انصرف قال الناس: هل حدث في الصلاة شيء؟ قال: وما ذاك؟ قالوا: خففت في الركعتين

---

١. م.ن، ص ٤٤٧، ح: ٢٧٥٤٤.

٢. م.ن، ص ٤٨٦، ح: ٢٧٦٥٩.

٣. م.ن، ج ٢١، ص ٤٧٦، ح: ٢٧٦٢٧. إن المراد من هذا الحديث هو أن الطفل يجب تركه وشأنه في السنوات السبع الأولى وإعطائه كامل الحرية ليفعل ما يشاء، وعلى الآخرين أن يماشوه في ذلك. وأما السنوات السبع الثانية فهي مرحلة التعلم والطاعة. والسنوات السبع الثالثة هي فترة اختزان التجارب، والمساهمة في اتخاذ القرارات تحت إشراف الأب، وحيث يتم عامه الحادي والعشرين تكون شخصيته قد اكتملت.

٤. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٣٧٦، ح: ١١٠٨.

٥. م.ن، ص ٥٦٤، ح: ١٩٤٠.

٦. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٤٧٥، ح: ٢٧٦٢٣.

٧. م.ن، ص ٤٨٤، ح: ٢٧٦٥٤، ص ٤٨٥، ح: ٢٧٦٥٥، ص ٤٨٥، ح: ٢٧٦٥٧.

٨. م.ن، ص ٤٨٣، ح: ٢٧٦٥٠.

الأخيرتين، فقال لهم: أوَما سمعتم صراخ الصبي».[١]

ـ «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: رحم الله من أعان ولده على برّه... يقبل ميسوره ويتجاوز عن معسوره ولا يرهقه ولا يخرق به».[٢]

ـ «حق الولد على الوالد... أن لا يرزقه إلا طيّبًا».[٣]

ـ «الصبي والصبي، والصبي والصبية، والصبية والصبية يفرق بينهم في المضاجع لعشر سنين».[٤]

ـ «من دخل السوق فاشترى تحفة فحملها إلى عياله كان كحامل صدقة إلى قوم محاويج، وليبدأ بالإناث قبل الذكور فإن من فرّح ابنته فكأنما اعتق رقبة من ولد إسماعيل عليه السلام...».[٥]

ـ «شاوروا النساء في بناتهن».[٦]

---

١. م.ن، ص ٤٨٠، ح: ٢٧٦٤٠.

٢. م.ن، ص ٤٨١، ح: ٢٧٦٤٥.

٣. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٤٤٧، ح: ١٣٩٤.

٤. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٤٦٠، ح: ٢٧٥٨١.

٥. م.ن، ص ٥١٤، ح: ٢٧٧٢٨.

٦. پاينده، نهج الفصاحة، ص ١٥٦، ح: ٧.

التأكيد على توثيق العلاقات الأسرية

إن الأسرة الكبيرة من وجهة نظر الإسلام عبارة عن شبكة من العلاقات الحمائية والرقابية والعاطفية والقبلية. إن هذا الارتباط بالإضافة إلى دوره المؤثر في إيجاد النشاط والتقليل من المشاكل الأسرية، سوف يكون سببًا إلى بث روح الوئام والإيثار والتعاون الاجتماعي أيضًا، وسوف يكون له تأثير كبير في التنشئة الاجتماعي بالنسبة إلى الأجيال القادمة.

لقد حظي ارتفاع نسبة الآفات الاجتماعية في العقود الأخيرة باهتمام علماء الاجتماع وشغل حيّزًا كبيرًا من اهتمامهم. وقد توصلوا في أبحاثهم ودراساتهم إلى أن الشعور بالوحدة والافتقار إلى عنصر الدعم والحماية والرقابة، يشكل أرضية للجنوح والانحراف. ولهذا السبب فإن ضواحي المُدن الكبيرة حيث تشكل بؤرة لإقامة المهاجرين الذين انفصلوا عن عشائرهم وأقوامهم، وانتقلوا إلى أمكنة جديدة يجهلونها، ويشعرون تجاه المشاكل بالوحدة والهشاشة، فإن الشباب واليافعين في هذه الأسر لا يخضعون لرقابة أهلهم وأقاربهم، ولذلك ترتفع بينهم نسبة الجنوح إلى الانحراف وارتكاب الجرائم.

إن الآليات الحديثة لمواجهة الآفات الاجتماعية تتعرّض اليوم لانتقادات كبيرة من قبل مجموعة من المنظرين، وأخذوا يؤكدون على إحياء العلاقات الأسرية بوصفها صلة تقوم على محوري العاطفة والمسؤولية. يمكن لتعزيز علاقات القرابة ـ ولا سيّما بالنسبة إلى النساء اللاتي يعانين من الخوف من المستقبل بسبب الطلاق أو موت أزواجهن أو عدم توفر إمكانية الزواج لهن ـ أن تكون مجدية ونافعة. ومن هنا كانت صلة الأرحام من الواجبات المؤكدة، ويُعدّ قطع الرحم من الذنوب الكبيرة.[١] وتحظى كلمات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في هذا الشأن بأهمية كبيرة، ومن ذلك قوله:

ـ «اثنان لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: قاطع الرحم، وجار السوء».[٢]

---

١. الرعد: ٢٥.

٢. پاينده، نهج الفصاحة، ص ١٥٥، ح: ٥٦.

ـ «الرحم شجنة من الرحمن؛ فمن وصلها وصله الله، ومن قطعها قطعه الله».[١]

ـ «صلة القرابة مثراة في المال، محبّة في الأهل، منسأة في الأجل».[٢]

ـ «صلوا قراباتكم ولا تجاوروهم فإن الجوار يورث بينكم الضغائن».[٣]

ـ «... صلة الرحم تزيد في العمر، وتدفع ميتة السوء».[٤]

ـ «لا صدقة وذو رحم محتاج».[٥]

ـ «لا يجالسنا قاطع رحم، فإن الرحمة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم»، وقال صلى الله عليه وآله: «لايدخل الجنة قاطع رحم».[٦]

ـ «إن رجلًا أتى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله، إن أهل بيتي أبوا إلا توثبًا عليّ وقطيعة لي فأرفضهم؟ فقال: إذن يرفضكم الله جميعًا، قال: فكيف أصنع؟ قال: تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، فإنك إذا فعلت ذلك كان لك من الله ـ عز وجل ـ عليهم ظهير».[٧]

وفي هذا الشأن يكتسب تعزيز الارتباط بالوالدين شكلًا خاصًا، ويتجاوز الحدود العادية لصلة الرحم، ويشتمل على الطاعة والشفقة الخاصة بهما. ومن ناحية أخرى فإن الحفاظ على هذه العلقة أدّى إلى انتقال المركزية في إدارة شؤون الأسرة إلى الابن الأكبر بعد وفاة الأب:

ـ «ثلاثة لا ينظر الله إليهم: المنان بالفعل، وعاق والديه، ومدمن خمر».[٨]

---

١. م.ن، ص ١٥٥، ح ١، ص ٥٠٨، ص ١٦٩٠.

٢. الإربلي، كشف الغمة، ج ١، ص ٥٥٣؛ الإحسائي، عوالي اللآلي، ج ١، ص ٢٥٥؛ پاينده، نهج الفصاحة، ص ٥٤٤، ح: ١٨٣٨، ١٨٤٠، ١٨٤١، ٧٦١، ح: ٢٩٧٣؛ الكليني، الكافي، ج ٢، ص ١٥٢، ح: ١٦.

٣. م.ن، ص ٥٤٥، ح: ١٨٤٣.

٤. م.ن، ص ٥٥٥، ح: ١٨٩٦، ١٣٧٥ هـ ش.

٥. الصدوق، من لايحضره الفقيه، ج ٢، ص ٦٨، ح: ١٧٤٠.

٦. النوري، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ج ٩، ص ١٠٦، ح: ١٠٣٦٥.

٧. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٥٣٨، ح: ٢٧٨٠٠.

٨. النوري، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ج ٧، ص ٢٣٣، ح: ٨١١٩.

ـ «رضى الربّ في رضى الوالدين، وسخط الربّ في سخط الوالدين».[١]

ـ «ما برّ أباه من شدّ إليه الطرف بالغضب».[٢]

ـ «من قبّل بين عيني أمّه، كان له سترًا من النار».[٣]

ـ «من البرّ أن تصل صديق أبيك».[٤]

ـ «إلزم رجلها فإن الجنة تحت أقدامها [يعني الوالدة]».[٥]

ـ «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله ما من عمل قبيح إلا قد عملته فهل لي من توبة؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: فهل من والديك أحد حي؟ قال: أبي، قال: فاذهب فبرّه، قال: فلما ولى قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لو كانت أمه».[٦]

ـ «حق كبير الإخوة على صغيرهم، كحق الوالد على ولده».[٧]

لو دققنا النظر في القرآن الكريم، والسيرة النبوية، وكلمات الأئمة المعصومين عليهم السلام ولا سيّما دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام في حقّ الوالدين، فسوف ندرك الفارق الكبير بين تعاليم الإسلام والتعاليم الحديثة.

إذا كان يتم التأكيد في الثقافة المادية على الحرية والاستقلال والحقوق الفردية، فإن الثقافة الإسلامية بالإضافة إلى تقديمها القيَم الجماعية في بعض الموارد على الرغبات الفردية، فإنها تبدي حساسية كبيرة تجاه ارتباط الإنسان بجذوره، إلى الحدّ الذي يعتبر معه تقديم آرائهم على الرغبات الشخصية، علامة على الإيمان؛[٨] ويدعو الأولاد إلى الخضوع

---

١. م.ن، ج ١٥، ص ١٧٤، ح: ١٧٩٠٨.

٢. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٦٩٧، ح: ٢٦٢٥.

٣. م.ن، ص ٧٥١، ح: ٢٩١٧.

٤. م.ن، ص ٧٧٧، ح: ٣٠٦٧.

٥. الهندي، كنز العمال، ح: ٤٥٤٤٣.

٦. المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٨٢، ح: ٨٨.

٧. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٤٤٨، ح: ١٣٩٧.

٨. كما روي عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، أنه قال: «... ووالديك فأطعهما، وبرهما حيين كانا أو ميتين، وإن أمراك أن تخرج

التام لهما بل وحتى الخشية منهما أيضًا.[١] قد يقوى حتى الشعور هنا بأن الوالدين يمكنهما أن يحولا دون تقدّم الأولاد وتحقيق آمالهم. يبدو أن التعاليم الدينية تسعى إلى بيان هذه الحقيقة وهي أن الإنسان قد يتنكّب الطريق في مسعاه إلى التقدّم. إن تقدّم الإنسان في المعادلة الإلهية رهن بأن يتمكن من إرضاء والديه في مسيرة حياته، وإن رضاهما عنه يضفي على نشاطه صبغة إلهية، ويحصل على البركة بحيث يزيد من سرعة مسير الإنسان إلى تحقيق أهدافه وغاياته. لا بدّ من الالتفات إلى أن علاقة الوالدين بالأولاد من أطهر وأنقى العلاقات العاطفية، ولهذا السبب، فإن نيل رضاهما إنما يكون من خلال بناء العلاقة المتماهية معهما بسهولة.

إصلاح العلاقات الجنسية

حيث أن العلاقة الجنسية الصحيحة تترك تأثيرها الإيجابي على نشاط وسكينة وجدوائية الزوج، فإن التعاليم الدينية لم تؤيد كبح النشاط الجنسي أو ممارسة الارتياض في هذا الشأن أبدًا، ولا يؤمن بالتضاد بين الجسم والروح. إن السياسة الجنسية في الإسلام تقوم على أساس تحديد العلاقات الجنسية في إطار العلاقة الزوجية، ومراعاة العفّة في الستر والنظر والسلوك، وغيرة الرجال، والاهتمام باختلاف الاحتياجات والقابليات الجنسية للرجل والمرأة، ومراعاة الحدود الأخلاقية، ولا سيّما عند ممارسة العلاقة الجنسية، ونفي الارتياض الجنسي، والتشجيع على تعزيز العلاقات الجنسية الصحيحة. إن الروايات المأثورة عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله تبيّن الرؤية الدينية على أساس المحاور الآتية بوضوح:

من أهلك ومالك فافعل فإن ذلك من الإيمان» (الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٤٨٩، ح: ٢٧٦٦٦).

١. «اللهم اجعلني أهابهما هيبة السلطان العسوف، وأبرهما بر الأم الرؤوف، واجعل طاعتي لوالدي وبرّي بهما أقرّ لعيني من رقدة الوسنان، وأثلج لصدري من شربة الظمآن حتى أوثر على هواي هواهما». (الصحيفة السجادية، دعاء الوالدين).

وجوب العفّة في الارتباط مع غير المحارم

ـ «ما زان الله عبدًا بزينة أفضل من عفاف في دينه وفرجه».[١]

ـ «النظرة سهم من سهام إبليس مسموم، من تركها لله عزّ وجلّ لا لغيره أعقبه الله أمنًا وإيمانًا يجد طعمه».[٢]

ـ «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يبت في موضع يسمع نفس امرأة ليست له بمحرم».[٣]

ـ «ألا لا يخلونّ رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان».[٤]

ـ «من صافح امرأة حرامًا جاء يوم القيامة مغلولًا ثم يؤمر به إلى النار ، ومن فاكه امرأة لا يملكها حبسه الله بكل كلمة كلمها في الدنيا ألف عام».[٥]

ـ «إذا نظر أحدكم إلى المرأة الحسناء فليأت أهله، فإن الذي معها مثل الذي مع تلك، فقام رجل فقال: يا رسول الله، فإن لم يكن له أهل فما يصنع؟ قال: فليرفع نظره إلى السماء وليراقبه وليسأله من فضله».[٦]

ـ «اشتد غضب الله على امرأة ذات بعل ملأت عينها من غير زوجها أو غير ذي محرم منها، فإنها إن فعلت ذلك أحبط الله ـ عزّ وجلّ ـ كل عمل عملته، فإن أوطأت فراشه غيره كان حقًا على الله أن يحرقها بالنار بعد أن يعذبها في قبرها».[٧]

ـ «إذا جلست المرأة مجلسًا فقامت عنه، فلا يجلس في مجلسها رجل حتى يبرد».[٨]

---

١. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٦٩٢، ح: ٢٦٠٠.

٢. الشعيري، جامع الأخبار، ص ١٤٥؛ الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ١٩٣، ح: ٢٥٤٠٥، ص ١٩٤، ح: ٢٥٤٠٨، و٢٥٤١٠.

٣. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ١٨٥، ح: ٢٥٣٨١، ح: ٢٥٣٨٢، و٢٥٣٨٣.

٤. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٢٤٦، ح: ٤٧٨.

٥. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ١٩٨، ح: ٢٥٤١٨.

٦. م.ن، ج ٢٠، ص ١٠٥، ح: ٢٥١٥٤، ١٣٧٤ هـ ش.

٧. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ٢٣٢، ح: ٢٥٥٠٩.

٨. م.ن، ص ٢٤٨، ح: ٢٥٥٥٣.

ـ «نهى رسول الله صلى الله عليه وآله أن تخرج المرأة من بيتها بغير إذن زوجها، فإن خرجت لعنها كلّ ملك في السماء وكل شيء تمر عليه من الجن والإنس حتى ترجع إلى بيتها».[١]

ـ «ليس للنساء من سروات الطريق شيء، ولكنها تمشي في جانب الحائط والطريق».[٢]

ـ «إذا قبل أحدكم ذات محرم قد حاضت: أخته أو عمته أو خالته فليقبل بين عينيها ورأسها، وليكف عن خدها وعن فيها».[٣]

ـ «ومن وصف امرأة لرجل فافتتن بها الرجل وأصاب منها فاحشة، لم يخرج من الدنيا إلا مغضوبًا عليه».[٤]

ـ «ثلاثة هم حُدّاث الله يوم القيامة ... ورجل لم يُحدّث نفسه بزنا قط ...».[٥]

ـ «من حق الولد على والده ... وإذا كانت أنثى أن ... لا ينزلها الغرف [أي المواضع المكشوفة التي يراها فيها الأجانب]».[٦]

ـ «خمس هنّ من قواصم الظهر: ... والمرأة يأتمنها زوجها، تخونه ...».[٧]

ـ «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظلّه: ... ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله ربّ العالمين ...».[٨]

ـ «لعن الله المتشبّهات من النساء بالرجال، والمتشبّهين من الرجال بالنساء».[٩]

---

١. م.ن، ص ١٦١، ح: ٢٥٣١٠.

٢. م.ن، ص ١٨٣، ح: ٢٥٣٧٦.

٣. المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٦، ص ٤٢، ح: ٤٣.

٤. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ١٨٤، ح: ٢٥٣٨٠.

٥. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٤١٠، ح: ١٢٤٨.

٦. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٤٨١، ح: ٢٧٦٤٤.

٧. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٤٦٢، ح: ١٤٦٤.

٨. م.ن، ص ٥٢١، ح: ١٧٣٢؛ الإحسائي، عوالي اللآلي، ج ١، ص ٣٦٧، ح: ٦٧.

٩. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٦٢٤، ح: ٢٢١٣، ص ٦٢٨، ح: ٢٢٣٣، و٢٢٣٤. (المراد من هذا الطائفة هم الذين يسعون من خلال لبس ثياب الجنس المخالف إلى استثارة الجنس المخالف بما يوفر الأرضية للزنا والعياذ بالله).

ـ ضرورة اتصاف الرجال بالغيرة

ـ «الغيرة من الإيمان، والمذاء من النفاق».[١]

ـ «خيركم المدافع عن عشيرته، ما لم يأثم».[٢]

ـ «كان أبي إبراهيم عليه السلام غيورًا، وأنا أغير منه. وأرغم الله أنف من لا يغار من المؤمنين».[٣]

الدعوة إلى إصلاح العلاقة الجنسية

لقد تمّ نقد الرهبانية الجنسية في هذا الشأن بشدّة، وقد وردّ الحثّ على إصلاح العلاقة الجنسية بين الزوجين، والاهتمام بخصائص كل واحد منهما، كما في الحديث القائل:

ـ «من أحبّ أن يكون على فطرتي، فليستن بسنتي، وإن من سنتي النكاح».[٤]

ـ «يروى عن النبي صلى الله عليه وآله أن أبا ذر سأله عن هذا فقال: ائت أهلك تؤجر، فقال: يا رسول الله، آتيهم وأُؤجر؟ فقال رسول الله: كما إنك إذا أتيت الحرام أزرت، كذلك إذا أتيت الحلال أجرت».[٥]

ـ «إن رسول الله صلى الله عليه وآله دخل بيت أم سلمة فشمّ ريحًا طيبة، فقال: أتتكم الحولاء، فقالت: هوذا، هي تشكو زوجها؛ فخرجت عليه الحولاء فقالت: بأبي أنت وأمي إن زوجي عني معرض، فقال: زيديه يا حولاء. فقالت: لا أترك شيئًا طيبًا ممّا أتطيب له به وهو معرض. فقال: أما لو يدرى ما له بإقباله عليك. قالت: وما له بإقباله علي؟ فقال: أما إنه إذا أقبل اكتنفه ملكان وكان كالشاهر سيفه في سبيل الله، فإذا هو جامع تحات عنه الذنوب كما يتحات ورق الشجر، فإذا هو اغتسل انسلخ من الذنوب».[٦]

---

١. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٥٨٧، ح: ٢٠٤٥.

٢. م.ن، ص ٤٧٢، ح: ١٥١٩.

٣. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ١٠٤، ح: ٢٥٢٨٨.

٤. م.ن، ص ١٠٦، ح: ٢٥١٥٧، ص ١٠٧، ح: ٢٥١٥٨، و٢٥١٥٩.

٥. م.ن، ص ١٠٩، ح: ٢٥١٦٤.

٦. م.ن، ص ١٠٨، ح: ٢٥١٦١.

ـ «لا يحل لامرأة أن تنام حتى تعرض نفسها على زوجها».[١]

ـ «خير نسائكم العفيفة الغلمة؛ عفيفة في فرجها، غلمة على زوجها».[٢]

ـ «والذي نفسي بيده لو أن رجلًا غشي امرأته وفي البيت صبيّ مستقيظ يراهما ويسمع كلامهما ونفسهما ما أفلح أبدًا، إن كان غلامًا كان زانيًا أو جارية كانت زانية».[٣]

ـ «إذا جامع أحدكم أهله فلا يأتيهن كما يأتي الطير، ليمكث وليلبث ...».[٤]

ـ «لا تجامع امرأتك بشهوة امرأة غيرك».[٥]

ـ «كره الكلام عند الجماع، وقال: إنه يورث الخرس».[٦]

---

١. م.ن، ص ١٧٦، ح: ٢٥٣٥٤.

٢. پاينده، نهج الفصاحة، ص ٤٧٥، ح: ١٥٣٤.

٣. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ١٣٥، ح: ٢٥٢٢٣.

٤. م.ن، ص ١١٧، ح: ٢٥١٨١، ص ١١٩، ٢٥١٨٧.

٥. م.ن، ص ٢٥٢، ح: ٢٥٥٥٩.

٦. م.ن، ص ١٢٢، ح: ٢٥١٩٦.

الخاتمة

إن السياسات الإسلامية في موضوع المرأة والأسرة، كما يبدو من النصوص الروائية ودراسة السيرة العملية للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام، تقوم على عدّة محاور:

١. انتشار ثقافة الشعور بوجود الله في صلب الحياة

يسعى الإسلام إلى إضفاء صبغة إلهية على الأذهان وعلى الميول والسلوكيات، ويرمي من وراء ذلك إلى تحقيق عدّة أهداف؛ أولًا: إن تعزيز الارتباط مع الله يؤدّي إلى إصلاح الإنسان في هذه الأبعاد الثلاثة على نحو شامل. وثانيًا: إن هذا الارتباط يمكن أن يُساعد على تعزيز الصبر على المشاكل واستقامة الإنسان. وثالثًا: إن الشعور بحضور من هو حاضر في كل مكان، ويعمل على القبض والبسط والحساب والعقاب ـ ولا سيّما في المجال الخاص؛ حيث لا يوجد شاهد في البين، ولا أيّ من الملاحظات الأخرى ـ يمكن أن يؤثر في خفض نسبة الظلم وهضم الحقوق؟

٢. تناسب المسؤوليات والمواقع وسُبُل توفير الحماية

إن المسؤوليات المهمّة تستدعي توفير الحماية لها، وحيث أن مسؤوليات الرجل في الاضطلاع بدور الأبوّة وإدارة الأسرة، ومسؤولية المرأة في أداء دور الأم والزوجة، تعدّ مهمة وذات قيمة من وجهة نظر الإسلام، فإن بيان موقعهما وعرض آليات الحماية والدعم للدور في هذا الشأن يُعدّ مهمًّا أيضًا.

٣. الاهتمام بالحفاظ على الحدود الجنسية

حيث أن التوقعات والقابليات المختلفة، قد جعلت كلًا من الرجل والمرأة قادرًا ومسؤولًا في أبعاد مختلفة، فإن التعاليم الدينية تسعى إلى تشجيع المرأة والرجل على حفظ الأدوار الجنسية. وبطبيعة الحال فإن حفظ الحدود الجنسية يجب أن لا يتخذ ذريعة لمنع الرجل والمرأة ـ مع اتساع دائرة الأدوار الجنسية ـ من الدخول إلى الكثير من هذه المجالات.

٤. الارتباط بين البيت والمجتمع

إن التأثير المتبادل بين البيت والمجتمع من العمق، بحيث تندرج دراسات الأسرة حاليًا ضمن حقول العلوم الاجتماعية. إن ملاحظة بيعة النساء في القرآن الكريم والروايات المأثورة عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله تؤكد على اهتمام الإسلام بالمسائل الأسرية في موضوع البيعة؛ حيث تثبت الصلة والارتباط بين البيت والمجتمع والأخلاق والسياسة.

٥. محورية الإصلاح الثقافي

إن الإسلام ـ بالنظر إلى عدم جدوائية الاكتفاء بالطرق والحلول الحقوقية، واهتمام الدين بمقولة التربية ـ يسعى إلى تعزيز وتقوية الآليات والأدوات الأخلاقية – الثقافية. وحيث كانت النظرة الفردية إلى الدين هي الغالبة، فقد شهدت الطرق الأخلاقية في القرون المنصرمة في الغالب تراجعًا وتنزلًا إلى مستوى التوصيات الفردية للأسف الشديد، وأصبحنا قلّما نشاهد هيمنة لحاكمية الأخلاق الإسلامية في صلب السياسات والبرامج العامّة. ومن هنا فقد أدّت الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية والحقوقية في الغالب إلى إضعاف الأسس الأخلاقية وتراجع الشعور بالآخرين، وتفشّي ظاهرة الطمع، وحبّ الدنيا، وانحسار فضيلة الصبر والقناعة، وتقويض دعائم الأسرة أيضًا.

٦. جريان ثقافة الإحسان وغض الطرف

تقوم سياسة الإسلام على توثيق العلاقة والارتباط بين الناس، وجعلهم مسؤولين تجاه بعضهم بعضًا، وتحويل الإحسان إلى ثقافة مهيمنة. إن الإحسان إلى الوالدين والأقربين، والصفح عن الأخطاء، والتسامح في العلاقات، وتوفير سُبل الحماية والدعم إلى الأفراد والأسر الضعيفة والعاجزة، وما إلى ذلك من الموارد الأخرى، لهو دليل على وجوب جريان ثقافة الإحسان والتسامح في الأسرة والمجتمع. واليوم يطرح هذا السؤال نفسه: ألم تؤدّ السياسات الحكومية الداعمة في مختلف البلدان إلى إضعاف ثقافة التكافل الاجتماعي بين الناس وانحسار العلاقات العاطفية في الأسرة والمجتمع؟ وكيف يمكن توظيف أنظمة الدعم والحماية في مسار تقوية وتعزيز فضيلة الشعور بالآخرين والإحسان إليهم؟

٧. محورية الأسرة في الاصلاحات الثقافية

إن أهمية الأسـرة إنمـا تأتي من كونها مؤسسـة قيَميّة؛ بمعنى أنها تسـعى جادة إلى نقل القيَم التي تنشدها إلى الأجيال القادمة. ومن هنا لا يمكن وضع الأسرة في خانة المؤسسات الاجتماعيـة الأخرى التي لا يقوم فيها التأثير على محورية العواطف والقيَم. إن السياسـات الإصلاحية التي قامت بهـا البلدان المتطوّرة والنامية في العقود الماضية، حيث لم تقم على محور الأسـرة؛ قد واجهت الكثير من الإخفاقـات، وتعرّضت إلى الكثيـر من الانتقادات. ومن ناحية أخرى فإن الدور المحوري للمرأة في الأسرة يجعل منها عنصرًا مهمًّا في تكوين شخصية الطفل، ولا سيّما في البُعد النفسي. ومن هنا فإن النظرة الخاصّة إلى شخصية ومنزلة المرأة في البيت والمجتمع، وإعادة تعريف الهوية النسـوية ـ ولا سـيّما في العصر الراهن ـ تكتسب ضرورة لا يمكن إنكارها أو التشكيك فيها.

المصادر

١. الأحسائي، ابن أبي جمهور، عوالي اللآلي، قم، انتشارات سيد الشهداء، ١٤٠٥ هـ.
٢. بابا زاده، علي أكبر، تحليل سيرة فاطمة الزهراء عليها السلام، قم، إلانتشارات أنصاريان، ط ٢، ١٣٧٦ هـ ش.
٣. الإربلي، علي بن عيسى، كشف الغمة.
٤. پاينده، أبو القاسم، نهج الفصاحة: مجموعه كلمات قصار حضرت رسول أكرم صلى الله عليه وآله، طهران، انتشارات جاويدان، ط ٢، ١٣٧٦ هـ ش.
٥. الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، قم، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ١٣٧٤ هـ ش.
٦. الحسّون، محمد وأم علي مشكور، أعلام النساء المؤمنات، قم، دار نشر أسوة، ١٤١١ هـ.
٧. رفيع پور، فرامرز، آناتومى جامعه يا سنة الله، مقدمه اى بر جامعه شناسى كاربردى، طهران، شركت سهامى انتشار، ١٣٧٨ هـ ش.
٨. السبحاني، جعفر، فروغ ابديت، دفتر تبليغات اسلامى قم، حوزه علمية، ط ١٢، ١٣٧٦ هـ ش.
٩. الشعيري، تاج الدين، جامع الأخبار، قم، انتشارات الشريف الرضي، ١٣٦٣ هـ ش.
١٠. شهيدي، سيد جعفر، زندگاني فاطمة زهراء عليها السلام، طهران، انتشارات فرهنگ اسلامي، ط ٢٣، ١٣٧٥ هـ ش.
١١. الصدوق، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه، قم، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، ١٣٦٣ هـ ش.
١٢. الطبرسي، علي بن حسن، مشكاة الأنوار، المكتبة الحيدرية، ١٣٨٥ هـ.
١٣. الطوسي، محمد بن حسن، تهذيب الأحكام، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٦٤ هـ ش.
١٤. الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٧٥ هـ ش.
١٥. الفتال النيسابوري، محمد بن الحسن، روضة الواعظين، قم، انتشارات دليل ما، ١٣٨١ هـ ش.
١٦. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، طهران، المكتبة الإسلامية، ١٣٧٤ هـ ش.

١٧. النوري، الميرزا حسين، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، بيروت، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ١٤٠٨ هـ.
١٨. الهندي، علاء الدين، كنز العمال، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٣ هـ.
١٩. ورام بن أبي فراس، مجموعة ورام، قم، مكتبة الفقيه.

الفصل الثاني:
قضايا الأسرة في الفكر الغربي

الأسرة وتيّار مناهضة النسوية في الغرب[1]

غيضان السيد علي[2]

مقدّمة

من أهمّ الأخطار التي هدّدت المجتمعات الغربيّة هي دعوة الحركات الأنثويّة في الغرب إلى تدمير الأسـرة والتخلّص منها، رغم أنّها -حسب وصف العديد من علماء الاجتماع- برّ الأمان في واقعٍ تسـوده التوتّرات. ومع ذلك وصفت الحركاتُ الأنثويّة الأسرةَ بأنّها مؤسّسة موبوءة تصيب الفرد بالكبت والاكتئاب أو بالقهر والشـلل، فهي عشّ القمع والوباء، وسبب أساسيّ من أسباب الأمراض النفسيّة والعصبيّة. فكان تيار مناهضة الأنثويّة في الغرب ضرورة ملحّة فرضتها الرؤى المتطرّفة لهذه الحركات الأنثويّة؛ لهذا كان لا بدّ من تفكيك أطروحات هذه الحركات الأنثويّة لتفادي تلك الأخطار الاجتماعيّة التي أصابت المجتمعات الغربيّة في مقتل، وذلك من خلال تسـليط الضوء على التيارات الغربيّة المناقضة للحركة الأنثويّة الذي يتّجه نحو مناهضة الأنثويّة المتطرّفة، محاولًا تفادي المصير البائس الذي يرجو المصلحون بالغرب والشرق ألّا يصلوا إليه أو أن يُحجِّموا من أخطاره وخسائره الفادحة.

ومن هنا تمثّلت أهمّيّة هذه الدراسـة في أنّها تحاول الإجابة على مجموعة من الأسـئلة المهّمة من قبيل: ما هي أنماط الأسرة وصورها وأشكالها؟ وما هي وظائفها وأهميّتها في بناء

---

١. المصدر: كتاب نحن والأسرة الجزء الأول، تأليف: مجموعة مؤلفين، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، النجف الأشرف، العراق، ٢٠٢١، من صفحة إلى صفحة ٣٦٣ إلى صفحة ٣٩٣.

٢. أستاذ الفلسفة الحديثة في كلية الآداب، جامعة بني سويف، من مصر.

المجتمع القويّ؟ وهل يمكن الاستغناء عنها كما تزعم الحركات الأنثويّة وغيرها من أعداء الأسرة؟ وما هي الأصول الفكريّة التي اعتمدت عليها الحركة الأنثويّة في تمرّدها على النظام الأسريّ؟ وكيف تبلور تيّار مناهضة الأنثويّة في الغرب؟ ومن هم أبرز روّاده؟ وما هي أهمّ اهتماماته؟ وهل تتوافق رؤيته لنظام الأسرة مع الرؤية الإسلاميّة أم لا؟

أوّلًا: أشكال الأسرة ووظائفها

تعرّف الأسرة من وجهة نظر أنصار المنظور الوظيفيّ -الذين يرون أنّ المجتمع منظومة من المؤسّسات الاجتماعيّة التي تؤدّي وظائف محدّدة لضمان عنصري الاستمرار والإجماع في الوضع الاجتماعيّ- بأنّها مؤسّسة تؤدّي أدوارًا وواجبات مهمّة تُسهم في تلبية الحاجات الأساسيّة في المجتمع، وتساعد على ديمومة النسق الاجتماعيّ.[١]

وقد اتّخذت الأسرة أشكالًا وأنماطًا متعدّدة، منها: الأسرة الطوطميّة وهي الأسرة التي يدخل أعضاؤها جميعًا في علاقة معيشيّة مشتركة نتيجة لاعتقادهم بأنّهم ينتمون إلى أصل واحد، ويكون الانتماء فيها للطوطم وليس لرجل أو امرأة بعينهما؛ والأسرة الممتدّة وهي الأسرة التي تقوم على معيشة ثلاثة أجيال معًا في حياة مشتركة؛ والأسرة الممتدّة المُعدَّلة وهي تختلف عن الأسرة الممتدّة في الإقامة المستقلّة للأسر النوويّة المكوّنة لها؛ والأسرة النوويّة وهي الأسرة التي تقوم على معيشة زوج وزوجة وأبنائهما فقط؛ والأسرة الزواجيّة وهي التي تقوم على معيشة الزوج والزوجة فقط؛ وأسرة الفندق وهي الأسرة التي يقضي معظم أفرادها وقتهم خارج نطاق الأسرة سواء أكان للسفر أو لظروف العمل أو للتسلية. ومع ذلك تبقى الأسرة هي الحصن الحصين لحماية الأفراد والمجتمعات من التفكّك والانهيار.

وتؤدي مؤسّسة الأسرة مجموعة من الوظائف المهمّة في الحياة الاجتماعيّة، نذكر من أهمّهما: الوظيفة البيولوجيّة أو الإنجاب؛ فالأسرة هي الوسط الطبيعيّ الذي اصطلح عليه المجتمع لإشباع الغريزة الجنسيّة، وإنجاب الأطفال والمحافظة على استمراريّة النوع؛ والوظيفة النفسيّة حيث توفّر الأسرة للفرد الكثير من الحاجات النفسيّة من خلال ما توفّره

١. غدنز، علم الاجتماع، ص٢٥٨.

من علاقات تجعل الأفراد يشـعرون في إطارها بالأمان النفسـيّ والانتماء والولاء، وتساعد كذلك على نموّ الشـخصيّة في إطار من المحبّة والحنـان، بعيدًا عن صور التنافس والصراع والتهديدات التي يتعرّض لها الفرد في إطار المجتمع الخارجيّ. والوظيفة الاجتماعيّة وفيها عدّة أمور مهمّة، لعلّ أهمّها عمليّة التنشئة الاجتماعيّة الأوّليّة للأجيال الجديدة. فالأسرة هي التي تقوم على تعليم الأبناء قيم المجتمع وعاداته وتقاليده وتتولّى تدريبهم وتنشئتهم ليكونوا مواطنين صالحين، ولا ينافس الأسرة في هذا المجال غيرها من المؤسّسات الأخرى البديلة التـي توجد في المجتمعات المعاصـرة والتي تدعو إليها الحـركات الأنثويّة كبديل معاصر للأسرة، فقد أثبتت الدراسات التجريبيّة أنّ التنشئة الأسريّة للأطفال أفضل بكثير من تنشئتهم فـي دور خاصّة للرعاية أو بعيدًا عن أحضان الوالدين ودفء المشـاعر الأبويّة، وذلك بغض النظـر عن الإمكانـات المادّيّة المتاحة. والوظيفة الاقتصاديّة؛ حيث تقوم الأسـرة في بعض المجتمعات بالمشـاركة في تجميع الدخل والسـعي لتوفير الاحتياجات المادّيّة لأعضائها، وتحديد أنماط الاسـتهلاك أو صور الطلب على السـلع والمنتجات، كما تغرس في الأفراد صـور الدافعيّة للعمـل، وهي أمور أصبحت تعـدّ عناصر اقتصاديّة مهمّة فـي الاقتصاديّات الحديثة.[١]

وممّا سـبق يتبيّن لنا أنّ الأسـرة هي برّ الأمان في عالم يموج بالأخطار وتملؤه التوتّرات شديدة القسوة. فالأسرة نظام اجتماعيّ- ثقافيّ؛ تمثّل أبسط أشكال التجمّع البشريّ، وتوجد في أشـكالها المختلفة في جميـع المجتمعات والأزمنة أو الحقب التاريخيّة دون اسـتثناء. حيـث ترجع عالميّة هذا النظام إلى طبيعة الوظائف التي يؤدّيها في الحياة الاجتماعيّة، والتي لا يمكـن لأيّ نظام آخر غيـره الوفاء بها. ومن ثمَّ يمكننا القول إنّ الأسـرة تلعب دورًا مهمًّا في تأمين وسـائل المعيشة لأفرادها، وتعدّ حصن الأمان لهم أمام تهديدات العالم الخارجيّ وضغوط الحياة المختلفة؛ ولذلك يعكس أيّ مسـاس بها تطـوّرات خطيرة، تختلف حدّتها وخطورتها وتتفاوت بين الأضرار البسـيطة والأضرار الجسـيمة التي مـن الممكن أن تهدّد وجود المجتمع ككل.

١. حجازي وآخرون، علم الاجتماع العام، ص١٩٠-١٩٢.

ومع هذا ترى الحركات الأنثويّة أنّ الأسرة التي تمثّل لأكثر الناس نبعًا حيويًّا للراحة والأمان والحبّ والرفقة الحميميّة، أنّها قد تكون مصدرًا للاستغلال والوحشة واللامساواة العميقة، وقد تركت الحركات الأنثويّة أثرًا كبيرًا على اتّجاهات العلوم الاجتماعيّة برفضها المواقف التي تعتبر الأسرة تجسيدًا لمفاهيم الانسجام والتناغم والمساواة. وكان من أبرز الأصوات المعبرة عن اتجاهات الحركة الأنثويّة دعوة الباحثة النسويّة الأمريكيّة بِتي فريدان (Betty Freidan) عام (١٩٦٥م) التي نادت بالنظر إلى ظاهرة العزلة والملل التي سيطرت على كثير من ربّات البيوت الأمريكيّات اللواتي حُكم عليهنّ بالعيش في دائرة مفرغة من الإنجاب وتربية الأطفال والعناية بالشؤون المنزليّة. وتلت ذلك أصوات أخرى تحدّثت بإسهاب عن «الزوجة الأسيرة» والآثار المدمرة التي تُخلّفها الترتيبات والأوضاع العائليّة على العلاقات الشخصيّة الحميمة.

وخلال السبعينيّات والثمانينيّات من القرن الماضي، سيطرت المناقشات والبحوث حول الأسرة على الفضاء العام. وفيما كان علم الاجتماع يتحدّث عن بنية الأسرة والتطوّر التاريخي وأهمّيّة علاقات القرابة، فإن الحركة النسوية أفلحت في لفت الأنظار إلى ما يدور «داخل الأسر»، وما تعانيه النّساء في النطاق البيتي. وطَرَحَ كثيرٌ من الكتّاب والكاتبات في المدرسة الأنسوية عدّة تحدّيات على الرؤية التي تعتبر الأسرة وحدة أو مؤسّسة تعاونية قائمة على المصالح المشتركة والنفع المتبادل. وبدأت النظريّات والبحوث النسوية تُظهر أنّ علاقات السلطة غير المتوازنة والقوّة غير المتكافئة داخل العائلة إنّما تُعطي بعض أفراد الأسرة منافع وامتيازات أكثر من غيرهم.[١]

ومن ثم راحت الحركات النسوية تسعى من أجل الخلاص من دور الأسرة التقليديّ التي رأت فيه ظُلمًا للمرأة وتجنّي على حقوقها، فراحت تنادي بالزواج المفتوح خارج أيّ نطاق للأسرة من أيّ نوع، ورفض نظام الأسرة بمعناه التقليديّ وبصوره السالفة الذكر رفضًا كليًّا؛ حيث اعتبرت الزواج قيدًا، وأنّ الحرّيّة الشخصيّة للمرأة لا بدّ أن تكون مطلقة غير مقيّدة بأيّ نوع من القيود.

١. غدنز، علم الاجتماع، ص٢٦٠.

وفي الحقيقة لم تكن الحركات النسـوية وحدها هي الحركة الوحيدة المناهضة للأسرة والداعية إلى ضرورة التخلّص منها، وإنّما شاركتها هذه الدعوة التدميريّة المذمومة مؤسّسات أخرى نذكر منها: حركات التحرر الجنسيّ الأخرى (حركات الشواذ جنسيًّا)، واليسار الجديد (الشـيوعيّ) الناقد بشدّة للمجتمع الأمريكيّ الرأسماليّ والنموذج الأسريّ الأمريكيّ، وتيار الصحوة الثقافيّة للسـود الرافض لنظام الأسـرة الأمريكيّ باعتباره مفروضًا من قبل البيض، والسـكانيّون وهم المهتمّون بتحديد النسـل ومناهضة نظام الأسـرة باعتباره مكمن التكاثر السكانيّ، والمؤسّسـات المهنيّة الربحيّة التي تعتمد في أرباحها على ترويج فكرة أنّ الأسرة ليس لديها الكفـاءة لتوفير الخدمات لأفرادها، وأنّها هي البديل الأمثل للأسـرة. هذا فضلًا عن دعوة المؤسّسـات الماسونيّة المستترة في إنشاء نظام عالميّ بلا دين ولا أسرة يقوم على الإباحيّة والحرّيّة الجنسـيّة، وإباحة الإجهاض تحديدًا للنسل، مع تربية الأطفال منذ الميلاد في مؤسّسات النظام العالميّ الجديد لضمان تخريج جيل جديد لا انتماء له ولا هويّة، ويسهل اقتياده والسيطرة عليه.

ووسط هذه الحركات والتيارات المختلفة ترعرعت الحركات الأنثويّة المتطرّفة في كافة أنحاء العالم، ووجدت البيئات المناسـبة والتربة الخصبة التي تزرع فيها دعواتها الشـيطانيّة وأهدافها التدميريّة التـي تتنافى مع كلّ التقاليد الدينيّة والأخلاقيّة والاجتماعيّة، والتي تدعو إلى رفض الأسـرة، والعزوف عن الزواج والإنجاب، واعتزال الحياة الأسـريّة، والشـذوذ والانحراف الجنسيّ، والتحرّر الدينيّ والجسديّ.

ثانيًا: الأسرة وتاريخ الحركة الأنثويّة

نشـأت الحركة النسـوية في الغرب كردّ فعل على تلك المغالاة التاريخيّة التي شـهدتها المجتمعات الغربيّة على مدار حقب طويلة بالغت خلالها في إهدار حقوق الأنثى وكرامتها، نتيجة لسـيادة أسـاطير خرافيّة غير عقلانيّة واعتقادات دينيّة مُحرّفـة متراكمة، ظُلمت الأنثى وجنَت عليها وغالت في ازدرائها واحتقارها؛ حيث كان وضع المرأة في تدهور مستمرّ لدرجة

أنّها أصبحت بمثابة أَمَةٍ تلد الأولاد لسيّدها، وكان يتمّ حجز الزوجات داخل بيوتهنّ، ولم يكنّ يحصلنَ على قدر من التعليم، كما لم تكن لهنَّ أيّ حقوق، ولم يكن أزواجهنّ يعتبروهنّ أفضل من أثاث البيت.[١] فنشأت تلك الحركات التحرّريّة للمطالبة بحقوق الأنثى التي ساء وضعها في المجتمع.

وقد ظلت تلك النظرة الدونيّة وهذا الوضع المؤسف للمرأة حتى قرابة بزوغ فجر القرن التاسع عشر، حيث قامت الثورة الفرنسيّة عام (١٧٩٨م)، وبدأت المرأة تتحسّس طريقها نحو استعادة حقوقها المهدورة، وساعدها في ذلك المفكّرون والفلاسفة وعلماء النفس والاجتماع الذين ساعد على وجودهم عصر الاستنارة الذي عاشته أوروبا خلال القرن الثامن عشر والذي أُطلق عليه عصر التنوير، فعملوا جميعًا على إنهاض المرأة من كبوَتها، وأقصى ما طمحوا إليه هو إنصافها من الغبن الاجتماعيّ والتاريخيّ الذي لحق بها، مع الحفاظ على فطرة التمايز بين الأنوثة والذكورة، وتمايز توزيع العمل وتكامله في الأسرة والمجتمع على النحو الذي يحقّق مساواة الشقّين المتكاملين بين الرجال والنساء، وتحقيق أكبر قدر من العدالة الاجتماعيّة داخل المجتمع -لا تحقيق مساواة مستحيلة خارجيّة- بحيث تنال المرأة ما يطمح إليه أيّ إنسان -رجلًا كان أو امرأة- من تحقيق لذّاته. وبهذا دخلت المرأة الغربيّة في طور جديد وبدأت في نيل حقوقها واحدًا بعد الآخر. ولكن ما لبثت الأوضاع حتى مالت عن القصد، ونزعت إلى الإفراط الذي نما واشتدّ في القرن التاسع عشر الميلاديّ، وما كاد يبتدئ القرن العشرون حتى بلغ المجتمع الغربيّ نهاية الإفراط والجنوح والميل والتباعد عن القصد.[٢]

أي أنَّه تحت مسمّى التحرير تطرّفت المرأة في المطالبة بما يتجاوز حقوقها، وانجرفت تحت الدعاوى التحريريّة الزائفة، فتحررت من الدين، وهجرت المنزل وزاحمت الرجال في جميع الأعمال والأدوار بدعوى برّاقة فحواها المساواة مع الرجل، ليظهر -هنا- مفهوم

١. وحيد الدين خان، المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربيّة، ص٥٣.

٢. الزهراني، مفهوم تحرير المرأة في الفكر الغربيّ، ص٣٣.

«تحرير المرأة» كمفهوم متناقض مع مفهوم الأنثويّة (Feminism)؛ إذ إن مفهوم «تحرير المرأة» هو مفهوم يشير إلى إعطاء المرأة حقوقها الطبيعية كامرأة داخل المؤسّسات المجتمعيّة المختلفة، ومعاملتها معاملة كريمة تليق بها كأمّ وزوجة وابنة. وهنا يكون مفهوم المساواة بالرجل فيها قائم على المساواة التكامليّة بين الجنسين.

في حين يشير مفهوم «النسوية» إلى التحرّر من كلّ المنظومات الدينيّة والاجتماعيّة والتاريخيّة والأخلاقيّة تحرّرًا شبه مطلق بما في ذلك التحرّر من الأسرة بشكلها الشرعيّ والتاريخيّ، وهنا يكون مفهوم «المساواة مع الرجل» قائمًا على المساواة التماثليّة التي تتلاشى فيها مقاصد التدبير والحكمة الإلهيّة من وجود الزوجين الذكر والأنثى.

وبذلك تعدّ الحركة الأنسوية إحدى الحركات الناتجة من عباءة الحركات التحرّريّة النسويّة، لكنّها أكثر تطرّفًا منها؛ حيث تعدّ إحدى أذرع التوجّه اللادينيّ الماديّ الإنسانويّ الداعي لتحرير المرأة من كلّ ما يتعلّق بالنظام الأسريّ، وإلى إقامة العلاقات الجنسيّة خارج إطار الزواج، وإباحة الإجهاض، والعزوف عن الحمل والإنجاب في إطار الأسرة وغيرها من الدعوات الشاذّة التي تخرج عن كلّ ما هو مقبول دينيًّا أو أخلاقيًّا أو اجتماعيًّا.

وقد تعدّدت التعريفات المختلفة حول مفهوم «النسوية» وخاصة عند الكاتبات النسويات، حيث ترى الكاتبة النسوية «باربرا بيرج» أنّها: حركة لتحرير المرأة تحريرًا كاملًا، بحيث يصبح وجودها قائمًا بذاته، غير مرتبط بما حولها. فالنسوية هي حرّيّة المرأة بحيث تكون قادرة على تقرير مصيرها.[١] أي أنّها ترى أنّ النسوية حركة تسعى لاستعادة كلّ الحقوق التي اغتصبها الرجل من الأنثى، فتصبح هي سيّدة ذاتها، مالكة لقراراتها تتصرّف دونما وصاية أو رقابة من أيّ جهة ذكوريّة.

وقد اختارت ناشطات الحركة النسوية الكاتبة البريطانيّة ميري ولستون كرافت(Mary Wollstonecraft) (١٧٥٩-١٧٩٧) رائدة للنسوية، معتبرة أن ما جاء بكتابها (A vindication of the rights of woman) الذي قامت بتأليفه عام (١٧٩٢م) والذي ذهبت فيه إلى القول إن:

١. كرار، الأسرة في الغرب، ص٢٢٢.

«العائق الأساسيّ بين المرأة والعمل على نيل المساواة (مع الرجل) هو الاضطهاد المنزليّ، فالزوجات حبيسات أقفاص كالطيور، صحيح أنّ الغذاء والكساء يُقدّم لهنّ دون مجهود منهنّ. لكن الثمن الذي يدفعنَه مقابل ذلك صحّتهنّ وحرّيّتهنّ وكرامتهنّ»،[١] وغيرها من الأقوال التي تدعو فيها إلى تمرّد المرأة وخروجها بصورة مطلقة عن طوع الرجل. وبذلك عُدت «ميري ولستون كرافت» أوّل امرأة غربيّة تدعو لأفكار نسوية متطرّفة، بل لثورة في السلوك، وقد جسّدت ذلك على أرض الواقع، فمارست فعليًّا النزعة النسوية ذات الحرّيّة المطلقة، حيث إلتقت ببحّار أمريكيّ في فرنسا، وأنجبت منه طفلة بدون زواج، فلمّا هجرها حاولت الانتحار بالقفز في نهر التايمز وتمّ انقاذها، وأنجبت خارج إطار الزواج طفلة أخرى من صديقها الفيلسوف البريطاني وليام جودوين (William Godwin) (١٧٥٦-١٨٣٦م) الذي قيل إنّه تزوّجها بعد ذلك، وألّف كتابًا عنها بعد وفاتها عام (١٧٩٧م) كشف فيه عن انحرافها وسلوكها الإباحيّ، ممّا أدّى إلى وقف نشر كتابها في إنجلترا لفترة طويلة في القرن التاسع عشر، لكنّه اليوم يحتلّ مكانة بارزة في تطوّر النسوية المتطرّفة.[٢]

وكان من روّاد الحركة النسوية من الرجال الفيلسوف الإنكليزيّ الشهير جون ستيوارت مل (John Stuart Mill) (١٨٠٦-١٨٧٣م) الذي تحوّل تحوّلًا راديكاليًّا تامًّا من مناهضته لمساواة الرجل بالمرأة ورفضه منحها حقّ التصويت إلى نصير للمرأة وداعٍ إلى تحريرها، وذلك تحت تأثير عشيقته السابقة وزوجته فيما بعد «هاريت تايلور مل» (Harriet Taylor Mill) (١٨٠٧-١٨٥٨م).

وقد رأى مل أنّ استعباد النساء كان نتيجة لثلاثة عوامل هي: النظام الأبويّ البطرياركيّ السائد في أوروبا، والعبوديّة، ومفهوم الطبيعة البشريّة. الأمر الذي أدّى إلى مهاجمة «مل» لنظام الأسرة وعدّها مدرسة للطغيان؛ إذ لا تنمو في إطارها المحاسن فقط، بل والمساوئ أيضًا. ومن ثمّ كان اقتراح «مل» لتصحيح هذا الوضع المزري يتلخّص في مساواتها التامّة

١. م.ن، ص٢٣٤.

٢. م.ن، ص٢٣٧.

بالرجـل ومنحها حرّيّة مطلقة، ويكون ذلك عبر رفض كلّ الآراء التي ترى أنّ خضوع المرأة للرجل إنّما يعود إلى تدابير الطبيعة ومقاصدها أو أنّها أوامر إلهيّة. وانتقد في سبيل ذلك نظام الزواج في المسيحيّة، ورأى أنّه يخالف دعوتها العامّة إلى المساواة بين البشر.

وظلّت الحركة النسـوية غير نشـطة معظم القرن التاسع عشر، وذلك لافتقادها لمنظّرين ومفكّرين يبلورون أهدافها بصورة يقبلها المجتمع باستثناء جهود «جون ستيوارت مل» التي سـبق الإشارة إليها، ولاقتصارها فقط على بعض الناشطات اللائي تعرّضن لتجارب زواجيّة قاسـية دفعهنّ إلى تبنّـي مبدأ الصراع مع الرجـل. وظلّ الأمر على هـذه الحال حتى قامت الحربـان العالميّتان الأولى والثانية، وذهب الرجال للحرب والنسـاء إلى العمل بالمصانع، وبانتهاء الحرب وعودة الرجال بدأت الدعوة إلى عودة النساء إلى بيوتهنّ. وهنا نشب الصراع بين الرجل والمرأة والدعوة إلى المسـاواة وعدم الخضوع للرجل. ممّا أدّى إلى اسـتصدار قانون لمنع التفرقة في التوظيف إلى ظهور أوّل منظّمة النسوية في العام (١٩٦٦م)، وأسّست الكاتبة والصحفيّة النسـوية«بِيتي فريدان» المنظّمة الوطنيّة للمـرأة (National Organization of Woman)، متأثّرة بكتاب الفيلسـوفة الفرنسيّة سيمون دي بوفوار «الجنس الثاني»، والذي طرحـت فيه الفكرة الراديكاليّة القائلة بأنَّ الأنوثة صنعة ثقافيّة، «وأنّ المرأة لا تولد امرأة، بل تصبح امرأة».[١]

ومن ثمَّ رأت «فريدان» أن السلطة الذكوريّة تمارس وتعزّز وجودها من خلال مؤسّسات شـخصيّة يجب على المرأة التمرّد عليها وعلى أدوارها فيها، مثل: الزواج، ورعاية الأطفال، والممارسـة الجنسـيّة؛ ولذلك رأت أنّه من الضروريّ التمرّد على نظام الأسرة، فمن خلاله تمـارس السـلطة الذكوريّة على المرأة وتسـتعبدها. وبناء على هذه التعليمات غيّرت اسـم منظّمتهـا من «المنظّمة الوطنيّة للمرأة» إلى «تحريـر المرأة»، ثم عُرفت بعد ذلك بـ«الحركة النسـوية» التي أعلنت عن وجودها عبر تظاهرة حاشدة في نيويورك تزامنت مع مسابقة ملكة جمال أمريكا، باعتبار أنّ متطلّبات الجمال هي تجسـيد للأنوثة وتمثّل رمزًا لاستعباد المرأة،

١. م.ن، ص٢٣٧.

وقامت المظاهرات بتتويج (نعجة) ملكة للجمال، وقمن بإحراق كلّ ما له صلة بإبراز جمال المرأة واستعبادها.[١] وقد أدّت هذه الأحداث إلى انتشار الحركات النسوية في معظم أنحاء أوروبا مطالبة بضرورة تمرّد المرأة على وضعها، وعليها أن تبحث عن هويّتها الحرّة، وأن تبحث عن إيجاد لغة وفكر وشكل خاصّ بها في إطار من الحرّيّة الجنسيّة والمساواة مع الرجل دون ارتباط بالأسرة.

وإذا كان الفيلسوف الإنكليزيّ «مل» قد ناصر الحركة النسوية في القرن التاسع عشر ودعم اتّجاهاتها المتطرّفة، وأمدّها بتنظير ساعدها على بلورة أهدافها، وعدَّ الأسرة مؤسّسة للطغيان، فإنّ الفيلسوف وعالم الاجتماع الأمريكيّ تالكوت بارسونز (Talcott Parsons) (١٩٠٢-١٩٧٩) قام بالدور نفسه في القرن العشرين؛ حيث ذهب إلى القول بنهاية الأسرة في شكلها التقليديّ، ودعا إلى أن تقوم الدولة بمسؤوليّة تربية الأطفال؛ إذ اشتهر بارسونز بمصطلحه الشهير (مهنيّة الأمومة) في إشارة منه إلى أنّ المؤسّسات المهنيّة تقوم بالأدوار التربويّة بشكل أفضل من الدور التربويّ الذي تقوم به الأمومة الطبيعيّة داخل الأسرة.

ثالثًا: الأصول الفكريّة للحركة النسوية والتمرّد على النظام الأسريّ

بعد كثيرٍ من المؤتمرات والمساعي الحثيثة لناشطات الحركة النسوية استطعنَ تحقيق مطالب أربعة، هي: المساواة في الأجور والتعليم والعمل، إنشاء حضانات ودور رعاية أطفال تعمل على مدار اليوم، والحرّيّة المطلقة في استخدام وسائل منع الحمل، وإباحة الإجهاض. وقد وضعت الناشطات النسويات لتحقيق ذلك مجموعة من الأصول الفكريّة التي يقوم عليها دستور هذه الحركة ويحكم توجّهاتها. ولبناء المرجعيّة الفكريّة قامت منظّرات النسوية بما أسمينه عمليّة تفكيك (Deconstruction) وإعادة تركيب الأطر العامّة التي أدّت إلى استعباد المرأة وحرمانها من حقوقها.

والتفكيك (Deconstruction) آليّة فلسفيّة من آليّات ومفردات فلسفة ما بعد الحداثة تعني

---

١. م.ن، ص٢٥٩.

النـزوع إلى الهـدم والتقويض للفكر السـائد وبناء فكر مغاير، أو بمعنى آخـر هو آليّة فكريّة تعمـل على خلخلة كلّ المعاني الثابتة ومحاولة إضفاء معانٍ أخرى مختلفة عن تلك المعاني الموروثة الثابتة. ومن ثم رامت الحركة النسـوية تفكيك المفاهيم الآتية والتي رأت أنّها وراء ضياع حقوق المرأة واسـتعبادها واسـترقاقها، وهي كما تقول خديجة كرار مفاهيم سـبعة: الأبويّة، الدين، اللغة، الفن، أزياء المرأة، الأنثى والأنوثة، الزواج والأسرة.[١]

وقد رأت الحركات النسـوية في تفكيكها لمعنى الأبويّة أنّه في بداية نشـأة المجتمعات كانت الأمّ هي المتحكّمة في كلّ شـيء (المجتمع الأموميّ)، وأنّ الرجل لأسباب اقتصاديّة واحتكاريّة انتزع هذه السـلطة. كما كانت الشيوعيّة الجنسيّة هي الأصل السائد، ولكن أنانيّة الرجل ورغبته في التملّك هي التي اخترعت الزواج. ورأت أنّه يجب توعية المرأة على ذلك، لتسـتعيد ما نُزع منها. وفي الحقيقة أنّ تلك المزاعم بعيدة عن الواقع الحقيقيّ، إذ هي مزاعم ليس لها أية أسـاس من الصحّة وليس لها سـند علميّ، كما يؤكّد على ذلك علماء الأجناس الغربيّين أنفسهم.

كما رأت الحركة النسوية أنَّ الدين كان من أهمّ الأسباب التي ساهمت في ضياع حقوق المرأة، فقد صوَّرها الدين المسـيحيّ بأنّها أصل الغواية، وسبب الخطيئة الأولى، وهي ينبوع المعاصي، وأصل الفجور، والخطأ مرتبط بها، ومنها انبجست المعاصي على البشريّة جمعاء. وفي الواقع، فقد أسرفت الشرائع الدينيّة المجحفة في الغرب في تفضيلها الشائن للرجل على المرأة، مما أسـفر عن ما أثقل كاهلها وقيّدها بقيود أذلّتها وحطّت من كرامتها، حتى تواترت أقوال القساوسة إنَّ المرأة شرٌ لا بدّ منه، وإغواء طبيعيّ، وكارثة مرغوب فيها، وخطر منزليّ، وفتنة مهلكة، وأنَّ حواء هي سـبب طرد آدم من جنة عدن، وهي وسـيلة الشيطان المثلى التي يقـود بها الرجال إلى الجحيم. وكان القدّيس توما الأكويني (Thomas Aquinas) يُنزل المرأة منزلـة الرقيق، ويرى أنّـه يجب على الزوجة أن تكون لزوجها أقـرب ما تكون إلى الخادمة، ويناشد الأكويني الأبناء أن يحبّوا آباءهم أكثر مما يحبّون أمّهاتهم[٢]!.

---

١. م.ن، ص٢٦٨.

٢. إمام، الفيلسوف المسيحي والمرأة، سلسلة الفيلسوف والمرأة (٣)، ص١٤٤.

ومن ثمَّ دعت الحركة النسوية إلى هدم الدين بما يحمله من رؤى ذكوريّة، وتأسيس أديان نسوية، فحاولت الفيلسوفة النسوية نعومي جولدنبرج (N. Goldenberg) وضع رؤية جديدة للألوهيّة تتمركز حول الأنثى في محاولة منها لبناء دين نسويّ جديد يُمَكِّن المرأة من إقامة حياة روحيّة مقدّسة مباينة لتلك الصورة التي تمتهن المرأة في الأديان السماويّة الذكوريّة (حسب وصفها)، وكان ذلك من خلال دعوتها إلى العودة لعبادة المرأة/ الإلهة؛ لأنَّ عبادة المرأة ترفع من شأن المرأة، وتربط بين الدين والخصوبة والخير والقوّة في مقابل عبادة الرب/ الإله الذي يدعو إلى الثبات والهيمنة والسيطرة.[1] كما شاركتها الدعوة الكاتبة الأمريكيّة ستار هوك (S. Hock) التي دعت إلى دين يقوم على عبادة إلهة مؤنثة تجعل المؤنث هو الطبيعة والذات. كما تذهب إلى أبعد من هذا عالمة اللاهوت النسويّ سالي ماكفاجو (S. Macfague) التي دعت إلى ضرورة تجسيد الإلهة الأنثى واعتبار أنّ هذا العالم كلّه جسد لها. أمّا الفيلسوفة وعالمة اللاهوت النسوية الشهيرة ماري ديلي (M. Daly)، فتذهب إلى أنّ تحرير المرأة الحقيقيّ يأتي أوّلًا من إسقاط الفكر الذكوريّ على المعتقدات والأديان والممارسات الدينيّة، واستبدال هذا الفكر بدين وثنيّ نسويّ جديد تكون فيه الإلهة/ الأنثى هي المعبودة الوحيدة.[2] ولقد وجّهت آنا ليفيا بليرابل –التي نصّبت نفسها رسولة تنطق بلسان الإلهة/ الأنثى لتبلغ رسالتها للعالم أجمع– نداء على شبكات الإنترنت تحثّ فيه القرّاء على ضرورة نشر تعاليم هذه الإلهة/ الأنثى حتى تسود عبادتها جميع أنحاء العالم. وقد تجاوزت النسويّة البيئيّة مجرّد الدعوة لعبادة الأنثى، ووضعت نظامًا تربويًا للأطفال والأمّهات لكي يسيروا عليه، ويقوم هذا النظام على تعاليم وقيم الإلهة/ الأنثى، وهي:

يجب على الأطفال أن يبتعدوا عن تعاليم الأديان الجامدة، وأن يتعلّموا العبادة اليوميّة للإلهة/ الأنثى في المكان المخصّص لها داخل البيت.

1. Goldenberg, "Return of The Goddess: Psychoanalytic Reflections on The Shift from Theology to Thealogy", pp.145- 164.

٢. قطب، «اللاهوت النسويّ وثنيّة جديدة»، ص١٤١.

أن يقيموا الشعائر والصلوات للإلهة/ الأنثى حتى يشعروا بالسعادة التي تتحقّق برضاها عنهم.

أن يقيموا الاحتفالات والأعياد للإلهة/ الأنثى بالطريقة التي ترضى عنها الإلهة.[١]

وهكذا انعكست رؤية النسوية وموقفها من الدين على الأسرة. والغريب أنّ هذه الحركة المتطرّفة وجدت لها صدى في البلاد الإسلاميّة بالرغم من اختلاف رؤية الإسلام للمرأة عن رؤية كافّة صور الأديان السائدة في الغرب، فقد كرّم الإسلام الأنثى، وأوصى بالبشاشة في مولدها، ورعاها طفلة وفتاة وأمًّا، وأعطاها في المجتمع حقّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي العبادة حقّق التردّد على المسجد من الفجر إلى العشاء، وفي التعليم ما تكمل به إنسانيّتها، فلم يقصرها على نصيب محدود.[٢] كما أعطاها حقّ الموافقة على الزوج، فلا زواج إلا برضاها، وحقّ الطلاق بيدها، كما في حالة الخلع، وأمر بمعاشرتها بالمعروف أو مفارقتها بالإحسان.

ولكن هذا الصدى الموجود في البلاد الإسلاميّة لتلك الحركة النسوية المتطرّفة إنما يعكس حالة التبعيّة المقيتة، فهؤلاء المردِّدون كالببغاوات في البلاد الإسلاميّة إنّما يتّبعون كلّ ما هو غربيّ دون فهم أو تعقّل، أو مراعاة إذا ما كان هذا الفعل محرّمًا ويصطدم بالشرع، أو لا يتفق مع تعاليم الدين الإسلاميّ. وهؤلاء ينطبق عليهم قول الرسول ﷺ: حيث قال رسول الله ﷺ: «لتتبعنّ سنن الذين من قبلكم، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لاتّبعتموهم. قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟».[٣]

كما عملت الحركة النسوية على تفكيك اللغة لمّا رأت فيها أنّ اللغة المستخدمة لغة ذكوريّة تنحاز للرجل على حساب الأنثى، فتمجّد الذكر وتمتهن الأنثى، ومن هنا دعت إلى العودة إلى اللغة الأمّ، وإلى تحرير اللغة من الصيغ الأنثويّة، وإطلاق لفظ الشخص أو المرء

---

١. م.ن، ص١٤٢-١٤٤.

٢. الغزالي، مائة سؤال عن الإسلام، ج١، ص٧٨.

٣. البخاري، صحيح البخاري، حديث رقم: ٧٣٢٠، ص١٨٠٨.

(Person) بدلًا من (Woman/ Man). وقد نجحت هذه الحركات في الضغط على المؤسّسات الدينيّة الغربيّة. تلك التي خانت رسالتها -حتى أصدرت- في سنة (١٩٩٤م) طبعة جديدة من العهدين القديم والجديد، سُمّيت «الطبعة المصحّحة»، تمّ فيها تغيير المصطلحات والضمائر المذكـرة، وتحويلها إلى ضمائر محايدة!.. من أمثلة ذلك ما أوجبته تلك الحركة من الابتعاد عن الإشـارة إلى الإله باعتباره ذكرًا، وضرورة الإشـارة إليه باعتباره ذكـرًا وأنثى في الوقت ذاته، فيقال على سـبيل المثال: (إنَّ الخالق هو الذي/ هي التي، وضع/ وضعت...إلخ)! بل ويُشار إليه أحيانًا بالمؤنث وحسب، فهو «ملكة الدنيا» و «سيدة الكون»!... وهكذا ألّهت هذه الحركات الأنثى ذاتها.[١]

كذلك عملت النسوية على تفكيك الفن؛ إذ إنّها حكمت على الفنّ الغربيّ بمعايير الأبويّة والديـن واللغة. فهو أداة تعبير وإنتاج ذكوريّ، يجعل من المرأة موضوعًا فقط، ومن ثم ترى الحركة النسوية ضرورة التمرّد على هذا الفن الذي رأت أنّه يمتهن المرأة، ودعت إلى وضع نظريّـة نقديّة وقيم جماليّة أنثويّة تكون أساسًـا لفنّ أنثويّ.[٢] كما تمرّدت النسـويّة على أزياء المرأة ورأت ضرورة تفكيكيها، حيث رأت أنّ الغرض من الأزياء استرقاق المرأة، وأنّ الرجل أراد أن يلهي المرأة بالموضة ليتفرّد هو بالأمور المهمّة في الاقتصاد والسياسة. والغريب أنّها دعت إلى لباس أنثويّ يشبه ثياب الرجل وليس إلى ثياب تميّزها عن الرجل ممّا يعكس مدى ارتباك هذه الحركة وعدم نضجها.

كما حرصت الحركة النسوية على تفكيك معنى (أنثى-أنوثة-امرأة) بهدف الوصول إلى ما أسـمته النسـويّات بالهويّة الأصليّة للمرأة؛ حيث رأت أنّ هذه المفردات قد حدّدت هويّة المرأة وفق حاجات الرجل والمجتمع، فالمرأة وفقًا لسيمون دي بوفوار لم تولد أنثى، ولكن المجتمع هو الذي جعلها هكذا، فالأنثى صنعة اجتماعيّة. وكذلك المرأة أصبحت امرأة ولم تولد هكذا، ولكن المجتمع هو الذي جعلها هكذا؛ إذ ألزمها بالتزامات اجتماعيّة استعباديّة:

---

١. السيد علي، «التمركز حول الأنثى واختزال ما هو إنسانيّ فيما هو أنثويّ»، ص٢٨٢.

٢. كرار، الأسرة في الغرب، ص٢٧٧.

شــخصيّة وجســديّة واقتصاديّة؛ تتجلّى عبر إقامة قســريّة في منزل الزوجيّة، وخدمة منزليّة، وتلبية لرغبات الزوج الجنســيّة، وإنتــاج غير محدّد للأطفال. ولذلك لا بــدّ من الثورة على كلّ هذه المفاهيم التي ســوّغت للرجل أن يســيطر على المــرأة ويخضعها له، فرأت الحركة النسوية أنّ الأنوثة النقيّة تكمن هناك حيث التحرّر من كلّ التقاليد الاجتماعيّة والنظام الأبويّ، ولكنها فشلت في العثور على الأنوثة النقيّة أو حتى بديل لها، فلجأت إلى النموذج الذكوري، فقصّرت شعرها وارتدت الجينز مقلّدة للذكر ممّا يعكس ارتباك الحركات النسوية في تفكيك مصطلح أنثى أو مصطلح امرأة.

وترى النســوية أنّ تفكيك (أنثى) ســيمحو من وعي النســاء ما طُبع فيه مــن أنهنّ خُلقن للرجل،كما أنّ تفكيك (أنوثة) سيلغي التبعيّة الاقتصاديّة، لأنّ (الأنوثة) كانت مفروضة على المــرأة مقابل إنفاق الرجل عليهــا. وهنا يعتقد هؤلاء أنّ (امرأة) ســتزول تلقائيًّا بعد تفكيك الإطــار الذي تحتبس فيــه (الأنثى) وتفرض عليها فــي داخله (الأنوثة)، وهــو نظام الزواج والأسرة.[١]

ولا أعرف ما جدوى هذا؟ وماذا قد يعود على المرأة من القضاء على أنوثتها؟ فلو عرفت النساء معنى الأنوثة لعضّت عليها بالنواجذ، بل لو عرفت الأمّة بأسرها ذلك الفضل؛ لسعت ســعيًا حثيثًا إلى الحفــاظ عليها. فالأنوثة تعني الجمال والرحمــة والحنان، ولو فقدت الأمّة ينابيع الحنان لأصبحت جسدًا بلا روح، حياة بلا عاطفة، ولأصبح أفرادها كالآلات الصمّاء، تعمل لإدارة حركة الحياة وهي تفقد كلّ معاني الحبّ والرحمة والوفاء، وإذا فقدت البشــريّة حنــان المرأة ورحمتها فقــد حكم عليها أن تتيه في بيداء المادّيّــة، مبتعدة عن منابع الرحمة، وستعيش في شقاء المادّة وحساباتها المضنية.[٢]

---

١. م.ن، ص٢٨٩.

٢. عوض، حقوق الإنسان بين الإسلام والغرب بين النظريّة والتطبيق، ص٢٩٤-٢٩٥.

رابعًا: تفكيك الزواج والأسرة

ومن كل هذه التفكيكات تحاول الحركة النسوية أن تصل إلى هدفها الأكبر، وهو تفكيك الزواج والأسرة؛ إذ ترى الحركة النسويّة أنّ الزواج هو القيد القانونيّ الذي يسوّغ للرجل حبس الأنثى، والأسرة هي السجن الذي تسجن فيه المرأة، ولذلك فالزواج والأسرة معًا يمثّلان الميدان الذي يمارس فيه الرجل نزعته الاستعباديّة للمرأة المشروعة دينًا وعرفًا.[١] ومن ثم كانت دعوتها الرئيسة إلى التحرّر من الزواج والأسرة، فتعدّدت المحاولات لتقويض النظام الأسريّ، إذ دعت أدريان ريتش إلى السحاق بوصفه الأصل الذي تمّت محاربته بكلّ السبل، وأنّ ميل المرأة الجنسيّ للآخر الذكر يمثّل قهرًا لها، وعلى المرأة أن تكتفي بالمرأة كشريكة ورفيقة.[٢] كما رأت شارلوت بانش أنّ السحاق قمّة تحرّر المرأة ورفضها لهيمنة الرجل، وأنّه رمزٌ لتحدّي المرأة للأنظمة القمعيّة والأبويّة والإيديولوجيّة.

– وهكذا دعت الحركة النسوية إلى الشذوذ السحاقيّ بين النساء، وإلى «التحرّر الانحلاليّ»، وبلغت في الإغراب مبلغًا لا يعرف الحدود! حيث إنّها جعلت الزواج السجن الأبديّ للمرأة، الذي يقطع آمالها وأحلامها. الأمر الذي جعل هذه النزعة النسوية المتطرّفة كارثة على الأنوثة، ووبالًا على المرأة، وعلى الاجتماع الإنسانيّ بوجه عام –إذا انتصرت وعمّت– مهدّدة للوجود الإنسانيّ ذاته.[٣] إذ غدت الأسرة –في ظلّها– شرًّا مزمن، والزوجيّة اغتصابًا، والأمومة استرقاقًا، وكلّ العلاقات بين الجنسين أصبحت صراعًا على السلطة.[٤]

وهكذا مثّلت الحركة النسوية تيّارًا قويًّا يدعو إلى تحرير المرأة من أسر الحياة الزوجيّة، والدعوة إلى المساواة بين الجنسين، وذلك بالدعوة إلى إلغاء المفاهيم والأصول الدينيّة التي تقول بحتميّة الخلق والوظيفة البيولوجيّة، والدعوة إلى إلغاء الفوارق الجنسيّة وإلى

---

١. م.ن، ص٢٨٩.

2. Rich, "Compulsory Heterosexuality and Lesbian existence", pp. 11- 48.

٣. عمارة، الإسلام والغرب، ص٢٣٦.

٤. كرار، الأسرة في الغرب، ص٢٩٧.

المثليّة الجنسيّة، وتقنين الشذوذ، ومناهضة نظام الأسرة البرجوازيّة القائمة على الخصوصيّة والاهتمام بالأطفال، والدعوة إلى تربية الأطفال في مؤسّسات حكوميّة جماعيّة، والدعوة إلى الإباحيّة والحرّيّة الجنسيّة، والمطالبة بتوفير موانع الحمل للجميع، وإباحة الإجهاض، والدعوة إلى تحرير اللغة من الصيغ الأنثويّة أو تلك التي تكرّس الزوجيّة. ممّا يعني أنّ الحركة النسوية لا تريد أيّ وجود للأسرة بمعناها التقليديّ.

وقد حاولت فرض رؤيتها هذه من خلال سيطرة أعضائها على لجنة المرأة في الأمم المتّحدة، فكما تقول الأمريكيّة «كاثرين فورث»: «إنّ المواثيق والاتّفاقيات الدوليّة التي تخصّ المرأة والأسرة والسكّان تصاغ الآن في وكالات ولجان تسيطر عليها فئات ثلاث: النسوية المتطرّفة، وأعداء الإنجاب والسكان، والشاذّون والشاذّات جنسيًّا، وإنّ لجنة المرأة في الأمم المتّحدة شكّلتها امرأة اسكندنافيّة كانت تؤمن بالزواج المفتوح، ورفض الأسرة، وكانت تعتبر الزواج قيدًا، وأنّ الحرّيّة الشخصيّة لا بدّ أن تكون مطلقة. ولقد انعكس هذا المفهوم للحرّيّة في المواثيق التي صدرت عن هذه اللجنة، فالتوقيع على اتّفاقية سيداو (CEDAW) يجعل معارضة الشذوذ -حتى ولو برسم كاريكاتوريّ- عملًا يعرّض صاحبه للمساءلة القانونيّة، لكون هذه المعارضة معارضة لحقوق الإنسان».[١]

ومن هذا الموقع فرضت النسويّة المتطرّفة رؤيتها على العالم، فأصبح من حقّ المراهقين والمراهقات والأزواج والزوجات اصطحاب الخليلات والرفيقات والأصدقاء والأغراب إلى المخادع، ومن يعترض يمكن محاكمته قانونيًّا حسب الاتّفاقيّات الملزمة، فقد دخل الغرب بالفعل في ظلّ هذه الحركة النسويّة المتطرّفة دوامة الموت ويريد أن يجر العالم وراءه، كما قال البروفيسور الأمريكيّ «ويلكنز». ومن هنا كان لا بدّ من أن يتبلور تيّار لمناهضة هذه النسويّة المتطرّفة، يحاول أن يعود بالعالم إلى الطريق المستقيم.

١. عمارة، تحرير المرأة بين الغرب والإسلام، ص٤٣.

خامسًا: تيار مناهضة الأنثويّة في الغرب ومناصرة الأسرة

فــي مقابل هذا الوضــع الكارثيّ الذي وضعت الحركة النســوية المجتمعات الغربيّة فيه نشــأ تيّار قوي مناهض للنسوية (Antifeminist) يدعو إلى قدسيّة وظيفة الأسرة بوصفها حلًّا وحيدًا للمشــكلات الاجتماعيّة المتفاقمة في الغرب، من قبيل: ارتفاع نسب الطلاق، وزيادة عدد المدمنين من الشباب والبالغين، وزيادة الانحرافات الجنسيّة، والزيادات الملحوظة في عدد الأبناء غير الشرعيّين... وغيرها من المشكلات الاجتماعيّة التي باتت تؤرق المجتمعات وتهــدّد بانهيارها وتفكّكها. تقول خديدة كرار: «واجهت تيّارات النســوية معارضة عنيفة في العقد السابع من القرن العشرين، وهي الفترة التي شهدت تصاعد التيار المسيحيّ المحافظ. فقد تشكّلت جبهة عريضة من هذا التيّار عام (١٩٧٥م) عُرفت باسم الحركة المناصرة للأسرة (Pro-Family Movement) وتدعم هذه الحركة الكنيسة الكاثوليكيّة وحركة الأغلبيّة الأخلاقيّة، وقد وجدت هذه الحركة دعمًا سياســيًّا كبيــرًا في عهد الرئيس الأمريكيّ رونالد ريجان، كما وجدت نظيرتها في بريطانيا دعمًا مماثلًا من رئيسة وزراء بريطانيا آنذاك مرجريت تاتشر.[١]

وأمام هذه الحركة المناهضة لنســوية اتّحدت الحركات النســوية المتعدّدة (النســويّات المتطرّفات-النســويّات الاشتراكيّات-النســويّات الأحــرار) ووحّــدت جهودها، وبدأت تنشــر أفكارها خارج الغرب الأوروبيّ والأمريكيّ، إذ تحالفت مع منظّمات حقوق الإنسان ومؤسّسات ومنظّمات الأمم المتّحدة ممّا أعطاها قوّة للانتشار والذيوع والضغط على الدول، وصاغت مطالبها وفق الإطار العام لهذه المنظّمات الدوليّة، كما عملت على نشر دعوتها بين النساء الأكاديميّات لعلّها تجد من يقدّم تنظيرًا مقنعًا لهذه الحركة. ولا يمكن تجاهل النجاح الذي أحرزته هذه الحركة داخل وخارج المجتمعات الغربيّة؛ حيث اســتطاعت أن تؤسّــس منظّمات نســوية تابعة لها في بــلاد المغرب العربيّ (المغــرب والجزائر وتونس)، وعقدت كثيرًا من المؤتمرات في البلاد العربيّة، ولعلّ أشــهرها مؤتمر السكّان الذي أقيم بالقاهرة عام

١. عمارة، تحرير المرأة بين الغرب والإسلام، ص٢٦٥.

(١٩٩٤م). ونجحت في تقنين الشذوذ، وإباحة الإجهاض، وتوفير موانع الحمل للجميع عبر قانون تنظيم الأسرة، ونشر المواد الإباحيّة تحت مسمى حرّيّة التعبير، وقطع الصلة بين الأبناء والآباء والأمّهات كبار السن، حتى أصبحت الأسرة عند أتباع هذه الحركة أمرًا مخجلًا، وسرًّا قبيحًا، وتهوّرًا غير محسوب، ورجعيّة وجمود وتخلّف؛ ولذلك ظنّت أنّ مراميها قد أصبحت في إطار الممكن بعد أن أعلنت أنّ الأسرة تحتضر وهي على وشك الموت. ومن ثم اقترح «بارنجتون مور» عالم الاجتماع الراديكاليّ إقامة تشييع محترم للأسرة، ودعت الحركة النسوية عبر أبواقها في كلّ مكان بالتعجيل بدفن عشّ القمع والوباء (أي الأسرة).

لكن أمام هذه الدعوات المادّيّة اللادينيّة التي عملت على تحقيق انقلاب شامل على معظم العقائد الدينيّة وما ارتبط بها من قيم ومؤسّسات، وأمام موجة العبث بكلّ الثوابت الأخلاقيّة التي فُطر الإنسان عليها، كان لا بدّ من نشأة تيّار مناهض لتلك الحركة النسوية المتطرّفة التي تروم تدمير المجتمع وتبغي انتشار الرذائل الأخلاقيّة والاجتماعيّة. ولا أعرف كيف نجحت مثل هذه الحركة المتطرّفة في التواجد والانتشار وجذب الأتباع، وهي تدعو إلى تخريب المجتمع وعدم استقراره من خلال القضاء على الأسرة التي تعدّ المدخل الحقيقيّ لسلامة المجتمع أو انهياره وخرابه.

وقد نما تيار مناهضة النسوية في الغرب وتبلور بصورة واضحة عام (١٩٧٦م) عقب إصدار المحكمة العليا الأمريكيّة قرارًا بإباحة الإجهاض دون الرجوع إلى الآباء أو الأزواج، وأنّ الأمر كلّه في هذا الموضوع موكول إلى المرأة ذاتها، فهي صاحبة الحقّ في التصرف في جسدها وفي حملها باعتباره جزءًا من جسدها. الأمر الذي اعتبره بعض الباحثين تجاوزًا لكلّ الخطوط الحمراء في المجتمع، فتأسّست حركة قويّة عُرفت باسم مناهضة الإجهاض (ant-abortion movement)، وتُعرف أيضًا باسم مؤيّدي الحياة (Pro-Life) لكون الإجهاض عمليّة قتل. ثمّ تلا ذلك ظهور حركات تخصّصَ كلٌّ منها في مناهضة جانب من جوانب

مشــروع الحركة النســوية واليســار الجديد.[١] وقد تعدّدت مســمّيات الحــركات المناهضة لدعاوى النســوية، واختلفت ممّا أدّى إلى بروز تيّار قويّ عُرف في النهاية باسم تيّار مناهضة النسوية في الغرب.

وقــد وجد هــذا التيّار الدعم مــن منظّمات اليمين المســيحيّ المحافظ، كمــا نال دعمًا ملحوظًا من قيادات الحزب الجمهوريّ، كذلك وجد دعمًا سياســيًّا كبيرًا خلال فترة رئاســة الرئيس الأمريكيّ رونالد ريجان، والرئيس جورج بوش الأب فيما بعد، فاستطاع أن يردّ على النجاحات النســوية، وأن يســتصدر قانونًا بحماية الأسرة، كما اســتطاع أن يُدخل تعديلات جوهريّة على قانــون إباحة الإجهاض موجّهًا ضربات موجعة لتيار النســوية المتطرّفة. ففي ســبعينيات القرن الماضي، اشتدّ تيار مناهضة النســوية، فناهضت «فيليس شلافلي» (Phyl-lis Schlafl) الدعوة إلى المســاواة الكاملة بين الجنســين، ودعت إلى الاحتفاظ بالمزايا التي منحتها الأدوار التقليديّة للجنســين. كمــا حاربت «أنيتا براينت» (Anita Bryant) ما أســمته الحركة النســوية بحقــوق المثليّين كجزء من حملــة إنقاذ أطفالنا، كما مارســت «لويزا داي هيكس» (Louisa Day Hicks) ضغوطًا قويّة ضدّ الاندماج العنصريّ للمدارس في بوسطن.[٢]

– وفي العقود التي تلت ذلك، أصبحت الإناث المعاديات للنسوية جزءًا مهمًّا من حركة المحافظين والسياسة الجمهوريّة. ففي تسعينيّات القرن العشرين ظهرت العديد من الأسماء البارزة ضمن تيّار المناهضات لالنسوية مثل آن كولتر (Ann Coulter) ولورا إنجراهام(Laura Ingraham) التي أخذت الدفّة من شلافلي، وشرعنَ في بناء مسيرتهنّ المهنيّة على الانتقادات الحادّة لالنســوية، وأصبحت النســاء الإنجيليّات البيض جزءًا حاســمًا مــن ائتلاف الحزب الجمهوريّ (الذي يضمّ معظم النساء البيض البالغ عددهنّ ٥٣ في المئة ممّن صوّتوا لصالح دونالد ترامب في عام ٢٠١٦).[٣]

١.عمارة، تحرير المرأة بين الغرب والإسلام، ص٣١٤.

2. Hemmer, "Anti- Feminist Woman Have A long History in The United States".

3.Idem

وقد آل هذا التيّار على نفسه محاربة تلك الدعوات الشاذّة والمتطرّفة التي تبنتها النسوية ووضع على رأسها: مناهضة الأسرة بمعناها التقليديّ، الإجهاض، الإباحيّة والشذوذ، المساواة التامّة بين الجنسين على أساس التماثل وليس التكامل. ومن ثمّ بدأت تتبلور الاتّجاهات الإيجابيّة التي تمثّل اتّجاهات هذا التيار، ودعواته الفاعلة داخل المجتمع الأمريكيّ بصفة خاصّة والمجتمعات الأوروبيّة بصفة عامّة. وقد تمثّلت اهتمامات هذا التيّار فيما يلي:

النقد المنظّم لكلّ دعوات الحركة النسويّة

أخذ تيّار مناهضة النسوية على عاتقه نقد كلّ ما تدعو إليه الحركة النسوية، وقد حقّقت هذه الدعوات النقديّة نجاحًا ملموسًا في الأوساط الثقافيّة الأمريكيّة، حتى إنّها استطاعت أن تشجّع كاتبات من داخل الحركة النسوية نفسها حتى طالبنَ بتصحيح مسار الحركة بالتخلّي عن إيديولوجيا الصراع مع الرجل والمجتمع، والانصراف للتصدّي للقضايا الحقوقيّة التي تهمّ غالبيّة النساء. كما انتقدت أخريات الإنتاج الفكريّ للنسويّات ومن أشهر هؤلاء الناقدة الأمريكيّة من أصل إفريقيّ «بيل هوكس» التي وصفت النظريّات النسوية بأنّها انعكاسات لتجارب ومواقف شخصيّة خاصّة بالمرأة البيضاء الثريّة، ولا تنطبق على جميع النساء. كما ألّفت البريطانيّة «ناتاشا ولتر» كتابًا شهيرًا في هذا الإطار حمل عنوان: «ثورة على النسوية» تصف فيه موقف النسوية من الأسرة والرجل بأنّه تجاوز قضايا الحقوق إلى التدخّل السافر في خصوصيّات الحياة والمجتمع.[١]

كما يرى تيّار مناهضة النسوية في الغرب أنّ الحركات النسوية رغم أنّها تعدّ مرتعًا للمساواة، إلا أنّها تتجاهل الحقوق الفريدة للرجال. ويرى بعض الباحثين أنّ حركة النسويّة قد حقّقت أهدافها، وهي الآن تسعى إلى الوصول بالمرأة إلى وضعيّة أفضل من وضعيّة الرجال، وهي بذلك تدعم السياسات التي لا تتوافق مع تكافؤ الفرص بين الرجال والنساء.[٢]

---

١. كرار، الأسرة في الغرب، ص٣١٥-٣١٦.

2.Lemoine, "The trouble with feminism".

إقرار الفروق الفطريّة بين النوعين

ناهض تيار مناهضة النسوية فكرة المساواة التماثليّة بين الجنسين أو ما أطلقت عليه النسوية مصطلح «الجندر» الذي يعني اصطلاحًا رفض الاختلاف الجوهريّ الطبيعيّ بين الرجل والمرأة، وأنّه يمكن لأحدهما أن يتّخذ موقع الذات المذكرة أو المؤنثة أيّهما شاء! ليقرّ تيّار مناهضة النسوية بالفروق الفطريّة أو الطبيعيّة بين الجنسين، فالذكر والأنثى مختلفان طبيعيًّا، ومن ثمّ لم تكن المعارضة قائمة على أسس دينيّة أو اجتماعيّة، وإنّما انبنت على الفروق الطبيعيّة بين الجنسين، فالتباين بينهما أشدّ ما يكون من الوضوح، وهو ليس مقصورًا على الإنسان وحده، بل هو شيء شائع بين كافة الكائنات الموجودة حتى ما يخفى منها عن رؤيته بالعين المجرّدة، مثل الكهارب الموجبة والسالبة التي تتجاذب لتستوي بها الذرّة الدقيقة. فالتباين الطبيعيّ بين الذكر والأنثى ظاهر وواضح وهو لا يأتي فقط من الشكل الخاص للأعضاء الجنسيّة والحوض أو من وجود الرحم والحيض والحمل وخلافه، بل ينبع من طبيعة أكثر عمقًا؛ حيث ينشأ الخلاف بين الجنسين من تكوين الخلايا والأنسجة، ومن تلقيح الجسم كلّه بمواد كيمائيّة محدّدة تفرزها الغدد المختلفة، فالأنثى تحمل طابعًا أنثويًّا في كّل خلية من خلايا جسمها، وفي كلّ هرمون من هرموناتها، وفي كلّ عضو من أعضائها، وفوق كل شيء في جهازها العصبيّ. والرجل أيضًا يحمل طابعًا ذكوريًّا في كلّ هذه النواحي. وتتصاعد هذه الاختلافات التشريحيّة والوظيفيّة حتّى تصبح اختلافات في النفس والعقل والوجدان. وبناء على هذه الاختلافات العميقة والمتشعّبة بين طبيعة الذكر وطبيعة الأنثى كان طبيعيًّا أن ينشأ اختلاف حاسم بينهما في المهمّة والأهداف، حتى يواجه كلّ منهما مطالب الحياة مواجهة عادلة حسب إمكانيّاته وقدراته.[١] ومن ثمّ رأى تيار مناهضة النسوية في الغرب أنّ الحركات النسوية عندما ترفض الفروق الطبيعيّة بين الجنسين إنّما تحاول إعادة برمجة الأشخاص بما يتعارض مع ميولهم البيولوجيّة.

١. الخشت، من إعجاز القرآن-وليس الذكر كالأنثى.. دراسة من منظور الإسلام والعلوم الحديثة، ص٧٩.

دعم نظام الأسرة

دعا هذا التيّار بشكل لافت للنظر إلى دعم نظام الأسرة المعروف، المكوّن من الرجل والمرأة اللذين يرتبطان برباط مقدّس هو الزواج، فالمرأة والرجل هما شقّا الإنسانيّة، وكلٌّ منهما يكمل الآخر، فإذا كان الإنفاق مسؤوليّة الرجل، فإنّ الرعاية والتربية مسؤوليّة المرأة. أمّا المساواة الآليّة المزعومة التي دعت إليها الحركة النسوية، فهي دعوة تدميريّة ضدّ طبائع الأشياء، وشيوعها لن يؤدّي بالبشريّة إلا إلى الضياع والتعاسة؛ لأنّ التنافر الطبيعيّ بين الأقطاب المتماثلة سيبرز وسيستمر، وسيقضي على معاني التآلف والانسجام والحبّ؛ فالرجل لا يريد أن يقضي حياته مع رجل مثله، والمرأة لا ترضى أن ترتبط بامرأة مثلها، تشاركها إيجابيّاتها وسلبيّاتها مشاركة الآلية والتّماثل. فلو ساوينا بين الجنسين مساواة التماثل المطلق في الطبائع والسمات -كما تريد الحركة النسوية-، فلن يلتقيا أبدًا، وستزداد الهوّة بينهما عمقًا واتّساعًا ووحشيّة، أمّا التآلف والانسجام والاحتواء، فأمور لن تتأتّى إلّا إذا كانت منحنيات المرأة تقابل نتوءات الرجل، كأنّها مخلوقة على قّدها لتتداخل معها وتستقر فيها، وكلّ تجويف في المرأة يقابله بروز في الرجل، وكل بروز في المرأة يقابله تجويف في الرجل، ولا أقصد هنا المنحنيات والنتوءات الجسميّة فحسب. ولذلك كان على كلّ من الجنسين أن يقوم بتنمية قدراته ومواهبه وفقًا لطبيعته الفطريّة الخاصّة، وأن يبتعد كلّ منهما عن محاولة التشبّه بالآخر أو تقليده.[١]

دعم النظام الأخلاقيّ في الأسرة والمجتمع

دافع تيار مناهضة الأنثويّة في الغرب عن الأخلاقيّات التي عبثت بها الحركة النسوية التي دعت إلى كلّ ما هو شائن، وتجرّأت على مكارم الأخلاق، فدعت إلى الإباحيّة والشذوذ، وإهانة الأمومة والطفولة، وإباحة الإجهاض وقتل النفس بغيّر الحق، فكان كلّ ذلك يمثّل

١. م.ن، ص٧٩-٨٠.

اعتداءً صارخًا على مكارم الأخلاق سواء أكان داخل نطاق الأسرة أم داخل المجتمع ككلّ، ممّا عمل على شيوع الجريمة والانحطاط الأخلاقيّ. ومن ثمّ كان الدور البارز الذي لعبه وما زال يلعبه تيار مناهضة النسوية في الغرب في الدفاع عن النظام الأخلاقيّ. وقد رفض هذا التيار – انطلاقًا من حماية مكارم الأخلاق – الشذوذ وحارب الإباحيّة والإجهاض، وتعدّدت الدعوات لتجريم هذه الأفعال في المجتمع الأمريكيّ والمجتمعات الغربيّة، ممّا أعطى هذا التيّار مكانته المهمّة في المجتمعات الغربيّة رغم القوّة التي تسير بها الحركات النسوية والانتشار السريع لدعواتها الانحلاليّة التي يرى أنصارها أنّهم فرغوا من قضيّة مساواة المرأة بالرجل ويشرعون الآن في الوصول بالمرأة إلى وضعيّة أفضل من وضعيّة الرجال.

التكامل بين الرجل والمرأة

وهنا يدعو تيّار مناهضة النسوية في الغرب إلى ضرورة النظر إلى الرجل والمرأة نظرة تكامليّة لا نظرة صراع كما تنظر إليها الحركة النسوية، فالعلاقة بين الزوجين هي علاقة بين شريكين متكافئين، يكمل كلّ واحد منهما الآخر تكاملًا يتكوّن منه مخلوق واحد منسجم، متآلف، متناسق، حتى ليبدو غريبًا وعجيبًا أن يوجد أحدهما بدون الآخر. إنّها فطرة الله التي فطر الناس عليها. وفي هذا الإطار تقول الناشطة البريطانيّة المناهضة للأنثويّة «ناتاشا ولتر» لإيجاد مجتمع صحيح لا بدّ أن يتكامل النساء مع الرجال، فعلى الرجال أن يتحملوا مسؤوليّاتهم تجاه النساء اللائي لا بدّ أن يقمن بنفس الدور في التكامل المستمرّ في مجال العمل والحياة العامّة، وإذا لم يتم هذا التكامل فإنّ أطفالنا سيُتركون بلا رعاية والديهم، ومرضانا بلا رعاية صحيحة، وستخلو منازلنا من السعادة، فالنساء بحاجة إلى الرجال كي يتلمّسن السبل للمحافظة على الأسرة والمشاركة في الأعباء المنزليّة الصغيرة التي كانت مقصورة على النساء في السابق.[1] وهنا بلا شك دعوة صريحة للعودة إلى التّوازن والاتّزان، والتّكافل والتعاضد بين الرجال والنساء لبناء المجتمع القويّ الذي يخلو من الآفات

1.Walter, *The New Feminism*, p.5.

الاجتماعيّة التي تهدّد تماسكه، وذلك من خلال تفعيل دور الأسرة السويّة التي هي وحدة بناء المجتمع ومقياس قوّته أو ضعفه. والابتعاد عن مخاطر الدعوة إلى المساواة التماثليّة بين الجنسين التي تتلاشى عبرها الخصائص والمميّزات والوظائف من أجل تدمير الأسرة.

الاحتفاظ بالأدوار التقليديّة للجنسين داخل الأسرة

يرى تيار مناهضة النسوية في الغرب أنّه من الضروريّ الحفاظ على المزايا التي منحتها الأدوار التقليديّة للجنسين داخل إطار الأسرة، حيث يؤكّدون على أنّ تغيير أدوار المرأة يمثّل قوّة تدميريّة تُعرّض الأسرة للخطر، وهو الأمر نفسه الذي يحدث للمجتمع عندما تتمّ معارضة الأخلاق الدينيّة التي تدعو إلى نبذ الرذائل والتمسك بمكارم الأخلاق. ومن ذلك ما يذهب إليه الفيلسوف الأمريكيّ بول جوتفريد (Paul Gottfried) (١٩٤١-؟) الذي يرى أنّ التغيير في أدوار المرأة داخل الأسرة كان بمثابة الكارثة الاجتماعيّة التي ما زالت تلقي بظلالها على الأسرة، حيث يرى أنّ هذا التغيير الذي أحدثته النسوية في الدور الطبيعيّ للمرأة داخل الأسرة ساهم في حدوث انهيار اجتماعيّ من خلال زيادة انفصال الأفراد داخل الأسر، ممّا أدّى إلى إحداث فوضى اجتماعيّة باتت تهدّد استقرار المجتمع بشكل بارز، بدلًا من أن تكون (أي الأسرة) نقطة الذروة في الرقّي المسيحيّ الغربيّ.[1]

سادسًا: هل توافق تيار مناهضة النسويّة في الغرب مع تعاليم الدين الإسلاميّ؟

إنَّ المعاني التى وعى إليها تيّار مناهضة النسوية في الغرب في نهايات القرن العشرين تتلاقى في كثيرٍ من الوجوه مع تلك المعاني التي تنزل بها وحي السماء على النبيّ محمّد ﷺ منذ ما يزيد على أربعة عشر قرنًا من الزمان؛ فقد دعا الإسلام إلى الزواج بوصفه الرباط المقدّس الوحيد الذي يربط بين رجل وامرأة، ويتشكّل من خلاله الوسط الشرعيّ لإشباع الغريزة الجنسيّة، وإنجاب الأطفال والمحافظة على استمراريّة النوع، أي أنّ الزواج في الإسلام يعني تأسيس الأسرة، ومعها ومع غيرها من الأسر يتأسّس بنيان الدولة.

1.Gottfried, "The Trouble With Feminism".

– والأسرة في الإسلام رابطة اجتماعيّة أساسها الزواج الذي ينبني على أساس من المودّة والرحمة وحسن المعاملة بين الرجل والمرأة، يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.[١] وعندما شرّع الإسلام الزواج وحدّد نظامه وقواعده وأركانه، وجعله الأساس الذي تتحدّد في ضوئه علاقة الرجل بالمرأة، فإنّه بذلك قد أرسى الخطوة الأولى في بناء الأسرة، وجعل أهمّ شروطه وأركانه هو التراضي بين الطرفين، فذلك التراضي هو الذي يضمن استقرار الأسرة ومعه استقرار الأمّة؛ ولذلك فقد أعطت الشريعة الإسلاميّة للمرأة المسلمة حقّ الانفصال عن الزوج غير الكفؤ.

وقد أقرّت الشريعة الإسلاميّة مراعاة الفروق الطبيعيّة بين الجنسين ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾،[٢] ومن ثم نظرت إلى العلاقة بين الذكر والأنثى على أنّها علاقة بين شريكين متكافئين، يكمل كّل واحد منهما الآخر تكاملًا يتكوّن منه مخلوق واحد منسجم، متآلف، متناسق، حتى ليبدو غريبًا أن يوجد أحدهما في غيبة الآخر.

كما حافظت الشريعة الإسلاميّة على حقوق المرأة بشكل لم تسبقها إليه شريعة من الشرائع، ولم تبلغ سموّها حتى اليوم شريعة أخرى أو نظم وقوانين وضعيّة في أيّ زمان من الأزمنة، فلم يعتبر الإسلام المرأة جنسًا أدنى من الرجل، بل ردهما إلى أصلٍ واحد، ومزج بينهما مزجًا لا يستطيع أحد فصله.

– وقد ساوى الإسلام بين المرأة وبين الرجل في القيمة الإنسانيّة، فلا فرق بينهما في الأصل والفطرة، ولا في القيمة والأهمّيّة، فردّ بذلك إليها كرامتها بعد أن كانت مجرّدة منها في الحضارات السابقة التي سلبتها كلّ خصائص الإنسانيّة وحقوقها. كما ساوت الشريعة الإسلاميّة بين الذكر والأنثى في المسؤوليّة الخاصّة والعامّة وفي الثواب والعقاب، فكلٌّ

١. الروم: ٢١.

٢. آل عمران: ٣٦.

منهما لديه مسؤوليّة شخصيّة عن عمله ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.[١] كما ساوى بينها وبين الذكر في الحقوق المدنيّة على كافّة مستوياتها من تملّك، وتعاقد، وبيع، وشراء، ووصيّة، وهبة، وحقّ في توكيل الغير...إلخ. وأعطاها الحقّ في إبداء الرأي، وفي التعليم والتعلم، وفي الميراث. وحافظ على أنوثتها وطهارة قلبها وكمال دينها.

بل بلغت عظمة الإسلام في أنّه وضع المرأة في المستوى الذي فيه الرجل فقرّر أن ترث، وأن يكون لها مال تتصرّف فيه بجميع وجوه التصرفات، مستقلة عن أبيها وزوجها، وأن يُسمع قولها في الأمور العامّة للمجتمع، حتى أنّه ليسمح لها أن تتولّى القضاء والإفتاء، واعتبرها في بيتها سيّدة حاصلة على جميع موجبات الكرامة، فلم يكلّفها أن تخدم زوجها، بل ولا أن تخدم نفسها إن كان زوجها موسرًا، وهي بالدخول في تعاقد الزواج لا تقع تحت أسر زوجها، ولكنّها في حياة مشتركة معه، وقد أباح الإسلام تحقيقًا لهذا المبدأ أن تشترط في العقد أن تكون عصمتها بيدها، فتفصم عرى الزوجيّة في أيّ وقت أرادت.[٢]

هذه حقوق منحها الإسلام للمرأة قبل أن تفطن هي للمطالبة بها، وقبل أن يتطوّع الرجال لطلبها لها بأكثر من ألف سنة، وليس لنساء أرقى الأمم مثل هذه الحقوق إلى اليوم، فالذي قام بتحرير المرأة تحريرًا لا مرمى بعده إنما هو الإسلام، لا العلم والمدنيّة الحديثة ولا حركات النسوية ولا غيرها، التي أرادت في إحدى صورها المتطرّفة تجريد المرأة من أنوثتها تحت مزاعم مساواتها بالرجل، فادّعت أن حريّتها في أن تكون عارية، زانية أو سحاقيّة، راقصة، ساقية للخمر، تمارس الشذوذ والإجهاض، لتلقي بها في نهاية الأمر في وحل الرذيلة والانحلال الأسريّ والأخلاقيّ حتى إذا ما مضى عهد شبابها الزاهر، وفقدت جمالها الأخّاذ اعتلت بناية شاهقة لتلقي بنفسها من فوقها لتتخلّص من بؤس حياتها وشقائها، وإذا هرمت وشاخت لم تجد من يحنو عليها وتصبح حياتها جحيمًا لا يطاق.

---

١. فاطر: ١٨.

٢. وجدي، «المبرّرات العلمية لمبدأ تعدّد الزوجات في الإسلام»، ص٩٣٦.

الخاتمة

وهكـذا ننتهي من هذا العرض إلى مجموعة من النتائـج المهمّة التي توصلت إليها هذه الدراسة، ومن أهمّها:

أوّلًا: لا يمكن اعتبار الحركة النسوية امتدادًا لحركات حقوق المرأة أو ما عُرف بـ «تحرير المـرأة»، وإنّما هي حركـة مختلفة تمامًا من حيث طبيعتها ومطالبهـا وأهدافها، وهي إذ تردّ تاريخها إلى حركات تحرّر المرأة إنّما تسـعى لاكتساب تاريخ يكسبها الشرعيّة والاعتراف. فانتسـاب الحركة النسـوية لحركات «تحرير المرأة» هو إدعاء زائف، لأنّ مطالب المرأة في الأخيـرة لم تخرج عـن كونها مطالب حقوقيّـة إصلاحيّة، كما تؤكّد علـى الدور المحوريّ والأساسـيّ لمهمّة المرأة الأساسيّة في الأسـرة. أي أنّه حين النظر في التاريخ علينا أن نميّز بيـن حركة «تحرير المرأة» المطالبة بحقوق المرأة والعدل معها في إطار المجتمع ومكوّناته من كريم المعتقدات والثقافة والعادات والتقاليد، وبين الحركة النسـوية التي تنبني على مبدأ الصراع بين المـرأة من ناحية والرجل والمجتمـع ومكوّناته الدينيّـة والاجتماعيّة والثقافيّة والأخلاقيّة من ناحية أخرى. فترفض الأسرة وتعدّها سجنًا وقبرًا، وترفض الزواج والإنجاب وكلّ علاقة إنسـانيّة ذات عمق إنسانيّ وتكتفي باللحظات العاطفيّة العابرة، وتشجع السحاق كعلاقة صحّيّة بين النسـاء، فترى أنّ المرأة السـحاقيّة هي أكثر النسـاء تحـرّرًا؛ فهي المرأة التي حقّقت المسـاواة البيولوجيّة مع الرجال وحقّقت الاكتفاء الذاتيّ، حتى شاع القول عن الحركة النسـوية «إذا كانت النسوية هي النظريّة، فإن المسـاحقة هي التطبيق»، وهي الحركة التي اتخذت من آراء ماركس وأنجلز ودوركايم وجون ستيوارت مل وميري ولستون كرافت مرجعيّتها الفكرية.

ثانيًا: نشـأ تيّار مناهضة النسـوية في الغـرب كردّ فعل على الدعـوات التدميريّة للحركة النسوية، وأخذت اتّجاهًا مناهضًا لكلّ دعواتها، فرأت أنّ الزواج هو الخطوة الأولى لتكوين الأسرة، وهو في جوهره علاقة إنسانيّة بحتة فيها الجانب البيولوجيّ والاقتصاديّ والعاطفيّ

والنفسيّ، وهو علاقة بين ذات واعية بذات أخرى واعية، وليست علاقة بين ذات وموضوع كما تشير الحركات النسوية، كما أكّد تيّار مناهضة النسوية على أهمّيّة الأسرة في الحياة المعاصرة، واعتبرت أنّ مستقبل البشريّة لا يتوقّف على التطوّر الحضاريّ الهائل الذي يتحقّق في المجالات المادّيّة والتكنولوجيّة، وإنّما يتوقّف بصورة أساسيّة ومباشرة على الأسرة بصورة أكثر من أي مؤسّسة وتنظيم آخر، فالأسرة هي برّ الأمان في عالم مليء بالتوتّرات.

ثالثًا: كشف تيار مناهضة النسوية في الغرب عن أهمّ الآليّات التي تستخدمها النسوية المتطرفة للانتشار والذيوع في العالم، وذلك عبر سيطرتها على المنظّمات الدوليّة والحقوقيّة، واستقطابها للعديد من أجهزة الإعلام وسيطرتها على العديد من المحطات الفضائيّة، ومحاولة تجنيد أكاديميّات مناصرات لها في جلّ جامعات العالم، فضلًا عن إغراء العديد من المفكّرين وعلماء النفس والاجتماع بكافّة السبل للدعوة إلى تعاليمها الشاذة. كما كشفت عن الاستراتيجيّات الفكريّة التي تستخدمها النسوية لنشر فلسفتها الشاذة والتي تتمثّل في التوعية عبر التفكيك المفاهيميّ، كاستخدام مصطلح الجندر؛ حيث اتّخذت النسوية من التفكيك استراتيجيّة لقلب المعاني الحقيقيّة للكلمات، فأفصحت عن خطّتها في التوعية، ولا تعني التوعية هنا زيادة المعرفة حول موضوع ما، ولكن التوعية النسوية هي نوع من التشكيك في المفاهيم التقليديّة وحمولتها الدلاليّة المعهودة، وإعادة تحميلها معانٍ دلاليّة مختلفة تمامًا، أي قلب كامل لكلّ ما رسخ في عقل ووجدان الفرد من مفاهيم ذات صلة بعقيدته وإرثه الاجتماعيّ، فراحت تؤكّد أن المرأة مقموعة من الرجل، والأسرة مؤسّسة القمع، وهي في الوقت ذاته السبب الأكبر في إعاقة التحرّر وتحقيق الذات الأنثويّة، وإذا كانت الأسرة هي نظام تقليديّ قامع، فإنّ الشذوذ نظام تحرّريّ متحضّر. والجندر حالة تحرّر تامّ ومساواة تامّة تتيح ممارسة الوظائف ذاتها في إطار الجنس الواحد من خلال رفض الاختلاف الجوهريّ الطبيعيّ بين الرجل والمرأة، حيث يمكن لأحدهما أن يتّخذ موقع الذات المذكّرة أو المؤنّثة حسبما يريد.

رابعًـا: وفي الختام ترى هذه الدراسـة أنّ الأسـرة هي النواة الأساسـيّة التي يتكوّن منها المجتمع، وهي مؤشّـر صادق يشـير إلى قوّة المجتمع أو ضعفه وانهياره؛ لأنّ أيّ اهتزاز لها هو اهتزاز لقاعدة البناء بما يعرّضه للانهيار والتفكّك. وأنّ رؤية الإسـلام للأسرة هي أفضل الـرؤى على الإطلاق، فلم تداني رؤيته رؤية أخرى؛ إذ حرص الإسـلام على وجود الزواج وحدّد كلّ تفاصيله الدقيقة في القرآن الكريم والسـنّة النبويّة بدقّة، حرصًا على سـلامته، فهو أوّل خطوة لتكوين أسرة على أساس سليم، وبلغ من حرص الإسلام على سلامة الأسرة مبلغًا عظيمًا؛ إذ حرص على تربية الأبناء في محراب القيم والمبادئ (الأسرة) حرصًا لم تبلغه أيّ نظريّات في التربية، وكيف لا؟ والأسرة بما تحتوي من زوجين وأبناء هي دعامة الأمّة وسبيل نهضتها، فالمرأة المسلمة لا تربّي أبنائها استجابة لدافع الأمومة، بل ترى في ذلك واجبًا إيمانيًّا تُثاب عليه حسب درجة إخلاصها ووفائها لدينها، كما ترى في ذلك واجبًا إيمانيًّا قوميًّا؛ حيث تحرص على تقديم أبناء على مسـتوى أخلاقيّ رفيع يعرفـون معنى الإخلاص والوفاء لكلّ القيم والمبادئ العليا ليكونوا حملة مشاعل التقدّم الوطنيّ والأمميّ.

المصادر

١. القرآن الكريم.
٢. البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دمشق-بيروت، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢.
٣. عوض، أحمد عبده، حقوق الإنسان بين الإسلام والغرب بين النظريّة والتطبيق (دراسة مقارنة)، القاهرة، ألفا للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ٢٠١٢.
٤. إمام، إمام عبد الفتاح، الفيلسوف المسيحي والمرأة، سلسلة الفيلسوف والمرأة (٣)، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩.
٥. غدنز، أنتوني، علم الاجتماع، ترجمة وتقديم فايز الصياغ، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، مؤسّسة ترجمان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥.
٦. قطب، خالد، اللاهوت النسويّ وثنيّة جديدة، القاهرة، مجلة أوراق فلسفيّة، العدد السابع الثلاثون، ٢٠١٣.
٧. كرار، خديجة، الأسرة في الغرب- أسباب تغيير مفهومها ووظيفتها (دراسة تحليليّة نقديّة)، دمشق، دار الفكر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩.
٨. السيد علي، غيضان، «التمركز حول الأنثى واختزال ما هو إنسانيّ فيما هو أنثويّ»، مقال منشور بكتاب: نحن ومسألة المرأة، ج١، إعداد وتحرير السيد محسن الموسويّ، علي محمد بور إبراهيم، سلسلة استراتيجيّات معرفيّة (٥)، النجف/ العراق، العتبة العباسيّة المقدّسة، المركز الإسلاميّ للدراسات الاستراتيجيّة، ١٤٤١هـ/ ٢٠٢٠.
٩. الغزالي، محمد، مائة سؤال عن الإسلام، ج١، دراسة وتقديم محمد عمارة، القاهرة، هدية هيئة كبار العلماء، مجلة الأزهر، المحرم ١٤٣٩هـ/ أكتوبر ٢٠١٧.
١٠. الخشت، محمد عثمان، من إعجاز القرآن-وليس الذكر كالأنثى.. دراسة من منظور الإسلام والعلوم الحديثة، القاهرة، مكتبة القرآن للنشر والتوزيع، ١٩٨٥.

١١. عمارة، محمد، الإسلام والغرب، أين الخطأ وأين الصواب، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة.

١٢. ـــــــــــــ، تحرير المرأة بين الغرب والإسلام، القاهرة، مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع، ٢٠٠٩.

١٣. وجدي،محمد فريد ا، «لمبرّرات العلمية لمبدأ تعدّد الزوجات في الإسلام»، مجلة الأزهر، مجمع البحوث الإسلاميّة، عدد جمادى الآخرة ١٤٤١هـ/ فبراير ٢٠٢٠، الجزء٦، السنة ٩٣.

١٤. الزهراني، ندى بنت عطية بن راشد، مفهوم تحرير المرأة في الفكر الغربيّ (دراسة نقدية)، بحث تكميليّ مقدّم لنيل درجة الماجستير في الثقافة الإسلاميّة، قسم الثقافة الإسلاميّة، كلية الشريعة بالرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة، السعودية، ١٤٣٤هـ.

١٥. وحيد الدين خان، المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربيّة، ترجمة سيد رئيس أحمد الندوي، القاهرة، دار الصحوة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٩٤.

16. Goldenberg, N., "Return of The Goddess: Psychoanalytic Reflections on The Shift from Theology to Thealogy", in (ed) ***King: Religion and Gender***, Oxford, UK ; Cambridge, USA : Blackwell Publishers, 1995.

17. Rich, A. "Compulsory Heterosexuality and Lesbian existence", J***ournal of Women's History***, Volume 15, Number 3, Published by The Johns Hopkins University Press, Autumn 2003.

18. Lemoine, Philippe, "The trouble with feminism", On the electronic link: https://necpluribusimpar.net/the-trouble-with-feminism/

19. Walter, Natasha, ***The New Feminism***, Virago Press,1998, p.5.

20. Gottfried, Paul, "The Trouble With Feminism", LewRockwell.com, On the electronic link:https://www.lewrockwell.com/2001/04/paul-gottfried/the-trouble-with-feminism/

نقد الغرب وأنظمته في الحياة والعلاقات الأسريّة[1]

سارة دبوسي[2]

مقدِّمة

تطرح الدراسات المتصلة بالغرب جملة من الإشكالات المعرفيّة والفلسفيّة، لا لأنه يمثل كيان جغرافي تسكنه مجموعة من الشعوب والقوميّات المختلفة والمتنوعة، وإنّما لوجود جملة من الإشكالات الأخرى المتصلة بواقع وأنظمة الحياة فيه والتي تحكمه وتثبت وجوده في الحياة الإنسانيّة ككلّ. لذلك بات من الضروريّ اليوم تناوله نقديًّا لا لأجل كشف مكامن الحدود والضعف فيه، وإنما من أجل جعله مادة للدراسة، وبالتالي تجاوز النظرة الفوقيّة التي أوكلت له منذ زمن بعيد.

ومن ذلك فإنّ تناول الواقع الحياتيّ الغربيّ بما احتوى عليه من علاقات أسريّة ونُظُم حياتيّة ونقده يمثّل إشكاليّة كبيرة في عالمنا الإسلاميّ، حيث إنّ هذا الإشكال لا ينحصر في مجال بعينه، بل يمتدّ ليشمل جلّ الجوانب الحياتيّة للغرب، فضلًا على أنّه لا يشغل فئة بعينها من المسلمين، بل إنّه يشغلهم جميعًا. وهذا ما يزيد في تعقيد الإشكال، باعتبار أنّ ذاك الواقع لطالما مثّل بالنسبة لبعضهم النموذج المثاليّ للحياة، غير أنّ هذه النظرة سرعان ما تبدّت حينما تمّ وضع الواقع الغربيّ المعيش على محكّ الدراسة والنقد. ليتمّ بالتالي التخلّي

---

١. المصدر: كتاب نحن والأسرة، الجزء الأول، تأليف: مجموعة مؤلفين، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، النجف الأشرف، العراق، ٢٠٢١، من صفحة ٣٣٥ إلى صفحة ٣٦١.

٢. باحثة وأستاذة الفلسفة بجامعة قفصة، من تونس

عن الفكرة القديمة التي ترى في الغرب نموذجًا ناجحًا في الحياة يُحتذى به. فهل هو بالفعل كذلك؟ وكيف السبيل للولوج إلى داخله من أجل فهمه ونقده؟ وأين تكمن نقاط الضعف فيه؟ وكيف السبيل إلى إبرازها، والحال أنّه في موقع قوّة؟

فأن تصبح أنظمة الغرب الحياتيّة وعلاقاته الأسريّة محور اهتمام عالمنا الإسلاميّ، فهذا يعني أنّ العالمين باتا منفتحين على بعضهما، حتى أنّه صار من الممكن تناول معنى الحياة لدى كليهما من طرف الآخر المختلف عنه، ولم يعد الغرب ذاك النموذج الموجود المنشود، بل إنّه بات من الممكن إخضاعه للنقد، وهذا ما فتح المجال أمام تعدّد الكتابات والمناهج في شأنه، فكيف يمكن قراءة الواقع الحياتيّ للغرب؟ وكيف السبيل إلى نقده وكشف مكامن النقص فيه؟

لقد باتت اليوم ثقافة المغايرة واكتشاف الآخر المختلف عن الذات من بين أهمّ الإشكالات المطروحة، حيث غدا الاختلاف حاضنة مركزيّة لتكوين وتشكيل الذات، باعتبارها تتجلى في مرآة الغيريّة بصورة مختلفة عن أناها الخاصّة. وربما هذا ما جعل من الولوج إلى الفكر الغربيّ ووضعه على محكّ النقد من أهمّ الإشكالات التي تطرح اليوم بقوّة لا لشيء وإنّما لأجل تجاوز المرجعيّة الفكريّة الأسطوريّة التي تجسّد أفكار الهيمنة والتفوّق والنظرة الدونيّة من قبل الغرب إلى الشرق. فكيف جاز إذن لنا طرح الواقع الحياتيّ للغرب بمختلف مستوياته على محكّ النقد؟ ومن له الفضل على الآخر في تحقيق هذا الانفتاح اللامشروط بين الغرب والشرق؟

أولًا: في التعريف بالفضاء الغربيّ

ولما كان مفهوم الغرب مصطلحًا متعدد المعاني تماشيًا وسياق الحديث المطروح فيه، فإنّه يُعدّ من ضمن المفاهيم الملتبسة داخل المنظومة الفكريّة والمعرفيّة جمعاء، وهذا الالتباس هو ما غذى البحث عن ماهيّته من خلال تعدّد الأبحاث والرؤى من حوله سواء أكان لدى الباحثين من داخله أم من خارجه، لتتعدّد بذلك الأبحاث من حوله في عدّة مجالات

سـواء عن مجالـه الجغرافيّ أو عن أصله التاريخيّ، أو عن نظامـه الاقتصاديّ، أو عن واقعه المعيش، ليتمّ تعريفه على النحو الآتي: «الغرب مفهوم إيديولوجيّ أكثر منه جغرافيّ».[١]

هذا وقد أجمعت جلّ المعاجم على معنى مرادفة مفهوم غرب لغروب الشـمس، حيث أكّد معجم الأكاديميّة الفرنسـيّة بـأنّ الغرب هو «أحد الاتجاهـات الأربعة، ويعني؛ غروب الشـمس، ويقابل الشرق».[٢] وأمّا معجم القاموس المحيط لصاحبه الفيروز أبادي، فقد عرّفه بقوله: «ومغربان الشمس؛ حيث تغرب، ولقيته مغربها، ومغيربانها ومغيرباناتها: عند غروبه، وتغرب: أتـى من الغرب».[٣] ليقرّ في الأخير بأنّ هذا الكيان الموسـوم بالغرب هو مجموعة الدول الغربيّة بمختلف شعوبها وأممها.

ثانيًا: ما المقصود بالغرب؟

وانطلاقًا مـن التعريفات المعجميّة التـي تطرقنا إليها في تعريف الغـرب، فقد بات من الضـروريّ أن نحدّد ما المقصود بالغرب لكي نتجاوز النظرة الاختزاليّة التي تحدّده على أنّه جهـة ضمن جهات أربعة، حيث إنّ هذا الاختـزال قد غذّى ولادة مفهوم جديد هو المركزيّة الغربيّـة من حيـث وجوده في العالم، وبهـذا يصبح الغرب كيانًا أسـطوريَّ الطابع، وموطنًا للخيال الجامح، وحدًّا مهيبًا للعقل، وآلة تنتج غيْرية قويّة، بل قل جذريّة ومنيعة بين الشعوب والأمم والثقافات والحضارات.[٤] وهذا ما يجرّنا إلى تناوله بالدراسة والتحليل.

يبدو أن الفكرة القائلة بأنّ الغرب هو ذاك الوجود الجغرافيّ والتاريخيّ المتفوّق على باقي سكّان المعمورة قد تبدّدت بمرور الزمن وصار بالإمكان وضعه على طاولة التحليل والنقد، حيث إنّ تناول مثل هذا الإحراج يمثّل إشـكاليّة كبيرة في عالمنا الإسلاميّ، وذلك لتضارب الأفكار والرؤى حوله من جهة، ولتشعّب وتعدّد التصوّرات الفكريّة من حوله سواء أكان من

1.Latouche, *l'Occidentalisation du monde, essai sur la signification, la portée et les limites de l'uniformisation planétaire*, p, 11.

2.de l'académie Française, *Tome premier*, p, 181.

٣.إبن يعقوب الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ص١٢٠.

٤.قرم، تاريخ أوروبا وبناء أسطورة الغرب، ص٤٠.

داخله أم من خارجه من جهة ثانية.

بات جليًّا إذن بأنّ فكرة المركزيّة الغربيّة المتحكّمة والمسيطرة على العالم قد تبدّدت ولم تعد لها المكانة الاستراتيجيّة في توجيه العالم والتحكّم فيه، وذلك لما شهدته من تغيّرات داخليّة عميقة هزّت كيانها، وجعلتها تفقد موقعها المركزيّ الذي لطالما سعت جلّ المجتمعات الغربيّة إلى المحافظة عليه.

فالحديث إذن عن الواقع الحياتيّ للغرب هو حديث ذو صنوف متعدّدة المآخذ والنتائج، تصبّ في مجملها في أسلوب عيشهم وثقافتهم في الحياة وكيفيّة بنائهم للعلاقات الأسريّة، ربما هذا ما دفعنا إلى البحث في أنظمة الحياة الغربيّة انطلاقًا من العلاقات الأسريّة وكيف تتشكّل هذه الأخيرة وتتداعى في الآن ذاته. وهذا بدوره ما يطرح عدّة إشكالات أخرى في صلة متّصلة بهذا الإشكال ليكون التساؤل هو الفيصل دائمًا، فكيف جاز لنا دراسة العلاقات الأسريّة الغربيّة، والحال أنّها كانت تمثّل في الماضي القريب رمزًا للأسر المثاليّة لدى معظم المسلمين؟ وهل ثمّة فعلًا ما يبّرر إخضاعها للدراسة والنقد، والحال أنّ الغرب قد تفرّد بعدّة ميزات كثيرة، كالشفافيّة والديمقراطيّة والعدالة والحرّيّة؟

ثالثًا :قراءة في واقع العلاقات الأسريّة الغربيّة

١. قراءة في مفهوم الأسرة

أجمع الباحثون والعلماء على أنّ الأسرة تعدّ من أقدم المؤسّسات الإنسانيّة على طول تاريخ البشريّة، فهي السبب الرئيسيّ لاستمرار وجود الجنس البشريّ حتى يومنا هذا، إلّا أنّهم اختلفوا حول إيجاد تعريف موحّد لها، وذلك لاختلاف مدارسهم التي ينتمون إليها، وكذلك لتعدّد توجهاتهم الفكريّة وتنوّعها، فكيف لنا أن نفهم هذا الكيان المعقّد والحال أنّنا منه وإليه ولكن الاختلاف حول توحيد تعريفه قائم؟

الأسرة هي حجر الزاوية داخل البناء الاجتماعيّ، وذلك لتميّزها عن باقي المنظّمات الاجتماعيّة الأخرى، باعتبارها تمثّل نقطة الارتكاز التي يرتكز عليها المجتمع ككلّ، وذلك

لما لها من مكانة اجتماعيّة مهمّة في تشـكيله؛ وذلـك لأنّ نجاحها من نجاحه وإخفاقها من إخفاقه، فهي مدار الرحى الاجتماعيّ وهي أيضًا الوحدة الاجتماعيّة الأولى بالمجتمع، لذلك شكّل الاهتمام بها محور العديد من الدراسات والأبحاث.

فالأسرة تعدّ أساس المجتمع، وهي الوحدة الأساسيّة المكوّنة لمجموع وحدات العمران الكونيّ، وهي التي تقوم كذلك على مجموعة من القيم والمفاهيم التي تعمل على بقاء الكيان الإنسـانيّ والاجتماعيّ على شاكلة وحدة واحدة متكاملة المعالم. «فكلمة (أسرة) قد تكون مشتقّة من (الأسر)، وهو لغة القبض والأخذ؛ فالزوج والزوجة والأبناء والأحفاد وذوو القربى كلّهم أسير للآخر، أي مرتبط به كأنّما بإسار، أي القيد وهو ما يعرف بالسير أو الرباط».[١]

ويعرفها القاموس الاجتماعيّ على أنّها «تلك العلاقة التي تربط بين رجل وإمرأة أو أكثر معًا بروابط القرابة أو علاقات وثيقة أخرى، بحيث يشـعر الأفراد البالغون فيها بمسؤوليّتهم نحو الأطفال، سـواء أكان هؤلاء الأطفال أبناءهم الطبيعيّين أم أبناءهم بالتبنّي».[٢] كما يعرّفها أرسـطو بأنّها أول اجتماع دعـت إليه الطبيعة، وذلـك لأنّها تمثّل أوّل جماعة إنسـانيّة يفرز مجموعها تكوّنَ القرية، والذي يفرز بمجموعه تكوّن المدينة التي تمثّل الدولة لدى الإغريق القدامى.

هذا ويعرّفها أوغيست كونت بأنّها الخليّة الأولى لجسم المجتمع؛ لأنّ الأسرة هي أساس المجتمع وأساس وجوده، وهي الضامنة لاستمراره «...أنّ الأسرة هي الخليّة الأولى في جسم المجتمع، وأنّها النقطة الأولى التي يبدأ منها التطوّر، وأنّها الوسط الطبيعيّ الاجتماعيّ الذي ترعرع فيه الفرد».[٣] ما يعني أنّ الأسـرة هي البداية والمنطلق الأوّل لكلّ فرد، وهذا ما يجعل من الأسرة بنظره تبدو وكأنّها «منظومة علاقات وروابط بين الأعمار والأجناس».[٤]

---

١. كرار، الأسرة في الغرب، ص٣٣.

٢. الخطيب، نظرة في علم الاجتماع المعاصر، ص٣٥٨.

٣. بدران، التربية والمجتمع، ص١٠٤.

٤. أحمد خليل، المفاهيم الأساسية لعلم الاجتماع، ص٦٠.

فالأسرة إذن هي الركن الرئيسيّ في بناء المجتمع، وهي أيضًا اللبنة الأولى التي في ظلّها ينشأ الفرد وتتشكّل ذاته، فهي اتحاد له سماته الخاصّة ومن ذلك يمكن اعتبارها الوحدة البنائيّة الأساسيّة التي عن طريقها تنشأ مختلف المجتمعات الإنسانيّة، وذلك لدورها الرئيسيّ الذي تقوم به في بناء المجتمع وتدعيم وحدته وتنظيم سلوك أفراده بما يتماشى والأدوار الاجتماعيّة التي يضبطها النمط الحضاريّ العام لكلّ مجتمع.

تبيّن إذن أنّ أساس تشكّل الأسرة مرتبط بالزواج، حيث إنّ الرجل والمرأة جزءان مكمّلان لبعضهما، وهذا ما أثبته قوله تعالى في القرآن الكريم: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً**﴾.[١] إلّا أنّ ذلك قد فهم بالسلب ضمن التصوّر الغربيّ للأسرة.

ورغم أنّ الأسرة تعدّ النواة الأولى لبناء المجتمع باعتبارها تمثّل اللبنة الأولى لتشكّل ذات الفرد، إلّا أنّها قد تعرّضت إلى العديد من التغيّرات والتحدّيات بالمجتمعات الغربيّة، خاصّة فيما يتصل بمفهومها ونظامها ووظائفها المتعدّدة. فكيف تجلّت كلّ هذه التغيّرات على الأسرة داخل هذه المجتمعات المّتصفة بالرفاه على مختلف الأصعدة والمستويات الحياتيّة؟

٢. الأسرة الغربيّة

معلوم أن الأسرة في جلّ المجتمعات الإنسانيّة هي النواة الأساسيّة التي يحتمي بها الفرد ويحقّق جوهره الإنسانيّ، وهي أيضًا الركيزة الأساسيّة التي تحافظ على النوع البشريّ، غير أنّ الواقع الجديد الذي طرأ على العالم الغربيّ وما تضمّنه من هيمنة النزعة المادّيّة على الحياة البشريّة قد غيّر من وجهتها وعمل على تفكيكها وإفراغها من القيم السامية للحياة في مجملها، ليجعل من الإنسان الغربيّ اليوم بلا ذاكرة تاريخيّة وبلا قيم وبلا أخلاق، وهو ما جعل من الحياة تسير دون نمط محدّد، وهذا بدوره ما أفضى إلى وجود عدّة إحراجات

١. النساء:١.

داخل فضاء الأسـرة الواحدة. فما معنى أن نتكلّم عن الأسـرة الغربيّة النموذج، والحال أنّها باتت بلا معنى؟ وعن أيّ أسـرة نتكلّم أهي النواتيّة أم المتعدّدة؟ وهل فعلًا صارت الأسـرة الغربيّة مليئة بالباثولوجيّات الاجتماعيّة؟ وهل تجـرّدت فعلًا من محتواها القيميّ وانزلقت في دوّامة اللامعنى والانحلال؟

عديدة هي الأسـئلة الحارقة التي أفضى إليها الواقع الأسـريّ الغربـيّ الراهن، فلم تعد الأسـرة الغربيّة تلك النواة المقدّسـة التي تجمع أفرادها من أجل بناء ذواتهم وجعلهم ذوي قدرة على الخروج إلى المجتمع وبنائه، بل إنّها قد شهدت عدة تغيّرات أثّرت سلبًا على كيانها لتتحوّل من دائرة القداسة إلى دائرة الانحطاط. ففيما تتجلّى هذه العوامل؟

رابعًا: عوامل تغيير الأسرة الغربيّة

إنّ التعاطي مع واقع العلاقات الأسريّة الغربيّة ونقده، يمثل إحراجًا فكريًّا مهمًّا في عالمنا الإسلاميّ لا يقف عند حدود الأسرة ونقدها، وإنّما يتعدّاها لنظام الحياة الغربيّ ككل، كيف تغيّر وتبدّل وغيّر معه نظام عيش الأسر الغربيّة في مجمله، بل إنّ في تغير هذا النظام ما جعل من الأسـرة تفقد في كثير من اللحظات مفهومها الفطريّ الذي انبثقت منه وموقعها التربويّ في إحكام البناء الاجتماعيّ ووظيفتها التربويّة المرجوّة منها، وذلك نتيجة لتغيّر وتبدّل العديد من العوامل الحياتيّة التي شـاء لها القدر أن تؤثّر سلبًا على الوضع الأسريّ الغربيّ على وجه الخصوص وتجعله مضطربًا على الدوام.

ففي تغيّر شـكل الأسـرة الغربيّة ما يبعث على القلق، باعتبار أنّ هذه الأخيرة قد شهدت عدّة تغيّرات عميقة جرّاء تضافر العديد من العوامل التي سعى عبرها الإنسان الغربيّ إلى بلوغ التقدّم والرقي الحضاريّ والإنسانيّ، إلّا أنّه في الآن ذاته قد شوه علاقاته الأسريّة وساهم في خلخلة أسّسها دون أن يعي ذلك، وهو ما جعله يتخبّط في الويلات التي أضرّت بالأسرة أوّلًا والمجتمع ثانيًا، وذلك لما تحتلّه من مكانة مركزيّة واستراتيجيّة ضمنه.

ولمّا كانت الأسـرة هي الدعامة والركيزة الأساسـيّة لبناء المجتمع لدى كلّ الشـعوب،

حيث يعدّ نجاحها من نجاحه وإخفاقها من إخفاقه، إلّا العديد من العوامل التي تضافرت في الغـرب من أجل القضاء عليها وذلك لعدّة اعتبارات، فكيف جاز لبعض الغربيّين التكلّم عن تحطيم الأسرة، والحال أنّهم منها وإليها؟

١. العامل الاقتصاديّ والسياسيّ

لقد ظلّت الأسرة الغربيّة حتى الثورة الصناعيّة محافظة على خصوصيّتها باعتبارها تمثّل في الدين المسـيحيّ الكنسـيّ رباطًا مقدّسًـا أبديًّا لا ينتهي إلّا بالموت، ما يعني أنّ الزوجين لا ينفصـلان عن بعضهما إلا عند المـوت. وأمّا الطلاق فهو محرم عدا فـي وضع الخيانة، حيث يجوز القبول به، فالكنيسة هي الحامي للأسرة والضامن لاستمرارها، وهو ما ساهم في صمودها وبقائها لأمد طويل، حتى أنّها صارت بمثابة النموذج الناجح في شتّى المجتمعات الإنسـانيّة، إلّا أنّ هذه القداسـة قد أخذت في التبـدّد والتراجع، وذلـك لتضافر العديد من العوامل التي ساهمت في تغيير واقع الأسرة الغربيّة وجعلته يتّخذ منحى جديدًا.

فما يميّز الأسـرة الغربيّة ليست القداسة الدينيّة التي أوكلها لها الدين المسيحيّ بمختلف كنائسه فحسـب، وإنّما تضافر العديد من القيم الأخلاقيّة التي كانت تشدّ الأسرة من العمق، كالتضامن والتعاون فيما بين أفرادها، وهذا ما سـاهم فـي نجاحها وبقائها ثابتة لأمد طويل، حيث إنّ هذه القيم تمثّل المنهج الأساسيّ الذي تسير على خطاه جلّ الأسر الغربيّة؛ لأنّ في هذه القيم ما يخلق اللحمة والتفاعل البنّاء ما بين أفرادها.

ففي ظل النظام الإقطاعيّ كانت أغلب الأسـر الغربيّة مسـخرّة لخدمة الأقلّيّة الأسـريّة الأرستقراطيّة، وقد تميّزت الأسرة آنذاك بالتوسّع والتعدّد ليكون بذلك نمط الأسرة الممتدّة في الغرب هو الغالب في الفترة السابقة للثورة الصناعيّة. ويتميّز هذا النمط الأسريّ بالتكافل والتعاون والتضامن ما بين أفراده. «لقد أكّد علماء الاجتماع بوجه خاصّ أنّ شـكل الأسـرة السـائد في مرحلة ما قبل الثورة الصناعيّة، هو الأسـرة الممتدّة التي تشمل في الغالب ثلاثة أجيال تعيش معًا».[١]

فالأسـرة الممتدّة هي مجموعة أسـر نواتيّة تعيـش معًا داخل فضاء المسـكن الواحد،

١. كرار، الأسرة في الغرب، ص١٣٩.

وتمثّل نمط عيش شـائع في المجتمعات غير الصناعيّة، يعيش بها عادة ثلاثة أجيال مختلفة، وتتميّز هذه الأسـرة بالتضامن والتعاون ما بين أفرادها، حيث يرأسها الأب أو الجدّ، وتكون الملكيّة فيها عامّة، وهو ما يعبّر عن التماسك والاتحاد ما بين أفرادها، رغم تعدّدهم وكثرتهم واختلاف رؤاهم للحياة.

ورغم الظلم والجشـع والخصاصة التي تعرّضت لها الأسـر الغربيّة في تلك الفترة، إلا أنّهـا ظلّت محافظة على قيمها ومبادئها التي تضمن سـلامتها واسـتمرارها على الدوام من أجل ضمان استمرار تماسك المجتمع ودوامه. إلّا أنّ هذه القيم سرعان ما أخذت في التبدّل والتغيّر في مرحلة الثورة الصناعيّة التي رافقها النظام الرأسـماليّ كنظام اقتصاديّ جديد بدل الإقطاعيّ، وبرزت بالتالي عدّة قيم جديدة أثّرت سـلبًا في وضع الأسـرة. فكيف أثّرت هذه المرحلـة في وضع الأسـرة الغربيّة؟ وما هي أهمّ التغيّرات التي طرأت على الأسـرة الغربيّة آنذاك؟

ورغم تضافر العديد من العوامل التي سـاهمت في تماسـك الأسـر الغربيّة إلّا أنّ بروز ظاهـرة ما بات يعرف بعمل أسـر البروليتاريا لدى الأسـر البرجوازيّة إثر الثـورة الصناعيّة، وهو ما سـاهم في تفكيك وتدمير هذه الأسر باعتبار أن هذه الأخيرة قد تنشغل بخدمة الأسر البرجوازيّة، وبالتالي تذوب في فضاء العمل ويغيب عنها مفهوم التماسـك الأسـريّ وهو ما يجعـل منهم مجرد أفراد خدم لا ذوات حاملة لقيمة ومعنى، وهذا ما سـاهم بدوره في بداية التفكّك الأسـريّ بالدول الغربيّة آنذاك، ما يعني أنّ العامل الاقتصاديّ قد سـاهم في تفكيك الأسرة الغربيّة.

يبدو جليًّا أن الوضع الاقتصاديّ الجديد الذي فرضه النظام الرأسـماليّ والذي حلّ بدل النظام الإقطاعيّ قد جعل الأسرة الغربيّة تتحوّل من منتجة للمواد إلى مستهلكة لها بعد تغيير نظام العمل من إقطاعيّ إلى رأسـماليّ، وهو ما انعكس سـلبًا على الوضع الأسريّ المترابط وحوّلـه إلى مجرّد أفراد يخدمون الدورة الاقتصاديّة، وهم في الأثناء غرباء عن ذواتهم وعن أسرهم، وذلك بسبب الوضع الاقتصاديّ الجديد الذي فرضه النظام الرأسماليّ والذي يتعامل مع الأفراد وفق منطق الربح والخسـارة وإقصائه للقيم الإنسـانيّة الحاكمة لنجاح العلاقات

الأسريّة.

كما أنّ الواقع الجديد للعمل بالنظام الرأسماليّ وما فرضه من هيمنة على الأفراد في العمل جعلت من الفرد مجرّد شيء مسيطر عليه بعيدًا عن أسرته، وهذا ما أفضى بدوره إلى تفكّك الروابط الأسريّة الغربيّة وساهم في انحلالها، خاصّة وأنّ معظم أفراد الأسرة قد أبعدهم واقع العمل عن أسرهم قسرًا ممّا جعلهم يعيشون ضربًا من الاغتراب سواء أكان ذلك عن ذواتهم أم عن أسرهم ليكون التفكّك هو السمة المميّزة للأسر الغربيّة ككل.

مضافًا إلى أنّ الانتقال من النمط الزراعيّ إلى النمط الصناعيّ قد ساهم في تغيّر الأنماط الأسريّة الغربيّة، ممّا أدّى إلى إضعاف الروابط الاجتماعيّة المتينة، وبالتالي إلى تراجع التضامن الأسريّ فيما بين أفرادها. ومن ذلك بدأت الأسرة الممتدّة تتراجع أمام هيمنة الاقتصاد الصناعيّ ذاك الاقتصاد الذي يعتمد أكثر على الإنجاز لا على النسب، لتحلّ محلّها الأسر النواتيّة، هذا فضلًا عن رغبة الأفراد في التحرّر من الروابط القرابيّة عند تأسيس الأسرة واختيار الشريك خارج نطاق القرابة.

ومن المعلوم أنّ الأسرة النواتيّة هي الأسرة المتكوّنة من الأب والأمّ والأبناء، وتمثل الشكل الأسريّ الجديد إثر الثورة الصناعيّة التي شهدتها الدول الغربيّة، وقد هيمن هذا الشكل الجديد على الأسرة الغربيّة لتتحوّل من ممتدّة إلى نواة، وهو ما ساهم في تفكّك الروابط الأسريّة وانحلالها، وبالتالي تفكّك العديد من الأسر.

عديدة هي التغيّرات التي شهدتها الأسرة الغربيّة جرّاء هيمنة العامل الاقتصاديّ وطغيان الجانب المادّيّ على الواقع العلائقيّ للأفراد، وهو ما ساهم في انتشار النزعة الفردانية والميل إلى التوحد بدل الإجماع داخل فضاء الأسرة الواحدة، فالفردانيّة من ناحيتها تعبّر عما تمتلكه كلّ ذات من سلوكات خاصّة ومكاسب اجتماعيّة تؤكّد تميّز الفرد عن الجماعة، وهذا ما حلّله العديد من العلماء والمفكّرين الغربيّين على وجه الخصوص.

ضمن كتابه الأخلاق البروتستانتيّة وروح الرأسماليّة عالج «ماكس فيبر» أيضًا أهمّ الإحراجات التي تواجه الإنسان الغربيّ إثر فترة الحداثة داخل النظام الرأسماليّ بهذه

المجتمعات. حيث شجع هذا النظام الاقتصاديّ على العمل الحرّ للأفراد، فمن خلال تناوله لإشكال العقليّة البروتستنتيّة وإيمانها بدور الفرد في العمل بمعزل عن المجموعة فسر فيبر الواقع الاجتماعيّ للتحوّلات العميقة التي ضربت الأسرة والفرد الغربيّ، انطلاقًا من الوقائع الاقتصاديّة وما حتّمته من إكراهات وكسب بشع، فكانت الأسرة ذلك هي الضحيّة الأولى لهذا النظام، حيث «أصبح الكسب هو الغاية التي يحدّدها الإنسان لنفسه، ولم يعد بالنسبة إليه وسيلة لإشباع حاجاته المادّيّة. هذا القلب والعكس لما نسمّيه الوضع الطبيعيّ مهما بدا عبثيًّا من وجهة نظر ساذجة، هو بوضوح اللازمة المميّزة للرأسماليّة».[١]

إن ما آلت إليه الأسرة الغربيّة من تغيّرات عديدة على شاكلة تشوّهات اجتماعيّة جعلت من بنائها العام ينحرف عن مساره السليم نحو المعاناة والسخط، وهو ما جعلها تنساق نحو التغيّر والتبّدل، سواء أكان من حيث الشكل أم من حيث الدلالة، ما يعني أنّ الأسرة الغربيّة منذ الثورة الصناعيّة إلى اليوم أخذت في التغيّر والتبدّل، وبالتالي التجرد من العديد من القيم والمفاهيم الأخلاقيّة ليكون الفراغ القيميّ هو السمة المميّزة لها.

كما أنّ النظام الاقتصاديّ الجديد الذي اتّبعه الغرب قد ساهم في انتشار ظاهرة الاغتراب الأسريّ بين أفراد الأسرة الواحدة، وذلك نظرًا للجشع والاستغلال الذي يتعرّض له كلّ فرد داخل العمل، ما يعني أنّ كلّ ذات توفّر الحيّز الزمنيّ الأكثر للعمل لا للأسرة، وهو ما بات ملحوظًا من خلال ارتفاع عدد ساعات العمل ضمن مجال العمل ليكون بذلك القسط الأصغر من الزمن للعائلة.

كما هو معلوم فإنّ الأسرة الغربيّة قد شهدت عدة تغيّرات منذ الثورة الصناعيّة إلى اليوم، وقد غذّاها التحوّل الاقتصاديّ في عدّة مناسبات، وهو ما جعلها تتغيّر من حيث هيكلها العامّ من ممتدّة إلى نواة، كما أنّ ميل أفرادها بات متّجهًا نحو التفرّد والنرجسيّة بدل الوحدة والتضامن، ورغم الدور الريادي الذي لعبه العامل الاقتصاديّ في التأثير على البناء العام للأسرة الغربيّة ولواقعها العلائقيّ، إلّا أنّه لم يكن العامل الوحيد الذي أدّى إلى تغيّر

١. فيبر، الأخلاق البروتستانتيّة وروح الرأسماليّة، ص٢٩.

شــكلها ومضمونها، وإنّما نجد عدّة عوامل أخرى تضافرت، وكان هدفها الأساســيّ تحقيق التقدّم والرقيّ الأســريّ، وبالتالي تغيّــر الواقع نحو ما هو أفضل مما هــو عليه، ففيما تتمثّل هذه العوامل؟ وهل اســتطاعت فعلًا تحقيق أهدافها المرجوّة؟ أم أنّها انحازت عن مســارها المنشود؟

يبدو أنّ الأســرة الغربيّة قد فقدت وظائفها السياســيّة التي منحها إياها النظام الإقطاعّي، خاصّة وأنّه قد أولاها بالاهتمام والرعاية، باعتبار أنّه كان يعوّل على الأسر كثيرًا؛ لأنّه اكتسب مشروعيّته منها، فلم تعد الأسرة هي الأساس بل صار المواطن ذاك الفرد العامل هو الأساس ضمن النظام الرأســماليّ، وذلك لما يقدّمه من مجهود بدنــيّ ضمن الدورة الاقتصاديّة لهذا النظــام، وبذلك صار الفرد هو الوحدة الأساســيّة للمجتمع وليس الأســرة، ومن ذلك وقع تفكيك مكوّنات الأسرة الأساسيّة ليتحوّل كلّ فرد منها إلى وحدة مستقلّة بذاتها عن الآخرين؛ وذلك لأنّه بات ينظر إليه على أنه مكوّن فاعل في المجتمع لا بحسب انتمائه الأسريّ، وإنما لما يقدّمه من فعل.

إذا أولينا أنظارنا كرة أخرى نحو التمزّق الأســريّ الذي رافق التحوّل الاقتصاديّ خلال القرن الســابع عشر واستمر معه إلى يومنا هذا، فســيتبيّن لنا أنّه قد أثّر سلبًا على واقع الأسرة الغربيّة، وجعلها تتحوّل إلى أســر نواتيّة بعد أن كانت ممتدّة، وهو ما أفضى حتمًا إلى ظهور عدّة تشــوهات على المنظومة الأســريّة، خاصّة وأنّ جلّ الروابط التي كانت تشــدّ مكوّنات الأســرة الممتدّة في الســابق قد تفكّكت، باعتبار أنّ التآزر والتعايش الذي أحكمته الأســرة الممتدّة من اجتماع قد حلت مكانه النزعة الفرديّة وحبّ الذات، والميل إلى التفرّد والعزلة، وقد استمرّت هذه المظاهر الأسريّة الجديدة حتى يومنا هذا وزادتها العولمة والانفتاح الثقافيّ تأزمًا. ففيما تمثّلت مظاهر التفكّك الأخرى؟

٢. العامل الثقافيّ

لم تكن التغيّرات الاقتصاديّة والسياسيّة فحسب المحفز الأساسيّ الذي ساهم في إرساء تغيّرات بنيويّة داخل الأسر الغربيّة والتي أفضت بها إلى الانهيار الاجتماعيّ جراء انتشار الفكر المادّيّ الذي طال الواقع الحياتيّ للأفراد من دين وأخلاق ونظام العيش ككل، بل إنّ بعض الأفكار التي تبنّاها بعض الشيوعيّين وغيرهم من المفكّرين الآخرين هم من ساهموا أيضًا في بلوغ هذا الواقع الكئيب الذي صارت عليه الأسرة الغربيّة من تفكّك وانحلال.

فاستهداف الأسرة انطلق مع الثورة الصناعيّة واستمرّ بعدها عبر ما روّجت له العديد من الشخصيّات الشهيرة عبر التاريخ شأن «فلاديمير لينين» الذي قال: «إنّ الأسرة وضع من أوضاع المجتمع لا يلائم مصلحة الدولة، فالأسرة تدعم النزعة الفرديّة والرغبة في التملّك».[١]

٣. أثر التيّار العلماني على الأسرة

يبدو أنّ ظهور التيّار اللادينيّ العلمانيّ في القرن العشرين ومحاولته فصل الدين عن الدولة ونشر قيم حقوق الإنسان، قد ساهم بشكل كبير في تجريد الأسرة من دورها التربويّ، وتسبّب كذلك في تزايد نسب الطلاق والإدمان والأطفال غير الشرعيّين، هذا فضلًا عن انتشار الانحرافات السلوكيّة بين أفراد الأسرة الواحدة، وذلك لغياب الدور التربويّ للأسرة التي صارت عبارة عن كلٍّ مليء بالنشاز والمفارقات الغريبة والدخيلة عن الحياة الغربيّة ككلّ.

على هذا الأساس يبدو أنّ استهداف الأسرة الغربيّة والسعي إلى إلغائها قد شكّل هدفا أساسيًّا لدى أصحاب التيّار اللادينيّ العلمانيّ الشيوعيّ، وذلك من أجل خلق نظام مادّيّ لادينيّ لا يوجد للأسرة مكان فيه، وبالتالي خلق مجتمع مشتّت روحيًّا وقيميًّا عنوانه الفجور والانحطاط بدل الأخلاق والتفاعل البناء.

فما تجدر ملاحظته هو أنّه على الرغم من القداسة التي أولاها الدين المسيحيّ بمختلف

---

١. عبد الرحمان، المذاهب المعاصرة، ص١٧١.

كنائســه للأسرة في الغرب إلّا أنّ العديد من المفكّرين الشــيوعيّين قد سعوا إلى إلغاء الأسر البرجوازيّــة كمــا ذهب إلى ذلــك المفكّر «كومنيســت مانيفاســتو» الذي يعتقد أنّ الأســر البرجوازيّة تتّسم بالنفاق والجشع، وذلك لأنّهم باستغلالهم لأسر البروليتاريا عبر الخدمات التي يقدمونها لهم يقومون بهدمها بصيغة غير مباشرة. «إنّ إدّعاءات البرجوازيّين عن الأسرة والتعليم وعن قداســيّة العلاقة بين الوالدين والأطفال تصبح أكثر إثارة للإشمئزاز من خلال عمل الصناعة الحديثة التي تمزّق جميع الروابط الأســريّة بين البروليتاريّين وتحوّل أطفالهم إلى مادّة بسيطة للتجارة وأداة للعمل».[١]

هذا وقد ســعى أيضًا كلّ من «ماركس وأنكلز» كذلك إلى هدم المجتمع الإنســانيّ عبر أفكارهم التي اعتقدوا أنّها تدفاع عن حقوق الأفراد، إلّا أنّها من الداخل كانت ضاربة للأسرة في العمق، حيث صبّت أفكار ماركس في خانة إلغاء الأسرة، معتبرًا إيّاها حالة شاذّة محكومة بقوانين الإنتاج، وهي في الآن ذاتــه حاملة لقوانين الرقّ؛ لذلك عمل على إلغائها قائلًا: «إنّ نظام الرقّ الكامن داخل الأســرة يتطوّر تدريجيًّا بزيادة السكان، ونموّ الاحتياجات، وبامتداد العلاقات الخارجيّة عبر الحرب أو التجارة».[٢]

يبدو أنّ التصوّر الماركســيّ للأســرة لم يخدم الأســرة الغربيّة بقدر ما ساهم في هدمها وضربها من العمق، فبإقراره بأنّ الأســرة حالة شــاذّة أدّى إلى تفكّك الأسرة وتمزّق كيانها، حيث إن اعتقاده بضرورة تدمير الأسرة، وذلك لأنّها في نظره تمثل نظامًا غيبيًّا يصنعه الإنسان لنفســه حينما يكون في وضع اغتراب وفقدان للوعي بوجوده الحقيقيّ، قد ساهم في تشويه مفهوم الأسرة.

أمــا أنكلز ورغم تقارب أفكاره من أفكار صديقه ماركس، وأيضًا رغم قداســة الأســرة داخل مجتمعه المســيحيّ، إلا أنّه يعدّ المفكّر الشــيوعيّ الوحيد الذي خصّ الأسرة بدراسة في كتاب خاص عنونه بأصل العائلة، وقد سعى ضمنه إلى تفكيك مؤسّسة الأسرة من خلال

1.*Communist Manifesto, Included in Assential Writings of Karl Marx*, p.228.

2.Marx, *German Ideology*, p.99.

دعوته الصريحة إلى إلغاء نظام الزواج وإباحة الطلاق؛ لأنه يرى في الأسرة والزواج مصدرًا للعبوديّة. كما اعتبر أنّ نظام الزواج يحدّ من سلطة المرأة ويخضعها لسلطة الرجل وهو ما يفضي بنظره إلى استعباد الرجل للمرأة «إن أوّل اضطهاد طبقيّ بدأ باضطهاد الذكر للأنثى».[1]

ولأجل تبرير موقفه من اضطهاد الرجل للمرأة، أقرّ «أنكلز» بأنّ الزواج يجعل من المرأة خاضعة للرجل وخادمة له، خاصّة وأنّ تعليمات الزواج تحصر علاقته به على نحو أبديّ، وهو ما يحرمها من ممارسة حرّيّتها الجنسيّة، ومن ذلك يعتبر أنكلز بأنّ المرأة ضحيّة النظام الأسريّ؛ لذلك راهن على ضرورة إلغاء مؤسّسة الزواج والعمل على إرساء مساواة اجتماعيّة بين كلا الجنسين.

يبدو أنّ فكرة تحرير المرأة والمطالبة بمساواتها مع الرجل التي نادى بها أنكلز قد ساهمت في تفكيك نظام الأسرة المسيحيّة الغربيّة؛ لأن نزع المرأة من موقعها الأصليّ في الأسرة باعتبارها زوجة وأمًّا، فضلًا عن أعمال الرعاية التي تقوم بها داخل أسرتها، يؤدّي حتمًا إلى تمزّق الرابط الزوجيّ المقدّس، وينجرّ عنه تفكّك محتويات العائلة من تشتّت للأبناء وهدم للأخلاق والقيم التي لطالما سعت الأسرة الغربيّة إلى المحافظة عليها، إلا أنّ بوجود مثل هذه الأفكار قد أدّى إلى تفكّك الأسرة الغربيّة وألغى وظيفتها داخل المجتمع باعتبارها تمثّل النواة الأساسيّة داخله.

كما أنّ فكرة خروج المرأة للعمل وتضييق الخناق عليها اقتصاديًّا وما رافقه من دعوات الماديّين لحرّيّة المرأة المطلقة بالإضافة إلى رفع شعار الحرّيّة والمساواة من قبل فلاسفة الأنوار قد ساهمت كلّها في تفكيك الأسرة الغربيّة وانحلالها؛ لأنّ هذه النقاط لم تكن إلا بداية لبروز عدّة تغيّرات اجتماعيّة أخرى قد ساهمت بشكل كبير في تفكيك الأسرة، كبروز الحركات النسويّة بداية القرن التاسع عشر وانتشار فكرة الطلاق والميل إلى التوحّد بدل الإجماع وأيضًا انتشار ظاهرة الانتحار.

ونظرًا لأهمّيّة إشكال الأسرة في شتّى المجتمعات، فقد اهتم دوركهايم هو الآخر

1.Engels, *The Origin of the family*, p3 of 16.

بالتغيّرات التي طرأت على شكل الأسر الغربيّة، معتبرًا أنّ العديد من المتغيّرات قد طرأت على الأسـرة الغربيّة في فترة زمنيّة وجيزة أدّت إلى العديد من النتائج الوخيمة على البناء الأسريّ السليم كانتشار ظاهرة الانتحار بين الأفراد، إلى جانب انتشار ظاهرة الطلاق وانخفاض نسبة الولادات، وبالتالي إفقار العلاقات الأسـريّة من محتواها البناء؛ لذلك راهن دوركهايم على نقدهـا. «حدثت متغيّرات عميقة في مكوّنات مجتمعاتنا في فترة وجيزة جدًّا، (...) فعقيدتنا؛ وتقاليدنا فقدت نفوذها؛ وأصبح القرار الفرديّ تحرّرًا من رأي الجماعة».[1]

خامسًا: الحركات النسويّة الغربيّة والتيّار اللادينيّ

يمثّل ظهور الحراك النسـويّ فـي العالم الغربـيّ تحدّيا خطيرًا لوجود الأسـرة الغربيّة والمجتمـع ككل، باعتبار أنّه في بحثها المتواصل عن الحرّيّة والمسـاواة المطلقة مع الرجل أي الدعوة المطلقة لإلغاء المفاهيم والأصول الدينيّة التي تقر بحتميّة الخلق إلى حدّ تلاشي مقاصـد التدابير والحكمة الإلهيّة من وجود الزوجين الذكر والأنثى قد أفضى هو الآخر إلى تفكّك مفهوم الأسـرة وانهيار القيم التربويّة، باعتبار أنّ المطالبة بمثل هذه المسـاواة تجعل مـن صورة الأبويّن هزيلة أمام الأبناء، وربما هذا ما لاحظناه في التفكّك الذي ضرب العائلة الغربيّة شأن انتشار الطلاق والفجور.

كما أنّ بحث هذه الفئة عن العدالة والديمقراطيّة الجنسيّة وما تضمّنته من ضرب للشعبويّة النسويّة التي قامت على سياسة انقسام واستقطاب جنسيّ وضعت النساء في صراع مستمرّ مع الرجال بحجّة الظلم الجنسيّ، وهو ما ساهم في خلق أفق أسريّ متوتّر بين الأزواج أفضى إلى أفق أخلاقيّ خانق. هذا فضلًا عن تراجع دور الأمّ في تربية الأطفال، خاصّة في وضع الطلاق، فبتراجع ما يعرف برعاية الأمومة في علاقة الطفل بأمّه في مرحلة التذاوت الأوّليّ للطفل من خلال عدم تلبيتها لحاجيّاته العاطفيّة والنفسيّة والبيولوجيّة حتى يكبر، يجعل من الأطفال أكثر عرضة للضياع والتشـتّت. «فالرعاية الأمّوية تبدو علـى أنّها إنبثاق لكلّ قوى الطفل، وبذلك

1.Lukes, *Emile Durkheim*, P.165.

فالأمّ تمثل بالنسبة إلى الطفل «التذوات الأوّليّ».[1] فلوجود الأمّ في الأسرة أهمّيّة بالغة، وذلك لأنّها تساهم في تشكيل شخصيّة الطفل على خلاف ما يعانيه أبناء الشوارع.

لم تكتف الحركات النسويّة بالمطالبة بالمساواة مع الرجل والحرّيّة فحسب، بل إنّها تعّدت ذلك بكثير حينما بدأت بعض الرائدات الغربيّات في مهاجمة كيان الأسرة، وذلك لاعتقادهن بأنّ الزواج هو الفضاء الذي يسمح للرجل بممارسة نزعته الاستعباديّة بطريقة مشروعة، وبذلك فقد اتجهت معظم توجّهات الحركات النسويّة نحو مهاجمة الأسرة واعتبارها مؤسّسة تجعل من المرأة مجرّد خاضعة لا فاعلة.

فهذه الحركات النسويّة تصف الأسرة بالسجن، وتعتقد أنّ في خروجها للعمل ضربًا من الحرّيّة التي تقيها عذاب السجن، وهذا ما أوضحته إحدى الرائدات الأمريكيّات في فترة الخمسينات من القرن العشرين، حينما أعلنت بيتي فريدان مؤسّسة الحركة الأنثويّة بأنّ «الحرّيّة تعني، قبل كلّ شيء، التحرّر من الأسرة».[2]

ومع مرور الزمن فإنّ سؤال الحركات النسويّة في الغرب لم يعد من أجل البحث عن كيفيّة تحرير المرأة والمطالبة بمساواتها مع الرجل كما هو الحال في القرن التاسع عشر، بل تعدّاه للبحث في مستقبل المرأة المتحرّرة وما اتّصل بها من قضايا حياتيّة راهنة. هذا فضلًا عن مطالبتها بالحرّيّة الجنسيّة والاختلاف الجنسيّ والتحوّل الجنسيّ، وقد تعزّزت هذه المطالب خاصّة مع بروز عدة أقلام نسوية بالعالم الغربي. إلا أن هذه المطالبات قد ساهمت بصيغة غير معلنة في تفكيك الأسرة الغربيّة ونزع القداسة عنها.

وعلى الرغم من أنّ العديد من المفكّرات كانت ترمي إلى بلوغ أفق الاعتراف الجنسيّ بالنساء داخل مجتمع ذكوريّ بامتياز، أي البحث عن المناصفة التشاركيّة بين الجنسين، وذلك لأجل القطيعة مع التبعيّة الجنسيّة إلّا أنّ ذلك قد جعلها تساهم في تفكيك أسرتها والزجّ بها في أفق المجهول، خاصّة وأنّ المرأة وما تحمله من رمزيّة للأمومة هو ما جعل

1.Honneth, *La Lutte pour la reconnaissance*, p.167.

2.Burger, *The War Over The Family*, p. 34.

من الأسرة الغربيّة النموذج الذي ينحدر نحو اللامعنى والمجهول، وبالتالي تتحوّل إلى كيان مفكّك لا معنى له.

فهذا الوضع الذي وجدت المرأة ذاتها فيه لم يتقدّم بها إلى الأفضل، وإنّما زادها سوءًا، خاصّة مع ظهور الرأسماليّة والثورة الصناعيّة التي أوجبت ضرورة خروج أفراد الأسرة للعمل، فضلًا عن تنامي ألاعيب الرأسماليّة المتمثّلة في الزيادة في الأسعار وإقناع الأفراد بضرورة الإقبال على الاستهلاك لتتحوّل المجتمعات الغربيّة إلى مجتمعات استهلاكيّة بامتياز.

كما أنّ تحدّيات العولمة والتكنولوجيّات الحديثة قد ساهمت هي الأخرى في إضعاف دور الأسرة الغربيّة من كونها تمثّل المرجعيّة الأخلاقيّة والقيميّة الأساسيّة للناشئة، إلى جعلها مجرّد فضاء عاديّ يسكنه الأفراد فحسب، وذلك من خلال ما تنشره من ملذّات الحسّ وإثارة الغرائز عبر مواقع الإنترنت المتعدّدة، لتكون هذه المواقع المحرّك الأساسيّ لتفكير الناشئة بدل الأسرة التي من المفترض أن تكون هي الأساس في بناء الهويّة الثقافيّة للأفراد لا غيرها. «الأمر نفسه ينطبق على الإمبرياليّة الكلاسيكيّة المؤسّسة على مبدأ أنّ التسلّط الذي ينبني دائمًا على هذا النوع من مخادعة التقدّم، والاستعمال الأحاديّ لسلطة التكنولوجيا، حيث يمكن لخصوصيّات الشعوب أو خصوصيّات الثقافة التي باسمها قام النضال نحو الاستقلال أن تصبح في بعض الحالات غطاء للماضي وللمغالطة».[١]

لقد استهدفت العولمة القلب النابض للأسرة الغربيّة من خلال ضربها لعقل النشؤ، فقد جعلته مفرغًا من الهويّة الجماعيّة التي نشأ عليها، وبالتالي تفكيك المحتوى الداخلي للأسرة من خلال إفراغها من كلّ محتوى أخلاقيّ قيميّ من خلال زرعها المستمرّ للتشتّت والتّفتت، لتجعل من الإنسان الغربيّ فاقدًا لمضمونه القيميّ، ومن ذلك جعله إنسانًا هجينًا قيميًّا، فأين تكمن مظاهر تفكّك الأسرة الغربيّة الممتدة؟ وماذا ترتّب عن ذلك؟

١. شريف، جاك بيرك، ص٩٢.

سادسًا: الأسرة الغربيّة من المعنى إلى اللامعنى

من المعلوم أنّ العالم الغربيّ قد شهد عدّة تغيّرات سياسيّة واقتصاديّة واجتماعيّة وثقافيّة أثّرت سلبًا على الواقع الأسريّ الذي شهد عدّة تحوّلات عميقة أفرزتها التحوّلات الصناعيّة التي ساهمت في تفكّك مكوّنات الأسرة الممتدّة، وجعلت من الفرد شخصًا مجرّدًا من جلّ الروابط الأسريّة، وذلك بسبب مخلّفات الثورة الصناعيّة وتغير نظام العمل من فلاحيّ إلى صناعيّ، أي من نمط عمل يتطلّب تظافر جهود أفراد الأسرة إلى عمل يتطلّب مجهود بدنيّ فرديّ، هذا إلى جانب انتشار ظاهرة ما بات يعرف آنذاك بالهجرة لأجل البحث عن عمل وغيرها من العوامل الأخرى التي فرضها النظام الاقتصاديّ الجديد في فترة القرن السابع عشر، كتفقير الأفراد، وتشويه واقع العمل الذي ينتمون إليه، كما أن هذه التغيرات قد أثّرت سلبًا أيضًا على واقع الفرد الذي تمّ تجريده من كلّ الروابط التي تشدّه للأسرة، كالتعايش السلميّ والتسامح والتعاون بين أفراد الأسرة الواحدة.

كما أنّ الوضع الاقتصاديّ الجديد قد أوجب ضرورة خروج المرأة للعمل إلى جانب الرجل، وهو ما ساهم كذلك في تفكّك الأسرة الغربيّة والذي تعود أهمّ أسبابه إلى خروج المرأة للعمل، مما يعود بالسلب على بناء المجتمع، وذلك من ناحيتين: فمن ناحية يتجلّى ذلك التأثير على تربية الأطفال، ومن ناحية أخرى فإنّنا نلتمس معاناة المرأة في محاولتها التوفيق بين العمل خارج البيت ومقتضيات البيت. وهنا تبدو الضحيّة مزدوجة، إذ الطفل والأمّ ضحيّة نظام اقتصاديّ واجتماعيّ يزجّ بهما في المعاناة المتبادلة.

فالوضع الاقتصاديّ الجديد الذي خلّفه التوجّه الصناعيّ لم يكشف عن المقاساة التي تعترض الأسر الغربيّة المقموعة الحقوق فحسب، بل إنّه تعدّى ذلك بكثير ليكشف لنا عن تدهور وضع الأسرة في الغرب. لقد أعطى هذا النظام الرأسماليّ للمفاهيم والمقولات الإنسانيّة العامّة مدلولات تتعارض تمامًا مع أهدافه، فهو نظام يتظاهر بتسهيل حياة الأسر وضمان رغد العيش لها، إلّا أنّه يضمر في طيّاته ضربًا من المفارقة العجيبة التي أضرّت بالبناء العام لهذه الأسر، وهذا ما نترصّده من خلال كتابات العديد من المفكّرين الغربيّين.

فهـذا النظام الاقتصاديّ خاصّة في فترة العشـرينات رغم ما وفّره من تسـهيلات للحياة الاجتماعيّـة للأفراد ورغد عيش، إلا أنّه قد حمـل لهم العديد من الإحراجات التي تقف في طريقهم إلى تحقيق ذواتهم. ويتجلّى ذلك أساسًا من خلال تفريده للعلاقات الأسريّة القائمة بين أفراد الأسـرة الواحدة، وتجريد الإنسـان من إنسـانيّته، هذا بالإضافة إلـى ما ترتّب عنه من قلق كبير داخل المجتمعات المعاصرة، وضمن هذا المسـتوى كتب الفيلسـوف وعالم الاجتماع أكسل هونيت في شأنه. «ومن هنا نستطيع أن نبيّن كيف أن تطوّر الرأسماليّة الليبراليّة -الجديدة الراهنة تتّجه نحو جعل شروط تحقيق الذات، بالنسبة إلينا جميعًا، غير ممكنة- مثلًا الاتجاه نحو التسـليع أو الاتجاه نحو تدمير العلاقات الخاصّة، حيث توجد دواعي تصريف الهويّة».[1]

إنّ الواقع الاجتماعيّ الجديد الذي كرّسـته المنظومة الرأسـماليّة من إيديولوجيّات، قد أثّـرت في القيم الأصيلة للأسـر الغربيّة، وتـمّ تغييرها بقيم إيديولوجيّـة تعلن عن الإنحدار والتراجع الأخلاقيّ لها، بحيث صارت هذه الأسـر ضمن المنظومة الرأسـماليّة في العصر النيوليبراليّ قوّة منتجة فحسب، لا ذات قيمة أخلاقيّة.

هذا وفي تناول هونيت لواقع الفرد المعاصر باعتبار أنّه يعدّ جزءًا من الأسـرة الغربيّة وما طرأ عليها جراء التأثيرات الاقتصاديّة والاجتماعيّة المحدقة به، وما صار عليه من إيديولوجيا جعلته غريبًا عن واقعه ذكّرنا بقصّة «أوليس» التي رصدها كتاب جدل التنوير لكلّ من «ماكس هوركهايمـر» و «تيـودور أدرنو»، وكيف طابـق هؤلاء مغامرة «أوليـس» المأخوذة من نصّ الإيلياذة والأوديسـة، وواقع الإنسـان الحديث؛ إذ يقولان «إنّ ما تركه «أوليس» خلفه دخل مملكـة الظلال، ذلك أنّ الأنا قد ظلّ أقرب إلى أسـطورة ما قبل التاريخ من نزع نفسـه عنه، والماضي الذي عاشـه هو بالذات تحوّل إلى ماضٍ أسطوريّ... وبعد أن أصبح معرفة عمليّة صـار الماضي بتصرّف الحاضر».[2] ليكون بذلك «أوليـس» قد مثّل في جدل التنوير نموذجًا

1.Honneth, *La société du mépris : vers une nouvelle théorie critique*, p. 180.

٢. هوركهايمر وأدرنو، جدل التنوير، ص.٥٤.

للحظة الإنسان الغربيّ الحديث الذي تكلّم عنه الكاتبان، وبذلك نفهم أنّ أسطورة الأوديسة تمثّل حقًّا أوّل الوثائق التي تمثّل واقع الحضارة الرأسماليّة الغربيّة حسب تفسيرهما لجدل التنوير.

ومع ما شهده الوجود الأسريّ الغربيّ من تحوّل في كيانه من أسرة ممتدّة إلى أسرة نواتيّة ومن الوضع الإقطاعيّ إلى الوضع الصناعيّ صار وجود الفرد يفهم كأداة منتجة فحسب، وليس كذات إنسانيّة صاحبة إرادة حرّة نابعة عن ذات مستقلّة ومعترف بكيانها اجتماعيًّا، وهذا ما ترتّب عنه من انهيار للقيم الأخلاقيّة والاجتماعيّة للأسرة الغربيّة، وباتت هذه الأخيرة تعيش ضربًا من المفارقات على مختلف الأصعدة. ويبدو أّن مشكلة النزعة الفردانيّة التي خلفتها عدّة أنظمة حياتيّة داخل المجتمعات الغربيّة قد أثّرت سلبًا في القيم التربويّة والاقتصاديّة للأسرة، وذلك لما ترتّب عنها من تفشٍّ للعديد من المفاهيم، كالقلق والكآبة والضياع الوجودي، وهو ما أفضى بالمعنى التايلوري للكلمة إلى «ضياع للمعنى».[1]

سابعًا: التفكك الأسريّ الغربيّ على محكّ النقد

إذا كانت الأسرة الغربيّة قد ظلّت متماسكة البنية، وذلك بفضل ارتباطها بأصول الدين المسيحيّ الذي يقدّس الأسرة، ويرى فيها جزءًا لا يتجزّأ من المؤسّسة الدينيّة المسيحيّة بمختلف كنائسها، إلّا أنّ ذلك لم يمنعها من التعرّض لعدة تغيّرات وتحدّيات فيما يخصّ مفهومها ونظامها ووظيفتها، وذلك بالرغم من التقدّم والرفاه المادّيّ.

كما أنّ العديد من التغيّرات التي طرأت على الغرب قد طالت العقيدة والقيم والأخلاق ونمط الحياة، وتسلّلت مؤثّرات هذه الطوارئ خلسة إلى مكونات المجتمع خاصّة الأسرة، فكان الناتج خلخلة للبناء، وتغييرًا للمفاهيم والمبادئ والقيم والمصطلحات، وهو ما أثّر سلبًا على باقي أفراد الأسرة، خاصّة الأبناء، حيث يصبحون قادرين على الانحراف.

لقد تعدّدت نتائج التفكّك الأسريّ الغربيّ والتي أرجعها العديد الباحثين وعلماء

1.Taylor, *Le malaise de la modernité, Trad. Charlotte Melançon*, p.19.

الإجتماع إلى اختلال السلوك الأسريّ وانهيار الوحدة الأسريّة. هذا وتذهب معظم الدراسات والبحوث التي أجريت حول الأسـر الغربيّة إلى أن حالات التوتر التي سـادت بها لا تتوقف إلا بانتهاء الوجود الروحي للأسـرة أي بتفككها وانحلالها وهذا ما نلاحظه من خلال انتشار العديد مـن الظواهر الاجتماعيّة كالطـلاق والأطفال خارج إطار الزواج وأطفال الشـوارع وانتشار المتشردين والانتحار.

إن في تغيّر شـكل الأسرة الغربيّة بسـبب تضافر العديد من العوامل ما تسبب في تراجع وظيفتهـا وزاد مـن معاناة الأفـراد الاقتصاديّة وهو ما سـاهم بالتالي في نشـوب العديد من الأمـراض الاجتماعيّـة كالميل نحو العزلة والتوحد لدى العديد مـن الأفراد وغابت بالتالي مفاهيم اللحمة والتضامن ما بين الأفراد وانتشـرت عـدة ظواهر اجتماعيّة كالطلاق والتحيّز الجنسيّ والحرّيّة الجنسيّة.

وكمـا هو معلوم فـإنّ الطلاق ظاهرة اجتماعيّـة تنبع من المجتمـع، وهو كذلك مرض اجتماعيّ، قد ألمّ بالأسرة الغربيّة منذ القرن الخامس عشر، وقد جاء نتاجًا لعدّة عوامل أثرت سلبًا على الروابط الجامعة للأسرة، فالطلاق في الغرب كان مخالفًا للتعاليم الدينيّة المسيحيّة إلّا أنّ العديد من العوامل جعلته ممكنًا، وهو ما سـاهم في التّصدع المعنويّ للأسـرة، على الرغم من أنّه يعدّ من أبغض الحالات في الدين الإسـلاميّ، إلّا أنّه ترعرع بين الأسر الغربيّة، وأوجد لذاته مكانًا، وصار عنوان للعديد من التمزّقات الأسريّة.

إنّ ما يسـترعي انتباهنا في التغيّرات التي طالت الأسرة الغربيّة من العمق، وساهمت في تفكّكها منذ الثورة الصناعيّة هو خروج المرأة للعمل إلى جانب الرجل، وهو ما مهّد الطريق لظهور الحركات النسـويّة المطالبة بتحرير المرأة ومساواتها مع الرجل، هذا فضلًا عن تبنّي أغلب الأسر الغربيّة لفكرة تخفيض النسل الناجمة عن النظرة الاقتصاديّة التي تقرّ بمحدوديّة الموارد أمام زيادة السكّان، كما أنّ بعض النساء يعرضنَ عن الإنجاب بسبب العمل والوضع الاقتصاديّ، فضلًا عن تأخّر سنّ الزواج لدى النساء خاصّة، وتضافرت بذلك هذه المؤشّرات السلبيّة لتساهم في تدنّي أفراد الأسرة الغربيّة وفي بعض الأحيان في اندثارها وانعدامها.

ومن أهمّ الأسباب التي ساهمت في تفكّك الأسرة في الغرب أيضًا هو ظهور ظاهرة الزواج التجريبيّ، والذي يعيش بمقتضاه رجل وامرأة معًا دون زواج رسميّ؛ لأنّهما يعتقدان أنّ الزواج الرسميّ يؤدّي إلى الروتين والقلق، فضلًا عن انتشار ظاهرة الزواج المثليّ والعرفيّ، والمطالبة بالحقوق والحرّيّات الجنسيّة، وهو ما ساهم في انتشار الفجور وفساد الأخلاق واللهو والانحراف.

وبالعودة إلى العوامل الاقتصاديّة والسياسيّة والثقافيّة التي ساهمت في تفكيك الأسرة الغربيّة وضربها من العمق، تبدو هذه العوامل مضرّة بالأسرة لا داعمة لها من أجل الاستمرار، وهي في معظمها تبدو وكأنّها خروج عن النمط الحياتيّ المعتاد، شأن التصوّر الشيوعيّ الذي شبه الأسرة بالسجن، فكيف جاز لهم ذلك، والحال أنّ الأسرة تعدّ رمزًا لاستمرار البشريّة؟! فلولاها لما استمرّت الحياة، وهذا أثبتته الحكمة الربّانيّة في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

فما يعاب أيضًا على بعض الأسر الغربيّة هو مسايرتهم للعديد من الأفكار واهتمامهم بالجانب الاقتصاديّ للأسرة وإهمالهم للجانب الأخلاقيّ الذي يعدّ من مقوّمات النجاح الأسريّ؛ لأنّ الأخلاق هي المؤسّس والمشرّع الرئيسيّ لمجتمع ناجح، فباستهداف الأخلاق يتمّ استهداف الأسرة، وهذا ما رصدنا صداه لدى العديد من الأسر الغربيّة التي فقدت كيانها وتفكّكت جرّاء فقدانها لأخلاقها.

كما أنّ التصوّرات التي قدّمها العديد من المفكّرين الشيوعيّين والماديّين في شأن تفكيك الأسرة وإلغاء مكوّناتها تعدّ قصيرة المدى وجوفاء من العمق رغم اتحادها مع العديد من العوامل الاقتصاديّة والسياسيّة والاجتماعيّة، إلا أنها تظلّ جوفاء، خاصّة وأنّها تتعارض مع ما اقتضته الحكمة الربانيّة في كتابه عزّ وجلّ والتي تقرّ بأهمّيّة الزواج لأجل استمرار الوجود البشريّ وتواصل الحياة.

---

١. الروم: ٢١.

ومن منظور مقارن للأسرة في العالمين الإسلاميّ والغربيّ، تبدو معظم الرؤى والتصوّرات والعوامل المساهمة في تغيّر الأسرة في الغرب جوفاء من العمق: أوّلًا، لأنّها ركّزت على تحطيم الزوج، وأهملت الاهتمام بالمجتمع، والحال أنّ نجاحه رهين نجاح الأسرة، وثانيًا تبدو هذه الرؤى من منظور الفكر الإسلاميّ متعارضة وتعاليم الشريعة الإسلاميّة التي تقرّ بأهمّيّة الأسرة من أجل إرساء مجتمع متكامل. كما أنّ هذه الرؤى والأفكار والعوامل التي ساهمت في تفكيك الأسرة الغربيّة تبدو متناقضة في عمقها، وذلك لأنّها تعاني من عدم التجانس بين النظرّي والعمليّ.

فما نخلص إليه هو أنّ الوضع الاقتصاديّ والحركات النسويّة لم يكونا المحور الوحيد الذي حارب الأسرة الغربيّة، فقد نجد كذلك بعض المفكّرين الشيوعيّين والماديّين ممن هاجم الأسرة بشدّة وشجعوا على عدم الارتباط بين الجنسين، وهو ما ساهم في تشوّه الأسرة الغربيّة وتفكّكها، ليتزعزع كيانها الذي يعدّ حجر الزاوية ضمن البناء الاجتماعيّ للمجتمعات، ويتحوّل إلى كيان فاقد للرمزيّة الاجتماعيّة والأخلاقيّة.

الخاتمة

علــى الرغم من أنّ الأســرة تمثّل أوّل نظــام اجتماعيّ عرفه الإنســان، إلّا أنّ ما وصلت إليه الأســرة الغربيّة من تغيّرات عديدة قد كانــت نتاجًا لعدّة رؤى وأفكار وانحرافات صنعها الغربيّون بأنفســهم ولأنفســهم، وذلك لبعدهم عــن الحكمة الإلهيّــة ومقتضياتها من جهة، ولتصوّرهــم بأنّهم يمثّلون رمزًا للتقدّم والرقي، أي التفوّق علــى العالم، وهي نظرة دونيّة لا تجانب الحقّ، كما أنّهم اهتمّوا بالجانب المادّيّ في الحياة ونسوا الجانب الروحيّ والقيميّ.

ومــن المعلوم أنّ الأســرة تمثّل رمزًا للحضــارة والثقافة في كلّ مجتمــع، إلّا أنّ العديد مــن التغيّرات التي طالتها، خاصّة في الغرب، قــد جعلتها فاقدة للمعنى والقيمة، خاصّة وأنّ الحضارة الغربيّة قد استمرت في تدميرها من خلال تحريضها المستمر على إلغائها وإقرارها بعبوديّة المرأة ضمن الأسرة من خلال التمرّد على السنن الإلهيّة ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى**﴾،[1] وهو ما أفضى في النهاية إلى تحطيم الأسرة وعدم الرغبة في الزواج والطلاق.

وعلــى الرغم من ما طال الأســرة الغربيّة من تشــوّهات وانحرافــات جعلتها فاقدة لكلّ قيمة، إلّا أنّها تظلّ الوحيدة التي تكفل استمرار النوع الإنسانيّ، وذلك لأهمّيّة الخدمات التي تقدّمهــا في بناء الأفراد وإعدادهم للحياة الاجتماعيّة، ليكون بذلك دوام النســق الاجتماعيّ واستمراره رهين وجودها، هذا فضلًا عن محافظتها على العادات والتقاليد الاجتماعيّة التي يرثها الأبناء عن الأباء، وهو ما يســاهم أيضًا في اســتمرار العــادات وبقائها؛ لذلك اقتضت الضرورة الحياتيّة المحافظة عليها وعدم الإنســياق وراء بعض الأفكار والمعتقدات الشــاذّة التي تدعو إلى إلغائها؛ لأنّه لا بديل للإنســان عنها حتى يضمن اســتمرار الوجود البشــريّ، وبالتالي المحافظة على النوع الإنسانيّ كما اقتضت الحكمة الإلهيّة.

---

١. الحجرات: ١٣.

المصادر

١. القرآن الكريم.
٢. قرم، جورج، تاريخ أوروبا وبناء أسطورة الغرب، ترجمة رلي ذبيان، ط١، بيروت، دار الفارابي، ٢٠١١.
٣. كرار، خديجة، الأسرة في الغرب:أسباب تغيير مفاهيمها ووظيفتها، دمشق، دار الفكر، ٢٠٠٩.
٤. الخليل، خليل أحمد، المفاهيم الأساسية لعلم الاجتماع، مصر، دار الحداثة، ١٩٨٤.
٥. بدران، شبل، التربية والمجتمع (رؤية نقدية في المفاهيم، القضايا، المشكلات)، الأزاريطة (الإسكندرية)، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٩.
٦. الخطيب، عبد الحميد، نظرة في علم الاجتماع المعاصر، مصر، مطبعة النيل ، ٢٠٠٢.
٧. عبد الرحمان، عميرة، المذاهب المعاصرة، بيروت، دار الجيل، ١٩٨٥.
٨. فيبر، ماكس، الأخلاق البروتستانتيّة وروح الرأسماليّة، ترجمة محمد علي مقلد، بيروت، مركز الإنماء القومي.
٩. هوركهايمر، ماكس، وتيودور أدرنو، جدل التنوير، ترجمة جورج كتوره، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦.
١٠. إبن يعقوب الفيروز أبادي، مجد الدين محمد، القاموس المحيط، مؤسّسة الرّسالة، ط٢، بيروت، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
١١. شريف، مصطفى، جاك بيرك، المركز الثقافيّ للكتاب، الدار البيضاء، ٢٠١٩.
12. Burger, B and P, ***The War Over The Family***, Penguin books, 1984.
13. ***Communist Manifesto, Included in Assential Writings of Karl Marx***, by D. Cute Books,, New York, 1967.
14. Dictionnaire de l'académie Française, ***tome premier***(A.K) Dupont, imprimeur-libraire, 1832.
15. Engels, Frederic, ***The Origin of the family, private property and the state***, online version.
16. Honneth, Axel, ***La Lutte pour la reconnaissance***, trad. Pierre rusch, Paris, Cerf, 2000.
17. Honneth, Axel, ***La société du mépris: vers une nouvelle théorie critique***, Trad. par Oliv-

ier Voirol, Pierre Rusch et Alexandre Dupeyrix , Paris, La Découverte, 2006.

18. Lukes, Steven, ***EMILE Durkheim : His Life and Work: A Historical and Critical Study,*** Penguin Books, England, 1973.
19. Marx, Karl, ***German Ideology***, Hackett Publishing Company,1846.
20. Serge, Latouche, l'***Occidentalisation du monde***, essai sur la signification, la portée et les limites de l'uniformisation planétaire, la découverte, Paris, 2005.
21. Taylor, Charles, ***Le malaise de la modernité***, Trad. Charlotte Melançon, CERF, PARIS, 2010.

الحركة النسويّة وتحدّيات الأمومة[1]

سهيلة صادقي فسائي[2]

مقدمة

يتــمّ إطلاق مصطلح «الأمومة» عادة على مفهوم الاهتمام بالأطفال ورعايتهم، وإشــباع غريزة الأمومة على المستوى العاطفيّ والنفسيّ، والشعور بالمسؤوليّة تجاه الأولاد، وكذلك إقامة الروابط والعلاقات التي تلبّي حاجاتهم.[3] كما يطلق مفهوم «الأمّ» على نوع من الكينونة الإنسانيّة واللوازم البيولوجيّة والنسويّة. وفي الرؤية البيولوجيّة المتعيّنة يتمّ النظر إلى الأمومة بوصفها مصيرًا طبيعيًّا وبيولوجيًّا للمرأة، وفي هذا الاتجاه يعتبر السلوك الأموميّ آليّة غريزيّة من قبــل الأم، وهو أمر ضارب بجذوره فــي عمق الطبيعة والبيولوجيّا الإنســانيّة.[4] وأمّا في الاتجاهات المعاصرة فيما يتعلّق بالجنسيّة، فإنّ الأمّ تمثّل تجليًّا وظهورًا خاصًّا من العلاقات القابلــة للتغيير في الفضاء التاريخيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ، بل وحتى العرقيّ أيضًا.[5] من ذلك ـ على سبيل المثال ـ أنّ الأمّ البيولوجيّة في الأسر الأفرو ـ أمريكيّة تسهم في لعب دورها

---

١. المصدر: « چالش فمينيســم با مادرى» (تحديات النسوية مع الأمومة)، مجله علمى بژوهشى مطالعات راهبردى زنان (مجلة التحقيقات العلمية والدراســات النسوية الاســتراتيجية)، العدد ٢٨، ص ١٩ إلى ص ٤٣، صيف عام ١٣٨٤ هجري شمسي.

تعريب: حسن علي مطر

٢. دكتوراه في علم الاجتماع وعضو في الهيئة العلمية في كلية العلوم الاجتماعيّة في جامعة طهران.

3.Adams, *Mothering In The Woman In Question.*

4.Chodorow, *The Reproduction Of Mothering.*

5.Glenn, *Social Constructions of Mothering.*

الأموميّ مع سائر نساء أسرتها، وأنّ للأمّ بُعدًا أسريًّا واجتماعيًّا، ولا يكون الأطفال منتمين إلى آبائهم البيولوجيّين فقط، وإنّما هم ينتمون كذلك إلى طائفتهم وعرقهم. وعلى هذا الأساس فإنّ الأمومة تمثّل تجربة بنيويّة وحقيقة حيّة. لقد طرأ تغيّر في الغرب على ظهور الأم / الأمومة ما بين ١٩٦٠ ـ ١٩٧٠م، واقترن ذلك بمسائل متنوّعة من قبيل: عمل النساء، والدراسة في الصغر، والبنى الاجتماعيّة والاقتصاديّة والعرقيّة وما إلى ذلك. بل حتى المتغيّرات التاريخيّة – الثقافيّة التي حدثت ما بين عامي ١٩٦٠ ـ ١٩٩٠ م في بنية الأب / الأبوّة، كانت مهمّة في فهم مسألة الأمومة وتحليلها أيضًا.[1] وفي دراسة وبحث موضوع الأمومة يحظى التعريف ببعض المسائل الموثوقة والمستندة على أهميّة خاصّة، من ذلك أنّ النساء في الأزمنة القديمة ـ على سبيل المثال ـ كنّ يتزوّجن في سنوات مبكرة من أعمارهنّ، وإنّ غالبيتهنّ كنّ من الصغر بحيث تأتي عليهن الدورة الشهرية للمرّة الأولى في بيوت أزواجهنّ، وبعد سنة واحدة من الزواج يضعن مولودهنّ الأول، وبعد ذلك بسنة أو سنتين يضعن مولودهنّ الثاني، وهكذا دواليك، وبذلك تكون الأمومة وإدارة شؤون المنزل هي العمل الذي يستحوذ على كامل وقت النساء، وهي المصير المشترك بالنسبة إلى الغالبيّة الساحقة منهنّ. لقد كان يُنظر إلى الزواج والأمومة بوصفهما من أكثر الأمور طبيعيّة، وإنّ النساء اللواتي لم يكتب لهنّ نصيب في الزواج لأيّ سبب من الأسباب، أو يكتب لهنّ الزواج دون أن ينجبن، سوف يتمّ النظر إليهنّ بوصفهنّ غير طبيعيّات، وسرعان ما يسقطن من الأعين، وفي كثير من الموارد يتمّ استبدالهنّ بغيرهنّ؛ إذ كان التصوّر السائد يقوم على أنّ الأمومة هي النتيجة الطبيعيّة المترتّبة على الزواج. وفي الأزمنة القديمة لم يكن اختيار الزوجة أو الزواج أو العزوبة والحمل أو المنع من الحمل مسألة متعلّقة بإرادة المرأة أبدًا، بل كان ذلك كله يُعدّ مشروعًا طبيعيًّا.

أما اليوم فقد تغيّر الأمر إلى حدّ كبير، حيث إنّ البنات اليوم يتمتعنّ بحقّ اتخاذ الخيارات المتفاوتة وأساليب الحياة المتعدّدة، فقد أصبح بإمكانهنّ أن يخترن ما إذا كنّ يردن الحمل أم لا. وقد تدخّل التقدّم في حقل الطبّ والتكنولوجيا وأحدث الكثير من التغييرات في

1.Keary, "Changing Images of Mother / Mothering", P. 13.

هذه الشــؤون. وعلى الرغم من كلّ هذه المتغيّرات لا تزال الثقافة العامّة والظهور التاريخيّ والغالب للنسويّة «يحمل الكثير من المخاوف تجاه هذه الرؤية القائمة على تخلّي النساء عن ممارسة دورهنّ في الأمومة، ويتمّ وصف هذا الصنف من النساء بالأنانيّة».[١]

لقد أصبحت تجلّيّات الأم / الأمومة اليوم في غاية التنوّع والتعقيد، حيث أخذت تكتسب مفاهيم متنوّعة بحسب الشرائط الاجتماعيّة، والأسريّة، والقوميّة، والتاريخيّة، وحتى الطبقيّة أيضًا، بحيث يمكن الحصول على تقســيمات مختلفــة في مورد النماذج الأموميّة، من قبيل: الأم البيولوجيّــة، والأم المربّيــة، والأمّ التي ترعى الطفل (الحاضنــة)، والأمّ بالتبنّي، والأمّ المرضعــة، وحتى البنت الأمّ (أي البنت التي ترعى أمّهــا) أيضًا. وعلى الرغم من التغييرات الكثيرة التي حدثت على مدى الأعوام المختلفة، يمكن تقســيم النساء بالالتفات إلى مسألة الأمومة إلى قسمين:

١. الأمّهات اللاتي يراقبن أولادهنّ، ويرتبطن بهم.

٢. الأشخاص الذين يتقاضون نقودًا على حضانة الأطفال.

بعد عام ١٩٨٠م تمّ استقطاب الكثير من النساء نحو سوق العمل، وتركن تربية أولادهنّ لنســاء أخريات يبحثن بدورهنّ عن مجالات للعمل. ومن هنا تمّ طرح موضوع عمل النساء وتأثيــره علــى حياة الأطفال، وتــمّ تقديم الكثير من الدراســات من زاوية علمــاء الاجتماع وعلماء النفس، وقد انطوت هذه الدراســات في بعض الأحيان على نتائج متعارضة. تشــير بعض الدراســات إلى أنّ الطفل حتى بلوغه سن الثانية عشر شهرًا لا يمتلك إلّا الحدّ الأدنى مــن الارتباط بأمّه، وأنّ هذا المقدار بدوره يحظى بالقليل من الأهمّيّة، في حين تشــير بعض التحقيقــات الأخرى إلى نتائج مختلفة، حيث تتحدّث عن أهمّيّة دور الأم وارتباط الطفل بها في هذه السنوات.[٢] وعلى الرغم من أهمّيّة البحث في هذا الموضوع إلّا أنّ القدرة الاستيعابيّة لهذه المقالة لا تتسع لذلك. ولكن يمكن الادعاء بأنّ اجتذاب النساء إلى سوق العمل قد أدّى

1.Kaplan, *Mothering and Representation*, P. 193.

2.Belsky, and Nezworski, *Clinical Implications of Attachments*.

يومًا بعد يوم إلى زيادة عدد النساء اللائي يندرجن ضمن القسم الثاني، وأنّ هذا المسار يعمل علـى إعادة تعريف أداء ومفهوم ومعرفـة الأم / الأمومة، ويعمل على بلورة وصياغة العديد من التنظيرات في هذا الشأن، وفيما يلي نشير إلى بعض هذه النظريّات:

الأمومة، الاتجاهات والآراء

على مدى العقود الثلاثة المنصرمة، تمّ في التحقيقات والدراسات الاجتماعيّة إثارة كثير من الأبحاث بشـأن التسـلّط[١] والاضطهاد،[٢] وارتبط الأداء الاجتماعيّ في حقل الاضطهاد والتسـلّط بمسائل أخرى، من قبيل: تحديد الجنس (من حيث الذكورة والأنوثة)،[٣] والغريزة الجنسيّة،[٤] والعِرق والسلالة،[٥] والطبقة.[٦]

لقد سـعى عدد مـن المؤلّفين في هـذه التحقيقات إلـى بيان الاختلافات الجنسـيّة في التجارب وردود الأفعال المتبادلة والسلطة، وتوصلوا إلى بعض النظريّات في هذا الشأن.[٧]

ومن بين هذه النظريّات يمكن الإشارة إلى النظريّات التقليديّة القديمة والنظريّات الحديثة والمعاصرة فيما يتعلّق بالجنس. إنّ النظريّات التقليديّة في الجنس تؤكّد على الأدوار الجنسيّة والتعيّنات البيولوجيّة.[٨] والنواة الأصلية في البحث في هذه النظريّات تقول إنّ الاختلاف بين الرجال والنساء أمر طبيعيّ وبيولوجيّ، وأنّ الأمومة تمثّل نوعًا من الاختلاف البيولوجيّ وهو موجود بين الرجل والمرأة، وأنّ السـلوك الأموميّ آليّة غريزيّة مودعة في جبلّة الأمّ، وضاربة بجذورها في الطبيعة والبيولوجيّا الإنسانيّة.[٩]

1.Domination
2.Oppression
3.Gender
4.Sex
5.Race
6.Class
7.Anderson, *Thinking About Women: Sociological Perspectives on Sex and Gender*.
8.Parsons, *Toward A General Theory Of Action*.
9.Tiger; *Parson Cited in Gannett*, PP. 349 – 374.

وإن النســاء طبقًا لدورهــنّ البيولوجيّ في الولادة، يُعتبرن الأنســب لتربية الأطفال، في حين أنّ بيولوجيّة الرجال تجعلهم هم الأنســب للاضطلاع بالأدوار الآليّة المستلزمة للقيام بما تقتضيه الاحتياجات الاقتصاديّة المرتبطة بالعالم الخارجيّ تمامًا.[1] وأما طبقًا للاتجاهات المعاصــرة فيما يتعلّــق بالحالة الجنســيّة، فتعــدّ الأمومة نوعًــا من المفاهيــم والمقولات الاجتماعيّة، ومتأثّرة بالوضعيّة المحدّدة للنساء.

وفي بعض هذه الاتجاهات هناك ـ ضمن الإشارة إلى نظريّات العلماء الأنثروبولوجيّين ـ بيان يتحدّث عن كيفيّة التغيير في موقع النساء بفعل التغيير في الشرائط الاجتماعيّة. من ذلك ـ على سبيل المثال ـ أنّ المجتمعات التي كانت قائمة على الصيد وجمع الحبوب، كان الرجال والنســاء يتمتّعون فيها بأدوار متساوية نســبيًّا (ولكنّها مختلفة)، وقد استمرّ هذا الوضع على مدى ملايين الســنين، حتى تمّ اختراع المحراث، وبذلك فقدت النساء موقعيّتهنّ المتساوية مع الرجل بوصفهنّ جامعات للحبوب أسوة بالرجال. وقد ذكرت عالمة الاجتماع الأمريكية هيلين فيشر في كتابها تحليل العشق:

«بعد ظهور المحراث على مســرح الحياة، وحيث كان استخدامه يحتاج إلى قوّة عضليّة أكبر، تم إيكال الجزء الأكبر من الأعمال الأساسيّة على عاتق الرجل، وفقدت النساء دورهنّ التقليديّ والمشرّف بوصفهنّ حاصدات مستقلّات ومعدّات لطعام المساء».[2]

وبناءً عليه، وفي ظلّ تغيير الثوابت الجنســيّة، لم يعد للمرأة تلك القيمة التي كانت تتمتّع بها في الســابق، وتمّ فرض مهمّة تربية الأطفال عليها بوصفها من أهمّ المســؤوليّات الملقاة على عاتقهــا. وبعد الثورة الصناعية توجّــه الرجال بدورهم إلى المصانع، وأخذت النســاء يرجّحــن المحافظة على أولادهنّ، وقد وافق الرجال على هذا الأمر، ثم أصبح هذا الأمر هو الأهمّ بالنسبة إلى النساء أكثر من أيّ وقت مضى، كي يعثرن على رجل يعتمدن عليه، ويتفرّغن إلى تربية وتنشــئة أولادهنّ. ومن ناحية أخرى كانت النساء يتصوّرن أنّ انهماكهنّ في أعمال المنزل وخارجــه يزيد من الضغط عليهنّ، ومن هنا فقد فضّلن العمل في المنزل على العمل

1.Parsons & Bales, *Family, Socialization and Interaction Process.*

2.Fisher, *Anatomy of Love, The Natural History of Monogamy, Adultery and Divorce.*

في الخارج. وفي ظلّ هذه الظروف والأحوال اتفق أن ظهرت النزعة النسـويّة في الغرب من بين نساء الطبقة المتوسّطة، وهنّ النساء اللاتي كنّ يعشن في بيوت المدينة مع أطفالهنّ، وكن يحصلن علـى الوقت الكافي للتدخّل في معترك المسـائل والأبحاث الاجتماعيّة، في حين كانت الطبقة العاملة من النسـاء أحقّ بالشـكوى من الضغوط المتزايدة من الطبقة المتوسّطة من النساء اللائي تكفّلن بلعب دور القيادة في هذا الصراع، ولكن تمّ تهميشهنّ على أيّ حال.

ومع صدور كتاب ريتش[1] قبل خمسـة وعشـرين سـنة (أي في عـام ١٩٧٦ م)، تحوّل موضـوع الأمّ ليغدو هو المحور في الأبحاث والتحقيقات النسـويّة. وقد عمل هذا الكتاب على الفصل بين الأمومة بوصفها تجربة والأمومة بوصفها مؤسّسـة. ويرى ريتش أنّ الأمومة بوصفها تجربة، تنحصر في جسـد المرأة، ولا تخضع لرقابة الثقافة وسلطة اللغة، وهي قابلة للتحقّق بالنسـبة إلى النسـاء بشكل مباشـر، وأمّا الأمومة بوصفها مؤسّسـة، فهي تدفع إلى الاطمئنان بأن تكون جميع الظرفيّات وجميع الناس تحت سـلطة الرجال، ومن هنا يبدو من وجهة نظره أنّه في ظلّ الثقافات الأبويّة يتمّ اعتبار الأمومة والنسويّة بوصفهما أمرين مقترنين، ويتم فهم هويّة الأمومة بوصفها أمرًا طبيعيًّا، وتعدّ الأمومة مساوية للنسويّة. يذهب ريتش إلى الاعتقـاد بأنّ هذين المفهومين مرتبطان ببعضهما، بحيث يتـمّ تحميل كلّ واحد منهما على الآخر بشـدّة، ويعمل كلّ واحد منهما على تغطية الآخر. وعلى كلّ حال فإنّ القائلين بالنزعة النسويّة قد نظروا إلى هذا الموضوع من زوايا مختلفة، وهو ما سوف نتناوله بالبحث لاحقًا.

النسويّة والأمومة

يجب تتبّع رؤية النسـويّين فيما يتعلّق بالأمومة بشكل رئيس في أبحاثهم بشأن بيولوجيّة التناسل والولادة، وهو ما سوف نبحثة بشكل مستقلّ. إلا أنّ الموضوعات المرتبطة بالأمومة كانت بالنسبة إلى النسويّين موضوعات معقّدة وشائكة على الدوام؛ لأنّها كانت تورّطهم في مجموعة من الأبحاث الأيديولوجيّة والبيولوجيّة المرتبطة بالبنية الاجتماعيّة للأمومة.[2] ومن

1.Rich

2.Diquinzio,*The Impossibility of Motherhood, Feminism, Individualism, and The Problem* of Mothering.

هنــا يبدو أنّ الأبحاث النســويّة حول الأمومة تواجه نوعًا من التضــاد والثنائيّة، وأنّ موضوع الأمومة يمثّل واحدًا من الموضوعات التي تؤدّي إلى الانشــقاق بين النســويّين. حيث إنّنا ـ على سبيل المثال ـ نرى من جهة أنّ النسويّين التقليديّين الذين يتحدّثون عن مظلوميّة النساء، ويســعون إلى بناء عالم مناسب يكون فيه للنساء ـ ولا سيّما الأمّهات ـ أدوار خاصّة وأساسيّة فــي تربية أولادهن وتنشــأتهم. وقد كان هــؤلاء يكافحون من أجل توفيــر الحماية للأطفال والأمّهــات، ويطالبون بتوزيــع الحليب المجاني للأمهــات، وإعطاء الإجــازات العلاجيّة للنســاء من أجل حضانــة أطفالهنّ وما إلى ذلك. ومــن ناحية أخرى كان النســويّون الجُدُد والراديكاليّون منهم بشكل رئيس يتخذون مواقف مختلفة ويعارضون الأمومة. وكان هؤلاء يعتقدون بوجوب إلغاء الأمومة؛ لأنّها تعرّض النساء إلى الخطر، وتضعهنّ في موقع أدنى من الرجال. إن هذه المجموعة من النسويّين ترى أنّ النظام الأبويّ يفرض على الأمومة وظائف، ويجبر الأمّهات على إعادة إنتاج النزعة الأبويّة لدى الأطفال، ونقل القيَم الثقافيّة الغالبة إلى أولادهنّ، ويضطرهنّ إلى التماهي مع الأدوار الجنسيّة، كي تستمر سلسلة المراتب القائمة.[1]

إنّ دعم أو مناهضــة الأمومة لم يؤدّ إلى نتائج متناقضة ومتعارضة على مســتوى التنظير فقــط، بل أدّى إلى نتائج متعارضة حتى على المســتوى العمليّ أيضًــا، وترتّبت عليه تبعات متناقضة، وأدّى ذلك إلى تفاســير وأفهام متنوّعة ومتضادّة، من ذلك أنّه يمكن ـ على ســبيل المثال ـ العمل على تقســيم النسويّين إلى قسمين، وهما: النسويّون «المؤيّدون للاختلاف»، والنسويّون «المؤيّدون للتساوي». إنّ النسويّين المؤيّدين للتساوي يدعون إلى حصول النساء والرجال على فرص متساوية في الدراسة والعمل، وفي الفضاء العلميّ والعمليّ، وأن تكون لهما حقوق متســاوية، إلّا أنّهم لا يلتفتون كثيرًا إلى تساوي الحقوق في الفضاءات الخاصّة. إنّهم يســعون إلى التقليل من تأثير الاختلافات الجنســيّة على مســار التقنين، كي يصلوا إلى تحقيق أهدافهم وغاياتهم. ومن هنا يمكن الادعاء أنّ النسويّين المطالبين بالتساوي، قد جعلوا الأمور أكثر تعقيدًا بالنسبة إلى النساء، ولا سيّما الأمّهات منهنّ. إنّهم لم يكتفوا باحتقار الأسرة

1.Card, *Against Mothering and Motherhood*, p 1 (18).

بوصفها مؤسّسة فحسب، بل اعتبروا دور الأمّ أمرًا هامشيًّا وغير ذي بال، حتى ذهب بعض الأشخاص من أمثال غورينا[1] إلى الاعتقاد بأنّ التشريع في مورد حقوق الأمومة والولادة إنّما يعمل على تعزيز الصورة النمطيّة والتقليديّة للأدوار الجنسيّة والأموميّة. من ذلك أنّه ـ على سبيل المثال ـ يُشير إلى أنّ القوانين المرتبطة بالولادة بوصفها وسيلة يتمّ توظيفها في القوانين الأوروبيّة والإنجليزيّة لبيان أهمّيّة مسؤوليّة النساء في فترة الحمل، والتأكيد على قضيّة أنّ الوظيفة الأصليّة للنساء هي ولادة الأطفال ورعايتهم؛ ولذلك فإنّ هذا النوع من القوانين لا يعمل على إقامة المساواة بين النساء والرجال؛ إذ لا يتمّ الكلام عن مسؤوليّة الرجال تجاه الأطفال، أو وضع قوانين خاصّة بالرجال في هذا الشأن.[2]

وفي الحقيقة فإنّ هذه المجموعة من النسويّين ينشدون الاستقلال والمساواة وسائر الموضوعات الأخرى بوصفها من الحرّيّات الشخصيّة، بغضّ النظر عن الاختلافات الجنسيّة، ومن خلال تأكيدهم على المساواة دون النظر إلى الاختلافات يتجاهلون عناء نشاط المرأة وأهمّيّته أثناء فترة الحمل والولادة والرضاعة وحضانة الطفل بالكامل، ويعملون بذلك على انتهاك حقوق المرأة، خلافًا للمجموعة الأخرى من النسويّين المؤيّدين لوجود الاختلاف، حيث تذهب هذه المجموعة إلى الاعتقاد بأنّ للنساء احتياجاتهنّ الخاصّة، وهذه حقيقة بيولوجيّة لا يمكن إنكارها؛ فالنساء وحدهنّ من يستطعن الإنجاب؛ ولذلك يجب أن يحظين بالاحترام والتقدير. إلا أنّ بعض النسويّين المتطرّفين من أمثال شولاميث فايرستون، يذهبون في تطرّفهم حدًّا يعتبرون معه المسار البيولوجيّ المتمثّل بالولادة والإنجاب احتقارًا وامتهانًا للنساء. وقد لجأت في تعزيز رؤيتها إلى نظريّة مارلين فراي حول الاضطهاد، ونظرية كارل ماركس حول إلغاء الهيمنة والاضطهاد. طبقًا لنظرية مارلين فراي يُعدّ الاضطهاد والهيمنة منظومة سياسيّة – اجتماعيّة، وقد تمّ التخطيط لها بحيث تهيمن طبقة على طبقة أخرى بشكل متعمّد، وتعمل المنظومة المضطهِدة إلى توظيف الموانع التي تقيّد الطبقة الدنيا. ويمكن لهذه

1.Guerrina

2.Guerrina, *Equality, Difference And Motherhood*, P.1.

الموانــع أن تتجلّى ضمن إطار المعايير والقوانيــن والتقاليد والأعراف الاجتماعيّة، وتحول دون تنميــة وتطوير الأفراد في الطبقات المتدنيّة. وعلى هذا الأســاس فإنّ الاعتداء والعنف ضدّ النساء، واستغلالهنّ في البيئات الخاصّة، بل وحتى المعايير الاجتماعيّة التي تعمل على توجيه الأمومة، تشــكّل موانع تكبح تقدّم النســاء نحو الرقيّ والتطوّر. إنّ هذه الموانع لا يتمّ إدراكها في العادة بشــكل مبكر، ولكن يمكن لنــا أن ندركها من خلال التدقيق في منظومات المجتمع.

إنّ المرأة المضطهدة في المجتمع تعتبر من وجهة نظر فايرســتون ومارلين بمنزلة الطائر الحبيــس في قفص. حتى إذا نظر شــخص إلى قفص الطائر من بعيد، فســوف يناله العجب ويتســاءل: لماذا لا يحلّق هذا الطائر في الفضاء الرحب؛ وذلــك لأنّه لا يرى أعمدة القفص وأســلاكه الدقيقة مــن بعيد، ولكنّه ما أن يدنو من القفص أكثر، حتــى يدرك أنّ هذه الأعمدة مرتبطة ببعضها، وأنّها هي التي تحول دون تحليق الطائر. تذهب الســيدة فايرســتون في هذه المسألة إلى الاتفاق مع كارل ماركس في القول إنّ جميع أنواع وأشكال الاضطهاد ظالمة وغير عادلة، ويجب البحث عن أســاليب وحلول من أجل رفع هذه الموانع، ومن هنا فإنّها تسعى إلى بيان الموانع التي تقيّد نشــاط المرأة. وهي ترى أنّ العنف الجنســيّ، والقيود المفروضة على النساء بالمقارنة إلى الرجال، وتربية الأطفال تمثّل بعض هذه الموانع، وتدّعي أنّ أغلب هذه الموانع وأكثرها شــيوعًا تنشــأ من بيولوجيــا الإنجاب. إنّها ترى أنّ النســاء من الناحية البيولوجيّة المتمثّلة بالإنجاب أشــدّ ضعفًا من الرجــال؛ ولذلك كان الرجال على الدوام هم المهيمنون على المجتمع، حيث إنّهم عمدوا إلى استغلال هذا الضعف البيولوجيّ، وخلقوا تقســيم العمل القائم على الاختلاف الجنسيّ، ونتيجة لذلك فقد تمّ تحديد وحصر نشاطهنّ في إدارة المنزل وتربية الأطفال، ويتمحّض الرجال للعمل خارج المنزل. وعلى هذا الأساس فإنّ بيولوجيّة الإنجاب تؤدّي إلى عدم المســاواة في توزيع الأدوار في الأســرة البيولوجيّة. يضاف إلى ذلك أنّ بيولوجيّة الإنجاب لدى النســاء تجعلهنّ أكثر ضعفًا من الناحية النفسيّة،

ومن هنا فإنّ الرجال يخلقون مجتمعًا تعمل فيه النساء بشكل انفعاليّ، حيث يتحرّكن بتوجيه وسيطرة من الرجال.[١] وعلى الرغم من أنّ السيّدة فايرستون لا تقدّم أيّ دليل خاصّ على مدّعياتها، إلا أنّها مع ذلك تصل في نهاية المطاف إلى نتيجة مفادها أنّ الدفاع عن بيولوجيّة الإنجاب ـ بوصفها مؤسّسة ـ خطيرًا للغاية من الناحية السياسيّة؛ لأنّه يؤدّي إلى اضطهاد النساء؛ ولذلك فإنّها تنصح النساء بالعمل على ضبط عمليّة الإنجاب والسيطرة عليها. وفي المجموع يمكن القول إنّ النسويّين الراديكاليّين قد عبّروا عن موقفهم المعارض للأمومة من خلال تناولهم لمسألة الإنجاب، واعتبروا هذه العمليّة أمرًا هامشيًّا، وغير معمّ، مضافًا إلى كونه كابحًا لنشاط المرأة.

يتساءل بعض النسويّين بالقول: لماذا تعدّ حضانة الأطفال من مسؤوليّة الأمّهات فقط، ولماذا لا يتولّى الآباء مهمّة مراقبة الأطفال ورعايتهم؟ كما أنّهم يقولون إنّ أغلب وظائف الوالدين ومسؤوليّاتهم تجاه الأولاد تنحصر في مفهوم «الأمومة»، وأمّا مفهوم «الأبوّة»، فهو يقتصر على مجرّد الدعم والمساعدة العامّة. ومن هنا فإنّ النساء اللائي يتخلّيْنَ عن مسؤوليّة الأمومة يتعيّن عليهنّ الاعتذار في نهاية المطاف أو الشعور بالذنب أو الفشل.[٢]

وقد ذهب عدد من علماء النفس النسويّين، ومن بينهم دوروثي دينرستين، إلى القول إن بلوغ الأطفال وتقدّمهم في السن يقترن بنوع من الشعور بالغرابة لدى الأمّهات؛ وذلك لأنّ الأطفال يأخذون بالنموّ شيئًا فشيئًا حتى يصبحون بطول أمهاتهم، وعندها يبدأون بالنظر إليهنّ لا بوصفهنّ أشخاصًا، وإنّما كأشياء، أو ينظر إليهم على أنّهنّ مقصّرات ومذنبات تجاههم لأيّ سبب من الأسباب مهما كان حقيرًا أو جليلًا، ومع ذلك كلّه فإنّ الكثير من المنظّرين النسويّين قد اتخذوا موقفًا واتجاهًا أكثر اعتدالًا تجاه رعاية الأولاد وتنشأتهم من خلال مطالبتهم بـ «الأمومة والأبوّة المشتركة».[٣] ومن بين هؤلاء التيار المعروف بالنسويّة الأسريّة الذي يرفع

1.Firestone, *The Dialectic of Sex*.

٢. بستان النجفي، اسلام و جامعه شناسي، ص ٧٩.

3.Joint parenting

شــعار إحياء مفهوم الأسرة ودور الأمومة على سلّم نشاطه. وقالت جين بيثك إلشتين ـ وهي من المنظّرين في هذا التيار ـ في هذا الشان:

«إنّ الأمومــة دور ليــس كمثل ســائر الأدوار الأخرى. إنّ الأمومة نشــاط معقّد، وزاخر بالعطاء، وســيف ذو حدّين، وهو نشــاط ممتع رغم انطوائه على الكثير مــن العناء والتعب، حيــث يحتوي على أبعاد أحيائيّة وطبيعيّة واجتماعيّــة مثاليّة وعاطفيّة. إنّ الاتجاه نحو تقليل الاختلافات بين ممارسة الأمومة والعمل، لا يعمل على مجرّد خفض أهمّيّة علاقاتنا الخاصّة إلى حدّ كبير فحسب، بل ويعمل على تبسيط وتسطيح ما يمكن لنا ويجب أن نقوم به من أجل تغيير الأمور لمصلحة النساء».[١]

وقد ذهب بعــض المنظّرين إلى حدّ التأكيد على دور العناصر المعيشــيّة في التمييز بين الأدوار الأبويّة والأموميّة أيضًا. وقد توصّلت السيدة أليس إس. روسي ـ من خلال استنادها إلى حقيقة أنّ النساء يمتلكن من الناحية الذاتيّة إدراكًا سريعًا وأكثر حساسيّة تجاه احتياجات الأطفال، ومن خلال التأكيد على أنّ اتصال الأمّ بأولادها له صبغة أحيائيّة، وأنّ ارتباط الأب بهم له صبغة اجتماعيّة ـ إلى نتيجة مفادها أنّ النساء ـ خلافًا للرجال ـ أكثر صلة وارتباطًا بتربية الأولاد، ومن هنا يجب خلق أجواء أكثر طبيعيّة لتربية الأولاد.[٢]

التغلّب على بيولوجيّة التناسل والإنجاب: التناقضات والتحدّيات

يمثّل الطموح في الســيطرة على التناســل والإنجــاب والتغلّب علــى البيولوجيا النواة الأساسيّة للثورة الجنسيّة والسياسيّة في نهاية القرن العشرين، والتي كان يتمّ توجيهها بشكل رئيس من قبل النسويّين. وقد تحدّثت السيدة شولاميث فايرستون في كتابها ديالكتيك الجنس قائلة:

«إنّ المطالب الأولى للنظم الاجتماعيّ النســويّ سوف تتجه إلى إنقاذ النساء من شرور بيولوجيّة الإنجاب والتناسل بكافّة السُبُل الممكنة».[٣]

---

١. م.ن، ص ٨٠.

٢. م.ن.

3.Firestone, *The Dialectic of Sex*.

وقد عمد النسويّون من أجل الحصول على المقبوليّة العامّة إلى الدعاية المكثّفة للحقوق المرتبطة بمنع الحمل والإجهاض، معتبرين ذلك أمرًا ضروريًّا لتقدّم النساء في الحقل العام، وأصـرّوا على ضرورة تغلّب النسـاء على الحقائق البيولوجيّة وتجاهلهـا. وتلجأ الكثير من النسـاء حاليًا ـ ولا سـيّما في البلدان الغربيّة ـ إلى الاسـتفادة من وسـائل منع الحمل، وآمن عـدد آخر منهنّ بعمليّة الإجهاض بوصفها حقًّا من حقوقهنّ، أو اعتبار التكنولوجيا الحديث في الإنجاب (IVF) بوصفها وسـيلة نافعة وآخر وسـائل الحمل، بيد أنّ الحركة الاجتماعيّة للنسـويّين وجهودها في إطار تحرير النساء من الإنجاب قد أدّت إلى نتائج غير متوقّعة. فإن الكثير من النسـاء وفتيات الثورة الجنسـيّة من اللآئي رحّبن برؤية النسويّين بشأن الإنجاب، وجدن في نهاية المطاف أنّ هذا المشـروع مؤذٍ وخطير، ولا سـيّما عندما وجدن أنفسهنّ في منتصف العمر، على الرغم من امتلاكهنّ للعمل والظروف المناسـبة، إلا أنّ نسبة الخصوبة قد انخفضت عندهنّ إلى حدّ كبير.

إن ذات الفتيات اللاتي كنّ يدعمن رؤية النسويّين قد أصبحن اليوم من أكثر المراجعات والزبائـن في مختبرات التخصيـب، وينفقن ملايين الدولارات من أجـل الإنجاب، وإعادة عقـارب الزمن إلـى الوراء. وقد أخذ هؤلاء النسـاء يدركـن ـ على حد تعبير سـتولبا[1] ـ أنّ الإنجاب ليس رادعًا لهنّ عن التقدّم، بل أصبح أمنية بعيدة المنال.[2]

إنّ إبداع تكنولوجيّات الإنجاب يمثّل طموحًا آخر لدى الكثير من النسـويّين المتطرّفين. فمنذ عام ١٩٥٣ م كانت الكاتبة سيمون دي بوفوار وسائر النسويّين الراديكاليّين يفكّرون في طريقة تجعل الإنجاب دون وجود رجال أمرًا ممكنًا.

وفـي ظلّ التطوّر والتقدّم التكنولوجيّ وعلم الجينات أصبح الإنجاب ـ من خلال وضع الحويمـن (من أيّ متبرّع كان) في رحم المرأة، بل وحتى في الأرحام الصناعيّة ـ دون تدخّل

1.Stolba

2.Stolba, *Overcoming Motherhood, Pushing The Limits of Reproductive Choice*, p 31 (11).

الرجل أمرًا ممكنًا، وبذلك يبدو أنّ أمنية السيّدة سيمون دي بوفوار قد تحقّقت. كما أنّها قالت في كتابها الجنس الآخر:

«ربما يأتي زمان لا تعود معه ضرورة إلى تدخّل الرجال في عمليّة الإنجاب... وسيكون تحقيق مثل هذا الأمر بمثابة الاستجابة لدعاء النساء».[1]

لقد كانت السيّدة سيمون دي بوفوار أصابت في تشخيص هذه المسألة، وهي أنّ النساء قد أصبحن في العالم المعاصر أكثر تفاؤلًا بالإنجاب التقليديّ والسيطرة عليه، بيد أنّ هذا النوع من المطالب والآمال قد استتبعت الكثير من الجدليّات الأخلاقيّة. إنّ تشجيع النسويّة المعاصرة فيما يتعلّق بـ «حرّيّة الاختيار في الإنجاب» و «التشجيع على الفردانيّة» قد أدّى إلى نقاشات كثيرة حول المسائل المرتبطة باعتناد الوسائل والأدوات والتكنولوجيا الحديثة لمنع الإنجاب.

وفي الحقيقة إنّ الموقف الفردانيّ المتطرّف للنسويّة قد دفع النساء إلى اعتبار التكنولوجيّات الحديثة ـ على الرغم من التشكيك بها من الناحية الأخلاقيّة ـ أمرًا عقلانيًّا، حيث تكون لهنّ السيطرة المطلقة على قراراتهنّ بشأن الإنجاب، بيد أنّ النسويّين لم يتمكّنوا حتى الآن من النجاح في تقديم أساس أخلاقيّ متين ومقبول يستطيعون من خلاله اتخاذ قرارات أخلاقيّة صائبة حول تكنولوجيا الإنجاب البشريّ. وبعبارة أخرى: ليس هناك أيّ توجيه أخلاقيّ بشأن إبطال العلاقات الجنسيّة الخاطئة.

من ذلك أنه ما الذي سيحدث ـ على سبيل المثال ـ لو تمكّنت النساء من السيطرة المطلقة على تحديد الجنس، ثم وقع اختيارهنّ بأجمعهنّ على استخدام الحيامن التي تحمل شارة الذكورة فقط؟ لقد قامت السيّدة دورثي سي. ويرتز من جامعة ماسوتشوسيت الأمريكيّة، وجون فليتشر[2] من جامعة فرجينيا، بدراسات في هذا الشأن. وقد أظهرت نتائج تحقيقاتهما أنّ ما نسبته ٦٢٪ من علماء الجينات في الولايات المتّحدة الأمريكيّة، عبّروا عن استعدادهم للقيام باختبار انتخاب الجنس لتلك الفئة من الأبوين اللذين يرغبان بمعرفة جنس الجنين،

1.De Beauvoir, The Second Sex.

2.John Fletcher

ويعتزمان اللجوء إلى الإجهاض إذا لم يكن الجنس موافقًا لرغبتهما. وهناك وثائق من الصين والهند تثبت أنّ النساء في هذين البلدين يرغبن في الخلاص من البنات.[١] لذلك فإنّ من شأن الاستعانة بهذه التكنولوجيا أن تؤدّي إلى عدم التعادل في النسبة بين الجنسين. يذهب بعض النسويّين من أمثال السيدة ماري ماهوالد[٢] إلى الاعتقاد بأنّ الحقّ في اختيار الجنس إنما يكون مقبولًا إذا لم يكن قائمًا على أساس الانحياز إلى جنس دون آخر، ولكن من أين لنا أن نثبت أنّ هذا الاختيار لن يكون قائمًا على هذا الأساس؟

ربما توهم بعض الباحثين إمكانيّة حثّ النساء على عدم التحيّز الجنسيّ في اختياراتهم، وذلك من خلال تحسين أوضاعهنّ على المستوى الثقافيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ، بيد أنّ التحقيقات والدراسات أثبتت أنّ هذا مجرّد تصوّر خاطئ ناشئ من النظرة السطحيّة والمبتسرة.[٣] إنّ النتائج المتمخّضة عن دراسات دورثي ويرتز وجون فليتشر ترشدنا إلى حقائق مهمّة كانت غائبة عن الكثير من النسويّين المدافعين عن تكنولوجيا الإنجاب. لقد ازدهرت هذه التكنولوجيا ضمن بيئة لم تشهد بعد تحقّق المساواة بين الرجال والنساء، ومن هنا يكون خطر سيطرة الرجال على هذا النوع من التكنولوجيّات ـ كما أكّد الباحث النسويّ الأستراليّ رولاند[٤] ـ قائمًا. وحيث إنّ الرجال يمثّلون الحلقة الأكبر في السيطرة على المفاصل الاجتماعيّة، فإنّ بإمكانهم الإمساك بأحدث التقنيّات، والسيطرة على تكنولوجيا الإنجاب. وكما تقول المقرّرة النسويّة في صحيفة نيويورك تايمز السيّدة جينا كورا[٥]: إنّ المجتمع الرجوليّ هو الذي يدفع بالنساء دفعًا نحو التكنولوجيا الجينيّة، ويحول دون الاختيار الخالص والواضح لهنّ فيما يتعلّق بمسألة الإنجاب.[٦] يمكن لهذا النوع من التكنولوجيّات

1.Stolba, *Overcoming Motherhood*, p 31 (11).

2.Mary Mahowald

3.Wertz, and Fletcher, "Feminist Criticism of Prenatal Diagnosis، A Response", PP. 541 – 567.

4.Rowland, *Living Laboratories, Women and Reproductive Technologies*.

5.Gena Corea

6.Corea Cited in stolba, O*vercoming Motherhood, Pushing The Limits of Reproductive Choice,* p. 31 (11).

أن تتحوّل إلى سلاح بيدِ الرجال، ويتمّ وأد البنات ـ هذه المرة ـ والتضحية بهنّ مسبقًا[1] حتى قبل أن يجدن الفرصة لإبصار النور.

في المجتمعات التي تخلو من التفكير الدينيّ، لا يكون كلٌّ من الرجل والمرأة إلى جوار بعضهما، وإنّما في مواجهة بعضهما. وإنّ هذه المواجهة تؤدّي إلى حالات من التطرّف المفضي إلى التخاصم والكراهية وعدم الإدراك المتبادل بين الجنسين، ومن شأن التكنولوجيّات الحديثة والإنجاب الصناعيّ أن يوسّع من الشرخ والانفصال الجنسيّ، وإشباع النزعة الأنانيّة وحبّ أفراد الإنسان لذواتهم بشكل منفلت. من ذلك ـ على سبيل المثال ـ ما ذكره ستولبا[2] في مقال له، حيث قال:

«إنّ امرأتين سحاقيّتين كانتا تعانيان من الصمَم، وقد لجأتا إلى استخدام حويمن رجل أصمّ؛ لتضمنا بذلك إنجاب طفل أصمّ مثلهما، وقد برّرا ذلك أنّ الصمَم لا يمثّل إعاقة، بل هو انتساب إلى نوع من أنواع المجتمعات الخاصّة، وبذلك فإنّهما تسعيان إلى ديمومة هذا النوع الخاصّ من المجتمعات.»[3]

وعلى الرغم من أنّ البعض قد يرى في هذا الأمر نوعًا من الاختيار الواعي والناضج، ولكن من الثابت أنّ هناك أشخاصًا آخرين ينظرون إلى هذه الظاهرة بوصفها تكريسًا وتطرّفًا في الأنانيّة

الأمومة والإسلام والنسويّة الغربيّة

في الوقت الذي تذهب النسويّة إلى دفع المرأة والرجل إلى المواجهة فيما بينهما، وجعل كلّ واحد منهما منافسًا وخصمًا وندًّا للآخر، يذهب الإسلام إلى اعتبارهما وجهين لعملة الوجود الواحدة، واعتبار العلاقة بينهما علاقة بين طرفين تقوم على الإدراك والفهم المشترك. إنّ الدين الإسلاميّ ليس دينًا رجوليًّا ولا دينًا نسويًّا، وإنّما هو دين إلهيّ يسعى إلى بلورة

1.Pre-victim
2.Stolba
3.Ibid

أفضل الوجوه الإنسانيّة في كلّ واحد منهما، دون النظر إلى الجانب الذكوريّ والرجوليّ، أو النظر إلى الجانب الأنثويّ والنسويّ.

لا ترى في الإسلام أي رمز نسويّ أو رجوليّ، وإنّما التكامل في الإسلام لكلّ من الرجل والمرأة، رهن بالتناغم الكامل والتامّ بين الموجودات، فعلى الرغم من التفاوت والاختلاف البيولوجيّ بين الرجل والمرأة، وامتلاكهما للاحتياجات المختلفة، إلا أنّ هذا الاختلاف لا يعني استعلاء أحدهما على الآخر، أو ضعة أحدهما بالمقارنة مع الآخر، بل ما دام كلّ منهما يُدرك احتياجات الآخر، ويعمل على تلبيتها، سوف يحصل هناك انسجام وتناغم في عالم الخلق. وعلى الرغم من الاختلاف الفيزيقيّ بين المرأة والرجل، حيث إنّ الرجال في الغالب أقوى من المرأة على المستوى الجسديّ، إلا أنّ هذا لا يشكّل عقبة تحول دون تقدّم المرأة؛ فكلّ كائن في دائرة الخلق يتمتّع بوظيفة وجماليّة خاصّة، وليس لأحدهما فضل أو استعلاء على الآخر، وكلّ كائن هو استثنائيّ في موقعه. إنّ الإسلام ينظر إلى كلّ من الرجل والمرأة بوصفه مكمّلًا للآخر، ويضعهما في مرتبة واحدة ليشكّلا مكوّنًا واحدًا، وإنّ سوء ظنّ النسويّة بالدين يعود إلى الصورة التي ترسمها الديانة المسيحيّة واليهوديّة [المحرّفتين] عن المرأة؛ حيث تعتبر المرأة في نصوص هاتين الديانتين من أوّل الخلق مذنبة وغاوية. ففي قصّة آدم وحواء في التوراة، يبدأ الشيطان بإغواء حواء، ثم تقوم حواء بإغراء آدم، ويقول آدم في الاعتذار إلى الله: إنّ الذنب كان ذنب حواء، فهي التي أعطتني من الشجرة المحرّمة، فأكلت منها بغوايتها؛ ويقول الله لحواء: سوف أشقيك بأوجاع الحمل والإنجاب، وقال لآدم: لأنّك سمعت لقول حواء وأكلت من الشجرة التي نهيتك عنها؛ فسوف أحبسك في الأرض لتعمل وتكدح بشدّة وشقاء.[1] وبعكس ذلك الصورة المرسومة لهذه القصة في القرآن؛ حيث يتقبّل كلّ من آدم وحوّاء مسؤوليّته تجاه هذه المعصية، ويعترفان بأنّهما قد انخدعا بوسوسة الشيطان، وليس هناك مورد في القرآن ينسب إغواء آدم إلى حواء، وإنّ الله لا يعاقب أيًّا منهما، وإنّما يطلبان العفو من الله سبحانه وتعالى، وإنّ الله يعفو عنهما. إنّ صورة حوّاء في التوراة

١. العهد القديم (التوراة)، سفر التكوين، الإصحاح الثالث. المعرّب.

تمثّل صورة المذنبة والمخادعة التي تستحقّ العقاب؛ ولهذا السبب يكتب عليها أن تشقى وتعاني من آلام الحبل والولادة وتربية الأطفال وتنشأتهم. وقد كان لهذا النوع من الأفكار تأثير بالغ السوء على النساء في الغرب. من ذلك ـ على سبيل المثال ـ أنّ النساء يتصوّرنّ أنّ الأمومة تمثّل نوعًا من العقاب المفروض عليهنّ.[١]

كما نشاهد احتقار المرأة والنظرة السلبيّة لها في النصوص المرتبطة بالديانة اليهوديّة أيضًا، ومن بينها مثلًا النصوص الآتية:

«ليس هناك من شرّ يمكن أن يداني شرور المرأة... إنّ الذنب يبدأ بالمرأة، وعلينا أن نعاني من العذاب بسببها».[٢]

وقد أحصى واحد من الحاخامات اليهود تسعة آلام مكتوبة على المرأة من قبل الله بسبب المعصية التي صدرت عن حوّاء، حيث فرضها الله عليها وعلى بناتها من بعدها، وهذه الآلام التسعة كالآتي:

١. تحمّل آلام الدورة الشهريّة.
٢. دم البكارة.
٣. فترة الحمل.
٤. آلام الولادة.
٥. عناء تربية الأطفال.
٦. ثقب شحمة الأذن كما يفعل بالعبيد.
٧. تغطية الوجه والرأس كما هو شأن الثكلى.
٨. عدم قبول شهادتها.[٣]
٩. وبعد هذا كله يأتي الموت.

ولا يزال أتباع الديانة الأرثوذوكسيّة اليهوديّة يقولون في دعائهم عند الصباح: اللهمّ لك

1.Azeem, *Women in Islam Versus Women in The Judaeo Christian Tradition.*

2.*Eccle Siasticus*, 52: 91، 42.

3.Swidler, *Women in Judaism, The Status of Women in Formative Judaism. Metuchen,* p. 115.

الشكر على أن خلقتنا رجالًا، ولم تخلقنا نساء.[١]

إنّ فهم اليهوديّة والمسيحيّة للمرأة ناشئ من الاعتقاد الذي ينسب المعصية إلى حواء وبناتها، وهو فهم خاطئ تمامًا. وفي ذلك تقول آن ويلسون سشيف[٢]:

«في مثل هذه الثقافة، إنّما جاءت المرأة إلى الدنيا للدلالة على وجود نقص ودنس فيها، وأنّها تعاني من هذا الدنس بطبيعتها، ولا قِبَل لها على تغيير هذا الواقع».[٣]

وعليه فإنّه طبقًا للمفهوم الدينيّ بشأن المعصية الأولى، لا يمكن للنساء أن يتخلّصن من معصيتهنّ الأولى، حيث يولدن نساء. أمّا الصورة القرآنيّة عن المرأة فهي صورة مختلفة تمامًا.[٤]

إنّ الرجل والمرأة في المنظور القرآنيّ كلاهما مخلوق لله، وقد خلقهما لغاية واحدة، وهي عبادة الله وفعل الخيرات واجتناب المحرّمات، وإنّما يتمّ الحكم بشأنهما على هذا الأساس، وليس على أساس تصنيفهما الذكوريّ أو الأنثويّ.

إنّ القرآن لا يرى في المرأة تجسيدًا للشيطان ـ كما تفعل المسيحيّة ـ ولا يقول بعدم وجود امرأة صالحة، بل الأمر على العكس من ذلك تمامًا، فقد ضرب الله مثلًا ببعض النساء من أمثال مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم، بوصفهما نموذجين يمكن للبشريّة أن تحتذي بهما.

إنّ الاختلاف بين المسيحيّة المحرّفة وبين القرآن الكريم في النظرة إلى المرأة يبدأ تمامًا من حين ولادتها، ففي الوقت الذي تذهب المسيحيّة المحرّفة إلى اعتبار البنات خسرانًا،[٥] يتّجه الإسلام بشدّة إلى نهي الجاهليّين وردعهم عن وأد البنات، ويعتبر قتلهنّ من عمل الشيطان. إنّ الإسلام ينظر إلى المرأة بوصفها إنسانة، ويوليها الاحترام، ويطالب الآخرين

1.Kendath, "Memories of an Orthodox Youth", pp. 96 – 97.

2.Anne Wilson Schaef

3.Wilson Cited in Outub and Vazir

٤. الأحزاب: ٣٥؛ التوبة: ١٩٥؛ غافر: ٤٠؛ النحل: ٩٧.

5.*Eccle Siasticus,* 22، 3.

باحترامها. إنّ الإسلام يضع فرصة أمام النساء كي يتعلّمن ويُعلّمن، ويفتح أمامهنّ ـ في الوقت نفسه ـ فضاء شريفًا ومقدّسًا بأن يتزوّجن وينجبن ويصبحن أمهات؛ إذ الأمومة تمثّل جانبًا مهمًّا من حياة المرأة. إنّ الأمومة تمثّل نوعًا من الإبداع والخلّاقيّة الخاصّة بالمرأة، وإنّ هذه الأفضليّة إنّما تعطى للمرأة لتكون فذّة واستثنائيّة في عالم الخلق. أفلا يُعدّ سلب الأمومة من المرأة إعدامًا لها؟

تذهب اليوم الكثير من النساء الشرقيّات وحتى العديد من النساء الغربيّات إلى رفض النظريّات النسويّة المتطرّفة في حقل الأمومة؛ إذ يعتقدن أنّ النسويّة الغربيّة ضعيفة، ولا علم لها بمشاكلهنّ. لقد فشلت النسويّة الغربيّة في خلق فضاء رحب للزواج والأمومة وبيان هذين المفهومين بالشكل المناسب. لقد عمد النسويّون ـ من خلال دعوى الحصول على المساواة للنساء ـ إلى وضع بحث الأمومة في خانة الإنجاب والتناسل وانتقدوها بشدّة وقسوة، وبذلوا كل ما بوسعهم من أجل أن تتشبّه النساء بالرجال. إلا إنّهم لم يفشلوا في تحقيق هذه الغاية القائمة على تغيير سوق العمل لصالح توفير المكتسبات للمرأة فحسب، بل وتسبّبوا في الوقت نفسه بحرمانهنّ من حقوقهنّ المشروعة التي كنّ يحصلن عليها بالزواج. إنّ من بين المشاكل الأساسيّة التي تعاني منها النسويّة الغربيّة أنّها ترى مكانة الرجل مكانة مثاليّة، وبالتالي فإنّها تقع في الحفرة التي كانت تسعى جاهدة إلى عدم السقوط فيها، أي الفهم الرجوليّ للحياة، ويبدو أنّ المستقبل سيكون للنسويّة الشرقيّة الجديدة والنساء المسلمات، كي لا يتعرّضن للإحباط وعدم الثقة بالنفس في مواجهة الأنماط الفكريّة في الغرب، ومن هنا فإنّ الكثير من الدارسات والمتعلّمات المسلمات يعتبرن النسويّة الغربيّة ضعيفة وغريبة عنهنّ، ولا يرغبن أبدًا باتباع أثر النسويّة الغربيّة أبدًا؛ لأنهنّ يعتبرنها أداة استعماريّة، ويعتقدن بأنّ النسويّة الغربيّة تستند إلى تجربة أقلّيّة من النساء البيضاوات اللواتي ينتمين في الغالب إلى الطبقة المتوسّطة، فقد عمدن من خلال الاستفادة من تحليل سوق العمل إلى توسيع بعض التحليلات التي لا تربطها أيّ علاقة أو صلة بحياة الغالبيّة من النساء الملوّنات في الغرب وحياة سائر النساء في كافّة أنحاء العالم.

إنّ النساء الشرقيّات والمسلمات اللواتي لم يتعرّضن لفقدان الثقة الثقافيّة بالذات،

واللواتي يرين أنفسهنّ في غنى عن النماذج الغربيّة، ويعتقدن بأنّ الإسلام قد أقرّ بأهمّيّة دائرة حياتهنّ، وأنّه قد منحهنّ بعض المسؤوليّات في مختلف مراحل حياتهنّ، وأنهنّ يحظين بالاحترام على ما يقمن به من الأعمال، من هنا فإنّ المرأة الشرقيّة غير مضطرّة إلى قطع ارتباطها بنسويّتها، و «كينونتها الطبيعيّة»، و «كينونتها الواقعيّة». وعلى هذا الأساس فإنّ الأمومة ليست عنصر كبت أو ردع يحول دون ممارستها لنشاطها الاجتماعيّ، بل هي إبداع خاصّ بها.

إنّ تأكيد الإسلام على الرقابة النسويّة ولا سيّما على الدور الأموميّ من جهة، يقوم على تفسير غائيّ يدور حول محور المعطيات الإيجابيّة للتفكيك والفصل بين وظائف المرأة والرجل، وبالتالي فإنّ الإسلام ينظر إلى هذا الموضوع بوصفه أولويّة مهمّة وليس أمرًا إلزاميًّا، كما أنّه من جهة أخرى ينبثق عن بعض الاختلافات الطبيعيّة التي يفترضها الإسلام بين المرأة والرجل. وبطبيعة الحال لا يمكن لنا أن ننكر هذه الحقيقة، وهي أنّ الأمّهات يكابدن الكثير من الصعوبات طوال فترة الحمل والولادة والرضاع وتربية الأطفال، وهذه الأمور بدورها تفرض بعض القيود الطبيعيّة عليهنّ، وبالتالي فإنّه لا يبعد أن تتعرّض النساء لبعض الأعراض، من قبيل: الاضطرابات النفسيّة، والإحباط، والشعور بالتفاهة، أو الاغتراب عن الذات، ولن يكون بمقدورهنّ التخلّص من هذه الأعراض والتداعيات بشكل كامل، إلّا إذا تحلّين بالإيمان والدوافع الروحيّة والمعنويّة العالية. ومن هنا فقد سعى الإسلام ـ من خلال تأكيده على الأبعاد المعنويّة للأمومة ـ إلى تقوية السلامة النفسيّة والروحيّة وتعزيز والشعور بالرضى والأمل لدى الأمّهات. وبالإضافة إلى ذلك فإنّ المنزلة السامية التي تتمتّع بها الأمّهات في الإسلام، والأحكام والتعاليم الوجوبيّة والاستحبابيّة في حقل الإحسان إلى الوالدين ولا سيّما الأم، قد خلق الأرضيّة المناسبة لرفع شعورهنّ بالاغتراب عن الذات إلى حدّ كبير، وإنّ العلاقة المقرونة بالمحبّة والاحترام المتبادل بين الوالدين والأولاد في أكثر الأسر المتديّنة يمثّل خير شاهد على هذا الادعاء. إنّ الإسلام يعتبر تربية الأطفال على يد الأمّهات الطبيعيّات أولويّة، ويؤكّد على ذلك. ولكنّه في الوقت نفسه قد اتخذ موقفًا مرنًا

تجاه دور الأمومة من خلال قبوله بمنظومة التبنّي الأسـريّ، والأمومة التعاقديّة، والتربية في الأسر الكبيرة بمساهمة ومشاركة من قبل الأقارب.[١]

وعلى هذا الأسـاس يجب على النسـويّة الغربيّة أن تعمل ـ ضمن صياغة رؤية جديدة ـ على فتح نافذة لفهم موقع النساء في سائر الثقافات الأخرى؛ لأنّ إنكار تجربة وموقع النساء المسـلمات والملوّنـات ليس بالأمر السـهل. وبطبيعة الحال فإنّ التأكيـد على موقع المرأة ومكانتهـا في الإسـلام لا يعني أنّ المجتمعات الإسـلاميّة تعامل المرأة علـى طبق التعاليم الإسلاميّة، بل عى العكس من ذلك نرى اختلافات كثيرة بين البلدان الإسلاميّة في هذا الشأن، وهناك طيف واسـع مـن الآراء والأفكار حول المرأة في العالم الإسـلاميّ، وإنّ هذه الآراء تختلف من مجتمع إلى مجتمع ومن شخص إلى آخر. إنّ المسار العام في البلدان الإسلاميّة يثبـت بوضوح أنّ جميع البلدان الإسـلاميّة تقريبًا، قد انحرفت بشـكل وآخر عن الأهداف العالية التي وضعها الإسـلام بالنسـبة إلى المرأة، وإنّ هذه الانحرافات كانت بشـكل رئيس على اتجاهين متعارضين. فمن جهة نشاهد تبعيّة للغرب، ومن جهة أخرى نلاحظ دعمًا كاملًا للمحافظة والتقييد، حيث يتمّ من خلال التأكيد على الأعراف والتقاليد الاجتماعيّة ـ التي هي فـي الغالب بعيدة عن الدين ـ حرمان المرأة من حقوقها، ويتمّ التعامل معها بشـكل مختلف عن معاملة الرجل، بحيث نجد هناك عنصريّة ومحاباة غير مقبولة تطال حياة الكثير من النساء والفتيات. ويمكن لنا أن نشير إلى بعض موارد العنصريّة ضدّ المرأة على النحو الآتي:

ـ في بعض المجتمعات لا يُسمح للفتيات بالذهاب إلى المدارس كما يُسمح للفتيان.

ـ لا يتمّ الاستبشار بولادة الفتيات، كما يتمّ الاستبشار بولادة الفتيان.

ـ يتمّ التشـديد في الرقابة علـى تصرّفات الفتيات، من أجـل الحيلولة دون وقوعهنّ في الانحراف، بينما يتمّ التغاضي عن تهتّك الأولاد، أو التسامح معهم في هذا الشأن.

ـ قلّما يكون للمرأة دور الإشراف على أموالهنّ وممتلكاتهنّ بالقياس إلى الرجل.

يوجد الآن شـرخ واسـع بين ما يريده الإسـلام وبين ما نعمل على تطبيقه، وليست هذه

١. بستان النجفي، حسين، اسلام وجامعه شناسى (الإسلام وعلم الاجتماع)، ص ٨١ ـ ٨٢.

بالظاهرة المستحدّثة، فإنّ هذا الشرخ قائم منذ قرون، وقد ترك تبعات وتداعيات خطيرة على العالم الإسلاميّ وكافّة أنحاء الحياة في البلدان الإسلاميّة، الأمر الذي وفّر أرضيّة خصبة لعدم العدالة الاجتماعيّة، والقمع السياسيّ، وأنواع التخلّف الاقتصاديّ، والانقسامات السياسيّة، والإفلاس العلميّ، والكسل الفكريّ، ومن هنا فإنّ أيّ تغيير في الواقع الراهن للنساء المسلمات، دون العمل على التغيير في الاتجاه العام للحياة في المجتمعات الإسلاميّة لن يكون مثمرًا، ولن ينطوي على فائدة تُذكر، ومن هنا فإنّ العالم الإسلاميّ يحتاج إلى نهضة جديدة لتعيدنا إلى الأهداف والغايات الإسلاميّة. إنّ الواقع المزري والبائس للنساء في البلدان الإسلاميّة لا ربط له بالإسلام، بل يعود ـ على العكس من ذلك ـ إلى الابتعاد عن التعاليم الإسلاميّة، ومن هنا تقع اليوم على النساء المسلمات مسؤوليّة أثقل وأعمق من أيّ مرحلة أخرى، فعليهنّ أن يتحلّين بالجرأة والصمود في مواجهة السنن والتقاليد الخاطئة والأعراف البالية، ولا سيّما منها الأعراف والتقاليد التي تقوّض الأصول والقواعد الإسلاميّة. إنّ على المرأة المسلمة أن تسعى إلى عدم السماح لأحد بالتعرّض إليها بالامتهان والاحتقار والأذى باسم الدين، ومن ناحية أخرى، عليها أن تنشر الرؤية والتفكير النقديّ بين المسلمات تجاه ثقافة الغرب وتجاه كلّ ما يتمّ استيراده من سائر الثقافات الأخرى. إنّ التعامل والتعاطي مع الثقافات الأخرى والتعلّم منها يمثّل تجربة قيّمة، وقد تمّ التأكيد عليها في القرآن الكريم، بقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾.[1]

إلا أنّ الطاعة والتبعيّة العمياء تمثّل دليلًا على عدم احترام الذات، وعدم الثقة بالنفس.

١. الحجرات: ١٣.

الخاتمة

إنّ النسويّة الحديثة قد ابتعدت عن النسويّة التقليديّة القديمة التي كانت تستند إلى دعائم دينيّة وتتحدّث عن مظلوميّة المرأة وتسعى إلى تحسين ظروف النساء، ولا سيّما الأمّهات، كي يؤدّين دورهن الخاصّ والأساسي في تربية الأولاد وجيل المستقبل.

يذهب الكثير من قادة الحركة النسويّة إلى تأنيب النساء اللائي يردن البقاء في المنزل، وبدلًا من أن يعملوا على تقويتهنّ وإعادة الثقة إلى أنفسهنّ، فإنّهم يعملون على تعزيز الشعور بالضعف لديهن واعتبار أنفسهنّ ضحيّات، في حين كانت مؤلّفات المؤسّسين الأوائل للحركة النسويّة ما بين عامي ١٨٤٠ ـ ١٩٤٩ م تصوّر النساء العاديّات في المجتمع عادة بوصفهنّ قادرات وذكيّات وعارفات بما يطمحن إليه، حيث كان بمقدورهنّ إنجاب خمسة أو ستة أطفال، ويبذلن كلّ ما بوسعهنّ من أجل تربية أشخاص شرفاء يتمتّعون بحرّيّة في التفكير.[1]

ما هو العامل الذي دفع بالنساء السابقات إلى أن يقمن بوظائفهنّ ومسؤوليّاتهنّ رغم الصعوبات والفقر والعنصريّة التي كنّ يعانين منها؟ ربما لأنهنّ كنّ يعلمن من هنّ، ولماذا هنّ هنا، وما هي الأعمال التي يقدرن عليها؟ وللأسف الشديد بعد صدور كتاب الجنس الآخر للسيّدة سيمون دي بوفوار عام ١٩٥٤م، غابت شخصيّة المرأة عن الكتابات النسويّة بوصفها شخصيّة قويّة وذكيّة، وفي كتاب بيتي فريدان[2] يتمّ التعريف بالمرأة على أنّها ضحيّة ومضطهدة ورعديدة وجاهلة، وأنّها تفتقر إلى أبسط المقوّمات الداخليّة والذاتيّة لمواجهة التحدّيات والتغلّب على الألم، ولن يصبح بمقدورهنّ الحصول على الرخاء والاطمئنان إلّا في سياق

1.Kerstin, 1994.

٢. بيتي فريدان (١٩٢١ ـ ٢٠٠٦ م): كاتبة وناشطة نسويّة أمريكيّة بارزة تنحدر من أصول يهوديّة روسيّة ومجريّة. يرجع الفضل في اشتعال الموجة النسويّة الأمريكية الثانية في القرن العشرين إلى كتابها (اللغز الأنثوي). وحيث كانت رائدة نسويّة معتدلة فقد واجهت نقدًا لاذعًا من الفصائل النسويّة المتطرّفة التي هاجمت جماعات مثل الرجال وربّات المنازل. وقد وجّهت فريدان نفسها نقدًا في أحد كتبها الأخيرة بعنوان (المرحلة الثانية) لما اعتبرته تجاوزات متطرّفة لبعض النسويّات. المعرّب.

انخراطهنّ ضمن جماعة. وإنّ الأبحاث المتعلّقة بالأختية[١] تؤيّد هذا الأمر. إنّ النظريّة النسويّة تقول إنّ الهويّات الجنسيّة قد بُنيت على صورة اجتماعيّة، وقد أدّت على مدى التاريخ إلى ظهور اختلافات، وإلى حالات من عدم المساواة، وعليه فإنّ التركيبة الاجتماعيّة للجنسيّة قد مثّلت عاملًا لاضطهاد المرأة وقمعها.[٢] إنّ تحليل المشروع الذي تقوم وتُبنى الجنسيّة على أساسه بشكل اجتماعيّ كان مؤثّرًا في بيان الأمومة أيضًا؛ ولذلك نجد في الكثير من الكتابات النسويّة ربطًا لاضطاد المرأة ـ لأسباب ـ بموضوع الأمومة، ويتمّ التعريف بالإنجاب والولادة بوصفها من أكثر الموانع شيوعًا في قطع الطريق على التقدّم أمام النساء، ويتمّ تقديم النصح إلى المرأة بتحديد النسل والسيطرة عليه.[٣]

إنّ الأبحاث النسويّة بشأن الأمومة تواجه نوعًا من التضاد والازدواجيّة، إلى الحدّ الذي حدث معه تصدّع وانشقاقات بين النسويّين أنفسهم. إنّ النسويّين المتطرّفين من خلال امتهانهم لمؤسّسة الأسرة ينظرون إلى قيمة الأمومة بوصفها أمرًا هامشيًّا وغير ذي بال، ومن خلال تأكيدهم على المساواة بين النساء والرجال ـ دون أخذ الاختلافات الجنسيّة بنظر الاعتبار ـ يتجاهلون مشقّة نشاط المرأة وأهميّته أثناء فترة الحمل والولادة والرضاع وحضانة وتربية الأطفال، تمهيدًا لبناء الجيل القادم. إنّ المتطرّفين التقليديّين يسعون ـ من خلال التأكيد على دور المرأة في إدارة المنزل والأمومة ـ إلى مطالبة النساء بالتزام منازلهنّ وحضانة الأطفال فقط.[٤]

إنّ كلًا من النسويّين المتطرّفين والتقليديّين قد أضرّوا بالمرأة المعاصرة، وحشروا النساء في زاوية أيديولوجيّة حرجة وضيّقة، ومن هنا فقد تعرّضوا للنقد من قبل الكثير من النساء، وقالت السيدة إليزابيث غوردون فوكس في كتاب لها تحت عنوان النسويّة ليست قصّة حياتي:

---

١. الأختيّة (sisterhood): نسبة إلى الأخت، بمعنى: كون الفتاة أو المرأة أختًا. جماعة من الأخوات. المعرّب، نقلًا عن: منير البعلبكي، المورد الحديث (قاموس إنجليزي – عربي حديث).

2.Anderson, *Thinking About Women: Sociological Perspectives on Sex and Gender*.

3.Firestone, *The Dialectic of Sex*.

4.Braceras, "Conflict Between Radical Feminists and Traditionalists", P. 22.

«يتناول النسويّون المحافظون والتقليديّون المسألة وكأنّهم عازمون على حبس النساء في دور الأمومة، بينما يسعى النسويّون المتطرّفون إلى إعفاء النساء من هذا الدور بالمطلق».[1]

تسعى السيّدة إليزابيث فوكس إلى التأسيس لنوع جديد من النسويّة تطلق عليها عنوان (نسويّة الأسرة). إنّ نسويّة الأسرة تتحدّث عن ذلك الشيء المشترك بين جميع النساء، بمعنى قدرة النساء على إنجاب الأولاد. إنّ من بين الأسباب التي تجعل النسويّة الغربيّة غير محبّبة بالنسبة إلى النساء الشرقيّات ـ ولا سيّما المسلمات منهنّ ـ أنّه على الرغم من وجود الصعوبات القانونيّة والاجتماعيّة والعرفيّة التي تتعرّض لها النساء، ولكن لا زالت النساء الشرقيّات تتمتّعن بوصفهنّ أمهات ـ وليس مجرّد كونهنّ نساء ـ بموقعيّة ومكانة اجتماعيّة مرموقة، حيث يتخذن أكثر القرارات المصيريّة بشأن أمور المنزل والأطفال. وبعبارة أخرى إنّ المرأة الشرقيّة تعمل على تعويض فقدانها لحقوقها الاجتماعيّة من خلال التشبّث بدورها البارز في الأسرة، وإنهنّ على الرغم من أنهنّ لا يحظين بالدعم القانونيّ والاجتماعيّ إلا نادرًا، إلا أنهنّ لا يفتقرن إلى دعم الأزواج والأولاد بشكل خاصّ. يُضاف إلى ذلك أنّ النساء لا يزال لهنّ إسهام كبير في التجمّعات الأكثر تقليديّة، من قبيل: القرى والأرياف والعشائر، حيث يشتركن في أعمال الزراعة ورعي الأنعام والأعمال اليدويّة، وبذلك فإنّهم يُسهمن في توفير الدخل واقتصاد الأسرة.

وعلى الرغم من محدوديّة التعلّم، وانخفاض فرص الحصول على العمل والمناصب السياسيّة للنساء، إلّا أنّ مسار الأمومة لا يزال ملحوظًا في دائرة الأسرة، إنّ المراد من الأمومة هو الدور المؤثّر الذي تلعبه النساء في الحياة الأسريّة والاجتماعيّة، وليس لهذا الموضوع ما يدانيه في الغرب.

ولكن لماذا لا يحظى أهمّ عمل ونشاط في الدنيا إلا بالحدّ الأدنى من الاهتمام. إنّ الأمومة ورعاية الأطفال أمر مقدّس للغاية، ويحظى بالاحترام الفائق، ولكنّ الأمّهات لا يحصلن على الاحترام، ويتمّ وضعهنّ في المراتب المتدنّية في المجتمع عادة. من ذلك أنّ

1. Fox, "Feminism Is Not the Story of My Life", P. 22.

الإنجاب ـ على سبيل المثال ـ لا يزال مستبعدًا عن الإدراج ضمن فائض الإنتاج الوطنيّ، ولا يتمّ عدّ النساء اللواتي يعملن في منازلهن جزءًا من النساء العاملات.[١]

إنّ النســاء يعملن حاليًا في البيت وفي خارجه أكثر من أيّ فترة أخرى، وما دام يتمّ النظر إلى العمل في المعامل والمصانع خارج المنزل بوصفه هو العمل الرئيس بالنسبة إلى المرأة، فإنّ التســاوي في البيئة الخارجيّة لن يتحقّق أبدًا، إلّا إذا تولّى الرجال قســطهم من العمل في الفضاء الخاصّ، واضطلعوا بمســؤوليّتهم في المنزل، وكما تقول الســيدة ســارة روديك[٢]: يمكن للرجال أن يعملوا بدورهم على توســيع مشــروع الأمومة أيضًا، ويمكن لهذا الأمر أن يتحقّق من خلال قيامهم بمسؤوليّاتهم الخاصّة بتربية وحضانة الأطفال، وعلى الدول بدورها أن تنظر بواقعيّة إلى نشاط النساء وإسهامهنّ في استراتيجيّاتها الخاصّة، وأن تعمل على تقويم وتثمين جهود المرأة بشكل أو بآخر، وذلك من خلال توفير التسهيلات لها، من قبيل: منحها إجازة الولادة، والتقاعد المبكر، والمرونة في تحديد ساعات العمل، وحقوق البطالة، والأمن المهنيّ وما إلى ذلك.

1.Tiger; Fox; *Parson* Cited in Gannett, "What's in a Cause? The Pargmatic Dimensions Of Genetic Explanations" .

2.Ruddick, *Maternal Thinking, Toward a Politics of Peace*.

المصادر:

١. القرآن الكريم

٢. بســتان النجفي، حسين، اسلام و جامعه شناسي (الإســلام وعلم الاجتماع)، انتشارات مؤسسه پژوهشي حوزه ودانشگاه، ١٣٨٣ هـ ش. (مصدر فارسي).

3. Adams, Parveen, "Mothering", In ***The Woman, In Question***, Edited by Parveen Adams and Elizabeth Cowie, Cambridge, MIT Press, April 22, 1992.

4. Anderson, M. L, ***Thinking About Women: Sociological Perspectives on Sex and Gender***, Allyn & bacon; Boulton, M. 1983. "On Being A Mother", Tavistock; Abbot، Pamela & Wallace Claire, ***An Introduction To Sociology,*** London، Routledge, 1990.

5. Anderson, M. L, ***Thinking About Women: Sociological Perspectives on Sex and Gender,*** Allyn & bacon, 1997.

6. Azeem، Sherif Abdel, ***Women in Islam Versus Women in the Judaeo Christian Tradition, The Myth The Reality***, 2002.

7. Belsky. J and Nezworski, T., ***Clinical Implications of Attachments,*** Hillsdale، NJ، Erlbaum Association, 1988.

8. Braceras، Jennifer C. "Conflict Between Radical Feminists and Traditionalists", ***Women's Quarterly***, June 2001.

9. Card، Ciaudia, "Against Mothering and Motherhood". ***Hypatia*** vol. 11، no. 3, 1996;

10. Power, John & Curtin, Deane, "Mothering، Moral Cultivation in Buddhist Ethics", ***Philosophy East and West***, V 44 n 1,1994.

11. Chodorow, Nancy, ***The Reproduction of Mothering,*** Berkeley، University of Californis Press, 1978.

12. Corea Cited in stolba، Christine, "Overcoming Motherhood، Pushing The Limits of Reproductive Choice", ***Policy Review***, Dec 2002.

13. De Beauvoir, Simone, ***The Second Sex***, trans. H. M. Parshley, New York, Alfred A. Knopf, 1953.

14. Diquinzio، Patrice, ***The Impossibility of Motherhood, Feminism, Individualism, and The Problem of Mothering***, New York, Routledge, 1999.

15. Firestone, Shulamith, ***The Dialectic of Sex***, New York. Baktam, 1970.

16. Fisher, Helen. ***Anatomy of Love, The Natural History of Monogamy, Adultery and Divorce***. W. W. Norton in 1992 and Fawcett paperbacks in 1994.

17. Fox, G. Elizabeth, "Feminism Is Not the Story of My Life, In Motherhood". See: Barceras, Jennifer, C. 2003. ***Women's Quarterly***, March. P. 22.

18. Glenn، E, "Social Constructions of Mothering, A Thematic Overview", In E. Glenn، G. Chang & L. Forcey (eds) ***Mothering, Ideology, Experience and Agency***. London, Routledge.

19. Guerrina, Roberta, "Equality, Difference And Motherhood, The Case For A Feminist Of Equal Rights And Maternity Legislation", ***Journal of Gender Studies***, Vol. 10، No. 1, 2001.

20. Kaplan، E. Ann, ***Mothering And Representation, The Mother In Popular Culture And Melodrama***, New York, Routledge. 1992.

21. Keary، Anne, "Changing Images of Mother / Mothering", ***Australian Journal of Early Childhood***, June 2000. V. 25، I. 2.

22. Kendath, Thena, ***Memories of an Orthodox youth in Susannah Heschel***، ed. On being a Jewish Feminist (New York، Schocken Books), 1983.

23. Kerstinm, Katherine, "How the feminist establishment hurts women: a Christian critique of a movement gone wrong", ***Christianity Today***, June 20, 1994, v38 n7 p20(6).

24. Lippman, Abby, "Prenatal Genetic Testing And Screening: Constructing Needs And Reinforcing Inequities", ***American Journal of Law and Medicine,*** 17: 15-50.

25. Oakly, A., ***The Sociology of Housework***, London، Mertin Robertson. 1974.

26. ———, ***From Here to Maternity, Becoming a Mother, Harmondsworth***, Penguin, 1981.

27. Parsons, Talcott & Bales, R. F, ***Family, Socialization and Interaction Process***, New York، Free Press, 1955.

28. Parsons, Talcott, ***Toward a General Theory of Action***, Harvard University Press, 1959.

29. Rowland، Robyn, ***Living Laboratories, Women And Reproductive Technologies***، Indians University Press, 1992.

30. Ruddick, Sara, ***Maternal Thinking, Toward a Politics of Peace***, Boston, Beacon Press, 1988.

31. Stolba, Christine, "Overcoming Motherhood, Pushing The Limits of Reproductive Choice", ***Policy Review***, Dec 2002, p. 31 (11).

32. Swidler, Leonard, J. ***Women in Judaism, The Status of Women in Formative Judaism.*** Metuchen, N. J, Scarecrow Press,1976.

33. Tiger, Fox, Parson Cited in Gannett, Lisa, "What's in a Cause? The Pargmatic Dimensions Of Fenetic Explanations", ***Biology and Philosophy,*** 1999.

34. Wertz, Dorothy C. and Fletcher, John, C. "Feminist Criticism of Prenatal Diagnosis، A Response"، ***Clinical Obstetrics and Gynecology,*** 1993, 36، 541 – 567.

الأسرة الغربية الحديثة[1]

رامز أحمد[2]

بمثابة مقدمة: ثلاث فرضيّات أساسيّة

قبل الحديث عن نشـأة الأسرة الحديثة أودّ أن أثير جملة من المسائل العامّة التي تشكّل، فـي عمومها، الإطار العامّ الـذي يتحرّك داخله هذا المبحث، محـاولًا أن أضيء من خلاله علـى الظروف والوقائـع والتحوّلات التي حصلـت داخل الثقافة الغربيّـة وأدّت إلى ولادة العائلة الحديثة، أو ما يحلو للبعض تسـميته بالعائلـة النواتيّة (الأب والأمّ والأبناء) بوصفها صيغة جديدة من صيغ العلاقات الأسريّة، عمادها الأساس الحبّ والميل العاطفيّ المتبادل وتشاركيّة العمل والتربية الهادفة للأبناء.

أُشير، أوّلًا، إلى أنّ نشأة الأسرة الحديثة كانت نتيجة قطيعة أساسيّة مع الدين ونشوء عالم جديد لم يعد فيه الإيمان بوجود الله يشكّل المرجع والفضاء الذي يتحرّك داخله نظام القيم، لقد تفكّكت، انطلاقًا من القرن السـابع عشـر، الوحدة الفكريّة لعالم العصور الوسطى التي كانت تنهض على رؤية لاهوتيّة تقول بالأسـبقيّة المنطقيّة والأخلاقيّة والميتافيزيقيّة لله على الإنسان. وعزّز هذا التفكّك ظهور العلوم الحديثة، وما رافقها من قيم علمانيّة أسّست لأولويّة الكائن البشـريّ في كلّ ميادين المعرفة والثقافة، بل إنّ الله ذاته بدأ يتحوّل إلى فكرة عند هذا الكائن الذي من المفترض أنّ الله خلقه. لقد حَلّت مكان الثنائيّة القديمة الله –الإنسان ثنائيّة

---

١. المصدر: كتاب نحن والأسرة الجزء الأول، تأليف: مجموعة مؤلفين، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، النجف الأشرف، العراق، ٢٠٢١، من صفحة ٣١١ إلى صفحة ٣٣٣.

٢. أستاذ وباحث في الفلسفة، أكاديمي سوري مقيم في فرنسا.

الذات- والآخر. وقد مثّل اكتشاف الذات، في انفصالها عن الألوهة، حدثًا معرفيًّا طبع الثقافة الغربيّة الحديثة برمّتها من ديكارت حتى نيتشــه مرورًا بكانط، وربّما كان بودلير خير من عبّر عن ذلك الحدث حين قال: صحيح أنّ الله خلق الإنســان على صورته لكنّ الإنسان أعاد له تلك الصورة، ومن الآن وصاعدًا على الإنسان أن يخلق بنفسه صورته الخاصّة، عبر نوع من الكشف الدائم عن خفايا الذات، دون الرجوع إلى التعالي، وهو ما يحلو لبعض الباحثين أن يُعبِّر عنه بولادة الذاتيّة الحديثة المتحرّرة من ثقل الغيب والمتّسمة بمركزيّة الأنا بدل مركزيّة الألوهة. فالإنسان الذي كان يؤمن، قبل ذلك، بوجود قيمة أعلى وأكبر من العالم الدنيويّ بدأ يتســاءل لماذا لا تكون هذه القيمة في العالم نفسه، ولماذا لا تمتدّ، نزولًا، لتحّل في الإنسان نفسه (في حياته أو أسرته أو أمّته...)؟ لم يعد الإنسان الحديث يستمدّ معنى حياته من الألوهة والإيمان بالله، إنّما من مبادئ وضعيّة أنتجها هو بنفســه (مبدأ الحقّ والمســاواة والحرّيّة...، وهي المفاهيــم التي حكمت عصر الأنوار أو مرحلة العلمنــة الأولى وفق لوك فيري). ففي الإنســان ذاته، في عقله وكرامتــه، ينبغي العثور على كلّ أخلاق ممكنــة، وليس في الألوهة والغيب[1] (هذا ما فعله كانط في فكرته عن الواجب). وهذا لا يعني أنّ الإيمان بالله قد اختفى، إنّما قد تحوّل إلى شــأن شــخصيّ ينتمي إلى الحياة الخاصّة، فيما فُــرض على الفضاء العام أن يتّخذ موقفًا محايدًا بهــذا الخصوص. وفي قلب هذا الانفصال عن الدينيّ كمرجع وحيد للقيم سوف تتقدّم قيم علمانيّة جديدة، حاملة معها نظامًا أسريًّا وقيميًّا جديدًا، نظام يُعلي من الأهمّيّة الممنوحة للذّات في الحبّ وفي الاختيار العاطفيّ في تعبيراته اللامتناهية. إنّ ولادة الأســرة الحديثة تدين في جانب كبير منها إلــى ولادة هذا الخطاب عن الذاتيّة الحديثة الذي تزامن مع بدء انهيار القيم التقليديّة المرتبطة بالجماعة، وقاد لاحقًا إلى نشأة الحياة الخاصّة، وبروز فكرة الحب وحرّيّة الاختيار العاطفيّ كمبدأ مؤسّس للعلاقات الأسريّة. إنّ نقل القيم إلى دائرة الذات أو بعبارة أخرى إلى دائرة العلاقة الحميمة أدّى، لاحقًا، إلى أنســنة القداسة وإلــى نقل فكرة المقدّس ذاتها مــن التعالي إلى المحايثة؛ أعني إلى فضــاء أقلّ خارجيّة عن

١. فيري، الإنسان المؤله أو معنى الحياة، ص٤٢ــ٤٣.

الناس وأكثر قربًا منهم. فولادة الأسرة الحديثة، بهذا الاعتبار، تعني نهاية المرجعيّة اللاهوتيّة التي كان ينهض عليها النظام الأسـريّ القديم ونشـأة مرجعيّة أخلاقيّة جديدة أساسها الذات وأكوانها وعوالمها الحميمة.[١]

وأشير، ثانيًا، إلى أن ما يميّز نهاية النموذج القديم للعائلة هو بدء تلاشي السلطة الأبويّة، وتراجع الأهمّيّة الممنوحة للأب داخل الأسـرة، وغياب الأساس الدينيّ الذي كانت تنهض عليـه مكانته الرمزيّة. فحتى تاريخ قريب كان الأب يمثّل التجسـيد العائليّ لله، ملكًا ومالكًا حقيقيًّا وسـيّدًا للعائلة، وريث التوحيد والواحدية، يهيمن على جسد المرأة، كما يهيمن على ممتلكاتـه، ويقرّر نظام العقوبـات التي تطبّق على الأبناء. وقد كان، بهذا الاعتبار، تجسـيدًا أرضيًّا لقوّة روحيّة تتجاوز البشـر؛ فالسلطة الأبويّة لا تنبع، وفق التصوّر اليهوديّ المسيحيّ، من إرادة بشريّة، كما كان الحال في القانون الرومانيّ، بل من إرادة الله الذي خلق آدم لينجب ويُكوِّن ذرية. فالأب، بموجب الأصل المقدّس لسلطته، هو مالك طفله، بداية، لأنّ مادة من صلبه تمتدّ في جسـد الولد الذي يحمل ملامحه، وثانيًا، لأنّه ينقل اسـمه إلى ولده. فالأب، وفق هذا التصور، ينقل إرثًا مزدوجًا: إرث الدم، (الذي يطبع تشـابهًا)، وإرث الاسـم، لجهة أنّ نقل الاسم يمنح الولد هويّة ولقبًا. وبموجب هذا الإرث المزدوج كان الأب يملك سلطة مطلقة على أبنائه.

لقد تلاشـت هذه الصـورة التي كرّسـتها الأزمنة القديمـة (أعني صـورة الأب البطل، المحـارب الملك والمالك لعائلتـه) مع مجيء عصـر التنوير، ونمو الرأسـماليّة الصناعيّة ونشـأة الخطاب النسـويّ الذي أعطى مكانة مركزيّة للأمومة وكل ما يتّصل بالحياة الأسريّة

١. لا يقتضي أن نفهم من هذا أن الانتقال نحو النموذج الجديد اتخذ شـكل قطيعة حادة يمكن تمييزها زمنيًا؛ فالأسرة التقليدية لم تنته مع مجيء ثورة ١٧٨٩؛ فالثورة التي أقرت الحرّيّة والمساواة بين الرجال في الحقوق لم تكف عن النظر إلى المرأة على أنّها قاصر في الأسـرة والمجتمـع. أضف إلى ذلك أّن زواج المصلحة المرتّب والمنظّم من قبل الأهل سـيبقى ساريًا، بل ومهيمنًا على زواج الميل العاطفيّ، حتى القرن التاسع عشر، وهي الفترة التي عرفت تغيرات ديموغرافيّة كبيرة مع بدء الانتقال من الريف إلى المدينة للعمل وبدء تلاشي ثقل التقاليد.

ورعايــة الأطفال وتربيتهم.[١] لم يكن للحبّ الأمومــيّ أن يصبح مركز الحياة العاطفيّة داخل الأســرة لولا هذا التحول الذي أصاب صورة الأب ومكانته؛[٢] ذلك أنّه من الطبيعي أن تملك النساء ميلًا عاطفيًّا، لكن هذه العاطفة لم يكن لها أن تتحوّل إلى مركز الحياة الأسريّة وتصبح مقبولة اجتماعيًّا دون انكســار قيود الســلطة العائليّة ممثّلة بالســلطة الأبويّــة. فالأبوّة، وفق التصــوّر الجديد، تجد مصدرهــا وتعبيرها في الحبّ والحماية بالمعنى الجســديّ والمادّيّ والأخلاقيّ وليس البيولوجيّ وحســب.[٣] لقد تحوّلت الأبوّة فــي الفكر الحديث إلى مجرّد وظيفــة رمزيّــة، بعد أن تمّ اختزال صــورة الأب إلى مجرّد مربٍ خيّر. فــي المقابل تمّ إعلاء القيمــة الممنوحة للمرأة داخل الأســرة، التــي تحوّلت لاحقًا إلى قوة مطلقة دمّرت بشــكل نهائيّ القوّة القديمــة للذكر و «الأبويّ» وقادت، وفق المحافظين ونقّاد الحداثة، إلى نشــوء كيانات مجتمعيّة، وأنماط علاقات جديدة تنذر بنهاية الأسرة وفق الصيغة التي استقرّت عليها تاريخيًّــا. وقد تزامن ذلك كلّه مع تراجع ســلطة الكنيســة وبدء حلول صيــغ علمانيّة جديدة عزّزهــا انتصار الثورة؛ وبدء فقدان الكنيســة قوّة تأثيرها في الحيــاة العامّة، وزوال احتكارها لحقّ إضفاء الشرعيّة على الزواج الذي أصبح أمرًا تقرّه السلطات المدنيّة. ففي بلجيكا اعتبر دستور ١٨٣١ (وهو أوّل دستور ليبراليّ قام بفصل الدين عن الدولة – وقد أدانته البابوية في حينها) أنّ إعلان الزواج في الكنيسة قبل تسجيله رسميًّا أمام السلطات المدينة، جريمة.[٤]

يمثّل القرن التاسع عشر بحقّ بداية نهاية النموذج القديم للعائلة الغربيّة وتلاشي السلطة الأبويّة التي وسمته، وهذا لا يعني، بطبيعة الحال، أن السلطة الأبويّة اختفت بالمطلق، فالآباء

1.Delumeau, & Roche, *Histoire des pères et de la paternité*, p. 12.

2. Shorter, *naissance de la famille moderne*, p. 279.

3.Delumeau, & Roche, *Histoire des pères et de la paternité* ,p. 334.

٤. هذا لا يعني أن المجتمع بدأ يتخلى عن مسيحيته؛ على العكس من ذلك، لم يكن العديد من ليبراليي القرن التاسع عشــر ملحدين بأي حال من الأحوال، بل كانوا في كثير من الأحيان كاثوليكييــن متدينين جدًّا. فالليبراليّة لم تكن معادية للدين، لكنها أرادت الفصل بين المجال العام والمجال الدينيّ، الأمر الذي أدى الحال إلى فقدان الكنيســة سلطتها في المجال العام وتراجعها إلى الحيز الشخصيّ.

بقوا يملكون، من الناحية العمليّة، حقّ طلب تدخل السلطة لسجن أبنائهم لفترة تمتد من عدّة أسابيع لعدّة أشهر،[١] وإن كانوا قد فقدوا، من الناحية النظريّة، حقّ حرمانهم من الميراث وحقّ تقرير حياتهم وموتهم، كما كان يفعل أب العائلة الرومانيّ.

وأشير، ثالثًا، إلى أنّ نشوء العاطفة أو ما يُعرف اليوم بالحبّ الأسريّ، بوصفهما الأساس الـذي تقوم عليـه الرابطة الزوجيّة قضى كلّيًّـا على القيم التقليديّة السـابقة للزواج؛ فلم يعد هذا الأخير اتّفاقًا تنظّمه الأسـرة أو المجتمع لغايات اقتصاديّة (الحفاظ على الإرث وتأمين انتقاله)، بل يقوم على الاختيار العاطفيّ الحرّ للأبناء بمعزل عن أهلهم. فالزواج الجيّد لم يعد هو زواج المصلحة، ذو القصديّة الاقتصاديّة، بل زواج المحبّة،[٢] وكلّ ما يتّصل به ويقتضيه من تبادليّة الرغبات والمشاعر وتقاسم الأعمال. أصبح مدار الحياة الأسريّة هو العاطفة وصلابتها ودوامها؛ فالزوجان مدعوان، من الآن وصاعدًا، ليس لمحبّة بعضهما وحسـب، إنّما لمحّبة أبنائهم كذلك، في إطار حبّهما المتبادل داخل الروح الأسريّة، ومدعوان أيضًا لأداء أدوارهما على قدم المساواة في لعبة التنشـئة الهادفة للأبناء. لقد اختفت الإدانة القديمة للحبّ داخل الزواج، وحلّت الإثارة واللذّة الجنسـيّة مكان الرغبة التي كانت تجد غايتها ومبرّرها الوحيد في الإنجاب.[٣]

إنّ صورة العائلة المثاليّة اليوم هي التي تنهض على العاطفة المتبادلة بين الزوجين، والتي تهيّئ الأبناء للاسـتقلال عنها لاحقًا وتكوين فرديّتهم المسـتقلة بمعزل عنها. لم يعد السؤال المطـروح هو واجب الأبناء تجاه الآباء إنّما، على العكس من ذلك، هو واجبات الآباء تجاه

---

١. على سبيل المقال، في بلجيكيا كان هناك مادة في القانون المدنيّ، بعنوان «السلطة الأبويّة» والتي بقيت سارية حتى عام ١٩١٤، تتيح للأب غير الراضي عن أحد أبنائه، أن يطلب، من خلال رسـالة بسـيطة توجّه إلى وكيل الملك، بأن يُسـجن أحد أبنائه لفترة قد تمتد من عدة أسـابيع إلى عدة أشهر، وهذا ما أشار إليه وتحدّث عنه فوكو في كتابه فوضى العائلة. راجع بهذا الخصوص، فوكو، فوضى العائلة، (المقدمة).

Farge, Foucault, *Le Désordre des familles*.

٢. فيري، الإنسان المؤلّه أو معنى الحياة، ص١١٣.

3. Ariès, *L'amour dans le mariage,* pp. 116- 122.

أبنائهم. وسيتم لاحقًا تفكيك السلطة العائليّة القديمة، بصورة أكثر حدّة مع بدء تحوّل مسألة تربيــة الأبناء إلى مهمّة يتمّ تقاســمها بين الأهل، من جهة، وبين مؤسّســات الدولة، من جهة ثانية، إذ لم تعد التربية –خاصّة في القرن العشــرين – شأنًا عائليًّا وحسب، بل أصبحت قضيّة دولة كذلك.

كيــف حدث كلّ ذلك؟ كيف حصل أن أخذ الحبّ والحنان المكانة التي كانت تشــغلها الروابــط التقليديّة القديمة؟ ما الأســباب العميقة التي أدّت إلى حصــول ثورة في الأذهان؟ كيف تحوّلت المشــاعر العاطفيّة إلى معيار عائلــيّ مقبول بل ومطلوب اجتماعيًّا بعد أن كان مستهجنًا، بل ومدانًا؟ كيف حصل هذا الانتقال من مجتمع مغلق وتراتبيّ إلى مجتمع فردانيّ ومســاواتيّ، يعلي من أهمّيّة الفرد في مقابل الجماعة؟ وكيــف حصل أن أصبح ثقل الحنان والمحبّة، في العلاقات الشخصيّة، أقوى من ثقل العادة؟

أولًا: تحوّلات وعوامل: الثورة الصناعيّة

في محاولته لفهم التحوّلات التي أصابت نظام العائلة الغربيّة وقادت إلى نشــأة الأســرة الحديثة، يقترح شــرودر تفســيرًا يصــل إلى درجة الصفــاء الصلب: مع صعود الرأســماليّة الصناعيّــة وحاجتهــا المتزايدة إلــى اليد العاملة، بدأت هجرة ســكان الريــف إلى المصانع والمناطق الحضريّة للعمل، وقد ســمحت ظروف الإنتاج الجديدة بقطع الرجال والنســاء، على السواء، عن جذورهم المجتمعيّة التقليديّة؛ وعزلهم عن سياقهم المجتمعيّ الأصليّ،[1] إذ وجدوا أنفسهم في واقع جديد انهارت معه العلاقات الاجتماعيّة التقليديّة، وقد أتاح لهم، هــذا الأمر مزيدًا من القدرة على الاختيار الحرّ ســواء أكان في العلاقات أم في الزواج، وقد بدا هذا الأمر واضحًا، على نحو جليّ، لدى النساء اللواتي بدأن يتمتّعن باستقلاليّة اقتصاديّة سمحت لهنّ، فيما بعد، باستقلاليّة في الرأي والقرار الحرّ.

فمع نشــوء الإجارة، أصبح بمقدور الأفراد أن يتصرّفوا ويقرّروا مصيرهم ذاتيًّا وأصبحوا

1.Shorter, *naissance de la famille moderne*, p.384.

مرغمين، على الأقل في سوق العمل، على البحث عن غاياتهم الخاصّة ومصالحهم الذاتيّة. لقد بدأ الأفـراد بالتخلّص من تجمّعات الانتماءات القديمـة؛ فالذهاب إلى المدينة، خاصّة للفلّاحـات، كان يوفّر فرصة وهامشًـا مـن الحرّيّة في العلاقـة مع ثقل العـادات التقليديّة. والحال، حسـب شـورتر، إن متطلّبات الحرّيّة ونتائج الفرديّة لا تنقسم، فعندما تكتسب في دائرة العمل فإنّها تنتقل شـيئًا فشيئًا إلى دائرة الثقافة والعلاقات الإنسانيّة. وبالفعل، ففي كلّ هذه الميادين بدأ ثقل المجتمع يتراجع بقدر ما يزداد ثقل القرار الفرديّ الحرّ، فكيف لا ينتهي الحال بمن يختار عمله، رجلًا كان أم امرأة، إلى القيام بالشيء نفسه في حياته الخاصّة؟! أعني حرّيّته في اختيار قرينته ورفاقه. وهكذا، فإنّ منطق الفردانيّة الذي يدخل العلاقات الإنسـانيّة إنما يرفعها إلى دائرة الحبّ الحديث الاختياريّ والعاطفيّ؛ إذ يمنح الاختيار الحرّ للشـريك والحبّ العاطفيّ معنى مختلفًا للحياة ذاتها... يصبح زواج الحبّ أملًا بحياة أخرى ومشروعًا لبناء أسـرة ووعدًا بالتحرّر والسعادة.[1] لقد حلّت العاطفة في قلب الاتحاد الزوجيّ واعتلت قمّته، وأخذ الحوار وقبول الآخر المكان الذي كانت تحتلّه التقاليد سابقًا، وتطوّرت الصداقة لتصبـح حبًّا، وبدأ زواج الأقارب المنظّم – في حيّز جغرافيّ ومجتمعيّ معيّن – بالتلاشـي، مفسِحًا المجال لتأسيس فكرة المساواة في العمر بين الزوجين على خلاف ما كان سابقًا، إذ كان الشـباب يتزوّج بدافع المصلحة، وكانت النسـاء يُجبرنَ على قبول من يكبرهنّ عمرًا.. وقد تعزّز هذا التحوّل في بداية القرن العشـرين الذي شـهد اضطرابات سياسـيّة واجتماعيّة كبيرة كان لها الأثر الأكبر على نظام الأسـرة؛ إذ سـمحت حرب ١٩١٤ للعديد من النسـاء بالحلول مكان الرجال في العمل وأن تمارس أدوارًا مختلفة عن دورها التقليديّ بوصفها ربّة منزل. وبعد الحرب العالميّة الثانية استمرّت الزيادة في أعداد النساء العاملات في النموّ، وهي زيادة سهّلتها واقتضتها نشأة العديد من الحرف والصناعات المنزليّة. ومع كلّ هذه التغيّرات الاقتصاديّة، كانت مؤسّسة الزواج تفقد طقوسها ولم تعد في قلب أو جوهر نظام العائلة.

قـد يحلو للبعض أن يرى في التغيّرات الحاصلة فـي نظام العائلة الغربيّ على أنّها نتيجة

١. فيري، الإنسان المؤلّه أو معنى الحياة، ص١٢٠.

طبيعيّة لنموّ الرأسماليّة الصناعيّة وحاجتها المتزايدة إلى اليد العاملة، الأمر الذي لا يمكن تأمينه دون هدم النظام الأسريّ القديم القائم على احتكار الذكر لفكرة العمل في الخارج. وسيلعب إدخال النساء في سوق العمل الدور الحاسم ليس في تعزيز قيم الفرديّة في مقابل قيم الجماعة وحسب، إنّما أيضًا في القطيعة المطلقة مع نظام العائلة القديم وكل حوامله الدينيّة والثقافيّة والاجتماعيّة. لقد شكّل خروج المرأة من البيت إلى العمل ثورة أطاحت بكلّ القيم التقليديّة القديمة، ويرى بعض الباحثين أنهّا ثورة لم يكن لها أن تحدث لولا حاجة الرأسماليّة لدمج النساء في سوق العمل. ولا ينبغي أن نفهم المزيد من الحرّيّة التي منحت لهنَّ على أنّه تفتّح مفاجئ للغرب على قيم الحرّيّة والمساواة، إنّما على أنّها حاجة أملتها ضرورات السوق ونمو الرأسماليّة الصناعيّة في الغرب الحديث، وحاجتها إلى مُراكمة المزيد من الثروة والإنتاج. ويجب أن لا ننسى، كذلك، أنّ المجتمع الذي أنتج مقولات الحقّ والمساواة والحرّيّة هو المجتمع ذاته الذي أنتج مختلف أشكال التمييز العنصريّ وتصنيف البشر عرقيًّا، وهو المجتمع ذاته الذي أنتج مختلف أدوات التعذيب والعقاب لمن يخالفه أو يخرج عن معاييره، وهو المجتمع ذاته الذي عرف التوسّع واستعباد الشعوب الأخرى وقهرها واستغلالها. فكيف لنا أن نفهم إعلاء قيم الحرّيّة في الغرب وتجاهلها خارجه؟ ثم كيف لنا أن نُجزئ الحرّيّة، أعني كيف لنا أن ندافع عنها كحقّ، عندما يتعلّق الأمر بنا وبمصالحنا، ونرفضها كحقّ عندما يتعلّق الأمر بالآخرين ومصالحهم. ألم تُرتكب كثير من الجرائم بحقّ الشعوب الأخرى لأنّهم فكّروا بالسعي نحو حرّيّتهم واستقلالهم؟!

هذه الأسئلة تعزّز قناعة نقّاد الحداثة بأنّ التغيّر الذي حصل في نظام العائلة الغربيّ لم يكن نتيجة لتفتّح الغرب نحو مزيد من القيم الإنسانيّة، التي غالبًا ما ارتُكبت باسمها أعظم الفظاعات، بل كان استجابة لضرورات اقتصاديّة قبل أيّ شيء آخر، وأنّه في قلب التغيّر الحاصل في طبيعة الاقتصاد ينبغي البحث عن الأساس التفسيريّ لولادة نظام الأسرة الحديثة المتحرّر من ثقل الجماعة والعائلة. إنّ هدم القيم القديمة كان ضرورة اقتصاديّة بقدر ما كان ضرورة فكريّة وثقافيّة؛ ذلك أنّ هذه القيم لم تكن تتوافق وقيم الرأسماليّة التي تحتاج في

المقـام الأوّل إلى أفراد، سـواء أكان علـى صعيد الإنتاج أم على صعيد الاسـتهلاك، وليس إلى جماعات. ودون هذا التفريد (individualisation) ودون هذا الإعلاء للذّات الفرديّة، في مقابل الجماعة، لم يكن باستطاعة الرأسماليّة أن تتقدّم وتنمو. وهو ما نشهده اليوم بوضوح، فالفرد يتمّ النظر إليه، ليس من جهة أنّه ينتمي إلى أسـرة أو جماعة، إنّما من جهة قدرته على الاستهلاك. إنّ تثمين العمل وقدرة الفرد على الإنتاج لا ينفصل، بحال من الأحوال، عن تثمين الفرد القادر على الاستهلاك، يصبح الفرد المستهلك هو الفرد المعيار؛ ولهذا يعمد المجتمع، كما النظام العامّ، إلى لفظ أولئك الذين لا يستطيعون أو كفوا عن القدرة على الإنتاج، وبالتالي على الاسـتهلاك. يصبح الاستهلاك هو المعيار الذي نقيس عليه أيّ شيء وكلّ شي آخر. لم يكن مصادفة تاريخيّة أنْ تزامنَ نموّ خطاب الفرديّة الحديث مع تطوّر الرأسـماليّة الصناعيّة؛ فلولا نجاح هذه الأخيرة في فرض منطقها لما قدِّر لثقافة الفرديّة وخطاب الذاتيّة أن ينتصر في الغرب. فالاقتصاد هو الرحم الأوّل الذي وُلدت منه كلّ التغيرات التي أصابت العائلة الغربيّة. هذا لا يعني أنّ الفكر الحديث أراد أن يتحوّل المجتمع إلى مجتمع اسـتهلاك وملذّات، إنّما مسـار تطوّر الثقافة والاقتصاد قاد إلى هذه النهاية، وهو ما يفسّـر معارضة العديد من مثقّفي الغـرب لفكر الحداثة التي لم تحقّق منظومة القيم التي نادت بها. ولهذا وجب الخروج منها نحـو أفق آخر. تبقى وجهة النظر هـذه موضع نقاش وتمحيص وهو أمر أرجئه إلى مناسـبة أخرى.

١. مرايا الزمن: أدب وفلسفة

وقد مثّل الأدب الرومانسـيّ في تلك الحقبة المرآة التي عكسـت الانتقال نحو النموذج الجديد عبر إظهار التناقضات بين الأسرة الأبويّة، حيث تظل سلطة الأب هي المهيمنة، وبداية الخـلاف على هذه المكانة الممنوحة له. يسـتحضر (Balzac) بلـزاك، في (La comédie humaine) (سـنة ١٨٣٤)، صورة الأب غوريـو (Goriot) الذي مات وحيدًا، بعد أن تخلّت عنه ابنتاه وسخرتا منه، بينما كانت سعادته الوحيدة هي زيارتهما ورؤيتهما، ويُظهر لنا وفاة الأب

غوريو كنهاية لمثاليّة معيّنة للعائلة، وسوف يحلّ مكان الأب المسكين، الذي قضى، بطلًا جديدًا، اختبر قسوة العالم وقرّر أن يلعب لعبته. وسيهتمّ إميل زولا، من جانبه، بتحوّلات الحياة الاجتماعيّة لأشخاص ينتمون إلى العائلة نفسها وعواقب الثورة الصناعية على عالم العمّال والموظّفين. وسوف تُبرز الثقافة الرومانسيّة ثورة الأبناء في أوروبا، وهذا ما عبّر عنه كافكا في الرسالة إلى الأب عندما تحدّث عن الطبيعة التي لا تطاق لهذه المواجهة مع الأب الاستبداديّ.

على الصعيد الفلسفيّ والفكريّ تمّ النظر إلى مفاهيم الأسرة والزواج، من قبل العديد من فلاسفة الحداثة من أمثال شوبنهاور، كيركيغارد، نيتشه، على أنّها مفاهيم مثيرة للنفور، لجهة أنّها تسلب الفرد إرادته وتعطّل قدرته على التفكير الحرّ. وقد مثّلت أفكار هؤلاء وغيرهم علامة على نهاية ثقافة وبداية أخرى، وهو ما تمّ التعبير عنه نيتشويًّا بفكرة موت الله، وهي الفكرة التي ستجد صداها لاحقًا عند فرويد في فكرة قتل الأب. ففي غياب الأب في السماء، فإنّ مصير الأب الأرضيّ هو الموت والتلاشي. في التحليلات الفرويديّة تُصاغ علاقة الأب بالابن برغبة هذا الأخير بقتل الأوّل رمزيًّا وتجاوزه. إنّ ثقافة الغرب هي ثقافة قتل الأب، ومن السهل إدراك ذلك من خلال تراجع الأهمّيّة الممنوحة للأب داخل العائلة لفائدة الأمّ، فهو مدعوّ، وفق التصوّر الجديد، إلى المشاركة في تربية هدفها إعداد الأبناء للانفصال عن العائلة وتأسيس حياتهم الفرديّة الخاصة، ومن نافل القول أنّ هذا الانفصال لا يتمّ دون القتل الرمزيّ للأب الذي يمثّل السلطة والعائق...

لقد مثّل هذان الحدثان (موت الله وقتل الأب)، على الصعيد الفكريّ والثقافيّ، إعلانًا لمجيء زمن جديد وقيم جديدة موسومة بغياب التعالي وبدء الانفصال النهائيّ عن فكرة القداسة، فلم تعد الأسرة تجد معناها في تمثيل أي تصوّر غيبيّ، إنّما في تحقيق غايات أخرى: إعداد الأبناء للاستقلال ودعم خياراتهم الفرديّة بمعزل عن العائلة. في نهاية القرن التاسع عشر، كان كلّ شيء يدفع إلى الاعتقاد، بأنّ زمنًا قد شارف على الانتهاء، وأنّ آخر راح يبزغ

دون أن تتضح ملامحه بعد. وقد يقال، عمومًا، إن نيتشه وماركس وفرويد والوجوديين جميعًا كانوا يملكون هذه الثقة من أنّ فكرًا كان مشرفًا على الانتهاء معهم، وأن ثقافة أخرى كانت تقترب آتية من الزمن القادم ويصعب التغلّب عليها، وأنّ هذه الثقافة لا تنتمي مطلقًا إلى النظام الفكريّ الذي عرفه الغرب سابقًا. وقد دفعهم هذا الاعتقاد إلى أن يهيّئوا تصوّرًا جديدًا للإنسان يسمح له بالإقامة على أرض أبعدت عنها الآلهة أو محيت كليًّا. على الإنسان، من الآن وصاعدًا، أن يكون سيّد مصيره دون أيّ روابط بعالم الجماعة أو الأسرة أو التعالي والغيب. ضمانه الوحيد هو في قدرته على التفوّق فرديًّا في عالم مملوء بفرديّات أخرى تسعى للغاية نفسها. إنّ انفصال الإنسان عن التعالي وقيم الجماعة ودخوله في أفق الفرديّة، مع ما يحمله من خطر الضياع والتفكك، هو ما يَسم نظام العائلة الغربيّ الحديث. إنّ المحتوى العميق لفكرة العدميّة (كأفق ومصير للغرب كما تصوّرها نيتشه)، هو هذا الانزلاق للإنسان من المركز (التعالي، الجماعة، العائليّة، الدين...) نحو المجهول، الذي سيجد صداه لاحقًا في فكرة موت الإنسان، وربما في اختفائه القريب، وفق تعبير فوكو. فالإنسان الذي تخلّى عن التعالي، كحدّ لا يمكن تجاوزه، محكوم عليه، الآن، هو ولغته وفكره بالموت؛ إذ عليه أن يتحمّل مسؤوليّة تناهيه ومسؤوليّة الوجود في عالم بلا إله، إذ يقتضي منه أن يتكلّم ويفكّر ويوجد في موت الله، وفي قلب ذلك ينشأ الشعور الذي أعلنت عنه الصفحات الأخيرة من الكلمات والأشياء بأنّ الإنسان ذاته مشرف عن الموت والاختفاء؛[1] فبغياب الله، بدأ هذا العالم يعجّ بآلهة جديدة تتّخذ صورة التقنيّة حينًا، وصورة المال حينًا أخر، وصور كلّ ما يعلي من مقام اللذّة والفرح العابر، في زمن يفلت من أيدينا في أفقه ومعناه. وفي قلب هذا الشعور، بفقدان المعنى، ستبدأ طروحات وتصورات جديدة عن الأسرة، سيكون محورها مثليّ الجنس، وقضايا الاستنساخ، والتعديل الوراثيّ، والإنجاب من آباء مجهولين. صحيح أنّ ذلك كلّه لم يكن له أن ينشأ لولا الفكر الحديث، لكن هذا لا يعني بطبيعة الحال أنّ نيتشه

1.Foucault, *Les mots et les choses*, p. 396.

(في فكرته عن العدميّة) أو فرويد (في تصوّره عن القمع الأسـريّ) أو ماركس (الذي طالب بإلغاء الأسـرة ليحلّ محلّها التعليم الذي تشـرف عليه الطبقة الحاكمة) قد أرادوا ذلك، لكن الثابت هو أنّه في قلب هذا الجوّ من التشـكيك في الأسرة، نشأت معظم التصوّرات الكبرى التي قرنت بين الأسـرة من جهة وبين جميع العقد النفسـيّة والمشكلات التي تصيب الأبناء مـن جهة ثانية؛ إذ تمّ النظر إلى الأسـرة على أنّها عائق أمام طاقة الفـرد وتفتّح رغبته وحرّيّته الجنسـيّة. وهي تشـبه مؤسّسـة قمعيّة تنتقل عبرها كلّ رذائل القمع الأبـويّ لجهة أنّها تمنع النسـاء من الاستمتاع بأجسـادهنّ، وتحرم الأطفال من ممارسة الجنس الذاتيّ دون عوائق، وتحرم الأشخاص المهمّشـين من حقّهم في نشر تخيّلاتهم وممارساتهم الشاذّة. وفي قلب هذا الانشغال بالأسرة بوصفها مصدرًا لكلّ الشرور التي تحصل للفرد على الصعيد النفسيّ، سوف نشهد نشأة العلوم الجنسيّة التي تتناول الجنس بالتحليل والتصنيف وترفعهإلى مستوى قضيّة سياسيّة للمرة الأولى في تاريخ الغرب، فالجنس لم يعد قضيّة فرديّة أو عائليّة أو مسألة نحكـم عليها أخلاقيًّا، بل أصبح قضيّة دولة عليها أن تسـتهدفه بالدراسـة والتحليل والفهم والضبط والتصنيف.

٢. نشأة التصنيف وبداية تفكّك الأسرة الحديثة

ما إن خرج الجنس من إطار الأسـرة والعلاقة الحميمة وأصبح موضوعًا يدرسـه العلم، حتى بدأ تصنيف البشر انطلاقًا من ميولهم الجنسيّة ومظاهرهم الجسديّة، وتمّ ربط السلوكات الجنسيّة بالهوُية الفرديّة؛ فالجنس يحمل في طيّاته سمات الهويّة الخاصّة بصاحبه، وهنا تكمن أهمّيّته وخطورته في آن. وفي قلب هذا الربط طرحت مسألة الجنسانيّة المنحرفة وقضيّة مثليّي الجنس وخطرهم على الأسرة والمجتمع والصحّة العامّة. الكلّ يخشى أن يحمل في مظهره الجسديّ أيّ علامة تدلّ على أنّه يمثّل تهديدًا وانحطاطًا في القيم التقليديّة للأسرة والمدرسة والأمّة والوطن... وقد بدا عزل المنحرفين ونشـوء التصنيف، تبعًا لأشـكال الممارسات أو الأمراض الجنسـيّة، على أنّه محاولة ليس لتطهير الجسد الاجتماعيّ وحسب، وإنّما لإنتاج

صورة الشــخص المعياريّ، وبالتالي الأسرة المعياريّة الخالية من الانحراف، انحراف يهدّد الفــرد كما يهدّد المجتمع ونظامه العائليّ القائم. وقد نشــأ هذا الانشــغال بداية في الطبقات البرجوازيّة التي اهتمّت قبل غيرها بصفاء دمها وخلوّها من الأمراض، وفي هذا الإطار برّرت قلقها على جنس الأطفال وكلّ ما يتّصل بالممارســات الجنسيّة المنحرفة، ولم يتمّ الاهتمام بجنســانيّة الطبقات الشــعبيّة إلّا في مراحل لاحقة عندما بدأ يتّضح تحوّل الجنس إلى قضيّة سياســيّة، وبدأت الدول تعي أنّها لا تواجه رعايا إنّما ســكّانًا مــع ظواهرهم النوعيّة المتّصلة بالديموغرافية (الإنجاب، الولادات، الأمراض، الخصوبة، الصحّة...).[١]

لقد خرج الجنس، انطلاقًا من القرن الســابع عشــر، عن الإطــار الأخلاقيّ وعن الإطار العائليّ الذي يســتهدفه بالإدانة أو المنع أو الاستهجان أو الشرعنة ليتحوّل إلى ميدان معرفيّ تستهدفه خطابات عقلانيّة (الطب، الطب النفسيّ، علم النفس، التربية...)، فتكاثرت وتنامت حول الجنس خطابات لا تنتهي تريــد معرفة حقيقته، أو بعبارة أخرى، حقيقة الكائن انطلاقًا من جنسه. وقد استمرّت ألوان الخطابات في التكاثر وتسارعت في القرن الثامن عشر، إذ بدأنا نشــهد في هذا القرن تحريضًا مؤسّسيًّا في الحديث عن الجنس، وإصرار مراتب السلطة إلى الاستماع لحديث الجنس عن الجنس بأسلوب البيان الصريح والتفاصيل الدقيقة. وغدا أخذ الجنس في الحسبان وتناوله في خطاب، لا يكون أخلاقيًّا وحسب إنّما عقلانيًّا أيضًا، ضرورة جديدة بالنسبة للسلطات؛ فالجنس ليس شيئًا يحكم عليه أخلاقيًّا بل صار شيئًا يدار، فهو من اختصاص السلطة العامّة ويستدعي إجراءات إداريّة وينبغي معالجته بخطابات تحليليّة.[٢]

كانت القرون الوسطى قد نظّمت خطابًا موحّدًا حول الجنس والشهوة الجنسيّة والزواج وغايتــه، وخلال القــرون الحديثة تفكّكت هذه الوحدة النســبيّة وتبعثــرت وتعدّدت بتفجّر خطابات متمايزة اتّخذت أشــكالًا متعدّدة في الديموغرافيــا، والبيولوجيا، والطبّ، والطبّ

١. فوكو، تارخ الجنسانيّة، إرادة المعرفة، الجزء الأول، ص٤٥.
٢. م.ن، ص٣٠-٤٤.

النفسـيّ، وعلم النفس والأخلاق والتربية والنقد السياسيّ.[١] لقد تشتّت مركزيّة الخطاب عن الجنس وتنوّعت العلوم والأجهزة التي اختُرعت للحديث عنه، وكشـف حقيقته وكأنه السر الذي ما أن يُكشـف حتى تنفتح الحقيقـة أمامنا بعريّها وتفتح معها بـاب حريّتنا. إنّنا نعترف بجنسـنا إلى الأطباء والأطباء النفسـيّين والمربّين وغيرهم، ونطلب منهم أن يساعدونا على فهم أنفسـنا، وأن يقولوا لنا حقيقة جنسـنا على أمل أن نشفى أو نتحرّر من جنسانيّة منحرفة[٢] (ذلكـم هو وعد علم النفس مع فرويد وما قبله وبعده: قل لي ما هي رغبتك أقل لكَ من أنت وأشفيك وأحرِّرك).[٣] لقد تحوّل الإنسـان الغربيّ الحديث إلى «حيوان اعتراف»، كما يقول فوكو، إذ سمحت تقنيات الاعتراف المعمّم في كلّ ميادين المعرفة بتدخّل السلطة في الحياة والتحكّم بالبشـر وإدارتهم انطلاقًا من جنسـهم. وهكذا تشكّل الجنس بوصفه رهانًا للحرّيّة وموضوعًـا للحقيقة. ففي قلب الرغبة وإرادة الحقيقة تمّ الربط بين المعرفة والسـلطة، وهو ربط أمّنته العلوم الإنسـانيّة التي لعبت دور الوسيط الخطر في فضاء المعرفة، لأنّها شرعنت الإجراءات السـلطويّة، حينًا باسـم حماية المجتمع والصحّة العامّة، وحينًا آخر باسم حماية

١. م.ن، ص٥١.

٢.م.ن، الفصول الأولى.

٣.ليـس من الصحيح القول إنّ الجنس قد قمع في عصر النفاق البرجوازيّ المنصرف إلى العمل وجني الأرباح، كما ذهب أصحاب النظريّة القمعية، من أمثال ماركس الذي فسـر القمع الجنسيّ، الذي بدأ في القرن السابع عشر وما تلاه، على أنّه محاولة من السلطة، لضبط طاقة الفرد الحيويّة التي تتصل بقدرته على العمل والإنتاج الذي تحتاجه الرأسماليّة الصاعدة. فإذا كانت الرأسماليّة قد قمعت الجنس بهذه الشدّة فلأنّه لا يتلاءم مع العمل العام والمكثّف، ففي الحقبة التي تسـتثمر فيها قوّة العمل بشـكل منهجيّ لم يكن من المسموح لها بالتشتت في الملذّات غير تلك المقتصرة على الحدّ الأدنى التي تسمح لقوّة العمل بالتجدّد. لكن ماركس بهذه القراءة، يمنح الجنس شرف قضيّة سياسيّة، إذ يتخذ الحديث عن الجنس وقول كلّ شيء بخصوصه شكل تحدٍّ للسلطة والنظام القائم، وهكذا يكون القمع مبررًا للحديث أكثر عن الجنس. وهذا مايثبته الواقع: فالتأكيد على أن الجنس لم يكبح بصرامة أشـدّ إلا في عصر النفاق البرجوازيّ المنصرف إلى العمل وجني الأرباح يلتقي مع خطاب مطنّب يهدف إلى قول الحقيقة عن الجنس وإلى إسقاط القانون الذي يتحكّم به، فالتعبير عن قمع الجنس والحديث المتزايد عنه سارا جنب إلى جنب في الغرب الحديث. م.ن، ص٣١-٣٦.

الفــرد من خطر يتهدّد صحّته وحرّيّته.[١] لقد تمّ الربط، لأوّل مرة في تاريخ الغرب، بين الهويّة العميقة للفرد وبين الرغبة والســلوك الجنســيّ، الذي يحمل الجســد علاماته، إذ تمّ إضفاء هويّات عميقة وجوهرّية على مجموعة من السلوكات التي لم يكن من الممكن اعتبارها ذات يوم مكوّنة لهويّة الشــخص. فهويّة الفرد وحقيقته تتبع رغبته وسلوكه الجنسيّ، وهكذا تمّت إقامة معايير تصنيفية للبشــر انطلاقًا من رغباتهم وميولهم الجنسيّة. وسيكون لهذا التصنيف والعزل للجنســانيّات المنحرفة أو غير الطبيعية أثر كبير في نشــوء صيغ جديدة من العلاقات الزوجيّة وأنماط القلق الأســريّ على جنســانيّة الأبناء ومدى توافقها مع المعيار أو خروجها عنه، فالجنس المنحرف يحمل في ذاته خطرًا شديدًا على الأسرة كما على الفرد «المنحرف» نفسه، وهو خطر سيفصح عنه القرن العشرين في صورة مطالب بالاعتراف بحقّ الجنسانيّات المنحرفة بالتعبير عن نفســها. فحتى تاريخ قريب كان يتمّ تصنيــف مثليّ الجنس، تمثيلًا لا حصرًا، على أنّهم أناس منحرفون وغير أسوياءّ ويتم النظر إليهم على أنّهم خطر على العائلة، أي أنّهم كانوا معروفين ومحدّدين ويتمّ وصفهم، لكن عندما يتمّ دمج هؤلاء بحالات السواء، فــإنّ الأمر يصبح أكثر خطورة، في نظر بعض الباحثين؛ لأنّه يصبح أقلّ وضوحًا وأكثر قبولًا. واليوم، باســم حرّيّة الاختيار وحرّيّة النشاط الجنسيّ في تعبيراته المتعدّدة، تطرح مسألة حقّ مثليّ الجنس في ممارســة جنســانيّتهم ويُطالب أن تُسن تشــريعات ناظمة لهم ولحقّهم في الإنجاب والتبنّي وتكوين أُســرهم الخاصة، الأمــر الذي يبدو، في نظر المعترضين، على أنّه تهديد واضح لفكرة الأسرة وزعزعة للجسم الاجتماعيّ برمّته. وهذا ما تعكسه بقوّة هواجس الكنيسة والأصوات التي تنادي بإنقاذ العائلة والمجتمع.

لنــا أن نفهم اليوم هذا الهلع من نتائج تحطيم الســلطة الأبويّة ومضاعفة القوة الممنوحة

١. إن ما يشــرعن اليوم الكثير من الإجراءات الســلطويّة هي العلوم ذاتها، وهذا ما يبدو اليوم جليًا في أزمنة كورونا، إذ تُبنى القرارات السياسيّة والاجتماعيّة على التقويمات الطبيّة، ويرفع العلم الطبيّ وعلوم الحياة والعلوم الفيروسيّة إلى مســتوى المحرّك للقرار السياسيّ والاقتصاديّ وتقدّم مســألة الحياة على الاقتصاد تحت شعار حماية الحياة نفسها.

للأمومة والحرّيّة الجنسيّة في اللحظة التي تطرح فيها قضيّة الاستنساخ على أنّها تهديد إضافّي لخسارة الإنسان ليس للأسرة وحسب، بل لهويّته كذلك. فإذا ما تلاشى النظام الأبويّ، وتحرّرت النساء من حاجتها للزواج لشرعنة الإنجاب، وإذا ما شُرْعِن زواج المثليّ، وشُرعِنت مسألة التحوّل الجنسيّ، والإنجاب من آباء مجهولين وغيرها من القضايا، فإنّ الأسرة في المجتمعات ما بعد الصناعيّة ستكون محكومة بأن تصير أسرة منحرفة، وسيصيبها خلل كبير في وظيفتها ذاتها باعتبارها الوحدة الأساسيّة للمجتمع. وسوف ينتهي بها الأمر إلى السقوط في مذهب المتعة، أو في إيديولوجيا «اللامحّرمات». ونتيجة لذلك، فإنّ الغرب اليهوديّ المسيحيّ، وحتى الديمقراطيّة الجمهوريّة، سيكونان مهدّدين بالتحلّل والتفكّك. ومن هنا ينبع الخوف والقلق والاستحضار المستمرّ للكوارث الحاليّة والمستقبليّة التي تنتظر الأسرة الغربيّة.

إن عصرنا يُولِّد، إذن، فيما يتعلّق بالعائلة، اضطرابًا عميقًا، إذ أصبحت الرغبة الجنسيّة المثليّة رغبة معياريّة سائدة ومقبولة، وهو بالنسبة لكثيرين واحد من العوامل الكاشفة لأزمة الأسرة اليوم، في لحظة لم يحصل أن امتدّت فيها سلطات الجنس بمثل هذا القدر في قلب النظام الليبراليّ الذي يميل بشكل متزايد إلى تحويل الإنسان إلى سلعة، فلا يعود النظر إلى المجتمع من زاوية أنّه يتكون من أسر ينبغي الحفاظ عليها، إنّما من أفراد يملكون رغبات متنوّعة يمكن استثمارها وتحويلها إلى موضوعات استهلاكيّة؛ إذ لم تعد الرغبة اليوم هي رغبة في تأسيس أسرة، بل رغبة في إرواء رغبة لا يمكن إرضاؤها. ثم إنّ رغبات الأفراد جرى تحويلها من رغبة في الآخر إلى رغبة في أشياء لا تنتمي إلى دائرة العلاقات البين فرديّة؛ ولهذا لم يعد بعض الناس يفكر اليوم في تأسيس أسرة، بل في اغتنام حياته في الحصول على المزيد من اللذّات أو السفر أو شراء أشياء يرغب في اقتنائها... ويرى أنّ تربية الولد صارت عبئًا لا يودّ تحمّله... لقد تشكّل الإنسان الغربيّ بوصفه حيوان رغبة، فهو يحيا في الرغبة ولأجلها. إنّه المجتمع الحديث، هو مجتمع الرغبة المنفلتة، والإنسان الحديث هو إنسان الرغبة بعد

أن فصلت عن غاياتها العليا. فها هي الرغبة الجنسيّة -التي انشغلت الأديان والفكر اليونانّي قبلهـا، في التفكير في آليات ضبطها وتنظيمها ووضعها ضمن غايات أخلاقيّة معيّنة- تنفلت مُهدّدة معنى الإنسـان وغاية وجوده. لقد أسـهم مجتمع الاستهلاك ومنطق السوق ومطالب الحرّيّـة المفرطة[1] في تفكيك الوحدة القديمة للعائلة التي كان يؤمّنها الجنس الهادف، الذي كان، حتـى تاريـخ قريب، حكرًا على غرفـة الزوجين، والذي كان يرتبط بنوع من الرسـاليّة والقداسـة، لجهة أنّ الإنجاب كان يمثّل تحقيقًـا لإرادة إلهيّة وخضوعًا لقوانين الطبيعة التي أرادت أن يتزاوج البشـر وينجبـوا، وفي قلب هذه الإرادة كانت تنتظم شـبكة العلاقات بين الـزوج والزوجة والأهل والأبنـاء... واليوم يذوب الجنس في المتعـة ويفقد دلالته ومعناه وغايته. وتفقد الأبوّة مكانتها ويغيب معها الدور الأبويّ وأهمّيّته..

ثانيًا: العائلة الحديثة: سمات وخلاصات

فـي كتابه المهمّ نهاية العائلة الحديثة، يشـير دانيال داغونـي (Dagenais) إلى أنّ مفهوم العائلة الحديثة نشـأ وتطوّر استنادًا إلى «أنموذج إنسـانيّ» (idéal d'humanité)[2] أشاعه فكر الأنـوار، وعمّقته عمليّات التحدّيـث والعقلنة المعمّمة للمجتمعـات التي قادت لاحقًا إلى توحيـد الكليّات الثقافيّة الكبرى في نماذج مجتمعيّة حديثة يمكن دراسـتها اجتماعيًّا. فقبل ما يسـمى مرحلة التنوير لم تكن أشـكال العائلة الغربيّة تنفصل عـن الثقافات التي تنبع منها (الأسرة السلافيّة، الأسرة الجرمانيّة، الأسرة الأنجلو ساكسونيّة، إلخ). لقد أسهم التنوير في اقتلاع الأشـكال العائليّة المتعدّدة من بنياتها الثقافيّـة الأصليّة ووحّدها في نموذج واحد، إذ غدت الأسرة حقيقة اجتماعيّة بعد أن كانت كيانًا يرتبط بثقافة معيّنة. لم تعد الأسرة سلافيّة أو جرمانيّة أو أنجلو سكسونيّة، إنّما أصبحت أسرة حديثة وحسب، لها سمات يمكن ملاحظتها

١. في لحظة كتابة هذا المقال تنتشر إعلانات، في بعض محطات المترو في باريس، تروّج لمواقع على شبكة الانترنيت تتيح للمتزوجين، رجالًا ونساءً، إقامة علاقات جنسية خارج الزواج.

2. Dagenais, *La fin de la famille moderne*, 200, P. 22.

وتمييزها. وفي محاولة لتحديد هذه السمات يرصد داجوني جملة من الخصائص المميّزة يمكن إجمالها وفق الآتي:

١. التعارض بين الخاصّ والعام والمشروع التربويّ الذي يتشارك فيه الآباء بهدف تثقيف الأطفال لجعلهم كائنات مستقلّة قادرة على الاعتماد على نفسها. فما يميّز الذاتيّة الحديثة، علاوة على الرغبة في الاستقلاليّة، هو أن يرى الفرد نفسه مشابهًا للآخرين الذين يترابط معهم في علاقات معيّنة، مع تمتّعه، في الوقت عينه، بفرديّته الخاصّة. فالفرد، في الحياة العامّة (عالم الإنتاج والعمل)، هو إنسان بالمعنى العام؛ أي أنّه يوجد في علاقة غير شخصيّة مع الآخرين. وفي الحياة الخاصّة، يتعرّف على نفسه بشكل أكبر في فرادتها من خلال العلاقات الرومانسيّة التي يقيمها مع الشريك. فالحياة الأسريّة هي عالم العلاقة الخاصّة داخل البيت التي توفّر للفرد حيّزًا يلجأ إليه هربًا من الفرديّة المجرّدة للعلاقات العامّة. البيت والأسرة، بهذا الاعتبار، ليسا مكانين يقتضي استثمارهما، إنّما إطار حياة وحيّز للعيش والحياة معًا. وهذا ما أسماه تايلور «تقديس الحياة العاديّة»[١] إنّ التمييز بين الخاصّ والعام ليس من ابتكار الفكر الحديث، دون شكّ، لكن دلالته أصبحت، كما يقول داغوني، أكثر وضوحًا وعمقًا مع مجيء الحداثة.

٢. خصوصيّة الرابطة الزوجيّة ومركزيّة العلاقة مع الطفل: أصبح الاهتمام بالطفل في الفكر الحديث محور الحياة الزوجيّة، وهذا ما أطلق عليه أرييس (Ariès) «اكتشاف الطفولة»[٢] فالوالدان مدعوان لأداء مهمّة تربوية مستمرّة للطفل بهدف إعداده لأداء دور آخر غير ذلك الذي يشغله في العائلة، فهو لا يتعلّم ليواصل أعمال عائلته، بل ليصبح مستقلًّا، وقادرًا عن الانفصال عنها لاحقًا. ولا يقتصر التعليم على مجرّد نقل قواعد السلوك، أو طريقة أداء الوظائف أو الأعمال، أو تعلّم المهن (فهذا ما تفعله جميع المجتمعات بطرق مختلفة). إنّه

١. م.ن، ص٧٨.

٢. م.ن، ص٨٦.

طريقة لتهيئة الفرد وإعداده ليكون إنسـانًا بالمعنى العام وفق داغوني.[١] فهو يهدف إلى تنمية الشـخصيّة وتشكيل هويّة تتّخذ مسـارها الخاصّ. وهو، أيضًا، طريقة خاصّة لتحويل الذات إلـى ذات كونيّة. فالطفل هو موضوع للتربية بمعنى ثلاثيّ الأبعاد: هو، أوّلًا، موضوع للتربية مـن قبل والديه، وهو، ثانيًا، موضوع للتربية من قبل معلّميه، وهو، ثالثًا، موضوع للتربية التي يمارسها على نفسه لاحقًا بهدف تكوين ذاته كفرديّة خاصّة.

٣. تعميـق الذاتيّة في الحبّ وفي الجنسـانيّة بصورة خاصّة: لم يعد كافيًا بالنسـبة للفرد أن يـدرك ذاته من خلال جنسـه النوعيّ (ذكـرًا أم أنثى) أو أن يتعرّف على نفسـه من خلال دوره كأب أو أمّ، أو أن يشـارك في أنشطة تتوافق مع جنسه النوعيّ (العمل، رعاية الأطفال). فكلا الجنسـين، الذكر والأنثى، مدعوان لأداء وظيفتهما الأبويّـة بطريقة معيّنة، ومن خلال هذا الأداء، يتعرّف المرء على جنسـه النوعيّ (Gender). فليـس الرجل رجلًا لأنّه يعمل في مكتب أو مصنع؛ إنّ ماهيّته وجنسـه النوعيّ يتحقّق عندما يؤدّي دوره في الحياة كفاعل وفق عقلانيّة أداتيّة. ففي داخل البيت يتّخذ دور الرجل معناه ودلالته كرجل من خلال قبوله تحمّل مسـؤوليّته كرجل لامرأة وأب مسـؤول.[٢] في العمل، الرجل هو فرد بالمعنى المجرّد، وفي البيت هو رجل بالمعنى العينيّ؛ لأنّه ينفق ما يكسبه على عائلته وبيته. فالرجولة، بهذا الاعتبار، تنبع من الدور وليس من إدراك المرء أنّه ذكر ومتمايز جنسيًّا عن المرأة.

لا ينسـى داغوني أن يشـير إلى الدور الحيويّ الذي لعبه الحبّ في المساعدة على «بناء عالم شـخصيّ مشـترك»، وفق تعبيرٍ يسـتعيره من لوهمـان Luhmann[٣]. إن اتّحاد الزوجين وطبيعـة الأدوار التي يقومان بهـا تقتضي أن يكون كلّ منهما قادرًا على فهم نفسـه كفرد؛ إذ لا يكفي أن يكون الرجل رجلًا بالمعنى العامّ، فهناك طريقة شـخصيّة في الوجود لكلّ كائن.

---

١. م.ن.

٢. م.ن، ص١٣٠.

٣. م.ن، ص١٤٦.

ومن هنا تأتي أهمّيّة الحــبّ؛ فنحن نُحب في الآخر طريقته الفريدة في الوجود، وطريقته في تحقيق مُثُل معيّنة أو تجسيد صفات بعينها. ونحبّ في الآخر أيضًا اعترافه بشخصيّتنا وطريقتنا في التعبير عنها وتحقيقها. فالحبّ هو ذلك الشــعور الذي نحتاجه للحصول على الاعتراف الضروريّ لاكتشاف هويّتنا وإثباتها. إنّنا نحبّ في الآخر علاقة معيّنة بالعالم نتعرّف فيها جزئيًّا على أنفسنا؛ فالحبّ هو اكتشاف الأنا في الآخر، فما نحبّه في الآخر هو الأنا الخاصّة بنا التي يعكســها حبّه لنا وقبوله لطريقة وجودنا في العالــم. إنّ التّعرف على الذات في الآخر هو في الوقت نفسه الاعتراف بما يدين به المرء للآخر. وهنا، بالذات، توجد كلّ عبقريّة الحبّ.[١]

١. م.ن، ص١٦٤.

خلاصات مفتوحة

تلكم هي الأبعاد الأساسيّة لهذه المثاليّة العائليّة التي حاول أن يشيعها فكر الأنوار وفق داغوني. وهي مثاليّة نهضت كما لاحظنا على الأهمّيّة الممنوحة للذات في العلاقة مع الآخر وعلى حرّيّة الاختيار العاطفيّ للأفراد، وعلى التربية الهادفة للأبناء. لا يقتضي أن نفهم من ذلك أنّ هذه المثاليّة هي ابتكار لم يكن يعرفه الغرب قبل ذلك، إذ يمكننا أن نلمح بوادرها قبل ذلك في كثير من الكتابات والإجراءات التقييديّة التي تمّ تطبيقها في انكلترا بدءًا من القرن السادس عشر لتقييد الولادات لفائدة تربية الأطفال وتعليمهم. بطبيعة الحال لم يقدّر لهذا النموذج المثالي أن يسود؛ إذ بقي نموذج العائلة التقليديّة سائدًا، بصورة أو بأخرى، حتى القرن العشرين. وهذا يعني أنّ نموذج العائلة الغربيّة الحديثة تمّ على الصعيد النظريّ قبل أن يعرف طريقه إلى التطبيق، وبصورة لم تخلُ من الرفض والصراع بين الرجل والمرأة لنيل هذه الأخيرة أبسط حقوقها، ففي بلد كفرنسا، تمثيلًا لا حصرًا، لم يكن يحقّ للمرأة أن تفتح حسابًا بنكيًّا حتى ستينات القرن الماضي. واليوم يتّفق أغلب الباحثين أنّ نموذج الأسرة الحديثة لم يعد له من وجود، وأنّه بدأ بالتلاشي من ستينات القرن الماضي، إذ بدأت الأسرة الحديثة في الانهيار بسرعة كبيرة في العديد من المجتمعات الغربيّة، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال ارتفاع نسب الطلاق،[1] وتدمير الأدوار الأبويّة (بصورة خاصّة العلاقة بين الوالدين والأطفال)، ومن خلال محو الفوارق بين الجنسين، إضافة إلى خلوّ العلاقة الزوجيّة من أيّ التزام بين الطرفين. وتبدو معالم الأزمة واضحة من خلال انخفاض معدّلات الخصوبة والإنجاب الذي عزّزته سيطرة النّساء على قدراتهم الإنجابيّة، إذ أسهمت التقنيات الطبّيّة وانتشار وسائل منع الحمل في تحرير النساء مما كنّ يخضعن له، إذ أصبح بإمكان المرأة

١. هناك حالة طلاق لكلّ ثلاث حالات زواج، وهو طلاق يُتبع بإعادة تأسيس عائلة جديدة من المطلقين على أنقاض العائلة السابقة. إنّ ما تعكسه في الواقع نسب الطلاق المرتفعة هو هذه النهاية لنموذج العائلة المستقرّة التي ولدت في القرن التاسع عشر: زواج مستقر، زوجة تبقى في البيت وتهتم بتربية أطفالها وتعتني بهم تحت سلطة أب العائلة.

اليــوم أن تنجب دون زواج، (أي أن تســتغني عن حضور الذكر–الــزوج كضرورة)، وهو ما بدأت تؤمّنه بعض الدول كبلجيكا، إذ تقوم النساء بالإخصاب، من رجل تجهله، دون زواج.

فالحبّ والمســاواة اللذان كان لهما الدور الأكبر في نشوء الأسرة الحديثة، أصبحا اليوم أهــمّ عوامل تفكّكها. فزواج العاطفــة حمل بذاته، بنظر نُقّاده، بــذور نهايته لجهة أنّ الأفراد الذيــن تحرّروا من الروابــط القديمة، التي كانت تفرضها التقاليــد الدينيّة ومقتضيات الحياة المشتركة، توجب عليهم، لاحقًا، أن يواجهوا صورة غير مسبوقة للعلاقات الإنسانيّة، تتمثّل فــي الوجود الثنائيّ المنعزل للزوجين المتحرّر من ثقــل الجماعة، ولكنّه محروم في الوقت عينه من دعمها، فالتقاليد كانت تشــكّل بصورة أو بأخرى داعمًا لدوام العلاقة، إضافة إلى أنّ هــذه التقاليد كانت تغرس جذورهــا أفقيًّا وعموديًّا، أفقيًّا لأنّ الزواج يتّخذ مكانه في شــبكة علاقات عائليّة أخرى، وعموديًّا، لأنّ التّقاليد الداعمة للزواج كانت تستمدّ مبرّرها من التّعالي والغيب الذي أمّن الدين حضوره. فعندما يتحرّر الزواج من كلّ ذلك، وعندما تؤسّس الأسرة علــى العاطفة، وعندما تصبح هذه الأخيرة المعيار الناظم للزواج، فإنّ الأســرة ســتكون في خطــر لجهة أنّ العاطفة غير ثابتة، وهي تحمل بهذا الاعتبار بذور نهايتها في ذاتها. فلا يمكن أن تُبنى الحياة على عاطفة سِمَتها الأساس التغيّر والتبدّل السريع. فإذا كانت العاطفة وحدها تجمــع الكائنات، فيمكنها وحدها أن تفرّقهم أيضًا، وكلّما تحرّر الزواج من دوافعه التقليديّة الاقتصاديّة أو العائليّة، ليصير قضيّة اختيار فردي، كلّما اصطدم بالطرح القديم المتجدّد لمسألة الرغبة، التي ما أن تنشــأ وترتــوي حتى تخفُت وتتحوّل إلى موضــوع مرغوب آخر، فالرغبة محكومة بالاســتنزاف الدائم. وبهذا المعنى فإنّ حالة العشق التي تحملها الرغبة سيكون من المحتّم عليها في كثير من الأحيان أن تجرّ معها كلّ زواج في ســقوطها وتحوّلها وتلاشــيها. ويرى ديمان أنّ هذا السقوط ليس سوى أثر لسقوط أقدم منه: أو ليس أثر الشهوة الجسديّة هو الــذي طرد آدم وحواء من الجنة، وصنع انفصالهما عن تعال كان يتيح علاقتهما[1]؟ إنّ فقدان

١. فيري، الإنسان المؤلَّه ومعنى الحياة، ص١٢٣.

الحدّ الثالث في علاقة ثنائيّة، أعني الحدّ الإلهيّ، ترك آدم وحواء وحيدين في مواجهة محكوم عليها عاجلًا أم آجلًا بالنهاية. وربما للسبب ذاته قرنت التجربة الدينيّة بين الرغبة والشر؛ لأنّ الرغبة حملت معها السقوط والضياع. وما زال الفكر المناهض لزواج العاطفة يتغذّى على كثير من الدلالات الرمزيّة التي قدّمتها الوحدانيّة في نسختها اليهوديّة بصورة خاصّة، وليس قصّة هاجر التي هامت وحيدة بعد أن فقدت الحضور الأبويّ كحدّ ضروري يضمن بقاء الأسرة سوى تعبير عن حاجة الأسرة إلى الأبوة والتعالي اللذين يضمنان بقاءها.

واليوم، إذا ما بحثنا عن صورة الأب، الذي كان يجسّد ممارسة السلطة، نعي مقدار الأزمة في كثير من الجوانب: فالأب لم يعد قادرًا على تحقيق أو تمييز هويّته الجنسيّة وفقًا للنموذج الحديث، وبالتالي على لعب دور الضامن، إذ تظل شخصيّة الأمّ هي المهيمنة والسائدة داخل الأسرة. فهو يحب أطفاله بشغف، ويهتم بهم، ولكن دون معرفة كيفيّة تربيتهم وتثقيفهم؛ كل قاعدة وكل نموذج يبدو اليوم عشوائيًّا وفاقدًا للمرجعيّة. علاوة على أن إنجاب طفل أصبح نوعًا من التجربة التي يقتضي عيشها، لكنّها تجربة يمكن استبعادها لصالح تجارب وخبرات أخرى ذات قيمة مماثلة (تتعلّق بالهوايات والأعمال والوظائف التي بدأت تتقدّم على فكرة الإنجاب والتربية). ويرفض الآباء النظر إلى أنفسهم على أنّهم معلّمون ومربّون ويرغبون في أن يكونوا أصدقاء، ويصبح الزواج اتّفاقًا تعاقديًّا بين شخصين يحتفظان باستقلاليّتهما واتّفاقهما على تقسيم المهام وما هو مطلوب من كلٍّ منهما فعله: عليكَ أن تعيشَ حياتك، وأن تستمتع بها، لا أن تنقل الخبرات التي تلقّيتها إلى أبنائك، كما عليك ألّا تتدخل في الحياة الخاصّة لشريكك. من خلال هذا التفكّك وتلاشي الأدوار الممنوحة لقطبَي العائلة تتكشّف أزمة الأسرة الحديثة وتعبّر عن نفسها. فالزواج، الذي تمّ التأكيد على أهمّيّته والدفاع عنه على مدى تاريخ طويل، وبصورة خاصّة في بعده التربويّ، يبدو اليوم في أزمة حقيقيّة أكثر من أيّ وقت مضى.

في النهاية، إذا كانت الأسرة الحديثة قد هيّأت المساواة بين الرجل والمرأة، فإنّ هذه

المســاواة بدورها هي التي أسهمت في تفكيك الأســرة الحديثة؛ ذلك أنّ الاستقلال المادّيّ والجنسيّ والعاطفيّ للنساء عطّل على نحو كليّ السلطة الذكوريّة، وكان لهذا التعطيل الدور الأكبر في انتشــار العنف الأسريّ الذي تشهده كثير من المجتمعات الغربيّة اليوم، إذ إن عجز الرجــال على تأكيد هوُيّتهم ووجودهم، في مقابل النســاء، كان يدفعهم إلى انتزاع الاعتراف بهذا الوجود من خلال العنف، الذي يفسّره بعض الباحثين على أنّه محاولة لاسترداد الذكورة الضائعة.[1] قد يُقال، إنّ هذا العنف ليس بجديد، لكن قوّة حضوره تشهد على نحو واضح أنّ الرابطة الاجتماعيّة تقوم على بناء هشّ، وأنّ العنف أو «الأمراض» لا يشهدان وحدهما على هذه الهشاشة، إنّما أيضًا، كثير من المشكلات الأخرى المتّصلة بقضايا الاستنساخ والإنجاب والطلاق وغيرها.

بقــي لنا أن نطرح ســؤالًا على إنســان هذا الزمن: مــاذا يبقى لنا إذا مــا تفكّكت العائلة، المؤسّسة الأقدم في تاريخ الإنسانيّة؟ أهو زمن موت العائلة اللاحق على موت الله؟ ما معنى أن نوجــد إذا ما تفكّكت واختفت العائلة؟ ثم هــل يكون اختفاء العائلة هو الأفق الذي ينتظر الإنسانيّة في الألفيّة القادمة؟

1. Lagrange, "La pacification des mœurs et ses limites. Violence, chômage et crise de la masculinité".

المصادر

١. فوكو، ميشيل، تاريخ الجنسانيّة، إرادة المعرفة، الجزء الأول، ترجمة جورج أبي صالح، مراجعة وتقديم مطاع صفدي، بيروت، مركز الإنماء القومي، ١٩٩٠.

٢. فيري، لوك، الإنسان المؤله أو معنى الحياة، ترجمة محمد هشام، أفريقيا الشرق، ٢٠٠٢م.

3. Ariès, Philippe, L'amour dans le mariage. (الحبّ في الزواج) In: ***Communications***, 35, 1982. Sexualités occidentales. Contribution à l'histoire et à la sociologie de la sexualité.

4. Dagenais, Daniel, ***La fin de la famille moderne: La signification des transformations contemporaines de la famille***,(نهاية الأسرة الحديثة: دلالة التحوّلات المعاصرة للعائلة) Ed. Presses universitaires de Rennes, 2000.

5. Delumeau, Jean et Roche, Daniel, ***Histoire des pères et de la paternité***,(تاريخ الآباء والقرابة) Paris, Larousse, 2000.

6. Farge, Arlette, Foucault, Michel, ***Le Désordre des familles. Lettres de cachet des Archives de la Bastille,*** au XVIII^e^ siècle, Paris, Gallimard, Première parution en 1982, Édition revue en, 2014.

7. Foucault, Michel, ***Les mots et les choses, une Archéologie des sciences humaines***, Paris, Gallimard, 1966.

8. Lagrange, Hugues, "La pacification des mœurs et ses limites. Violence, chômage et crise de la masculinité", (إحلال الأخلاق وحدودها. العنف والبطالة وأزمة الذكورة) ***Esprit***, décembre, 1998.

9. Shorter, Edward, ***naissance de la famille modern***, (نشأة الأسرة الحديثة) Paris, Seuil, 1977.

الفصل الثالث:
قضايا الأسرة على ضوء العلوم الإنسانية

التمييز بين الجنسين في الأسرة[1]

حسين بستان النجفي[2]

المقدمة

المقصود من «التمييز الجنسي» (Sex inequality) هو الاختلاف في الموقع الإجتماعي لكل من الجنسين، وهذا ما يؤثر في مسار حياتهما، وخاصة في مجال: الحقوق، والفرص، والمداخيل، والفوارق الموجودة بينهما. وقد أبدى الباحثون في علم الإجتماع في العقود الأخيرة اهتمامًا واضحًا بقضية التمييز الجنسي، سواء أكان هذا التمييز ظاهرًا في الأسرة والمجتمع أم خفيًّا. ولا شك في أن الحركة النسوية تؤدي الدور الأبرز في هذا المجال. وقد تعرّض الكثير من المحقِّقين لدراسة الأبعاد المتنوعة للتمييز الجنسيّ، وخاصة في ما يتعلق بعدم المساواة في أساليب التنشئة الإجتماعية، والتعليم، والعمل، والسياسة، وتقسيم العمل والترويح عن النفس، والعلاقات الجنسية وغيرها؛ حيث كانت النتيجة فتح باب في مباحث علم الاجتماع تحت عنوان الجندر (Gender). وقد وصلوا إلى نتيجة مفادها أن الأسرة أحد الأسباب الأساسية لظهور الاختلافات والتمايزات الجنسية؛ ما جعلها محطّ اهتمام الكثير من الباحثين النسويين وغيرهم. وسنحاول في هذا البحث دراسة مسائل محوريّة عدّت من مسائل التمييز الجنسي في الأسرة منها: التنشئة الإجتماعية على الأدوار الجنسية، تقسيم العمل في المنزل، توزيع السلطة على أساس الجنس في الأسرة. وسنبدأ هذا الفصل بدراسة بعض المسائل المقضبة بخصوص الإختلافات الجنسيّة الطبيعيّة.

---

١. هذا البحث مأخوذ من كتاب الإسلام والأسرة: دراسة مقارنة في علم الاجتماع الأسري، الصادر عن مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٨، من صفحة ١٥٣ إلى صفحة ٢٢٨.

تعريب: علي الحاج حسن.

٢. أستاذ مساعد بقسم علم الاجتماع في معهد الحوزة والجامعة.

الإختلافات الجنسيّة الطبيعيّة

ما هي الاختلافات الجنسية الطبيعيَّة؟ يعتبر هذا السؤال محور الكثير من الدراسات في مجالات علم الحياة والنفس والسلوك في القرن الماضي. وتهدف هذه الدراسات إلى الإستدلال على قضيَّة هي أنه هل تؤيِّد العلوم التجريبية الإختلافات المتنوعة الموجودة منذ القدم بين الرجل والمرأة، أم إنَّها لا تؤيِّدها؟ وبشكل عام، هل ثمة اختلافات أخرى بين الجنسين غير الاختلافات التشريحية؟ أيعود السبب فيها إلى الطبيعة أم لا؟ هنا سنوضّح ، باختصار هذا الموضوع، لِما يتركه من آثار في مباحث عدم المساواة الجنسيّة.

الإختلافات الجنسيّة من وجهة نظر المختصّين

نادرًا ما يقع الخلاف بخصوص الفوارق البيولوجية والتشريحية بين الجنسي، على الأقل بالنسبة إلى بعضها. ولو تغافلنا عن بعض الشكوك التي قد تجعل هذه الإختلافات ذات تأثير في العملية التربوية والاجتماعية،[1] فإن هذه المجموعة من الإختلافات تعرف بالإختلافات الجنسية الطبيعية، بدايةً، سنحاول الإطلالة بشكل سريع على هذه المجموعة من الإختلافات عبر النِّقاط الأربع الآتية:

١. الفروقات الجينية: تمتلك أكثر خلايا البدن ٢٣ زوجًا أو ٣٦ فردًا من الكروموزوم، ويستثنى من هذه الخلايا الخلايا الجنسية،أي الحيوان المنوي والبويضات التي لم تُلَقَّح. فكلا النوعين من الخلايا يمتلك ٢٣ كروموزومًا. ويكمن الفارق في الكروموزم الثالث والعشرين من الحيوان المنوي الذي قد يكون من النوع (X) الكبير أو من النوع (Y) الأصغر، أما الكروموزوم الثالث والعشرون من البويضات، فيكون عادة من نوع (X) الكبير. وهكذا، فإنه إذا كان الحيوان المنويّ الذي يدخل البويضة عند الجماع من نوع (X) ، فإن البويضة ستمتلك زوجًا من نوع (XX) ؛ وعليه سيكون المولود أنثى، وهذا من وجهة نظر «علم الجينات»، أما إذا لُقِّحت

1.Jaggar, "Human Biology in Feminist Theory", p. 84.

البويضة بحيوان منوي من نوع (Y) فإن الكروموزوم الثالث والعشـرين سيكون من نوع (XY) ، وهذا يعني أن المولود سـيكون ذكرًا؛ إذًا، يمكن تحديد جنس الإنسان منـذ اللحظة الأولى لانعقاد النُّطفة. وأما العامل الأول المؤثر في هذه المسـألة، هو الخليّة الجنسيّة للرجل؛ أي الحيوان المنوي.

٢. الاختلافـات الهورمونيّة: يختلف الرجل والمرأة في الهرمونات الموجودة عند كل واحد منهما؛ أي المواد الكيميائية التي تفرزها الغدد في البدن. وتفرز الغدد الموجودة فوق الكلى والغدد الجنسيّة (المبيض عند المرأـة والخصيتان عند الرجال) نوعًا من الهرمونات المعروفة بالهرمونات الجنسـية التي تؤثِّر في الحياة الجنسـيّة للإنسان. ويترشّـح من الغدد، سواء عند المرأة أو الرجل، هرمونات ذكريّة وهرمونات أخرى أنثوية، إلا أن نسـبة الهرمونات الذكرية أكثر عند الرجل ممّا هي عند المرأة، ونسـبة الهرمونات الأنثوية عند المرأة أكثر منها عند الرجل.

٣. الاختلافات التي تعود إلى الخصائص الجنسـيّة: يختلـف الرجل والمرأة من جهة الخصائص الجنسية، سواء أكانت أولية أم ثانوية. والمقصود من الخصائص الجنسيّة الأوليّة: الأعضاء الجنسيّة في القسمين الخارجي والداخلي، بحيث يختلف دورهما بين الرجل والمرأة. وتشـير الخصائص الثانوية إلى العلامات التي تظهر عند البلوغ كالشعر على اللحية، وتضخُّم الصوت عند الذكور، ونمو الصَّدر عند الإناث؛ حيث تنظم الهرمونات جميع هذه الخصائص.[1]

٤. الإختلاف في نموّ الجسـم: ينمو المولود الذكر بشـكل عام في رحم الأم بسـرعة أكبـر من نمو المولود الأنثى؛ ولهذا يكون المولـود الذكر أثقل وأطول من المولود الأنثى، وتصبح حاجة الطفل الذكر إلى الوحدات الحرارية في عمر الشهرين أكثر من حاجـة الأنثى. وتمتلك الإناث مواد دهنية أكثر من الذكور. وتكون عضلات الطفل الذكر أقوى من عضلات الأنثى منذ الطفولة. ويستمر نموُّ العضلات عند الذكور بعد

1.Mc.Connell & Philipchalk, *Understanding Human Behavior*, p. 213-214.

البلوغ، ولا يشـاهد هذا النمو عند الإناث. ومن ناحية الطول، فإن الذكور أطول من الإناث، باستثناء المقطع العمري بين الحادية عشر والخامسة عشر.

وتتكون العظام والأسـنان عند الإناث أسـرع من تكوّنها عند الذكـور. الأطفال الإناث أسـرع من الذكور في الجلوس، والزحف والمشي، ويصلن مرحلة البلوغ أسرع من الذكور، وفي المقابل يتوقَّف نموُّ الإناث أسرع من توقف نُمُوّ الذكور. وتكون مرحلة استراحة القلب حين الخفقان أقصر عند الذكور. ويمتلك الذكور مقدارًا أكبر من الأوكسـجين في الدم مما تمتلكه الإناث، ويكون الوزن المطلق والنسبي للدماغ عند الإناث أقل منه عند الذكور.[١]

لـو غضضنـا النظر عن الإختلافات التشـريحية، فـإن أهم نزاع إنما يـدور حول محور الإختلافات النفسية. ففي العقود الماضية تركزت الدراسات على الإختلافات في القدرات الحسِّـيَّة والإدراكية، وبالأخصّ متوسـط الذكاء، والقدرات الكلاميـة، والفوارق العاطفية، وعلـى الإختلافات في الرغبـات والميول، بالأخصّ الميل نحو التحـرُّك والهيجان. وعلى الرغم من المحاولات الكثيرة للباحثين النسويين الذين تركزَّت أعمالهم على إنجاز تحقيقات دقيقـة وخالية من التوجيه، مضافًا إلى المحاولات البحثية الأخرى، إلا أنه ظهر وجود بعض الإختلافات الإدراكية والعاطفية بين الرجل والمرأة. وفي العام ١٩٧٤ فإن إليانور مك كابي (Eleanor Maccoby) وكارول جاكليـن (Carol Jacklin)، وبعـد ملاحظتهما أكثر من ١٥٠٠ دراسـة بخصوص الاختلافات بين الرجل والمرأة. قد سـجلتا النتيجـة الآتية: وهي وجود أربعة موارد من بين الدراسـات التي أجريت، تحكي عن الإختلافات الجنسـيَّة المؤيَّدة من الدراسات التجريبية؛ وهذه الأمور الأربعة تتمثَّل في:

١. كون القدرة الكلامية عند المرأة أشد من قدرة الرجل.

٢. يتقدم الرجال على النساء في الاختبارات المتعلِّقة بالقدرات البصرية – الفضائية.

٣. يتقدّم الشباب قليلًا على الفتيات في اختبارات الاستدلالات الرياضية.

٤. يمتلك الرجال حالة هيجانّة وحركيّة، سـواء من الناحية الفيزيائية أم الكلاميّة، أكبر

١. كلاين بارك، روان شناسى اجتماعى، ج ١، ص ٣١٥؛ كنجي، روان شناسى تفاوت هاى فردى، ص ١٩٩-٢٠٣.

مما هي عند النساء؛ حيث تظهر هذه الحالة ابتداءً من عمر السنتين.

ويذكر بعض الباحثين المعاصرين وجود بعض الإختلافات الأساسية التي توصلوا إليها عبر دراساتهم الجديدة، وأعادوا النظر في البحوث المتقدمة، وهي تتمثَّل في الآتي:

٥. يمتلك الذكور منذ الطفولة قدرة فيزيائية على الحركة أكبر مما هي عند الإناث.

٦. يبدوأن الإناث أكثر خوفًا وخجلًا، وقليلًا ما يُقدِمْنَ بأعمال خطيرة.

٧. الذكور أكثر استعدادًا من الإناث للتأثر بالأمراض والضغوط حتى في حال الحمل.

٨. تميل الإناث ومنذ بداية السنة الرابعة أو الخامسة وما بعد ذلك إلى العطف على الأطفال، وهذا لا يشاهد عند الذكور.

٩. الفتيات ومنذ مرحلة الطفولة أكثر طاعة من الشُّبان للأهل والمعلمين والأشخاص الآخرين الذين يتصرفون معهم من موقع السلطة.[1]

ولا بد من الإشارة إلى أن الدراسات التي أنجزت يمكنها أن تبين الاختلافات بين الرجال والنساء بشكل عام، ولا تتعرَّض للخصائص الجنسية المتعددة لكل واحد من الرجال والنساء. وعليه، فلا يمكن بناء التوقعات على هذه الاختلافات الإحصائية.

من جهة أخرى، فإن النزاع بخصوص مصدر هذه الاختلافات هو نزاع أساسي آخر، حتى إن المتخصصين لا يتبنَّون رؤية موحَّدة في ما يتعلق بتأثير العوامل الطبيعية في ظهور هذه الاختلافات. ويعتمد الكثير من الباحثين على العوامل البيولوجية عند الحديث عن هذه الإختلافات، ويقولون مثلًا: إن منشأ الحركة الزائدة عند الرجال هو الهرمونات الذَّكريَّة التي تكون في أعلى مستوياتها.[2]

ويذكر فريق من الباحثين المعارضين لهذه الرؤية أن مستوى الهرمونات عند الشخص يعود إلى تجاربه، وبالتالي، يجب أن نرجع الاختلافات الجنسية إلى التجارب المختلفة لكل من الرجل والمرأة. وتتحدّث بعض الدراسات عن أن مستوى الهرمونات الذَّكريَّة يشبه

1.Shaffer, *Development Psychology*, p. 491-492.

2.Baron & Byrne, *Social Psychology*, p. 186.

الهرمونـات الموجودة عند بعض القرود ويزداد بعد تغلُّبها على المنافسـين، ويتدنى فيما لو لم تتمكن من التغلب. ولعى هذا الأسـاس، وكما يمكننا اعتبار مستوى الهرمونات الجنسية عند الرجال على السلوك العنيف، يمكن اعتباره معلولًا له أيضًا، وبالتالي يصعب إعطاء رأي قاطع في هذا الخصوص.[١]

الاختلافات الجنسية من وجهة نظر الإسلام

تذكر النصوص الإسلامية بعض الإشارات التي تدلّ على وجود اختلاف جنسيّ ونفسيّ وفطريّ بين الرجل والمرأة، ولعل أهمها تلك التي تشير إلى الأختلاف في الحاجات والميول الجنسـية. فيلاحظ ذكرُ الإسـلام لبعض الاختلافات من قبيل التفوُّق الكمّيِّ للميل الجنسي عند الرجل، والتفـوق الكيفيِّ له عند المرأة، وتفوق التحمل والصبر عند المرأة والاختلاف في شدة الانفعال وضعفه بين الرجل والمرأة.[٢]

وتؤكد الروايات أن الاختلاف في الميل الجنسـي بين الرجل والمرأة يعود إلى أسـباب بيولوجية. وقد أشـارت بعض الروايات الى هذه الاختلافـات بين آدم وحوّاء، حين نقرأ في روايـة: «إن الله عزَّ وجلَّ خلق آدم منطين،ثم ابتدع له حواء... فقال آدم: يا ربّ ما هذا الخلق الحسـن، فقد آنسني قربه والنظر إليه؟ فقال الله: يا آدم هذه أَمَتي حوّاء أتحب أن تكون معك تؤنسـك وتحدثك، وتكون تبعًا لأمرك؟ فقال: نعم، يا رب ولك بذلك عليّ الحمد والشـكر ما بقيت، فقال الله عزَّ وجلَّ: فأخطبها إليّ، فإنها أَمَتي، وقد تصلح لك أيضًا زوجة للشَّـهوة، وألقى الله عليه الشَّهوة وقد علَّمه قبل ذلك المعرفة بكلّ شيء..»[٣]

وتجدر الإشارة إلى أنه بعد الأخذ بالاعتبار الجوانب المرنة للهوية الإنسانية، فلا يمكن إنكار تأثير عوامل التعليم في كيفية ظهور الميول الجنسـية وبروزها، وبالتالي سنشهد تنوُّعًا

1.David R. Shaffer, Development Psychology, p. 505.

٢.الحر العاملي،وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ٤٠ و ٤٢؛ ج ١٥، ص ٤٥٢؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج ٣، ص ٦٢.

٣.الحر العاملي،وسائل الشيعة، ص ٢.

فلي السلوك الجنسيّ، إلاأن هذا لا يتنافى مع التفسير البيولوجي للميول الجنسية.[١]

مضافًا إلى ما ذكر، تشير المصادر الإسلامية إلى وجود اختلافات نفسية أخرى بين الذكور والإناث، وحتى إن هذه الروايات لم تتحدث عنها بشكل صريح، لا يمكن الحديث عن مصدرها بشكل قاطع، على الرغم من أنه لا يمكن الشك في الاختلاف بين المرأة والرجل من حيث مستوى التعقُّل والعواطف في الإسلام.[٢] إلا أنه لا يمكن الادِّعاء بسهولة أن مصدر هذه الاختلافات يعود إلى جذور بيولوجية في الرؤية الإسلامية؛ حيث يمكن القول إن الإسلام قد أوجد بعض الأعمال الإجتماعية والسلوكيات الجنسية بنحو يساهم في إيجاد المجتمع المطلوب، وقد حافظ على ما كان سائدًا في الماضي أحيانًا. من جهة أخرى، لا يمكن القول إن الإسلام لم يعترف بأي دور للمسائل الاجتماعية والجنسية استنادًا إلى هذا الاحتمال المذكور؛ وذلك لوجود احتمال آخر وهو أن تكون هذه السلوكيات الاجتماعية والجنسية المطلوبة للمجتمع الإسلامي قد وجدت بعد ملاحظة هذا النوع من الاختلافات الجنسية «الفطري».

ولا ريب في أن قبول الاختلافات البيولوجية النفسيّة تؤثِّر وإلى حدود بعيدة في طريقة نظرة الباحث إلى مسائل التمييز الجنسيّ.

---

١. قد يثير هذا الموضوعات الهام والحساس التساؤل بخصوص عدم الاهتمام الكافي في الغرب بهذه النقطة وخاصة في مجالات علم النفس والاجتماع؛ حيث إن هذا الأمر يترك آثارًا واضحة في ترتيب النظام الإجتماعي، فلماذا يسعى العديد من الباحثين- اعتمادًا على التجارب الحديثة التي تؤكد وجود ميول جنسية قوية عند النساء- لإنكار الاختلاف الكمي والكيفي للميول الجنسية بين الرجل والمرأة، أو على الأقل لا يظهرون اهتمامًا كافيًا بالمسألة؟ See: Bilton, *Introductory Sociology*, p. 358-363.

٢. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ١١؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج ٣٢، ص ٧٣ و١٠٦؛ ج ١٠٣، ص ٢٢٨.

القبول الإجتماعي للأدوار الجنسية[١]

القبول الإجتماعي للأدوار الجنسية عملية يجري فيها نقل النماذج السلوكية الخاصة المقررة في ثقافة معينة لكل من الجنسين، من جيل إلى جيل. وقد بحث علماء الإجتماع في عوامل عدة؛ باعتبارها عوامل التنشئة الاجتماعية في المجتمعات المعاصرة كالأسرة، والمدرسة، ووسائل الإتصال... وتؤدي الأسرة الدَّور الأبرز بسبب تقدُّمها الزمانيّ، وبسبب خصائص العلاقات الأسرية بالقياس إلى العلاقات الأخرى.

وعلى كل حال، فإنه لا اختلاف بين الباحثين في أن «نماذج الصيرورة» الاجتماعية عند الرجال والنساء، وخاصة في الأسرة تمثل الدور الأبرز في ظهور الاختلافات الجنسية ونموها أكثر من دورها في بروز الاختلافات النفسية والسلوكية، ولكن في مقام توضيح العملية المذكورة ومقدار التأثير الذي تتركه العوامل البيولوجية بالقياس إلى العوامل الأخرى تواجهنا آراء ونظريات مختلفة وكثيرة. بناء عليه، نعرض في ما يأتي مختصرًا أهم النظريات التي تمحورت حول تحديد الهوية الجنسية والتنشئة الاجتماعية استنادًا إلى الأدوار الجنسية، مضافًا إلى بعض النقاط النقدية الأخرى.

النظريات النفسية

أ. نظرية فرويد

يعتقد سيغموند فرويد (Frued Sigund) أن الأطفال سواء أكانوا ذكورًا أم إناثًا يفتقدون «الهوية الجنسية» عند الولادة، على الرغم من الاختلافات الجسميّة البارزة في ما بينهم،لا بل يرث كل فرد بعض خصائص الجنس الآخر بنسب متفاوتة. ويتعرَّف الأطفال إلى الفوارق الجنسيّة على أساس وجود الآلة الذكريّة أو عدم وجودها؛ وعلى هذا الأساس تتشكَّل الهوية الجنسية لديهم. أما في «المرحلة الأوديبية»، أي في الرابعة أو الخامسة من العمر، فتصبح الأمّ

١. يشير النشاط الجنسي إلى الاتجاهات والأعمال والسلوكيات التي يعتبرها المجتمع مناسبة لكل واحد من الجنسين بحيث يتعلّمها عن طريق التنشئة الاجتماعية.

معشــوقة الأولاد الذكور ومحبوبتهم، لا بل يظهر الولد ميوله الجنســية عبر بعض الخيالات والسلوكيّات الظاهرة تجاه الأم.

من جهة أخرى، ينظر الذكر إلى الأب باعتباره المنافس المرفوض في مجال محبة الأم؛ لأنــه يعلم أن للأب علاقة خاصة مع الأمّ لا يمكن المشــاركة يها. هنــا، يرى الولد الذكر أنَّه محل تهديد من قبل الأب؛ حيث يســتهدف آلته الرجولية، فيتخيَّل أن الأب سيحاول قطعها، مــا يجعله في حالة اضطراب من الإخصاء. هذا الإضطــراب والخوف يجبران الطفل الذكر على القضاء على جميع ميوله الجنسية نحو الأمّ. ومن خلال هذا العمل يحاول الطفل التشابه مع الأب واعتباره الموجود الأفضل، لا بل يســعى ومن أجل تحكيم عملية التشــابه هذه إلى تقليده في السلوك والتوجُّه والمعايير.

وتميل الفتاة في البداية إلى الأم، كالصبي، باعتبارها المصدر الأســاس للغذاء والمحبة والأمــن، أما في «المرحلــة الأوديبيّة»، وبعد أن تدرك وجود آلــة الذكورة عند الصبي وعدم وجودها عند الفتيات، فإنها تميل بحبِّها وعشقها إلى الأب.

وشــيئًا فشــيئًا تســقط أهمية الأم عند الفتاة؛ لأنها تنظر إليها، على أنها تفقد آلة الذكورة أيضًا. إلا أن الفتاة تبدأ بمحاولة التشبه بالأم؛ حيث تحقق عندها هُوِيَّتها الأنثوية.[1] إذًا، يسعى الطفل من كلا الجنسين وفي أثناء عملية التشابه مع الأب والأم المجانسين له إلى قبول نظام القيم والنماذج الســلوكية لهما، ويحاول أداء دورهما فتكون النتيجة النمو الداخلي للنشاط الجنسيّ.

وثمة إشكالات كثيرة أُخذت على التحليل الذي ذكره فرويد، نشير إلى أبرزها:

١. يظهر أن فرويد ربط وإلى حدود بعيدة بين الهوية الجنسية والتعرف إلى الآلة التناسلية. والواقــع، أن العديد من الأطفال في المرحلة التي تســبق الابتدائية لا يكون لديهم اطِّلاع أو معرفة بالأعضاء التناسلية للصبي والفتاة.

٢. يعتقــد فرويد أن الأب هــو عامل الانضباط الوحيد. إلا أن الواقع يشــهد أنه في كثير

١. شولتز وشولتز، نظريه هاى شخصيت، ص ٧٣-٧٥.

من الأحيان، تكون الأم هي القادرة على الضبط والمراقبة. وفي هذه العملية يمكننا مشاهدة بعض الذكور الذين يسعون للتشابه مع الأم دون الأب، لا بل أشارت بعض الدراسات إلى أن الذكور تربطهم علاقة صداقة أكبر مع الأم، وليس مع الآباء الذين يكونون مصدر تهديد كما تفترض نظرية فرويد.

٣. يعتقد فرويد أن التعرُّف إلى الجنس يتمُّ في المرحلة الأوديبية؛ أي في حدود الرابعة أو الخامسة، بينما أكد بعض المؤلفين المتأخرين على أن التعرُّف قد يتم في مرحلة سابقة لهذه المرحلة؛ أي في مرحلة الطفولة.

٤. لم يلتفت فرويد إلى دخالة العوامل البيولوجية في ظهور الاختلافات الجنسية؛ وذلك بسبب فقدان المعطيات العلمية الضرورية في أيامه.[1]

ب. نظرية تشودروف

تعتبر نانسي تشودوروف من علماء النفس الذين حاولوا تعديل نظرية فرويد، إلا أنها تختلف في محاولتها هذه عن فرويد الذي أكد على الجوانب السلبية للخصائص الأنثوية، وخاصة في ما يتعلق بفقدان العضو الذكري الذي يؤدي إلى ضعف السلوك الأخلاقي عند النساء، إلا أن تشودوروف أكدت على الجوانب الإيجابية للخصائص الأنثوية التقليدية وعض فالاستعداد للحب عند الرجال، فتقول: بما أن المرحلة الأولى من مراحل التنشئة الاجتماعية عند الذكور والإناث تحصل عن طريق الأمّ، فإنَّ الأطفال من كلا الجنسين يحاولون في المراحل الأولية التشابه مع الأم، لكن في المراحل اللاحقة يضطر الصبي الى التشبه بالأب وقبول النشاطات الأبوية. وفي أثناء عملية التنشئة الاجتماعية تحاول الأمهات تشجيع الصبيان على الانفصال عنها،لا بل تساعدهم على اكتساب الهوية الرجولية التي تعتمد على الأب او من يقوم مقامه.

أما إذا كان الأب بعيدًا عن المنزل، ولم يهتم بأمور الأطفال، فإن هذا يؤدي إلى التشابه مع

1.Shaffer, *Development Psychology*, p. 508; Dusek, *Adolescent Development and Behavior,* P. 127.

النشاطات الذكرية بوجه عام بدلا من التشابه الشخصي مع القيم والخسائص السلوكية للأب. ويسعى الصبي للقضاء على الحالات الأنثوية التي يختزنها، أثناء عملية الانفصال الصعب عن الأم، لا بل يتعلم أن الأنوثة هي حالات عديمة القيمة. أما في ما يتعلق بالإناث، فإنهنَّ يستطعن الاستمرار في عملية التشابه الشخصي مع الأم حتى تكتمل الهوية الأنثوية لديهنّ، ويضمنُ وجودُ الأمّ إلى جانبهنّ هذه الهوية الشخصية.

من أهم نتائج هذين النموذجين للتنشئة الاجتماعية أن تعيش الإناث درجات أضعف من الفردية بالنسبة الى الذكور، وبالتالي تتمكن الإناث من توسيع حدود الذات لديها بشكل مرن، ما يجعلها في ظروف نفسية ملائمة للتوليد وللتواضع إزاءَ الرجال، والخلاصة: تقسيم العمل الجنسي في المنزل عبر النموذجين المذكورين بشكل مستمر ودائم، تكون نتيجته وجود رجال يصرفون قوتهم في عالم العمل غير المنزلي ورفض العمل الأبوي، ونساء يصرفن قواهُنَّ على تربية الأطفال ورعايتهم.[1]

لم تسلم نظرية تشودوروف من النقد على الرغم من نفوذها الواسع. وقبل كل شيء ينبغي أن نشير إلى التعديلات التي أجرتها بنفسها على نظريَّتها في العام ١٩٩٠؛ فقد كانت تؤكد أن الأولاد الذكور الذين يتشبهون بالأب أكثر مرونة من الذين يعتمدون على دور الأب بوساطة النماذج الثقافية؛ بسبب عدم حضور الأب، إلا أن الشواهد الجديدة تبيِّن أن الآباء يتمكنون اكثر من الأمهات من تثبيت الهوية التقليدية عند الأطفال. في هذا الجو تقدم تشودوروف تعريفات متعددة الجوانب لمفاهيم الأبوَّة والذكورة والجنس، وتعتقد أن ردات الفعل التي يقوم بها الأفراد في ما يتعلق بتربيتهم الأولى متعددة، ولا ينبغي حصرها في نموذجين.

يعتقد بعض النقاد أن معلومات تشودوروف بخصوص غياب الأب تبدو متناقضة؛ إذ يكون الأولاد الذين يعيشون عند غياب الأب مع الأم والعمّات والجدّات أفضل من أولئك الذين يعيشون مع الأمّهات قط؛ لذلك، يجب التأكيد عند غياب الأب على المسؤولية الإضافية للأمّ؛ باعتبارها المشكلة الأساس.

1.Chodorow, “The Psychodynamics of the Family”, p. 195; Ortener, “Is Female to Male as Nature is to culture?” p. 37-38.

وأمــا في ما يتعلق بدور الأب في تربية الأبناء، فإن الدراســات اتي أجريت نادرة في هذا المجال؛ لذا يصبح الحديث عن هذا الدور نوعًا من الحدس والظن.[١]

مضافًــا إلى ما ذكــر، يمكن نقد هذه النظرية من جوانب عــدة، أهمها: الأدعاءات الكلية بخصوص المرحلة الأوديبية والمراحل الســابقة عليها، والغفلة عن أن هذه المراحل تتعلّق بزمــان ومكان محددين (المراحــل الجديدة والمجتمعات الغربية)، وكذلك الأمر بالنســبة إلى الإلتزام بشــكل واحد من أشكال الأسرة، هي «الأسرة النواتية»، واعتبار الجنس الأبيض والطبقات المتوسطة والرأسمالية هي النماذج الواقعية لجميع الأسر.[٢]

النظرية البيولوجية الاجتماعية

لقد حاول بعــض الباحثين المتأخرين، وخاصة ماني (Money John) وأورهات (Anke Ehrhardt) توضيــح هذه النظرية؛ إذ إنــه بناء على هذه النظرية تكون القــوى البيولوجية هي المسؤولة عن تعيُّن نمو الإناث والذكور، بحيث تجعله محدودًا، ومن جهة أخرى فإن النمو البيولوجي الأولي يؤثِّر في رد فعل الأفراد الآخرين على الطفل؛ حيث يشكل هذا النمو طليعة تأثير القوى الإجتماعية، التي تجعل الطفل يتجه إلى قبول النشاط الجنسي. يشير كل من ماني وأرهارت إلى ثلاثة حوادث بيئية معرفية أساسية أثناء الحياة الجنينية وهي:

- ينتقل الكروموزم (X) أو (Y) من الأب إلى الإبن أثناء انعقاد النطفة في بداية الحمل، فإذا وجد الكروموزم (Y) تبدأ الخصيتان بالتشكل عند الجنين، وإلا يتشكل المبيض.
- يترشّح من الخصيتين الهرمونات الذَّكريَّة (تستوسترون).
- ينمو العضو الذكري والخصيتان في الأشهر الثلاثة أو الأربعة الأولى للحمل؛ والسبب في ذلك هو هرمون التستوســترون، وإلا فإن الأمر يؤدي إلى ظهور الأعضاء التناسلية الأنثوية. بعد ولادة الطفل تبدأ العوامــل الإجتماعية بإيفاء دورها؛ حيث يُقابل الطفل – وحســب جنســه – بنمط خاص من الســلوك من قبل الوالدين والأفراد المحيطين

1.Gardiner, "Feminism, and the Future of Fatheting", p. 261-263.

2.Tong, *Feminist Thought*, p. 157-175.

بــه. يعتقد ماني وأرهارت أن العوامــل الإجتماعية هامة جدًا؛ حيــث إنها قد تتمكن من تعديل الميــول البيولوجية، أوتغييرها مثال ذلك: الأطفــال الذين تربّوا على ما لا يتناسب مع جنســهم، فإنه يمكن وحتى مرحلة ما قبل الثمانية عشر شهرًا تغير هويتهم الجنسية بسهولة، ولكن إذا حصل هذا الأمر بعد سن الثلاثة سنوات، فإنهم سيواجهون مشكلات كبيرة.

المســألة الأساســية في هذه النظرية هي الإشــارة إلى تأثير العوامل البيئية ومقدارها في عملية النمو الجنسي. وقد بيَّنت بعض الدراسات التي أجريت على الجينات السلوكية وجود آثار نســبية لاختلاف الجينات. بعض الاختبارات التي أجريت على مجموعتين من الفتيات المختلفات في الميول الجنسية، بيّنت مقدار تأثير الهرمونات الجنسية الذكورية؛ إذ إن أمهات الفتيات كنّ يستعملن أيام الحمل أدوية تؤدي إلى زيادة الهرمونات الذكورية، ما أدى إلى أن ينعكس هذا الأمر على الفتيات؛ إذ كنّ يشابهن الرجال في بعض الأعضاء الجنسية التي يبدو ظاهرهــا ذكوريًا. حاول مانــي وأرهارت اختيار مجموعة من هــؤلاء الفتيات التي أجريت لهنَّ عمليات جراحية خارجية ليعشــنّ مع الفتيــات الأخريات، حاولا مقارنة هؤلاء الفتيات بالأخريات، فوجدا أن نشاطهنّ وسلوكهن يشبهان سلوك الذكور أكثر من مشابهتما للإناث. مع هذا كله، فقد يحصل الشــك في النتائج المتقدمــة، وبالتالي، لا يوجد رأي وفاقي وقاطع في هذا المجال. مضافًــا إلى أنه لا يمكن لهذه النظرية تحديد الآثار الاجتماعية الدقيقة التي يدرك الأطفال من خلالها هويتهم الجنسية.[1]

1.Shaffer, *Development Psychology*, p. 502-506.

النظرية التعليمية

بنـاء على هذه النظرية التـي يعتقد بها بعض علماء النفـس الإجتماعي بالأخص آلبرت باندورا (Albert Bandora)، فإن الأطفال يتعرفون إلى سـلوكهم الاجتماعي، وإلى نشـاطهم الجنسـي بشـكل خاص عبر طريقين: الأول: عن طريق التعليم المباشـر المتمثل في جعل الطفل سلوكه الجنسـي عبر الثواب والعقاب. والثاني: السـلوك الجنسي الذي يحصل عن طريق الوالدين وأسـباب التنشـئة الاجتماعية الأخرى (الأفراد الأكبر سنًا في العائلة، جميع البالغيـن، المعلمون، الرفاق ووسـائل الإعلام)، ويشـكل هؤلاء نمـاذج يقلدها الطفل في سـلوكه.[1] ويتضمن كلا الطريقين (التعليم والتقليد) ثلاث مراحل أساسية في الحصول على السـلوك الجنسـي، في البداية يتجه الطفل إلى التشابه جنسـيًا مع الأب والأم، فيتعرف إلى أنهما مصدر الثواب والعقاب. وفي المرحلة اللاحقة يجعل بعض التصرُّفات التي تؤدي إلى الثواب والعقاب المبنى الأساس لتعميماته، أو أنه يحاول التشابه والتصالح مع أحد الوالدين الموافق له جنسيًا. في المرحلة النهائية الثالثة، تؤدي عملية التعميم إلى تعلّم الهوية الجنسية المناسبة، والتي يرافقها السلوك الجنسي الخاص أيضًا.[2]

ويظهر أن هذه النظرية تواجه الكثير من الاعتراضات، سواء أكان ذلك في ما يتعلق بدخالة العوامل البيئية في تشكيل الهوية والسلوك الجنسي أم ببعض الفرضيات التي طرحتها.

ولا بد من الإشـارة إلى أنه بنـاء على هذه النظرية يتم الثواب والعقاب بشـكل مختلف بين الذكر والأنثى، وذلك بما يتناسـب مع النموذج السلوكي الجنسي؛ فمثلًا: قد يجب على الوالدين والمعلمين إثابة الذكور على سلوكهم العنيف ومعاقبة الإناث على هذا السلوك، إلا أن الواقـع يحكي عن أن الوالدين والمعلمين يعاقبون الولد الذكر على سـلوكه العنيف أكثر من معاقبتهم للأنثى غالبًا. مضافًا إلى ما أشـارت اليه الإحصاءات من أن السـلوك الجنسـي عند الأطفال لا يشبه النماذج السلوكية عند الكبار بشكل واسع، فقد نلاحظ أن بعض الأطفال

1.Dusek, *Adolescent Development and Behavior*, P. 128-130.

2.Abercht & Chadwick & Jacobson, *Social Psychology*, P. 165.

يميلون إلى اللعب بألعاب كالسيارة أو القاطرة أو الآليات الكبيرة مع أن أمهاتهم يَمِلنَ إلى قيادة السيارات أكثر من أبنائهم، وقد تميل الطفلة إلى اللعب بألعاب لا نشاهدها في سلوك الأمهات.[1]

نظرية المعرفة والنُّموَ

حاول لورنس كالبرك (Kohlberg Lawrence) في نظريته المعرفية الإشارة الى الأسباب التي تجعل الذكور والإناث يميلون إلى النشاطات الجنسية التقليدية على الرغم من مخالفة الآباء والأمهات. وتقوم هذه النظرية على الركيزتين الآتيتين:

١- إعتماد نمو النشاط الجنسي على النمو المعرفي خصوصًا عند الأطفال في فهمهم للجنس ومستلزماته على صعيد الشخص.

٢- وضع الاطفال أنفسهم وبسرعة في خضم المجتمع؛ يجعل الطفل منفعلًا فحسب، ولا يكون ذلك في مقابل التأثيرات الإجتماعية.

يعتقد كالبرك أن الأطفال يمتلكون هوية جنسية ثابتة في المراحل الأولى، ثم يحاولون البحث بشكل فعّال عن النماذج الموافقة لجنسهم والمعلومات أأخرى التي تعلم الواحد منهم كيفية سلوكه كذكر أو كأنثى، وهذا مخالف للنظريّات السابقة التي تحكي عن تقدم السلوك الجنسيّ في الحصول على الهوية الجنسية. ويحدِّد كالبرك ثلاثة مراحل أساسية يتمكن الطفل عبْرَها من امتلاك إدراك معقول لمعنى الذكورة أو الأنوثة وهي:

١. الهوية الجنسية الأساسية: يتعرَّف الطفل في عمر الثالثة إلى هويته الجنسية، فيعلم أنه ذكر أو أنثى.

٢. الثبات الجنسي: يتضح للطفل بعد مدة أن الجنس أمر ثابت على مرّ الزمان ، فالطفل الذكر سيصبح رجلًا والأنثى ستصبح أمرأة.

٣. الملاءمة الجنسية: يدرك الطفل بين الخامسة والسابعة أن الجنس ثابت في المواقع

1.Ibid. P. 166.

المختلفة أيضًا. وهنا يتخلى عن الغرور الظاهري، فلا يؤدي ارتداء لباس النساء إلى تحوله من ذكر إلى أنثى.

ويعتبر كالبرك أن بداية التربية الإجتماعية الفعالة عند الطفل والتي تؤدي إلى تجذُّر النشاطات الجنسيّة في الداخل، تبدأ بعد فترة قليلة من نهاية المراحل الثلاثة المتقدَّمة.[١]

أما منتقدو هذه النظرية، فيؤكدون أن السنخية أو التمايز الجنسي يحصلان قبل وصول الطفل إلى إدراك هويته الجنسية؛ فالطفل في عمر السنتين يرجِّح بعض الألعاب الذكوية حتى قبل أن يعلم بمناسبتها له. وقد أشارت بعض الدراسات إلى أن السلوك الجنسي عند الطفل يبدأ في عمر العشرين شهرًا، وبناء على نظرية جان ماني، فإن تغيُّر الجنس يصبح أمرًا في غاية الصعوبة بعد سن الثالثة، عليه فإن إدعاء كالبرك أن النمو والسنخية في النشاطات الجنسية، يعودان إلى نوع من الفهم المعقول هو خطأ واضح من جهة أخرى فقد غفلت هذه النظرية عن العوامل البيولوجية المؤثرة في الجنس.[٢]

نظرية الخطة الجنسية

تشكل نظرية التخطيط الجنسي محاولة لتلفيق العناصر التعليمية والمعرفية بالاستفادة من نظرية «التعليم الإجتماعي» ونظرية «المعرفة والنموّ». بناءً على هذه النظرية ، فإن الأطفال يجمعون المعلومات التي يتلقوْنها من المحيط وينطمونها، ومن جملتها التخطيط الجنسي.

ويمكن القول إن كارول مارتين (Carol Matin) وشارلز هالورسن (Charles Halerson) هما من أشهر مؤسِّسي هذه النظريَّة، ويعتقدان، كما يعتقد كالبرك، أن الأطفال يمتلكون ميولًا داخلية للحصول على مجموعة من الرغبات والميول والسلوكيات التي تتلاءم مع ذواتهم، إلا أنهما يخالفان كالبرك في أن محاولة «التنشئة الاجتماعية الذاتية» (Self socialization) تحصل عند الأطفال في مرحلة مبكرة؛ أي بين السنتين ونصف والثلاث سنوات؛ حيث يبدأ الطفل اكتساب أسس «الهوية الجنسية». وإن محاولة الطفل تثبيت هويته الجنسية الأساسية

1.Shaffer, *Development Psychology*, p. 511-512.

2.Ibid.

تدفعه إلى التعرُّف إلى الأجناس الأخرى، ثم إدخال هذه المعلومات في قوالب جنسية؛ أي في مجموعات منظمة من الاعتقادات والتوقعات بخصوص المذكر والمؤنث.

في البداية يمكن للطفل بعد تأهيله من خلال التخطيط الداخلي والخارجي أن يصنّف الأشياء والسلوكيّات والنشاطات تحت عناوين «للرجال» و«للنساء». وفي المرحلة اللاحقة يحصل على تخطيط جنسي خاص؛ يتألف من النشاطات التفصيلية التي يحتاج إليها الشخص للقيام بالأعمال المتنوعة المتناسبة وجنسه، فالطفلة قد تتعلم في البداية أن مهنة الخياطة «للنساء»، وصناعة الطائرة «للرجال».

ثم تحاول بعد ذلك الحصول على معلومات واسعة بخصوص الخياطة؛ وذلك لعملها بالأشياء التي تتناسب معها، بينما تتجاهل موضوع صناعة الطائرات بشكل كامل. ويأتي التخطيط الجنسي نتيجة لتجارب الطفل، بحيث يؤثر هذا التخطيط في تجاربه المستقبلية، سواء أكان ذلك يتعلّق بنفسه أو بالعالم المحيط به.[1]

يمكن القول بشكل عام: إن نظرية «التخطيط الجنسي» قد أغفلت العوامل البيولوجية المؤثرة في تشكل الهوية والسلوك الجنسي، إلاّ أنها قدمت تصوُّرًا أكثر دقة من نظريّات التنشئة الإجتماعية الأخرى.

النظرية النسوية

تتميَّز نظريّات التنشئة الإجتماعية للنشاطات الجنسية بجوانب قيمية وقواعدية جذبت أنظار العديدين إليها، مضافًا إلى الجوانب الوضعية التحليلِّية التي مرّ ذكرها في النظريّات المتقدمة.

ويعتقد النسويون وبعض الباحثين المتأثرين بالنظريّات النسوية أن التنشئة الإجتماعية على الأدوار الجنسية هي أحد الأسباب الأساسية لعدم المساواة الجنسية.

ويعتبر جان استوارت ميل (وهو أحد أبرز المؤسسين للنسوية الليبرالية) أن اختلال ميزان

1.Ibid, P 513.

العدالة في نظام الأسـرة لصالح الرجال هو بسـبب إنتقال العادات والقيم الرجولية من جيل إلى جيل، ما أدّى إلى إحسـاس الذكور بنوع من التفوُّق على أخواتهم، وبالتالي الإحسـاس بالتفوُّق على جميع النسـاء.[١] وتؤكد سـيمون دي بوفوار (Simone De Beauvoir) في كتابها «الجنس الثاني» على أن الأطفال الإناث إذا ما تربَّيْنَ منذ البداية على تلك التوقعات والحدود والحريات التي تربى الذكور على أساسها، وإذا ما شاركْنَ في الدراسة والألعاب نفسها، وإذا ما أُعطيْنَ فرصة مسـاوية للذكور في المسـتقبل، وإذا ما نُظِر إلى كليهما نظرة متسـاوية، فإن أوضاع الفتيات والنساء ستكون مختلفة تمامًا عمّا هي عليه الآن.[٢]

وبنـاء على ما تقدم، فقد ركّز أغلب دعاة النسـوية على تبديل النماذج التقليدية للتنشـئة الإجتماعيـة عند الإناث والذكور إلى نمـاذج أخرى تقوم على التربيـة الخنثوية (androgy-nouns)؛[٣] وذلـك من أجل الوصـول إلى مجتمع خالٍ من التمييز الجنسـي، والمفروض أن الأهداف المثالية للجنسـين تشكل نوعًا من التنشـئة الإجتماعية القائمة على الاستعدادات الطبيعية؛ إذ إن التوقعات المعقولة والاختبارات الفردية تحل محلّ التنشئة الإجتماعية القائمة على التمايز الجنسـي. ويميل بعض أصحـاب هذه النظرية إلى الدفاع عـن التربية الخنثوية الواحدية الجنس (mono androgynouns)، بينما يميل بعضهم الآخر إلى الدفاع عن التعددية الخنوية (polyan androgynouns) ، والمقصود من الشكل الأول هو الشخصية التي تجمع أهم الخصائص الجنسية عند الرجال والنساء؛ بحيث يفرض وجدود هذه الشخصية عند الجميع. ويشـير المصطلح الثاني إلى شخصيّات متنوعة تتراوح بين الأنوثة الكاملة الرجول الكاملة، بحيث يكون ثمة في الوسط شخصية تجمع الصفات الذكورية والأنثوية معًا. بناء على عقيدة الكثـرة؛ فإن جميع الحـالات المحتملة، يجب أن تتوافر عند الجميع على حدٍّ سـواء؛ وهي جائزة للجميع من دون أن يؤدي الجنس البيولوجي للشخص إلى تحديد خصائصه الجنسية.[٤]

١.جون استيوارت ميل، كنيز ك كردن زنان، ص ١٣٢.

2.De Beauvoir, *The Second Sex*, P. 726.

٣.تربية قيادية تجاه الجنسين، أي ليست تربية ذكورية ولا أنثوية.

4.Streba, "Is Feminism Good for Men and Are Men Good for Feminis?", p 291-292.

لعل أهــم ما يطالب به أصحــاب النظرية الأنثوية هــو توحيد النمــاذج التربوية للذكور والإناث، وتطهير الأقلام والكتب والنشريات ووسائل الإعلام من «العنصرية الجنسية». تقول أندره ميشال (Andree Michel) في هذا الخصوص: «يقوم الصبيان والفتيان وفي أجواء عادية خالية من العنصرية الجنســية بالأعمال المنزلية كافة، كرعاية الأخ أو الأخت الأصغر ســنًا، ويشارك الرجال والنساء معًا في أعمال المنزل وتربية الأطفال ورعايتهم أو تأمين مستلزمات المعيشــة. في هذه الأوضاع، يمارس الفتية والفتيات ألعابهم المختلفة، كاللعب بالعرائس، أو الكرة، أو الألعاب الإلكترونية؛ بل يتسلَّقون الأشجار، ويخيطون الثياب، ويحافظون على الحديقــة... إذًا، ينبغي القضاء على الصورة التقليدية للحيــاة الزوجية التي تكون المرأة فيها مستســلمة ومطيعة ومنفعلة تنتظر قرارات الزوج. فــإذا كان لا بد من وجود أحد الأولياء في المنزل لرعاية الأطفال، فإنه قد يكون الأب أو الأم.[١]

رأي الإسلام

يمكــن إدراك الرؤية القيمية للإســلام فــي ما يتعلق بالتنشــئة الاجتماعيــة القائمة على الأدوار الجنسية في إطار النظام القيمي العام للإسلام؛ وذلك لدخالة العناصر الأيديولوجية في مسائل «اللَّامساواة» بشكل عام، وعناصر «اللامساواة الجنسية» بشكل خاص. ولا شك في أن الإســلام أقر في نظامه الاجتماعي بعض الاختلافات الجنسية، وأثبت بعض الفوارق بين دور المــرأة ودور الرجل تحت عناوين «الأولوية» أو«الإلــزام»، إلا أن هذا الأمر يعتمد بشكل أســاس على العدالة المتضمنة للمصلحة. وتعتمد المبادئ العامة للنظام الإجتماعي في الاســلام، ومن جملتها مســألة التمايز الجنســي، على المبادئ الوجودية الطبيعية، وهي تقع من جهة أخرى في إطار تحقق الأهداف الغائبة، وخاصة بالنســبة إلى الســعادة الدنيوية والأخروية للبشــر. والخلاصة أنه يمكن ردُّ قضية المســاواة الجنســية في الإسلام ونقضها، مــن خلال الأهداف الغائبة، مضافًا إلى وقوعها تحت تأثير الفوارق الجنســية الطبيعية؛ مثال

١. ميتشل، پيكار با تبعيض جنسى، ص ١٣٠.

ذلك: أن الإسلام رفض مسألة المساواة عند التعارض مع المصالح العامة اتي أرادها، وورد في بعض الروايات رفض صريح لمسألة تَشَبُّه النساء بالرجال، والرجال بالنساء (التشبّه بنوع اللباس والمظهر الخارجيّ...)،[١] فيمكن ملاحظة منشأ هذا الأمر في هذا النوع من التشابه، مضافًا إلى تعارضه مع متطلبات الفوارق الجنسية الطبيعية، فإن ذلك عامل سلبي يؤثر على مستوى العزَّة الدينية والحياة المعنوية للمجتمع. وهكذا، فإن منع النساء من منصب القضاء او المشاركة في الجهاد إنما يعود إلى أسباب متعلقة بخصائصهن الطبيعية، سواء أكانت جسمانية أم نفسية وبالتالي فإن هذه الأحكام تتلاءم إلى حدود بعيدة مع مقاصد الإسلام.[٢]

بناء على هذا، يمكن القول إن الإسلام لا يعارض الفرز الإجتماعي للأدوار الجنسية التي تتلاءم والفوارق الجنسية الطبيعية، والتي تقع في إطار تحقق أهداف النظام الإجتماعي في الإسلام؛ مثال ذلك: أن الإسلام يشجِّع إعداد الفتيات لتقبل دور الأم والزوجة، وإعداد الصبي لقبول المعيل؛ حيث لا يلاحظ أي اعتراض على مثل هذا الأمر في الإسلام، ويمكن القول إنه أمر راجح ومطلوب؛ لما له من آثار إيجابية تساعد على تحقيق الأهداف الإسلامية. ومن جهة أخرى، نلاحظ أن الإسلام يعارض بعض أنواع التنشئة الإجتماعية، وخاصة تلك التنشئة التي تجعل الفتيات بمنزلة خادمات للرجال، فاقدات للاختيار، أو تلك التنشئة التي تجعل الصبيان أربابًا وحكاما مطلقَين على النساء؛ من هنا تتّضح رؤية الإسلام في ما يتعلق بأهداف الجنسين. ولا شك في أن العوامل الإجتماعية والثقافية قد تتمكن أحيانًا من تبديل القيم والقوانين العامة في المجتمع وتغييرها، كما أنها قد تؤثر في أخلاق وطبائع الأفراد؛ إذًا، فتربية الجنسية أمر مطلوب ومقبول؛ وذلك لما لها من آثار على مستوى إيصال الفضائل الأخلاقية المشتركة، كالمعرفة والعقلانية والعاطفة والحنان إلى الحالة الفعلية المطلوبة، لكن الإسلام يرفضها إن كانت تستلزم إلغاء الإستعدادات المختلفة للجنسين، أو إن كانت تؤثر بشكل سلبي على قيم النظام الإجتماعي الأخرى كالعفَّة والسلامة الأخلاقية للمجتمع.

١. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٢١١.

٢. الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ٢، ص ٢٧٢-٢٧٥.

تقسيم العمل المنزليّ

قراءة وصفية لتقسيم العمل المنزلي على أساس الجنس

تعتبر قضية تقسيم العمل المنزليّ على أساس الجنس من أقدم القضايا تاريخيًا. وقد أشارت الدراسات المتقدمة إلى أشكال تقسيم العمل جنسيًا في العصور القديمة، وقد قيل إنه في العصر الحجريّ؛ حيث كانت البشرية تعيش في إطار مجموعات تعتمد على الصيد وجميع المحاصيل الزراعية، كان الرجال في تلك المجتمعات يهتمون بموضوع الصيد، بينما تعمل النساء على جمع المحاصيل الزراعية والفواكه والخضار.[١]

وقد استمر تقسيم العمل في المراحل اللاحقة وحتى العصر الحاضر بواسطة نماذج غير متساوية في الغالب. وأما من الناحية الثقافية فقد أشارت دراسات علماء الإناسة إلى عالمية ظاهرة تقسيم العمل جنسيًا، وقد سجل جورج بيتر مورداك (George Peter Murdock) في تحقيقه المشهور عن تقسيم الوظائف باعتبار الجنس، النتيجة الآتية: وهي أن بعض الأعمال، كتقطيع الخشب، والحفر، واستخراج المعادن، وإعداد الأرض، وبناء المنازل، والصيد ورعي الحيوانات، والتجارة، وصناعة القوارب والأسلحة تختص بالرجال، وتقوم النساء بمجموعة أخرى من الأعمال، كجمع المحصولات الزراعية، ونقل الماء، والطبخ، والخياطة، وصناعة اسجاد والحُصر، والأواني الخزفية.[٢]

إن النموذج التقليدي لتقسيم العمل جنسيًا تعرض للتغيير بسبب تغيُّر نظام الأسرة في القرن الماضي، ويرجع ذلك إلى التغيُّرات العميقة التي حصلت على المستويات الإجتماعية والثقافية في الغرب. وقد أشارت الدراسات التي أجراها يونغ (M. Young) وويلموت (P. Willmott) في الستينات إلى ازدياد نسبة النساء العاملات في الخارج، وارتفاع مشاركة الرجال في الأعمال المنزلية؛ فالأسرة البريطانية مثلًا تقترب من حالة التقارن؛ أي أن الرجال والنساء

---

١. شرمن، ديدگاههای نوين جامعه شناسی، ص ١٤٢.

2.Oakley, *Woman's Work, The Housewife*, p. 166.

بدأوا يتقاربون على مستوى النشاطات التي يقومون بها، وسيصلون إلى التساوي في النهاية.[١] وبعض الباحثين لم يؤيد هذه النتيجة؛ معتبرًا أن تقسيم العمل حسب الجنس في أغلب الأسر ما زال ثابتًا سوى في بعض النماذج الجديدة للأسرة.

ويؤكد الباحثون أن التبدل في واقع تقسيم العمل جنسيًا في الأسرة يحصل بنحو أبطأ من التبدل في رؤية الأفراد لهذا الموضوع؛ فالرجال مثلًا وفي الوقت الذي يؤيدون فيه نظريّات المساواة، ويعتبرون أكثر من السابق بحق المرأة في اختيار العمل خارج المنزل أو داخله، إلا أن الكثير منهم يُبرز أنه غير مستعد لترجيح العمل داخل المنزل على العمل خارجه. وتشير الدراسات التي أجريت بخصوص التوقعات المتعلقة بنشاطاتهن اللَّاحقة، أن الكثير من الفتيات يتوقعن الحصول على عمل خارج المنزل قبل مرحلة الحمل وبعدها، إلا أنهن يتوقعن التوقف المرحلي عن العمل بسبب المسؤوليات التي تترتَّب على الحمل. كما يتوقعن الاهتمام بمسألة رعاية الأطفال، إلا أنهنَّ لا يتوقَّعن أن تؤدي رعاية الأطفال الى توقُّفهن عن العمل.[٢]

ويعتقد آخرون أن معارضة الناس للنشاطات النسائية والرجالية التقليدية إنما هي مجرد آراء عامة؛ حيث ما يزال الكثير من كبار السنّ يعتقدون بالرؤية التقليدية.

وثمة إحصاءات أُجريت عام ١٩٨٥ في أميركا في إطار الإجابة عن العبارة الآتية: لو اهتم الرجل بالمعاش، والمرأة برعاية الأسرة والمنزل، فهل هذا سيكون الأفضل للجميع؟ وأشارت الإحصاءات إلى موافقة ٥٠٪ من الرجال وأكثر من ٤٥٪ من انساء. وعندما وجّه السؤال الى تلامذة السنة الثانوية الأخيرة بخصوص الشكل الأفضل لتنظيم العمل والمسؤوليات بين الزوج والزوجة اللذين أنجبا أولادًا في مرحلة ما قبل الابتدائية، فكان الجواب أن الأولوية الاولى لعمل الزوج كامل الوقت، والأفضل أن لا تعمل الزوجة على الإطلاق.[٣]

---

١. أبوت ووالاس، در آمدی بر جامعه شناسی نگرش های فمنیستی، ص ١٥٦-١٥٧.

2. Burr, *Gender and Social Psychology*, p. 81.

3.Kammeyer & Yetman, *Sociology*, p. 334-335.

وتؤكد الدراسات التي أُجريت في العام ١٩٦٥ بخصوص ساعات العمل المنزلي أن الرجل الأميركي يمضي ما بين ٤ إلى ٦ ساعات أسبوعيًا في العمل المنزلي، بينما تمضي النساء الأميركيات ٢٧ ساعة أسبوعًا فيه.

وأما في العام ١٩٧٥، فكان الرجال يمضون ٧ ساعات أسبوعيًا والنساء ٧, ٢١ ساعة أسبوعيًا، وفي العام ١٩٨٥ أمضى الرجال حدود ٨, ٨ ساعات أسبوعيًا والنساء ٥, ١٩ ساعة أسبوعيًا.[١] أما في بريطانيا ومع ازدياد نسبة النساء العاملات المتزوجات، فقد أشارت الدراسات الجديدة إلى أن مسؤولية التنظيف في ٨٨٪ من المنازل تقع على عاتق النساء. وتحضِّر النساء طعام العشاء في ٧٧٪ من المنازل ويقمْنَ بتنظيف ٧٢٪ من المنازل.[٢]

وتشير الإحصاءات إلى أن النساء العاملات – جزئيًا أوكليًا – قد يتلقَّين مساعدة أزواجهن في الأعمال المنزلية بنسبة أكبر منربّات المنازل. وتوجد نسبة قليلة من الرجال الذين يقومون بالأعمال المنزلية وخاصة الطبخ الذي ما زال مهنة النساء الأساسية؛ حيث لم تتأثر هذه المهمة بعمل المرأة خارج المنزل.[٣]

وتؤثر مسألة تقسيم العمل في المنزل على أساس الجنس في الإنجاب عند أغلب النساء. ويشتد تأثير ذلك حال العمل خارج المنزل. فالولد يجعل المرأة تابعة للرجال إقتصاديًا، ويؤدي إلى إنخفاض نسبة مساعدة الرجال للنساء في الأعمال المنزلية إذا فُرِض وجودها قبل ولادة الطفل.[٤]

يعتبر نموذج الأسرة ذات العملين؛ أي الأسرة التي يعمل فيها الزوج والزوجة، من النماذج الجديدة التي راجت وبشكل واسع في السنوات الأخيرة، وخاصة في المجتمعات الغربية. وما زالت الأعمال المنزلية في هذه المجتمعات تلقي بثقلها على النساء، على الرغم من ارتفاع نسبة مشاركة الرجال فيها؛ وذلك لأنه يُنتظر منهن تولِّي مسؤولية الأعمال المنزلية،

---

١. مارلين فرينش، جنگ عليه زنان، ص ٣٠٣.

2.Morris, "The Household and The Labour Market", p. 217.

3.Ibid, p. 201.

4.Ibid, p. 208.

ورعاية الأطفال، مضافًا إلى العمل بدوام كامل خارج المنزل؛ والنتيجة أن النساء يعملن في الأسبوع ما يقارب الخمس عشرة ساعة أكثر من الأزواج.[١]

نظريّات تقسيم العمل جنسيًا في الأسرة

أ. النظريات البيولوجية

يعتقد بعض علماء الاجتماع أن جذور تقسيم العمل بين الرجل والمرأة يعود إلى إختلافاتهما الجنسية الطبيعية.[٢] والموافقون على هذه النظرية يفترضون أن الفروقات الجنسية واقع عالمي؛ لذا لا بد من البحث عن علة عالمية أيضًا؛ وعلى هذا الأساس، تكون العوامل البيولوجية من جملة العوامل الأساسية في تقسيم العمل على أساس الجنس.[٣]

ويعتقد بعض الباحثين أن السبب في نسبة بعض الأعمال إلى الرجال خاصة يعود إلى القدرات البدنية التي يتمتعون بها.[٤] وتوضح أليس روسي (Alic Rossi) أن اختلاف النشاط الهرموني بين الرجل والمرأة هو الذي يؤدي إلى الاختلافات الجنسية؛ حيث تكون النساء أكثر استعدادًا من الرجال لرعاية الأطفال عاطفيًا، وهذا يرتبط بالعوامل البيولوجية بشكل كامل. وتضيف: «لقد أثبتت التجارب أن النساء يمتلكن قدرة تفوق الرجال في سرعة إدراكهنَّ لمتطلبات الأطفال».[٥]

وبعض علماء النفس الذين تمحورت أبحاثهم حول العلاقة بين جنس الطفل والألعاب التي يختارها، يؤكدون أن الشواهد تدل على تأثير البيولوجيا في اختيار الأطفال، على الرغم من أن الوالدين يشجِّعان الطفل على اختيار ألعاب تتناسب معه. وقد تنخفض احتمالات أن

1.Shepard, *Sociology*, p 309.

٢. من جملة هؤلاء العلماء إميل دوركهايم الذي مال إلى هذا القول، استنادًا إلى أبحاث غوستاف لوبون). أنظر : دوركهايم، درباره تقسيم كار اجتماعى، ص ٧١).

3.McConnell & Philipchalk, *Understanding Human Behavior*, p. 223.

4.Kammeyer & Yetman, *Sociology*, p. 326.

5.Tong, *Feminist Thought*, p. 472.

يقــدم الآباء العرائس للأطفال الذكور الذين هم في عامهم الأول؛ بل الأغلب أنهم يقدمونها للأطفال الإناث، ومع ذلك فإن الأطفال الذكور الذين يحصلون على العرائس قليلًا ما يلعبون بها. ومن هنا، يمكن اســتخلاصٍ النتيجة الآتية: وهي أن تشــجيع الوالديــن يؤثر في اختيار الطفل، لا بل يشــكل عامل تقوية ومســاعدة. بناء على ما تقدم، وبما أن الألعاب تقدم فرصة لرفــع القدرات والمهارات الخاصة عند الطفل والطفلة؛ لذا فإنها تعدّ من الأمور المؤثرة في ظهور الاختلافات الجنسية.[١]

ومع هــذا، فإنه قليلًا ما يؤيد الباحثون المعاصرون وجود دور قاطع وأساســي للعوامل البيولوجية في تقسيم العمل جنسيًا. ويستدل معارضو النظريّات البيولوجية بأنه لو كان تحديد الجنس يحصل بواسطة العوامل البيولوجية، لكان من المفترض أن لا تكون ثمة إمكانية لتربية الطفل بشكل خاطئ؛ أي لن يكون بالمقدور تربية الصبي كما تُربى الفتاة أو العكس، مع العلم أن الدراســات قد أوضحت إمكانية وقوع هذا الأمر. وقد يؤيــد بعض الباحثين المعاصرين الحاضر وجود بعض الفوارق في السلوك الجنسي منذ الولادة، إلا أن هذه الفوارق اتي أيدها العلم قليلة جدًا؛ بحيث لا يمكن جعلها أساسًا للتمييز الجنسي في الكثير من المجتمعات.[٢]

ب. نظريات علم النفس

يؤكــد بعض الباحثين في علــم النفس أن الفــوارق الموجودة فــي الوظائف والأعمال الذكورية والأنثوية قد يكون لها تأثير في ميل الرجال إلى إيجاد الهوية الذكورية البارزة. وإذا كانت النســاء قد تمكن من إبراز أنوثتهن عبْرَ إنجــاب الأولاد وتربيتهم؛ فإن الرجال يرغبون أيضًا في وســائل لإبراز رجولتهم. ومن هنا، عمــد الرجال في جميع المجتمعات إلى حصر بعض الأعمال بأنفسهم، ومُنعت النســاء من مزاولتها تحقيقًا لرجولتهم، ومن ذلك الحرب، التي تعد واحدة من النشاطات المختصة بالرجال.[٣]

وقد حاول بعض علماء النفس النســويين تفسير تقسيم العمل غير المتساوي في الأسرة

1.Carlson, *Psychology, the Science of Behavior*, p. 336.

٢. روبرتسون، در آمدی بر جامعه، ص ٢٧٨-٢٧٩.

3.Kammeyer & Yetman, *Sociology*, p. 330.

على أساس الاختلاف في شـخصية الفتاة والفتى، وذلك في أثناء عملية التنشئة الإجتماعية والتشـابه بين الأطفال والوالدين وتتحدث نانسي تشـودورف التي أشرنا إلى نظريتها سابقًا، فتقول بعد توضيحها لعملية تكوُّن الشخصية المختلفة بين الذكر والأنثى:

«يؤدِّي تقسـيم العمل جنسيًا في الأسرة؛ حيث تقوم النسـاء بمهمة الأمومة، إلى التمييز الجنسي في التنظيم والتوجيه النفسي، ويسهم هذا الأمر في اكتساب الرجال والنساء جنسيات إجتماعية، ما يدفعهم نحو الحالات غير المناسـبة والتي لا توافقهم في الجنس، ويؤدي هذا الأمـر إلـى إيجاد رجال يصرفون طاقاتهم فـي أعمال غير منزلية؛ حيـث يمتنعون عن مهمة الأبـوَّة. وهكذا أيضًا يوجد نسـاء يصرفنَ كل قواهُنَّ في تربية الأبنـاء ورعايتهم، وهذا بعينه تقسيم العمل جنسيًا في الأسرة؛ حيث تهتم النساء بالأمومة والإنجاب».[1]

لعل أهم ما تمتاز به هذه النظريات أنها غفلت عن البناء الكلِّي الإجتماعي الذي يؤثر في قضية التمييز الجنسـي و»توزيع الأدوار على أسـاس الجنس»، والاكتفاء بالميول والمباني النفسية، وهذا ما جعلها محل نقد المعارضين.[2]

ج. نظريّات علم الإجتماع

النظرية الوظائفية

يعتبر تالكوت بارسونز (Talcott Parsons) أشهر أتباع المدرسة الوظائفية، الذين تركزت أبحاثهم على «الأسـرة النواتية» للطبقة الوسـطى في أميركا، فقد أوضح كيف تقوم الأسـرة بوظائفها الأساسية على مستوى تثبيت شخصية كبار السن والتنشئة الاجتماعية عند الأطفال بما يساهم في إيجاد حالة من الوحدة الاجتماعية.

ولعل ما يهمنا من أبحاث بارسـونز قراءته لتقسـيم العمل جنسيًا بين الرجل والمرأة في الأسـرة النواتية؛ حيث تعتمد هذه القضية على سـوابق تحليلية ثـلاث: الأولى: التحقيقات

1.Chodorow, “The Psychodynamics of the Family”, p. 195.

2.Tong, *Feminist Thought*, p. 157.

النفسية التي أجراها فرويد يخصوص النمو النفسي والجسدي والذي يختلف بين الذكر والأنثى ويؤدي إلى وجود حالة الذكورة والانوثة عندهما. الثانية: أشارت التحقيقات التي أجراها بيلز (R. Bales)، كما يدعي، أن المجموعات تتحمل نوعين من النشاطات: فمن جهة تقوم بمهمة قيادية مبسوطة السلطة بالكامل عن وظائف المجموعة، بالأخص تلك التي تتعلق بالتلاؤم مع الشروط الخارجية والاجتماعية، وقد أطلق على هذا النوع «الدور الآلي» (instrumental)، ومن جهة أخرى تقوم بمهمة قيادية في ما يتعلق الوظائف المتعلقة «بالأدوار التعبيرية» (Expressive).

لقد افترض كلٌّ من بارسونز وبيلز أن نتائج هذه التحقيقات التي أجريت على المجموعات الاختيارية تصدق على المجموعات الواقعية كالأسرة.[١]

وقد توصلا إلى النتيجة الآتية: وهي أن النساء يمارسنَ في الأسرة الدور التعبيري: فالنساء عطوفات، يمتلكن قدرة الجذب والبشاشة والإطاعة، ويمارس الرجال الدور الآلي، فهم قادة، حماسيّون، أصحاب أخلاق وأصالة. فالرجل هو المُعيِل، وهو الملجأ الأساس للمرأة، وزوجة الرجل هي أم أولاده.[٢]

تشكل المعطيات البحثية الثقافية المبنى الثالث لتحليل بارسونز. وثمة دراسات أجريت على ستة وأربعين مجتمعًا من بين ستة وخمسين، أظهرت وجود حالة تمايز بين النشاطات الأسرية الآلية والتعبيرية بالشكل المتوقع؛ حيث اختص القسم الأول بالنساء، والثاني بالرجال.[٣]

وبناء على المعطيات البحثية التي توصل إليها بارسونز أكد أن تقسيم العمل الجنسي بين الزوج والزوجة على أحسن وجه يوفر الأرضية اللازمة للقيام بالوظائف الأساسية للأسرة، وذلك في مجالي تثبيت شخصية الكبار والتنشئة الإجتماعية للأطفال بشكل كامل. وهذا

1.Lee & Newby, *The Problem of Sociology*, p. 288-285.

2.Harvey & MacDonald, *Doing Sociology*, p. 197.

3. Lee & Newby, *The Problem of Sociology*, p. 289.

الأمر يؤدي دورًا أساسيًا في ثبات الأسرة ووحدتها، ويتبع ذلك الوحدة الاجتماعية. ويعتقد أيضا بأن تابعية النساء في المجتمعات الرأسمالية أمر ضروري، وهو عامل مؤثر في وظيفة حفظ الإنسجام الأسري؛ حيث يؤدي إنسجام الأسرة إلى حفظ الصورة الطبقية. ويبدو أن حفظ الشكل الطبقي أمر ضروري لأجل بقاء البناء الإجتماعي كما هو.[١]

نظرية الصراع

لقد بحث أتباع نظرية الصراع المتأثرين بعقائد مارك وأنجلز، تجذُّر تقسيم العمل غير العادل في النظام الطبقي الذي يصدر على أساس الملكية الخاصة، هذا النظام الذي تجلّى في العصر الراهن في شكل النظام الرأسمالي. واعتبروا أن سبب استمرار تقسيم العمل جنسيًا في المنزل هو الرؤية الرأسمالية لعمل النساء المنزلي الخالي من الأجر. وحسب بعض التقديرات؛ فإن العمل المنزلي يشكل بين ٢٥ إلى ٤٠٪ من الثروات الموجودة في الدول الصناعية. ويساهم العمل المنزلي المجاني الذي يصدق على عدد كبير من الأفراد في تقوية الجوانب الإقتصادية الأخرى.[٢]

ويعتبر العمل المنزلي للنساء «منفعة إضافية» تعود بالنفع على الرأسمالية، ومن جهة أخرى يساعد ترقي المستوى المعيشي أو الحفاظ عليه في حدود مقبولة على التقليل من الضغوطات السياسية التي تؤدي إلى التبدلات الثورية؛ حيث يجعل هذا الأمر الرجال راضين بالوضع الموجود؛ وبالتالي يعود النفع في النهاية الى النظام الرأسمالي. وتجدر الإشارة هنا الى أن الآثار التي يتركها العمل المنزلي والرعاية العاطفية للنساء تساعد في تجديد قدرات الأزواج والأولاد البالغين والآباء من أجل يوم عمل جديد.[٣]

وتؤكد ميشال بارت (Michelle Barret) أن النسوية الماركسية على أهمية تقسيم العمل جنسيًا في المنزل على مستوى «الأيديولوجية الأسرية»، وإن كان للنظام الرأسمالي تأثير

1.Harvey & MacDonald, *Doing Sociology*, p. 197.

٢.غيدنز، جامعه شناسى، ص ١٩٦.

3.Bilton, *Introductory Sociology*, p. 351-352.

في شيوع هذا التقسيم وتقويته. وتعتقد، بناء على الأيديولوجية الأسرية، أن الأسرة النواتية تحصل على قوامها وبنيانها وتصبح عمومية عن طريق هذا التقسيم. وتوضح بارت تقسيم العمل الطبيعي؛ حيث يؤدي تقسيم العمل الى تحمُّل الرجل مسؤولية تأمين الموارد الاقتصادية، وتتحمل المرأة مسؤولية الرعاية وتوفير العمل المنزلي المجاني. ولا يمكن أن نعتبر هذا النوع من الأنظمة الأسرية حالة لا مفر منها في المجتمع الرأسمالي، إلا أنه فتح الطريق للأيديولوجية الأسرية إلى العلاقات الإنتاجية الرأسمالية عبر «الصيرورة التاريخية» بناء على هذه النظرية، فإن الدور الطبيعي للمرأة العاملة، هو العمل المنزلي؛ أي الزوجية والأمومة. تتقدم هذه الأيديولوجيا على العقيدة الرأسمالية في خصوص المرأة طبعًا، إلا أن انتشارها كان يتناسب مع الأوضاع الرأسمالية الى حد بعيد. لقد تم تثبيت النظام الأسري في منتصف القرن التاسع عشر نتيجة الإتصال والتوحُّد بين الإتحادات العمالية الصناعية والرأسماليين، على أساس أن كلتا المجموعتين كانتا تعتقدان بضرورة عدم حضور المرأة في عداد قوى العمل.[١]

النظرية النسوية

يعتقد أغلب النسويين الراديكاليين أن مصدر جميع أنواع «التمييز الجنسي» يعود إلى المجتمع الأبوي. ويعتبرون أن سبب استمرار تقسيم العمل على أساس الجنس في المنزل الذي هو من أهم مظاهر التمييز الجنسي يعود إلى إستفادة الرجال من هذا النوع من تقسيم العمل؛ إذ إنه بناء على هذا النموذج من تقسيم العمل، تكون النساء، سواء أكنَّ زوجات أو أمهات أو أخوات أو بنات، في خدمة الرجال لتوفير حاجاتهم.[٢]

أما السبب الرئيس في هذا الأمر؛ فهو في قدرة الرجال الذين يتمكنون من استغلال النساء لأجل تأمين طلباتهم؛ فالرجال يتمتعون بسلطة أكبر من النساء، حتى إنهم عندما يقررون المشاركة في أعمال المنزل، فهم يستطيعون ذلك، وقد يختارون أعمالًا أكثر جاذبية، وعلى

١. أبوت ووالاس، در آمدى بر جامعه شناسى نگرش هاى فمنسيتى، ص ٢٥٢.

2.Bilton, *Introductory Sociology*, p. 351.

هذا تكون مشاركتهم نحوًا من المساعدة وليس تحملًا للمسؤولية.[١]

تعتقد آن أوكلي وهي أشهر دعاة النسوية أن تقسيم العمل جنسيًا وإعطاء الأنثى دور الأم فحسب، يرجع إلى أسطورة المجتمع الأبوي التي تعمل المؤسسات الثقافية على تثبيتها والترويج لها. وتضيف: أن أفكار علماء السلوك وعلماء الإناسة والاجتماع وعلماء نفس الأطفال تقع في إطار الترويج لهذه الأسطورة أيضًا. فالمجموعة الأولى – حسب قولها- تعترف بمصدر بيولوجي لمسألة تقسيم العمل جنسيًا، والإنثروبولوجيا تعمم ظاهرة تقسيم العمل جنسيًا من خلال دراستها للثقافات المختلفة. وتؤكد الثالثة، أي فئة علاء الإجتماع، على وظائفها الإجتماعية الإيجابية، واما الرابعة، أي علماء نفس الطفل، فيعتقدون أن الطفل لا يحتاج إلى الأب؛ بل إلى الأم؛ وبناء على هذا، فالأسطورة التي حبست المرأة في المنزل، هي مسألة طبيعية وعالمية وضرورية، وقد اكتسبت هذه الأسطورة مكانتها ومقبوليتها استنادًا إلى الدراسات العلمية.

وقد تعرضت أوكلي أثناء البحث عن نتائج هذه التحقيقات للحديث عن التأييد العلمي لهذه الأدعاءات، فاعتبرت أنها صادرة عن واقع كون الباحثين في هذه الأمور قد أضمروا في داخلهم قيم البيئة الثقافية المحيطة؛ أي الثقافة الغربية. هذه القيم التي تجعل تقسيم العمل جنسيًا في المنزل خاصة نسبة الأمومة إلى المرأة والأبوة إلى الرجل من أهم شعاراتها.[٢]

وما تجدر الإشارة إليه هو محاولة بعض النسويين المتأخرين تقديم توضيحات متعددة العلل لمسألة تقسيم العمل الجنسي غير العاجل في المنزل؛ حيث يحصل هذا الأمر عادة عبر تلفيق النظريات النسوية المتقدمة، فقد استعانت جولييت ميتشل (Juliet Michell) أثناء تعرضها لهذا الموضوع بنظريات علم النفس، والاقتصاد، والبيئة، والإجتماع، والثقافة في عرض بعضها الآخر، فإنه ومضافًا إلى اللاوعي الذي يحتل مكانة خاصة على مستوى تجديد الأدوار الجنسية وإعادتها. تعتقد ميتشل أن بعض جوانب حياة المرأة في المنزل تحمل بعدًا

1. Burr, *Gender and Social Psychology*, p. 85.

2.Oakley, *Woman's Work, The Housewife*, p. 68, 157-158.

اقتصاديًا، بعد بعض التحولات التي ظهرت في أساليب الإنتاج. وثمة من النساء من ترضى بالدور الذي تقوم به لأسباب أيديولوجية نتيجة الضغط الإجتماعي الذي تتعرض له.[١]

رأي الإسلام

يمكن القول إن النظريات المتقدمة التي بيّنت الموقف من تقسيم العمل في المنزل قد عالجت المسألة بطريقتين مختلفتين؛ حيث مالت بعض النظريّات إلى جانب التعليل، ومالت أخرى إلى دراسة الجانب الوظيفي. تؤكد النظريات التي عالجت المسألة انطلاقًا من الجانب التعليلي على ثلاثة عوامل: بيولوجية، نفسية، واجتماعية، بينما تؤكد النظريات التي مالت إلى معالجة الجانب الوظيفي على الوظائف الإيجابية لتقسيم العمل جنسيًا لتأثيره في حفظ الوحدة الاجتماعية واستمرار النظام الرأسمالي. وفي ما يأتي نتعرض لرأي الإسلام، في هذا الخصوص. وعند مراجعتنا للمصادر الإسلامية نجد نوعين من التعابير في هذا الشأن؛ أما النوع الأول، فقد أكد على بعض الاختلافات الذاتية الفطرية بين الرجل والمرأة؛ حيث تؤدي هذه الاختلافات الى ميول عملية وغير عملية مختلفة بينهما، وبعض الروايات أشارت الى خلق الرجل من الأرض، وأن المرأة خلقت من الرجل، ما يؤثر في ميل الرجال الى الأرض، كناية عن علاقة الرجال بالنشاطات التي تتمحور حول الأرض والابتعاد عن المنزل، ومَيْل النساء الى الرجال، بمعنى مَيْل النساء إلى لفت أنظار الرجال، أو كناية عن مَيْل النساء إلى النشاطات التي تستلزم حضور الرجال.[٢]

وأما النوع الثاني من التعابير فقد ميّز بين النموذج المطلوب في تقسيم العمل وبين النموذج غير المطلوب، ومن ثم المقارنة بينهما. فقد تحدثت بعض الروايات عن دور الأمومة والزوجية باعتبارهما أفضل الأعمال التي تقوم بها المرأة.[٣] وثمة روايات أخرى شجعت

1.Tong, *Feminist Thought*, p. 175.

٢.الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ٤٠-٤٢.

٣.م.ن، ص ١١٥ و١٢٣؛ السيوطي، الدر المنثور، ج ٢، ص ١٥٣.

الرجال على مساعدة النساء في الأعمال المنزلية.[١] وثمة روايات امتدحت مشاركة النساء للرجال في مسائل التجارة، واعتبرتها من العلامات الحسنة لآخر الزمان.[٢] أما في ما يتعلق بالمدلول الإلتزامي لهذا النوع الأخير، فإن تقسيم العمل جنسيًا لا يحمل أي حالة إجبارية على الإطلاق؛ بل يقع دائمًا في إطار القرارات الاختيارية والواعية للأفراد. ويقتضي الجمع بين هاتين المجموعتين من الروايات الاعتراف بوجود بعض المقدمات الفطرية لتقسيم العمل الجنسيّ. وتعود جذور تقسيم العمل على أساس الجنس إلى القرارات الجمعية الواعية أو نصف الواعية عند الأفراد، وهذه القرارات تحصل تحت تأثير القيم الثقافية. وتوضح النظريّات النفسية كيفية الصيرورة الداخلية لهذه الأدوار الجنسية التي وجدت عبر الثقافة، وهنا لا بد من التوقف عند ظاهرة سلطة الرجال، لا بعنوان كونها حالة مستقلة؛ بل باعتبارها وسيلة تحقق الأهداف الثقافية، ولا بد من الإلتفات هنا إلى تقسيم العمل على أساس الجنس.

وفي مسألة التوضيح الوظيفي تعترضنا ثلاث نظريّات أساسية: «نظرية بارسونز»، و«النظرية الماركسية» و«النظرية النسوية». وتشترك هذه النظريات الثلاث في تأكيدها على المصلحة أو المنفعة التي يقدمها تقسيم العمل جنسيًا إلى النظام العام. وأما الفارق فهو أن بارسونز، عبر التقديم الإيجابي لهذه الوظيفة، يعتبر أن النظام الإجتماعي في كليَّته هو النظام العام صاحب المصلحة. بينما تعتبر النظريات النسوية والماركسية عبر تقييمها السلبي لهذه الوظيفة، أن النظام الرأسمالي والأبوي هو صاحب المصلحة فيها. وبعد ملاحظة المصادر الإسلامية، يمكن القول إن الإسلام يشرح هذا الأمر بشكل معرفي غائيّ يتلاءم مع التوضيح الوظيفي الى حدود بعيدة؛[٣] بمعنى أن كلا التوضيحين هامَّان؛ إذ إنه وبعد افتراض وجود بعض القيم والأهداف العامة، يتم تقسيم العمل في المنزل من أجل تحقق تلك الأهداف والقيم،

١. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٢ ص ٣٩؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٦، ص ٢٣٨؛ ج ١٠٤، ص ١٣٢.
٢. المجلسي، بحار الأنوار، ج ٨٧، ص ٢٣؛ النوري، مستدرك الوسائل ١٢، ص ٣٢٧.
٣. لا يجوز أن نفهم هذا التفسير على أنه يقدم الحكم القيمي الإسلامي في ما يتعلق بتقسيم العمل جنسيًا، أو أنه فلسفة هذا الحكم بشكل كامل؛ بل يمكن أن يصبح هذا التوضيح المبنى الأساس لتحليل الواقع الموجود في المجتمعات الإسلامية المفيدة بالقيم الدينية.

ويختلف أحد التوضيحين عن الآخر من جهة طبيعة القيم التي يفرضها كل واحد منهما، فإذا كانت أهداف نظرية بارسونز تتركَّز على «الوحدة الإجتماعية»، فإن التوضيح الإسلامي يدور على محور «السعادة الحقيقية للإنسان»؛ باعتباره هدفًا نهائيًا؛ فالسلامة المعنوية للفرد تمثل دورًا هامًا في تأمين السعادة الحقيقية للإنسان، وتؤدي وظيفة هامة في المسائل الإجتماعية، وخاصة على المستوى الجنسي.

لقد رفض الإسلام الإختلاط بين الرجال والنساء غير المحارم، ورفض تبادل العواطف بينهما؛ وذلك في سبيل تحقق أهدافه وتأمين السلامة المعنوية للفرد والعائلة والمجتمع، وذلك عن طريق خفظ الشخصية الإنسانية للمرأة، والحؤول دون تحولها إلى وسيلة لإشباع أهواء الرجال؛ وعلى هذا الأساس فإن تقسيم العمل جنسيًا في الأسرة يقضي بأن يكون للنساء وظائف منزلية وللرجال أعمال خارجية، بحيث يتحول هذا التقسيم إلى حالة ضرورية تساهم في تهيئة الأرضية اللازمة لحجب المرأة وابتعادها عن الاختلاط معه غير المحارم، وهذا يساهم بدوره في تأمين السلامة المعنوية للمجتمع.[1]

بناء على هذا، فإن أصل احتجاب النساء هو أحد الجوانب الدخيلة في هذا الموضوع، ولا يجب أن نغفل عن الجوانب الأخرى، كالحدود التي تسببها عملية الولادة، والقدرة الجسدية الضعيفة للنساء مقارنة بالرجال؛ فهذه الأمور تتلاءم مع تقسيم العمل بحسب الجنس في الأسرة، وما زلنا نلاحظ حضور هذا النوع من الاختلافات الجنسية ونشعر بوجودها الحسي في المجتمعات الصناعية المعاصرة على الرغم من انخفاض معدل الولادات، ووجود الكثير من الأعمال التي لا تتطلب قدرة جسدية كبيرة. وبالالتفات إلى البعد الغائي في التوضيح المتقدم، تجدر الإشارة إلى أن تقسيم العمل جنسيًا يبقى أمرًا وظائفيًا ما دام في خدمة الأهداف المقررة، وأما لو أزيلت الأهداف، مثلًا، بسبب بعض التغيُّرات القيمية في المجتمع،

---

١. جاء في رواية: «تقاضى علي وفاطمة إلى رسول الله في الخدمة، فقضى على فاطمة بخدمتها ما دون الباب وقضى على علي بما خلفه. قال: فقالت فاطمة، فلا يعلم ما دخلني من السرور إلا الله بإكفائي رسول الله تحمل أرقاب الرجال» (الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ١٢٣).

فإن هذا التقسيم يفقد دوره الوظيفية، وهكذا يكون الوضع أيضًا فيما لو لم يؤد تقسيم العمل إلى خدمة الأهداف؛ فلو فرضنا أن ثمة أسرة عاملة لم تنجب أولادًا؛ حيث يعمل الرجل والمرأة داخل المنزل بشكل متساوٍ، ولا يوجد أي حدود للمرأة، فإن تقسيم العمل جنسيًا في هذه الأسرة لا يعد وظائفيًا، ولا يمكن اعتباره مطلوبًا في التعاليم الدينية من الناحية القيمية.

مما تقدم، تظهر نقاط الضعف في النظريّات الماركسية والنسوية، ويتبين في ما يتعلَّق بالتوضيح الماركسي كما جاء في كلام ميشل بارت، غياب الإرتباط الوظائفي العلي والمعلولي بين الأسرة والنظام الرأسمالي؛ فلا يمكن أن نعتبر بعد ذلك انها مجرَّد نتيجة للرأسمالية؛ فالأسرة وباعتبارها وحدة إجتماعية أصيلة تتفاعل مع أي نظام بديل عن الرأسمالية ومع مؤسساته ووحداته الإجتماعية؛ حيث يجب أن تكون في خدمة أهداف ذلك النظام؛ إذًا، لا يمكن التشكيك في أن أصل الحياة الأسرية مخالف للنظام الرأسمالي، كما في الماركسية. أضف إلى ذلك، ونظرًا إلى تأكيد بعض أصحاب «النزعة النسوية»[1] بأننا إذا اعتبرنا أن عمل النساء المنزلي يقع في إطار خدمة النظام الرأسمالي، عندها يمكننا الحديث عن عملهنّ خارج المنزل وبالأسلوب نفسه أيضًا، أفلا يؤدي دخول النساء ساحة العمل والإنتاج إلى زيادة الرأسمالية وتوسُّعها؟!

هذا الإشكال بعينه يمكن ذكره في نظرية «التفسير النسوي»، فإذا كانت إستفادة الرجال من النساء أمرًا مرفوضًا، فلا يزول هذا الأمر لمجرَّد تغيير نموذج تقسيم العمل، فالرجال يستفيدون من عمل النساء المنتج أيضًا. وتعتبر استفادة النساء من نتاج عمل الرجال مسألة أخرى أيضًا؛ حيث غفلت النظرية الأنثوية عنها بالكامل متأثرة بمنظومة القيم في النظرية النسوية بشكل مباشر.

إن الحديث عن الحياة الأُسرية والتساؤل عن التساوي بين الرجل والمرأة أو المصالح الأسرية المتفاوتة يعودان إلى عدم العدالة بين الرجل والمرأة؛ وينبغي التعرُّض لهذا البحث في دراسات متخصِّصة؛ حيث يمكن أن نلاحظ وجود آراء قيمية متعددة وإجابات متعددة

1.Tong, *Feminist Thought*, p. 57.

أيضًا، إلا أن المهم هنا هو عدم التركيز على أن استمرار العمل أو تقسيمه على أساس الجنس في الأسرة هو لاستفادة الرجال المتبادلة من عمل النساء المنزلي؛ بل يمكن أن نجعل المبنى هو المنفعة المتقابلة للنساء والرجال من عمل الآخر ونشاطه الآخر. إذًا، يجب النظر إلى مسألة منفعة الرجال من عمل النساء المنزلي من زاوية أخرى، لا أن ننظر إليها من زاوية التسلط الرجولي الظالم. يعتبر الإسلام، في نظريته القيمية، أن الأُسرة تشكل محلًا للخدمات المتبادلة في الجانب المعيشي بين الرجل والمرأة مضافًا إلى وظائفها الأخرى. وعندما جعل الإسلام مسؤولية الإنفاق ملقاة على عاتق الرجال؛ فإن هذا يعني أن الإسلام قد وضع الرجال عمليًا في خدمة النساء، لا بل اعتبر الإسلام أن أفضل النساء تلك التي تعين زوجها على تأمين الإحتياجات المعيشية للأسرة وخاصة داخل المنزل.

واشترط أيضا في أي مساعدة تقدمها المرأة أن تكون مقرونة برضاها ورغبتها، ومنع كل أنواع الإلزام والإجبار. وهنا لا بد من الإلتفات إلى الثواب المعنوي الكبير الذي أعدَّه الإسلام للنساء المؤمنات على هذا العمل. وتترك هذه الرؤية آثارًا كبيرة على واقعهنّ، عند تحققها في المجتمعات الإسلامية؛ وبهذا الشكل يتكون لدينا شاهد تاريخي حي على رفض النظرية النسوية. يقول الشهيد مطهري: «قبل أن تصبح المرأة في العائلات المسلمة في خدمة الرجل، فإن الرجل، وبحكم مسؤوليته الإسلامية، هو في خدمة المرأة، وهو المكلَّف بتأمين سبل راحتها؛ فالأسر التي تُحقَّرُ فيها المرأة وتُظلمُ هي بعيدة عن روح الإسلام».[1]

١. مطهري، مسألة حجاب، ص ٥٢.

تقسيم السلطة في الأسرة

يعتبر التقسيم غير المتساوي للسلطة بين الرجل والمرأة من أهم محاور التمييز الجنسي في الأسرة. ويُعرِّف ماكس فيبر السلطة بأنها «قدرة الفرد على تحميل الآخرين رغباته على الرغم من مقاومتهم له».

إلا أن هذا التعريف والتعاريف الأخرى المشابهة، تأخذ بالاعتبار الجوانب الظاهرة للسلطة التي يكون على رأسها سلطة اتخاذ القرار النهائي في المسائل الخلافية. وقد أكد بعض الباحثين المتأخرين على الجوانب الخفية في السلطة، بالأخص تلك التي تعارض مصالح الأفراد، وتظهر هذه الجوانب الخفية عادة عندما يُصرِّح الأفراد والمتسلِّط عليهم بميولهم ورغباتهم.[1] على كل حال، وبما أن ميزان السلطة في أغلب المجتمعات يميل لصالح الرجال، سواء أكان ذلك في الأسرة أم في المجتمع، فإن عبارة «السلطة الأبوية» تتمتع بأهمية خاصة في هذا البحث.

ويحكي مفهوم «السلطة الأبوية» عن سلطة الرجال. وقد ذكر رادكليف براون(Brown Raadcliff) خصائص الأب النسبي والمكاني، معتبرًا أنها تخصيص الأرض للأفراد الذكور، وخلافة الولد الأكبر للأب. واحتكار الأب السلطة[2] والسلطة الأبوية عند فيبر هو الوجه المشترك بين جميع المجتمعات التقليدية. وفي هذه المجتمعات تُمارَس السلطة في إطار الأسرة التي تقوم على أسس إقتصادية وعلاقات نسبية عبر فرد محوري تعود إليه الوراثة بشكل يقينيّ. ويعتقد فيبر أن الأب يرمز إلى الإقطاعي في المجتمعات الإقطاعية، فهو يمارس سلطته على الرجال والنساء، ويمتلك قدرة التحكم في جميع النشاطات الإقتصادية والسلوكية للأفراد الآخرين. إذًا، فالسلطة الأبوية، بناء على هذا الإصطلاح، لا تختصّ بالعلاقة بين الجنسين.[3]

---

1. Komter, “Hidden Power in Marriage”, p. 360.E

٢. ساروخاني، دائرة المعارف علوم اجتماعى، ص ٥٢٥.

3.Bradley, “Methodological Issues and Practices in Qualitative Research”. P. 181.

وقد اتسع استعمال هذا المصطلح في أوائل السبعينات(١٩٧٠) في الأدبيات النسوية؛ باعتباره مفهومًا ذا أهمية سياسية. وبما أن النظريات الإجتماعية المتداولة تفتقد المفاهيم الأمة لتوضيح سلة الأب، فقد اختار النسويون مفهوم «سلطة الأب» للقيام بهذا الأمر، ليشيروا بذلك إلى الأفكار والأعمال التي تمتد من أقرب مواجهة جنسية إلى أعم العوامل الاقتصادية والأيديولوجية. لقد استعمل مصطلح «سلطة الأب» وبالتدريج ليس للدلالة على سلطة الرجال على النساء بشكل عام؛ بل أصبح حالة ضمن سلسلة مراتب سلطة الرجل ومشروعيتها الإيديولوجية؛ باعتبارها حالة طبيعية وقانونية وصحيحة وعادلة.[١]

قراءة وصفية لتقسيم السلطة في العائلة

تعتبر سلطة الرجال العالية على النساء، جزءًا من الظواهر الإجتماعية العامة والشاملة وخاصة في الأسرة التي تكون السلطة الأبوية فيها هي المرجع النهائي. حتى إن فرضية وجود نظام «السلطة الأمومية» أو حالة التساوي في الموقع الإجتماعي بين الرجل والمرأة غير ثابتة في العصور الأولى للحياة البشرية وفي المجتمعات المعاصرة. وبناء على رؤية كلاين برك، فإنه لا يمكن اعتبار بعض المجتمعات «كالمجتمعات الملانزية» واحدة من مظاهر السلطة الأمومية؛ باعتبار أن السلطة على الأولاد كانت تعطى لأسرة الأم؛ على أساس أن السلطة على الأولاد تعطى للرجال في هذه الأسر وليس للنساء، وعلى الولد أن يكون مطيعًا للخال وليس لأبيه، لا بل إن سلطة الأم أقل من سلطة الأب.[٢] وهكذا فإن عبارة الألهة المؤنثة في بعض المجتمعات القديمة قد تكشف عن احترام الجنس المؤنث في القديم، إلا أنها لا تُثبت وجود سلطة للنساء على الرجال في مرحلة من المراحل ولا تثبت التساوي بينهما أيضًا.[٣]

وفي كل الأحوال، فإن النساء وعلى مدى التاريخ، ما زلن يتمتعن بسلطة أقل من سلطة الرجال، وموقع أقل من موقعهم، على الرغم من التجارب المختلفة من حيث النفوذ والسلطة في المجتمعات.

1.Ramazanoglu, *Feminism, and the Contradictions of Oppression*, pp. 33-34.

٢.كلاين بارك، روان شناسى اجتماعى، ص ٣١٩.

٣.هيوود، «چهار مبحث أساسى فمنيسم»، ص ٣١.

وإن الدعوة إلى نوع من الأسر المتساوية او الديمقراطية في المجتمعات الصناعية، تشير إلى حصول بعض التغيُّرات في النموذج التقليدي لتقسيم السلطة في الأسرى، والمتوقع في هذه الأسر الجديدة أن يتساوى الرجل والمرأة في السلطة في مختلف مجالات الحياة الأسرية، وخاصة في ما يتعلق باتخاذ القرارات، ومراقبة مداخيل الأسرة، والمشاركة في المصادر... يتحتّم على الزوجين في مثل هذه الأسر أن يختارا واحدًا من الأساليب الثلاثة الآتية:

١. التقسيم المتساوي لدائرة المسؤولية.

٢. المشاركة الكاملة في القرارات.

٣. تلفيق الأسلوبين المتقدمين.

هذا، في وقت تدَّعي أكثر النساء والأزواج أن

موازنة السلطة الزوجية تتم بشكل متساوٍ، وتبيِّن الشواهد الموجودة أن المساواة الكاملة لمتصل إلى عموميتها المطلوبة. وقد وجه سؤال إلى أكثر من ٣٠٠٠ زوج أميركي أوائل الثمانينات، بخصوص توازن السلطة في الحياة الزوجية. فاعتبر ٦٤٪ أن السلطة توزع في حياتهم الوجية بشكل متساوٍ. وأشار آخرون إلى أن السلطة في أيدي الرجال، بينما ظهر أن ٩٪ من النساء فقط يتمتعن بالسلطة.[١]

ويشير إحصاء أُجري في بريطانيا في العام ١٩٨٦ إلى أن نموذج المساواة في السلطة يتطابق مع ١/ ٥ من الأسر في المجتمع. أما الدراسات المتعلقة بالحالات الأخرى فتبين تخصيص مقدار من الأموال في الموازنة الأسرية من أجل زيادة حالة عدم المساواة الموجودة بين الزوج والزوجة أو تخفيضها.[٢]

تجدر الإشارة في هذا الإطار إلى بعض الدراسات الأخرى التي حاولت دراسة «الحركة التبادلية لميزان السلطة الزوجية» (marital power) في العقود الأخيرة؛ حيث أجري تحقيق

1.Taylor, & Peplau & Sears, *Social Psychology*, p. 274.

2.Vogler & Pahl, "Money, Power and Inequality in Marriage". Chap. 6.

في العام ١٩٦٢ وأبدت فيه ٣٣٪ فقط من النساء الأميركيات معارضتهن لانحصار سلطة إتخاذ القرارات الحياتية الهامة في يد الرجل، بينما عارضها في العام ١٩٨٠م ٧١٪ منهن.[١]

نظريّات تقسيم السلطة في الأسرة

ما هو السبب أو الأسباب التي تجعل الرجال ذوي سلطة أوسع من زوجاتهم؟ وبعبارة أخرى، ما هو مصدر ومنشأ السلطة على مستوى الأسرة؟

طُرحت نظريّات كثيرة في إطار الإجابة عن هذا السؤال، وقد عالجت كل واحدة منها القضية من جانب خاص. وسنحاول في هذا البحث – كما عملنا في بحث تقسيم العمل على أساس الجنس– التطَّرُّق إلى ثلاثة أنواع من النظريّات، تتمثَّل بـ :نظريّات «علم الحياة»، ونظريّات «علم النفس» ونظريّات «علم الاجتماع».

أ. نظريّات علم الحياة

توضح بعض نظريّات علم الحياة أن للهرمونات الجنسية دخالة في سلطة الرجال. وبناء على هذه النظريات، فإن الهرمونات الذكورية تجعل الرجال يميلون بشكل أكبر نحو التسلط على الآخرين. وبما أن الرجال في هذا العصر يمتلكون مقدارًا من هذه الهرمونات أكثر مما هو عند النساء، فإنهم يتصرَّفون على أساس سلطوي.[٢]

وتوجد نظريّات أخرى اعتبرت أن القوة البدنية لدى الرجال هي التي تؤدي إلى سلطتهم؛ بمعنى أن الرجل يمتلك من القدرة البدنية ما يكفي لجعل المرأة تخضع وترضخ لإرادته؛ لذلك فمن الطبيعي أن يتحرك الرجل لامتلاك أكبر قدر من السلطة. تؤكد هذه التفسيرات عادة على دور الاختلافات الجنسية في عجز النساء بالمقايسة مع الرجال، وخاصة في المسائل المتعلقة بالولادة والعادة الشهرية.[٣]

1.Schaefer, *Sociology*, p. 324.

2.Baron & Byrne, *Social Psychology*, p. 186.

٣.كلاين بارك، روان شناسى اجتماعى، ص ٣١٩.

وأكدت بعض نظريّات علم الحياة الأخرى على مسيرة التطوُّر والنُّموّ المختلفة بين الرجل والمرأة. ويستدل بعض علماء الإجتماع على أن طبيعة نمو الرجل تملي عليه أن يكون صيادًا ومعيلًا، بينما نمو المرأة يفرض عليها أن تهتم بتربية الأطفال والاهتمام بالمنزل. وإذا أضفنا إلى هذا الأمر أن نشاط الرجل أهم من نشاط المرأة، فسوف نصل إلى نتيجة مؤدّاها أن الرجال قد يحصلون على سلطة أكبر بحكم الطبيعة.[١]

ويؤكد بعض النسويين على العوامل البيولوجية باعتبارها مصدر سلطة الرجال على النساء. وقد أجرى النسويون «الراديكاليون» دراسات عدة في العام ١٩٧٠، وأوضحوا أن السلطة التي تمارس من أجل إخضاع النساء تؤدي دورًا هامًا ومؤثرًا أكثر مما قد يُتصوَّر.[٢]

وفي هذا الإطار، وضّحت ماري دالي (Mary Daly) في كتاب «طبّ النساء»، أساليب الرجال الخشنة من أجل التسلُّط على النساء؛ فاعتبرت أن الخشونة «الطبيعية» هي العامل الأساس في السلطة الأبويّة، وفي الظلم الذي يمارس ضد النساء.[٣]

ب. نظريّات علم النفس

ثمة بعض «النظريات القيادية» (leadership) في علم النفس الاجتماعي، والتي يمكنها أن توضّح أسباب سلطة الرجال مضافًا إلى بعض نظريّات علم النفس التي تمحورت حول عملية تشكل الشخصيات المختلفة بين الذكر والأنثى.[٤] أما الدراسات التي تحدثت عن الخصائص المتعلقة بالقادة والتي تنحصر بم، فإنها وإن لم تتمكن من الوصول إلى نتائج واضحة متفق عليها، إلا أن بعضها أكد على أوجه الاختلاف بين القادة والأتباع على الأقل. وأما هذه الخصائص فهي:

١. التفوّض الشخصي الذي يساعد على الوصول إلى الأهداف، كالذكاء، والقدرة

1.Kammeyer & Yetman, *Sociology*, p. 329.

٢. جر، «چهار تلقى ازفمبينيسم (١) و(٢)»، ص ٤٢.

3.Tong, *Feminist Thought*, p. 104.

٤. كنظريّات علم النفس التي تعود إلى فرويد وتشودروف، وقد أشرنا إليها في الأبحاث المتقدمة.

البنيــة، والمهارات الخاصــة، كلاعب الكرة الذي يتحول سبســبب قدراته إلى قائد للفريق.

٢. التفوّق في مهارات التعامل بين الأشخاص.

٣. الدوافع القوية التي تدعو الشــخص إلى البحث عن الشــهرة واكتساب السلطة عبر الحصول على بعض الصفات، كالطموح وتحمُّل المسؤولية.[1]

من هنا، يمكن توضيح سلطة الرجال في إطار حركة طبيعية تتدخل فيها خصائص الرجال الخاصة، كالقدرة البدنية، والقدرات الذهنية والجسمية التي تُسخَّر في خدمة أهاف الأسرة، وحبّ الاستطلاع، وحب السلطة. ثمة نظريّات أخرى لم تعتمد التفسير العلي بمعناه الدقيق؛ بل اعتمدت «التفسير الغائي»؛ حيث يتم التأكد من الدوافع والمقاصد الواعية أو غير الواعية للأفراد. ونشير هنا إلى نموذجين من هذه النظريات:

حاولت ماري أوبريان (Mary O'brien) – وهي من النسويين الراديكاليين – أن تتعرض لقضية الإنجاب عند الحديث عن خضوع النســاء وظلمهنّ، فدرســتها من زاوية إحســاس الرجــال بالغربة. وتعتقــد أوبريان أن مصدر غربة الرجال عن الإنجــاب والأولاد، يعود إلى ثلاثة عوامل أساســية: الأول: أن الإتصال الزماني والمكاني بين بويضة المرأة والطفل الذي يتشــكل منها، لا ينقطع على الإطلاق؛ إذ إن هذه العملية تحصل داخل أحشــاء المرأة، بينما يقطع الإتصال الزماني والمكاني بين الحيوان المنويّ عند الرجال والطفل الذي سيتكوَّن منه. الثاني: أن النساء وحدهن يقمن باتمام عملية الإنجاب؛ أي الحمل، وليس الرجال. والثالث: أن العلاقة بين المرأة وطفلها هي علاقة خاصة يقينية؛ حيث تعتبره المرأة في لحظات الولادة الاولــى على الأقل جزءًا منها، بينما لا تكون العلاقة بيــن الرجل والمولود كذلك؛ فلا يقين عند الرجل بأن الولد المنسوب إليه هو ابنه.

بناء على ما تقدم، فإن الرجل يعمد إلى الســلطة الأبوية من أجل التعويض عن غربته في الإنجاب، ويدَّعي الرجل بسبب تزلزل مقام الأبّوة، أنه بما أن لدى المرأة قدرة على الإنجاب،

1.Sears & peplau & Freedman & Taylor, *Social Psychology,* p. 403.

فإن لديها قدرة نتاج الإنجاب أيضًا. وأما إذا أراد الأب التسلط على بدن الطفل، فلا بد له من التسلط على بدن المرأة أولًا.[١]

وقد قدمت دوروتي دينرشتاين (Dorothy Dinner Shtein) رواية نفسانية أخرى لسلطة الرجال على النساء، فهي تعتقد أن بدن الأم هو أول موضوع يواجهه الطفل في العالم الخارجي؛ إذ إنه يعيش تجربة في عالم لا ثقة فيه، ولا يمكن توقع شيء منه، فالأم بالنسبة إلى الطفل مصدر اللذَّة والألم؛ بحيث لا يثق بأنه سيحصل على حاجته الجسمية والروحية من الأم؛ لذلك ينمو الطفل مع إحساسه بنوع من الثنائية تجاه الأم. وبما أن الرجال لا يرغبون في تجربة أخرى من التبعية المطلقة لسلطة كبيرة؛ لذلك يتسلطون على النساء. وبما أن النساء يعشن حالة خوف من سلطة الأم التي بداخلهنّ؛ لذا فإنهن يَمِلنَ إلى الخضوع لسلطة الرجال عليهن. ويساهم هذان الأمران في وجود ترتيبات جنسية خاصة مرفقة مع بعض الخصائص، ومن جملتها الإحساس بتفوق الرجال على النساء في جانب الرقابة والقدرة الجنسية، وزوال الرغبات الشهوانية لدى النساء، والتنكر لشخصيتهنّ المستقلة؛ بل يتم التعامل مع المرأة على أنها شيء من الأشياء. وينعكس ذلك عى تقسيم العمل؛ حيث يختص الرجال بالجانب العام، ويُترك الجانب الخاص للنساء.[٢]

وقد تعرضت هذه النظريّات للعديد من الانتقادات، فمضافًا إلى الغموض والصعوبات الجدِّية التي تتضمنها هذه النظريّات في جال اختبار الفرضيّات وتعميم النتائج، فإن بعضهم يعتقد بأنها أشبه بالانطباع الشخصي، وهي أبعد ما تكون عن النظريّات العلمية؛ باعتبار أنها غفلت عن العوامل المادية والخارجية في سلطة الرجال. ولا شك في أن الرجال لا يمكنهم إحكام سلطتهم على النساء لولا الاستفادة من بعض الأمور، كالقدرة البدنية العالية، وتبعية النساء للرجال إقتصاديًا والحماية الثقافية والقانونية.

1.Tong, *Feminist Thought*, p. E78-79.

2.Ibid, p. 150-152.

ج. نظريّات علم الإجتماع

ثمة نظريّات عدة في علم الإجتماع حاولت تفسير سلطة الرجال؛ حيث تؤكد بعضها على العوامل الإقتصادية أو الثقافية، وتحاول أخرى تلفيقها؛ عن طريق إضافة مجموعة من العوامل الأخرى، كالعوامل البيولوجي والنفسية. وفي ما يأتي نشير إلى أهم هذه النظريّات:

تعرَّض فردريك أنجلز في كتابه «أصل الأسرة الملكية الخاصة والدولة» لبعض النظريّات المتعلقة بأصل الأسرة وقد صارت رؤيته تشكل المبنى والمعيار اللذين تعتمد عليهما الكثير من النظريّات الماركسية والشيوعية اللاحقة. ويعتقد أنجلز أن الأسرة الاشتراكية في بداية تاريخ البشرية، كانت تضم مجموعة من الأزواج والأولاد، وكانت النساء يمتلكن سلطة إدارة المنزل، وبما أن عمل النساء عمل حيوي بالنسبة الى بقاء الأسرة؛ لذا فإنّهنَّ كُن يتمتعن بموقع اجتماعي راقٍ، إلا أن عملية تدجين الحيوانات واتساع القطعان أديا إلى ظهور مصدر جديد للثروة. وبما أن الرجال كانوا يملكون زمام هذه الحيوانات، فإن الثروة الجديدة التي بين أيديهم أدت إلى بداية امتلاكهم سلطة أعلى نسبيًا من سلطة النساء. في المقابل شهدنا إنخفاضًا في الموقع الإجتماعي للمرأة لتدنِّي قيمة العمل والإنجاب. ومع ظهور الأسرة ذات السلطة الأبوية خاصة في صورة الزوج الواحد، فقد تحولت قضية إدارة المنزل من حالة عامة واجتماعية إلى حالة خاصة، فأصبحت المرأة أول خادمة للمنزل، وأُخرجت من ساحة الإنتاج الإجتماعي.

اعتبر الباحثون المتأخرون أن نظريَّة أنجلز، التي أرجعت جذور سلطة الرجال إلى امتلاك الثروة ووسائل الإنتاج، هي نظرية صحيحة، فسلموا بها؛ بل أيّدوها بشكل كامل. ويعتقد أغلب الباحثين المعاصرين أن سلطة النساء لي المجتمعات الزراعية كانت أقل من سلطة الرجال؛ باعتبار أن نظام الإرث في هذه المجتمعات، كان يقضي بانتقال الأرض من الأب إلى الولد الذكر، وبالتالي لا تملك النساء أي شيء منها، مضافًا إلى أن المرأة في هذه المجتمعات كانت تنتقل إلى بيت زوجها، وتترك منزلها بعد الزواج. وتوضِّح التجارب البشرية أنه مع ازدياد المشاركة الاقتصادية للنساء، بالأخص في الحالات التي يكون فيها الرجال على علاقة

بالنشـاطات النسائية، فإن قوتهُنَّ وسلطتهُنَّ تزدادان، لا بل قد توازيان قدرة الرجال في بعض اللأحيان؛ ففي بعض القبائل الإفريقية تؤمن النساء ما بين ٦٠ إلى ٨٠ بالمئة من غذاء الأسرة، فإنهن يمتلكنَ سلطة إتخاذ القرار في أمور القبيلة بما يعادل سلطة الرجال. وقد أشارت بعض الدراسات الحديثة التي أجريت على ما يقارب ١١١ مجتمعًا معاصرًا أنه كلما كانت مشاركة النساء في العمل أكثر، كانت سلطة الرجل عليهن أضعف.[١]

لكن هل تفسّر العوامل الإقتصادية الصّرفة سبب نشأة سلطة الرجال الإقتصادية المرتفعة؟ نلاحظ أن ثمة عددًا من النظريَّات في هذا المجال؛ حيث اعتبر أمثال شـولاميث فايرسـتون أن الأسـباب البيولوجية كالإنجاب، تستتبع مسـتلزمات عدة، مثل: حالة اليأس، والأمراض النسـائية، وآلام الحمل والولادة، والرضاعة، وتربية الأطفال. وهذه المسـتلزمات هي التي أدت إلى تبعية النساء للرجال طوال التاريخ على المستوى الإقتصادي.[٢]

واعتبر بعض النسويين أن العناصر الثقافية هي التي تؤدي إلى تقوية قواعد السلطة الأبوية؛ فترى سـيمون دوبوفوار أن الأساطير التي صُنِعت بوساطة الرجال هي من أهم العوامل التي ساهمت في سـلطتهم على النسـاء. وتدرج تعاليم الأديان في عداد الأساطير؛ حيث تقول: «حاول المقنِّنون والقساوسة والفلاسـفة والكتّاب والعلماء، ولمدة طويلة، الإشارة إلى أن مكانة المرأة المتدنِّيـة تعود إلى موقعها في عالم الملكوت، بحيث تكون مفيدة في الأرض. وقد بيَّنت الأديان التي أبدعها الرجال هذه الأمنية السلطوية.[٣]

وتوضح كيت ميلت (Kate Millet) في كتابها «السياسـات الجنسـية» أن جذور سـلطة الرجال تعود إلى إيديولوجيا السـلطة الأبوية، وقد تمت تقوية هذه الرؤية عبر المؤسسـات، كالمدارس العالية، والكنائس، والأسرة؛ لذا فإن الكثير من النساء يشعرن بدونيَّة في داخلهِنَّ بالنسبة إلى الرجال.[٤]

1.Kammeyer & Yetman, *Sociology*, p. 327.

2.Firestone, "The Dailectic of Sex", p. 23.

3.De Beauvoir, *The Second Sex*, P. 96.

4.Tong, *Feminist Thought*, p. 96.

رأي الإسلام

لم تتعرض النصوص الإسلامية بشكل مباشر لتفسير سلطة الرجال، إلا أن التأمُّل في نوع الأحكام والوصايا الدينية يهدينا إلى رؤية تتضمن تفسيرًا يرجع هذه السلطة إلى علل متعدِّدة. ولتوضيح هذه الرؤية لا بد من التركيز على دور العامل البيولوجي. وقد جاء التصريح في بعض الروايات بعجز النساء وضعفهن النسبي، ويستفاد من بعضها وجدود منشإ طبيعي وذاتي لهذا الضعف.[١] ومن الواضح أن القدرة الجسدية للرجال وضعف المرأة نسبيًا سواء أكان يرجع إلى أسباب جبرية وذاتية أم إلى عوامل أخرى كالحمل، والرَّضاعة والولادة، تعد من الأسباب الأساسية لبسط سلطة الرجل.

ومن جهة أخرى، فإن الفوارق بين الرجل والمرأة في بعض الخصائص النفسية، كغلبة الجانب العقلاني على الجانب العاطفي عند الرجال، وغلبة الجانب العاطفي على الجانب العقلاني عند النساء،[٢] كل هذه الأمور تدفع الرجل إلى التصدي لمقام القيادة، كما جاء في بعض الروايات.

وبناء على هذا التصريح، لا يصعب التصديق بوجود نساء على مرّ التاريخ استطعن قيادة المجتمع؛ وذلك بسبب امتلاكهن خصائص فردية متميزة، وقد جاء ذكر الملكة سبأ في القرآن الكريم كحالة استثنائية من النساء، كما في سورة النمل، ومع ذلك فإنه لا ينبغي الرضوخ لتأثير العوامل الحياتية والنفسية وما ينتج عنها لجهة قبول الإتجاه الجبري في سلطة الرجال؛ حيث تتداخل عوامل أخرى في هذا الموضوع، وبالتالي فإن أي تغيير أو تبديل فيها يؤدي إلى اختلال توازن السلطة بين الرجل والمرأة. وهنا، يجب التأكيد على أن العوامل الاقتصادية والثقافية هي أهم المتغيرات في هذا الشأن. أما في ما يتعلق بالعامل الاقتصادي، فيمكن الإشارة إلى قوله الله تعالى: ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا**

١. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ١١٩ و١١٢؛ ج ١٥، ص ١٠٤-١٠٥.
٢. م.ن، ص ١١؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج ٣٢، ص ٧٣ و١٠٦.

﴿أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾،[١] وتؤكد التفاسير المشهورة أن الله تعالى قد عهد إلى الرجال بالنساء بسبب ما يتمتعون به من استعداد، ولإنفاقهم من أموالهم. والظاهر أن هذه الآية الشريفة في مقام توضيح حكم تشريعي، ولا تتحدث عن علاقات واقعية وتكوينية. وبما أن المقصود من إنفاق الرجال لأموالهم هو دفع المهر والإنفاق على النساء،[٢] وقد ذكر هذا الحكم بتعبير إخباري (الجملة الخبرية «الرجال قوّامون»)، فيمكن أن يتبادر إلى الذهن من هذه الآية الشريفة أن الأفضلية الإقتصادية تترتب عليها سلطة أعلى.

إلا أن الإسلام يركّز على العامل الثقافي قبل العامل الإقتصادي، ويشهد لذلك أنه حارب الأفكار والعادات والسُّنن الخرافية التي تمحورت حول السلطة الأبوية التي كانت تعطي للمرأة موقعًا متدنيًا اجتماعيًا.

بناء على ما تقدم، لا يمكن أن ننسب إلى الإسلام التزامه بالرؤية الجبرية في ما يتعلّق بسلطة الرجال على النساء، ويمكن العودة إلى ما قلناه أثناء البحث عن تقسيم العمل جنسيًا، فنقول إن الإسلام بحكم بأفضلية الرجل على المرأة في بعض الموارد؛ حيث تتحقق من خلالها الأرضية المناسبة للحياة المشتركة، ويندرج كل ذلك في الإطار الذي حدده الشرع في سبيل تحقيق السعادة الفردية والاجتماعية.

إلى هنا يكون البحث قد تركز على رؤية الإسلام في بعدها الواقعي؛ أما في ما يتعلق بالبعد القيميّ، فيمكن الإشارة إلى أن الإسلام قد رفض الكثير من أشكال التمييز الجنسي، بل أعطى أفضلية ظاهرية للرجال في بعض الحالات، وذلك بعد ملاحظة الاختلافات والفوارق الطبيعية بين الرجل والمرأة، والاهتمام بالأهداف الخاصة للنظام الإجتماعي الإسلامي. وبعبارة أخرى، فإن مسألة السلطة لم تطرح في الإسلام كما يتم طرحها في «النظريّات العلمانية»؛ أي أنه لم تُعْطَ الأصالة للبحث في هذه المسائل؛ حيث تم التركيز على مسائل هامة أخرى، كالمصالح الفرية، والأسرية، والاجتماعية، والوظائف القيمية الدينية التي تعود

١. النساء: ٣٤.

٢. الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ٤، ص ٣٦٤.

جذورها إلى تلك المصالح. وعلى هذا الأساس، لم تشكل المصالح الحقيقية النموذج الخاص للأدوار والنشاطات على المستوى الفردي والجماعي فقط؛ بل إنها تعد النموذج المطلوب في الإسلام؛ وذلك كحق الرضاعة للأم مثلًا، فقد اعطى الإسلام للأم حق القرار فيها؛ بل يمكن القول في هذا الشأن، إن سلطة المرأة أكبر من سلطة الرجل.

وهنا، لا بد من أن نعترف بأننا لو نظرنا إلى الأحكام والقيم الدينية من منظور علماني بحت، فإننا سنلاحظ بعض الإشارات إلى السلطة الأبوية فيها بل شك، لكن الإسلام قد اشترط القسط والعدل عند إعمال أي سلطة، سواء أكان ذلك في الأسرة أم في المجالات الإجتماعية الأخرى، بل أعطى الإسلام أولياء الأمر الحق القانوني لمواجهة المعتدين، ويشمل ذلك الرجال الذين يستغلّون سلطتهم ضد النساء بشكل سيء.[1] وفي هذا الإطار، يقول الإمام الخميني بصراحة: «لو أساء رجل التعامل مع زوجته، فإن الحكومة الإسلامية تمنعه من ذلك، فلو لم يرضَ لعزّرته، ولو لم يذعن، فللمجتهد حقُّ الطلاق»[2].

أضف إلى ذلك، أن الإسلام قد سعى إلى تلطيف العلاقة الزوجية قدر المستطاع، من خلال الجمع بين السلطة والخصائص الأخلاقية؛ كالتواضع، والعطف، والإيثار وعمل على منع تحوُّلها إلى علاقة استبدادية. ولو نظرنا إلى الموضوع من ناحية دينية عقدية، فإننا لن نشاهد سوى أصل المساواة، على أساس أن كلَّ أفضليَّة ظاهريَّة أعطيت للرجل أن يقابلها ثواب معنوي للمرأة.

١. النوري، مستدرك الوسائل، ج ١٢، ص ٣٣٧.

٢. مؤسسة تنظيم ونشر آثار إمام خميني، جايگاه زن در انديشه إمام خميني، ص ١٠٤.

العنف الجنسيّ في الأسرة

قراءة وصفية للعنف الزوجي

يشــمل العنف الزوجي (Marital Violence) في معناه الواســع الســلوك الســيء لأحد الزوجين تجاه الآخر، بحيث يؤدي إلى إلحاق أضرار جسدية او معنوية في الطرف المقابل. وإذا كانت بعض الأعمال، كالضرب، والشــتم والقتل، تعد أهــم مصاديق العنف، فإن ذلك له ســابقة تاريخية تعــود إلى قرون طويلة. والإلتفات الجدي الى هــذه القضايا بدأ في أوائل الســبعينات (١٩٧٠)، فأصبحــت من أهــم المواضيع البحثيــة التي يتم تناولهــا في العلوم الاجتماعية. وبعبارة أوضح، فقد بدأ الاهتمام بهذه الظاهرة عندما بدأ دعاة النسوية الراديكالية إفشاء الجوانب الخفية للعنف الزوجي، ومن ثم تجزئتها وتحليلها كأحد أهم عناوين التمييز الجنسي البارز:

وأمــا من الناحية التاريخية؛ فإن الرجل في عصر الرومان القدماء كان يمتلك حقَّ ضرب زوجتــه إذا قامت ببعض الأعمال، كالحضور في المســابقات العامــة دون إجازته، أو تناول الشراب، أو الخروج من المنزل كاشفة الوجه. وبقيت إمرأة في القرون الوسطى تعيش تحت رقابة شديدة؛ بل كانت تناول جزاءً قاسيًا من الزوج فيما لو تخطت حدودها. وكان يتوقع من الرجــل أن يضرب زوجته إذا قامت بعمل غير صالح. وإذا لم يتمكن من القيام بهذه المهمة، فقــد يتعرض للإهانة مــن الأقرباء. ولم يبــرز أي اعتراض على هذه الرؤيــة خلال المرحلة الواقعة بين أواخر القرون الوســطى والعصر الحديــث (١٤٠٠-١٩٠٠)، ولم يكن الرجل يؤاخَــذ على تعنيف زوجته، إلا إذا وصل اســتعمال القوة إلى قتل الزوجة. إلا أن الاعتراض على ضرب الزوج الذي يلجأ إلى القوة يتعرض للســخرية. وفي أواخر القرن التاســع عشــر أُقِــرَّت في بريطانيا وأميركا بعض القوانين التي تمنع الزوج من ضرب زوجته، ومع ذلك فإن إهانة الزوجة وضربها بقيا مستمرّين؛ ولعل السبب في ذلك إنما يرجع إلى انتشار عادة ضرب الزوجــة وإهانتها على مدى قرون تاريخية متمادية. وحتــى بعد الحرب العالمية الثانية، بقي ضرب الزوج لزوجته العاصية عملًا ومبررًا وقانونيًا.[1]

1.Siegel, *Criminology*, p. 300-301.

ولــو تجاوزنــا البحث التاريخي، فــإن الدراســات والتقارير المتنوعة تبين انتشــار هذه الظاهــرة – حتــى في العصور الحالية – فــي جميع المجتمعات. وتؤكــد التقارير أن نصف الرجال المتزوجين في بانكوك وتايلند يضربون زوجاتهم بشــكل مستمر. أما في الأكوادور، فقد صرّحت ٨٠٪ من النســاء بأنهن قد تعرَّضن للضرب والشــتم من قبل الأزواج. وتحكي بعض التقديرات أن ما يقرب من ١,٨ مليون زوج في أميركا يضربون زوجاتهم بوحشــية.[١] وتشــير تقديرات أخرى فــي أميركا إلى وجود أربعة ملايين إمــرأة يتعرضن للضرب على يد الزوج، وأن أكثر من أربعة آلاف أمرأة يُقتلن سنويًا بسببه.[٢]

وثمة مايقارب ثلث من النســاء اللواتي يُقتلْنَ في أميركا، إنما يقتلن على يد أزواجهن أو أصدقائهن الذكور.[٣]

أما في بعض الدول الأخرى، كإيران مثلًا، فلم تجر إحصاءات رســمية، إلا أن الملاحظ شيوع استعمال العنف ضد النساء بشكل سيء.

تظهر الإحصاءات الســابقة الجانب العددي لضرب النساء، إلا أنه لا بد من الإشارة إلى كيفية الضرب وشــدته، ونكتفي بما ذكره غيدنز في هذا المجال؛ حيث يقول: «قد يُتصور أن العنف ضد المرأة في المنزل محدود وبسيط، إلا أن الشواهد والوثائق المأخوذة من الملاجئ أو أماكن رعاية النســاء المضروبات تبيِّن عكس ذلك. وتشــير بعــض التقارير إلى أن بعض النساء يعانين من جروح عميقة، وكسور في العظام، وطعنات بالسكاكين. ولوحظ في بعض الحالات اللجوء إلى ضرب المرأة بالكراسي، وثمة أعداد منهنّ رُمِيْنَ عن السلالم، وبعضُهنَّ دُقَّت المسامير في أرجلهنَّ».[٤]

والسؤال الذي يمكن أن يطرح هنا، هو: هل يرتبط العنف الزوجي بجنس الأفراد؟ باعتبار أن العنف الزوجي ظاهرة ذات وجهين، فبعض النســاء يتعاملن مع أزواجهنَّ بقسوة وعنف.

---

١. مارلين فرينش، جنگ علیه زنان، ص ٣٠٨.

2.Shepard, *Sociology*, p 306.

3.Lindsey & Beach, *Sociology: Social life and Social Issues,* p. 396.

٤. غيدنز، جامعه شناسی، ص ٢٠١.

وهنا تشـير بعض الدراسـات التي أجريت في الدول الغربية إلى وجـود ارتباط بين الجنس والعنف الزوجي، فعلى الرغم من بعض النساء قد يمارسن خشونة فائقة ضد أزواجهنَّ، إلا أن ذلك يكون في مقام الدفاع عن النفس أو الحؤول دون وصول الضربات إليهن. ومن الواضح أن الأضرار التي تلحق بالنساء أكثر من تلك التي تلحق بالرجال.[١]

وتبيـن نتائج إحدى الدراسـات التي أُجريت علـى ٩٦ زوجًا في بريطانيـا، أنه إذا أُخذ بالاعتبار الجانب الكمِّيّ للعنف، ولم يتم الإلتفات إلى المقدمات والمعاني الخفية فيه، فإن النسـاء يلجأنَ إلى العنف أكثر من الرجال؛ حيث تشير هذه الدراسة إلى أن ٣٨٪ من الرجال و٥٥٪ من النساء قد استعملوا العنف ضد شريكهم.

وأما إذا أخذنا الجانب الكيفي، فعندها يرتفع احتمال أن يكون الرجال هم الذين يبدأون العنف أو أنهم يقومون بأعمال عدائية خطيرة، مضافًا إلى أن عنف الرجال ضد النسـاء يرتفع إذا مـا أخذنا جانب النتائج التي قد تترتـب على هذه الأعمال الخطيرة، وخاصة في ما يتعلق بالضرر الجسـدي أو العوارض المعنوية، كالاضطراب. وقد أشـارت الدراسـة إلى أن ١٨ رجلا و١١٢ أمرأة بادروا إلى أعمال عدائية مؤذية، و١٩ من الرجال و٤ من النسـاء كانوا من المسـببين لبدء العمل العدائي. ويوجد رجل واحد من بين ٩٦ قد لحق به أذى يعتدّ به، بينما تعرَّضت ٩ نساء من بين ٩٦ لهذا النوع من الأذى البالغ.[٢]

بيان العنف الزوجيّ

سـنتعرض في هذا الجزء من البحث لدراسـة أسباب العنف الذي يلجأ إليه الرجال ضد النساء وأسباب اسـتمراره. وما يهمُّنا من البحث هنا هو دراسة هذه الظاهرة من حيث كونها مظهرًا للتمييز الجنسي؛ لذا، لم نتعرَّض بشكل مباشر لجوانب العنف الزوجي المشتركة التي تصدق على الرجال والنساء.

1.Shepard, *Sociology*, p 306.

2.Nazroo, "Uncovering Gender Differences in the Use of Marital Violence, the effect of Methodology".

أ. رأي علم الاجتماع

توجـد ثلاثة اتجاهات متنوعة، ولكنها مترابطة بعضها مع بعضها الآخر في الوقت عينه؛ ذلك لجهـة ربها للعنف بالجنس: الإتجاه العليّ الجزئـي، والاتجاه العلي الكُلي، والاتجاه التحليلـي أو الغائي. ويتـم التركيز في كل واحد من هذه الاتجاهـات الثلاثة على جانب أو جوانـب من العنف الزوجي؛ باعتبارهـا علل ظهور هذه الظاهرة واسـتمررها. وفي ما يأتي نتعرَّض باختصار لتوضيح هذه الاتجاهات الثلاثة:

التفسير العلِّيّ الجزئيّ

يـرى أصحاب هـذه النظرية أن ثمة عوامل عـدة تعتبر عللًا تدفع الرجل إلى اسـتخدام العنف ضد المرأة. أما العامل الأول: الذي أشـير إليه في المباحـث المتقدمة، فهو «العامل البيولوجي». ونشير هنا إلى أن علم وظائف الأعضاء يرى أن سبب عنف الرجل وانفعاله هو الهرمونات الذكرية التي يمتلكها.[١]

ونلاحظ أن بعض النسويين أمثال مري دالي يهتمون بالعامل البيولوجي؛ حيث ترى دالي أن عنف الرجال من خصائصهم الطبيعية؛ وهذا يؤدي دورًا هامًا في مظلومية المرأة.[٢] ويرى بعضٌ آخر من النسـويين الراديكاليين أن للقدرة البدنية عنـد الرجال دورًا في صدور العنف منهم.[٣]

ومن الواضح أنه لايمكن إعطاء العامل البيولوجي قيمة أكبر من هذا؛ وذلك لأن النسـاء أيضًا لديهن اسـتعداد لاسـتخدام العنف كما الرجال، ولذلك نحـن بحاجة إلى مقياس آخر يشرح كيفية وصول هذا الاستعداد إلى الفعلية. وأما العامل الثاني الذي يكتسب أهمية كبيرة، فهو «عامـل التعليم»؛ لذا، فإن نظرية التعليم الاجتماعي معتبرة؛ لأن الجرم والانحراف هما نتائج للضوابط والقيم والسـلوكيات التي تتعلق بهذه الظاهـرة. وبناء على هذه النظرية، فإن

1.Baron & Byrne, *Social Psychology*, p. 186.

٢.ابوت ووالاس، در آمدی بر جامعه شناسی نگرش های فمینستی، ص ٢٥٦.

٣.جَكر، «چهاز تلقی ازفمینیسم(١) و(٢)»، ص ٤٢.

الأطفال يتعلمون أساليب العنف المنزلي من الوالدين، ويطبقون هذه الأمور بشكل دقيق في المستقبل.[١]

وثمة الكثير من البحوث اتي تؤيد هذه النظرية، وتوجد شواهد تدل على ذلك أيضًا؛ فإن إصرار المرأة التي تتعرض للتعذيب والعنف على البقاء مع زوجها يظهر أن هذا الأمر يعود إلى السابقة التاريخية لمسألة ضرب النساء؛ فالنساء اللواتي تعرضن لعنف الوالدين، أصبحت يُدركنَ أنهنَّ قرابين لهذا النوع من التنشئة الاجتماعية؛ وبالتالي؛ فإن التجربة السابقة تؤدي الى تفهمهن لتكرارها.[٢]

إن ضعف الرقابة الفردية يعد أحد أهمّ عوامل ممارسة العنف ضد النساء. وتؤكد الدراسات في علم النفس على أن الجرم والانحراف ينشآن عادة من ضعف الرقابة الإجتماعية، وفقدان أو ضعف الرقابة الفردية. بينما بعض المسائل كالإعتقادات الدينية، والصفات الأخلاقية، والالتزامات الفردية تجاه الآخرين، والعلاقات الإجتماعية، تؤدي دور القوى الداخلية والخارجية الرادعة لمَيْل الفرد نحو العنف والانحراف، وخاصة العنف ضد الجنس المخالف.[٣]

وإذا أضفنا إلى هذه الرؤية الواقعية بعض نتائج الحالات التجريبية التي ترى أن النساء أكثر التزامًا من الرجال لجهة التقيد بالاعتقادات الدينية والقيم الأخلاقية، وتمتين العلاقات الحميمة، لأمكننا الإطلاع على فهم آخر للإختلاف بين المرأة والرجل في مجال ارتكاب العنف.

وتعتبر السلطة الأبوية عاملًا آخر من عوامل العنف ضد النساء، سواء أكانت ظاهرة أم خفية، وهي تبرز في مجالات زوجية كثيرة، وقوالب متنوعة؛ كقدرة الرجال العالية، والتبعية الاقتصادية والعاطفية للمرأة، إذ أن العديد من علماء الاجتماع، يؤكدون على هذا العامل.[٤]

1.Siegel, *Criminology*, p. 200-301.

2.Curry & Jiobu & Schwirian, *Sociology for the Twenty First Century,* P 269.

3.Siegel, *Criminology*, p. 301.

4.Nazroo, "Uncovering Gender Differences in the Use of Marital Violence, the effect of

وتوضح الشــواهد أن العنف يتســع في أنظمة السلطة الأبوية، ويصل إلى أدنى مستوى له في الأنظمة التي تنادي بالمساواة.[١]

مضافًــا إلــى العوامل التي تقــدم ذكرها، ثمة مجموعــة أخرى من العوامــل المؤثرة في استخدام الرجل للعنف ضد المرأة. وتندرج هذه العوامل في الإطار الجزئي أيضًا، من جملة ذلك: الإفراط في شــرب الخمور، والنزاعات التي تنشــأ من تعلق الرجل بزوجته وشكه في ســلوكها، وتطور النزاعات اللفظية إلى عنف جســدي، وأخيرًا يشــار إلى الخدمة العسكرية بوصفها داعيًا من دواعي العنف ضد المرأة.[٢]

التفسير العلّيّ الكلِّي

توجد الكثير من العوامل على المســتوى الكُلِّي، تؤثِّر في عنف الأزواج ضد الزوجات. ويعود بعض هذه العوامل على الفهم الثقافي والقانوني. ويعتقد بعضهم أن منشأ عدم الإلتفات أو الإلتفات المتأخر لقضية العنف الوجي يعود إلى السوابق الثقافية والقانونية اتي توحي بعدم جواز التدخل في أمور الآخرين، واعتبار النزاعات الأسرية مسائل خاصة.[٣]

يقول غيدنز بخصوص العامل الثقافي

«تقول القاعدة الكلية إنه لا يمكن ضرب أي شخص في مكان العمل أو الأماكن العامة، حتى ولو كان الســلوك المقابل استفزازيًا وإشكاليًا. بينما يختلف الحال داخل الأسرة؛ فثمة الكثيــر من النســاء والرجال ممن يعتقدون بــأن لأحدهم الحق في ضــرب الآخر في بعض الحالات فمن بين كل أربعة رجال ونســاء في أميركا ثمة حالة واحدة تعترف بإمكانية امتلاك الزوج مبــررًا مقبولًا لضرب زوجته، بينما توجد نســبة قليلة جدًا تخالــف ذلك».[٤] «ويؤكد النسويون – مضافًا إلى العامل المتقدم– أن ثقافة السلطة الأبوية تؤيد استخدام الرجل للعنف

Methodology", p. 151.

1.Lindsey & Beach, *Sociology: Social life and Social Issues,* p. 151.

2.Siegel, *Criminology*, p. 301.

3.Kendall, *Sociology in our Times*, p. 436.

٤. غيدنز، جامعه شناسى، ص ٤٣٩-٤٤٠.

ضد المــرأة؛ بل إنها تعتبر ذلك من جملة ظائفه، فالنســاء في ثقافــات كهذه موجودات غير عاقلة، لا بل قريبة من الطبيعة؛ فعندما لا يتمكن الرجل من إقناع هذه الموجودات غير العاقلة بوساطة الاستدلال العقلي، فإنه يلجأ إلى استخدام العنف ضدها.[١]

مــن جهة أخرى، فإن وجود بعــض الحالات كانحياز القانون، وعدم رغبة الشــرطة في التدخل في الخلافات الأســرية، وعدم كفاية العقوبات التي تتخذها المحاكم بحق الأزواج المخالفين، كل هذه الأمور تبين بعض أبعاد القبول القانوني لاســتخدام الرجال للعنف ضد النساء. وبناء على ذلك، فإنه وبمجرد أن تصبح المرأة زوجة لرجل ما، تكون قد فقدت بعض حقوقها على مستوى الحماية القانونية منه في حالات الأذى الجسدي أو الإرهاب والتهديد. وتظهير العقوبات البسيطة المتخذة بحق الرجال المخطئين – التي لا تتجاوز بعض الأحيان حدّ التحذير – أن ضرب الزوجة أقل أهمية وأبسط من مخالفة أنظمة السير.[٢]

مضافًا إلى العوامل الثقافية والقانونية المذكورة، يؤكد علماء الإجتماع على دور العوامل الإقتصادية؛ فالرجل المعيل للأسرة عندما يقع تحت الضغوط الإقتصادية، ويفشل في تأمين مستلزمات الحياة، يصاب في الغالب بنوع من الإضطراب؛ ما يساعد في جنوحه إلى العنف ضد المرأة.[٣]

وإن وجــود حالة اقتران بين الفقر الإقتصادي والعنف، دفــع بعضهم للإعتقاد بأن عنف الرجال في المنزل من مختصَّات الطبقات الفقيرة في المجتمع، وبالتالي ساهم هذا الأمر في تدعيم التفسير الإقتصادي العام في هذا المجال، يقول هؤلاء:

«يعتبــر المنزل أهم مكان لإفراغ مخزون الإضطراب العميق الناتج عن عدم الاســتقرار الوظيفي، وخاصّة عند العمّال غير المختصين الذين يتلقَّون أجورًا بسيطة على أعمالهم، ولا يشــعرون بنوع من الاستقلال، فالأسرة هي الملجأ لهذه الحالات؛ ما يؤدي إلى الإضطراب

1.Seidler, "Masculinity, Violence and Emotional Life" p. 202-203.

2.Bilton, *Introductory Sociology*, p. 310.

3.Siegel, *Criminology*, p. 301.

والنـزاع في العلاقات الزوجية، وبالتالي اسـتعمال أسـاليب العنف عنـد الأزواج من طبقة العمال».[١]

هذا، وقد اشارت الدراسـات الحديثة إلى أن استخدام الرجال للعنف ضد النساء مسأل تتجاوز الوضع الطبقي؛ بل إن منشـأ هذه الرؤية الخاطئـة هو الاتلاف الطبقي في المجتمع، من حيث أسـاليب العنف والقيم الطبقية الخاصة. وتؤكد الدراسات أن الرجال من الطبقات المتدنية، عادة ما يضربون النسـاء على وجوهنّ، وهو ما يؤدي إلى ظهور علامات الضرب، أما الرجال من الطبقات المتوسـطة والعالية، فيعمدون إلى الضرب على كامل أجزاء البدن؛ حيث تكون الآثار قليلة الوضوح. مضافًا إلى أن النساء من الطبقات المتوسطة والعالية يلجأن إلى الشرطة عند ارتكاب الخشونة، وهذا ما لا تقوم به النساء في الطبقات الفقيرة.[٢]

التفسير التحليليّ

تشكل مسألة تحليل دوافع الرجال نحو ارتكاب العنف ضد النساء، وسبب رضى النساء بأزواج كهؤلاء، نظرية ثالثة في وضوع العنف الزوجي. ويربط النسويون في تحليلاتهم عنف الرجال بميلهم الى التسلُّط على النساء. ويعتقد هؤلاء أن العنف ليس ناتجًا عن فقدان الإرادة والرقابة؛ بل يسـتخدم العنـف من أجل إيجادهما. وهذا الرأي يتعـارض مع مقولة أن عنف الرجال في المنزل خارج عن الإرادة. ويشير بعض علماء نفس الإجتماع إلى أن العنف حالة فردية صادرة عن تصميم وإرادة؛ أي إرادة استعمال القوة ضد الآخر، يستخدم لمجازاة الآخر على الأعمال التي قام بها. إذًا، وبناء على رأي النسويين وعلماء النفس، فإن التوسُّل بالعنف أمر إرادي وخاضع لاختيار الشـخص، مضافًا إلى أن هذا الشخص عادة ما يوضح الحوادث الأسرية وكأنه يحتاج إلى استعمال القوة.[٣]

لماذا تستمر الزوجات في الحياة مع أزواجهن على الرغم ممّا يتعرَّضن له من خشونة؟

1.Cotgrove, *The Science of Society: An Introduction to Sociology,* p. 64-65.

2.Curry & Jiobou & Schwirian, *Sociology for the Twenty First Century,* P 269.

3.Klein (ed), *Multidisciplinary Perspective in Family Violence*, p. 8.

أهم التبريرات التي تذكرها النساء هي:

١. خوفهنّ من انتقام الزوج من الأقرباء أو الأولاد.

٢. البقاء على أمل أن يتم إصلاح سلوك الزوج نهاية المطاف.

٣. الابتعاد عن التحقير والعيب الاجتماعيَّين.

٤. الخوف من الاعتراف بالفشل في الحياة.

٥. فقدان الملجأ والملاذ.

٦. عدم توفر إمكانية تربية الأولاد في حال الطلاق.

٧. الخوف من مواجهة المشكلات التي تواجهها المطلَّقات.[١]

ب. رأي الإسلام

يتجلى التوجُّه الإسلامي في موضوع العنف الجسدي – كما في أغلب الموضوعات الأخرى– على شكل توصيات، إلا أن الدقَّة في مستلزمات الوصايا الدينية، تدفعنا إلى تشكيل إطار نظري جامع لها، أُخذت فيه مجموعة من العوامل الجزئية والكلية. ومن المسلّم في هذا الإطار النظري وجود بعض الحالات الناتجة عن العوامل البيولوجية، والتعليمية، واستعمال الخمور، والفقر،ـ وعدم النجاح الجنسي الذي يؤثر في تعنيف الرجال للنساء، يضاف إلى ذلك أن الإسلام قد تعامل مع كل واحدة من هذه المسائل بشكل خاص، ولا مجال للحديث عنها هنا، كما أكَّد الإسلام على مجموعة من العوامل الخاصَّة المؤثِّرة في مسألة العنف، وسنتحدث عنها باختصار.

لعلّ العامل الأوَّل والأهّم في نظر الإسلام هو عدم إلتزام الفرد بالموازين الأخلاقية، وبما أن الإسلام يولي أهميَّة لهذا الأمر، فإن هذا العامل بعدّ من الوصايا الهامة في باب حسن الأخلاق، وحسن معاشرة النساء بشكل خاصّ؛ لذا قد أولاه الإسلام أهمية خاصة. وعمومًا، يمكن الاستفادة من الرواية المشهور: «حبّ الدنيا رأس كل خطيئة».[٢] وذلك لتوضيح

1.Curry & Jiobu & Schwirian, *Sociology for the Twenty First Century*, P 310.

٢. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٣٠٨.

التوجه الديني العام في العديـد من الحوادث الإجتماعية. وعند تحليل مفهوم «حب الدنيا» إلى مفاهيم أكثر جزئية كالتكبُّر، والأنانية، والعصبية، والحرص، والحسد، والبخل وغيرها، فإنه يظهر أن ثمة فرضيات كثيرة يمكن الاستفادة منها في المقاصد التوضيحية، ومن جملتها اسـتخدام الأزواج للعنف. ويبدو عند مطالعة الوصايا المختلفة أن ثمة مفاهيم عدة تتمحور حول التعامل مع النسـاء بالحسـنى،[١] والتزام التقوى والامتناع عن ضربهن[٢] والإغضاء عن الخلق السيِّء للنساء والعفو عن أخطائهن،[٣] والتأكيد على التقوى كمعيار لاختيار الزوج.[٤]

إن مجموع هذه الأمور يُشكِّل الوصايا الأخلاقية في الإسلام، وتؤكد هذه الروايات على أن الخلق السَّيِّء للأزواج هو السبب الرئيس للكثير من أعمال العنف الزوجيّ.

ولا يخفى أن الإسـلام يطلب من النساء أن يحسنّ معاشـرة الأزواج في وصايا أخرى، كما أوصاهن بتحمل أخلاقهم السـيِّئة؛[٥] إذ تؤدي النسـاء السيئات في سلوكهنّ دورًا أساسيًا في النزاعات الزوجية؛ ويبرز نتيجـة ذلك العنف الزوجي من قبل الأزواج، ومن البديهي أن التزام الأزواج بالقيم الأخلاقية يساهم في إزالة العديد من أسباب المنازعات الزوجية، ويقلِّل من احتمال لجوء الزوج إلى استخدام القوة مع زوجته.

أما العامل الثاني في اسـتخدام العنف الزوجي فهو ضع الرقابة الإجتماعية والحكومية، وقد أولاه الإسـلام أهمية خاصة. وبعد الأمـر بالمعروف والنهي عـن المنكر من الأصول المهمـة التي تفتح البـاب على مصراعيه أمـام رقابة المجتمع والقانون علـى الفرد. ويظهر مـن خلال الآيات والروايات الكثيـرة في هذا المجال مقدار الأهمية التي أعطاها الإسـلام للرقابة العامة والمسـؤولية الجماعية في مقابل انحراف الآخرين. ولا شـك في ان استقرار

---

١. النساء: ١٩؛ الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ١٢٢.

٢. م.ن، ج ١٤، ص ١٨ و١١٩؛ النوري، مستدرك الوسائل، ج ١٤، ص ٢٥٠.

٣. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ١٢١ و١٢٤.

٤. جاء رجل إلى الحسن يستشيره في تزويج ابنته. فقال: «زوجها من رجل تقيّ؛ فإنه إن أحبَّها أكرمها، وأن أبغضها لم يظلمها»، (الطبرسي، مكارم الأخلاق، ص ٢١٤).

٥. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ١١٣-١١٦.

هذا الأصل الحياتي في صورته الصحيحة والكاملة يترك آثارًا عظيمة على مستوى رفع الكثير من الإنحرافات الإجتماعية، ومن جملتها العنف الزوجي؛ فلو قُرِّر في يوم من الأيام مواجهة العنف الزوجي بنوع من العقاب الاجتماعي الشديد «كالمقاطعة العامة» مثلًا،[١] فلن يبقى في المجتمع مشكلة جادة تحت عنوان «العنف الزوجي».

وأما على مستوى الرقابةالحكومية، إن بعض الروايات تعطي الدور والمسؤولية الخطيرة للمؤسسة الحكومية في المجتمع الإسلامي المطلوب، فقد جاء في رواية عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «رجع علي إلى داره وقت القيظ، فإذا إمرأة قائمة تقول: إن زوجي ظلمني وأخافني وتقوَّى عليَّ وحلف ليضربني، فقال: يا أمة الله، اصبري حتى يبرد النهار، ثم أذهب معك إن شاء الله فقالت: ليشتدَّ غضبه وحرده عليَّ، فطأطأ رأسه ثم رفعه، وهو يقول: لا والله، أو يؤخذ للمظلوم حقُّه غير متعتع، أين منزلك؟ فمضى إلى بابه فوقف فقال: السلام عليكم، فخرج شاب، فقال علي عليه السلام: يا عبد الله اتق الله، فإنك قد أخفتها وأخرجتها، فقال الفتى: وما أنت وذاك، والله لأحرقنَّها لكلامك، فقال أمير المؤمنين: آمرك بالمعروف وأنهاك عن المنكر، تستقبلني بالمنكر وتنكر المعروف، قال: فأقبل الناس من الطرق ويقولون: سلام عليكم يا أمير المؤمنين، فسقط الرجل في يديه، فقال: يا أمير المؤمنين أقلني عثرني، فوالله لأكون لها أرضًا تطأني، فأغمد علي سيفه وقال: يا أمة الله ادخلي منزلك، ولا تلجئي زوجك إلى مثل هذا وشبهه».[٢]

إذًا، لا يمكن إنكار الدور الذي تقوم به المؤسسة الحكومية في الرقابة على العنف الزوجي؛ بل تعمل بعض الدول الغربية على تدعيم دور الشرطة والأنظمة القانونية في هذا المجال.[٣]

---

١. قطع علاقة الجميع مع الشخص الخاطئ من أهم أساليب النهي عن المنكر، وقد جاء في رواية عن الإمام الصادق: «إنه قد حقّ لي أن آخذ البريء منكم بالسقيم، وكيف لا يحق لي ذلك وأنتم يبلغكم عن الرجل منكم القبيح فلا تنكرون عليه ولا تهجرونه ولا تؤذونه حتى يترك. وجاء في رواية أخرى عنه: «لو أنكم إذا بلغكم عن الرجل شيء مشيتم إليه فقلتم: يا هذا إما إن تعتزلنا وتجتنبنا، وإما أنتكف عن هذا، فإن فعل وإلا فاجتنبوه». (الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٤١٥).

٢. النوري، مستدرك الوسائل، ج ١٢، ص ٣٣٧.

3.Curry & Jiobu & Schwirian, *Sociology for the Twenty First Century*, P 269.

ويمكن القول باختصار إن النظرة الإستراتيجية في الرؤية الإسلامية- كما في كل رؤية أخرى- تقوم على التوجُّه التوضيحي لها؛ وبناء عليه، فإن التحليل التوضيحي لموضوع العنف الزوجي إسلاميًا، والنظر إلى الأسرة باعتبارها مؤسسة مقدسة في الإسلام، يعدّان الرُّكن الأساس في حل مشكلات العنف؛ إذ يتم التأكيد، وقبل كل شيء، على العوامل التربوية والأخلاقية والثقافية والحكومية في إطار القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الخلاصة

تعرَّضنا في هذا البحث لدراسة أهم أبعاد عدم المساواة الجنسية في الأسرة؛ وذلك بعد الحديث عن آراء المختصين ووجهة النظر الإسلامية في ما يتعلق بالاختلافات الجنسية الطبيعية، والتي تؤيد النظريّات المتنوعة التي تمحورت حول نمو الهوية الجنسية أو التنشئة الإجتماعية في النشاطات الجنسية، ومع غض النظر عن الاختلافات الفرعية في مابينها، فإن الطفل يقطع هذه العملية عبر تقليد الكبار، وبالاستعانة بطرق الثواب والعقاب، فيقبل دوره الجنسيّ عبر اكتساب الهوية الجنسية المناسبة ، مضافًا إلى تأثير العوامل البيولوجية في هذا الموضوع. أما في الجوانب الأخرى، فإننا نلاحظ نوعًا من التقابل بين الرؤية الإسلامية والرؤية النسوية؛ وذلك إذا ما أخذنا بالاعتبار التسليم بوجود الفوارق الجنسية الطبيعية المقرَّرة في الإسلام، وهكذا في مجال النموذج الإسلامي المطلوب للنشاطات الإجتماعية للمرأة والرجل.

وقدمنا توضيحات كثيرة تتعلق بتقسيم العمل على أساس الجنس في الأسرة تحت عناوين «التوضيحات العليّة والوظيفية»؛ حيث يمكن الوصول إلى فهم وظيفي إسلامي، يتناسب والنظريّات الوظيفية في هذا المجال، وذلك على الرغم من اختلافهما في مجال القيم المفروضة؛ على هذا الأساس برز دور العوامل البيولوجية، والنفسيَّة، والإقتصادية والثقافية في التقسيم غير المتوازن للسلطة في الأسرة؛ على صورة السلطة الأبوية؛ ما جعلها محل اهتمام المنظرين.

وتتلاءم في هذا البحث أيضًا تفسيرات كثيرة – وهي تفسيرات مستفادة من النصوص

الدينيــة – مع التفســيرات العلية المقدمــة من أصحاب النظريّات الأخــرى، مع هذا نلاحظ اختلافًا بين الرؤية الإســلامية وبين الرؤية النســوية في ما يتعلّق بالأنظمــة القيمية المختلفة والتوضيحات القيمية المتعارضة لمفهوم سلطة الزوج في الأسرة.

وتعرَّضنا في ختام هذا البحث لدراســة العنف الجنســي في الأســرة مــن زاوية التمييز الجنسيّ؛ وذلك بالاستفادة من التفسيرات العليّة الجزئية والكلية والتحليلية؛ حيث أوضحنا مجموعة من العوامل المؤثِّرة في ظهور هذه الظاهرة واستمرارها.

أما في الرؤية الإســلامية وبعد التســليم بوجــود بعض هذه العوامل، فقد أكد الإســلام علــى مجموعة أخرى من العوامــل، كضعف التديُّن والوجــدان الأخلاقي، وضعف الرقابة الإجتماعية والحكومية.

المصادر

١. أبـوت، تاملا، وكلر والاس، در آمدي بر جامعه شناسـي نگرش هاى فمنيسـتى، ترجمه: مريم خراسانى وحميد احمدى، طهران، دنياى مادر، ١٣٧٦ هجري شمسي.
٢. اسـتيوارت ميل، جـون، كنيز ك كردن زنان، ترجمه: خسـرو ريگى، طهران، نشـر بانو، ١٣٧٧ هجري شمسي.
٣. الحر العاملي، محمد بن الحسـن، وسائل الشـيعة (٢٠ مجلد)، طهران، المكتبة الإسلامية، لا تاريخ.
٤. الطبرسي، الحسن بن الفضل، مكارم الأخلاق، بيروت، دار الحوراء، ١٤٠٨.
١. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٣ ه.
٢. النوري، حسين، مستدرك الوسائل، بيروت، مؤسسة آل البيت، ١٤٠٨.
٣. جكـر، آلسـيون، «چهار تلقى از فمبينيسـم (١) و(٢)»، ترجمة: س. اميري، مجلة زنان، السـنة الخامسة، العددان ٢٨ و ٣١، ١٣٧٥ هجري شمسي.
٤. دوركهايم، اميل، درباره تقسـيم كار اجتماعى، ترجمه: عباس زرياب، كتابسـراي بابل، ١٣٦٩ هجري شمسي.
٥. روبرتسـون، إيان، در آمدى بر جامعه، ترجمه: حسين بهروان، مؤسسه چاب و انتشارات آستان قدس رضوى، مشهد، ١٣٧٤ هجري شمسي.
٦. ساروخاني، باقر، دائرة المعارف علوم اجتماعى، انتشارات دانشگاه طهران، ١٣٧٦ هجري شمسي.
٧. شـرمن، ووود، ديدگاههاى نوين جامعه شناسـى، ترجمه: مصطفى ازكيا، طهران، انتشـارات كيهان، ١٣٦٦ هجري شمسي

٨. شــولتز، دوان، وسيدني آلن شولتز، نظريه های شخصيت، ترجمة: يحيى سيد مهدوی، طهران، مؤسسه نشر وويرايش، ١٣٧٩ هجري شمسي.
٩. غيدنز، أنتوني، جامعه شناسی، ترجمه: منوچهر صبوری، طهران، نشر ني، ١٣٧٤ هجري شمسي
١٠. فرينش، مارلين، جنگ عليه زنان، ترجمه: توراندخت تمدن، طهران، انتشارات علمي، ١٣٧٣ هجري شمسي.
١١. كلاين بارك، إتو، روان شناسی اجتماعی، ترجمه: علی محمد كاريان، طهران، فردوس، ١٣٦٨ هجري شمسي.
١٢. گنجي، حمزه، روان شناســی تفاوت های فـردی، طهران، انتشــارات بعثت، ١٣٧٠ هجري شمسي.
١٣. مؤسسة تنظيم ونشر آثار إمام خميني، جايگاه زن در انديشه إمام خمينی، طهران، ١٣٧٥ هجري شمسي.
١٤. مطهري، مرتضى، مسألة حجاب، طهران، انتشارات صدرا، ١٣٦٨ هجري شمسي.
١٥. ميتشل، أندرو، پيكاربا تبعيض جنســی، ترجمه: محمد جعفر پوينده، طهران، انتشارات نگاه، ١٣٧٦ هجري شمسي
١٦. هيوود، آندرو، «چهار مبحث أساســی فمنيسم»، ترجمه: رضا افتخاري، مجله زنان، عدد ٣٢ السنة الخامسة، ١٣٧٥ هجري شمسي.
17. Abercht, S. L. & B. A. Chadwick & C. K. Jacobson, ***Social Psychology***, Englewood cliffs and New jersey: prentice hall, inc, 1987.
18. Baron, R. A. & D. Byrne, ***Social Psychology***, Bosyon: allyn and bacon, 1997
19. Bilton, Tony, et al., ***Introductory sociology***, Basingstoke: Palgrave Macmillan, 2002.
20. Bradley, Jana. "Methodological issues and practices in qualitative research." The Library Quarterly 63.4 (1993)

21. Burr, Vivien, ***Gender and social psychology***. Routledge, 2002.

22. Carlson, Neil R, "Psychology: The science of behavior." (No Title) (1993).

23. Chodorow, Nancy, "The psychodynamics of the family." (1997).

24. Chodorow, Nancy. "The psychodynamics of the family." (1997).

25. Cotgrove, Stefhen, T***he Science of Society: An Introduction to Sociology***, London: George Allen and Unwin LTD, 1972.

26. Curry, Timothy Jon, Robert M. Jiobu, and Kent P. Schwirian, "Sociology for the twenty-first century", (No Title) (2005).

27. De Beauvoir, Simone, ***The Second Sex***, New york : Vintage Books, 1989.

28. Dusek, Jerome B, ***Adolescent development and behavior***, Prentice-Hall, Inc, 1987.

29. Firestone, Shulamith, ***The Dialectic of Sex***, 1971.

30. Gardiner, Judith Kegan, "Feminism and the future of fathering", ***Men doing feminism***. Routledge, 2013.

31. Harvey, Lee, and Morag MacDonald, ***Doing sociology: A practical introduction,*** Bloomsbury Publishing, 1993.

32.Jaggar, Alison M,. ***Human biology in feminist theory: Sexual equality reconsidered***. na, 1983.J.

33. Kammeyer, Kenneth CW, George Ritzer, and Norman R. Yetman. "Sociology, experiencing a changing society." (No Title) (1990).,

34. Kendall, Diana, ***Sociology in our Times***, CA: wadsworth publishing company, 1972.

35. Kendall, Diana, ***Sociology in our times,*** Cengage Learning, 2012.

36. Klein, Renate CA, ed., ***Multidisciplinary perspectives on family violence***, Routledge, 2005.

37. Komter, Aafke. "Hidden power in marriage." Gender & society 3.2 (1989)

38. Lee, David, and Howard Newby, ***The problem of sociology***. Routledge, 2012.

39. Lindsey, Linda L. & Stephen Beach, ***Sociology: Social life and Social Issues***, upper saddle river and new jersey: prentice hall.

40. McConnell, James V., ***Understanding human behavior: An introduction to psychology.*** Holt, Rinehart & Winston, 1974.

41. Morris, Lydia. "The household and the labour market", ***Family, Economy and Community*** (1990)

42. Nazroo, James. "Uncovering gender differences in the use of marital violence: The effect of methodology", ***Sociology,*** 29.3 (1995)

43. Oakley, Ann, ***Woman's work: The housewife, Past and Present***. 1st edition, Random House Inc (1976).

44. Ramazanoglu, Caroline, ***Feminism and the Contradictions of Oppression,*** Routledge, 2012.

45. Schaefer, Richard T, ***Sociology: A brief introduction,*** McGraw-Hill, 2017.

46. Seidler, Victor Jeleniewski, ***Masculinity, violence and emotional life, Emotions in social lif***e. Routledge, 2002.

47. Shaffer, David R., and Katherine Kipp, ***Developmental psychology: Childhood and adolescence***. Cengage Learning, 2013.

48. Shepard,John M, ***Sociology***, new York and boston, wadsworth, 1999.

49. Siegel, Larry J, ***Criminology***, Belmont: Wadsworth publishing company, 1997.

50. Streba, James P, ***Is Feminism Good for Men and Are Men Good for Feminis?***, London and new York: routledge, 1998.

51. Taylor, Shelley E., Letitia Anne Peplau, and David O. Sears. “Social psychology 12th edition”, ***Kencana Prenada Media***, 2012

52. Tong, Rosemarie, ***Feminist Thought***, London, Routldge, 1997.

53. Vogler, Carolyn, and Jan Pahl. “Money, power and inequality in marriage”, ***The sociology of the family. A reader***, Oxford: Blackwell Publishers, 1999.

ثبات الأسرة واستقرارها[1]

حسين بستان النجفي[2]

المقدمة

من الواضح، أن الارتباط الطبيعي بين الزوجين ودور كل منهما في إشباع رغبات شريكه، هي أمران يندرجان في إطار تكاملهما، ويجعلان كلا منهما بحاجة أساسية إلى الآخر؛ إذ يعد الواحد منهما جزءًا متممًا للثاني. ولهذا الارتباط المتبادل آثار مختلفة تؤثِّر في جميع مجالات الحياة الفردية والاجتماعية البشرية، وتظهر هذه الآثار بشكل خاصّ يتلاءم مع الواقع الموجود.

واذا دققنا في التدبير الإلهي الحكيم لعالم الوجود، نجد أنه يؤدي دورًا أساسيًا في استقرار الأسرة وثباتها. ويحصل ذلك إذا أخذنا بالاعتبار شروط التأثير المرافقة لتأسيس العلاقة واستمرارها بشكل صحيح. ويرى العلامة الطباطبائي في تفسير الآية ٢١ من سورة النساء أن المودَّة والرحمة بين الزوجين من الألطاف الإلهية الحكيمة؛ إذ يقول: «إن كل واحد من الرجل والمرأة مجهَّز بجهاز التناسل تجهيزًا يتمُّ فعله بمقارنة الآخر، ويتمّ بمجموعهما أمر التوالد والتناسل؛ فكلُّ واحد منهما ناقص في نفسه، مفتقر إلى الآخر، ويحصل من المجموع واحد تام، له أن يلد وينسل. ولهذا النقص والافتقار يتحرّك الواحد منهما إلى الآخر، حتى إذا

---

١. هذا البحث مأخوذ من كتاب الإسلام والأسرة: دراسة مقارنة في علم الاجتماع الأسري، الصادر عن مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٨، من صفحة ٢٢٩ إلى صفحة ٣٠٥.

تعريب: علي الحاج حسن.

٢. أستاذ مساعد بقسم علم الاجتماع في معهد الحوزة والجامعة.

اتَّصل به سكن إليه لأن كل ناقص مشتاق إلى كماله، وكل مفتقر مائل إلى ما يزيل فقره، وهذا هو الشقُّ المودَع في كل من هذين القرينين... ومن أجل موارد المودَّة والرحمة في المجتمع المنزلي؛ فإن الزوجين يتلازمان بالمودَّة والمحبة وهما معًا، وخاصة الزوجة، يرحمان الصغار من الأولاد لِما يريان من ضعفهم وعجزهم عن القيام بواجب العمل لرفع الحوائج الحيوية، فيقومان بواجب العمل في حفظهم وحراستهم وتعذيتهم وكسوتهم وإيوائهم وتربيتهم، ولولا هذه الرحمة لانقطع النسل، ولم يعش النوع قطُّ».[١]

١. قداسة العلاقة الزوجية

تعتبر قداسة العلاقة من أهم العوامل التي تساهم في توجيه الزَّواج، والابتعاد عن البدائل المحتملة، والقناعة بلوازمها، وإيجاد الاستعداد الفردي والجماعيّ من أجل مواجهة العوارض والأضرار المحتملة في العلاقة الزوجية، كما تساهم هذه العوامل في حفظ الأسرة وتثبيتها، وفي اعتبار الزواج حالة قيمية. أما سبب هذا الأمر، فيعود إلى أن قداسة ظاهرة ما يؤدي الى تقوية موقعها واحترامها، وبالتالي إضعاف الحالات الأخرى غير المناسبة. ويعتقد كثير من الباحثين أن السبب الذي يقف وراء سقوط موقع الأسرة الهام في الغرب؛ هو التوجه نحو نزع القداسة؛ إذ إن هذا التوجه يؤثر في جميع مجالات الحياة الإجتماعية، ومن ضمنها الأسرة؛ إذًا، فالزواج كان عملية مقدسة وجينية، ثم فقد هذه الحالة شيئًا فشيئًا، وأصبح عقدًا مدنيًا. وذهب عددٌ من المفكرين في القرنين السابع عشر والثامن عشر إلى أن الزواج جزء من قانون الطبيعة. وقد كتب فرنسوا فولتير (Marie Voltaire- Francois) في قاموسه.

«فالزواج عقد بين أفراد البشر. وقد اعتبرته الكنيسة الكاثوليكية عملية مباركة، إلا أنه يوجد اختلاف كبير بين العقد والتبرُّك والقداسة؛ فالعقد عملية تشتمل على آثار مدنية، بينما القداسة بركة تعطيها الكنيسة للفرد».[٢]

وفي العديد من الآيات والروايات، قدَّم الإسلام الزواج باعتباره حالة مقدسة، سواء أكان

١. الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ١٦، ص ١٦٦.

٢. سيغالين، جامعه شناسى از تاريخ خانواده، ص ١٢٨.

ذلك بنحو التصريح أم بنحو التلويح. وتبيَّن النماذج الآتية الرؤية الإسلامي القيمية والمقدسة إلى الأسرة : قال الرسول الأكرمﷺ: «الزواج سنَّتي، فمن رغب عن سُنَّتي فليس مني».[١]

– وقال أيضًا: «تزوَّجوا وزوِّجوا، ألا فمن حظ امرئ مسلم إنفاق قيمة أيمة، وما من شيء أحبّ إلى الله عزَّ وجلَّ من بيت يعمر في الإسلام بالنكاح، وما من شيء أبغض إلى الله عزَّ وجلَّ من بيت يخرب في الإسلام بالفرقة، يعني الطلاق».[٢]

وكان يعقوب عليه السلام يشجِّع ابنه على الزواج قائلًا: «إن استطعت أن تكون لك ذرية تثقل الأرض بالتسبيح فافعل».[٣]

– وقال الإمام الصادق عليه السلام: «ركعتان يصليهما المتزوِّج أفضل من سبعين ركعة يصليهما أعزب».[٤]

وما يدل على التوجُّه الإسلامي الخاص في ما يتعلق بالإطار الزَّوجي المقدَّس، تأكيد الروايات على مجموعة من القضايا، أهمها: التوصية بتعليم الأدعية المختلفة في جميع مراحل عقد الزواج،[٥] طلب الرحمة للوالدين بوساطة الأولاد الذي يتوفون في مرحلة الطفولة،[٦] اعتبار سعي الرجل في سبيل أسرته بمنزلة عبادة وجهاد ذَوَيْ قيمة كبيرة،[٧] الإشارة إلى الثواب الأخروي لعمل الزوجة المنزليّ، واعتبار حسن البعولة بمنزلة الجهاد مع الأعداء[٨] التأكيد على قيمة الإشباع الجنسيّ المشروع واستحبابه[٩] .

---

١. المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٠٣، ص ٢٢٠.
٢. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ٥.
٣. م.ن.
٤. م.ن، ص ٦.
٥. م.ن، ص ٧٩ و٩٦.
٦. م.ن، ص ٣٤.
٧. م.ن، ج ١٢، ص ١٠-١٢.
٨. م.ن، ج ١٤، ص ١٢٣ و١٦٣.
٩. م.ن، ص ٧٦ و٧٧.

٢. حسن الاختيار

تعتبر مرحلة اختيار الزوجة أهمّ المراحل المؤثرة في مصيرة الأسرة. ويعتقد المختصون في أمور الأسرة أن الكثير من المشكلات والاختلالات الأسرية ينشأ بسبب ضعف الإطلاع، والتسرُّع، وعدم القيام بدراسة وافية في مرحلة الاختيار، والثقة المفرطة في رأي الوسطاء، وعدم الاهتمام الكافي بنقاط الضعف أو محاولة تبريرها، وتعظيم بعض الخصائص غير الهامَّة، وعدم الالتفات إلى الخصائص الضروريّة، وأخيرًا الغفلة الاختياريّة والانخداع.

ولا شك في أن لكل مجتمع أسلوبه الخاص المتعارف عليه، الذي يتناسب مع مكوِّناته الثقافية، ولا بد من سلوك هذا الطريق للوصول إلى الزواج؛ ففي الغرب مثلًا أصبحت المساكنةُ قبل الزواج أحد أهم الوسائل التي يلجأ اليها الشُّبّان لاختيار الزوجة. ويعتقد هؤلاء أن هذه العلاقة الاختبارية تؤمِّن للشُّبَّان فرصة التعرف إلى واقع الحياة الزوجيَّة، وتمكِّنهم من التعرف إلى أخلاق بعضهم وسلوكياتهم وتوجُّهاتهم؛ ما يجعل الفرد يُقدم على الزواج بعد اطلاع كافٍ، ومعرفة واعية، وبالتالي يضمن ذلك للزواج الثبات والنجاح إلى حدود بعيدة.

وقد أشارت بعض الدراسات إلى أن المساكنة لا تؤثر في الملاءمة الزوجية، ولا في العلاقة العاطفية القريبة التي تحمل سعادة الأفراد، وإذات كان لها من تأثير؛ فإنه قليل ولا يذكر. وقد أظهرت الشواهد أن الازواج الذين كانوا يعيشون مع بعضهم قبل الزواج أقل نصيبًا في الوفاق الزوجي ممن لم يعيشوا هذه الحالة؛ بل كان نصيبهم سعادة أقلّ وتكاليف أكبر.[١]

وأوضحت بعض الدراسات التي أجريت في أميركا أن نسبة الطلاق بين الأفراد الذين عاشوا حالة المساكنة قبل الزواج أعلى من الذين لم يعيشوها بمقدار ٨٠٪.[٢] ولعل سبب ذلك هو أن مرحلة الاختيار هذه تُغطّى بمسائل أخرى. وتؤكد بعض الدراسات أنه وخلافًا لما تعتقد أكثر النساء اللواتي يعتبرن المساكنة نوعًا من الزواج الاختباري، فإن الكثير من الرجال ينظرون إليه على أنه بديلٌ عن الزواج، وأسلوبٌ لإرضاء الشهوات الجنسية.[٣]

1.Kendall, *Sociology in our Times*, p. 428-429.

٢.آبركرامبي وهيل وأس. ترنر، فرهنگ جامعه شناسی، ص ٢٦٩.

3.Lindsey & Beach, *Sociology: Social life and Social Issues,* p. 387.

وعلى كل تقدير، فإنَّ ما يتيح للأفراد فرصة الاختيار الصحيح بعيدًا عن المشكلات والآثار السلبية هو توعية الأفراد وإرشادهم، واستخدام الأساليب الفعالة والمناسبة، وترك الأساليب التي لا تحقق الإطمئنان الكافي، ويتم ذلك من خلال مراجعة المختصين والناشطين في مجالات ثقافة المجتمع.

وتشير الشواهد الواقعية في مجتمعنا الإسلاميّ إلى أنَّ عمليَّة اختيار الزوجة تواجهها الكثير من الأخطار والمشكلات، ونظرًا إلى التغيُّرات المبنائية الدائمة والمعقدة في المجتمع، فإن نوع المشكلات وحجمهما آخذان في التَّصاعد، ويؤكِّد الكثير من الراغبين في الطلاق على أنسبب إقدامهن على الطلاق هو الاشتباه في مرحلة الاختيار، وهذا دليل على أهمِّيَّة هذه المرحلة وحساسيتها.

وتبرز هذه المشكلات بصورة أوسع وأكثر حساسية في مجتمعنا، وفي أي مجتمع يتمتّع بنسيج تقليدي ودينـي وتوقُّعات ثقافية خاصة. حيث لم يكـن يتوقّع أحد في أي مرحلة من المراحل أن يُقدم الأفراد على الزواج لمجرد لحظة لقاء في حديقة أو شارع أو ما شابه ذلك، فلا يمكن تأسيس أسرة متماسكة اعتمادًا على الأساليب الضعيفة.

سنتعرض في هذا القسم من البحث لتوضيح توصيفيّ مختصر للإجراءات المعمول بها، ومن ثم نشير إلى رأي الإسلام، أما الإجراءات والأساليب المتبعة لاختيار الزوجة في مجتمعنا، فهي كالآتي:

- الحصول على المعلومات الأولية بالطرق المتعارفة أو بالصدفة.
- مشاورة الأقارب والمعارف من أجل المعرفة.
- قيام الأقارب والجيران والمعلِّمين بالبحث (للإطّلاع على تديُّن الطرف المقابل وأخلاقه ودراسته، وكذا موقعه الأسريّ والعمليّ والظروف المحيطة).
- وقد يحصل بعض الأحيان إرسال رسائل أو وسطاء أو تبادل صور بين الطرفين.
- وقد يلجأ الطرفان إلى الحديث مباشرة للإطّلاع على الخصائص الفرديّة لكل منهما.
- ويستفاد أيضًا من الأنظمة المساعدة وبرامج المشاورة للقيام ببعض الفحوصات

الجسدية والروحية في المرحلة التي تسبق الزواج.[١]

وقد أجاز النظام القانوني الإسلامي الطرق المتقدمة وطرق احتمالية أخرى؛ بحيث تؤدي جميعها إلى تعارف الراغبين في الزواج. طبعًا، يتم هذا الأمر بشكل مشروط مع مراعاة الحدود والضوابط الخاصة، لا بل قد يشجِّع الإسلام، بعض الأحيان على هذه الرسائل. من جهة أخرى تُصادفنا العديد من الآيات والروايات التي تولي أهميَّة خاصّة للمشاورة بشكل عام، والمشاورة في أمر الزواج بشكل خاص. وفي سيرة الرسول والأئمة المعصومين عليهم السلام نماذج عدة في هذا المجال، لا بل قد يشجِّع الإسلام على بعض الأعمال، كاللقاء المباشر للاطّلاع على أوضاع الطرف المقابل وخصائصه.[٢]

من جهة أخرى رفض الإسلام لجوء أي طرف إلى الوسائل التي تساهم في تحريف الواقع، فذكرها تحت عنوان «التَّدليس»، وأكثر من ذلك أعطى الطرف المقابل حقّ فسخ الزواج حين وجوده.[٣]

كما أن الإسلام قد شرط إذن ولي أمر الفتاة؛ باعتبار أنها لا تمتلك الإمكانيات اللازمة والضرورية للتعرُّف إلى الزوج؛ حيث تضيف موافقة الأب مزيدًا من الإطمئنان والثقة؛ لأن ولي الأمر أكثر قدرة على اتخاذ الموقف السليم.[٤]

وعلى الرغم من أن بعض الفقهاء والمختصين في القانون الإسلامي يناقشون في إلزامية

---

١. تعتبر مرحلة الخطوبة في حدّ نفسها مرحلة هامة في تعرف الطرفين إلى بعضهما، إذا كانت طبق الموازين الشرعية.

٢. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ١٦ و٥٦.

٣. التدليس في الزواج يتمثَّل في بعض الأعمال التي تؤدي إلى إخفاء العيب عند أحد الزوجين، أو ذكر صفات كمال له غير موجودة فيه. كما لو ادعى الرجل امتلاكه ثروة أو مقامًا أو قدَّم وثائق مزوَّرة عن شهاداته الجامعية، وبالتالي شجَّع الطرف المقابل على القبول به، أو ادَّعت الفتاة كذبًا أنها ابنة فلان أو انها تتقن الخياطة والطبخ والموسيقى، أو أنها بكر أو ارتدت شعرًا صناعيًا بدلًا من شعرها غير الموجود، وبالتالي قبلها الزوج على أساس هذه الصفات، ثم ظهر فقدانهما لما يدعيانه من خصائص فإن الطرف المقابل يمكنه فسخ الزواج (صفائي وإمامي، مختصر حقوق خانواده، ص ١٩٠) ويمكن مراجعة بعض المصادر الفقهية مثل: (الصدر، منهاج الصالحين، ج ٢، ص ٢٩١).

٤. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ٢٠٥ و٢١٤.

إذن الولـي، إلا أنه يؤمِّن الأرضية الضرورية للاختيار المعقول، لا بل إن هذا التدبير يساهم في انخفاض الخطإ في الاختيار إلى مستويات كبيرة. وهذا كله يندرج في إطار توفير أكبر قدر من المعلومات للفتاة، التي قد لا تتمكن من معرفة الطرف المقابل بسهولة بسبب الحدود الإجتماعية الكبيرة التي تحيط بها، وبناء عليه، فإن الإستفادة من هذا التدبير الاحتياطي الذي يفتي به أغلب الفقهاء يساعد الفتاة في الحصول على حياة أسرية مشتركة ومستمرة.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الحق متوقف على وجود الضوابط الشرعية؛ أي أنه معتبر ما دام الأب أو الجدّ لناحية الأب يأخذان بالاعتبار تأمين المصالح الكلية للفتاة من أجل إرشادها في الاختيار الصحيح؛ أما لو تصرّف الأب والجد خلافًا لمصلحة الفتاة؛ بحيث منعاها من الزواج من دون مبرِّر شرعيّ أو عرفيّ؛ فإن إذنهما هذا يسقط ولا يجب تحصيل إجازتهما.[١]

وفي هذا الإطار، نُذَكِّر بكلام الشهيد مطهري؛ حيث يقول: «إن فلسفة توقف زواج الفتاة على موافقة الآباء أو على الأقل أفضلية هذا العمل، لا يعني أن الفتاة قاصر، أو أنها في مستوى أدنى من الرجل في مجال النمو الإجتماعي. وإلا فما الفرق بين المطلَّقة والبكر، فالمطلَّقة لا تحتاج إلى إذن أولياء الأمر، حتى وإن كانت في السادسة عشرة من عمرها، والبكر تحتاج إلى إذن حتى ولو كانت في الثامنة عشرة من عمرها... فهذا الأمر لا يتعلق بالقصور أو عدم النمو العقلي والفكر للمرأة؛ بل يتعلق بجانب من علم النفس عند المرأة والرجل. هذه المسألة تتعلق بإحساس الرجل بالارتباط من جهة، وأمل المرأة في وفاء الرجل وصداقته من جهة أخرى... هنا يفترض بالفتاة مشاورة الأب العارف بأحاسيس الرجل، والآباء عادة لا يريدون إلا خير بناتهم وسعادتهن، إلا في بعض الموارد الاستثنائية، على أساس أن الفتاة لا تمتلك فهمًا للرجال؛ وبالتالي لا بد للفتاة من تحصيل رضى الوالد».[٢]

---

١. الخميني، تحرير الوسيلة، ج ٢، ص ٣٩٣.

٢. مطهري، نظام حقوق زن در اسلام، ص ٦١-٦٣.

٣. الزَّواج الاختياريّ

كان السائد في بعض الثقافات القديمة إجبار الفتاة؛ بل إجبار الشاب على الزواج أحيانًا، وهذا النوع من الـزواج الإجباري كان يتلاءم مع البيئة الخاصـة لهذه المجتمعات، حتى إن بعضهـم كان يعتقد أنه يسـاهم في تقوية ضوابط هذه المجتمعـات القديمة وقوانينها،[١] وقد تحول هذا التدبير إلى مشـكلة عندما أخـذت المجتمعات القديمة بالانتقـال تدريجيًا نحو التجديد. ونظرًا إلى ميل الأجيال القديمة إلى الحفاظ على العادات والتقاليد، وجنوح الجيل الجديد نحو الحصول على هويَّة مستقلة، وأتباع المعايير الفردية بدأنا نلاحظ ظهور حالات تعارض في هذه المرحال التاريخية؛ فعندما يُدفّع الشاب أو الفتاة نحو الزواج خلافًا لميولهما الداخلية، فقد يؤدي هذا الأمر إلى حصول حالتي تعارض واضطراب في الأسرة، خاصة أنه لا مجال للحديث عن الحب والعواطف في هذه الأنواع من الزواج.

أما من وجهة نظر الإسـلام، فإنَّ الشابّ والفتاة يملكان الاختيار في أمر الزواج، وهذا ما صرَّحت به الروايات الكثيرة.[٢]

اعتبر الكثير من الفقهاء أن اختيار الشـاب والفتاة شـرط أساسي في صحة الزواج. وقد يفهم من بعض الروايات ضرورة موافقة الأب أو الجد من الأب ليكون زواج البكر صحيحًا، إلا أن هذه الولاية – إذا ثبت وجودها – مشروطة برعاية مصلحة الفتاة.[٣]

وإذا أخذنـا بالاعتبار الآثار السـلبية للزواج الإجبـاري، فإنه يمكن القـول؛ إن الزواج الإجباري في العصر الراهن لا يؤمن أي مصلحة؛ وبالتالي لا يمكن عدُّه خيارًا صالحًا.

---

١. بهنام، وراسخ، مقدمه بر جامعه شناسى ايران، ص ١٢٤-١٢٦.

٢. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ٢٠١-٢٢٠.

٣. الخميني، تحرير الوسيلة، ج ٢، ص ٣٩٣.

٤. التوقُّعات المعقولة

إن استمرار الأسرة واستقرارها في مراحلها المختلفة يحتاج إلى تغليب «النزعة العقلانية» على الأبعاد الأخرى للحياة المشـتركة. وقد أوضحنا في ما مضى بعض المسائل التي تتعلق بالوعي والمعرفة في اختيار الزوج، ومن المناسـب في هـذا الجزء من البحث، التعرّف إلى توقعات الزوجين بعضهما من بعض، والإشارة إلى طبيعة الحياة الزوجية.

ومـن الواضح، أنـه إذا كانت التوقُّعات معقولـة، فلن يكون للعـوارض المتوقَّعة وغير المتوقَّعة تأثير في وحدة الأسـرة وانسـجامها. وكلَّما كان توقـع الزوجين من بعضهما مثاليًا وغير عقلاني، ارتفعت نسبة الاختلال في الأسرة. ولعل هذه النقطة هي أهم ما يميِّز الزواج في المجتمعات الغربية عنه في المجتمعات التقليدية؛ ففي الغرب، ثمة سـيطرة للإتجاهات الرومانسـية واللامعقولة، وهذا ما يجعل الأسـرة تحتمل الكثيري من التوقُّعات اللامعقولة وغيـر القابلة للتطبيق، وبالتالي فإن هذا يؤدي إلى تزلزل العلاقة الزوجية وعدم اسـتقرارها. يقول ويليام ج. كود: «إن الشاب الغربي الذي يتطلع إلى الزواج من منظار الحب الرومانسي، يحمـل توقعات كبيرة من الزواج، وهو غيـر راض بالحياة المتعبة وذات اللون الواحد، على الرغم مما يشـعر به من الراحة، بينما يتعلم الشُّـبان في المجتمعات التقليدية أن يتوقعوا من زوجاتهم الاحترام في أحسن الحالات، ولا يتوقعون منهن السعادة».[١]

وقد أشارت بعض الاحصاءات في أميركا إلى أن من بين كل مئة زواج يقوم على أساس الحب، تواجه ست وتسعون حالة فشـلًا كبيرًا. وقُدِّرَ عمر الزواج المبني على أساس الحب في فرنسا بمدة ثلاثة أشهر ونصف.[٢]

ومن جهة أخرى، أكد الإسلام على أهمية أن تكون التوقعات عقلانية؛ أي أن تكون أقرب إلى الواقعية، بحيث يتم تغليب العواطف والأحاسـيس والأوهـام، كالالتفات إلى العوامل المادية والمعنوية للأسرة، والتشجيع على الثواب الأخروي. وتساهم رؤية الإسلام هذه في

1.Goode, *The Family*, p. 93.

٢.كي نيا، مبانى جرم شناسى، ج ٢، ص ٨٠٨.

الإلتفات إلى المصالح الخفية للعلاقة الزوجية التي تمنع اتخاذ الكثير من القرارات السريعة وغير العقلانية. وقد أشـار القرآن إلى هذه المسألة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَـاءَ كَرْهًـا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَـةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.[١]

وتشـير بعض الأحاديث الشـريفة إلى أن إصرار الزوج على تغيير أخـلاق الزوجة غير الملائمة – أو بالعكس- قد يحمل معه بعض الآثار السـلبية في العلاقة بين الزوج والزوجة، وكل ذلك من أجل استبعاد بعض التوقعات المثالية وغير الواقعية.

٥. الجمال والتَّزيُّن

لا يمكن اعتبار الجمال والتَّزيُّن الظاهريَّين أحد العوامل الأساسية في استقرار الأسرة، إلا أنه يمكن الاعتراف بدور ثانوي لهما من جهة ارتباطه بالجاذبيات والميول الجنسـية. أما في ما يتعلق بماهية اللجمال وهل هو حالة فيزيائية أو ثقافية؟ فقد أجريت العديد من الدراسات في هذا المجال؛ ويميل بعضٌ إلى الرأي الثاني، اعتمادًا على بعض الدراسات الإنثروبولوجية المختلفـة. وتعتبر بعض المجتمعات مثلًا أن نحافة المرأة معيار جمالها. ويميل آخرون إلى أن سـمنتها معيار ذلك. وبعض المجتمعات الأفريقية تـرى أن جمال المرأة في عدم وجود الأسـنان الأمامية في الفك الأعلى، وهو ما قد نراه نحن شـديد القبح، ويوجد بعض القبائل البدائيـة التي تعتبر أن وجود الجرح في الوجـه أو البدن معيار الجمال.[٢] وجميع هذه الأمور تشهد على صحة الرؤية الثانية للجمال. ويعتقد بعض النسويين أن الجمال حالة أسطورية غير حقيقية؛ بدليل النسبية الثقافية؛ حيث تتعرض المعايير لعملية تبدُّل وتغير على مدى التاريخ؛ بل يعتبرون هذه القضية من نتاج الرأسـمالية والحرب السياسية اللتين تستهدفان ترقّي المرأة في مجالات العمل.[٣] مع هذا كله، يبدو أنه من غير المقبول الغفلة بشكل مطلق عن الجوانب الحيوية للجمال؛ لأنه لا يمكننا من خلال إثبات نسبية الجمال أن ندعي عدم تأثيره.

---

١. النساء: ١٩.

٢. كلاين بارك، روان شناسى اجتماعى، ص ١٥٩- ١٦٠.

3.Peach (ed), *Women in Culture*, p. 23.

لا يمكن إنكار العلاقة بين جمال المرأة وازدياد الجاذبية الجنسية بشكل عام. وبحسب اصطلاحات مذهب التبادل، فإن الجاذبية الفيزيائية لأحد الزوجين جزء من الموارد؛ حيث يتوقع صاحبها الحصول على مقابل مرتفع ازاءها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى ترتفع منافع الشريك الآخر بسبب وجود الجاذبية، وتدفعه إلى الحفاظ على وثاقة العلاقة بينهما. وقد أشارت حالات الطلاق بين الأزواج إلى أن الجمال جزء أساسي من المسائل التي يتداولون بها عند الحساب والعقاب إلى جانب العوامل الأخرى.

على كل تقدير، فإن الجمال والتزيُّن ليسا سوى عامل ثانوي وفرعي في تمتين العلاقة الزوجية، وينبغي عدم المبالغة فيهما. وفي هذا الاطار يمكن تقويم نظرة الإسلام لموضوع الجمال بالاستفادة من الروايات الموجودة، فإذا كان الجمال أمرًا مطلوبًا في حدِّ ذاته من وجهة نظر الإسلام، إلا أنه لا يمكن أن يصبح معيارًا في اختيار الزوجة، لا بل تقدم المعايير الأخرى في حال تعارضها مع هذا المعيار؛ فلا يمكن مساواة معيار الجمال ومعيار التديّن في الإسلام؛ إذ يُعَدُّ هذا الأخير من المعايير الأساسية في اختيار الزوجة، وقد أكدت بعض الروايات على أن الزواج بالمرأة لجمالها يؤدي إلى الندامة والخسارة، وأوصت بالاهتمام بمعيار التديُّن[١]

وبعض الروايات الأخرى اعتبرت المعيار الأخلاقي متقدمًا على معيار الجمال. وقد نهى الرسول عن الزواج بالمرأة الجميلة ذات التربية الفاسدة.[٢] وبما أن الأبناء يحتلون أهمية خاصّة في الإسلام لجهة استقرار الأسرة، فقدركزت بعض الروايات على إنجاب الأولاد كمعيار لاختيار الزوجة. ويظهر من هذه الروايات أن المرأة الولود القبيحة أفضل من العاقر الجميلة.[٣] مضافًا إلى الجمال الطبيعي، فقد اهتمت الروايات أيضًا بالتزيُّن، وأوصت الأزواج والزوجات بالالتفات إلى هذا الأمر. جاء في رواية: «عن الحسن بن الجهم قال: رأيت أبا

١. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ٣٠-٣١.
٢. م.ن، ص ٢٩.
٣. م.ن، ص ٣٣-٣٤.

الحســن اختضب، فقلت: جعلت فداك، اختضبت؟ فقال: نعــم، إن التَّهمَةَ مما يزيد في عفَّة النســاء، ولقد ترك النســاء العفة بترك أزواجهنّ التَّهَمَةَ؟ قلت: لا، قال: فهو ذاك، ثم قال: من أخلاق الأنبياء التنظيف والتطيُّب وحلق الشعر وكثرة الطروقة».[١]

طبعًا، الإختلافات الجنســية الطبيعية في هذا الموضوع ليست عديمة التأثير حيث إنه تمّ التأكيد على تزيُّن المرأة أكثر من الرجل.[٢]

٦. الإشباع الجنسيّ

وبما أن الإشــباع الجنســي أحد الأهداف الهامة لتشــكيل الأســرة، وهــو من الوظائف الأساســية للرباط الأســري على المســتوى الكلِّي، فإن أي اختلال يحصل فيه يؤثر بشــكل طبيعــي في العلاقة الزوجية. ولو تجاوزنا هذه القضية البديهية نســبيًا، فإن الجدير بالاهتمام هو الارتباط القائم بين اســتقرار الأســرة وبين الاختلافات الطبيعية بيــن الرجل والمرأة في الميول الجنسية. ويمكننا الحصول على فهم أفضل لهذه العلاقة عندما نطالع نتائج الدراسات التجريبية التي أجريت في هذا الشأن.

المتعارف عليه في الدول الغربية حتى أوائل القرن العشــرين أن المرأة لا تشــعر بأي لذَّة أثناء المقاربة الجنســية، وأن الرجل هو الوحيد الذي يمتلك ميولًا جنسية، إلا أن الدراسات الفيزيولوجية التي أجريت في العشرينات(١٩٢٠) أدَّت إلى تبدل هذا التصور السائد؛ حيث أكدت الدراسات أن الإشــباع الجنسي يحتلُّ أهمية خاصة لكلا الشريكين، وقد أخذت هذه الرؤية بالانتشار تدريجيًّا؛ إذ ينبغي أن يتم إشباع الحاجة الجنسية لكلا الزوجين.[٣]

وهكــذا بدأ الرجال في الغرب بالعمل على تطوير تقنياتهم الجنســية من أجل توفير أكبر لذَّة لزوجاتهم، وقد أدى ذلك إلى انخفاض مشكلة البرودة الجنسية عند النساء. وعلى سبيل المثال فقد أشــارت التقارير في العام ١٩٠٧ أن ٤/ ٣ من مجموع النســاء في ولاية نيويورك

١.م.ن، ج ١٤، ص ١٨٣

٢.م.ن، ص ١٤ و ١٣٥.

٣.أبوت ووالاس، در آمدی بر جامعه شناسی نگرش های فمنیستی، ص ١٨٧-١٨٨.

الأميركية لم يصلوا إلى أوج اللَّذَة، وأن٣/ ٢من النساء في العام ١٩٢٠ يعتبرن ميول أزواجهنّ فوق الحدود العادية. أما في أواسط القرن العشرين، فقد أكدت٣/ ٢من انساء أنهنّ وصلن إلى أوج اللَّذَّة لمرة واحدة في كل ثلاث، وأن ٤٥٪ من انساء اللواتي مضى على زواجهن أكثر من١٥ سنة، كنَّ يشعرن بالارتعاش، وقد وصلت هذه النسبة وفق بعض الدراسات إلى ٥٣٪ من النساء، وقد أظهرت أكثر النساء رضاهنّ عن العلاقة الجنسية مع أزواجهن، بينما أظهر التقرير أن ٥٪ من النساء يفضِّلنّ علاقة جنسية أضعف مع أزواجهن.[1] لكن، لا يمكن الاستفادة من هذه النتائج للقول إن الرجال والنساء يتساوون في الميول الجنسية؛ وثمة دراسات متأخرة أشارت إلى أن الرجال يولون أهمية للزواج من باب العلاقة الجنسية أكثر من النساء؛ نلاحظ أن أسباب الطلاق في العديد من الحالات تعود إلى شكوى الرجال من عدم حصولهم على الإشباع الجنسي.[2]

وأظهرت بعض الدراسات أن رفض الزوجة تلبية احتياجات الرجل الجنسية يؤدي إلى نوع من الإضطراب عند الرجل، أما المرأة، فيظهر اضطرابها عندما تشعر بأنها فقدت محبة عند الرجل.[3]

وعلى هذا الأساس، فإن للإشباع الجنسي آثارًا على إستقرار الأسرة، كما تحتل الاختلافات الجنسية دوراً بالغًا في هذا المجال، وقد أولت الروايات أهمية قصوى لكلتا النقطتين؛ أي أهمية الإشباع الجنسي عند النساء، ودور الاختلافات الجنسية في استقرار. أما في ما يتعلَّق بالنقطة الأولى، فقد أشارت الروايات إلى ضرورة الاهتمام بالإشباع الجنسي عند النساء في العلاقات الزوجية، واعتبرت أن ثمة جانبًا حقوقيًا في الموضوع، وألزمت الرجال بالتقيُّد بتأدية الحقوق.[4]

---

1. Shorter, t*he Making of the Modern Family*, p. 253.

2.Goode, *The Family*, p. 97.

3.Baron & Byrne, *Social Psychology*, p. 30.

٤. بستان النجفي، الإسلام والأسرة: دراسة مقارنة في علم الاجتماع الأسري، الفصل ٢، تنظيم السلوك الجنسي.

أما في ما يتعلق بالنقطة الثانية، وبعد التسليم بوجود الاختلافات الجنسية الطبيعية؛ فقد أكدت الروايات على حاجة الرجل إلى الإشباع الجنسي أكبر من حاجة المرأة؛ لذا، فقد شجعت الروايات المرأة على تلبية حاجات زوجها الجنسية، دون تقصير في ذلك، وقد وردت في بعض الروايات أن على الزوجة عدم الإطالة في صلاتها؛ لكي لا تمنع زوجها من حق الاستمتاع.[1] واعتبر الإسلام أن من حق الرجل على زوجته أن تمكّنه من نفسها، وقد ورد ذلك في الفقه الإسلامي بشكل صريح لا خلاف فيه.

٧. المحدوديَّة في العلاقات الجنسيَّة

إن تحديد إطار إشباع الغريزة الجنسيَّة بوساطة الزواج المشروع داخل الأسرة هو من أهم الأوضاع والاحتياجات الإجتماعية التي تمثل دورًا أساسيًا في تشجيع الأفراد على الزواج وتأسيس الأسرة؛ بحيث يندفع الأفراد إلى الحفاظ على ثباتها واستقرارها. ومن جهة أخرى، فإن تطبيق هذه المحدودية في المجتمع يستلزم إعداد الأرضية الثقافية الضرورية، والتنشئة الاجتماعية المطلوبة، وإيجاد نظم مرن فعّال، ورقابة رسمية وغير رسمية؛ بل ينبغي العمل على تسهيل الشروط من أجل ضمان إشباع هذه الحاجة الطبيعية عبر الطرق المقبولة؛ وبالتالي رفض الدوافع التي توجِّه الأفراد نحو الطرق غير المشروعة، وجميع هذه الأمور تؤثِّر بشكل كبير في مستوى ارتقاء الأسرة، وتثبيت موقعها في مقابل البدائل غير المقبولة.

وليس من الصعب فهم العلاقة الوثيقة بين هاتين المقولتين؛ فالأفراد الذين عايشوا تجربة الحياة المعاصرة، يمكنهم على الأقل أن يدركوا الآثار المفسدة للحرية المطلقة، ومدى التفسُّخ الجنسيّ على أثر حذف عوامل المنع المختلفة سواء أكانت معنوية أم اجتماعية، وما أدت إليه عملية التسهيلات الجنسية غير المنضبطة على مستوى ظهور وشيوع البدائل المتنوعة التي يغلب عليها أنها قليلة التكاليف، شديدة الجاذبية. وهذا ما أدَّى إلى تدنِّي قيمة الزواج، وإضعاف بنية الأسرة. وقد أشارت بعض الدراسات والإحصاءات في الدول الغربية

١. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ١١٧.

إلى الآتي:

أقرّ حوالـي ٥٠٪ من النسـاء و٨٥٪ ن الرجال الذين حصلوا على الشـهادة الثانوية في أميركا بين الأعوام ١٩٤٠ و١٩٥٠ بأنهم قد أقاموا علاقة جنسية قبل الزواج. وأكدت نصف النسـاء أنهن قد أقاموا علاقة جنسـية مع أشخاص آخرين غير أزواجهن، يضاف إلى ذلك أنَّ ما يقرب من ٢٦٪ من النساء و٥٠٪ من الرجال في عمر الأربعين أقاموا علاقة جنسية خارج إطار الزواج،[1] وقد ارتفعت هذه الأرقام في السبعينات والثمانينات لتشير إلى وجود ٥٠٪ أو ٧٥٪ من الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين ٤٠ و٥٠ سـنة، وأن حوالي ٣٤٪ إلى ٤٣٪ من النساء في العمر نفسه يقيمون علاقات جنسية خارج إطار الزواج.[2]

وعلى الرغم من المنع القانونيّ، فإن ٤٪ من الأزواج في أميركا كانوا يعيشـون في العام ١٩٨١ حياة مشتركة دون زواج، وتكشف الشواهد الموجودة عن ازدياد هذه الظاهرة بشكل كبير.[3]

وأشـارت الإحصاءات في أميركا إلى أن عدد الإعتداءات الجنسـية بلغ ٢٦٠ ألف حالة في العام ١٩٩٥ .[4]

- تتعرض اثنتان من كل سـتّ نسـاء في بريطانيا للإعتداء الجنسـي؛ حيـث يُعتدى على إحداهنّ، وتتمكّن الأخرى من منع الاعتداء بالدفاع عن نفسها.[5]
- وأما في ألمانيا، فيلاحظ انتشـار بيوت الفساد التي تقدِّم خدمات جنسيَّة للرجال، كما افتتحت في هامبورغ مراكز تقدِّم خدمات جنسيَّة للنساء.[6]

أما في أميركا، فيوجد ما لا يقلّ عن ١٣٪ من النساء و٥٪ من الرجال يعدُّون من «المثليّين»،

1.Samuel Z. lausner, "Sexual Behavoir, Social Aspects", VI. 14, p. 205.

2.Papalia & Olds, *Human Development*, p. 415.

3.Huber & Spitze, "Trends in Family Sociology", p. 435.

4.Siegel, *Criminology*, p. 300-301.

٥.غيدنز، جامعه شناسى، ص ٢٠٢.

٦.م.ن، ص ٢١٣.

وقد بدأت هذه الحالة بالإنتشار.[١]

ألا يُعَدُّ المحيط الذي تنتشر فيه مثل هذه الإنحرافات المذكورة عاملًا مساعدًا وأساسيًا في عدم استقرار الأسرة؟ وقد اعترف الباحثون في الغرب بأنه ما دام الأفراد لا ينظرون إلى الأسرة باعتبارها المكان الوحيد لإشباع الحاجات الجنسية؛ فإن التزامهم بحفظ هذه الحالة الإجتماعية سيسير نحو التدهور.[٢]

أما المشرّع الإسلامّي، فقد أقر الطُّرق المشروعة، ورفض الطرق غير المشروعة التي قد يلجأ إليها الأفراد لإشباع حاجاتهم الجنسي؛ حيث إن هذا يؤدي دورًا بالغ الأهمية في تمتين بنيان الأسرة ،قد رفض الإسلام «الزنا» بجميع أشكاله التي قد تتمظهر في قالب علاقة بين الشابّ والفتاة، أوبصورة الاعتداء الجنسي، أوالفحشاء؛ وذلك باعتبار أن هذه الأشكال أساليب غير مشروعة؛ بل حدّد الإسلام لمرتكبي هذه الأعمال عقوبات شديدة. وإلى جانب الطرق المشروعة لإرضاء الحاجة الجنسية شرَّع الإسلام بعض الطرق الشرعَّية الأخرى من باب محاكاة الواقع، فرض إلزام الرجل بزوجة واحدة مدى الحياة كما هو الحال في تشريعات الكنيسة الغربية، وقد تم التعاطي مع هذه العقيدة بنوع من التفريط والتحرُّر من قبل بعض أفراد المجتمع.

أما في ما يتعلّق بمسألة الزواج المؤقَّت الذي هو من أهم مظاهر الواقعية الإسلامية في قضيَّة العلاقات الجنسية، فإنه قد يُتصوَّر بداية أن هذا الشكل من الزواج ما هو إلا ترويج للإباحية الجنسية التي تتعارض مع الدعوة إلى الاستقرار الأسري، إلا أن خطأ هذه الرُّؤية يتَّضح بعد التدقيق في روايات المعصومين عليهم السلام في هذا المجال. ويستفاد من هذه الروايات أن فلسفة تشريع الزواج المؤقَّت تكمن في تأمين الإشباع الجنسيّ للرجال الذين لا يملكون زوجة أو البعيدين عن زوجاتهم،[٣] ولا تشجع هذه الروايات الرجال على هذا النوع من الزواج

1.Shepard, *Sociology*, p 312.

٢.هيلر، «جامعه مدنى ودولت»، ص ٥٨.

٣.الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ٤٤٠ و٤٤٩.

إذا كانوا لا يواجهون مشكلة في الإشباع الجنسيّ، باعتبار حضور زوجاتهم، إلا ما يندرج منها تحت عنوان إحياء سُنّة الرسول، ومواجهة البدع والانحرافات. وبهذا الشكل يكون لهذا النوع من الزواج جانب سياسي وآخر ثقافي، وعلى هذا الأساس رفضت بعض الروايات الإصرار على هذا النوع من الزواج والغفلة عن الزوجة الدائمة،[1] وعليه لا يمكن اعتبار الزواج المؤقَّت مؤثِّرًا في استقرار الأسرة في الظروف العادية.

والجدير بالذكر، أن الدراسات التاريخية والثقافية التي أجريت على «ظاهرة العلاقة الجنسية غير المشروعة»، أظهرت أن هذه العلاقات تشكل ظاهرة تاريخية عامة، فقد انتشرت في ظروف إجتماعية متنوعة على مرّ التاريخ لتبيِّن وجود احتياجات طبيعية لا يمكن إشباعها داخل الأسرة فقط.

١. م.ن، ص ٤٥٠.

المصادر

١. آبركرامبي، نيكولاس، واستيفن هيل وبرايان أس. ترنر، فرهنگ جامعه شناسی، ترجمة: حسن بويان، طهران، انتشارات فرهنگ جامعه شناسی، ١٣٦٧ ش.
٢. أبوت، تاملا، وكلر والاس، در آمدی بر جامعه شناسی نگرش های فمنیستی، ترجمه: مريم خراسانی وحميد احمدی، طهران، دنياي مادر، ١٣٧٦ ش.
٣. الحر العاملي، محمد بن الحسن وسائل الشيعة، (٢٠ مجلد)، طهران، المكتبة الإسلامية، لا تاريخ.
٤. الخميني، روح الله، تحرير الوسيلة، قم، مؤسسة مطبوعات اسماعيليان، لا تاريخ.
٥. الصدر، محمد باقر، منهاج الصالحين، ج٢، بيروت، دار التعارف للمطبوعات، ١٤٠٠ ه ق.
٦. الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، منشورات رابطة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة،لا تاريخ.
٧. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٣ ه ق .
٨. بهنام، جمشيد، وشاپور راسخ، مقدمه بر جامعه شناسی ايران، طهران، انتشارات خوارزمی، ١٣٤٨ ش.
٩. سيغالين، مارتين، جامعه شناسی از تاريخ خانواده، ترجمة: حميد إلياسي، طهران، نشر مركز ، ١٣٧٣ ش.
١٠. صفائي، حسن، وأسد الله إمامي، مختصر حقوق خانواده، ج ١، انتشارات دانشگاه طهران، ١٣٦٩.
١١. غيدنز، أنتوني، جامعه شناسی، ترجمه: منوچهر صبوری، طهران، نشر ني، ١٣٧٤ ش
١٢. كلاين بارك، إتو، روان شناسی اجتماعی، ترجمه: علی محمد كاريان، طهران، ١٣٦٨ ش.
١٣. كی نيا، مهدی، مبانی جرم شناسی، انتشارات دانشگاه طهران، ١٣٦٩ ش.
١٤. مطهري،مرتضی، نظام حقوق زن در اسلام، طهران وقم، انتشارات صدرا، ١٣٦٩ هجري شمسي.
١٥. هيلر، أجنيس، جامعه مدنی ودولت، ترجمه: سحر سجادی، طهران، نشر توسعه، ١٣٧٨ ش.

16. Baron, R. A. & D. Byrne, ***Social Psychology***, Bosyon: allyn and bacon, 1997
17. Goode,William J, "The sociology of the Family"***, sociology today***, new York, basic books, Inc.
18. Huber, Joan & Glenna Spitze, “Trends in Family Sociology”, in Neil J. smelsev (ed.) ***handbook of sociology***, newbury park, sage publications, 1988.
19. Kendall, Diana, S***ociology in our Times***, CA: wadsworth publishing company, 1972.
20. Klausner, Samuel Z., “Sexual Behavoir, Social Aspects”, VI. 14, 1972.
21. Lindsey, Linda L. & Stephen Beach, ***Sociology: Social life and Social Issues***, upper saddle river and new jersey: prentice hall.
22. Papalia, D. E. & S. W. Olds, ***Human Development***, new York: Mcgraw- hill, inc, 1965.
23. Peach, Lucinda joy, ***Women in Culture***, Massachusetts; Blackwell Publishers, 1998.
24. Shepard, John M., ***Sociology***, new York and boston, wadsworth, 199.
25. Shorter, Edward, ***the Making of the Modern Family***, new York, basic books, Inc.
26. Siegel,Larry J., ***Criminology***, Belmont: Wadsworth publishing company, 1997.

تقييم حدود الأسرة في علم النفس
من زاوية القرآن والروايات[1]

جعفر هوشياري[2]

محمد مهدي صفورائي باريزي[3]

المقدمة

إن الأسرة منظومة مرنة وحيوية ذات بنية خاصة. إن النموذج التقليدي البنيوي للأسرة يعدّ من بين الاتجاهات النفسية التي تعرّضت إلى رسم بنية الأسرة، ومن بينها الحدود الداخلية والخارجية لها. إن حدود العلاقات والروابط في الأسرة تعبّر عن خطوط وضوابط تميّز بين أفراد الأسرة من الناحية النفسية، وتؤدّي إلى تبلور المنظومات التحتية. إذا لم يتم تشخيص الحدود بشكل واضح، فإن تداخل الوظائف والأدوار سوف يؤدّي إلى فشل وتخلّف الأسرة عن تحقيق أهدافها السامية. ولكي تصبح المنظومات التحتية للأسرة ناجعة، من الضروري العمل على تعريف الحدود والثغور الارتباطية بين أفراد الأسرة وعلاقاتهم مع الآخرين والحفاظ عليها. وقد ذهب بعض المنظرين في حقل الأسرة، ومن بينهم «سلفادور

---

١. المصدر: نُشرت هذه المقالة باللغة الفارسية تحت عنوان «ارزيابي مرزهاي خانواده در روان شناسي از نگاه قرآن و روايات» في مجلة مطالعات علوم قرآن التي تصدر في جمهورية إيران الإسلامية عن (جامعة المصطفى العالمية)، العدد: ٢، ربيع وصيف عام ١٣٩٧ هـ ش، الصفحات: ١٥٧ ـ ١٧٧.

تعريب: حسن علي مطر

٢. طالب على مستوى الدكتوراه في حقل القرآن وعلم النفس من مؤسسة التعليم والعلوم الإنسانية في جامعة المصطفى العالمية.

٣. أستاذ مساعد وعضو اللجنة العلمية في جامعة المصطفى العالمية.

مينوتشين» إلى الاعتقاد بأن من بين أسباب التعارضات الأسرية هو الغموض وعدم الالتزام بالحدود الداخلية والخارجية للأسرة، ورأى أن علاج ذلك يكمن في إيجاد الحدود والقيود المعيارية.[١]

لقد أدّت التحوّلات الاجتماعية والصناعية والعلمية إلى ظهور الكثير من المشاكل للأسر في أكثر المجتمعات وتعدّ الاختلافات الأسرية، وارتفاع نسبة الطلاق الحقوقي والعاطفي، وظهور الأسر غير المتعارفة،[٢] والأولاد المشردون، والشباب واليافعون الجانحون، وما إلى ذلك من المؤشرات على وجود المشاكل الأسرية. إن الأسرة هي الأسّ الحقيقي في المجتمع، وإن الخطوة الأولى لإصلاح وتكامل المجتمع تكمن في سلامة الأسرة.[٣] إن المجتمع الذي تضمحل فيه القيَم الأسرية، يسهل سقوطه في مستنقع الفساد والفحشاء.[٤] إن وجود هذه المشاكل يثبت عدم جدوائية النظريات الأسرية المنبثقة عن المباني العلمانية الغربية، وعدم انسجامها مع المباني الرؤيوية والسلوكية في المجتمعات الدينية، يؤكد على حاجة الإنسان والبشرية إلى تغيير النظرة إلى الأسرة، ورسم حدود العلاقات فيها على أساس التعاليم السماوية.

إن القرآن الكريم بسبب شموليته وخلوده وعدم تطرق الخطأ إليه، يعدّ أساسًا ومبنى لتقييم العلوم الإنسانية الغربية، ومصدرًا للعلوم الإنسانية الإسلامية. إن مقتضى شمولية القرآن الكريم وخلوده،[٥] والمنزلة الرفيعة للزواج والأسرة في الثقافة القرآنية،[٦] ووجود القوانين القوية والجامعة والواضحة فيما يتعلق بالأسرة،[٧] هو الذي من شأنه الإجابة عن

---

١. مينوجين، خانواده و خانواده درمانى.

2.Queer Families

٣. المدرسي، تفسير هدايت، ج ٧، ص ٥٦.

٤. م.ن، ج ٨، ص ٢٥٥.

٥. الأنعام: ٥٩.

٦. النور: ٣٢؛ الروم: ٢١.

٧. محمدى رى شهرى، تحكيم خانواده از نگاه قرآن و حديث، ص ١١.

الأسـئلة المطروحة في حقل بنية الأسرة ولا سـيما فيما يتعلق برسم حدودها وبيان قيودها. إن بيـان الاتجاهات العلمية إلى القرآن الكريم، واسـتنباط رؤيتـه، يعدّ من جملة الخطوات التمهيدية لبلورة وتكوين العلوم الإنسـانية الإسـلامية. إن غاية هذه الدراسة هي العمل على تقييم حدود الأسـرة في علم النفس من الزاوية القرآنية، والإجابة عن أسـئلة البحث، وبيان رؤية القرآن الكريم بشأن حدود العلاقات الأسرية.

وقد تم تقديم بعض الأبحاث حول موضوع الحدود الارتباطية في الأسرة، حيث سنشير إلـى بعضها،[١] وهناك دراسـة تحت عنوان «مقارنة رؤية العلاج الأسـري لمينوتشـين برؤية الإسـلام»،[٢] تعرّضت إلى بحث حدود الأسـرة باختصار. كما عمل تحقيق كياني ومعاونوه (١٣٨٩ هـ ش) تحت عنوان «أبعاد الاتجاه الديني وحدود العلاقات الأسـرية»،[٣] وتحقيق الحسـيني ومعاونوه (١٣٩١ هـ ش) تحت عنوان «دراسـة ومقارنة حجم توظيف المفاهيم الإسلامية لمحورية الأسرة في الأسر السليمة والمضطربة»،[٤] على بيان حدود وقيود الأسرة بشكل محدود.

وبالإضافة إلى الفراغ التحقيقي المشـهود في حقل تقييم حدود الأسـرة من وجهة نظر القـرآن، هناك ضـرورة أخرى تقتضي القيـام بهذا التحقيـق، وهي الحاجـة المتزايدة لدى المجتمعات الراهنة إلى ترسـم حدود الأسرة على أساس المصادر الوحيانية، للخلاص من المعضلات والتعارضات المتفاقمة في الأسرة يومًا بعد يوم. ومن هنا فإن هذه المقالة تسعى إلى الإجابة عن الأسئلة أدناه:

١. ما هي الخطوط المرسومة للأسرة من قبل علم النفس؟

٢. ما هي الخطوط المرسومة للأسرة من قبل القرآن والروايات؟

---

١. سالاري فر، خانواده در نگرش اسلام و روان شناسی.

٢. عنوانه في الأصل الفارسي: «مقايسه نظريه خانواده درمانی مينوچين با ديدگاه اسلام».

٣. عنوانه في الأصل الفارسي: «ابعاد جهت گيری مذهبی و مرزهای ارتباطی خانواده».

٤. عنوانه في الأصل الفارسـي: «بررسی و مقايسـه ميزان به كارگيري آموزه های اسلامی خانواده محور در خانواده های سالم و آشفته».

٣. ما هي أوجه الشبه بين حدود الأسرة من وجهة نظر الإسلام وعلم النفس؟

٤. ما هي أوجه الاختلاف بين حدود الأسرة من وجهة نظر الإسلام وعلم النفس؟

إن أسلوب هذه الدراسة يقوم على أساس توصيف وتحليل المحتوى في مهد الدراسات القرآنية مع الاستفادة من المفاهيم الروائية المأثورة حول الآيات مورد البحث عن الأئمة الأطهار عليهم السلام.

مفهوم الأسرة

إن الأسرة عبارة عن وحدة اجتماعية صغيرة تتألف من الأب والأم وأولادهما.[١] إن الأسرة في مصطلح علم النفس عبارة عن منظومة اجتماعية تشتمل على مجموعة من الأفراد الذين يعيشون تحت سقف واحد على أساس الزواج والتناسل وتربية الأولاد، ولكن هناك من لا يرى ضرورة لقيد القرابة بالنسبة إلى أفراد الأسرة. يذهب البنيويون إلى الاعتقاد بأن الأسرة عبارة عن بنية تشتمل على منظومات[٢] وحدود[٣] وأدوار. هناك في الأسرة المركزية ثلاث منظومات تحتية، وهي عبارة عن: الزواج، والوالدين، والأولاد. إن كل عضو من أعضاء الأسرة بحسب الوظائف التي يضطلع بها داخل منظومة الأسرة والأدوار التي يُتوقع منه القيام بها، قد يندرج ضمن منظومة أو عدّة منظومات فرعية.[٤]

إن الأسرة في المنظار الإسلامي عبارة عن منظومة مستقلة ذات منزلة رفيعة وقيّمة[٥] تقوم

---

١. عميد، فرهنگ عميد، ج ١، ص ٨٢٨.

2.Subsystem

3.Boundary

4. Neslon, *Realistic Dependent Measures for Dlinical Use. Jornal of Consvldng and Clinical.*

٥. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما بُني بناء في الإسلام أحبّ إلى الله عزّ وجل من التزويج». حر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ١٤.

على أســاس التكافؤ الإيماني وعلى أساس التقوى والإحصان[١]. [٢] وتعمل على توفير أرضية التقدّم المعنوي،[٣] والابتعاد عن الذنوب،[٤] وتدعو إلى النشــاط والحبور،[٥] ويمكن أن تشكل أرضية لإعداد خليفة الله.[٦] وإن الدخول إليها يتمّ عبر التناسل والزواج أو تبني الأولاد،[٧] وإن انحلالها تابع لقوانين خاصة ومن بينها الطلاق، للصيانة من ســهام الأهواء النفســية للأفراد؛ وعلى هذا الأساس فإن الأسرة كيان مقدّس يقوم على أساس الزواج بين رجل وامرأة واحدة في الحدّ الأدنى، ويشــتمل فــي الكثير من الموارد في الحدّ الأدنــى على صنف من الأولاد النســبيين أو الرضاعيين أو المتبنين، ولها آليات وضعية ووظائفية، ويترتب على ذلك مســار التكامل الفردي والاجتماعي.[٨]

حدود الأسرة في علم النفس

لقد تمّ بيان حدود الأسرة للمرّة الأولى بشكل علمي من قبل الاتجاه البنيوي إلى الأسرة. إن أساس الاتجاه البنيوي للأســرة، نظرية منظومية تمّ بيانها من قبل برتالانفي[٩] (١٩٥٦ م). إن نقطــة بداية دخول هذه النظرية في أبحاث الأســرة تعود إلى عقد الخمســينات من القرن العشرين للميلاد، ويشمل الكثير من النماذج، ومن بينها النموذج التقليدي البنيوي.[١٠] لقد تمّ التأسيس للاتجاه البنيوي للأسرة بالتناظر مع نظرية المنظومات من قبل الطبيب وعالم النفس

---

١. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْــرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْــرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْــرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾. البقرة: ٢٢١.

٢. بهشتي، خانواده در قرآن، ص ٥٠.

٣. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ١٨.

٤. النوري، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ج ١٤، ص ١٥٠.

٥. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ٣٩.

٦. جوادي آملي، زن در آينه جلال و جمال، ص ١٢٨.

٧. شاهوران فرد، «مشاوره خانواده: مرزهای ایمن؛ حفظ مرزها در خانواده های سالم»، ص ٥٧.

٨. هوشياري، والآخرون،«تحليل مبانی فقهی و كاركردهای روان شناختی صله رحم».

9.BertalaEffy

١٠. زيمون، مفاهيم و تئوری های كليدی در خانواده، ص ٣٧.

الأمريكي سـلفادور مينوتشين[1] (١٩٧٧ م). إن خدمة نموذج مينوتشين تكمن في بيان أهمية وحدود الأسرة.[2] بعد بيان هذه المقدمة ننتقل إلى بيان حدود الأسرة وتقييمها.

إن مـن بين عناصر بنية الأسـرة، هو «الحـد». إن الحدود عبارة عن خطـوط غير مرئية وافتراضيـة تميّز الأفراد من الناحية النفسـية.[3] إن الحد الحائـل الافتراضي في خدمة حفظ وتقدّم وتمايز واتحاد الأسرة بوصفها كلًا واحدًا، يندرج تحت منظومات الأسرة وآحاد أفراد الأسـرة. إن الحدّ استعارة للتعاطي الخاص والذي يجري بين المنظومات بشكل منتظم. إن حـدود منظومة ما، عبارة عـن القوانين التي تحدد من وكيف يكون جـزءًا ومتعاملًا مع هذه المنظومة. إن الحدود في نظام الأسـرة أمر نفسي، ويرتبط بأمور من قبيل العلاقات الكلامية وغير الكلامية.[4] وبشـكل عام فإن الحدود تعمل على بيان كيفيـة تعامل وارتباط منظومات الأسرة في ما بينها وتعامل مجموع نظام الأسرة مع خارج الأسرة. وفي الحقيقة فإن الحدود هـي ذات التوقعـات المتبادلة والقوانين القائمـة بين الأعضاء تجاه بعضهـم، وتجاه خارج الأسـرة، ومهمتها تمييز حدود ودور المنظومات. إن حدود الأسرة لها أنواع سوف نتعرّض لها تباعًا.

أنواع حدود الأسرة

تنقسـم حدود الأسـرة ـ في علم النفس، ولا سـيما الاتجاه البنيوي ـ على أساس تعامل الأفـراد فيما بينهم ومع الآخرين، إلى قسـمين كليين، وهما: «الداخلـي والخارجي»، وكل واحد من هذين القسمين له أقسام خاصة أيضًا.

1.Minuchin, Salvador

٢. شليبه، وشوايتزر، آموزش درمان و مشاوره سيستمى، ص ٣٦.

٣. مينوجين، خانواده و خانواده درمانى، ص ٢٤٣.

٤. باركر، خانواده درمانى پايه.

أ. الحدود الداخلية

هناك في داخل الأسـرة ثلاث منظومات تحتية، وهي: الزوجـان، والوالدان، والأولاد، حيث لكل واحدة مـن هذه المنظومات الثلاثة حدودها الخاصة. إن الحدود الداخلية تعمل علـى فرز وتمييز الأنظمـة الفرعية والمنظومات الداخلية للأسـرة.[١] إن النزاعات الأسـرية تنشـأ في الغالب من غموض الحدود التي يمكن أن تقوم بين الزوجين أو سـائر المنظومات الأخرى. إن أفراد الأسرة إنما يمكنهم سـلوك مسار الكمال وحلّ تعارضاتهم الداخلية فيما لو كانت الحدود واضحـة. إن هذه الحدود من حيث الانعطاف والقابلية على التأثير والتأثر وسـائر الخصائص الأخرى، تختلـف وتحتوي على ثلاث كيفيات كليـة، وهي: «الوضوح والانعطاف، والإبهام والتعقيد، والانفصال».[٢]

الحدود الداخلية الواضحة والمنعطفة

إن الملاك الأهم في سلامة منظومات الأسرة، عبارة عن امتلاك الحدود الواضحة القائمة علـى أدوار وقواعد القدرة. يذهب علماء النفس المنهجي للأسـرة ـ من أمثال: مينوتشـين (١٩٧٤ هـ ش)، وجـي هي لـي (١٩٧٦ هـ ش) ـ إلـى القول بأن وجود حـدود واضحة وصريحة للأسـرة يُعدّ من المسائل الضرورية والناجعة للأسرة.[٣] إن المنظومات التحتية في الحدود الواضحة والمنعطفة على الرغم من العمل بشكل مستقل، ولكنها متحدة فيما بينها. إن الأفـراد في كل منظومة لا يتدخلـون في مهام المنظومات الأخرى، وإن سلسـلة مراتب القدرة قائمة في الأسـرة. إن الحدود بين الأفراد في الأسر المنحرفة غير واضحة، ولا وجود فيها للدعم والتكافل.[٤]

---

١. توزنده جانی، خانواده درمانی، نظام تعاملی چندگانه.

٢. گلدنبرگ، وگلدنبرگ، خانواده درمانی، ص ١٤٢.

٣. زیمـون، مفاهیم و تئوری های کلیدی در خانواده، ص ٢٣٥؛ بروجسـکا، ونوراکـس، نظریه های روان درمانی، ص ٤٤٥.

٤. هی لی، روان درمانی خانواده.

إن المنظومة التحتية للزوجين يجب أن تشتمل على حدود واضحة وقوية.[١] يذهب مينوتشين إلى الاعتقاد بأن المنظومة الزوجية يجب أن تحتوي على حدود مغلقة من أجل الحفاظ على الأمور الخاصة بالزوج والزوجة.[٢] إن حدود المنظومة التحتية للزوجين يجب أن تكون من الوضوح والصراحة بحيث تحول دون تدخّل سائر الأمور الأخرى.[٣] إن هذا الأمر رهن بتبلور مطلوب لمنظومة الزوجين التحتية في مراحل «التفرّد» الناجح عن جسد النظام السابق و«العضوية» الناجحة في النظام الجديد.[٤]

الحدود الداخلية المبهمة والمعقدة

إن الحدود المعقّدة صامتة بشدّة وغير متمايزة، ولم يتمّ تفكيكها إلا في حدود ضئيلة، ويمكن تجاوزها بسهولة، وتتعرض إلى الانتهاك من قبل سائر أعضاء الأسرة،[٥] إن سلوك فرد من أفراد الأسرة يؤثر على الآخرين مباشرة، وإن الضغط النفسي لدى أحد الأفراد يجتاز الحدود سريعًا وينعكس على سائر المنظومات الأخرى.[٦] يذهب مينوتشين إلى اعتبار الأسرة ذات الحدود المبهمة والمعقدة أسرة جانحة.[٧] إن من بين تبعات وعلامات غموض وتعقيد الحدود، عبارة عن تدخّل أحد الأولاد في حدود الوالدين وأخذ دور أحدهما، الأمر الذي يؤدّي إلى إضعاف صاحب الحد، واقتدار الولد، وسيطرة الولد على شؤون الوالد، ويتفشى الحسد والتنافس بين الأولاد للحصول على مثل هذه السلطة.[٨] وكذلك الأب والأم اللذان يتقمصان دور بعضهما، وفي مثل هذه الحالة يُسهم كل واحد منهما في إضعاف كلا الدورين، ويعملان على زعزعة مكانة الأب ومكانة الأم في النظام النفسي للولد.[٩]

---

١. كرو، ريدلي، زوج درمانى كاربردى.

٢. بروجسكا، ونوراكس،نظريه هاى روان درمانى، ص ٤٤٥.

٣. مينوجين، خانواده و خانواده درمانى، ص ١٩٣.

٤. يونسي، مديريت روابط زناشوئى آسيب ها و راه حل ها.

٥. گلدنبرگ، وگلدنبرگ، خانواده درمانى، ص ١٤٣.

٦. موسوي، خانواده درمانى كاربردى با رويكرد سيستمى، ص ١٣١.

٧. مينوجين، خانواده و خانواده درمانى، ص ٨٥.

٨. توزنده جانى، «كمال پور خانواده درمانى، نظام تعاملى چندگانه».

٩. جان بزرگى، و آخرون، آموزش اخلاق، رفتار اجتماعى و قانون پذيرى به كودكان، ص ٣٠.

الحدود الداخلية المنفصلة

في الحدود المنفصلة أو الجافة، لا تشاهد بنية سليمة أو نظمًا أو قدرة، وإن الارتباط بين أعضاء الأسرة ضعيف.[١] إن أفراد الأسرة قد يعملون بشكل مستقل، ولكنهم يعانون من الشعور باستقلال ممسوخ، ويشكون من الافتقار إلى حسّ الوفاء والتعلق وقابلية التبعية والحماية، وذلك لأن استقلال أفراد الأسرة يجب أن يكون مقرونًا بالشعور بالوفاء والتعلق والارتباط والحماية الجماعية، وهذا ما تفتقر إليه هذه الأسر. إن سلوك الأفراد في هذه الأسر قلما يقع موردًا للاهتمام، ومن هنا تكون الطاقة الإنتاجية اللازمة لتنشيط المنظومة السلوكية لدى هذه الأسر منخفضة جدًا.[٢] إن العلاقات بين الأفراد جافة وصعبة للغاية، وإن سلوك الأعضاء قليل التأثير على بعضهم.[٣] لقد ذهب مينوتشين إلى اعتبار الأسرة ذات الحدود المنفصلة أسرة جانحة.[٤] تسمى هذه الأسر بالبرّادات العاطفية المتجمّدة. يذهب ألسون من خلال التلفيق بين «الانسجام، والقابلية على الانعطاف، والارتباط» إلى تقسيم الأسر إلى خمسة أقسام، وهي: المستوى المنفصل، والمستوى المتصل إلى حدّ ما، والمستوى المتصل، والمستوى المتصل جدًا، والمستوى المتلاحم؛ حيث أن الأسر التي تحظى بالمستويات الثلاثة الأولى تعدّ من الأسر السليمة والمتوازنة، ، والمستويان الآخران يرتبطان بالأسر غير السليمة. إن الأفراد في المستوى الأول والثاني إما أن يكونوا منفصلين عن بعضهم جدًا، بحيث لا يكون لهم أدنى مقدار من التعلق أو الإخلاص بالنسبة إلى أسرتهم، أو أن يكونوا ملتصقين ببعضهم بحيث لا يستطيع أحدهم أن يكون شخصًا مستقلًا.[٥]

---

١. نظام هاي روان درماني، بروجسكا، جيمز جان، نوراكس، سي، ترجمه إلى اللغة الفارسية: يحيى سيد محمدي، ص ٤٥٢، انتشارات روان، طهران، ١٣٨٧ هـ ش.

٢. خانواده و خانواده درمانى، مينوجين، سلفادور، ترجمه إلى اللغة الفارسية: باقر ثنائي، ص ٢٤٣، ١٣٨٦ هـ ش.

٣. نيكلز، وشوارتز، خانواده درمانى: مفاهيم و روش ها، ص ٢٤٢.

٤. مينوجين، خانواده و خانواده درمانى، ص ٨٥.

5.Olson, Circumplex model of marital and family systems, pp. 514.

ب. الحدود الخارجية

حيث أن الأسـرة مؤسسـة اجتماعية تتعامـل مع خارج منظومتها، يجـب عليها لضمان سلامتها وجدوائيتها أن تتقيّد ببعض الحدود والقيود؛ حيث يُسميها الاتجاه البنيوي بالحدود الخارجية للأسـرة. إن الحدود الخارجية تعمل على تمييز الأسرة من خارجها؛ إذ تعيّن كمية وكيفية منظومة الأسـرة والمنظومات التحتية مع الخارج. إن هذه الحدود تختلف من حيث الانعطاف والقابلية على التأثير وسائر الخصائص الأخرى، وتحتوي على ثلاث كيفيات كلية، وهي: «الوضوح والانعطاف، والإبهام والتعقيد، والانفصال».[١]

الحدود الخارجية الواضحة والمنعطفة

إن نجاح الأسرة رهن بأن تكون لها حدود خارجية واضحة ومرنة، وأن يكون بمقدورها حلّ وفصل مسـائلها من دون تدخل الآخرين واسـتدعائهم لحل مشاكلها.[٢] إن الأسرة التي تلتزم بالحدود والقيود الخارجة الواضحة والمرنة، من خلال حفاظها على استقلالها تواصل ارتباطها بالخارج، ولا تتدخل في المنظومات الأخرى، ولا تسمح بالتدخّل في شؤونها أيضًا، وإن أفراد الأسرة على الرغم من اتحادهم الداخلي، يتعاملون مع الخارج أيضًا.

الحدود الخارجية المبهمة والمعقّدة

في الأسـر التي تحتوي علـى قيود مبهمة ومعقـدة، يكون الارتباط مع الخارج شـديد الوثوق، وغير متميّز ولا قابل للانفصال، ويكون الأفراد فيها معتمدين على الخارج بشـكل مفرط، ويحل التعلق والتبعية لديهم بالخارج محل الاهتمام بكانون الأسرة، الأمر الذي يمهّد الطريق لدخول الآخرين في منظومة الأسرة؛ حيث يسهل عليهم التدخّل والتأثير بسبب وهن وضعف هـذه الحدود إلى حدّ كبير، ومـن هنا يكون لاعتراضات الآخريـن تأثير كبير على الأسـرة وأفرادها. إن أعضاء هذه الأسَـر بدلًا مـن التلاحم فيما بينهـم، واحترام منظومتهم

١. گلدنبرگ، إيرنه و گلدنبرگ، خانواده درمانی، ص ١٤٢.

٢. كرو، ريدلي، زوج درمانی كاربردی.

والتمسّك بقيَمها، يذهبون في الغالب إلى إقامة العلاقات مع الأطراف والجهات الخارجية، ويخلقون لهم الأرضية الخصبة والمناسبة للتدخّل في شؤونهم.[١]

تشير التحقيقات الميدانية إلى أن الكثير من المشاكل الزوجية تأتي كنتيجة للتدخل غير المنطقي للأسر الأصلية في الأمور الخاصة بين الزوجين، أو ما يعبّر عنه بكسر حدود وحواجز الأسرة من قبل الوالدين وأقارب الزوجين.[٢] لو لم يحقق أحد الزوجين نجاحًا في مرحلة «التفرّد»، وظل محافظًا على تبعيته لأسرته الأصلية، فإن حضوره في الأسرة الجديدة سوف يكون باهتًا. إن هذا الأمر يؤدّي إلى عدم الاهتمام بواجبات الزوجية وما يترتب على الوالدين من المسؤوليات تجاه الأولاد. إن من علامات «العضوية» غير الناجحة في المنظومة التحتية للزوجين، أنه بعد ولادة الطفل، يصاب الوالدان بالاهتمام المفرط للولد، وآفة مرَضية تتعلق بدور الوالدين، ونتيجة لذلك فإنهما يعملان على بلورة الشخصية والسلوكية التبعية وغير الناضجة لدى الطفل.[٣]

الحدود الخارجية المنفصلة

إن الحدّ الخارجي المنفصل يعني التعامل الضعيف والمحدود أو عدم التعامل مع خارج منظومة الأسرة. إن الأسَر ذات الحدود الخارجية المنفصلة، تعاني من علاقات خارجية ضعيفة وغير متصلة ومن دون تعلق ومن دون شعور وإحساس بالمواساة والوفاء والإخلاص والدعم والتكافل، وكذلك الحرمان من الحماية الخارجية أيضًا. إن التعلق والشعور بالتكافل في هذا الصنف من الأسَر منخفض جدًا.

يمكن ـ من خلال التعامل بين هذين النوعين من الحدود «الداخلية والخارجية» بكيفياتها الثلاثة: «الوضوح والانعطاف، والإبهام والتعقيد، والانفصال» ـ يمكن تصوّر تسعة حدود للأسرة، حيث تعدّ الأسرة ذات الحدود الداخلية والخارجية الواضحة والمرنة من وجهة نظر علماء النفس من أفضل الأسر وأكثرها نجاحًا.

---

١. كياني، و آخرون، «أبعاد جهت گيرى مذهبى و مرزهاى ارتباطى خانواده: يک همبستگى بنيادى»، ص ١٠٢.

٢. هنريان، يونسي، «بررسي علل طلاق در دادگاه هاى خانواده تهران»، ص ١٣٠.

٣. توزنده جاني، كمال پور، خانواده درمانى، نظام تعاملى چندگانه.

تقييم ونقد الحدود في علم النفس

إن الاتجـاه البنيوي قد واجه في غاياته المحددة وتوجيهاته الهادفة والمخططة للأنظمة، إلى حدّ ما طريقًا مسدودًا. إن من بين أكبر التحديات الماثلة في طريق هذا الاتجاه، هو السؤال القائـل: من هو الذي يمتلك القـدرة والصلاحية لتعيين الحدود للأسـرة؟ فما هي المعايير والحدود التي يمكن تشـخيصها ووصفها بحيث لا تكون في حدّ ذاتها من نتائج ومخرجات التوافقات الاجتماعية؟[١] ثم إن مفردة «الحد» في هذا الاتجاه تعدّ مصطلحًا استعاريًا.[٢]

إن هـذا الاتجاه قد تبلور في النسـيج الثقافي – الاجتماعي لـدى الآخر، ومن هنا كانت مبانيه العامة والخاصة مخالفة للمباني الإسـلامية، ولهذا السـبب فـإن تطابق مضامينها مع الشروط العقائدية والداخلية لنا ليس مطلقًا.[٣] إن علم النفس المعاصر لم يدرس كيفية تبلور وانحلال الأسـرة، بل وهناك منهم من لا يرى قرابة أفراد الأسـرة ضروريًا أيضًا. في حين أن القرآن الكريم قد وضع قوانين خاصة لكيفية وكمية وشـرائط الزواج وبناء الأسرة، بالإضافة إلـى القوانين الخاصة التي أقرّها لانحلال الأسـرة والانفصال بيـن الزوجين في حالة عدم الالتزام بالحدود الإلهية.[٤]

إن بعـض مبانـي هذا الاتجـاه عبارة عـن: محورية الإنسـان، والعلمانيـة، والفردانية، والتجريبية. إن البنيويين ينظرون إلى الدين بوصفه مجرّد وسـيلة لعلاج الأسَر فقط.[٥] يذهب مينوتشـين إلى الاعتقاد بأنه لو أن أسرة كانت تعرف بعض الأمور الأخلاقية من قبيل الأوامر الإلهية، وجب إلزامها بحلّ المشـكلة بهذه الطريقة.[٦] وعلى الرغم من إعلامهم أن رسالتهم

١. شليبه، وشوايتزر، آموزش درمان و مشاوره سيستمي، ص ٧٣٦.
٢. م.ن، ص ٨٤.
٣. م.ن، ص ١٣.
٤. البقرة: ٢٢٩.
٥. سالاری فر، خانواده در نگرش اسلام و روان شناسی، ص ١١٠.
٦. مينوجين، خانواده و خانواده درمانی، ص ٢١٥.

عبارة عن توجيه الأسرة من الحالة غير العملانية إلى الحال العملانية،[١] بيد أن عدم الاهتمام بالدين والتعاليم السماوية هي المهيمنة على توجههم.

بنظرة عابرة إلى التعاليم الإسلامية يمكن لنا أن ندرك أن الإسلام قد اهتم بجميع الأبعاد الفردية والأسرية والاجتماعية.[٢] إن مرجع كل شيء في الرؤية التوحيدية يعود إلى الله سبحانه وتعالى، ويتحرّك في مساره إليه،[٣] وإن الأسرة تمثل حاضنة لتطوير الذات وتنميتها.[٤] كما أن الرسالة والأهداف المتوسّطة والغائية بدورها إلهية بالكامل؛ وعلى هذا الأساس فإن الحدود وسائر عناصر الأسرة هي الأخرى سوف تكون إلهية أيضًا.

إن الاتجاه البنيوي قد تجاهل الأسرة، وإلهية الإنسان وكونه كائنًا ذا بُعدين،[٥] وهدفية الخلق،[٦] وخلود الإنسان،[٧] وما إلى ذلك. هذا في حين أن العالم المعاصر أحوج من أيّ وقت مضى إلى الدور المحوري للإيمان والمعنويات في حياته الفردية والأسرية والاجتماعية.[٨]

إن الإسلام يعتبر الأسرة منشأ للكمالات المعنوية، والحصول على السكينة، واستمرار النسل والذرية، والطهر والعفاف، والأمن الاجتماعي وما إلى ذلك.[٩] وإن مرتبة من النضج والعنفوان لا يمكن الحصول عليها إلا في كنف الأسرة؛[١٠] ولكنه في الوقت نفسه لا يقبل بحصرية أسباب الكمال والضلال أو الأمراض الفردية في الأسرة وبنيتها، ويرى أن أفعال

---

١. شليبه، وشوايتزر، آموزش درمان و مشاوره سيستمى، ص ٣٦.
٢. النحل: ٨٩.
٣. البقرة: ١١٥، و١٥٦، و٢١٠.
٤. المطهري، تعليم و تربيت در اسلام، ص ٣٨٩.
٥. الفجر: ٢٩؛ التحريم: ١٢؛ ص: ٧٢.
٦. المؤمنون: ١١٥.
٧. الزلزال: ٧ـ٨.
٨. سالاري فر، خانواده در نگرش اسلام و روان شناسى، ص ٧٥.
٩. الروم: ٢١.
١٠. المطهري، تعليم و تربيت در اسلام، ص ٣٨٩.

الإنسان وردود أفعاله منبثقة عن عامل الوراثة والبيئة والتربية وعنصر الإرادة والاختيار لديه.[١]

في الاتجاه البنيوي للأسرة، تُعدّ الحدود خطوطًا غير مرئية، ومجرّد نفسيه وآلية وافتراضية وتعاقدية؛[٢] وأما في الرؤية القرآنية، فيُعدّ حق الإلزام وتعيين الحدود بيد الله سبحانه وتعالى،[٣] كما في قوله تعالى: ﴿ .. لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾.[٤] وحيث أن خالق كل أثر هو الأعلم بظروف الاستفادة الأمثل والأكمل منه، فإنه يجب الاعتقاد بالدليل العقلي أن أحكام خالق الإنسان وحدوده التي وضعها لتعامله الأسري والاجتماعي للبشر، هي من أفضل الأحكام والحدود. إن المراد من الأمر في الآية أعلاه، عبارة عن القوانين والأنظمة التي تسود عالم الوجود بأمر الله، ويعمل على هدايتها في مسارها الخاص.[٥] وإن تدبير ونظم صفات وأفعال المخلوقات من مختصات الحق تعالى.[٦] إن الأوامر والنواهي الإلهية تدور مدار الحكمة الحقيقية والواقعية والذاتية، ومن هنا يكون لها أثر وضعي.[٧] إن الحدود الأسرية من وجهة نظر القرآ الكريم، عبارة عن الأوامر والنواهي الاعتقادية والأخلاقية والسلوكية الناظرة إلى البُعد الأسري للإنسان حيث يكون لها بأجمعها جعل إلهي ناظر إلى الواقع وقد تمّ رسمها في مسار الكمال الحقيقي للإنسان، وإن هذا الجعل هو جعل تكويني إلهي وليس مجرد تعاقد بشري.[٨] إن الحدود الأسرية في الاتجاه الإسلامي عبارة عن: الواجبات والمحظورات الواقعية التي تمّ وضعها من قبل الله سبحانه وتعالى في إطار الوصول إلى الكمال المطلوب. إن الحدود الرؤيوية والقيميّة والسلوكية ناظرة إلى الواقع، وقد تمّ رسمها

---

١. بی ریا، روان شناسی رشد با نگرش به منابع اسلامی.

٢. مینوجین، خانواده و خانواده درمانی، ص ٢٤٣؛ بارکر، خانواده درمانی پایه، ص ١١٠.

٣. آل عمران: ١٥٣؛ یونس: ٣ و٣١.

٤. الأعراف: ٥٤.

٥. مكارم شيرازي، تفسير نمونه، ج ٦، ص ٢٠٨.

٦. الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ٨، ص ١٨٩.

٧. حسيني شاه عبد العظيمي، تفسير اثنا عشري، ج ١، ص ٣١٨.

٨. نور مفيدي، نگاه اسلام به خانواده، ص ٤٢٠.

على أساس المصالح والمفاسد الواقعية.[١]

وكما سبق أن ذكرنا فإن سلفادور مينوتشين يرى أن سبب الاختلافات في الأسرة يعود إلى الحدود غير المعيارية وأن علاج هذه الخلافات يكمن في تعيين الحدود الأسرية، وأطلق على المعالجين للأسرة عنوان «صنّاع الحدود»؛ إلا أن القرآن الكريم قال بأن جذور الآفات الأسرية تكمن في البُعد عن ذكر الله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾.[٢] إن الطريق إلى مواجهة التعارضات والأزمات ـ من وجهة نظر القرآن الكريم ـ يكمن في التوبة والرجوع إلى الله،[٣] والتوجّه إليه،[٤] ورعاية التقوى.[٥] إن الله سبحانه وتعالى في خصوص حل الاختلافات الأسرية، قد دعا الزوج والزوجة إلى الصلح والعفو،[٦] والمعاشرة بالمعروف،[٧] وألزم الزوجة بالتبعية لزوجها.[٨]

إن التقييم في الاتجاه الغربي «محوري المعيار»،[٩] وقد ذهب سلفادور مينوتشين إلى القول بأن ملاك التقييم والمعيارية عبارة عن وضوح ومرونة الحدود، وهي أمور تعاقدية بأجمعها. وأما في الرؤية الإلهية فإن التقييم يقوم على «محورية المعيار» وعلى أساس التناغم مع ملاكات الأخلاق والقوانين الإلهية وفي إطار الكمال المطلوب.[١٠] يذهب علم النفس إلى الاعتقاد بأن الأسرة ذات الحدود الداخلية والخارجية الواضحة والمرنة من أفضل وأنجع الأسَر، وأما من وجهة نظر الإسلام فإن لتعيين كمية وكيفية الحدود والثغور بدوره جعلًا إلهيًا، وله قوانينه الخاصة.

---

١. مصباح، نظام انديشه اسلامي در مصاف با چالش هاي معاصر.

٢. طه: ١٢٤.

٣. هود: ٣، و٥٢.

٤. الرعد: ٢٨.

٥. الطلاق: ٥.

٦. النساء: ١٢٨.

٧. النساء: ١٩؛ البقرة: ٢٢٨.

٨. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ١٤.

٩. كاوياني، روان سنجي از ديدگاه قرآن.

١٠. شجاعي، وحيدري، نظريه هاى انسان سالم با نگرش به منابع اسلامى.

إن بنيــة القدرة التي هي من الركائز الأساســية لحدود وجدوائية الأســر، هي من وجهة نظرهم رهــن بالعقود الأســرية، والمقبولية والموقعيــات والأفضليات المادية والدراســية والاجتماعية وما إلى ذلك. وأما الإســلام فقد جعــل الرجل هو صاحب القدرة،[١] وقد اعتبر هذه القدرة غير قابلة للنقل.

لقد ذهب سلفادور مينوتشين ومساعدوه إلى التأكيد بشكل مفرط على دور بنية الأسرة، واعتبار سلوك كل فرد من أفراد الأسرة تابعًا ومتفرّعًا عن سلوكيات سائر الأفراد،[٢] وتجاهل العوامل الوراثية والبيئية. يقول ســلفادور مينوتشــين في هذا الشــأن: إن هــذا يُعدّ من طبيعة التحقيــق، حيث يتمّ التعمّق في جانب خاص، بيد أن هذا الخوض في أحد الأبعاد يؤدّي إلى تجاهل سائر العوامل الأخرى.[٣]

إن الاتجــاه البنيوي لا يهتم بكيفية تبلور الأســرة وانحلالها، وأما في الرؤية الإســلامية فيُعــدّ تبلور وانحلال الأســرة تابعًا لقوانين وحدود خاصّة، من قبيــل: عقد الزواج والطلاق الــذي يحتوي على ضمانــة تنفيذية، وقد تمّ وضع عقوبات دنيويــة وأخروية ثقيلة على عدم الالتزام بها.

إن من بين الإشكالات الأخرى لهذه النظرية، عبارة عن اختلاف الآراء الداخلية فيها. لقد ذهب سلفادور مينوتشين إلى اعتبار الأسرة ذات الحدود المنفصلة أسرة جانحة، وأما ألسون فقد وضع هذا النوع من الأسّر في مستوى الأسَر المعتدلة.[٤]

---

١. النساء: ٣٤.

٢. مينوجين، خانواده و خانواده درمانی.

٣. م.ن، ص ٣٢١.

4.Olson, "Circumplex Model of Marital and Family Systems", p. 514.

حدود الأسرة من وجهة نظر الإسلام

إن التعاليم السماوية للإسلام تشمل جميع أبعاد حياة الإنسان.[١] وإن الأسرة وحدودها ليست استثناء من هذه الجامعية والشمولية. إن ما يفوق في نسبته الثلث من معارف الحكمة العملية يختص بتدبير الأسرة؛ حيث يحظى بالمقارنة إلى تدبير الفرد والمجتمع بمكانة ليس لها مثيل.[٢] يمكن العثور على الحد بمعناه اللغوي والاصطلاحي في البُعد المفهومي للأسرة في المصادر الدينية. فقد ورد التعبير بـ«حدود الله» في الكثير من آيات القرآن الكريم، كما ورد ذات هذا المعنى في بعض الروايات تحت عنوان «حماية الحمى» أيضًا.[٣]

لقد أمر القرآن الكريم في الكثير من الموارد جميع الناس برعاية حرمة كيان الأسرة وحدودها،[٤] بل وقد اعتبر حتى شروط الصلح بين الزوجين بعد الاختلاف والرجوع إلى بعضهما بعد الطلاق رهنًا بالتمسك بهذه الحدود والقيود.[٥] وقد ورد الوعد في موضع آخر بأن الأزواج إذا عملوا على رعاية الحدود الإلهية، فلن يكون هناك أيّ خطر يهدد كيان الأسرة.[٦]

إن الأوامر والنواهي والمباحات الإلهية، عبارة عن حدود عقائدية وأخلاقية وسلوكية، تعمل ـ من خلال تنظيم الحياة الدنيوية ـ على توفير الأرضية لتكامل الإنسان وسعادته. إن القرآن الكريم يدعو الإنسان إلى الحياة ضمن دائرة هذه الحدود.[٧] إن التقوى وعدم اتباع الهوى يعني في الحقيقة كبح الشهوات والتمسّك بالأطر والحدود الإلهية.

إن ذلك الجزء من التعاليم الدينية الذي تمّ بيانه في المصادر الإسلامية لغرض تنظيم وتكامل الأسرة وأفرادها، هو الذي يمثّل حدود الأسرة. وبعبارة أخرى: إن المراد من حدود

---

١. الأنعام: ٥٩.

٢. البروجردي، منابع فقه شيعه، ج ٢٥، ص ٨.

٣. مكارم شيرازي، تفسير نمونه، ج ١، ص ٦٥٣، وج ٢، ص ١٧٢.

٤. التحريم: ٦.

٥. البقرة: ٢٣٠، و٢٣٢.

٦. البقرة: ١٠٢.

٧. النازعات: ٣٧ ـ ٤١.

الأسـرة في الرؤية الإسـلامية، عبارة عن: جميـع الحدود والقيود الإلزاميـة وغير الإلزامية (الضـرورات والواجبـات) الموجودة في تعاليم الإسـلام بوصفه من آخـر وأكمل الأديان والشرائع السماوية لتكامل الإنسـان في مورد الأسرة (قوانين الأسرة في تعامل أفرادها فيما بينهم ومع الآخرين في الخارج). وحيث تنقسـم التعاليم الإسلامية إلى ثلاثة أقسام «العقائد والأخلاق والأحكام»، فإن حدود الأسـرة بدورها تنقسـم إلى ثلاثة أنـواع وهي: (الحدود الاعتقادية والأخلاقية والسلوكية)، كما يمكن تقسيمها من الناحية الكيفية إلى نوعين، وهما: «الحدود الإلزامية غيـر المرنة، والحدود الإلزامية المرنة». كمـا أن كيفية وكمية التعاملات الداخلية والخارجية للأسرة بدورها ترسم في إطار هذه الحدود أيضًا. وفيما يلي سوف نشير إلى بعض أهم حدود الأسرة من وجهة نظر الإسلام.

أ. الحدود الجامعة

إن بعض الحدود المذكورة في التعاليم الإسلامية إنما تأتي في مورد مجموع نظام الأسرة، ولا يختص ببُعدها الداخلي أو الخارجي، ومن هنا يتمّ بيانها تحت عنوان الحدود الجامعة.

١. تقدم الارتباط الديني على الارتباط النسَبي

إن من بين الأصول الإسـلامية التقدمية عبارة عن عضوية وفكّ عُرى الارتباط الأسـري بمعيار «طاعة الله». إن الله سبحانه وتعالى يبين في القرآن الكريم واحدًا من أسمى الدروس الإنسـانية والتربوية، حيث لا نجد لها أيّ مفهوم في المـدارس المادية مطلقًا، ألا وهو تقدّم الارتباط الديني على الارتباط النسَـبي والقبَلي.[١] إن العلاقات المادية في الأديان السـماوية خاضعـة على الدوام للعلاقات المعنويـة. إن نجل نبيّ كبير من أولي العـزم مثل النبي نوح عليه السلام، يتـمّ طرده بفعل انفصاله الدينـي عن والده، بحيث يتم التعبير عنـه بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾.[٢] إن رباط الزوجية الذي يقوم ـ من وجهة نظر القرآن الكريم ـ على أسـاس

١. هود: ٤٦.

٢. مكارم شيرازي، تفسير نمونه، ج ٩، ص ١١٩.

الدين ورعاية الحدود والأحكام الإلهية، لن تنفصل عُراه حتى بالموت، بل وسوف يستمرّ هذا الرباط حتى إلى الجنة؛ حيث سيجمع الله بين المؤمنين وأزواجهم يوم القيامة.[١] ومن ناحية أخرى فإن الأشخاص الذين يقدمون زوجاتهم وأولادهم وأموالهم على الله ورسوله وامتثال التكاليف الإلهية، فقد تمّ وصفهم بالفاسقين، وتم تهديدهم بالعذاب الإلهي.[٢] إن هذا الأمر لا يعني الانفصال عن العلاقات العاطفية والمحبة تجاه الأزواج والأولاد والأهل وذوي القرابة والرحم، والدعوة إلى التخلي عن العواطف الإنسانية، بل المراد منه هو أن على الإنسان إذا وقف على مفترق طريقين أن لا يتخلى عن تطبيق الأحكام الإلهية فداء لحبّه لزوجته وأولاده وبيته وأسرته.[٣]

وعلى هذا الأساس يكون ملاك «العضوية والخروج» من منظومة الأسرة واحدًا من الاختلافات الجوهرية بين الإسلام وعلم النفس. إن الاتجاه البنيوي للأسرة لم يُشر إلى خروج الأفراد من عضوية هذه المنظومة التحتية، وأما في الإسلام فقد تمّ اعتبار الخروج من الدين خروجًا من هذه المنظومة. ومن ناحية أخرى فإن العضوية والانتساب إلى منظومة الأسرة في الإسلام بالإضافة إلى الولادة، يمكن أن تتحقق من طريق الرضاع والتبنّي أيضًا؛ وعلى هذا الأساس فإن أول الحدود في الاتجاه الإسلامي وأشملها تكمن في «طاعة الله» عزّ وجل.

٢. تكوين وانحلال الأسرة

إن كيفية وتكوين وانحلال الأسرة، يُعد واحد من الحدود المهمّة الأخرى في هذا الشأن. لقد اعتبر القرآن الكريم كيفية تبلور الأسرة في عقد الزواج،[٤] وكيفية انحلالها في الطلاق أو

---

١. الرعد: ٢٣؛ غافر: ٨.

٢. التوبة: ٢٤.

٣. مكارم شيرازي، تفسير نمونه، ج ٧، ص ٣٣٥.

٤. النور: ٣٢؛ الأحزاب: ٤٩؛ النساء: ٢٤.

فسخ عقد الزواج،[١] ولكل واحد من هذين الموردين شرائطه الخاصة.[٢] لقد بيّن القرآن الكريم الطرق المعرفية والسلوكية لاستحكام الأسرة والوصول إلى الحياة السعيدة على النحو الآتي: الإيمان،[٣] والتقوى،[٤] والتوجّه الدائم إلى الله سبحانه وتعالى،[٥] وذكر الله،[٦] والالتزام العملي بالحدود والأحكام الإلهية،[٧] ورعاية الحقوق والوظائف المتبادلة،[٨] ورعاية الرجل لحقوق المرأة،[٩] ورعاية المرأة لحقوق الرجل.[١٠] إن هذه العوامل والعناصر المذكورة أعلاه تؤدي إلى إحلال السكينة النفسية والروحية بين الزوجين،[١١] والمحبة المتبادلة بينهما،[١٢] وحلّ الاختلافات والتغاضي عن السيئات وغض الطرف عن نقاط الضعف،[١٣] ممّا يمكنه أن يساعد على تعزيز الحدود، وأن يؤدّي إلى تحقق السعادة بين الزوجين[١٤] في نهاية المطاف.[١٥]

---

١. البقرة: ٢٢٩ ـ ٢٤١؛ الطلاق: ١.
٢. الخميني، توضيح المسائل، المسألة: ٢٣٦٣ ـ ٢٤٧٠.
٣. النحل: ٩٧.
٤. الطلاق: ٢ ـ ٤.
٥. طه: ١٢٤.
٦. الرعد: ٢٨.
٧. النساء: ١٧٣؛ الرعد: ٢٩؛ النحل: ٩٧.
٨. البقرة: ٢٢٧ ـ ٢٢٨، و٢٣٤؛ النساء: ١٩، و١٧٣؛ الكهف: ١١٠.
٩. البقرة: ٣٤؛ النساء: ١٩.
١٠. النساء: ٣٤.
١١. طه: ١١٢؛ البقرة: ٦٢.
١٢. مريم: ٩٦.
١٣. الفرقان: ٧٠.
١٤. القصص: ٦٧.
١٥. مصطفوي، بهشت خانواده.

٣. حريم البيت والأسرة

إن للبيت والمنزل في التعاليم الإسلامية ـ تبعًا لموقع الأسرة ـ أهمية كبيرة، وإن الدخول إلى بيوت الآخرين رهن بالحصول على إذن أصحابها؛ إذ يقول تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** ﴾.[١] لقد وضع الإسلام عقوبات صارمة على اقتحام البيوت دون إذن من أهلها أو التلصص على حريم بيوت الآخرين خفية.[٢] وحتى دخول الأبوين إلى بيوت أولادهما أو دخول الأولاد إلى بيت الوالدين ينبغي ـ طبقًا لتعاليم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ـ أن يكون بعد الحصول على الإذن من القاطنين فيه.[٣]

ب. الحدود الداخلية للأسرة

إن تلك الطائفة من التعاليم القرآنية والروائية الناظرة إلى تنظيم علاقة المنظومات والتعاملات بين أعضاء الأسرة، يندرج تحت عنوان الحدود الداخلية للأسرة. وإن حريم العلاقة بين الزوجين، وبين الوالدين والأولاد، والعلاقة فيما بين الأولاد أنفسهم، وعلاقة الأولاد السببيين بسائر الأولاد النسبيين وما إلى ذلك، تعدّ من هذا النوع، حيث سنأتي على بيانها باختصار.

١. حدود المنظومة الزوجية

لقد اهتم القرآن الكريم بالمنظومة الزوجية وحدودها بوصفها المنظومة الأوّلى بما تشتمل عليه من الحدود الداخلية للأسرة، وعند بيان أحكامها وحدودها أشاد بهذه المنظومة

---

١. النور: ٢٧ ـ ٢٨. وانظر أيضًا: البقرة: ١٨٩.

٢. مكارم شيرازي، تفسير نمونه، ج ١٤، ص ٤٣٤.

٣. الكليني، الكافي، ج ٥، ص ٥٢٨.

المقدسة من خلال توظيف أدق العبارات والألفاظ من قبيل: «اللباس» و«الرفث».[١] إن وجود ما يقرب من ستين آية في القرآن الكريم حول موضوع الزوجين يحكي عن الأهمية الكبيرة لهذه المنظومة المقدسة في التفكير السماوي للقرآن الكريم. إن الحدود الأهم في المنظومة الزوجية هي أن تقتصر العلاقة الجنسية بين الزوجين فقط،[٢] وأن لا يتم تجاوز الحدود الشرعية في هذا الشأن.[٣] ولم يتمّ المنع في الشريعة الإسلامية من بين الأنواع المتعددة للعلاقات الجنسية إلا من أربعة وثلاثين نوعًا؛ حيث ورد المنع من سبعة عشر نوعًا منها في القرآن الكريم، وورد المنع من سبعة عشر نوعًا آخر منها في السنة الشريفة.[٤]

إن من جملة هذه الحدود المهمّة بين الزوجين عبارة عن «الزمان والمكان الخاص». يُستفاد من بعض آيات القرآن الكريم بالدلالة الالتزامية أن الزوجين بحاجة مستمرة إلى الاختلاء ببعضهما. ومن هنا يجدر بالأزواج أن يكون لهما مكان يخصّهما، بحيث لا يحق لسائر أفراد الأسرة أن يقتحموا هذا المكان والحدّ إلا في ثلاثة أوقات من اليوم والليلة بعد الحصول على الإذن من الزوجين؛ كما ورد ذلك في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾.[٥] يُعد الالتزام بهذا الحدّ والحريم الواضح للزوجين أمرًا ضروريًا لإشباع الحاجة النفسية والجنسية، والحصول على الدعم العاطفي المتبادل بين الطرفين، والتعامل واتخاذ القرارات بينهما وحل المشاكل الخاصّة بهما. وذلك لأن آثار الزوجية وفوائدها، من قبيل

١. الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ٢، ص ٦٥.
٢. المؤمنون: ٥ ـ ٦؛ المعارج: ٢٩ ـ ٣٠.
٣. الشعراء: ١٦٦.
٤. ابن بابويه، الخصال، ج ٢، ص ٦٣٣.
٥. النور: ٥٨.

السكن والدفء،[١] والستر،[٢] والفرح والرضا،[٣] لا تتحقق إلا في ظل هذا النوع من الحدود.

وفي التعاليم الإسلامية بالإضافة إلى حدود المنظومات، هناك حدود تمّ رسمها بين أعضاء المنظومات التحتية أيضًا. ومن هنا توجد حدود داخل المنظومة التحتية للزوجين أيضًا؛ حيث يجب على الأزواج أن يلتزموا بها. بالإضافة إلى الأحكام الشرعية والأخلاقية الناظرة إلى التعامل بين الأفراد، من قبيل: حرمة الغيبة والكذب والتهمة والإهانة والاحتقار، فإن سائر التعاليم الإسلامية الواردة في مورد العلاقات بين الزوجين بشكل خاص هي بأجمعها من هذا النوع أيضًا، وهي موارد من قبيل: حفظ الأسرار الخاصة بين الأزواج، وعدم نقل الزوجين لصفات المحارم من الرجال والنساء لبعضهما، وحفظ الاحترام المتبادل بين الزوجين بحضور الأولاد، والحقوق الواجبة على الأزواج.

إن حرمة الظهار واللعان، وامتناع الزوج من المقاربة الجنسية مع زوجته لأكثر من أربعة أشهر مع رغبتها، وامتناع الزوجة عن إقامة العلاقة مع زوجها عند مطالبته بذلك، وحرمة إقامة العلاقة الجنسية في أيام الدورة الشهرية، وفي أيام الصوم، وممارسة العلاقة الجنسية بحضور الناظر حتى إذا كان طفلًا، وإفشاء تفاصيل العلاقة الجنسية للآخرين، وممارسة العلاقة الجنسية بشكل غير طبيعي فيما لو امتنع أحد الزوجين عن ذلك، كل ذلك يُعدّ من الحدود الإلزامية في المنظومة الزوجية. إن حقوق الأزواج غير الإلزامية وسائر الأحكام الشرعية والأخلاقية المناسبة وغير المناسبة الناظرة إلى التعامل العادي والعلاقات الجنسية بين الزوجين تعدّ من بين الحدود غير الإلزامية المنعطفة للمنظومة الزوجية.

---

١. الروم: ٢١؛ الأعراف: ١٨٩.

٢. البقرة: ١٨٧.

٣. الفرقان: ٧٤.

٢. حدود المنظومة التحتية للأولاد

على الرغم من أن الأخوات في الرضاعة يُعتبرن من المحارم، ولكن هناك بينهن وبين إخوتهن من الرضاعة بعض الحدود والقيود التي يُعد من بينها ما هو إلزامي غير منعطف ومنها ما هو غير إلزامي منعطف. إن حرمة التلامس الجسدي الذي ينطوي على مفسدة أو الذي يقترن بالشهوة، والنظر إلى بعض المواضع الخاصة من الجسد، وإفشاء الأسرار وسائر الأحكام الأخلاقية يُعدّ بأجمعه من الحدود الإلزامية غير المنعطفة في المنظومة التحتية للأولاد. وإن موارد من قبيل الدخول إلى الحريم الخاص والاستفادة من الوسائل الشخصية للآخرين مما يتوقف على حصول الإذن والرضا، تُعدّ من بين الحدود غير الإلزامية المنعطفة. وبالإضافة إلى الأولاد النسبيين، فقد تمّ تأييد عضوية الأولاد الرضاعيين[١] من قبل الإسلام أيضًا، حيث ورد في الحديث: «خير بيوتكم بيت فيه يتيم يُحسن إليه، وشرّ بيوتكم بيت يُساء إليه».[٢] إن المتبنّى وإن لم يكن له من الناحية الفقهية حكم الولد الحقيقي، إلا أن الولاية عليه ورعايته لا تتوقف على المحرمية أو سائر الأحكام الخاصة بالأولاد، ويمكن العمل ـ من خلال التدابير الخاصة ورعاية الحدود والموازين الشرعية والأخلاقية[٣] ـ على رفع هذه المشاكل.[٤] إن هذه التدابير والقوانين الخاصة تعمل على بيان الحدود بين الأولاد النسبيين أو الرضاعيين أو الأولاد الذين تم تبنّيهم.

٣. حدود منظومة الوالدين / الأولاد

إن الحدود والقوانين الشرعية والأخلاقية أو الواجبات والضرورات الناظرة إلى تنظيم التعامل بين الوالدين والأولاد، هي التي تشكل حدود المنظومة التحتية للوالدين والأولاد. لقد تمّ الاهتمام في التعاليم الإسلامية بحدود الأولاد وتعاملهم مع والديهم بشكل خاص.

---

١. النساء: ٢٣؛ مكارم شيرازي، تفسير نمونه؛ الخميني، توضيح المسائل، المسألة رقم: ٢١٠٨.
٢. النوري، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ج ٢، ص ٤٧٤.
٣. الإمام الخميني، توضيح المسائل، المسألة رقم: ٢٤٦٤.
٤. مكارم شيرازي، تفسير نمونه، ص ١٠٣.

فقد ورد في الأحاديث أن الأولاد عند بلوغهم سن التمييز (معرفة الحسن من القبيح) يجب عليهم الاستئذان من الوالدين عند الدخول عليهم،[١] وأن يتمّ فصل فراش نومهم عن فراش الأب والأم.[٢]

إن كيفية وحجم اهتمام ومحبة الوالدين لأولادهم، والثياب المناسبة للوالدين بحضور أولادهم المميزين، وثياب الأولاد بحضور الوالدين، وعدم اطلاع الأولاد على العلاقة الجنسية بين الوالدين، واجتناب المعانقة وتقبيل الوالد لشفتي بنته الصغيرة وتقبيل الأم لشفتي ولدها الصغير، والتكلم باحترام، وتجنّب العنف والقسوة، وتلبية الاحتياجات الجسدية والنفسة والعاطفية وسائر الاحتياجات الأصلية للأولاد من قبل الوالدين، ورعاية الحقوق الواجبة والمستحبة (الإلزامية غير المنعطفة، وغير الإلزامية المنعطفة) للوالدين على الأولاد، يُعدّ بأجمعه من مصاديق حدود العلاقة بين الوالدين والأولاد.

١. النور: ٥٩.

٢. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ١٧١.

ج. الحدود الخارجية للأسرة

إن الإنسان كائن اجتماعي بالفطرة، ومن هنا كانت جميع شؤونه اجتماعية. ولا شك في أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي أقام دعائمه على أساس المجتمع، وقد بيّن هذا المعنى صراحة. ومن هنا فإن الإسلام لم يُهمل أيّ شأن من الشؤون الاجتماعية للإنسان ابدًا.[١] إن تلك المجموعة من المفاهيم الإسلامية الناظرة إلى تنظيم علاقة المنظومة الأسرية وأفرادها مع المجتمع، تندرج تحت عنوان الحدود الخارجية للأسرة.

لقد أوجب الله سبحانه وتعالى الحفاظ على الأسرة بوصفها ملاذًا للإنسان في حياته الاجتماعية، وجعل من فرض العقوبات القاسية ضمانة تنفيذية في هذا الشأن. إن الإسلام كما فرض بعض العقوبات على من يرتكب الأعمال المنافية للعفة، فرض كذلك بعض العقوبات على من يتهم المؤمنين والمؤمنات بمثل هذه الأعمال، وذلك لأن هذه التهم بدورها تعدّ نوعًا من الاعتداء على سلامة الأسرة، وإن المجتمع الذي تسقط فيه قيمة الأسرة ينجرف نحو مستنقع المفاسد والفحشاء بسهولة.[٢] وعلى هذا الأساس فإن حفظ حرمة الأسرة من قبل الآخرين يُعدّ واحدًا من حدودها الخارجية.

وإن كيفية وكمية أنواع التعامل الخارجي لأفراد الأسرة، والأحكام الشرعية والأخلاقية الواجبة والناظرة إلى أنواع تعامل أفراد الأسرة مع الأرحام والأقارب والأصدقاء والجيران وسائر الأجانب، يندرج بأجمعه ضمن الحدود الخارجية للأسرة. إن مصادرنا الدينية زاخرة بالمفاهيم والتعاليم التي تدعو الأشخاص إلى التعاون والتكافل، وحبّ الخير، ومدّ يد العون إلى الآخرين، والإنفاق في سبيل الله، والإحسان، وصلة الأرحام والأقارب والأصدقاء والفقراء ونظائرهم، الأمر الذي من شأنه أن يحول دون انفصال الأسرة عن المجتمع.[٣]

إن من بين الحدود المهمّة للأسرة، هو الدخول إلى البيت والخروج منه. فقد ورد في

---

١. الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ٤، ص ١٥٠ ـ ٢٠٠.

٢. المدرسي، تفسير هدايت، ج ٨، ص ٢٥٥.

٣. هوشياري، وآخرون، «تحليل مبانى فقهى و كاركردهاى روان شناختى صله رحم».

الروايات،[١] وفي تفاسير القرآن الكريم،[٢] وفتاوى فقهاء الشيعة،[٣] أن دخول وخروج أفراد الأسرة وذهابهم إلى السفر، ودخول الآخرين على الأسرة، يجب أن يكون بإذن وعلم والد الأسرة. إن لهذه الأحكام جعل إلهي في إطار الدور والحدّ الإداري والقيمومية الثابتة للأب،[٤] وهي غير قابلة للنقل عنه إلى الآخرين،[٥] كما ورد في بعض المصادر.[٦] أن تشبّث أفراد الأسرة بهذا الحدّ، وعدم الدخول فيه وتجاوزه يؤدي إلى رفع مستوى نجاعة الأسرة وجدوائيتها.[٧] إن سلسلة مراتب الحجاب والحدود الإلزامية وغير الإلزامية في التعامل بين الرجال والنساء، تعدّ من بين الحدود الداخلية والخارجية للأسرة. لقد بيّن الإسلام حدودًا للحجاب والنظر،[٨] والتماسّ الجسدي،[٩] والمزاح،[١٠] والخلوة والاتصال الجنسي،[١١] وسائر التصرّفات بين الرجال والنساء، ويأمر بعدم ارتكاب الأمور التي تثير الشهوة الجنسية عند التعامل مع الجنس المخالف،[١٢] والاكتفاء بالمقدار الضروري عند اللزوم.[١٣] إن جميع هذه الحدود ترد في إطار تقوية وتعزيز نظام الأسرة ومنظوماتها، والحيلولة دون الآفات الأسرية.

لقد رأى القرآن الكريم أن الإيمان بالله ويوم القيامة يُشكّل مقدمة للتمسّك بحدود الأسرة،[١٤] وعرّف بهذا النوع من الأسَر بوصفها نموذجًا عمليًا للمتقين في الحياة الأسرية

---

١. نهج البلاغة، الكتاب رقم: ٣١؛ إبن ابى‌فراس، مجموعة ورام، ج ١، ص ٦.
٢. مكارم شيرازي، تفسير نمونه، ج ٣، ص ٣٧٠؛ الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ٢٤.
٣. بني هاشمي خميني، توضيح المسائل مراجع.
٤. النساء: ٣٤.
٥. «... سأل [الراوي] أبا جعفر [عليه السلام] فقال: رجل قال لامرأته: أمرك بيدك؟ قال [عليه السلام]: أنّى يكون هذا، والله يقول: (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ)؟ ليس هذا بشيء». الطوسي، تهذيب الأحكام، ج ٨، ص ٨٨.
٦. الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ٤، ص ٥٥٢.
٧. يونسي، مديريت روابط زناشوئى آسيب ها و راه حل ها، ص ١٥.
٨. المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٠١، ص ٣٤.
٩. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ٢٩.
١٠. م.ن، ج ٢٠، ص ١٩٨.
١١. النوري، المستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ج ١، ص ٣٨٥.
١٢. النور: ٣٠ ـ ٣١.
١٣. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ١٤٣.
١٤. البقرة: ٢٣٢.

والاجتماعية.[١]

النتيجة

لقد أثبتت دراسة الحدود في الرؤية البنيوية ومؤلفات الشخصيات البارزة في هذه المدرسة، أن الأسرة في الإسلام بالإضافة إلى أمور من قبيل: منزلة الأسرة، والمباني، والأهداف، وأساليب التقييم والعلاج، والتبلور والانحلال، وإلهية وواقعية الحدود، تلعب دورًا مهمًا ومتميّزًا في الرؤية البنيوية.

إن الأسرة في الرؤية الإسلامية عبارة عن كيان مقدّس يقوم على أساس الزواج بين رجل وامرأة واحدة في الحدّ الأدنى، ويشتمل في الكثير من الموارد في الحدّ الأدنى على صنف من الأولاد النسبيين أو الرضاعيين أو الذين تمّ تبنيهم، ولها آليات وضعية ووظائفية، ويترتب على ذلك مسار التكامل الفردي والاجتماعي.

إن الاتجاه البنيوي المتأثر بنظريات محورية الإنسان، والعلمانية، والفردانية، والتجريبية، ينظر إلى الدين والأخلاق برؤية آلية، وأما في الرؤية القرآنية فإن المحورية تكون لله سبحانه وتعالى، وإن الدين يشمل جميع الأبعاد الفردية والأسرية والاجتماعية لحياة الإنسان، وتعدّ هي الرؤية الأجمع للحدود والدين والطاعة والحدود الإلهية.

في الاتجاه البنيوي للأسرة، تُعدّ الحدود خطوطًا غير مرئية، ومجرّد نفسيه وآلية وافتراضية وتعاقدية. إن سبب الاختلافات في الأسرة يعود إلى الحدود غير المعيارية وأن علاج هذه الخلافات يكمن في تعيين الحدود الأسرية. تُعدّ الأسرة في الاتجاه الإسلامي منظومة مقدسة لها حدودها وعناصرها التي تتمحور حول الله والمفهوم الإلهي. إن المراد من حدود الأسرة في الرؤية الإسلامية، عبارة عن: جميع الحدود والقيود الإلزامية وغير الإلزامية (الضرورات والواجبات) الصادرة من قبل الله سبحانه وتعالى وأئمة الدين في مورد الأسرة (قوانين الأسرة في تعامل أفرادها فيما بينهم ومع الآخرين في الخارج). إن الحدود

١. الفرقان: ٧٤.

الإلهيــة تدور مدار الحكمة الواقعية والذاتية ولها جعل إلهي. لقد تم تصوير الحدود في علم النفس بين المنظومات التحتية فقط، وأما في الرؤية الإسلامي فإن هناك حدودًا حتى بين أفراد المنظومات التحتية أيضًا.

في علم النفس المعاصر لا يوجد هناك اهتمام بكيفية تبلور الأســرة وانحلالها، وأما في الرؤية الإســلامية فيُعدّ تبلور وانحلال الأســرة تابعًا لقوانين وحدود خاصّة، من قبيل: عقد الزواج والطلاق الذي يحتوي بأجمعه على ضمانة تنفيذية.

إن التقييــم في هــذا الاتجاه يتمحور حــول المعايير، وإن الملاك فــي التقييم عبارة عن وضوح ومرونة الحدود؛ وأما في الرؤية الدينية فإن التقييم يتمحور حول المعيار ويقوم على أساس التماهي والانسجام مع الملاكات الإلهية.

يمكن العثــور على الحدّ بمعناه اللغوي والاصطلاحي في البُعد المفهومي للأســرة في المصــادر الدينيــة. فقد ورد التعبير بـ«حــدود الله» في الكثير من آيات القــرآن الكريم، كما ورد ذات هــذا المعنى في الروايات المأثــورة عن المعصوميــن عليهم السلام. إن الأوامر والنواهي والمباحــات الإلهيــة ـ التي ورد بيانها لغرض تنظيم نشــاط وتكامل الأســرة وأفرادها ـ إنما هي في الواقع تمثل الحدود الداخلية والخارجية للأســرة، وعلى هذا الأســاس فإن الحدود الداخلية والخارجية للأسرة تحتوي على ثلاثة أنواع (اعتقادية وأخلاقية وسلوكية) وكيفيتين (إلزامية غير منعطفة، وغير إلزامية منعطفة).

إن تقدّم الارتباط الديني على الارتباط النسبي والأسري، وكيفية تكوين وانحلال الأسرة وقوانينها، يُعدّ من الحدود الجامعة والمهمّة في الأسرة. إن تلك الطائفة من المفاهيم الإلهية الناظــرة إلى تنظيــم علاقات المنظومات التحتيــة والتعامل بين أفراد الأســرة، يندرج تحت العناوين الداخلية للأسرة.

إن الحــدّ الأهم فــي المنظومــة الزوجية (ومن بينهــا الحدود الداخلية) هــي أن تقتصر العلاقة الزوجية بين الرجال والنســاء ضمن الارتباط القائــم على عقد الزواج. إن من جملة هــذه الحدود المهمّة بين الزوجين عبارة عن «الزمان والمكان الخاص». إن موارد من قبيل:

حفظ الأسرار الخاصة بين الأزواج، وعدم نقل الزوجين لصفات المحارم من الرجال والنساء لبعضهما، وحفظ الاحترام المتبادل بين الزوجين بحضور الأولاد، والحقوق الواجبة على الأزواج. وامتناع الزوج من المقاربة الجنسية مع زوجته لأكثر من أربعة أشهر مع رغبتها، وامتناع الزوجة عن إقامة العلاقة مع زوجها عند مطالبته بذلك، وحرمة إقامة العلاقة الجنسية في الأيام والحالات والمواضع الخاصة، وإفشاء تفاصيل العلاقة الجنسية للآخرين، تعدّ بأجمعها من بين الحدود الإلزامية غير المنعطفة بين الزوجين.

إن حرمة التماس الجسدي الذي ينطوي على مفسدة أو المقرون بالشهوة، والنظرة إلى بعض المواضع المثيرة للشهوة من البدن، وإفشاء الأسرار وسائر الأحكام الأخلاقية، تعدّ بأجمعها من الحدود الإلزامية غير المنعطفة للمنظومة التحتية للأولاد. إن الدخول إلى الحريم الخاص والاستفادة من الوسائل الشخصية للآخرين مما يتوقف على حصول الإذن والرضا، تُعدّ من بين الحدود غير الإلزامية المنعطفة. إن التدابير والقوانين الحاكمة على التعامل بين الأولاد غير الرضاعيين؛ من الحدود بين الأولاد الحقيقيين مع الأولاد الرضاعيين والأولاد الذين يتمّ ضمّهم بالتبني.

إن الحدود والقوانين الشرعية والأخلاقية أو الواجبات والضرورات الناظرة إلى تنظيم التعامل بين الوالدين والأولاد، هي التي تشكل حدود المنظومة التحتية للوالدين والأولاد. إن موارد من قبيل الحصول على الإذن للدخول في حدود الوالدين، وفصل فراش نومهم عن الوالدين والتفريق بينهم في النوم، وكيفية وحجم اهتمام ومحبة الوالدين لأولادهم، والثياب المناسبة للوالدين بحضور أولادهم المميزين، وثياب الأولاد بحضور الوالدين، وعدم اطلاع الأولاد على العلاقة الجنسية بين الوالدين، واجتناب المعانقة وتقبيل الوالد لشفتي بنته الصغيرة وتقبيل الأم لشفتي ولدها الصغير، والتكلم باحترام، وتجنّب العنف والقسوة، تعدّ بأجمعها من مصاديق الحدود الارتباطية (الإلزامية غير المنعطفة، وغير الإلزامية المنعطفة) للوالدين والأولاد.

إن الحدود الخارجية للأسرة، هي تلك المجموعة من التعاليم الإسلامية الناظرة إلى

تنظيم الأسرة وأفرادها مع المجتمع. إن موارد من قبيل: الحفاظ على حريم الأسرة من قبل الآخرين، والقوانين الناظرة إلى تعامل أفراد الأسرة مع الأرحام والأقارب والأصدقاء والجيران وسائر الأجانب. والدخول والخروج من البيت الذي يجب أن يحدث بإذن وعلم الأب في الأسرة، وسلسلة مراتب الحجاب والحدود الإلزامية وغير الإلزامية في التعامل بين الرجال والنساء، تعدّ من بين الحدود الداخلية والخارجية للأسرة.

لقد أثبتت المعطيات أن الاتجاه البنيوي وبيانه من حدود الأسرة؛ بسبب التبلور في النسيج الثقافي - الاجتماعي غير الإسلامي والتضاد النسبي للمباني ومضامينها وأساليبها وأهدافها مع التعاليم الإسلامية، لا يمكن تطبيقه في المجتمعات الدينية. ومن هنا يرد اقتراح تحسين واقع الأسرة وعلاج التعارضات والوصول إلى أهدافها العالية، والاهتمام بموقع الأسرة وحدودها القرآنية أكثر من أيّ وقت مضى.

المصادر

١. القرآن الكريم

٢. نهج البلاغة، ترجمه إلى اللغة الفارسي: دشتي،قم، انتشارات صحفي، ١٣٧٩ هـ ش.

٣. ابن بابويه، محمد بن علي، الخصال، ترجمه إلى اللغة الفارسية: أحمد الفهري الزنجاني، طهران، انتشارات علمية إسلامية.

٤. الآلوسي، السيد محمد، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥ هـ..

٥. البروجردي، سيد حسين، منابع فقه شيعه (الترجمة الفارسية: لجامع أحاديث الشيعة)، قم، جامعة المدرسين، ١٤١٧ هـ.

٦. الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، قم، مؤسسة آل البيت عليهم السلام، ١٤٠٩ هـ.

٧. الخميني، روح الله، توضيح المسائل، جامعة المدرسين في الحوزة العلمية بقم.

٨. الراغب الإصفهاني، حسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن، ترجمه إلى اللغة الفارسية: غلام رضا حسيني، طهران، انتشارات مرتضوي، ١٣٦٣ هـ ش.

٩. الطباطبائي، السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ترجمه إلى اللغة الفارسية: محمد باقر الموسوي، قم، دفتر انتشارات اسلامي، ١٣٦٣ هـ ش.

١٠. ــــــــــــــ، الميزان في تفسير القرآن، قم، جامعة المدرسين، ١٤١٧ هـ.

١١. الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٦٥ هـ ش.

١٢. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٦٢ / ١٣٧٤ هـ ش.

١٣. المدرسي، محمد تقي، تفسير هدايت، مشهد، بنياد پژوهش هاى اسلامى آستان قدس رضوى، ١٣٧٧ هـ ش.

١٤. المطهري، مرتضى، تعليم و تربيت در اسلام، طهران، انتشارات صدرا، ١٣٦٧ هـ ش.
١٥. النوري الطبرسي، الميرزا حسين، مستدرك الوسائل و مستنبط المسائل، بيروت، مؤسسة آل البيت عليهم السلام، لإحياء التراث، ١٤١٥ هـ.
١٦. باركر، فيليب، خانواده درمانی پايه، ترجمه إلى اللغة الفارسية: محسن دهقاني وزهره دهقاني، طهران، انتشارات رشد، ١٣٨٢ هـ ش.
١٧. باقري، شهلا، «مديريت خانواده؛ الكوها و مقتضيات»، مجلة بانوان شيعه، السنة السادسة، العدد: ٢٠، ١٣٨٨ هـ ش.
١٨. بروجسكا، جيمز جان، نوراكس، سي، نظام های روان درمانی، ترجمه إلى اللغة الفارسية: يحيى سيد محمدي، طهران، انتشارات روان، ١٣٨٧ هـ ش.
١٩. ــــــــــــــ، نوراكس، سي، نظريه های روان درمانی، ترجمه إلى اللغة الفارسية: يحيى سيد محمدي، روان، ١٣٨٥ هـ ش.
٢٠. بني هاشمي خميني، محمد حسن، توضيح المسائل مراجع، قم، دفتر انتشارات اسلامی، ١٣٧٨ هـ ش.
٢١. بهشتي، أحمد، خانواده در قرآن، قم، انتشارات طريق القدس، ١٣٨٥ هـ ش.
٢٢. بي ريا، ناصر، روان شناسی رشد با نگرش به منابع اسلامی، طهران، انتشارات سمت، ١٣٧٥ هـ ش.
٢٣. توزنده جاني، حسن، كمال پور نسرين، «خانواده درمانی، نظام تعاملی چندگانه»، مجله تازه های روان شناسی، العدد: ٣٧ ـ ٣٨، صيف عام، ١٣٨٤ هـ ش.
٢٤. جان بزرگي، مسعود؛ نوري، ناهيد؛ آگاه هريس، مژگان، آموزش اخلاق، رفتار اجتماعی و قانون پذيری به كودكان، طهران، نشر ارجمند، ١٣٨٩ هـ ش.
٢٥. جوادي آملي، عبد الله، زن در آينه جلال و جمال، نشر إسراء، قم، ١٣٧٤ هـ ش.

٢٦. حسيني شاه عبد العظيمي، حسين بن أحمد، تفسير اثنا عشري، طهران، انتشارات ميقات، ١٣٦٣ هـ ش.

٢٧. حسيني، نرجس السادات؛ فرح بخش، كيومرث؛ فاتحي زادة، مريم السادات؛ «بررسی و مقايسه ميزان به كارگيری آموزه های اسلامی خانواده محور در خانواده های سالم و آشفته»، مجله روان شناسی و دين، السنة الخامسة، العدد: ١، ربيع عام: ١٣٩١ هـ ش.

٢٨. زيمون، ف. ج، مفاهيم و تئوری های كليدی در خانواده، ترجمه إلى اللغة الفارسية: سعيد پير مرادي، طهران، انتشارات همام، ١٣٧٩ هـ ش.

٢٩. سالاري فر، محمد رضا، خانواده در نگرش اسلام و روان شناسی، قم، پژوهشگاه حوزه و دانشگاه، ١٣٨٧ هـ ش.

٣٠. ــــــــــــــ، مقايسه نظريه خانواده درماني مينوچين با ديدگاه اسلام در باب خانواده، أطروحة علمية على مستوى الماجستير في حقل علم النفس، قم، پژوهشگاه حوزه و دانشگاه، ١٣٧٩ هـ ش.

٣١. شاهوران فرد، سعيدة، «مشاوره خانواده: مرزهای ايمن؛ حفظ مرزها در خانواده های سالم»، مجلة رشد مشاوره مدرسة، العدد: ٤٠، صيف عام: ١٣٩٤ هـ ش. ص ٥٧ ـ ٦١.

٣٢. شجاعي، محمد صادق؛ حيدري، مجتبى، نظريه های انسان سالم با نگرش به منابع اسلامی، قم، مؤسسة آموزشي و پژوهشي امام خميني رحمه‌الله، ١٣٨٩ هـ ش.

٣٣. شليبه، آيست فون، وشوايتزر، آموزش درمان و مشاوره سيستمی، ترجمه إلى اللغة الفارسية: سعيد پير مرادی، إصفهان، انتشارات هام، ١٣٨٠ هـ ش.

٣٤. عميد، حسن، فرهنگ عميد، طهران، نشر سپهر، ١٣٧٥ هـ ش.

٣٥. كاوياني، محمد، «روان سنجی از ديدگاه قرآن»، دوفصلنامه قرآن و علم، العدد: ١٧، خريف وشتاء: ١٣٩٤ هـ ش.

٣٦. كرو، مايكل، جين، ريدلي، زوج درمانی کاربردی، ترجمه إلى اللغة الفارسية: أشرف السادات موسوي، انتشارات مهر كاويان، طهران، ١٣٨٤ هـ ش.

٣٧. كيانـي، أحمد رضا؛ فرح بخش، كيومرث؛ أسـدي، مسـعود؛ شـير علي پور، أصغـر، «أبعاد جهت‌گيري مذهبی و مرزهای ارتباطی خانواده: يك همبسـتگی بنيادی»، مجله روان شناسی و دين، السنة الثالثة، العدد: ٣، خريف عام: ١٣٧٩ هـ ش.

٣٨. گلدنبرگ، إيرنه و گلدنبرگ، هربرت، خانواده درمانی، ترجمه إلى اللغة الفارسية: حميد رضا حسين شاهي، انتشارات روان، طهران، ١٣٨٩ هـ ش.

٣٩. محمدي ري شهري، محمد، تحكيم خانواده از نگاه قرآن و حديث، قم، دار الحديث، ١٣٨٧ هـ ش.

٤٠. مصباح، علي، نظام انديشـه اسـلامی در مصاف بـا چالش های معاصر، قم، مؤسسـة الإمام الخميني رحمه‌الله، ١٣٩٠ هـ ش.

٤١. مصطفوي، جواد، بهشت خانواده، قم، دار الفكر، ١٣٨٥ هـ ش.

٤٢. مكارم شيرازي، ناصر، تفسير نمونه، دار الكتب الإسلامية، ١٣٨١ هـ ش.

٤٣. ـــــــــــــ، منصور، جهانگير، قانون مدنی جمهوری اسلامی ايران، طهران، نشر ديدار، ١٣٨١ هـ ش.

٤٤. موسـوي، أشـرف السـادات، خانواده درمانی کاربردی با رويكرد سيسـتمی، طهران، جامعة الزهراء عليها‌السلام، ١٣٨٣ هـ ش.

٤٥. مينوجين، سالوادور و فيشمن، اتش، تشارلز، فنون خانواده درمانی، ترجمه إلى اللغة الفارسية: فرشاد بهاري، انتشارات رشد، ١٣٨٦ هـ ش.

٤٦. ـــــــــــــ، خانواده و خانواده درمانی، ترجمه إلى اللغة الفارسـية: باقر ثنائي، طهران، انتشارات أمير كبير، ١٣٧٥ هـ ش.

٤٧. نور مفيدي، سـيد كاظم، «نگاه اسـلام به خانواده»، مقالة مطبوعة في كتاب: آرامش و دوستی در اديـان إبراهيمی، إعداد: عبد الرحيم گواهي وغلام رضا أعواني، طهران، انتشـارات علمي، ١٣٨٨ هـ ش.

٤٨. نيكلز، مايكل بي، شوارتز، ريتشارد سي، خانواده درمانی: مفاهيم و روش ها، ترجمه إلى اللغة الفارسية: محسن دهقاني، طهران، انتشارات دانژه، ١٣٨٩ هـ ش.

٤٩. هنريان، مسـعود؛ يونسي، سـيد جلال، «بررسـی علل طلاق در دادگاه های خانواده تهران»، فصلنامه مطالعات روان شناسی بالينی، السنة الأولى، العدد: ٣، صيف عام: ١٣٩٠ هـ ش.

٥٠. هوشـياري، جعفر؛ السيد الموسوي جزائري، علي؛ صفورائي پاريزي، محمد مهدي، «تحليل مبانی فقهی و كاركردهای روان شـناختی صله رحم»، دو فصلنامه علمی - پژوهشـی إسلامی زنان و خانواده، جامعة المصطفى العالمية، ١٣٩٥ هـ ش.

٥١. ـــــــــــــ، جزائري، سـيد حميد، نقد ديدگاه سـاخت نگر خانواده از منظر قرآن، قم، كنگره بين المللی قرآن و علوم،١٣٩٥ هـ ش.

٥٢. هي لي، جي، روان درمانی خانواده، ترجمه إلى اللغة الفارسـية: باقر ثنائي، طهران، انتشارات أمير كبير، ط ٤، ١٣٧٥ هـ ش.

٥٣. يونسي، سيد جلال، مديريت روابط زناشوئی آسيب ها و راه حل ها، طهران، نشر قطرة، ١٣٨٨ هـ ش.

54. Bandler, R, Grinder, J, and Satir, v, "Changing with familes palo", CA. ***Science and learning***, 1986.

55. Jacobson, N, S, Waldorn. H, and Moore,d., Toward a Behavioral Profile of Marital Distress", ***Journal of consulting and clinical psychology***. yol, 1990, 48, pp. 696 - 703.

56. Minuchin S., ***Families and Family therapy,*** Cambrige: Harward University Press, 1974.

57. Neslon, R.O., "Realistic Dependent Measures for Dlinical Use", ***Journal of Consulting and Clinical Psychology***.

58. Olson, D. H. Goral, D. M., "Circumplex model of marital and family systems", InF, Walsh (eds), ***Normal family processes*** (3rd ed.), pp. 514 - 541. New York: the Guilford Press.

دور الأسرة في الحدّ من الانحرافات الاجتماعية[1]

شمس الله مريجي[2]

١. أهمية الحياة الاجتماعية

لا شـك في أن الإنسان لا مندوحة له في الوصول إلى الكمال والسعادة والحصول على السكينة والطمأنينة سوى اختيار الحياة الاجتماعية والتعاون مع أبناء نوعه لتحقيق هذه الغاية. واليوم تحظـى الحياة الاجتماعية من الأهمية في وعي الإنسـان بحيث تعـدّ الحياة الفردية والانعـزال عن المجتمع نوعًا مـن العقوبة. ومن هنا تؤكّد بعض مصالح السـجون على أن الحبس الانفرادي يُعدّ أسـلوبًا للمنع من ارتكاب بعض الأفراد للجرائم. وفي الوقت نفسـه يتمّ التحذير من مخاطر طول فترة الحبس الانفرادي؛ إذ خلصت الدراسات التي أجريت في أغلب السـجون الأوربية إلـى أن فترة حبس الأفراد في السـجون الانفرادية يجب أن تكون قصيرة، وإلا فإن المدّة الزمنية الطويلة للحبس الإنفرادي سـوف تترك على الفرد آثارًا سـيئة على المستويين النفسي والجسدي.[3]

ويذهـب دوركهايم بدوره إلـى الاعتقاد قائلًا: لو أخذنا من الإنسـان ما حصل عليه في

---

١. المصدر: نُشـرت هذه المقالة باللغة الفارسـية تحت عنوان «بررسی نقش خانواده در کاهش انحرافات اجتماعی» في مجلة معرفت فرهنگی اجتماعی، التي تصدر في جمهورية إيران الإسـلامية، السـنة الثانية، العدد: ٤، خريف عام ١٣٩٠ هـ ش، الصفحات: ٤٩ ـ ٧٢.

تعريب: حسن علي مطر

٢. أستاذ مساعد في حقل العلوم الاجتماعية في جامعة باقر العلوم عليه السلام.

٣. هومن، زندان و زندانی ها، ص ٣.

ضوء الحياة الاجتماعية، فإنه سوف يتنزّل إلى مستوى الحيوانات.[١] والنقطة الجديرة بالتأمّل في هذا الشأن هي أنه على الرغم من التأكيدات الكثيرة الصادرة عن العلماء والمفكرين من المتدينين وغير المتدينين، وكذلك التعاليم الواردة في النصوص الدينية على الحياة الاجتماعية والفوائد الكثيرة المترتبة على الحياة الاجتماعية، لماذا نجد في بعض الروايات وكذلك في بعض الأدبيات، تشجيع الإنسان على الحياة الفردية، كما في المأثور عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، أنه قال: «وحدة الإنسان خير». أو ما جاء في الأدب شعرًا: «أنست بوحدتي ولزمت بيتي .. فطاب الأنس لي وصفا السرور».

يجب البحث عن هذا النوع من الحثّ والتشجيع، في المجتمع أو الجماعة التي يعيش الإنسان في كنفها؛ إذ أن الإنسان وإن لم يكن أمامه ـ في سعيه من أجل الوصول إلى سعادته المادية والمعنوية ـ من خيار سوى الانخراط في الحياة الاجتماعية، ولكن علينا أن لا نغفل عن هذه الحقيقة أيضًا، وهي أنه ليس كل مجتمع بشري يمكن أن يوفر السعادة للإنسان؛ وذلك لأن المجتمع المنحرف لا يحرم الفرد من السعادة وأرضية وصول الإنسان إلى الكمال فحسب، بل ويكون بنفسه أرضية خصبة لتجفيف جذور الحياة الفردية ويغلق دون الإنسان باب الوصول إلى السعادة والكمال الإنساني. ويمكن الوقوف على هذه الحقيقة في الحديث المأثور عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، والذي يقول فيه: «الوحدة خير من جليس السوء».[٢]

وعليه فإن الحياة والعيش في المجتمع إنما يكون نافعًا وملائمًا، حيث لا يكون فيها انحراف أو رفيق سوء ينغّص على المرء حياته، وليس هناك من شك في أن مثل هذا المجتمع الخالي من جميع أنواع الانحراف يبقى على مستوى المجتمع المثالي الذي لم يكتب له التحقق حتى الآن في الواقع الخارجي؛ وذلك لأن المختصّون في العلوم الاجتماعية يعتبرون الانحرافات إنما هي وليدة الحياة الاجتماعية للإنسان، ويعدّونها ظاهرة طبيعية في جميع المجتمعات البشرية. ويذهبون في الوقت نفسه إلى الاعتقاد بأن هذه الظاهرة لا تشبه أي

١. ترابي، مبانى جامعه شناسى، ص ٢.

٢. مريجي، جامعه شناسى در عرصه تبليغ دينى، ص ٢٠٦.

ظاهرة من سائر الظواهر الاجتماعية الأخرى؛ وذلك لأن وجودها وانتشارها في المجتمع يخلّ بجميع الأفكار الخاصّة بالأخلاق والسياسة الاجتماعية، وإن أضرارها وأخطارها الماحقة تجعل من الحياة أمرًا مثيرًا للفزع.[١]

٢. أسباب الانحراف

هناك الكثير من الأبحاث والدراسات حول أسباب الانحراف وكيف يجب العمل على تعريفه، وقد تمّ تقديم الكثير من التعريفات لهذه الظاهرة. الأمر الذي يُشير إلى المشاكل التي تعترض مسار التعرّف على الانحراف وأسبابه. بيد أن الذي شغل اهتمام علماء الاجتماع في الدرجة الأولى، وشكّل هاجسًا رئيسًا لهم قبل أيّ شيء آخر هو بيان أسباب تبلور هذه الظاهرة الاجتماعية، ومن هنا فقد بذلوا الكثير من المساعي والجهود من أجل العمل على كشف أسباب وعلل هذه الظاهرة.

وإن الذي حظي باهتمام الباحثين الاجتماعيين في هذا الشأن أكثر من أيّ شيء آخر، عبارة عن ثلاثة عوامل: بيئية ونفسية واجتماعية؛ فقد ذهب بعضهم ـ من خلال التأكيد على الخصائص البيئية والتقسيمات الجسمانية ـ إلى العثور على أسباب الانحراف والسلوكيات المنحرفة، بينما ذهب آخرون بزعامة سيغموند فرويد وتلاميذ مدرسته إلى بيان أسباب الانحراف ـ من خلال الاستناد إلى العوامل النفسية وتقسيم شخصيات الأفراد ـ ليعملوا على حل هذه المسألة بزعمهم من خلال تقديم بيان علّي لها. وبطبيعة الحال هناك مجموعة من علماء الاجتماع بدلًا من إلقاء اللوم على الفرد والبحث في الأسباب البيئية والنفسية للتعرّف على السبب الرئيس للانحراف، توجهوا إلى المجتمع مباشرة، وألقوا باللائمة على المجتمع بدلًا من الفرد، ومن خلال البيان البنيوي حققوا في هذا الشأن نجاحًا أكبر بالقياس إلى المجموعتين المذكورتين أعلاه. ولا سيّما تلك الطائفة من المحققين الذين يؤكدون على القابلية الاجتماعية وما إلى ذلك. بيد أن هذه المجموعة بدورها قد تجاهلت عنصر

---

١. م.ن.

الإرادة والاختيار الذي وهبه الله للأشـخاص، على الرغم من أن لهذه الإرادة دورًا محوريًا في تكوين شخصية الإنسان وازدهاره. وقد أدّى هذا التجاهل إلى حدوث نقص واختلال في التفسـيرات الاجتماعية؛ وذلك لأن العوامل الاجتماعية هي الأخرى ـ شـأنها شأن العوامل البيئية والنفسـية ـ لا تمتلك من القوة التي تجعلها مهيمنة على الأفعال الاختيارية التي تعمل على صياغة وتكوين شخصية الإنسان.

يذهب مؤلف كتاب (جامعه و تاريخ در قرآن) إلى الاعتقاد بأن العوامل الفيزيقية والبيئية والنفسـية والاجتماعية، ليست هي التي تحدد مسـار الأفعال الاختيارية للإنسان، وإنما هي مجرّد أرضيات لاختياره. ولا شـك في أن مقدار اسـتثمار وتوظيف الأشـخاص لهذه الهبة الإلهية، مثل سـائر النعـم الإلهية ليس على درجـة واحدة. بل هناك من الأشـخاص الذين يتخلون عن الاستفادة من هذه الطاقة حتى تتجه نحو الضعف والضمور في وجودهم. وهناك آخرون يحسنون توظيف هذه النعمة بشكل متواصل وصحيح، ويعملون على تقويتها بحيث تقف طودًا شـامخًا في مواجهة سائر العوامل والمقتضيات الأخرى. ثم استطرد سماحته في بيان أهمية عنصر الإرادة والاختيار، إلى حدّ تعريف الشـخصية بقوله: «إنها مجموعة مركّبة من الأخلاق والسـجايا والمعتقدات والعادات والملَكات التي يحصل عليها الإنسان بتأثير من أفعاله الاختيارية».[١]

وعلى هذا الأسـاس لا ينبغي لنا أن نغفل ـ في مسـار بيان ومعرفة أسـباب الانحرافات الاجتماعية ـ عن إرادة الإنسان واختياره؛ وذلك لأن الغفلة عن هذه الحقيقة لا تعرّض الشرح والبيان العلمي الصحيح لهذه المسـألة إلى الخلل فحسـب، بل وسـتنطوي على تداعيات وتبعـات اجتماعية خاطئـة أيضًا، ومن بينها إلغـاء العقوبات الرادعة، والتـي يكون لها دور ملحوظ في انخفاظ نسـبة الجرائم والانحرافات. من ذلك على سبيل المثال أن إلغاء عقوبة الإعدام وسـائر العقوبات الرادعة في المجتمع الغربي الحديث، إنما هو نتيجة دراسـات تمّ فيها تجاهل عنصر الإرادة والاختيار لدى الإنسـان، حيث جعلوا من أرضية ظهور الجريمة ـ

١. مصباح اليزدي، جامعه و تاريخ از ديدگاه قرآن، ص ١٩٠.

التي هي عبارة عن العوامل الفيزيقية والنفسية والاجتماعية ـ محطّ اهتمامهم ومركز بيانهم قبل أيّ شيء آخر.[١]

وعلى حدّ تعبير دوركهايم: إن المجتمعات الحديثة والصناعية قد عملت ـ من خلال الاستناد إلى التحقيقات المنجزة ـ إلى استبدال الحقوق الترقيعية بدلًا من قوانين الحقوق الجزائية والرادعة.[٢] لقد نظروا إلى المجرم بوصفه شخصًا مريضًا يجب علاجه بقوانين الحقوق الترقيعية؛ مثل العضو المريض الذي يعالج بالأعشاب أو الأدوية الكيميائية تمامًا.

الجهل أصل الانحرافات

يجب من الناحية الدينية الذهاب إلى ذات الإنسان وإرادته واختياره، للعثور على السبب الرئيس للانحراف والوقوف على سلوكياته المنحرفة. ولا ينبغي تركيز الاهتمام على العوامل الفيزيقية والنفسية والاجتماعية. يمكن ملاحظة هذه الحقيقة في القرآن الكريم بوضوح؛ وذلك حيث يعتبر المجرمون ـ عند محاسبتهم في يوم القيامة أمام الله سبحانه وتعالى على أفعالهم المنحرفة ـ أن المجتمع الضال هو السبب الذي دفعهم إلى ارتكاب الجرائم؛ إذ يقولون: ﴿ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾. بيد أن الله سبحانه وتعالى لا يقبل ذلك منهم، ويقول لهم: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً ﴾؛[٣] بمعنى أنه كان بمقدوركم الخروج من ذلك المجتمع والهجرة إلى مكان آخر. وكما نلاحظ فإن الله سبحانه وتعالى لم ينكر ذلك، ولم يقل إن المجتمع لا يُشكل أرضية للانحراف، بل وجه السؤال إلى قدرة الإنسان في التغلب على هذه المشكلة؛ بمعنى أن انحراف المجتمع مهما بلغ، إلا أنه لا يبلغ حدًا بحيث يسلب الإنسان إرادته وحريته واختياره.

وعلى أساس من هذه الحقيقة، نجد أن أساتذة الأخلاق والدعاة إلى نشر القيَم، لم يستول عليهم اليأس والإحباط، وعلى الرغم من وجود الأرضيات الخصبة للانحراف، إلا أنهم لم يفقدوا الأمل بهداية وتربية شخصية الأفراد، وقاموا بالكثير من الأنشطة في هذا الشأن. وقد

---

١. برول، جامعه شناسى حقوق، ص ٣٩.

٢. دوركهايم، درباره تقسيم كار اجتماعى، ص ٨٥.

٣. النساء: ٩٧.

حققوا الكثير من النجاحات طوال تاريخ الحياة الاجتماعية للإنسان أيضًا. كما أن المخاطبين منهم لا يستطيعون ـ بالنظر إلى هذه الحقيقة المذكورة ـ إحالة عدم الالتزام بالقيّم الإلهية إلى الجبر النفسي والبيئي والاجتماعي، وتبرئة أنفسهم.

انعدام الوعي معضلة الأمل

لو قيل: إن أحد الأسباب الرئيسة لتجاهل القيَم والابتلاء بأنواع السلوكيات المنحرفة يعود إلى الجهل وانعدام الوعي، لن يكون هذا القول شططًا. إن الجهل هو منشأ ظهور الكثير من المعضلات الاجتماعية والمشاكل الإنسانية. لا شك في أن الشخص المنحرف لو كان مدركًا لقدرته في الوصول إلى الكمال الإنساني، وكان يعلم بأن القيَم الحاكمة على المجتمع، ولا سيّما القيَم الإلهية والمعنوية، يمكنها أن تمثل منارة لهدايته نحو الوصول إلى الأهداف والغايات الإنسانية السامية، والحصول على مطالبه المادية والمعنوية، فإن احتمال إعراضه عن تلك المنارة سوف يكون قليلًا جدًا. وهذه حقيقة تؤيّدها الآيات والروايات. من ذلك ـ على سبيل المثال ـ أن قوله سبحانه وتعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾،[1] يُشير بوضوح إلى أن سبب سقوط الإنسان في مستنقع الحيوانية بل وحتى ما دون ذلك، يعود إلى جهله وغفلته.

وقد اعتبر الإمام علي عليه السلام أن السبب الرئيس في السلوك المنحرف، هو الجهل؛ إذ يقول في ذلك: «ظلمت نفسي، وتجرّأت بجهلي».[2] وإن الإمام زين العابدين عليه السلام بدوره يناجي الله ـ على ما ورد عنه في الصحيفة السجادية ـ بقوله: «أنا الذي بجهله عصاك».

وفي قصّة النبي يوسف عليه السلام نجد أنه في مواجهة جميع مقدمات الانحراف وطغيان الشهوة التي أعدتها له امرأة العزيز في مخدعها، قد تمكن بهداية نور البرهان الإلهي من النجاة والخلاص من تلك المهلكة، وأن يتحرر بفضل الاستعانة بنور القيَم الإلهية من السقوط في وهدة الانحراف:

---

١. الأعراف: ١٧٩.

٢. القمي، مفاتيح الجنان، ص ١٦.

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾.[١]

وقد أشار الحكماء والفلاسفة إلى هذه الحقيقة أيضًا. حيث ذهب سقراط (٤٧٠ ـ ٣٩٩ ق. م.) إلى الاعتقاد بأن الانحراف هو في الأساس نتيجة للجهل وعدم المعرفة، وإن الحلّ الوحيد لخلاص من هذا الانحراف يكمن في بثّ الوعي ونشر العلم والمعرفة. وقال في هذا الشأن: «علينا أن لا نعنّف الجاني، بل علينا أن نعلّمه كيفية الامتناع عن ارتكاب الجريمة؛ وذلك لأن الجريمة إنما هي ثمرة الجهل وانعدام الوعي، وإن الكثير من الأشخاص الذين لم يتمكنوا من الحصول على المعرفة، إنما يرتكبون الجرائم لهذا السبب».[٢]

وقد ذهب الفيلسوف الإسلامي أبو نصر الفارابي بدوره إلى الاعتقاد بأن السبب الرئيس في الانحراف، يعود إلى عدم المعرفة، حيث قال في هذا الشأن: «إذا لم تعلم السعادة، أو علمت [بها] ولم تنصب غاية بتشوّق، بل نصبت الغاية شيئًا آخر سواها وتشوّقت بالنزوعية واستنبطت بالقوة المروية ما ينبغي أن تعمل حتى تنال الحواس والمتخيّلة، ثم فعلت تلك الأفعال بآلات القوّة النزوعية، كانت أفعال ذلك الإنسان كلها غير جميلة [ومنحرفة]».[٣]

وبذلك فإن الجهل وعدم المعرفة هو أحد العوامل التي تلعب دورًا أساسيًا في ظهور الانحرافات الاجتماعية. وأما الأسباب والعوامل الأخرى فإنها تأتي في المراحل اللاحقة. وللدلالة على أهمية هذا العامل يكفي أن ندرك أن الله سبحانه وتعالى لم يقتصر على تزويد الإنسان بنعمة العقل بوصفه رسولًا باطنيًا يرشده إلى طريق الهداية فقط، وإنما أرسل له كذلك مئة وأربعة وعشرين ألف نبي ورسول لينقذونه من براثن الجهل والغفلة، ويمهّدون له طريق الوصول إلى الكمال والسعادة بسراج اسمه القيَم. ومع ذلك قلما استفاد الإنسان من هداية الأنبياء، وبقي سادرًا في جهله، ولا يزال ـ للأسف الشديد ـ يصرّ على البقاء في مستنقع الجهل والغفلة.

---

١. يوسف: ٢٤.

٢. دانش، مجرم كيست، جرم شناسى چيست، ص ٨.

٣. الفارابي، انديشه‌هاي اهل مدينة، ص ٢٢٩؛ الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة ومضاداتها، ص ١٠٢.

٣. التنشئة الثقافية

بعد أن علمنا أن الجهل هــو جذر ارتكاب الكثير من الانحرافات الاجتماعية، فما الذي يجب علينا أن نفعله للتغلّب على هذه الآفة؟

يمكن القول في معرض الجواب عن هذا السؤال: إن الأسلوب الأجدى والطريقة الأكثر تأثيرًا في حلّ معضلة الجهل، عبارة عن بث الوعي ونشــر العلــم بين عموم أفراد المجتمع. ويذهب علماء الاجتماع إلى أن هذا الأمر يمكن تحقيقه على نحوين، وهما: التنشئة الثقافية، التنشــئة الاجتماعية؛ وهما الأســلوبان اللذان يؤكــد عليهما المهندســون الاجتماعيون في المجتمع؛ وذلك لأن الإنسان إنما يترعرع في المجتمع بالضرورة، ولا ينفصل عن المجتمع وعن الحياة الاجتماعية أبدًا.

إن التنشــئة الاجتماعية[1] عبارة عن مسار يعلّم الإنسان طرق الحياة في المجتمع. وبعبارة أخــرى: إن التنشــئة الاجتماعية مجرّد مســار يجعل الفرد متماهيًا ومنســجمًا مــع المعايير الاجتماعيــة. وإن هذا المســار يذهــب إلى الأمام قُدُمًــا على نحوين: تــارة تعمل الجماعة والمعاييــر والضــرورات الاجتماعية على فــرض الحياة الاجتماعية علــى الأفراد عن عمد وقصد. وتارة أخرى تكون الحياة الاجتماعية بحيث تجعل الفرد يتماهى معها بشكل تلقائي.[2]

وأما التنشئة الثقافية[3] فهو تيار يجعل الفرد متماهيًا مع الثقافة الاجتماعية بعمق ومن جهات كثيــرة. وذلك خلافًــا للتقبّل الاجتماعي الذي يجعل الفرد متماهيًا مــع المعايير الاجتماعية فحســب. وبطبيعة الحال لو تحقق مسار التنشــئة الاجتماعية بشكل عميق واستمر على هذا المنوال، فإن أفراد المجتمع سوف يتصفون بالكثير من أوجه الشبه، ويصبحون متماثلين مع بعضهم من الناحية القيَميّة والمعيارية. بحيث أن الأعضاء الجُدُد في المجتمع سوف يُسهمون في الحياة المشــتركة في مجتمعهم شيئًا فشــيئًا، ويتعلمون تقاليد المجتمع وقوانينه، وبذلك

1.Socialization.

٢. كوئن، مبانى جامعه شناسى، ص ١٢٦.

3.Acculturation

تتوفّر أرضيةالتنشئة الثقافية لديهم.[١] يمكن جعل مثل هؤلاء الأفراد متماهين مع الثقافة والقيَم الحاكمة.

الاختلاف بين التنشئة الثقافية و التنشئة الاجتماعية

إن الذي يميّز التنشـئة الثقافية من التنشئة الاجتماعية، هو أن الفرد يصبح في الأمر الأول مثل المجتمع والقيَم الحاكمة عليها، وفي الأمر الثاني يعمل الفرد على التناغم بنفسه مع القيَم والمعايير الاجتماعية. وبعبارة أخرى: إن الفرد في التنشـئة الثقافية بالإضافة إلى تعلم الثقافة والقيَـم والمعايير الحاكمة على المجتمع، يحصل له اعتقاد قلبي والتزام عملي بها. وأما في مسار التنشئة الاجتماعية فإن الشخص يتناغم مع الوضع القائم من باب «اسلك في روما كما يسـلك أهل روما» ويتماهى مع المجموعة والمعايير القائمة في المجتمع. لا أن يكون لديه التزام واعتقاد قلبي بها. في حين أنه في التنشئة الثقافية لا يكون هناك فرق بين وجود الجماعة مـن حضورها وغيابها؛ وذلك لأن الشـخص يعتقد بها من صميم قلبه. فمثلًا إن الشـخص المثقف لو قاد سيارته في منتصف الليل حيث الشوارع خالية، سوف يقف عند مفترق الطرق إذا واجه الإشـارة الضوئية الحمـراء حتى لو لو تكن هناك أيّ سـيارة أخرى في الطريق ولا توجد أيّ كاميرات للمراقبة، وسـوف يبقى واقفًا إلى حين تحول الإشارة الضوئية إلى اللون الأخضر. وأما إذا كان الشـخص من الذين قبلوا بالعقد الاجتماعي فقط؛ فإنه لو أمن العقاب ولم يكن هناك رقابة مفروضة من قبل الشرطة في الشارع، فإنه سوف ينتهك الإشارة الضوئية الحمراء حتى في ساعات الذروة والازدحامات المرورية في منتصف النهار.

إن سـبب هذا الاختلاف يعود إلى أن الشـخص الأول قد آمن حقيقة أن الضوء الأحمر يمثل تحذيرًا يقول إن تجاوزه يشكل خطرًا على حياته؛ ومن هنا فإنه يلتزم بهذا التحذير مؤمنًا به بشكل حقيقي، ويقف عنده لينجو من التهلكة. وأما الشخص الثاني فحيث لا يميل إلى مثل هذا الاعتقاد، فإنه لا يحمل نفسـه على التماهي مع معايير الجماعة، وإذا توفّرت له الفرصة

١. آک برن، ونيم كف، زمينه جامعه شناسى، ص ١٧١.

فإنه سينتهك هذه المعايير دون تردّد ويقدّم مصلحته بل وحتى رغبته على مصالح المجتمع، وسوف يجتاز إشارة المرور الحمراء إذا تأكد من غياب الرقابة.

وبذلك يتضح أن التنشـئة الثقافية أكثر فائدة للمجتمع والأفراد من التنشـئة الاجتماعية؛ وذلـك أولًا: لأن الغايـة المتمثلـة بتماهي الفرد مـع المعايير الاجتماعية تحظى فيالتنشـئة الثقافية باستحكام واسـتمرارية أطول ولن تضمحل بسـهولة؛ إذ الاعتقاد والالتزام يدعمه. بخـلاف التنشـئة الاجتماعية حيث يكـون تناغم الفرد مـع المعايير الاجتماعية هشًّـا وغير مستقر وسريع الزوال. وثانيًا: ليسـت هناك حاجة في التنشئة الثقافي لتواجد الشرط ونصب الكاميرات والراقبة القانونية والرسـمية. وأما في التنشئة الاجتماعية فهناك حاجة إلى تواجد القانون وحضور الشـرطة وأنظمة السـلطة وفرض السـيطرة القانونية والرسمية. وفي حالة غياب السـيطرة الرسـمية ـ التي تمثل الضمانة التنفيذية للقوانين ـ سـوف يتعرّض المجتمع وأفـراده إلى الخطر. ذكر وليام جي. بينت في تقرير له: «حـدث انقطاع للتيار الكهربائي في مدينة نيويورك، واستمرّ هذا الانقطاع لخمسة وعشرين دقيقة. وقد حدث خلال هذه الدقائق العشـرات من جرائم القتل وخسائر لحقت بالمؤسسـات المالية الخاصة والحكومية تقدّر بآلاف الدولارات. ويعود السـبب في ذلـك إلى أن عين الرقابة قد فقئـت خلال هذه المدّة بسبب انقطاع التيار الكهربائي، ولم تتمكن أيّ قوّة قانونية من السيطرة على الانفلات الأمني والخروج على القانون».[1] إن هذا التقرير يُشـير بوضوح إلى أن التنشـئة الاجتماعية لا يفتقر إلى الدوام والاسـتمرار فحسب، بل ولا يمكنه ضمان الأمن الاجتماعي والنفسي أيضًا. هذا في حين أن التنشـئة الثقافية يحمل معه تباشير الأمن النفسي والهدوء الاجتماعي الذي يمثل مطلبًا وغاية مطمح لجميع أفراد المجتمع.

١. مريجي، جامعه شناسی در عرصه تبليغ دينی، ص ١٤٩.

التأكيد الديني على التنشئة الثقافية

لا شك في أن الغاية من خلق الإنسان، هي العمل على تكامل هذا الكائن المفعم بالأسرار والألغاز. وبطبيعة الحال فإن هذا الكائن والمخلوق الإلهي الفريد من نوعه، يحتاج إلى تعليم وهداية سرمدية من أجل الوصول إلى مقصده وغايته. ومن هنا فإن الخالق الحكيم والرحيم قد بعث الأنبياء لتحقيق هذا الأمر المهم، وقد أشار إلى هذه المسألة، بقوله: ﴿ **هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ** ﴾.[1]

لقد كانت الثقافة الدينية والقيَم الوحيانية هي المواد الدراسية التي جاء بها الأنبياء والمرسلون عليهم السلام من عند الله إلى الناس، وأخذوا يعلمونهم من طريق هذه المواد الدراسية؛ ليسلكوا طريق الكمال في ضوء نور هذه القيَم والثقافة الخالصة من أجل الوصول إلى شاطئ النجاة؛ حيث الطمأنينة والسكينة الحقيقية. والآن علينا أن نتساءل ونقول: أيّ واحد من هذين الأسلوبين سلكه الأنبياء في منهجهم التعليمي لهداية الناس، فهل انتهجوا أسلوب التنشئة الثقافية أم سلكوا التنشئة الاجتماعية، وعلى أي أساس ختموا رسالتهم؟

إن الذي يمكن قوله بشأن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، هو أنه قد انتهج كلا المنهجين على أتمّ وجه. ويمكن مشاهدة هذا الأمر بوضوح بعد هجرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى المدينة المنوّرة. فقد انتهج النبي الأكرم أسلوب التنشئة الاجتماعية في الغالب بالنسبة إلى اليهود والنصارى وجعل ذلك على قائمة مهامّه الحكومية؛ بمعنى أن هاتين الطائفتين وإن لم تكونا ملزمتين باعتناق الدين الإسلامي، ويمكن لأتباع هاتين الديانتين البقاء على دينهم فيما إذا لم يصدر عنهم عنوان أو تمرّد، ولكن يجب عليهم في الحياة الاجتماعية والحضور في المجتمع الإسلامي رعاية المعايير الحاكمة في المجتمع. ومن ذلك أن لا يجاهروا في شرب الخمر أو يعملوا على ممارسة طقوسهم الدينية في العلن.

---

١. الجمعة: ٢.

وأما أسلوب النبي الأكرم ﷺ في تعليم المسلمين والمتدينين فقد كان عبارة عن التنشئة الثقافية؛ بمعنى أن النبي الأكرم ﷺ كان يؤكد كثيرًا على الإيمان، وليس مجرّد الإسلام الذي يتحقق بمجرّد النطق بشهادة «لا إله إلا الله»، دون أن تنفذ تعاليم الوحي في أعماق وجودهم ويلتزمون بها عمليًا. لقد كان النبي الأكرم ﷺ يسعى إلى أن يجعل أتباعه من المؤمنين، وإن الإيمان في المجتمع هو الذي نعبّر عنه بمصطلح «التنشئة الثقافية».

إن قوله تعالى: ﴿ **قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ** ﴾،[1] يشير إلى هذه الحقيقة، وهي أن الهاجس الأكبر الذي كان يشغل اهتمام النبي الأكرم ﷺ، يتلخّص في تعليم الناس القيَم الإلهية بحيث تترسّخ في أعماق وجود المؤمنين. وقد كان هذا الأسلوب مورد تأكيد الدين والأنبياء عليهم السلام طوال التاريخ. فقد كان الأنبياء عليهم السلام يسعون على الدوام إلى أن ينعم المجتمع البشري بالصلح والأمان، وأن يتجلى الخلق الإنساني والإلهي في المجتمع، ولا يمكن لهذا الأمر أن يتحقق إلا من طريق التنشئة الثقافية.

إن قول الله تعالى: ﴿ **أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى** ﴾،[2] وكذلك قوله: ﴿ **وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ** ﴾،[3] يحكي عن السيطرة والرقابة الداخلية للإنسان على نفسه بشكل ذاتي وغير مفروض عليه من الخارج؛ بمعنى أن على الأفراد أن يربوا أنفسهم بحيث لا يحتاجون إلى سيطرة رسمية من قبل أجهزة الحكم والسلطة. وهذا الأمر إنما يتحقق في ضوء التنشئة الثقافية. في مسار التنشئة الاجتماعية يحتاج الشخص إلى رقابة رسمية من قبل الدولة، ولا يمكن إعطاؤه كامل الحرية وإطلاق يده في المجتمع دون مراقبة صارمة من قبل أجهزة الشرطة وقوّات الدرك والسلطات القضائية والحقوقية، وإلا فإنه لو ترك له الأمر

١. الحجرات: ١٤.
٢. العلق: ١٤.
٣. البقرة: ٢٨٤.

فسوف يلحق ضررًا بنفسه ويعرّض المجتمع للخطر أيضًا. في حين أن الشخص في التنشئة الثقافي لا يحتاج إلى رقابة خارجية. إن مثل هذا الشخص لن يفكر حتى في ارتكاب الذنوب؛ لاعتقاده بأنه سوف يُسأل عن ذلك يوم القيامة ويتعيّن عليه أن يجيب. إن هذا الأسلوب يمكن له أن يحقن المجتمع بمصل يضمن له الوقاية من شرور الإنسان، ويحقق له السلامة النفسية والأمن الاجتماعي.

دور الأسرة في تحقيق التنشئة الثقافية

إن البحث يدور حول الوقاية من الانحراف. وقد سبق أن ذكرنا أن السبب الرئيس لارتكاب الجرائم والسلوك المنحرف، يكمن في جهل الإنسان وعدم وعيه. ولحل هذه المعضلة هناك أسلوب مؤثر عنوانه التنشئة الثقافية، حيث يمكن الحصول ـ من خلال تحقيقه ـ على مجتمع آمن وأشخاص منسجمين مع المعايير الاجتماعية. وأما الدور الذي تلعبه الأسرة ـ متمثلة بالأب والأم والأخوة والأخوات والأقارب من جهة الأب والأقارب من جهة الأم ـ في إحلال التنشئة الثقافية، والعمل في الحقيقة من أجل الوقاية من الانحراف، هو الموضوع الأصلي للبحث في هذه المقالة.

لا شك في أن الأسرة تلعب دورًا فريدًا في توجيه أبنائها نحو التنشئة الثقافية. لا يمكن لأيّ عامل اجتماعي آخر في المجتمع ـ الأعم من المدارس والتجمعات والمحافل الدينية والأروقة العلمية والقنوات الإعلامية ـ أن يكون مؤثرًا في هذا الشأن مثل الأسرة؛ وذلك لأن الطفل يمضي السنوات الأولى من حياته ـ وهي تعدّ بطبيعة الحال من أهم المراحل التي تتبلور فيها شخصيته ـ في الحضن الدافئ لأسرته. إنه قبل وأكثر من أي مكان آخر يقع ضمن نطاق أسرته في بوتقة القيَم والنماذج السلوكية. ومن هنا فإن الطفل يمضي مدة أطول في هذه البوتقة. يُضاف إلى ذلك أن الطفل يطمئن ويركن إلى أسرته أكثر من أيّ شخص آخر. فهو يشعر بالأمن والطمأنينة ما دام يعيش في كنف أسرته. وبالتالي فإنه يرى الأسرة أحنّ عليه من أيّ كيان آخر.

تعدّ الأسرة في التعاليم الإسلامية وعلى أساس التأكيد الوارد في النصوص الدينية هي العنصر الأول وربما الفريد في تربية الأولاد على أساس التنشئة الثقافية. ومن هنا فإن الأسرة لو قصّرت في واجبها ومسؤوليتها في هذا الشأن، فإنها سوف تعرّض نفسها إلى المؤاخذة والعتاب. فقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «ويل لأطفال آخر الزمان من آبائهم!. فقيل: يا رسول الله، من آبائهم المشركين؟ فقال: لا، من آبائهم المؤمنين، لا يعلمونهم شيئًا من الفرائض».[١] من الواضح أن التعليم في الإسلام لأتباعه على طريقة التنشئة الثقافي تقع موردًا للتأكيد. من ذلك أن أمير المؤمنين علي عليه السلام يقول لابنه: «إنما قلب الحدَث كالأرض الخالية ما ألقي فيها من شيء قبلته. فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك ويشتغل لبّك».[٢]

وحيث تلعب الأسرة الدور الأصلي في توجيه أبنائها نحو التنشئة الثقافية، علينا أن نرى كيف يجب تحقيق هذا الأمر المهم. يذهب المختصون من العلماء في الشأن التربوي، إلى الاعتقاد بأن الأسرة إذا أرادت أن تحقق النجاح في مسار التنشئة الثقافي لأولادها، عليها أن تراعي المراحل الآتية:

الأنس الديني

إن المرحلة الأهم في مسألة التربية هي مرحلة العمل على تكوين الرؤية. ويذهب علماء النفس إلى الاعتقاد بأن ما نسبته خمسون بالمئة من النجاح في تحقيق هذا الأمر يعود إلى الرؤية الإيجابية. وهناك منهم من يذهب إلى الاعتقاد بأن نسبة تأثير الرؤية الإيجابية ترقى إلى ثمانين بالمئة. وإن على الأبوين أن يضعا في هذا الشأن برنامجًا خاصًا لتوجيه أولادهما نحو الدين والقيَم الإلهية في محيط البيت والأسرة التي تمثل منشأ تكوين ونموّ وتحوّل شخصيتهم، وأن يعملا على تحصينهم في العالم المعاصر ـ الزاخر بأنواع المغريات وألوان الدعايات المغرضة ـ للوقاية من آلاف الآفات.

١. نجفي يزدي، ازدواج و روابط زن و مرد، ص ١٣٤.
٢. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٥٣.

غالبًا ما نشاهد للأسف الشديد أن الوالدين أثناء أداء فريضة الصلاة يمنعون أولادهم الصغار من اللعب والكلام! أو يكون الأب مشغولًا بتلاوة القرآن الكريم ثم يصرخ على ولده المشاغب وينتهره ويعامله بقسوة، بدلًا من أن يتلطف معه ويبيّن له حلاوة أسرار الصلاة، وما لتلاوة القرآن من عذوبة وطلاوة، وبذلك فإنه يُسهم في أن تتكون في ذهن ولده وفلذة كبده طاقة سلبية تجاه القيَم الإلهية والفرائض الدينية، مثل الصلاة والقرآن الكريم. في حين يجب أن تعمّ أجواء البيت أثناء أداء فريضة الصلاة أو قراءة القرآن أجمل لحظات الحضور الأسري في كنف الدار؛ ليستمتع الأولاد في دفء الوالدين بحلاوة الصلاة وجمال قراءة القرآن الكريم.

إن هذا الأمر إنما يتحقق فيما لو رأينا قيمة واعتبارًا للولد، وأن نعمل في الوقت المناسب على إشراكه في إيجاد النشاط، بأن نعمل على خلق الحافز لديه عندما نهمّ بالذهاب إلى المسجد لإقامة الصلاة جماعة؛ فنرغّبه على مرافقتنا ولو بإعطائه هدية صغيرة، وبذلك سوف نخلق لدى الولد ميلًا إيجابيًا إلى الدين والقيَم. وبعد تحقق هذا الاتجاه، نضع أمامه طريق التعليم وتحصيل لطائف القيَم الإلهية، وبذلك نعدّ الولد إلى المرحلة اللاحقة المتمثلة بالتعوّد على أداء التكاليف والوظائف الدينية.[١]

التعويد الديني

إن مرحلة ما قبل البلوغ ـ أي المرحلة التي يحظى فيها الأطفال بخصوصيتين بارزتين، وهما: الطمأنينة والقابلية على التأثر ـ هي في الأساس مرحلة مهمّة جدًا؛ وذلك لأن العادات المكتسبة إنما تتبلور في هذه المرحلة. ولكن غالبًا ما تهمل الأسر هذه المرحلة ولا تعيرها الاهتمام الكافي، وتذهب أغلب الأسر إلى تصوّر أن القسر والإجبار أمر خاطئ، وأنه يجب أن يُمنح الأولاد حرية كاملة لكي يختاروا القيام بالفرائض وأداء التكاليف بأنفسهم. وفي بعض الأحيان يستدلون على صحّة هذا التصور بالحديث المأثور عن النبي الأكرم ﷺ، إذ

١. مريجي، جامعه شناسى در عرصه تبليغ دينى، ص ١٥٢.

يقول في مضمونه: «يجب ترك الصبي لسبع سنين، واعتباره في هذه المرحلة بوصفه أميرًا». وبذلك يغفلون عن حقيقة هامّة، وهي أن الأمير لا يحقّ له القيام بكل ما يحلو له من الأمور حتى ولو لم تكن معقولة. وإن الأمير والحاكم إنما يكون حكمه مطاعًا وأمره مستجابًا، إذا كان أمرًا حكيمًا وصائبًا.

ولكن علينا أن لا نغفل عن هذه الحقيقة، وهي أن إجبار الأولاد على القيام ببعض الأمور التي يؤمنون بصحتها، ولكنهم قد يتقاعسون عن امتثالها أو يتهاونون في أدائها، أو يبدون مشاكسة في القيام بها، لا يعدّ قسرًا وإكراها لهم عليها، بل ويمثل حافزًا يرفع ثقل الكسل وعدم الاهتمام عن كواهلهم. من ذلك ـ على سبيل المثال ـ لو كان الولد مؤمنًا بأصل الدين، ولكنه لا يجد من نفسه ميلًا إلى أداء الفرائض مثل الصلاة، ويتهاون أو يتساهل في القيام بها، ولا يُقيد نفسه بامتثالها، فإن إجباره عليها في مثل هذه الحالة لا يكون غير ممدوح فحسب، بل وقد ورد التأكيد عليه في النصوص الدينية وفي الروايات المأثورة عن الأئمة المعصومين عليهم السلام أيضًا، حيث ورد الأمر عنهم بإجبار الأولاد على الفرائض كي يعتادوا عليها. وبالنظر إلى وثاقة هذه الروايات ووضوحها وصراحتها، يتضح أنه لو كان هذا الإجبار ينطوي على تبعات سلبية، لما صدر مثل هذا الأمر عن الأئمة المعصومين عليهم السلام.[1]

المعرفة الدينية

إن الأطفال منذ أن يبلغوا سن الثانية عشرة من أعمارهم، يدخلون في المرحلة الانتزاعية أو النموّ التجريبي؛ بمعنى أنهم سوف يمتلكون القدرة على التفكير حول الأشياء والاستدلال عليها والإيمان بها واعتناقها حتى من دون رؤيتها. إن مرحلة المعرفة الدينية التي تتزامن تقريبًا مع مرحلة البلوغ، هي مرحلة البحث والتنقيب وطرح الأسئلة المتنوّعة،[2] من قبيل: لماذا يجب علينا أن نصلي؟ وكيف يمكن لله الواحد أن يكون حاضرًا ومتواجدًا في كل مكان؟

١. هراتي، «خانواده و تربيت فرزند»، ص ١١٠.
٢. م.ن.

والعشـرات من الأسـئلة المماثلة الأخرى. في هذه المرحلة يتعيّن على الوالدين أن يمهّدوا أرضية الأسـئلة لأولادهم، ثم يقومون بالإجابة عنها. في حين أن أغلب الآباء والأمهات ولا سيّما في آخر الزمان؛ حيث تنبأ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بها، لا يقومون ـ للأسف الشديد ـ بإعداد الأرضية اللازمة، إما بفعل الجهل أو عدم الالتفات، بل ويتخذون ردّة فعل غير مناسـبة تجاه أسـئلة أبنائهم، وقد يعملون فـي بعض الأحيان على خلق تابو من هـذه المواضيع التي تقع موردًا لتساؤل الأولاد، ويحرّمون عليهم أن يحوموا حولها، ويحذرونهم من الاقتراب منها.

وللأسف الشديد فإن أكثر الآباء والأمهات حيث يعجزون عن الإجابة أو القصور والجهل في خصوص الأسـئلة الدينية التي يثيرها أبناؤهم، فقد جعلهم هذا الأمر منفصلين عن الدين والتعاليم الدينية، وبسبب تصرفاتهم الخاطئة، يتسببون في ابتعاد أبنائهم عن الدين.

فـي حين أن هذه المرحلة بالغة الدقة وحساسـة للغاية؛ لأنهم يكونون عندها في مرحلة تبلور المعرفة الدينية؛ حيث يجب أن يخضـع فيها الأولاد للتلقين الديني والمعرفي، كي لا يتصوروا وجود شـرخ بين العلـم والدين، وأن طريق الدين يختلف عـن طريق العلم. إن ما يقوله الدين لا يتنافى مع العلم، وعليه يجب تربية الطفل بحيث لو بلغ مرحلة الشباب ودخل في رحاب الجامعة والدراسات العليا، لن يشعر بالخجل من إظهار التدين والتقيّد بالفرائض الدينيـة. إن هذا الأمر إنما هو نتيجة لذلك التصوّر القائل بالفصل بين العلم والدين، واعتبار أحدهما مخالفًا للآخر. في حين لا يوجد أيّ تناف بينهما؛ إذ أن العلم في حدّ ذاته يمثل وسيلة لاكتشاف الدين والأوامر الإلهية.[1]

ولا بد من الالتفات ـ بطبيعة الحال ـ إلى أن مرحلة الأنس الديني تغلب عليها حالة التلقين لـدى الطفل، وفي مرحلة التعود الديني تتبلور حالة التقليـد، وأما في مرحلة المعرفة الدينية تسـود الأولاد والأطفال ـ الـذي يخوضون تجربة مرحلة اليافعين ـ حالة التأسـي والاقتداء أكثر من أيّ شيء آخر. ومن هنا يجب العمل على تعريف الأولاد بالقدوات والأمثلة الدينية

١. جوادي آملي، شريعت در آينه معرفت، ص ١٥٣.

والإيجابية؛ وذلك لأن تقديم القدوات النموذجية للأولاد يضع في متناولهم أسوة جديرة بأن تحتذى، وهذا الأمر يشكل عاملًا وحافزًا لتحريكهم، ويمثل عنصرًا يحول دون انحرافهم، ويكون سببًا في تغيير الاتجاهات لديهم، وبالتالي فإنه يكون دليلًا على أحقية المذهب.[١]

الشاكلة الدينية

إن الشاكلة الدينية تعني أن الشخص إذا حصل على معرفة دينية، فإن الدين سوف يدخل في حياته، وتصبح رؤيته رؤية دينية. ونتيجة لذلك فإنه سوف يسعى لكي يكون الدين في جميع أبعاد الحياة في صلب جميع أعماله. وسوف ينصبّ كل اهتمامه على أن يكون سلوكه متطابقًا مع القيَم الإلهية. في هذه المرحلة لن يقوم الفرد بتقديم رغباته النفسية على القيَم الدينية ابدًا، بل وسوف يضحي حتى بنفسه من أجل القيَم الدينية.

لقد كان مسلم بن عبد الله المجاشعي مقاتلًا تحت لواء أمير المؤمنين عليه السلام، وكان حاضرًا معه في حرب الجمل، فكان مصداقًا بارزًا لتبلور الشاكلة الدينية في شخصه. فعندما قال أمير المؤمنين صلى الله عليه وآله لأصحابه قبل التحام الجيشين:

«من منكم يأخذ هذا المصحف فيدعوهم إليه وهو مقتول وأنا ضامن له على الله الجنة؟».

لم يقم أحد إلا مسلم حيث قال: أنا أعرضه عليهم يا أمير المؤمنين وقد احتسبت نفسي عند الله تعالى. فقال له الإمام عليه السلام: إنهم سوف يقطعون يدك، ويمزقون جسدك. فقال مسلم: أنا مستعد لذلك... فدفع إليه المصحف وقال: «امض إليهم واعرضه وادعهم إلى ما فيه». فأقبل الغلام حتى وقف بإزاء الصفوف ونشر المصحف أمام الأعداء، وقال: هذا كتاب الله ـ عزّ وجل ـ ولكنهم لم يمهلوه ليتمّ كلامه، إذ قطع أحد الأعداء يده بسيفه. فأخ مسلم المصحف بيده الأخرى وصاح في الأعداء، فقطعوا له يده الأخرى. فلم يكن أمام مسلم إلا أن اعتنق القرآن، وأخذ الأعداء يتناوشونه بأسيافهم ويطعنون جسده حتى مزقوه إربًا إربًا.[٢]

---

١. هراتي، «خانواده و تربيت فرزند»، ص ١١٠.

٢. مريجي، عوامل مؤثر در انحراف از ارزش ها، ص ١٠١.

ومن الواضح بطبيعة الحال أن الآباء والأمهات لو كانوا مصادقًا لحديث «كونوا دعاة الناس بغير ألسنتكم» في تعليم الدين لأولادهم من خلال أفعالهم وتصرفاتهم، فسوف نشهد مجتمعًا لا يغض أفراده الطرف ببساطة عن القيَم الإلهية. ومن الطبيعي أنه لا بدّ من الاستثمار والإنفاق في هذا المجال. فإذا لم يُبد الأبوان استعدادًا إلى الإنفاق من أجل الحفاظ على الدين والقيَم الدينية وامتثال الأوامر الإلهية، فإن الأولاد بدورهم لن يبدوا استعدادًا من أنفسهم لبذل كل وجودهم المادي والمعنوي في طريق الدين. ولا شك في أن الإنفاق لا يكون ماديًا فقط، فإن تحمّل الصعاب والتفاني والتضحية بالنفس يمثل جزءًا من الإنفاق اللازم من أجل إحياء الدين أيضًا.

التفاعل الديني التلقائي

إن هذه المرحلة إنما تتبلور حيث ينهل الفرد من التعلم والتربية الدينية، بحيث لن يرضى أبدًا في أن يهدر لحظة من عمره عبثًا، وسوف يكون حريصًا أشدّ الحرص على عدم إهدار الفرص. إنه يؤدي رسالته ومهامّه الدينية في كل زمان ومكان على أفضل وجه.[1] ولن يبالي سواء تعرّض لسخرية الآخرين واستهزائهم به أم لا، ولا فرق لديه بين أن يكون في بيئة دينية وإسلامية أو في بلاد الكفر، فإنه على كل حال لن يتخلى عن عبوديته لله سبحانه وتعالى. لقد رأيت في برلين بألمانيا شخصًا إيرانيًا من الموظفين في الإذاعة والتلفزيون الألماني. لم يكن هذا الشخص ليترك فرائضه الدينية أبدًا، ولم يفوّت صلاة الظهر في وقتها رغم أن وقت الظهيره يشكل ذروة العمل في الإذاعة. هذا في حين أن منتجات الإذاعة الألمانية ليست غير دينية فحسب، بل وهي موجّهة في الأعم الأغلب ضد الدين ولا سيّما الدين الإسلامي الحنيف.

وفي الحقيقة والواقع فإن هذه المرحلة هي مرحلة التكامل الديني. وبطبيعة الحال فإن عدد الذين ينجحون في الوصول إلى هذه المرحلة قليل جدًا. إلا أن ندرة الأشخاص

١. هراتي، «خانواده و تربيت فرزند»، ص ١١٠.

الذين يصلون إلى هذه المرحلة من التفاعل الديني التلقائي، لا يشكل دليلًا على استحالة وعدم إمكان هذه المرحلة. نواجه اليوم أنواع الحيل للعمل على اضمحلال الدين والتديّن في المجتمعات بما في ذلك المجتمعات الإسلامية أيضًا. والمهم في البين هو أن تعمل الأسَر من خلال الاستفادة من القيَم الشيعية الخالصة والأخذ من خوان التربية العلوية متاعًا لتحصين أنفسهم وأولادهم تجاه الأفخاخ والمصائد المتنوّعة والخطيرة للتيارت الإلحادية والمادية والعلمانية.

وإن كنا لا نستطيع إنكار هذه الحقيقة، وهي أن أغلب الأشخاص في المجتمع الإسلامي قلما يصلون إلى المرحلة الرابعة والخامسة، ولا سيّما المرحلة الخامسة، وهي المرحلة التي تحتاج إلى تخطيط وبرمجة دقيقة وصعبة من قبل أولياء الدين والثقافة الإسلامية. يجب على الحوزات العلمية والمؤسسات الثقافية في هذا الشأن أن تكون في الطليعة، وأن تساعد الأسر في هذا المجال. التنشئة الثقافية

٤. أساليب الأبوين في التنشئة الثقافية

لا شك في أن الوالدين يبذلان جهودًا متساوية تجاه جميع أولادهم، ويبذلان كل ما بوسعهما من أجل توفير الحياة الكريمة لهم لينعموا بمعيشة أفضل. تزعم أسرة أنها قد سلكت أفضل السبل في إطار العمل على هداية أفرادها. لا سيّما الأسر المتديّنة والمحافظة إذ تظن أنها تؤدي رسالتها الدينية في هذا الشأن على أفضل وجه. إلا أن الواقع لا يشهد بذلك. فإن الدراسات الاجتماعية والنفسية تثبت بشكل عام شيوع ثلاثة أنواع من الأساليب بين الأسر:

لقد عملت ديانا باومرايند ـ من خلال التحقيقات التي قامت بها في هذا الشأن ـ على تقسيم الأسَر إلى ثلاثة أقسام، وهي: الأسرة المتشدّدة، والأسرة المتساهلة، والأسرة المقتدرة. وفي ضوء هذا التبويب ذهبت إلى الاعتقاد بوجود ثلاثة أنواع من الأساليب التربوية المختلفة في الأسر، وإن لكل واحد من هذه الأساليب آثارًا متفاوتة في تبلور شخصية وازدهار وتربية

الأولاد على المستوى الاجتماعي والعاطفي والعقلاني وما إلى ذلك.[١]

وعلى الرغم من أن هذه الدراسة قد أنجزت بالنظر إلى البيئة الاجتماعية للغربيين، ولكن بالنظر إلى تشابه أصل الأساليب بين الأسر، فإن بمقدور المجتمعات الإسلامية أن تستفيد من هذه الدراسة الميدانية. إن التداعيات والتبعات التي تترتب على كل واحد من هذه الأساليب، تشتمل على قابلية التعميم، ويمكن لها أن تقع موردًا للاستفادة أيضًا.

أسلوب الأسرة المتشددة

تذهب بعض الأسَـر المتديّنة إلى الظن بضرورة التصرّف بحزم وشدّة في أمور الأولاد، كي يتمّ التأثير عليهم وجعلهم يتقيّدون بالقوانين والتعاليم الدينية. وفي هذه الأسَر المتشدّدة يتمّ التأكيد في الأسـاس على قـدرة الوالدين أكثر من الحدّ المطلـوب. إن هذا الصنف من الأسَر تابع لقواعد الدكتاتورية والاستبداد؛ بمعنى أن يكون هناك شخص واحد يبسط سلطته وسـيطرته على سلوك الآخرين. وغالبًا ما يكون هذا الشخص هو الأب، وفي بعض الأحيان تمارس الأم دور الأب في غيابه، وتقوم بأخذ دوره الرقابي في بسـط السـيطرة على سـلوك الأولاد.

في هذا النوع من الأسر لا يتخذ القرار سوى المستبد، وهو الذي يُبيّن الغايات والأهداف ويرسم الطريق ويحدّد وظائف الأفراد، ويعمل على تنظيم شؤون الحياة، ويجب على الجميع أن يتصرّف على وفق هواه وبما يتطابق مع إرادته ورغبته. فهو وحده الذي يحق له إبداء الرأي، ويجب على الآخرين أن يمتثلوا أوامره دون نقاش أو تردّد. إنه وحده الذي يستطيع تشخيص مصالح الأسرة والأولاد، وما على الآخرين إلا أن يذعنوا لرؤيته. إن الأب يتدخّل في الأعمال الخاصّة بأفراد الأسرة. وهو الذي يحدّد مواعيد العمل والتجوال والتنزّه والاسترخاء والنوم والدراسة وما إلى ذلك من الأمور التي يتعيّن على الأفراد فعلها.[٢]

---

١. مجموعة علم النفس في مؤسسة الإمام الخميني، تقويت نظام خانواده و آسيب شناسى آن، ص ٣٧٩.

٢. شريعتمداري، روانشناسى تربيت، ص ٢١٦.

إن الوالدين في هذا النوع من الأسَر هم الذين يفرضون القواعد على الأولاد بما يتناسب مع أعمارهم في ضوء تشخيصهم. من ذلك ـ على سبيل المثال ـ التشدّد تجاه الضوضاء أثناء اللعب، والنظافة، ونوع الألعاب وأدوات اللعب، وطريقة اللبس وما إلى ذلك، وفي الأساس فإنهما يتدخلان في جميع شؤون الأولاد، ويمارسان الضغوط عليهم. ولا يقتصر الأمر في ذلك على الأمور العامة فحسب، بل ويخضعانهم لسيطرتهم حتى في الأمور الجزئية والتفصيلية. إن الخطوط العريضة لسلوك الأسَر المتشدّدة، عبارة عن:

ـ فرض القوانين بشكل صارم لا يعرف المرونة، وعلى نحو لا يخضع للشرح والتوضيح.

ـ إظهار الغضب والامتعاض وعدم الرضا، وعدم تحمّل السلوك الخاطئ، والمبادرة إلى معاقبة الطفل.

ـ تجاهل رغبات ومطالب الأولاد، وعدم الاهتمام بما يرونه ويعتقدونه.

ـ من حيث الانضباط يتمّ الاعتماد على أساليب العنف والعقوبة، ويكون إظهار الحب والعطف من قبل الوالدين تجاه أولادهما على أدنى المستويات.[1]

من الواضح أن هذا النوع من السلوك والقوانين الحاكمة على الأسرة، يترتب عليه ـ مثل أيّ سلوك آخر ـ بعض التداعيات والتبعات. ولا شك في أن أغلب الأشخاص والأسَر لا يطيقون حمل هذه التبعات، ولا يرتضون أبدًا ظهورها في بيوتهم وأسرهم. ولكن على الرغم من ذلك سوف تحدث هذه التداعيات حتمًا. وإن بعض هذه التداعيات عبارة عن:

ـ الصخب في السلوك وعدم الاستقرار العاطفي، وعدم الاستقلال، والشعور بعدم الأمان والاضطراب.[2]

ـ عدم مشاركة الأولاد في النشاطات الجماعية، وتنصّلهم عن مسؤولياتهم في الحياة الاجتماعية.[3]

---

١. دفتر همكارى حوزه و دانشگاه، روانشناسى رشد، ج ٢، ص ٨٧٨.

٢. أحدي وبني جمال، روانشناسى رشد، ص ٧٠.

٣. دفتر همكارى حوزه و دانشگاه، روانشناسى رشد، ج ٢، ص ٨٧٥.

ـ عدم الهدوء الفكري واهتزاز الشخصية والميل نحو الانحراف الأخلاقي والاجتماعي.[١]

ـ عدم الإبداع في الأفعال والنشاطات.[٢]

ـ التشدّد الأعمى وعدم تحمّل الأفكار المختلفة.[٣]

يذهب المحققون والمتخصصون في العلوم التربوية إلى التأكيد على أن الأولاد في هذه الأسَـر المتشـدّدة وإن كانوا يبدون في الظاهر مطيعين ومنقادين، إلا أن تصرّفاتهم في أكثر الموارد تكون مقرونة بالصخب والتمرّد. وإنهم لا يحظون بالشـعبية والمحبوبية الكبيرة بين أقرانهم وأترابهم في اللعب؛ لأنهم لا يبدون احترامًا تجاه الآخرين؛ وذلك لأنهم تعلموا هذا السـلوك من آبائهم وأمهاتهم. في فضاء الأسَر المتشدّدة يسود الخوف والرعب على أعضاء الأسَـر. وهذا بدوره يترتب عليه أمران أساسـيان؛ فأولًا: إن الأولاد ولا سـيّما بعد بلوغهم مرحلة الشباب، يشعرون من الناحية الفكرية بالانفصال والاغتراب عن آبائهم. وثانيًا: بفعل الانعدام الأمني الحاصل، يقعون في أخطاء سلوكية متنوّعة، ويعدّ الهروب من المنزل واحدًا من بين هذه الأخطاء.[٤]

وبطبيعة الحال فإن المحدودية المطلقة في البيت، مع انتهاج الأسلوب التربوي المتشدّد، لا تـؤدي إلى عدم التزام الأولاد بالقوانين، ولا إلى عدم التزامهم بالدين في الأسَـر المتديّنة فحسب، بل ويؤدّي ذلك بهم إلى الانكسار النفسي وزوال الطاقة الخلاقة، ويحول دون تفتق الاستعدادات الكامنة في وجودهم أيضًا؛ وذلك لأن هذا الصنف من الأسَر لا يسمح للأولاد بممارسة النشاطات الإبداعية، ولا يتيح لهم فرصة تطوير قابلياتهم.

---

١. أحدي وبني جمال، روانشناسى رشد، ص ٧٠.

٢. قائمي، حدود آزادى در تربيت، ص ٨٠.

٣. منصور، احساس كهترى، ص ٢١٠.

٤. مهكام، خانه گريزى دختران، ص ٩.

أسلوب الأسرة المتساهلة

إلى الضدّ من الأسَر المتشدّدة، تذهب بعض الأسر إلى الظن بوجوب ترك الأولاد ـ ولا سيما منهم الأطفال الذين لم تتجاوز أعمارهم السبع سنوات ـ أحرارًا يفعلون كل ما يحلو لهم. وإنهم يدعمون هذا التصوّر الخاطئ بالحديث المعروف الذي يقسّم أدوار تربية الأولاد إلى ثلاث مراحل، وترى في المرحلة الأولى أن يتمّ التعامل مع الطفل إلى سبع سنين بوصفه أميرًا. وبطبيعة الحال فإن هذا الحديث الشريف لا يعني إسلاس القياد إلى الطفل بالمرّة، وإنما يعني الخضوع التام لمطالبه المعقولة. وعلى كل حال فإن الأولاد في الأسَر المتساهلة يُسمح لهم بأن يفعلوا كل ما يحلو لهم، وأن يحققوا رغباتهم ومشتهياتهم، وإن الشعار الذي يرفعه هذا الصنف من الأسَر يقول: «لا شأن لأحد بأحد»، واسمحوا لكل شخص أن يفعل كل ما يريد بحرية كاملة وأن يكون مستقلًا في أموره، ليتمكن الأولاد من الوصول إلى الاعتماد الكافي على أنفسهم.

في هذا الصنف من الأسَر تكون الرغبات هي المحور الأصلي الذي يحدّد جميع أنشطة الوالدين والأبناء. إن الآباء والأمّهات المؤيدين للحرية المطلقة في الأسَر، يذهبون إلى الاعتقاد بأن رغبات الأولاد يجب أن تكون هي الحاكمة على سلوكياتهم.[1]

إن من بين الخصائص الأخرى لهذا الأسلوب والمنهج التربوي، هو عدم الاهتمام بتعليم السلوكيات الاجتماعية. في هذا النوع من الأسَر تكون القوانين بشكل عام محدودة للغاية. ولا يكون الأفراد ملتزمين أمام القوانين والآداب والتقاليد الاجتماعية كثيرًا. وفي هذا النوع من الأسر هناك تعدّد في الآراء والمعتقدات بعدد الأولاد وأفراد الأسرة الواحدة. ولا يوجد هناك قانون خاص ينظم سلوك الجميع حتى في الأمور الجزئية والتفصيلية من قبيل تناول الطعام على سبيل المثال. وإن كل واحد من أعضاء الأسرة يختار طريقة تناوله للطعام على أساس القوانين الحاكمة على رغباته.

---

١. شريعتمداري، روانشناسي تربيت، ص ٢١٥.

إن بعض الخطوط العريضة التي تحكم سلوك الوالدين المتساهلين، عبارة عن:

- عدم الإعلان عن القوانين بشكل واضح، وعدم العزم والتصميم على تنفيذها.
- عدم وجود مقررات وقوانين انضباطية متماثلة في الأسَر.
- هناك توقع أو طلب متواضع تجاه السلوك المستقل والمزدهر.
- تجاهل السلوك القبيح للأولاد، والاستسلام لعناد الطفل وبكائه أو عتابه.
- إخفاء الغضب وعدم إبداء التشدّد إلا في الحدود الدنيا.[١]

كثيرًا ما نشاهد أن الآباء المتساهلون يقرّون بأنهم على الرغم من عدم انتهاج التشدّد في الأساليب التربوية، وتركهم الأولاد أحرارًا في تصرّفاتهم، إلا أنهم أخفقوا في تحقيق النتائج المطلوبة والمتمثلة في تنشئة أبنائهم على الطريقة الاجتماعية المثالية والمنشودة. والسرّ في ذلك يعود إلى أن الخطوط العريضة لسلوك الأسَر المتساهلة، تنطوي على بعض التداعيات والتبعات الآتية:

- يسود الهرج والمرج على العلاقات القائمة بين أفراد الأسرة.[٢]
- يصبح الأولاد متهتكين ولاأباليين ومتساهلين وأنانيين وغير هادفين.[٣]
- عدم الاستقلال الفكري والعملي، والاهتزاز النفسي والروحي، ومعاناة الأولاد من ضعف الشخصية.[٤]
- الاضطراب في التعامل الفردي والاجتماعي والنزاع مع الآخرين وعدم القدرة على حلّ المشاكل.[٥]

---

١. دفتر همكاري حوزه و دانشگاه، روانشناسي رشد، ج ٢، ص ٨٧٨.
٢. باول ماسن وآخرين، رشد و شخصيت كودك، ص ٤٤٦.
٣. شريعتمداري، روانشناسي تربيت، ص ٢١٥.
٤. دفتر همكاري حوزه و دانشگاه، روانشناسي رشد، ج ٢، ص ٨٧١.
٥. شعاري نجاد، روان شناسي رشد، ص ٤٨٢.

ـ عدم القدرة على السيطرة وكبح الانحرافات الأخلاقية والاجتماعية.[١]

وحيث أن الوالدين يسعيان ـ في هذا الأسلوب التربوي ـ إلى تلبية جميع متطلبات أولادهم، فإن الأولاد سوف يعتمدون في ذلك على آبائهم بشكل كامل، ولا يبذلون أيّ مجهود في هذا الشأن، والنتيجة تكون هي عجزهم وعدم قدرتهم على القيام بمهامهم الخاصة. ومن ناحية أخرى، بسبب عدم الاستفادة من الطاقات الكامنة في وجودهم بالقوّة، فإنهم يصبحون في العادة خاملين وفاقدين للإرادة أو لا يمتلكون سوى القليل من الإرادة في الحدّ الأدنى، ولا يمتلكون الجرأة والاندفاع من أجل مواجهة المشاكل غير المتوقّعة في الحياة، وبذلك فإنهم سوف يشعرون بالضعة تدريجيًا، مع أن المفروض بهم أن يتحولوا في المستقبل إلى رجال ونساء يحملون على عواتقهم مهمّة بناء المجتمع في المستقبل. وهذا بدوره يكون منشأ للكثير من المشاكل والاختلالات الروحية – النفسية والسلوكية الأخرى أيضًا.[٢]

أسلوب الأسرة المقتدرة

إن المراد من الأسرة المقتدرة، هي الأسرة التي يتمّ فيها ترك الطفل حرًّا في اختيار الأسلوب الذي يبدو من وجهة نظره مورثًا للوثوق والاطمئنان بشكل قاطع. في هذه الأسرة يتمّ تشجيع الطفل على الاستقلال والحرية الفكرية. وفي الوقت نفسه يتمّ إخضاعه لنوع من القيود والسيطرة من قبل الوالدين أيضًا. هناك في هذه الأسَر تعبير عن الرأي وحوار متبادل بين الطفل والوالدين، والتواصل الكلامي معه على نطاق واسع. وإن الحنان والدفء الأبوي والأمومي هو الأساس في إقامة التواصل على أسلوب منطقي وعقلاني.[٣] في هذا الأسلوب التربوي، يكون لكل واحد من أفراد الأسرة مهمّة بما يتناسب وحدود إمكانياته وقدراته في

١. أحمدى، «فرزند سالارى»، ص ١٨.

٢. دادستان، روانشناسى مرتضى تحولى از كودكى تابزرگسالى، ص ٩٧.

٣. م.ن.

تعيين واختيار الأهداف والغايات وبذل الجهود من أجل تحقيقها.

في الأسرة المقتدرة يكون الانضباط مقرونًا بالسلوك الإرادي. إن الوالدين حيث يمنعان الطفل من فعل شيء، أو يطلبان منه القيام بأمر معيّن، فإنهما يشرحان له الغاية من المنع والطلب بوضوح، ويقدمان له الدليل على ذلك. وفي هذه الصورة لو تقاعس الفرد في الأسرة عن القيام بمهامه، أو قام بفعل ما على خلاف ما تمّ تعيينه وإقراره من قبل الأسرة، فإن جميع أفراد الأسرة سوف يشاركون في تعيين العقوبة التي يستحقها. وفيما يتعلق بتحديد العقوبة يتمّ الاستناد إلى القرارات التي تمّ وضعها في هذا الشأن مسبقًا.

للحيلولة دون ارتكاب الأفعال القبيحة من قبل الأولاد، يسعى الوالدان في كل مورد إلى تنبيه أولادهم إلى تبعات أعمالهم، ويعملان على مساعدتهم ليديروا أفعالهم بأنفسهم. وعلى هذا الأساس تحلّ السيطرة الذاتية في تطبيق الانضباط في الأسرة والمجتمع محل السيطرة الخارجية.[١]

إن أسلوب حياة هذه الأسرة يقوم على أساس التشاور والتبعية للأسس العقلية والتفكير في العواقب واختيار الطريق الأصلح. في هذا الأسلوب لا تخيّم المحدودية المطلقة بظلالها، ولا تسود معضلة الحرية المطلقة، بل المعيار الذي يسود العلاقة بين الوالد / الولد، هو الحرية النسبية والمتوازنة، وكذلك الانضباط الموجّه؛ الذي يمنح الولد الفرصة الكافية للتعبير عن رأيه، ليشرح لوالديه ما يريده وما يعترض طريقه من المشاكل.[٢]

وعلى نحو الإجمال يمكن بيان أساس التربية والتعليم في الأسرة المقتدرة على النحو الآتي:

- إن جميع أفراد الأسرة يحظون بالاحترام، ويمتلكون صلاحية إبداء الرأي والتعبير عن المسائل الخاصّة بهم.

---

١. شريعتمداری، روانشناسی تربیت، ص ٢١٢ ـ ٢١٥.

٢. أحمدی، «فرزند سالاری»، ص ١٩.

ـ يمتلك جميع أفراد الأسـرة حق التدخل في اتخاذ القرارات الأسـرية، ويعملون على تحديد الأهداف والغايات والأساليب بما يتطابق مع مصالح الأسرة بأجمعها.
ـ يقوم الأسلوب العقلائي في جميع شؤون حياة الأسرة، ويقوم النشاط فيها على أساس التعاون.
ـ هناك قوانين واضحـة ومحدّدة، ويتمّ إبلاغها لجميع أفراد الأسـرة، ويتمّ العمل على تنفيذها بشكل قاطع.
ـ يحظى السـلوك البناء للطفل بالدعم والحماية، ويتم سـؤاله عن آرائه، وتؤخذ مطالبه المعقولة بنظر الاعتبار، مع إرشاده إلى طرق الوصول إليها وتحقيقها.
ـ يتمّ الوقوف بوجه الطفل المتطلب، ولا يتمّ الاستسلام لعناده، وإبداء الامتعاض وعدم الرضا بسلوكه الخاطئ.
ـ في حالة ارتكاب السـلوك الخاطئ والجامح، يشـترك جميع أفراد الأسـرة في تعيين العقوبة له، ويبدون رأيهم في ذلك.
ـ إبداء العطف للأولاد والاقتراب منهم والتحاور والتجاوب معهم، وتوقع سلوك مستقل وناضج من الطفل بما يتناسب مع سنه.[1]
ـ إن الأسـلوب المقتدر ـ مثل سائر الأسـاليب الأخرى ـ ينطوي على آثار، نذكر منها ما يأتي:
ـ إن أغلب الأولاد في هذه الأسَر عصاميون، ويتمتعون بثقة عالية بالنفس.
ـ إنهم أشـخاص زاخرون بالطاقة والحيوية، وفي الوقت نفسـه طيّعون ويمكن ضبطهم والسيطرة عليهم وكبح جماحهم.
ـ يتعاونون مع الكبار، ويتصرّفون مع أقرانهم بشـكل مناسـب، ويقيمون معهم علاقات قائمة على المودة والصداقة.

١. مجموعة علم النفس في مؤسسـة الإمام الخميني، تقويت نظام خانواده و آسيب شناسى آن، ص ٣٨٨، ١٣٨٦ هـ ش.

ـ يواجهون الضغوط النفسية بشجاعة، ويبدون رغبة تجاه الظروف المستجدة، ويظهرون من أنفسهم شغفًا بالاستطلاع وحبّ المعرفة.

ـ يتمتعون ببعد النظر والنظرة العميقة إلى الأهداف ويشعرون أنهم طليعيون.[١]

مع أدنى تأمّل في الأساليب المذكورة أعلاه، ندرك أن الأسلوب الممدوح الوحيد والذي تعمّ فوائده الإيجابية وتعود بالفضل والخير على الأسرة وحتى المجتمع هو الأسلوب المقتدر. إن الأسرة من وجهة نظر الإسلام وكذلك في منطق الروايات، لا يحق لها أن تنتهج أسلوب الاستبداد، ولا سلوك طريق التساهل في أمور وشؤون حياتها وحياة أفرادها. ولا يُكتفى بعدم السماح لهم بالتشدّد، بل ولا يحق لهم حتى لعن أولادهم أيضًا؛ لأن الذي يلعن أولاده ويغضب عليهم، سوف يفتقر.[٢] أو أن الذي لا يعبّر عن حبّه لأولاده فهو ملعون. وفي المقابل فإن كل من يُقبّل ولده، فإن الله يكتب له بذلك عملًا صالحًا.[٣] وفي الوقت نفسه جاء في الروايات الحث على المبادرة من أجل تعريف الشباب على أحاديث وثقافة أهل البيت عليهم السلام، وأن يتشدّدوا في ذلك.[٤] وفي الحقيقة فإن أسلوب الاقتدار والأسرة المقتدرة موضع تأييد العقل، كما يؤكد عليه النقل أيضًا.

---

١. دفتر همكارى حوزه و دانشگاه، روانشناسى رشد، ج ٢، ص ٨٧٩.

٢. المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٠١، ص ١٠٥.

٣. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ١٩٦.

٤. م.ن، ص ١٩٤.

النتيجة

لا شــك في أن الهدوء والسكينة من المطالب المهمّة والأساســية للإنسان الذي يختار العيش فــي بحبوحة الحياة الاجتماعيــة. وعلى الرغم من حصول الإنســان على الكثير من فرص التقدم على المســتوى الفني والتنظيمي من أجل تحقيــق هذه الغاية المهمّة، ولكنه لا يزال متخبّطًا في حلّ معضلة اســمها الاضطراب والانحراف السلوكي في المجتمع. وعلى الرغم من جميع وســائل السيطرة، نشــهد ارتفاعًا مطردًا في وتيرة الانحرافات الاجتماعية، وهكذا يواصل الناس حسرتهم في الحصول على الهدوء والحياة المطلوبة.

وبطبيعة الحال فقد تمّ العمل على تقديم دراسات وجهود علمية كثيرة من أجل حلّ هذه المعضلة العالمية، بيد أن الذي يتفق عليه رأي الجميع هو أن أغلب هذه الانحرافات إنما ينشأ بفعل الجهل وعدم الوعي، وإن طريقة الحل الوحيد للتغلب على هذه المشكلة تكمن في بثّ الوعي بطريقتين، وهما: طريقة التنشــئة الاجتماعية، وطريقة التنشئة الثقافية. وبطبيعة الحال فــإن الطريقة الثانية هي الأجدى والأكثر نفعًا، ولكنها لم تعد ممكنة في المجتمعات الغربية، أو صار تطبيقها في غاية الصعوبة والتعقيد؛ لأن العنصر الوحيد فيها هو الأســرة التي فقدت قدرتها على السيطرة في الوقت الراهن.

لقد اثبتنا في هذه الدراسة أن الأسرة قادرة على حل معضلة الانحرافات أكثر من أيّ عنصر آخــر. فهي العنصر الوحيد الذي يمكنه إنقاذ المجتمع مــن الانحرافات، وقد عملت بالفعل على حلّ هذه المعضلة إلى حدّ كبير. ولو تمّ انتهاج أحد الأسلوبين (المتشدّد أو المتساهل) في أسلوبها التربوي، فإن المجتمع سوف يشــهد الكثير من الاضطرابات والمشاكل التي لا قبل لمؤسســات السلطة الرسمية في المجتمع على حلها ومواجهتها. وأما إذا لجأت الأسرة إلى الأسلوب المقتدر، فإنها سوف تقدّم إلى المجتمع جيلًا متماهيًا على المستوى الثقافي، والذي يكون التقليل من أعداد الجريمة والانحراف واحدًا من آثاره ونتائجه.

المصادر

١. اتيكسون، ريتشارد وارنست هيلغارد، زمينه روان شناسى، ترجمه إلى اللغة الفارسية: مجموعة من المترجمين، طهران، انتشارات رشد، ط ٦، ١٣٧١ هـ ش.
٢. أحدي، حسن وشكوه السادات بني جمال، روانشناسى رشد، طهران، انتشارات بنياد، ط ٣، ١٣٧٤ هـ ش.
٣. أحمدي، محمد رضا، «فرزند سالارى»، مجله كتاب زنان، العدد: ١٥، ص ١٤ ـ ٢٧، ربيع عام ١٣٨١ هـ ش.
٤. آگبرن، ويليام‌فيلدينگ، ونيم‌كوف، مايرفرانسيس، زمينه جامعه شناسى، ترجمه إلى اللغة الفارسية: إيرج آريان بور، طهران، نشر گسترده، ط ٣، ١٣٨٠ هـ ش.
٥. دادستان، پريرخ، روانشناسى مرضى تحولى از كودكى تا بزرگسالى، طهران، انتشارات سمت، ط ١، ١٣٧٦ هـ ش.
٦. ترابى، على أكبر، مبانى جامعه شناسى، طهران، نشر إقبال، ط ١، ١٣٥٣ هـ ش.
٧. جوادي آملي، عبد الله، شريعت در آينه معرفت، قم، نشر فرهنگي رجاء، ط ١، ١٣٧٢ هـ ش.
٨. حسيني دهشير، أفضل السادات، نگرشى به تربيت اخلاقى از ديدگاه اسلام، قم، سازمان تبليغات اسلامي، ط ١، ١٣٧٠ هـ ش.
٩. دانش، تاج زمان، مجرم كيست، جرم شناسى چيست؟، طهران، مؤسسة كيهان، ط ١، ١٣٦٩ هـ ش.
١٠. دفتر همكارى حوزه و دانشگاه، روانشناسى رشد، طهران، انتشارات سمت، ط ١، ١٣٧٢ هـ ش.
١١. دوركهايم، إميل، درباره تقسيم كار اجتماعى، ترجمه إلى اللغة الفارسية: باقر برهام، بابل، انتشارات كتاب سراي بابل، ط ١، ١٣٦٩ هـ ش.

١٢. شريعتمداری، علی، روانشناسی تربیت، طهران، انتشارات أمير كبير، ط ٢، ١٣٧٧ هـ ش.
١٣. شعاري نژاد، علی أكبر، روان شناسی رشد، طهران، نشر اطلاعات، ط ٢، ١٣٧٢ هـ ش.
١٤. الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، طهران، المكتبة الإسلامية، ط ٦، ١٣٦٢ هـ ش.
١٥. قائمي، علي، حدود آزادی در تربيت، طهران، سازمان انجمن أولياء و مربيان جمهوری اسلامی، ط ١، ١٣٧٩ هـ ش.
١٦. الفارابي، أبو نصر، انديشه‌های اهل مدينه (آراء أهل المدينة الفاضلة ومضاداتها)، ترجمه إلى اللغة الفارسية: د. سعيد جعفر سجادي، طهران، انتشارات كتاب خانه طهوري، ط ١، ١٣٦١ هـ ش.
١٧. القمي، عباس، مفاتيح الجنان، قم، نشر آيين دانش، ط ١، ١٣٨٧ هـ ش.
١٨. كوئين، بروس، مبانی جامعه شناسی، ترجمه إلى الغة الفارسية واقتبس منه: غلام عباس توسلي، ورضا فاضل زرندي، طهران، نشر سمت، ط ٥، ١٣٧٢ هـ ش.
١٩. مجموعة علم النفس في مؤسسة الإمام الخميني، تقويت نظام خانواده و آسيب شناسي آن، قم، مؤسسه آموزشي پژوهشي امام خميني، ط ١، ١٣٨٦ هـ ش.
٢٠. ماسن، هنري باول وآخرون، رشد و شخصيت كودک، ترجمه إلى اللغة الفارسية: مهشيد پاسايي، طهران، نشر مركز، ط ٢، ١٣٨٠ هـ ش.
٢١. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، بيروت، مؤسسة الوفاء، ط ٣، ١٤١٠ هـ.
٢٢. محمدي ري شهري، محمد، ميزان الحكمة، طهران، مكتب الإعلام الإسلامي، ط ١، ١٣٦٣ هـ ش.
٢٣. مريجي، شمس الله، جامعه شناسی در عرصه تبليغ دينی، قم، بوستان كتاب، ط ١، ١٣٨٩ هـ ش.
٢٤. ــــــــــــــــ، عوامل مؤثر در انحراف از ارزش ها، قم، مركز پژوهش های اسلامی صدا و سيما، ط ٢، ١٣٨٧ هـ ش.

٢٥. مصباح اليزدي، محمد تقي، جامعه و تاريخ از ديدگاه قرآن، قم، سازمان تبليغات اسلامى، ط ٢، ١٣٧٢ هـ ش.
٢٦. منصور، محمود، احساس كهترى، طهران، دانشگاه طهران، ط ١، ١٣٧١ هـ ش.
٢٧. مهكام، رضا، خانه گريزى دختران، قم، مركز پژوهش هاى اسلامى صدا و سيما، ط ١، ١٣٨٣ هـ ش.
٢٨. نجفي يزدي، سيد محمد، ازدواج و روابط زن و مرد، قم، دفتر نشر انتشارات اسلامي، ط ٣، ١٣٧٨ هـ ش.
٢٩. هراتي، حسين، خانواده و تربيت فرزند، (سلسلة محاضرات)، طهران، سازمان انجمن أولياء و مربيان جمهوري اسلامي، ط ١، شهر آبان (٨)، سنة ١٣٧٨ هـ ش.
٣٠. هومن، أحمد، زندان و زندانى ها، طهران، دانشگاه طهران، ط ١، ١٣٣٩ هـ ش.

النسبة بين حجاب المرأة والتماسك الأسري في التعاليم الدينية[1]

سعيد نظري توكلي[2]

المقدمة

عندما نتحدّث عن الاحتياجات الجنسية، إنما نتحدّث عن حقيقة لا يكون هناك ما يدعو إلى الخجل منها، بل ويُعدّ السعي إلى تلبية هذه الغريزة أمرًا ضروريًا، بل ومقدسًا أيضًا. لا شك في أن تلبية هذه الحاجة من بين أهم عوامل تشكيل الأسرة وبقائها. وفي التعاليم الدينية ـ ضمن الالتفات إلى هذه الرغبة الطبيعية والإقرار بالحق في تلبيتها ـ تمّ وضع أحكام وتشريعات من شأنها أن تعمل على تسريع دخول الرجال والنساء من العازبين والعازبات إلى هذه البوتقة الاجتماعية.

ومن هنا فإنه على الرغم من وجود الأحكام المشدّدة في كيفية تنظيم العلاقة بين غير المحارم من الرجال والنساء، فقد أبيح للرجل قبل الزواج وفي مقام الخطوبة أن يتعرّف في الحدود المتعارفة على جماليات زوجة المستقبل، كما أبيح للمرأة أن تعرض هذه الجماليات على مرأى من يقصد أن يكون زوجًا لها.[3]

---

١. المصدر: نُشرت هذه المقالة باللغة الفارسية تحت عنوان «بررسی نسبت میان پوشش بانوان و استحکام خانواده در آموزه های دینی» في مجلة مطالعات اسلامي فقه و اصول التي تصدر في جمهورية إيران الإسلامية، السنة الثانية والأربعون، العدد: ١ / ٨٤، ربيع وصيف عام ١٣٨٩ هـ ش، الصفحات: ١٨٤ ـ ١٥٣.

تعريب: حسن علي مطر

٢. أستاذ مساعد في جامعة فردوسي في مدينة مشهد.

٣. رشيد پور، تعادل و استحکام خانواده، ص ٩٤ ـ ٩٦، وص ١٠٠ ـ ١٠٥.

وفي هذا الإطار يُعد الجمال الظاهري من الأهمّية بحيث يعتبر واحدًا من ملاكات اختيار الزوجة، ومن هنا فقد ذهبت بعض النصوص الدينية إلى اعتبار الزوجة الحسناء من عناصر السعادة وملاكات الفضيلة.[١]

الدوافع العاطفية - النفسية في تكوين الأسرة

بالإضافة إلى تلبية الرغبة الجنسية، يمكن لنا أن نرصد أهدافًا وغايات أخرى يُنظر إليها من وراء تكوين الأسرة، من قبيل: بقاء النسل وتربية الأجيال، والمشاركة في الحياة المادية والمعنوية، وتلبية الاحتياجات الاقتصادية، والحصول على الجاه والسلطة والمنزلة الاجتماعية.[٢] بيد أن القرآن الكريم في الآية ١٨٩ من سورة الأعراف، والآية ٢١ من سورة الروم، قد تحدّثتا عن مسألة خلق الرجل والمرأة وتحقق الاقتران بينهما، وقد تمّ الحديث في هاتين الآيتين عن تلبية الاحتياجات العاطفية – النفسية للرجل والمرأة بوصف ذلك غاية وهدفًا من الخلق:

ـ ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾.[٣]

ـ ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.[٤]

وعليه فإنه كما يُلاحظ في هاتين الآيتين الكريمتين، فإن الله سبحانه وتعالى قد تحدّث عن هاتين الحقيقة وهي أنه قد تمّ خلق زوج من كل نفس ليسكن إليها، وتم التعبير عن ذلك في هاتين الآيتين بلفظ: «ليسكن إليها»، و«لتسكنوا إليها».

وفيما يتعلق ببحث مضمون «السكون»، من الضروري الالتفات إلى نقطتين، وهما:

---

١. الكليني، الأصول من الكافي، ج ٥، ص ٣٣٥، ح: ٧، وص ٣٢٤، ح: ٤؛ الليثي الواسطي، عيون الحكم والمواعظ، ص ٢٢٨.

٢. كاهاني مقدّم، تعليم و تربيت در انديشه بو على سينا، ص ٤٧٢.

٣. الأعراف: ١٨٩.

٤. الروم: ٢١.

أولًا: معرفة مفهوم السكون

لقد ورد في النصوص التفسيرية بيان ثلاثة معان لـ«السكون»، وهي: الأنس،[١] والألفة،[٢] والملاذ.[٣] وبالإضافة إلى ذلك فقد أشار بعض المفسرين إلى معنيين تركيبيين آخرين أيضًا، وهما: الأنس والاطمئنان،[٤] والأنس والملاذ.[٥] ولكن يبدو أن المراد منه ـ بالنظر إلى الاستعمالات المماثلة له في القرآن الكريم[٦] ـ هو «السكينة».[٧]

ثانيًا: تحديد مساحة السكون

لا شك في أن الغاية من خلق المرأة والرجل ـ في ضوء بيان القرآن الكريم ـ هو الحصول على السكينة، ولكن هل هذه السكينة تكون من طرف واحد أو من طرفين؟ يذهب بعض المفسرين إلى الاعتقاد بأنه حيث يكون المراد من «نفس واحدة» و«زوجها» في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا** ﴾.[٨] وكذلك «من أنفسكم» و«أزواجًا» في قوله تعالى: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا** ﴾.[٩] على التوالي هو «آدم» و«حواء».[١٠] يجب أن نعترف بأن خلق حواء جاء بعد الفراغ من خلق آدم،[١١]

---

١. الطوسي، كتاب الخلاف، ج ٥، ص ٥١.

٢. المحلي،والسيوطي، تفسير الجلالين، ص ٢٢٣.

٣. ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ج ٦، ص ١٤٧.

٤. الطبرسي، جوامع الجامع، ج ١، ص ٧٢٩؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ٧، ص ٣٣٧.

٥. ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ج ٣، ص ٢٠٤.

٦. الأنعام: ٩٦؛ التوبة: ١٠٣.

٧. الراغب الإصفهاني، المفردات في غريب القرآن الكريم، ص ٢٣٧؛ الطريحي، مجمع البحرين، ج ٦، ص ٢٦٦.

٨. الأعراف: ١٨٩.

٩. الروم: ٢١.

١٠. الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٤، ص ٤٠٨؛ الشوكاني، فتح القدير، ج ٢، ص ١٧؛ ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ج ٦، ص ١٤٧.

١١. وعلى أساس هذا الاحتمال لم يكن خلق حواء بعد الفراغ من خلق آدم فحسب، بل وكان خلقها قد تمّ من جسد آدم وبقايا بدنه. انظر: الفيض الكاشاني، تفسير الصافي، ج ٢، ص ٢٥٩، ح: ١٨٩.

وذلــك لغرض تخليصه من الوحدة. وفي هذه الحالة تكون حواء قد خلقت لكي يحصل آدم على الســكينة[١]. [٢] ومن خلال تعميم ذلك إلى ســائر الناس تكون النساء قد خلق لكي يصل الرجال إلى السكينة.[٣]

وفي قبال هذا الاحتمال تم بيان القول بأن المراد من «نفس واحدة» و«أنفسكم»، هو الهيأة والشــكل الواحد،[٤] وأن المراد من «خلق الزوج منهــا» ـ بالنظر إلى أن الزوجية من المفاهيم المتضايفة ـ فإن مفردة «الزوج» تُطلق على الرجل وعلى المرأة أيضًا،[٥] هو خلق زوج من ذلك الجنس (الإنسان)[٦]. [٧] وعلى هذا الأساس فإن الله سبحانه وتعالى في هاتين الآيتين، في مقام بيان هذه المسألة، وهي أن الإنسانية حقيقة مشتركة بين جميع الناس، وأن هذه الحقيقة منشأ لظهور نوعين مختلفين، وهما الرجل والمرأة.

فلــو قبلنا بهــذا الاحتمال لا يعود بمقدورنــا الادعاء بأن الغاية من الاقتــران بين الرجل والمرأة هو تلبية حاجة الرجل، ونتيجة لذلك تحقيق السكينة بالنسبة له؛[٨] بل يجب القول إن

---

١. الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ٨، ص ٣٧٤.

٢. ذكر بعض المفسرين أن الشاهد على صحّة هذا الاحتمال، هو تتمّة الآية ١٨٩ من سورة الأعراف، وذلك إذ تحدّث الله عن العلاقة الجنسية بين آدم (النفس الواحدة) وحواء (زوجها) وحملها: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾. انظر: الطبرسي، جوامع الجامع، ج ١، ص ٧٢٩.

٣. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٤، ص ١٧، ١٤٠٥ هـ.

٤. الشــريف الرضي، حقائق التأويل في متشابه التنزيل، ص ٣٠٨؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ٧، ص ٣٣٩؛ الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج ٨، ص ٢٤٠.

٥. الخوئي، كتاب النكاح، ج ٢، ص ١٦٧.

٦. بالنظــر إلى هذه الرؤية إلى مفهوم هاتين الآيتين، ذهب بعض المفســرين إلى القول بانتفاء احتمال زواج الإنســان من غير الإنســان (الجن)؛ وذلك من حيث أن الزواج من الأجناس الأخرى لا يؤدي إلى تحقيق الســكينة. انظر: الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج ٨، ص ٢٤٠؛ ابن كثير القرشي، تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ٤٣٩.

٧. الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ١، ص ٧٢٩؛ الشوكاني، فتح القدير، ج ٢، ص ٢٧٤، وج ٤، ص ٢١٩؛ النحاس، معاني القرآن، ج ٥، ص ٢٥١؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٤٣٣.

٨. الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ٩، ص ١٩١.

الغاية من خلق الرجل والمرأة واقترانهما ببعضهما، هي تحصيل السكينة لهما على السواء؛[١] وذلك لأن الارتباط الزوجي بينهما، يشكّل سببًا للقضاء على النقص الموجود لدى كل واحد منهما والوصول إلى الكمال بالنسبة إليهما.[٢]

من الواضح أنه لو كان هذا الهدف هو المطلوب من خلق المرأة بالإضافة إلى الرجل، فإن الأرضية الأكبر لظهوره سوف تكون من خلال تحقق التزاوج بينهما وفي ظل بناء الأسرة. وعلى الرغم من أنه في ظرف تحقق الزواج وفي ظل الشرائط العادية، تعدّ تلبية الغريزة الجنسية واحدة من أرضيات الوصول إلى مثل هذه السكينة، ولكن حيث أن إشباع الغريزة الجنسية لا يستطيع لوحده أن يؤسس للسكينة الدائمة والمتواصلة في كيان الأسرة؛ نجد أن القرآن الكريم في تلك الآية لا يشير إلى تلبية الحاجة الجنسية في العلاقة الزوجية، وإنما يتحدّث بعد السكينة عن المودة والمحبة بين الزوجين، ويقول: ﴿ **وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً** ﴾.[٣]

في البحث المفهومي لهذا المقطع من الآية، نحن نواجه سؤالين، وهما:

أولًا: مفهوم المودّة والرحمة

إن اجتماع مفردتي «المودّة» و«الرحمة» في موضع واحد، يضعنا أمام هذا السؤال القائل: هل تمّ استعمال هاتين المفردتين بمعنى واحد، أم تحكي كل واحدة منهما عن معنى خاص؟ حيث أن الأصل في استعمال المفردات المختلفة هو عدم ترادفها المعنوي، يجب أن نبحث عن المعنى المراد من كل واحدة منها.

إن «المودّة» نوع من المحبّة التي يظهر «أثرها» أثناء العمل، وأما «المحبّة» فهي إنما تنظر إلى الإدراك الداخلي وهي خصوصية نفسية قد لا يكون لها أيّ أثر خارجي (من قبيل

---

١. الشريف الرضي، حقائق التأويل في متشابه التنزيل، ص٣٠٨ـ٣٠٩؛ سيد سابق، فقه السنة، ج ٢، ص ٨٧؛ ابن منظور، لسان العرب، ج ٦، ص ٢٠٣.

٢. الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ١٦، ص ١٦٦.

٣. الروم: ٢١.

الاختلاف بين الخضوع والخشوع).[١]

كما أن المراد من «الرحمة» هو نوع من ردّة الفعل النفسية التي تحصل عند مشاهدة حرمان وحاجة كائن ما، وتدفع الفرد إلى السعي من أجل القضاء على ذلك الحرمان وتلك الحاجة.[٢]

فإذا كان لدينا مثل هذا التصوّر عن مفهوم «المودّة» و«الرحمة» لن يكون بمقدورنا بعد ذلك أن نفسّر «المودّة» بـ«العلاقة الجنسية»، أو نفسّر «الرحمة» بـ«الولد»؛[٣] وذلك لأن «العلاقة الجنسية» وإن كان بمقدورها أن تكون دليلًا على التعبير عن المحبة، ولكن الأمر ليس كذلك على الدوام؛ فتارة يكون السلوك الجنسي لمجرّد إشباع الغريزة الجنسية دون أن تكون مدعومة بالعاطفة. ومن ناحية أخرى فإن سعي الأبوين إلى تلبية الاحتياجات المادية والمعنوية لأولادهم، وإن كان يعبّر عن واحد من تجليات وظهور خصائصهما النفسية المتمثلة بـ«الرحمة»، ولكن حيث أن الإطلاق المفهومي في عبارة ﴿**وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً**﴾ يشمل العلاقات بين الزوجين حتى قبل أن يكونا أبوين لأولاد أو حتى إذا كانا عقيمين، لا يمكن تفسير كلمة «الرحمة» ـ التي هي صفة نفسانية ـ بـ«الولد» الذي هو موجود خارجي.

كما أنه لن يكون بمقدورنا تفسير «المودّة» بـ«المحبّة»، أو تفسير «الرحمة» بـ«الشفقة»؛[٤] وذلك لأننا في «المودّة» و«الرحمة» ـ بالإضافة إلى الإحساس الداخلي ـ نحتاج إلى سلوك خارجي أيضًا؛ في حين أن «المحبّة» و«الشفقة» إنما تنظران إلى صفة نفسانية فقط.[٥]

وبالتالي لن يكون من المناسب اعتبار المودّة والرحمة مترادفين، والقول بأنهما يعنيان

---

١. الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ١٦، ص ١٦٦.

٢. م.ن.

٣. النحاس، معاني القرآن، ج ٥، ص ٢٥٣؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج ٦٠، ص ٣١١.

٤. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٤، ص ١٧؛ الشوكاني، فتح القدير، ج ٤، ص ٢١٩؛ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٨، ص ٥٤.

٥. بالنظر إلى هذه الجهة، ذهب الراغب الإصفهاني إلى تفسير «الرحمة» بـ«الرقّة» التي تكون سببًا إلى الإحسان إلى الآخر. (انظر: الراغب الإصفهاني، المفردات في غريب القرآن الكريم، ص ١٩١).

«الميـل القلبي» لدى الزوج والزوجة تجاه بعضهما؛[١] وذلك لأن الثقل المفهومي لكل واحد من هاتين الكلمتين يفوق مستوى الخصيصة النفسانية.

وعلى هذا الأسـاس، يبدو أن هاتين المفردتين «المودّة» و«الرحمة» في هذه الآية، قد تمّ استعمالهما بمعناهما اللغوي، وأن المراد منهما هو المحبّة ذات الظهور والتجلّي الخارجي بين الرجل والمرأة، وسعي كل واحد منهما إلى تلبية حاجة الآخر.

ثانيًا: مساحة المودّة والرحمة

إن وجود كلمة «بينكم» في هذا المقطع من الآية، يضعنا أمام هذا السـؤال الثاني القائل: هل دائرة المودّة والرحمة منحصرة بين الزوجين فقط؟ أم تشـمل سائر افراد الأسرة، وتمتدّ في الخطوة اللاحقة لتشمل جميع أفراد المجتمع أيضًا؟

لا شـكّ فـي أن وجود المودّة والرحمة في كيان الأسـرة، يدفع الأبويـن إلى بذل كل ما بوسـعهما من أجل تربية وتنشـئة أولادهما، الأمر الذي يضمن بقاء الذرية، واسـتمرار حياة الإنسان، وتوفير الحماية للأجيال من خطر الزوال.[٢] حيث يمكن لوجود هذا النوع من المودّة والرحمة على المسـتوى العام وبين أفراد المجتمع أن يؤثّر بدوره في اعتلاء القيَم الأخلاقية وارتقاء كيفية التعامل بينهم.[٣]

ولكـن يبدو من وضـع كلمة «بينكم» بعد جملة ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ أنها تحكي عن اختصاص المودّة والرحمة بين الزوجين،[٤] وتعبّر عن هذه الحقيقة وهي أن الله سـبحانه وتعالـى يعتبر التحقق التكويني للمودّة والرحمة بيـن الزوجين من العلامات الجديرة بتأمّل وتفكير الناس؛ حيث لم يكن هناك أيّ ارتباط قائم بينهما قبل إنشاء العلقة الزوجية بينهما.[٥]

---

١. النحاس، معاني القرآن، ج ٥، ص ٢٥٣؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٤، ص ١٧.

٢. وعلى هذا الأسـاس فقد ذهب بعضهم إلى الاعتقاد بأن «السكينة» إنما تخصّ دائرة الزوجية، وأما المودّة والرحمة فتجري بين الزوجين وسائر الأفراد الذين تربط بينهم أواصر القربى. (انظر: سيد سابق، فقه السنة، ج ٢، ص ٨٧).

٣. الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ١٦، ص ١٦٦.

٤. الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٨، ص ٥٤.

٥. الشوكاني، فتح القدير، ج ٤، ص ٢١٩؛ ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ج ٦، ص ١٤٧؛ الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ٢١، ص ٣٩.

وعليه فإننا نلاحظ أن القرآن الكريم قد استعمل مفردتي: «المودّة» و«الرحمة» ـ اللتين هما من أسمى الأوصاف التي تعبّر عن المشاعر والعواطف الإنسانية ـ بالنسبة إلى كيان الأسرة، ويؤكد ـ من خلال إقامة الارتباط والمحبّة بين الزوجين وسكينتهم ـ على هذا الأصل، وهو أن ركائز الأسرة إنما تحصل على استحكامها اللازم فيما لو قامت على ثلاثة عناصر، وهي: السكون والمودّة والرحمة؛ وذلك إذ مع توفّر المحبّة تزداد طاقة أفراد الأسرة ـ ولا سيّما الزوجين ـ على التحمّل، وتزول أسباب التوتّر بينهم أو تبقى في أدنى الحالات الممكنة، وتكون السكينة هي الحاكمة على فضاء الأسرة.[1] بناء على ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام فإن الأثر التربوي الأهم والأبرز للمحبة هو علوّ ورفعة الإيمان؛ إذ يسعى الإنسان إلى تلبية احتياجات الآخرين. وعليه لو اكتسب الشخص عنوان الزوج، فإن كانون محبّة الإنسان سوف ينقطع عن الاهتمام بكل ما سواه. وفي مثل هذه الحالة تزداد سكينة الإنسان شيئًا فشيئًا وعلى نحو تلقائي.[2]

وقد بيّن ابن سينا الارتباط بين هذه العناصر الجوهرية الثلاثة، قائلًا: «يجب أن يؤكد الأمر أيضًا في ثبوت هذه الوصلة [الزواج]، حتى لا يقع في كل نزق فرقة؛ فيؤدي ذلك إلى تشتت الشمل الجامع للأولاد ووالديهم؛ وإلى تجدد احتياج كل إنسان إلى المزاوجة؛ وفي أنواع من الضرر كثيرة؛ ولأن أكثر أسباب المصلحة هي المحبة، والمحبة لا تنعقد إلا بالألفة، والألفة لا تحصل إلا بالعادة، والعادة لا تحصل إلا بطول المخالطة».[3]

غني عن الذكر أنه على الرغم من أن أنس الزوجين ببعضهما وشعور كل واحد من الزوجين بالسكينة بالقرب من الآخر، هو ثمرة استمرار المحبّة وقيامهما بوظائفهما تجاه

---

١. كاهانى مقدّم، تعليم و تربيت در انديشه بو على سينا، ص ٣٨٠ و٣٧٨.

٢. من خلال محورية السكينة والمودة والرحمة في تنظيم العلاقات الجنسية، يتم الذهاب إلى عدم إمكان العلاقة الزوجية مع الزانيات اللاتي يتخذن من إقامة العلاقات الجنسية وسيلة للتكسب. (انظر: سيد سابق، فقه السنة، ج ٢، ص ٩٥).

٣. ابن سينا، الشفاء، ص ٤٤٩.

الآخـر،[1] ومن هذه الزاوية يتم اعتبار وجود الزوج ـ من وجهة نظر الدين ـ بوصفه نعمة وهبة إلهية تستحق الشكر والعرفان، بيد أن السكينة والارتباط العاطفي بين الزوجين في ظل كيان الأسرة، إنما هو شرط لازم لاستمرار العلاقة الزوجية، وليس شرطًا كافيًا في ذلك؛ وذلك إذ توجد هناك على الدوام عوامل متنوّعة لا يؤدّي تدخلها إلى تعزيز هذه العلاقة، بل وقد تشكل أرضية لتقويض هذه العلاقة.

إن القرآن الكريم عندما يتحدّث عن الاستخدام الخاطئ للتعاليم الدينية، يذكر السعي إلى إثارة الفتنة بين الزوجين وخلق الأرضية الخصبة لحدوث الشقاق والطلاق بينهما[2]. [3] وعلى هذا الأسـاس، فإن كل قول أو فعل من شـأنه أن يترك تأثيرًا سـلبيًا على نسبة سكينة الأسرة، ونتيجة لذلـك خفض الأواصر العاطفية بيـن الزوجين، حيث يخالـف الهدف من خلقهما واقترانهما ببعضهما، فإنه لا يكون مطلوبًا لله عزّ وجل، وتجب الحيلولة دون وقوع ذلك.[4]

القوانين الدينية واستحكام الأسرة

بالنظر إلى هذه الرؤية إلى تشكيل الأسرة، وضع الله سبحانه وتعالى وأهل البيت الأطهار عليهم السلام ـ في إطار القضايا المطروحة من قبل الوحي والسـنة ـ قوانين تحول دون تأثير مختلف العوامل التي تتأثر بها الأسرة، وتخفف من الهشاشة العاطفية بين الزوجين، لتزيد من استحكام أواصر العلاقة بينهما.

---

١. يرى ابن سينا أن وجود هذه الخصائص والصفات لدى المرأة، يُعدّ سببًا في استحكام الأسرة، وهي: العقل، والتديّن، والحياء، والذكاء، والمحبّة، والإنجاب، وعفّة اللسـان، والطاعة، وطهـر القلب وعدم الغش، وعدم خيانة الزوج في غيبته، والمتانة، والتواضع، وحسـن التدبير، والاقتصاد، والتحلي بحُسن الأخلاق. انظر: كاهاني مقدّم، تعليم و تربيت در انديشه بو علي سينا، ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦.

٢. البقرة: ١٠٢.

٣. على الرغم من أن المصادر التفسـيرية، تذكر طرقًا متنوّعة للانفصال بين الزوجين، من قبيل: الكراهية، والاختلاف العقائدي، والنميمة. (انظر: الطبرسـي، مجمع البيان في تفسـير القرآن، ج ١، ص ٣٣٢؛ الطباطبائي، الميزان في تفسـير القـرآن، ج ١، ص ٢٣٤؛ الجصاص، أحكام القرآن، ج ١، ص ٦٩؛ السـيوطي، الدر المنثور في التفسـير المأثـور، ج ١، ص ١٠٣)، بيـد أن من أبرزها جميعًا هو إظهار الأمور غير الواقعيـة بوصفها أمورًا واقعية. (انظر: الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ١، ص ٦٤٨ ـ ٦٤٩).

٤. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٢٨٥.

ومن بين هذه القوانين الأحكام التي تمّ وضعها من قبل الله سبحانه وتعالى لتنظيم العلاقة بين الزوجين وسائر الأشخاص الآخرين من خارج الأسرة.

لا شـك في أن الرجل والمرأة يمتلكان بنية جسدية مختلفة، وإن هذه الاختلافات ـ التي يمكن مشـاهدتها على المستوى الجسدي والروحي بوضوح ـ تعدّ الأرضية لظهور السلوك والأحاسـيس والمشـاعر المتنوّعة لـدى كل واحد منهمـا تجاه الآخر؛ وهي السـلوكيات والمشاعر التي يؤدّي ظهورها في خارج محيط الأسرة إلى زعزعة أركان الأسرة رهنًا بالزمان وشدّة تأثيرها.

لو قبلنا بأن الاختلاف الفسيولوجي بين المرأة والرجل يؤدّي إلى أن نكون أمام مؤثرات جنسية مختلفة، وأن تكون لدينا استجابات متفاوتة، يمكن لكيفية التعاطي مع هذه المحركات والاستجابة لها خارج محيط الأسرة وخارج إطار العلاقة الزوجية، أن تكون مؤثرة في مقدار استحكام الأسرة وبقائها.

ومن هنا نجد أن الله سبحانه وتعالى في خطابه لنساء النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ـ والذي يصدق على سائر نساء المسـلمين في ضوء أصل التعميم[1] أيضًا ـ يقول: ﴿ **يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا** ﴾.[2]

وكما نلاحظ فإن الله سـبحانه وتعالى من خلال هذا الخطـاب، يريد ـ من خلال تقليل أسباب الإثارة الجنسية للرجال والتي تحدث بواسطة الخضوع في القول ـ التقليل من إمكانية سوء استفادة المرضى قلبيًا من الرجال[3] إلى أدنى المستويات.

---

١. حتى إذا كان مفاد الآية هو الاختصاص بزوجات النبي، وأنه لا يشمل سائر النساء الأخريات، يمكن تعميم مضمونها على سـائر النساء أيضًا، وذلك من خلال الاستفادة من أصل الارتكاز. (انظر: الحكيم، مستمسك العروة الوثقى، ج ١٤، ص ٤٩؛ الروحاني، فقه الصادق في شرح التبصرة، ج ٢١، ص ١٣٥).

٢. الأحزاب: ٣٢.

٣. هنـاك احتمـالات مختلفة ورد ذكرها في النصوص التفسـيرية في بيان المراد من هذا المـرض القلبي، ومن بينها: النفاق، والميل إلى إقامة العلاقة الجنسية خارج إطار الزوجية، وعدم الإيمان. (انظر للمزيد من الاطلاع: الطوسي، التبيان في تفسـير القرآن، ج ٨، ص ٣٣٨؛ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٨، ص ١٥٥؛ الطباطبائي،

كما أن القرآن الكريم ينهى النساء عن المشي بشكل يستثير غرائز الرجال، وذلك إذ يقول: ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ﴾.[١]

من خلال هذا الاتجاه إلى كيفية التعامل بين المرأة والرجل خارج إطار الأسرة، أصدر الله تعالى أمرًا عامًا وشاملًا للنساء والرجال بأن يغضوا من أبصارهم، لكي يعمل على تجفيف مصادر الدنس والتي تعود في الغالب إلى الموارد الحضورية: ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ... وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾.[٢]

إن هذه الآية كما تحرّم على الرجل أن ينظر إلى الأجنبية بشهوة، كذلك فإنها تحرّم على المرأة أن تنظر إلى الأجنبي بنظرة محرّمة أيضًا،[٣] ولكن لا بدّ من الالتفات إلى هذه النقطة، وهي أن القرآن الكريم ليس بصدد تحريم جميع أشكال النظر على كل من الرجل والمرأة إلى الآخر، وذلك لأن مفردة «الغض» التي تمّ استعمالها في هذه الآيات مرتين بالنسبة إلى الرجل والمرأة، تعني «النقصان»،[٤] وإن اقترانها بكلمة «من»[٥] يدل على أنه لا يحرم النظر بجميع أشكاله، وإنما الحرام منه هو خصوص النظر إلى ما لا يجوز النظر إليه.[٦]

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٦، ص ٣٠٩؛ الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ٢٢، ص ٥؛ النحاس، معاني القرآن، ج ٥، ص ٣٤٥).

١. النور: ٣١.

٢. النور: ٣٠ ـ ٣١.

٣. الحلي، إيضاح الفوائد في شرح إشكالات القواعد، ج ٣، ص ٨؛ العاملي، مسالك الأفهام إلى تنقيح شرائع الإسلام، ج ٧، ص ٤٨؛ الأردبيلي، زبدة البيان في أحكام القرآن، ص ٥٤٣؛ البحراني، الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة، ج ٢٣، ص ٦٥؛ النووي، المجموع في شرح المهذّب، ج ١٦، ص ١٣٣.

٤. الراغب الإصفهاني، المفردات في غريب القرآن الكريم، ص ٣٦١.

٥. هناك احتمالات مذكورة بشأن ما هو المراد من كلمة «من» في هذه الآية. للمزيد من الاطلاع، انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص ١١٠ ـ ١١١؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٢، ص ٢٢٢؛ الروحاني، فقه الصادق في شرح التبصرة، ج ٢١، ص ٢١٧ ـ ٢١٨).

٦. المحلي، والسيوطي، تفسير الجلالين، ص ٤٦٢؛ الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ١٨، ص ١٥٥؛ الجصاص، أحكام القرآن، ج ٣، ص ٤٠٧؛ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٧، ص ٢٤١.

إن السيطرة على النظرة وإن كانت تمثّل الخطوة الأولى لتجنب طغيان الشهوة الجنسية التي تؤدّي إلى ضرب السكون النفسي والروحي للرجل والمرأة، ويضرّ بالغاية التي من أجلها تمّ خلق الإنسان بصنفيه الذكر والأنثى؛ ولكنها لا يمكن أن تكون كافية؛ إذ أن اختلاف الأعضاء الجنسة للنساء والرجال، ونوع تأثيرها على الطرف المقابل، بحيث أن الرجال مهما غضوا أبصارهم، إلا أن ظهور مجموع المفاتن النسوية المؤثرة في مسار الاستثارة الجنسية، تجعلهم على الدوام عرضة إلى هذه الاستثارة بشكل تلقائي، ومن هنا فإن القرآن الكريم من خلال تشريع مسألة الحجاب للنساء، سعى إلى التقليل من حجم التأثير المتبادل بين الرجل والمرأة خارج إطار الزوجية، والوصول بذلك مهما أمكن إلى أدنى المستويات.

لقد تمّ الحديث حول مسألة الحجاب والساتر للمرأة وكيفية هذا الحجاب في آيتين، ومن خلال استخدام مفردتين، وهما: «الجلباب»،[1] و«الخمار»،[2] ليؤكد بذلك على ضرورة وجود الحجاب والثوب الساتر للمرأة؛[3] إذ يقول تعالى:

ـ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾.[4]

ـ ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾.[5]

لو اعتبرنا مفردة «الجلباب» في الآية الأولى، مرادفة في المعنى لكلمة «الخمار» الواردة

---

١. الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس في جواهر القاموس، ج ١، ص ١٨٦. «الأصل الملحفة، ثم استعير لغيرها من الثياب».

٢. يطلق الخمار على كل شيء يغطّي البدن. وخمار المرأة هو الثوب الذي يغطّي رأس المرأة، ومن هنا يتمّ إطلاق لفظ الخمار على العمامة بالنسبة إلى الرجال. (انظر: سعدي، أبو جيب، القاموس الفقهي، ص ١٢٢ ـ ١٢٣، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٨ هـ؛ الراغب الإصفهاني، حسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن الكريم، ص ١٥٩).

٣. كما نلاحظ فإن القرآن الكريم في الآية الأولى، خاطب نساء النبي وبناته وكذلك نساء المؤمنين، وأوجب عليهن الحجاب. وهذا الخطاب يحكي عن أن جميع النساء مكلفات باتخاذ الحجاب مهما كان مستوى العفاف لديهن. (انظر: سيد سابق، فقه السنة، ج ٢، ص ٢١٠).

٤. الأحزاب: ٥٩.

٥. النور: ٣١.

في الآية الثانية،[١] يجب القول: إن الله سبحانه وتعالى ذكر في المرحلة الأولى مسألة وجوب أصل الحجاب والساتر على المرأة، ثم أشار بعد ذلك إلى كيفية هذا الحجاب والساتر.

وعلى هذا الأساس يجب على كل مسلمة أن تتخذ لنفسها حجابًا (خمارًا) لتستر به شعرها، ولكن يجب أن يكون هذا الخمار بحيث يُغطي ـ بالإضافة إلى الرأس والشعر ـ الرقبة وصولًا إلى الصدر[٢]. [٣] من الواضح أن وجوب تغطية وستر الشعر والرقبة، يدلّ بمفهوم الأولوية على وجوب تغطية سائر أعضاء جسم المرأة؛[٤] ولكن حيث أن تغطية كل عضو لا يرتبط بالضرورة بعدم إظهاره، يمكن للمرأة المسلمة مع تغطية شعر رأسها وجيدها أن تلبس الثياب، بحيث تبدي جسمها للآخرين أيضًا.

إن هذا الفهم ليس صحيحًا؛ وذلك لأن الأصل يقوم على عدم الترادف المعنوي للألفاظ المختلفة، إذن لا يمكن اعتبار مفردة «الجلباب» مرادفة لمعنى «الخمار». [٥] ومن هنا فإننا عندما نرجع إلى النصوص التفسيرية، نجد أن المفسرين في بيانهم لمعنى مفردة «الجلباب»

---

١. ابن منظور، لسان العرب، ج ١، ص ٣٥٩؛ الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، ج ٤، ص ٣٥٩.

٢. الأردبيلي، زبدة البيان في أحكام القرآن، ص ٥٤٣؛ الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص ١١٢؛ عظيم آبادي، عون المعبود في شرح سنن أبي داود، ج ١١، ص١٠٧.

٣. بالنظر إلى وجود هذا الاتجاه حول الخمار، هناك من ذهب إلى تفسيره بـ «المقنعة». (البحراني، الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة، ج ٢٣، ص ٦٥؛ الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج ٧، ص ٤٣٠؛ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٧، ص ٢٤١، وج ٨، ص ١٨١؛ الطريحي، تفسير غريب القرآن، ص ٢٣٨)، كما عرّفه العلامة المجلسي بأنه الثوب الطويل الذي يغطي النصف الأعلى من الجسم. (انظر: المجلسي، بحار الأنوار، ج ٨٠، ص ١٧٩).

٤. إن الاستناد إلى مفهوم الأولوية يثبت أن الادعاء القائل بأن آية الجلباب إنما تدل على وجوب تغطية الرقبة فقط، ولا تشمل تغطية سائر أعضاء جسم المرأة (انظر: المؤمن القمي، كتاب الصلاة، ص ٣٥٢)، لا يبدو صحيحًا.

٥. وعلى هذا الأساس لا يمكن لهذه التعاريف حول «الجلباب» أن تكون صحيحة: «الخمار الذي تغطي به رأسها ووجهها» (الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ١٦، ص ٣٣٩)؛ «خمار المرأة وهي المقنعة تغطي جيبها ورأسها» (الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج ٨، ص ٣٦١).

يستعملون هذه الكلمات: «الإزار»،[١] و«الرداء»،[٢] و«القميص»،[٣] و«القناع»،[٤] و«الملحفة».[٥]

إن التدقيق في هذه المعاني يكشف لنا عن نقطتين، وهما:

١. «الجلباب» ساتر أكبر من «الخمار».[٦]

٢. «الجلباب» ساتر يغطي جميع البدن.[٧]

وعلى هذا الأساس فإن النسبة المنطقية القائمة بين «الجلباب» و«الخمار» هي نسبة العموم والخصوص المطلق. فإن «الجلباب» إذا أمكن له تغطية الشعر والرأس والجيد بالنسبة إلى المرأة، كان ذلك كافيًا دون أن تكون هناك حاجة إلى «الخمار»، بيد أن «الخمار» وإن كان يؤدي إلى ستر الشعر والرأس والرقبة، ولكنه حيث لا يحجب سائر مفاتن المرأة عن أعين الأجانب، فإنه لن يكون كافيًا.

بالنظر إلى ما تقدّم، يمكن اعتبار «الجلباب» معادلًا لكلمة «الشادور» في اللغة الفارسية وما شاكلها،[٨] أو «المقنعة» التي هي أطول من الخمار الذي يُلقى فوق الثوب؛[٩] بيد أن

---

١. الزبيدي، تاج العروس في جواهر القاموس، ج ١، ص ١٨٦.

٢. الجصاص، أحكام القرآن، ج ٣، ص ٤٨٦.

٣. الطريحي، مجمع البحرين، ج ١، ص ٣٨٤.

٤. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٤، ص ٢٤٣.

٥. ابن كثير، إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ٥٢٦.

٦. «ثوب أكبر من الخمار» (انظر: الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، ج ٤، ص ٣٥٩). «ثوب واسع أوسع من الخمار ودون الرداء» (الطريحي، تفسير غريب القرآن، ص ٩١)، «الرداء فوق الخمار» (ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ٥٢٦).

٧. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٤، ص ٢٤٣؛ الشوكاني، فتح القدير، ج ٤، ص ٣٠٤؛ الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ١٦، ص ٣٣٩.

٨. «الملاءة التي تشتمل بها المرأة» (ابن منظور، لسان العرب، ج ١، ص ٢٧٣)، «الملحفة كلّ ما يُستتر به من كساء أو غيره» (الطريحي، مجمع البحرين، ج ١، ص ٣٨٤)، «ما تُغطى به ثيابها من فوق كالملحفة» (الزبيدي، تاج العروس في جواهر القاموس، ج ١، ص ١٨٦).

٩. الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ١٨، ص ٢١٩؛ السيوطي، الدر المنثور في التفسير المأثور، ج ٥، ص ٢٢٢.

اعتباره مرادفًا للثوب الذي يُعرف حاليًا بـ«الجبّة» والاستناد لذلك بالمَثَل القائل: «جاء البرد والجلباب» لإثبات صحّة ذلك ـ على ما ادعاه بعضهم ـ لا يبدو صحيحًا؛ إذ لا يتمّ ستر الرأس والرقبة بمثل الجبّة.

على الرغم من أن اتخاذ «الخمار» و«الجلباب» لستر الشعر والرأس والرقبة وأجزاء البدن، يُعدّ أمرًا ضروريًا، ولكن لا بدّ من الالتفات إلى أن هذه التغطية لا تشمل الوجه، وعليه لا تكون تغطية الوجه واجبة.[١] وعلى هذا الأساس وإن أمكن تصوير «ضرب الخمار» بحيث يشمل الوجه أيضًا،[٢] بيد أن القدر المتيقن من ذلك هو تغطية الشعر والرأس والرقبة، وإن ادعاء بعض المفسرين والفقهاء السنة القائل بوجوب تغطية جميع الوجه باستثناء عين واحدة،[٣] لا يستند إلى دليل.

كما يمكن استنباط عدم وجوب تغطية الوجه من قوله تعالى: ﴿ **وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا** ﴾[٤] أيضًا. إن الله سبحانه وتعالى يتحدّث في هذه الآية عن جواز إبداء الزينة الظاهرة. لا شك في أن المراد من الزينة هو ذلك الجزء من البدن الذي يكون موضعًا للزينة (مواضع الزينة)[٥]. [٦] وذلك لأن إظهار الزينة والنظر إليها لا يمكن أن يكون ممنوعًا في حدّ ذاته[٧]. [٨]

---

١. الحكيم، مستمسك العروة الوثقى، ج ٥، ص ٢٤٣، و١٤ / ٢٨؛ المؤمن القمي، كتاب الصلاة، ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥؛ ابن حزم، المحلى، ج ٣، ص ٢١٦.

٢. جوادي آملي، اسرار الصلاة، ص ٤٩ ـ ٥٠.

٣. الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، ج ٤، ص ٣٥٩؛ النحاس، معاني القرآن، ج ٥، ص ٣٧٨.

٤. النور: ٣١.

٥. الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٧، ص ٢٤١؛ الأردبيلي، زبدة البيان في أحكام القرآن، ص ٥٤٣؛ سيد سابق، فقه السنة، ج ١، ص ١٢٧.

٦. على الرغم ممّا يبدو من أن المراد من الزينة هو موضع الزينة، إلا أن بعض العلماء يذهب إلى الاعتقاد ـ بقرينة قوله تعالى ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ ـ بأن المراد هو الزينة نفسها. انظر: الخوئي، كتاب النكاح، ج ١، ص ٥٤.

٧. الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص ١١١؛ الخوئي، كتاب النكاح، ج ١، ص ٤٩، المسألة رقم: ٣١.

٨. إن سبب ذكر القرآن الكريم لعدم إبداء ذات الزينة بدلًا من الحديث عن مواضع الزينة وأجزاء البدن، هو المبالغة

وعلى هذا الأســاس فإن «ما يظهر من الزينة»، وتبعًا له أجزاء البدن التي لا يجب سترها، هي تلك الأجزاء التي تظهر في أكثر الموارد،[١] ولا تقوم النساء عادة بإخفائها.[٢]

بالنظــر إلى هــذه الرؤية إلى «الزينــة الظاهرة»، يمكــن القول بجواز عــدم تغطية الوجه والكفين؛[٣] وذلك لأن النســاء في نشــاطهن الاجتماعي ـ كما في البيع والشراء ـ يحتجن إلى إظهار هذه الأجزاء من أجســامهن، وقد قامت ســيرتهن على عــدم تغطية هذه الأجزاء على مختلف المراحل الزمنية، وهي السيرة التي لم تجد ردعًا أو مخالفة في حقل الدين أيضًا.[٤]

إن المؤيّد لهذا الفهم عن عنوان «الزينة الظاهرة»، هي الروايات الواردة في مصادر الشيعة وأهل الســنة في تفســير قوله تعالى ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَــرَ مِنْهَا ﴾. وبغض النظر عن الاحتمالات المختلفة المطروحة من قبل المفســرين والمحدّثين من الشــيعة وأهل الســنة في هذا الشــأن؛[٥] ورد في المصادر الروائية الشيعية عن الأئمة المعصومين عليهم السلام في توضيح «الزينــة الظاهرة»، عبارات تشــير إلى موارد من الزينة الظاهرة للنســاء، مــن قبيل: الكُحل،

في بيان وجوب وضرورة ســتر أجزاء البدن؛ وذلك لأنه لو كان ستر الزينة نفسها وعدم إظهارها واجبًا، يكون ستر موضع الزينة واجبًا بالأولوية. (انظر: الشوكاني، فتح القدير، ج ٦، ص ٢٤٣).

١. الدمياطي، إعانة الطالبين، ج ٣، ص ٣٠١.

٢. ابن رشد القرطبي، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ج ١، ص ٩٥.

٣. الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج ٤، ص ٢٤٨؛ الحلي، إيضاح الفوائد في شرح إشكالات القواعد، ج ٢، ص ١٠١؛ الرافعي، فتح العزيز في شــرح الوجيز، ج ٤، ص ٨٧؛ الشــربيني، الإقناع في حل ألفاظ الشجاع، ج ١، ص ١٣٥؛ ابن التركماني (الماردیني)، الجوهر النقي، ج ٢، ص ٢٢٥؛ ابن حزم، المحلى، ج ١٠، ص ٣٢.

٤. الحلي، إيضاح الفوائد في شرح إشكالات القواعد، ج ٤، ص ٢٧٢؛ البحراني، الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة، ج ٢٣، ص ٥٣؛ الخميني، مستند تحرير الوسيلة، ج ٢، ص ٤٢٥؛ النووي، المجموع في شرح المهذّب، ج ٣، ص ١٦٧؛ الفيض الكاشاني، تفسير الصافي، ج ٥، ص ١٢١.

٥. بعــض هذه الاحتمــالات، عبارة عن: اليد، والثــوب، والخاتم، والخضاب، والكحل، والســوار. (انظر: الكوفي، المصنف في الأحاديث والآثار، ج ٣، ص ٣٨٣ ـ ٣٨٤؛ الصنعاني، تفســير القرآن، ج ٣، ص ٥٦؛ الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ١٨، ص ١٥٧ ـ ١٥٨؛ ابن نجيم المصري، البحر الرائق في شــرح كنز الدقائق، ج ١، ص ٤٦٩؛ ابن حزم، المحلى، ج ٣، ص ٢٢١؛ الشوكاني، فتح القدير، ج ٦، ص ٢٤٣؛ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٧، ص ٢٤١؛ الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج ٧، ص ٤٢٩.

والخاتم، والسوار، والقُلب، والقُرط، والدُملج، والخلخال، والقلادة.[١] ولكن من بين هذه الأمور يختص الكحل والخاتم وأجزاء البدن التي تكون موضعًا للزينة، ونعني بذلك الوجه والكفين،[٢] بأنها هي التي تحتوي على تعميم ويكون إظهارها جائزًا للناظرين من جميع الرجال[٣].[٤] بيد أن إظهار سائر الموارد والأجزاء الخاصة بها، من قبيل: العضد والصدر والأذن والساق، إنما يجوز إظهارها بالنسبة إلى محارم المرأة، دون الأجانب[٥].[٦]

وعلاوة على هذا فقد وردت مسألة جواز إظهار المرأة لوجهها في الروايات الأخرى الناظرة إلى بيان حدود حجاب المرأة المسلمة أو النظر إلى الأجنبية، بشكل مباشر أو غير مباشر[٧].[٨]

---

١. القمي، تفسير القمي، ج ٢، ص ١٠١؛ الكليني، الأصول من الكافي، ج ٥، ص ٥٢١، الحديث رقم: ٣ و٤؛ الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ص ٢٣٢.

٢. الفيض الكاشاني، تفسير الصافي، ج ٥، ص ١٢١؛ القمي السبزواري، جامع الخلاف والوفاق بين الإمامية وبين أئمة الحجاز والعراق، ص ٤٩.

٣. المؤمن القمي، كتاب الصلاة، ص ٣٥٦.

٤. على الرغم من أن جواز إظهار الكفين والوجه يستلزم جواز النظر إليها عادة، إلا أن بعض الفقهاء أنكر هذا التلازم، وقال بأن عدم وجوب هذين الموضعين على النساء، لا ينهض دليلًا على جواز النظر إليهما من قبل الأجانب. (انظر: الخوئي، كتاب النكاح، ج ١، ص ٥٥ ـ ٥٦).

٥. الشوكاني، فتح القدير، ج ٦، ص ٢٤٣؛ الطريحي، تفسير غريب القرآن، ص ٥٤٢ ـ ٥٤٣.

٦. يمكن الحصول على هذا المطلب من التقسيمات الثلاثة المذكورة للزينة في رواية علي بن إبراهيم. (انظر: القمي، تفسير القمي، ج ٢، ص١٠١).

٧. القمي السبزواري، جامع الخلاف والوفاق بين الإمامية وبين أئمة الحجاز والعراق، ص ٤٩؛ الحميري، قرب الإسناد، ص ٨٢، الحديث رقم: ٢٧٠؛ الكليني، الأصول من الكافي، ج ٥، ص ٢٢٠، ح: ٢١.

٨. للوقوف على مختلف الاحتمالات في معنى رواية الفضيل بن يسار، انظر: البحراني، الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة، ج ٢٣، ص ٥٥؛ الخميني، مستند تحرير الوسيلة، ج ٢، ص ٤٢٥؛ المؤمن القمي، كتاب الصلاة، ص ٣٥٥.

والنتيجة: إذا لم يكن عنوان «ضرب الخمار على الجيوب» صريحًا في جواز عدم تغطية الوجه،[١] فإن عنوان «إلا ما ظهر منها» يدل على جواز ذلك؛ ولكن لا بد من الالتفات إلى هذه النقطة وهي أن وجه المرأة الذي هو في حدّ ذاته زينة تكوينية، لو تمّ تزيينه بزينة أخرى غير الكحل ـ الوارد جوازه في بعض الروايات ـ عندها لن يجوز إظهاره ولا النظر إليه.[٢]

إن بيان وجوب الحجاب للنساء على هذا النحو من السعة في القرآن الكريم، يضعنا أمام سؤال جاد. لا شك في أن تنوّع الأعضاء الجنسية أو التي تحتوي على جاذبية جنسية لدى النساء وتأثير ذلك في مسار استثارة الرجال، أمر تكويني خارج عن إرادتهن واختيارهن؛ فلماذا يتعيّن عليهن دفع ضريبة الالتزام بالحجاب بسبب مسار تكويني لم يكن لهن أيّ دور في إيجاده؟

يُشير القرآن الكريم في مقام الإجابة عن هذا السؤال إلى هذه الحقيقة، وهي أنه كلما تم إظهار هذه الأعضاء أمام مرأى الرجال، فإنه سيخلق المزيد من أرضيات استثارتهم؛ وإن هذه الاستثارة سوف تنشّط سعيهم في تلبية هذه الغريزة خارج نطاق الأسرة، وسوف تكون المرأة الفاقدة للحجاب هي أول المتضررين من هذا الإغراء الصادر عنها أو عن مثيلاتها من النساء المتبرّجات؛ ومن هنا فقد عمد الله سبحانه وتعالى ـ بعد بيان مسألة الحجاب ـ إلى بيان علّة ذلك قائلًا: ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾.[٣]

ورد في بيان سبب نزول هذه الآية أن نساء المدينة لم يكن لهن بدّ من الذهاب إلى المسجد ليلًا ونهارًا لأداء الصلاة جماعة بإمامة رسول الله. وكان بعض الشباب يقفون في طريقهن ويتسببون لهن بأنواع الأذى؛ فأنزل الله الحكم بارتداء الجلباب على نساء المسلمين كي لا يتأذين.[٤]

---

١. ابن حزم، المحلى، ج ٣، ص ٢١٦.

٢. جوادي آملي، اسرار الصلاة، ص ٤٩ ـ ٥٠.

٣. الأحزاب: ٥٩.

٤. القمي، تفسير القمي، ج ٢، ص ١٩٦؛ العروسي الحويزي، تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٣٠٧؛ المجلسي، بحار

وفي الواقع فإن الظاهر غير اللائق لبعض النساء المسلمات في الشوارع العامة، خلق أرضية لكي يقوم بعض الطائشين من الشباب بالتعرّض لهن بالأذى، مظهرين بذلك سوء نواياهم.[١] وقد سعى القرآن الكريم ـ من خلال أمر النساء بالحجاب ـ إلى تجفيف جذور هذه الظاهرة.

إن التوضيح الآنف يظهر بوضوح أن وجوب الحجاب لم يكن مقتصرًا على مجموعة خاصّة من النساء، وإن هذا الاحتمال القائل بأن الحجاب إنما تمّ تشريعه لغرض التفريق بين الحرائر والإماء،[٢] وإن الآية لم تكن في مقام بيان وجوب الحجاب[٣].[٤] يمكن أن يكون صحيحًا، وذلك إذ بالإضافة إلى أن عنوان «نساء المؤمنين» يشمل الإماء أيضًا، فإن هذا الفهم للآية يستلزم جواز تعرّض الرجال المتهتكين لهذه الفئة من النساء المسلمات.[٥]

وعلى هذا الأساس فإن المراد من «يُعرفن» في هذه الآية، هو أن يعرفن بالعفاف والطهر،[٦] وسوف يكون الحجاب علامة عليه.

ومن هنا فإن ابن سينا كان يعتبر حراسة الرجل لكيان الأسرة والاهتمام بحجاب زوجته من الأدلة والمؤشرات على احترامه لزوجته.[٧]

الأنوار، ج ١٠١، ص ٣٣. وانظر أيضًا: الواحدي النيسابوري، أسباب النزول، ص ٢٤٥.

١. الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ١٨، ص ٢٢٠.

٢. جوادي آملي، اسرار الصلاة، ص ٥٢؛ مجاهد، تفسير مجاهد، ج ٢، ص ٥٢٠ ـ ٥٢١؛ الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ٢٢، ص ٥٦؛ الجصاص، أحكام القرآن، ج ٣، ص ٤٨٦؛ ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ج ٦، ص ٢١٦؛ السيوطي، الدر المنثور في التفسير المأثور، ج ٥، ص ٢٢١.

٣. المؤمن القمي، كتاب الصلاة، ص ٣٥٣.

٤. إن بيان هذه النظرية لا يعني أن ارتداء الجلباب لم يكن واجبًا أبدًا؛ وذلك لأن أنصار هذه النظرية يذهبون إلى الاعتقاد بأن صيانة المرأة إذا توقفت على ارتداء الجلباب، فسوف يكون واجبًا. (انظر: جوادي آملي، اسرار الصلاة، ص ٥٢).

٥. ابن حزم، المحلى، ج ٣، ص ٢١٨ ـ ٢١٩.

٦. ـ المجلسي، بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ١٨٦.

٧. كاهانى مقدّم، تعليم و تربيت در انديشه بو على سينا، ص ٣٨٩.

بالنظر إلى وجود مثل هذا الاتجاه إلى مسألة الحجاب والقبول بدوره في دعم كيان الأسرة، يمكن الوصول إلى نتيجتين مهمّتين، وهما:

أولًا: عدم وجوب الالتزام بالحجاب للنساء أمام الرجال الذين لم تعد لديهم شهوة جنسية. إن القرآن الكريم لم يوجب الحجاب على المرأة أمام صنفين من الرجال، وجعلهما في عداد المحارم من الدرجة الأولى للمرأة، واستثناهم من حكم الالتزام بالحجاب، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾.[١]

١ ـ «غير أولي الأربة من الرجال». إن مفردة «الإربة» من مادّة (أرب إليه، يأرب، أربًا) بمعنى «الاحتياج».[٢] وإن كان مفهوم عبارة «غير أولي الإربة من الرجال»،[٣] ولكن هناك احتمالات متعددة فيما يتعلق بصدق هذا العنوان على أي طائفة من الرجال: الشيوخ الطاعنين في السن الذين خمدت عندهم الشهوة إلى الجنس، والمصابون بالعنن والعجز الجنسي، أو الرجال المجبوبين الذين قطعت أعضاؤهم الذكرية، أو الذين تمّ إخصاؤهم، والخنثى والمجنون والبُله الذين لا يفكرون في غير طعامهم.[٤]

بغض النظر عن مدى صحة كل واحد من هذه الاحتمالات، إلا أن الثابت هو أن القرآن الكريم لم يرَ أي استغناء عن الجنس المخالف دليلًا على جواز عدم ارتداء المرأة للحجاب،

---

١. النور: ٣١.

٢. ابن منظور، لسان العرب، ج ١، ص ٢٠٨، ١٤٠٥ هـ.

٣. الراغب الإصفهاني، المفردات في غريب القرآن الكريم، ص ١٦.

٤. الحلي، إيضاح الفوائد في شرح إشكالات القواعد، ج ٣، ص ٧؛ النجفي، جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، ج ٢٩، ص ٩٥؛ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٧، ص ٢٤٢؛ الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج ٧، ص ٤٣٠؛ الروحاني، فقه الصادق في شرح التبصرة، ج ٢١، ص ١٣١؛ ابن عابدين، حاشية ردّ المختار على الدر المختار، ج ٦، ص ٦٩١؛ الراوندي، فقه القرآن، ج ٢، ص ١٢٩؛ الكركي، جامع المقاصد في شرح القواعد، ج ١٢، ص ٣٦؛ الثوري، تفسير سفيان الثوري، ص ٢٢٥؛ ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ٨، ص ٣٤٠؛ البخاري، صحيح البخاري، ج ٢، ص ٢٣٣.

وذلـك لأنه قد وصف هذه الطائفة من الرجال بكلمة «التابعين» أيضًا. والمراد من «التابعين» تلك المجموعة من الأشخاص الذين يفتقرون إلى الاستقلال في الحياة.[١] وعلى هذا الأساس فإن المستثنى في هذه الآية هم الرجال الذين لا يمتلكون القدرة المستقلة على تحمل تكاليف الحياة بالإضافة إلى افتقارهم إلى الشهوة الجنسية.[٢]

إذا كان لدينـا مثل هذا التوجه بإزاء عبـارة ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾، ففي مثل هذه الحالة يجب أن ندعي أن المراد منها إما هم الطاعنون في السن والذين فقدوا القدرة على إدارة حياتهم بسـبب تقدّمهم في العمر، كما خمدت شهوتهم الجنسية أيضًا، أو الرجال الذين لا يمكنهم العيش بشكل مستقل بسبب عدم امتلاكهم لسلامة العقل، بل ويفتقرون إلى أيّ إدراك عن الشهوة الجنسية أيضًا.[٣]

والشـاهد على صحّة هذا الفهم لهذا المقطع من الآية الكريمة، رواية زرارة ورواية عبد الرحمن بن أبي عبد الله، حيث ورد فيها تفسـير قوله تعالى: ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾، بالقول: «الأحمق الذي لا يأتي النسـاء».[٤] وقد جاء في تفسـير القمّي: «هو الشيخ الكبير الفاني الذي لا حاجة له في النساء».[٥]

وعلى هذا الأسـاس، لا يمكن عدّ الأشخاص ـ الذين يمتلكون الرغبة الجنسية ولكنهم فقدوا ـ بسـبب عارض أو حادث ـ جميع أو بعض أعضائهم التناسـلية (المجبوب)، أو على فرض بقاء أعضائهم الجنسـية إلا أنهم فقدوا القدرة على توظيفها جنسـيًا (العنين)،[٦] أو مع

---

١. «غير أولي الإربة... هم أتباع الزوج ممّن يخدمه مثل الشـيخ الفاني والعجوز الكبيرة». (ابن منظور، لسـان العرب، ج ٨، ص ٢٨).

٢. الخوئي، كتاب النكاح، ج ١، ص ٩٥.

٣. وعلـى هذا الأسـاس فإن تخصيص الآية بالرجـال العاجزين أو البُلـه الذين يفتقرون إلى الرغبة الجنسـية (انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص ١١٢) لا يبدو صحيحًا.

٤. الكليني، الأصول من الكافي، ج ٥، ص ٥٢٣.

٥. القمي، تفسير القمي، ج ٢، ص ١٠٢.

٦. إن الاختلاف حول ما إذا كانت القدرة على الاستفادة الجنسية تكفي في صدق عنوان «غير أولي الإربة من الرجال»

وجود سلامة الأعضاء الجنسية والقدرة على الاستفادة منها جنسيًا، فقد مجرّد رغبتهم في إظهار الممارسة الجنسية، أو مع وجود السلامة والقدرة والرغبة لا يمتلكون القدرة على إدارة حياتهم بشكل مستقل ـ من بين الرجال الذين لا يجب على النساء رعاية الحجاب أمامهم.[1]

٢ ـ ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾. لا شكّ في أن المراد من «عورات النساء» هو الأعضاء الجنسية الخاصة بالنساء، كما يمكن لكلمة «يظهروا» أن تكون بمعنى «الظهور» و«الوضوح» أو «الغلبة».

لقد وصف القرآن الكريم كلمة «الطفل» بعبارة: ﴿الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾. إن هذه العبارة كما يمكن أن تكون قيدًا تأكيديًا، يمكن أن تكون قيدًا احترازيًا أيضًا.

وفي الحالة الأولى نكون أمام مجموعة من الأشخاص الذين ندعوهم بـ«الأطفال»، وتتصف هذه المجموعة بعدم معرفة الأعضاء الجنسية للنساء أو لا يمتلكون القدرة على الاستفادة الجنسية منها. ومن الواضح في هذه الحالة أن الرجوع إلى العُرف من أجل فهم معنى «الطفل»، لنرى ما الذي يعنيه الناس عند استعمالهم لهذه المفردة، وأيّ فئة من الأطفال يقصدون بهذه المفردة. وأما في الحالة الثانية فإننا نواجه فئات سنية وعمْرية متنوّعة من الصبيان لا يمكن إلا وصف بعضهم بعبارة ﴿الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾؛ وبالتالي يجب أن نعمل على تحديد هذه الفئة من بين مجموع الصبيان؛ لنرى من هم الصبيان الذين استثناهم الله بهذه العبارة، ولم يفرض على النساء وجوب رعاية الحجاب أمامهم.

أم لا، قد أدى إلى حصول الاختلاف بين الفقهاء حول جواز أو عدم جواز نظر الأشخاص المخصيين إلى النساء الأجنبيات. (العاملي، مسالك الأفهام إلى تنقيح شرائع الإسلام، ج ٧، ص ٥٥ ١٤١٣ هـ).

١. وعلى هذا الأساس يبدو أن هذه التعريفات بشأن «غير أولي الإربة من الرجال» لوحدها لا تبدو مناسبة: «الذي لم يبلغ إربه أن يطلع على عورة النساء» (ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ٨، ص ٣٤٠)، «الذين لا حاجة لهم إلى جماع النساء، ولا ينالون السبيل إلى قضاء الحاجة منهن» (يحيى بن حسين، الأحكام في الحلال والحرام، ج ١، ص ٣٦٥)، «الذي يريد الطعام ولا يريد النساء»، و«التابع يتبعك يصيب من طعامك» (الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ١٨، ص ١٦٢)، «لا يهمه إلا بطنه ولا يخاف منه على النساء»، و«من ليس له إرب» (البخاري، صحيح البخاري، ج ٦، ص ٢).

لا شك في أن الطفل بمجرّد وصوله إلى مرحلة البلوغ الجنسي، تتبلور لديه قابلية التعرّف على الأعضاء الجنسية وكيفية الاستفادة منها، وعندها لن يعود عنوان «الطفل» صادقًا عليه؛ كما أنه منذ مرحلة الرضاع إلى وصوله إلى سن التشخيص (غير المميز) لا يمتلك هذه القابلية أيضًا، وعليه لا يصدق عليه العنوان المذكور.

وإنما الذي يحظى بالأهمية بالنسبة لنا هو كيفية التعامل مع الصبيان الذين لم يصلوا إلى سنّ البلوغ، وليسوا ـ في الوقت نفسه ـ صغارًا جدًا بحيث يكونون مفتقرين إلى قابلية فهم العلاقات الجنسية (المميّز).

إذا كانت كلمة «يظهروا» بمعنى الغلبة، وكان استعمال الغلبة في الأعضاء الجنسية الخاصة بالنساء، كناية عن القدرة على إقامة العلاقات الجنسية (المقاربة)، وقلنا بأن هذه القدرة لا تحصل إلا بعد البلوغ الجنسي، عندها سوف نحكم بأن المراد من قوله تعالى: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ هم الصبيان غير البالغين من أيّ فئة سنّية كانوا[1]. [2]

وأما إذا كانت مفردة «يظهروا» بمعنى وضوح وظهور الأعضاء الجنسية الخاصة بالنساء، كناية عن فهمها والتعرّف عليها، فإن الصبيان غير البالغين ـ في هذه الحالة ـ والذين يبلغو سن التشخيص (المميّز)، فإنهم وإن كانوا غير قادرين على القيام بممارسة العلاقة الجنسية، يكونون خارجين عن عنوان ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾، فيجب على النساء رعاية الحجاب أمامهم.[3]

---

١. الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص ١١٢؛ النحاس، معاني القرآن، ج ٤، ص ٥٢٦، الحديث رقم: ٣٢.

٢. إن جواز عدم الحجاب للنساء أمام الصبيان غير البالغين من جميع الفئات، يمكن الحصول عليه من بعض التعريفات المذكورة لعنوان (أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ)، ومن بينها التعريفات الآتية: «لم يبلغوا الحلم» (الراغب الإصفهاني، المفردات في غريب القرآن الكريم، ص ٣٥٣)، و«لم يطيقوا مجامعة النساء» (الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٧، ص ٢٤٣)، و«الأطفال الذين لم يكشفوا عن عورات النساء بجماعهن فيظهروا عليهن لصغرهم» (الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ١٨، ص ١٦٥).

٣. في ضوء هذه الرؤية يمكن العمل ـ بالنسبة إلى عنوان (أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ) ـ على بيان التعريفات الآتية: «الذي لم يبلغ مبلغًا يحكي ما يرى وحضوره كغيبته» (الحلي، إيضاح الفوائد في شرح إشكالات

لا شـك في أن القدر المتيقن من «الطفل» هو الصغير الذي لم يصل إلى سـنّ التمييز،[١] ولكن بالنظر إلى الروايات التي ترى وجوب الحجاب على النسـاء أمام الأشخاص البالغين فقط،[٢] يجب أن ندعي أن المقياس في عدم وجوب الحجاب هو القدرة على ممارسة العلاقة الجنسـية التي تتحقق في الظروف والشـرائط العاديـة بعد البلوغ، دون مجـرّد فهم وإدراك الأعضاء الجنسية لدى النساء.[٣]

والشـاهد على صحّة هذا الفهم، إطلاق عنوان «الطفل» على جميع الأطفال من الفئات السـنية قبل مرحلة البلوغ في الآية التاسعة والخمسين من سورة النور،[٤] وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ﴾.[٥]

إن التدقيق في الأبحاث السابقة يُثبت بوضوح أن مسألة عدم وجوب رعاية الحجاب إنما هي مطروحة بالنسبة إلى طائفتين من الرجال؛ وبالتالي فإن ذهاب بعض المفسرين إلى تفسير عبـارة ﴿التَّابِعِيـنَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ بشـكل لا يتنافى ـ من الناحية المضمونية ـ مع قوله سـبحانه وتعالى: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾،[٦] لن يكون صحيحًا. كما أن بيـان هذا الادعاء القائل بأن صدر وذيل الآية يحكيان عن اعتبار ثلاثة عناصر، وهي:

القواعد، ج ٣، ص ٧)، «الذي لا حظّ له من عورة النسـاء» (الأردبيلي، زبدة البيان في أحكام القرآن، ص ٥٤٧)، «لم يعرفوها» (ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ج ٥، ص ٣٥٧).

١. ابن قدامة، الشرح الكبير، ج ٧، ص ٣٤٩.

٢. «يؤاخذ الغلام بالصلاة وهو ابن سـبع سنين، ولا تغطي المرأة شـعرها منه حتى يحتلم» (ابن بابويه، من لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ٤٣٦، ح: ٤٥٠٧). «لا تغطي المرأة رأسها من الغلام حتى يبلغ الغلام» (الحميري، قرب الإسناد، ص ٣٨٥، الحديث رقم: ١٣٥٥).

٣. الخوئي، كتاب النكاح، ج ١، ص ٨٨ ـ ٨٩؛ الروحاني، فقه الصادق في شرح التبصرة، ج ٢١، ص ١٢٤ ـ ١٢٦.

٤. الأفندي، حاشية قرّة عيون الأخبار تكملة ردّ المختار على الدر المختار، ج ١، ص ٧٦٢.

٥. النور: ٥٩.

٦. هناك احتمالات مذكورة في معنى قوله تعالى: ﴿التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾، ومن بينها: «الطفل الذي لا إربة له في النسـاء» (الراوندي، فقه القرآن، ج ٢، ص ١٢٩؛ الطوسـي، التبيان في تفسـير القرآن، ج ٧، ص ٤٣٠)، «أو الطفل الذين لم يظهروا؛ لم يدروا لما بهم من الصغر» (ابن حجر العسـقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ٨، ص ٣٤٠)، «العبد الصغير» (الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٧، ص ٢٤٢).

التبعية، والاستغناء عن النساء، وعدم الاطلاع على الأعضاء الجنسية في عدم وجوب رعاية الحجاب، ولا يتحقق مصداق ذلك إلا في (الأبله المولّى عليه الذي لا تعلّق له ولا توجّه له إلى النساء)،[1] لن يكون صحيحًا؛ وذلك لأن هؤلاء الأشخاص إنما هم مصداق واحد من مصاديق عنوان ﴿ **التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ** ﴾، إن لعنوان ﴿ **أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ** ﴾، مصاديقه الخاصّة أيضًا.

ثانيًا: عدم وجوب رعاية الحجاب بالنسبة إلى النساء اللاتي يفتقدن إلى الجاذبية الجنسية. وقد سبق لنا أن أوضحنا أن رعاية الحجاب الكامل، أمر واجب على جميع النساء. ولكن هناك استثناء لهذا الحكم العام؛ وذلك لأن الله سبحانه وتعالى قد أذن لبعض النساء بأن لا يرتدين الجلباب، من دون قصد إلى التبرّج واتخاذ الزينة عند ظهورهن أمام الأجانب من الرجال؛ قال الله تعالى: ﴿ **وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ** ﴾.[2]

إن مفردة «القواعد» صيغة جمع، ومفردها «القاعدة». وهي في الأصل بمعنى «الثبوت» و«الاستقرار»، ومن هنا يقال لسفح الجبل وأساس البيوت «قاعدة». إن مصطلح «المرأة القاعدة» يُطلق على المرأة التي مضى عليها سنوات من عمرها ولم تتزوّج، كما يطلق على المرأة أو النخلة التي لا قابلية لها على الحمل أنها «قاعدة» أيضًا؛ وذلك لثباتها على عدم الحمل والإنجاب.[3] كما يمكن لهذه المفردة أن تكون من مادة «قَعَدَ» بمعنى العجز، ومفردها «قاعد» ويكون المراد من «القواعد من النساء» العاجزات عن الحمل وإنجاب الأطفال.[4]

وبغض النظر عن البنية اللغوية لمفردة «القواعد»، فإن الله سبحانه وتعالى قد وصف هذه الطائفة من «القواعد من النساء» بوصف «اللاتي لا يرجون نكاحًا». ويمكن لهذا الوصف أن

---

١. الروحاني، فقه الصادق في شرح التبصرة، ج ٢١، ص ١٣١.

٢. النور: ٦٠.

٣. الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج ٧، ص ٤٦٠ ـ ٤٦١.

٤. ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ج ٥، ص ٣٧٤.

يكون قيدًا تأكيديًا - توصيفيًا أو احترازيًا.[١]

في الصورة الأولى يسعى الله سبحانه وتعالى ـ من خلال التعبير بـ«اللاتي لا يرجون نكاحًا» ـ إلى بيان مراده من «القواعد من النساء». وعلى هذا الأساس تكون القواعد من النساء تلك النساء اللاتي لا يعود لهن أمل بالزواج. وعدم الأمل بالزواج كناية عن أنهن لتقدّمهن في السن لا تعود للرجال رغبة في الزواج منهن، كما أن التقدّم في العمر أدّى بهذه الطائفة من النساء إلى عدم الرغبة بالزواج.[٢] وحيث أن الوقوع في دائرة الزواج يعود إلى عامل الجاذبية الجنسية بالنسبة إلى الرجال وبالنسبة إلى النساء أنفسهن، نستنتج من ذلك أن المراد من «القواعد من النساء» هو النساء اللاتي لم يعدن يتمتعن بالجاذبية الجنسية التي تجعل الرجال راغبين بالزواج منهن بسبب تقدّمهن في السن،[٣] كما لم يعد لهن أنفسهن مثل هذه الرغبة لذات السبب؛ ومن هنا لا يقعن في دائرة الزواج.

وفي الحالة الثانية، فإن عبارة «اللاتي لا يرجون نكاحًا» تبيّن أن عنوان «القواعد من النساء» عنوان عام يشمل مجموعات مختلفة من النساء، لا يريد الله من بينهن سوى طائفة واحدة.

وفي هذه الحالة تدلّ جملة «اللاتي لا يرجون نكاحًا» بالدلالة الالتزامية على معنى ومفهوم ذكر المفسرون في بيانه نظريتين تبدوان مختلفتين، وهما:

١ ـ النساء اللاتي بلغن سنّ اليأس.[٤]

---

١. الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص ١٦٤.

٢. الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج ٧، ص ٤٦١؛ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٧، ص ٢٧١؛ الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ١٨، ص ٢١٩ ـ ٢٢٠.

٣. لقد عمد بعض المفسرين إلى وصف الجاذبية الجنسية لدى هذه الطائفة من النساء، بقوله: «هي التي تُستقذر من كبرها» (الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، ج ٤، ص ١٩٧). «هي التي إذا رأيتها استقذرتها» (النحاس، معاني القرآن، ج ٤، ص ٥٥٥). «هي التي إذا رأيتها تستقذرها من كبرها» (القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٢، ص ٣٠٩).

٤. الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج ٧، ص ٤٦١؛ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٧، ص ٢٧١؛ الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص ١٦٤.

٢ ـ النساء اللاتي بلغن سن العقم.[١]

ولكن حيث أن بين سن اليأس وعدم الحمل في الظروف والشرائط العادية ارتباطًا مباشرًا، يمكن التعريف عنهما بوصفهما ملاكًا للوصول إلى مفهوم «اللاتي لا يرجون نكاحًا».[٢]

يبدو أن جملة «اللاتي لا يرجون نكاحًا» صفة تأكيدية وليست احترازية، وذلك لأن الوصول إلى سنّ اليأس وعدم الحمل لا يمكن أن يكون سببًا لانتفاء الممارسة الجنسية. فقد تمضي سنوات على انقطاع الطمث وتبقى المرأة محافظة على جاذبيتها الجنسية[٣].[٤] وعلى هذا الأساس فإن جملة «اللاتي لا يرجون نكاحًا» ليست سوى توضيح لعبارة «القواعد من النساء»، وإن المراد منها هو بيان هذا المطلب وهو أن بعض النساء عندما يتقدمن في السن يصلن إلى هذه الحالة وهي أنه بسبب انتفاء الجاذبية الجنسية من جهة، وعدم بقاء الحاجة الجنسية من جهة أخرى، لا يتحقق موضوع الارتباط الجنسي في الظروف والشرائط الاعتيادية.[٥]

وعلى كل حال، يجوز لهذه الفئة من النساء أن يتخلين عن حجابهن، شريطة أن لا يقصدن إظهار زينتهن بذلك، قال الله تعالى: ﴿ **فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ** ﴾.[٦]

وعلى الرغم من أن القرآن الكريم قد استعمل في هذه الآية مفردة «الثياب» للتعريف بالساتر، بيد أن المفسرين يذهبون إلى الاعتقاد بأن المراد منها هو التخلي عن الجلباب أو

---

١. الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، ج ٤، ص ١٩٧؛ لنحاس، معاني القرآن، ج ٤، ص ٥٥٥.
٢. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٢، ص ٣٠٩؛ الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ١٨، ص ٢١٩.
٣. الحسيني، كتاب زن، ص ٤٧٣ ـ ٤٧٤.
٤. «اللاتي قعدن عن الولد، وليس ذلك بمستقيم؛ لأن المرأة تقعد عن الولد وفيها مستمتع». (القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٢، ص ٣٠٩).
٥. الأردبيلي، زبدة البيان في أحكام القرآن، ص ٥٥٣؛ الحلي، إيضاح الفوائد في شرح إشكالات القواعد، ج ٣، ص ٨.
٦. النور: ٦٠.

أيّ ساتر شامل مثل الملحفة والرداء، وقد تقدّم أن تحدثنا عن لزوم ذلك.[١]

ولكــن يبدو أنه لم تكن هناك ضرورة إلى الاكتفاء بالتخلي عن الثياب، وقد تمّ السـماح لهذه الفئة من النسـاء بالإضافة إلى ذلك أن يتخلين عن الخمار أيضًا، وأن يُظهرن شـعرهن وجيدهن أمام الأجانب.[٢] ولهذا السـبب فقد ورد تفسـير «وضع الثيـاب» في رواية الحلبي وحريـز، بـ«وضع الخمار والجلباب،[٣] وقد تمّ بيان حدود ذلك في رواية يونس والبزنطي بـ «كشف الرأس والذراع».[٤] وعلى هذا الأساس، يجب حمل الاكتفاء بـ«وضع الجلباب» في رواية أبي الصباح الكناني، ومحمد بن أبي حمزة، ومحمد بن مسلم،[٥] على الاستحباب.[٦]

مـن الواضح جدًا أنه حتى لو لم تكن هـذه الروايات موجودة، حيث أن التعرّي مخالف لحكم الله سـبحانه وتعالى في تناسب الأحكام للكرامة الإنسانية، لا يوجد هناك إطلاق في لفظ الثياب بحيث يمكن أن يستنبط منه جواز التعري والتجرّد من جميع الثياب سوى ما يستر الأعضاء الجنسـية لهذه الفئة من النساء.[٧] وعلى هذا الأسـاس فإن مساحة الجواز محدودة وتقتصر على الثياب الظاهرية، ولا تشمل جميع ثياب المرأة؛[٨] ولا يجوز لهذه الفئة من النساء إظهار سوى ذلك الجزء من البدن الذي لا يتعارف تغطيته من قبلهن.[٩]

---

١. الثعالبي، الجواهر الحسـان في تفسـير القرآن، ج ٤، ص ١٩٧؛ الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ١٨، ص ٢٢٠؛ النحاس، معاني القرآن، ج ٤، ص ٥٥٦.

٢. ابن التركماني، الجوهر النقي، ج ٧، ص ٨٣؛ النجفي، جواهر الكلام في شـرح شـرائع الإسلام، ج ٢٩، ص ٨٥؛ الروحاني، فقه الصادق في شرح التبصرة، ج ٢١، ص ١٢٣؛ الراوندي، فقه القرآن، ج ٢، ص ١٣١.

٣. الكليني، الأصول من الكافي، ج ٥، ص ٥٢٢، الحديث رقم: ١ و٤.

٤. الطوسـي، التبيان في تفسـير القرآن، ج ٧، ص ٤٦٧، الحديث رقم: ١٨٧١؛ الحميري، قرب الإسـناد، ص ٣٦٣، الحديث رقم: ١٣٠٠.

٥. الطوسـي، التبيان في تفسـير القرآن، ج ٧، ص ٤٨٠، الحديث رقم: ١٩٢٨؛ الكليني، الأصول من الكافي، ج ٥، ص ٥٢٢.

٦. الخوئي، كتاب النكاح، ج ١، ص ٨٢.

٧. م.ن، ص ٨٢ ـ ٨٣؛ الروحاني، فقه الصادق في شرح التبصرة، ج ٢١، ص ١٢٢.

٨. ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ج ٥، ص ٣٧٤.

٩. الطباطبائي اليزدي، العروة الوثقى، ج ٥، ص ٤٨٩.

لو قبلنا بأن عدم وجوب رعاية الساتر بالنسبة إلى النساء المسنات، إنما هو استثناء من حكم كلي بوجوب الحجاب للنساء، بسبب افتقار المسنات للجاذبية الجنسية بالنسبة إلى الرجال، وعدم حاجتهن الجنسية، فإن عدم رعاية الحجاب إنما يكون جائزًا فيما إذا لم تكن المسنات في تخليهن عن الحجاب بصدد إثارة الغرائز الجنسية لدى الرجال؛ ولهذا السبب نجد أن الله سبحانه وتعالى قد ربط هذا الحكم بشرط عدم الزينة، وذلك بقوله: ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾.

ولكن علينا أن لا نغفل عن أن الجاذبية والحاجة الجنسية عاملان متغيران ويختلفان باختلاف الشرائط، فقد نجد رجالًا يبحثون في بعض الحالات الخاصة عن إشباع رغباتهم الجنسية من خلال إقامة العلاقات مع المسنات، ولسن بالقليلات هنّ النساء اللاتي على الرغم من تجاوزهن سنّ اليأس، يحافظن على حاجتهن إلى إقامة العلاقات الجنسية؛[1] ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى رأى أن من الخير حتى لهذه الفئة من النساء أن يراعين الحجاب، وأثبت من خلال استعمال عبارة «وإن يستعففن» أن الحجاب طريق مطمئن لحفظ الطهر والعفاف والفضيلة[2] وذلك في قوله: ﴿ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ ﴾.

إن التدقيق في المطالب التي تقدّم ذكرها، يعمل على إيضاح هذه النقطة وهي أن الغاية الأهم من رعاية الحجاب هي التقليل من إثارة الغرائز الجنسية لدى الرجال، ومن هنا فإنه لو زالت أسباب الإثارة الجنسية في الظروف العادية، لا تعود هناك ضرورة إلى مراعاة الحجاب.

وقد بين الإمام الرضا عليه السلام العلاقة المتبادلة بين رعاية الحجاب والإثارة الجنسية في جوابه عن سؤال محمد بن سنان، على النحو الآتي: «حرّم النظر إلى شعور النساء

---

١. إن وجود هذه الاختلافات هو الذي أدّى بالبعض إلى بيان احتمال عدم وجود اختلاف بين المسنات والحديثات في السن في وجوب رعاية الحجاب وحدوده أيضًا. الكركي، جامع المقاصد في شرح القواعد، ج ١٢، ص ٣٤.

٢. الأردبيلي، زبدة البيان في أحكام القرآن، ص ٥٥٣ ـ ٥٥٤؛ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٧، ص ٢٧١؛ الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج ٧، ص ٤٦١؛ الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، ج ٤، ص ١٩٧؛ ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ج ٥، ص ٣٧٥؛ النحاس، معاني القرآن، ج ٤، ص ٥٥٥، الحديث رقم: ٧٣؛ الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص ١٦٤.

المحجوبات بالأزواج وغيرهن من النســاء، لما فيه من تهييج الرجال، وما يدعو التهييج إلى الفساد، والدخول فيما لا يحل ولا يحمل، وكذلك ما أشبه الشعور إلا الذي قال الله تعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ غير الجلباب، ولا بأس بالنظر إلى شعور مثلهن».[١]

النتيجة

إذا أردنا لبناء الأســرة أن يكون مســتحكمًا وغير قابل للاختراق حتى الإمكان، يجب أن يكون التعامل بين الطرفين من النساء والرجال الأجانب خارج بيئة الأسرة (وعلاقة الزواج) بحيث لا يتمّ ضرب التعادل الروحي والســكينة النفســية لهم، ولا يكون ذلك ممكنًا إلا من خــلال اجتناب التبــرّج والظهور بما يهيج الغرائز الجنســية، وهو ما عبّر عنــه القرآن الكريم بعنوان العودة إلى أعراف وتقاليد الجاهلية: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾.[٢] إن مثل هذا الأسلوب هو الذي يؤدّي من تلقائه إلى خلق أرضية التمسك الأخلاقي بالأسرة، ومن خلال توثيق العلاقة العاطفية بين الرجل والمرأة ضمن رباط الأسرة وعقد الزواج، يقلل من احتمال انزلاق كل واحد منهما في المجتمع ضمن علاقات غير شرعية إلى حدّ كبير.

١. الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٥٦٤ ـ ٥٦٥.
٢. الأحزاب: ٣٣.

المصادر

١. القرآن الكريم.
٢. ابن التركماني (الماردیني)، علاء الدين بن علي، الجوهر النقي، دار الفكر.
٣. ابـن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، زاد المسـير في علم التفسـير، تحقيق: محمد بن عبد الله، بيروت، دار الفكر،١٤٠٧ هـ.
٤. ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين، فتح الباري شرح صحيح البخاري، بيروت، دار المعرفة .
٥. ابن حزم، علي بن أحمد، المحلى، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الفكر، بيروت.
٦. ابن رشـد القرطبي، محمـد بن أحمد، بداية المجتهـد ونهاية المقتصد، تحقيـق: خالد العطار، بيروت، دار الفكر، ١٤١٥ هـ.
٧. ابن سينا، حسين بن عبد الله، الشفاء، قم، منشورات مكتبة آية الله المرعشي النجفي، ١٤٠٥ هـ.
٨. ابن عابدين، محمد أمين، حاشية ردّ المختار على الدر المختار، بيروت، دار الفكر، ١٤١٥ هـ.
٩. ابن قدامة، عبد الرحمن، الشرح الكبير، دار الكتاب العربي، بيروت.
١٠. ابن كثير القرشـي، إسماعيل، تفسـير القرآن العظيم، تحقيق: يوسف عبد الرحمن المرعشلي، بيروت، دار المعرفة، ١٤١٢ هـ.
١١. ابن منظور الأفريقي، محمد بن مكرم، لسان العرب، قم، أدب الحوزة، ١٤٠٥ هـ.
١٢. ابـن نجيم المصري، زين الدين بن إبراهيم، البحر الرائق في شـرح كنـز الدقائق، بيروت، دار الكتب العلمية.
١٣. ابن بابويه، محمد بن علي، علل الشرائع، ، المكتبة الحيدرية، النجف، ١٣٨٥ هـ.
١٤. ابن بابويه، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه، تصحيح: علي أكبر الغفاري، انتشارات جامعة المدرسين، قم، ١٤٠٤ هـ.
١٥. الأردبيلـي، أحمد بن محمد، زبدة البيان في أحكام القرآن، تحقيق: البهبودي، طهران، المكتبة المرتضوية .

١٦. الأفندي، محمد علاء الدين، حاشية قرّة عيون الأخبار تكملة ردّ المختار على الدر المختار، دار الفكر، ١٤١٥ هـ.
١٧. البحراني، يوسف، الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة، تحقيق: محمد تقي الإيرواني، قم، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٣٦٣ هـ ش.
١٨. البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، بيروت، دار الفكر، ١٤٠١ هـ.
١٩. الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٨ هـ.
٢٠. الثوري، سفيان بن سعيد، تفسير سفيان الثوري، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٣ هـ
٢١. الجصاص، أحمد بن علي، أحكام القرآن، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥ هـ
٢٢. جوادي آملي، عبد الله، اسرار الصلاة، قم، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤١٥ هـ.
٢٣. الحسيني، السيد هادي وآخرون، كتاب زن، طهران،انتشارات أمير كبير، ١٣٨١ هـ ش.
٢٤. الحكيم، السيد محسن، مستمسك العروة الوثقى، النجف، مطبعة الآداب، ١٣٩١ هـ.
٢٥. الحلي، جعفر بن حسن، المعتبر في شرح المختصر، قم، مؤسسة سيد الشهداء، ١٣٦٤ هـ ش.
٢٦. الحلي، الحسن بن يوسف، منتهى المطلب، تبريز، ١٣٣٣ هـ ش.
٢٧. الحلي، محمد بن حسن، إيضاح الفوائد في شرح إشكالات القواعد، قم، انتشارات علمية، ١٣٨٧ هـ.
٢٨. الحميري، عبد الله بن جعفر، قرب الإسناد، قم، مؤسسة آل البيت عليهم السلام، ١٤١٣ هـ
٢٩. الخميني، مصطفى، مستند تحرير الوسيلة، مؤسسة تنظيم و نشر آثار الإمام الخميني، ١٤١٨ هـ.
٣٠. الخوئي، محمد تقي، كتاب النكاح (مباني العروة الوثقى)، قم، دار الهادي، ١٤٠٧ هـ.
٣١. الراغب الإصفهاني، حسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن الكريم، دفتر نشر كتاب، ١٤٠٤ هـ.
٣٢. الرافعي، عبد الكريم بن محمد، فتح العزيز في شرح الوجيز، دار الفكر.
٣٣. الراوندي، قطب الدين، فقه القرآن، قم، مكتبة آية الله المرعشي النجفي، ١٤٠٥ هـ.

٣٤. رشيد پور، مجيد، تعادل و استحكام خانواده، طهران، مؤسسة اطلاعات، ١٣٧٣ هـ ش.
٣٥. الروحاني، محمد صادق، فقه الصادق في شرح التبصرة، قم، مؤسسة دار الكتاب، ١٤١٢ هـ
٣٦. الروحاني، محمد صادق، المسائل المستحدثة، قم، دار الكتاب، ١٤١٤ هـ.
٣٧. الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس في جواهر القاموس، بيروت، مكتبة الحياة.
٣٨. سعدي، أبو جيب، القاموس الفقهي، دمشق، دار الفكر، ١٤٠٨ هـ.
٣٩. سيد بكري الدمياطي، إعانة الطالبين، بيروت، دار الفكر، ١٤١٨ هـ.
٤٠. سيد سابق، فقه السنة، دار الكتاب العربي، بيروت.
٤١. السيوطي، جلال الدين، الدر المنثور في التفسير المأثور، دار المعرفة.
٤٢. الشربيني، محمد بن أحمد، الإقناع في حل ألفاظ الشجاع، بيروت، دار المعرفة.
٤٣. الشريف الرضي، حقائق التأويل في متشابه التنزيل، بيروت، دار المهاجر.
٤٤. الشوكاني، محمد بن علي، نيل الأوطار من أحاديث سيّد الأخيار، بيروت، دار الجيل،١٩٧٣ م.
٤٥. الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير، عالم الكتب.
٤٦. الصنعاني، عبد الرزاق بن همام، تفسير القرآن، الرياض، مكتبة الرشيد، ١٤١٠ هـ
٤٧. الطباطبائي اليزدي، محمد كاظم، العروة الوثقى، قم، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤١٧ هـ.
٤٨. الطباطبائي، السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، قم، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤٠٢ هـ.
٤٩. الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤١٥ هـ.
٥٠. الطبرسي، الفضل بن الحسن، جوامع الجامع، قم، مؤسسة نشر اسلامي، ١٤١٨ هـ
٥١. ــــــــــــــــــ، مكارم الأخلاق، منشورات الشريف الرضي، ١٣٩٢ هـ.
٥٢. الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤١٥ هـ.
٥٣. الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، ١٤٠٨ هـ.

٥٤. الطريحي، فخر الدين، تفسير غريب القرآن، قم، انتشارات زاهدي.
٥٥. الطوسي، محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام في شرح المقنعة، تصحيح: الآخوندي، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٦٥ هـ ش.
٥٦. الطوسي، محمد بن الحسن، كتاب الخلاف، قم، مؤسسة نشر اسلامي، ١٤٠٧ هـ.
٥٧. الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، ج ٨، ص ٢٤٠، بيروت، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٩ هـ.
٥٨. العاملي، زين الدين بن علي، مسالك الأفهام إلى تنقيح شرائع الإسلام، قم، مؤسسة معارف اسلامي، ١٤١٣ هـ.
٥٩. العروسي الحويزي، عبد علي بن جمعة، تفسير نور الثقلين، قم، مؤسسة إسماعيليان، ١٤١٢ هـ.
٦٠. عظيم آبادي، محمد شمس الحق، عون المعبود في شرح سنن أبي داود، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥ هـ.
٦١. الفيض الكاشاني، المولى محسن، تفسير الصافي، طهران، مكتبة الصدر، ١٤١٦ هـ.
٦٢. القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٥ هـ.
٦٣. القمي السبزواري، علي بن محمد، جامع الخلاف والوفاق بين الإمامية وبين أئمة الحجاز والعراق، قم، زمينه سازان ظهور امام عصر، ١٣٧٩ هـ ش.
٦٤. القمي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي، تصحيح: السيد طيب الموسوي الجزائري، قم، دار الكتب، ١٤٠٤ هـ.
٦٥. الكاشاني، أبو بكر بن مسعود، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، باكستان، انتشارات حبيبية، ١٤٠٩ هـ.
٦٦. كاهاني مقدّم، كاظم، تعليم و تربيت در انديشه بو على سينا، مشهد، انتشارات صبرا، ١٣٨٧ هـ ش.

٦٧. الكركي، علي بن حسين، جامع المقاصد في شرح القواعد، قم، مؤسسة آل البيت، ١٤٠٨ هـ.
٦٨. الكليني، محمد بن يعقوب، الأصول من الكافي، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٨٨ هـ ش.
٦٩. الكوفي، ابن أبي شيبة، المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق: سعيد محمد اللحام، بيروت، دار الفكر، ١٤٠٩ هـ.
٧٠. الليثي الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ، قم، انتشارات دار الحديث.
٧١. المؤمن القمي، محمد، كتاب الصلاة، قم، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤٠٥ هـ.
٧٢. مجاهد، ابن جبر، تفسير مجاهد، إسلام آباد، مجمع البحوث الإسلامية.
٧٣. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، بيروت، مؤسسة الوفاء، ١٤٠٣ هـ.
٧٤. المحلي، محمد بن أحمد / السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، تفسير الجلالين، بيروت، دار المعرفة.
٧٥. النجفي، محمد حسن، جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، تحقيق: الشيخ عباس القوجاني، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٦٧ هـ ش.
٧٦. النحاس، أبو جعفر، معاني القرآن، تحقيق: محمد علي الصابوني، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، ١٤٠٨ هـ.
٧٧. النووي، يحيى بن شرف، المجموع في شرح المهذّب، دار الفكر.
٧٨. الواحدي النيسابوري، أسباب النزول، القاهرة، مؤسسة الحلبي، ١٣٨٨ هـ.
٧٩. يحيى بن حسين، الأحكام في الحلال والحرام.

دور الأسرة في التنمية الثقافية على أساس التعاليم الإسلامية[1]

عبد الله زكي[2]

حميد پارسانيا[3]

المقدمة

لقد تمّ طرح (التنمية الثقافية) كنتيجة لإخفاق وفشل نماذج (التنمية الاقتصادية). قبل عقد السبعينات كانت أغلب الخطط التنموية تستند إلى النماذج التي يسهل الوصول إليها في البُعد الاقتصادي. وبعد عقد السبعينات وفشل النماذج السابقة، حدثت استدارة في هذه النماذج، وتمّ طرح الثقافة بوصفها ملحقة بالنماذج الاقتصادية. وفي إطار هذا المسار وبسبب أهمية الثقافة في التنمية تمّت تسمية السنوات العشرة من عام ١٩٨٨ إلى عام ١٩٩٧ م من قبل اليونسكو بعقد (التنمية الثقافية).

إن أهمية (التنمية الثقافية) إنما تنشأ من أن الثقافة قد تراكمت بوصفها ثروة مادية ومعنوية، وإن العامل الأصلي لحفظ هوية المجتمع يلعب دورًا محوريًا في التنمية والتقدّم. ومن هنا فإن

---

١. المصدر: نُشرت هذه المقالة باللغة الفارسية تحت عنوان «نقش خانواده در توسعه فرهنگي بر اساس آموزه هاي اسلامي» في مجلة معرفت فرهنگي اجتماعي، التي تصدر في جمهورية إيران الإسلامية، العدد: ٥٤، ربيع عام ١٤٠٢ هـ ش، الصفحات: ١٣٩ ـ ١٥٩.

تعريب: حسن علي مطر

٢. طالب على مستوى الدكتوراه في حقل علم الاجتماع من مؤسسة الإمام الخميني (ره) للدراسات والتحقيقات.

٣. أستاذ مساعد في كلية العلوم الاجتماعية من جامعة طهران

أيّ نوع من أنواع التنمية والتقدّم دون الاهتمام بالثقافة، لن يؤدّي إلى عدم النجاح فحسب، بل وسوف يتسبب بأضرار فادحة على البنية الاجتماعية للمجتمع.

ومن هنا فإن (الثقافة) في التنمية الثقافية، تعدّ وسيلة وغاية أيضًا. فإنها غاية من حيث أن هدف التنمية إنما يتمّ تحديده على أساس القيَم والمعتقدات الثقافية؛ وهي وسيلة بمعنى أن مجرّد المشاركة في إيجاد الحياة الاجتماعية ليس كافيًا، بل إن هذه المشاركة يجب أن تستند إلى مبنى انتقادي، وأن تتحقق في اتجاه التغيير نحو تحسين الأوضاع الاجتماعية.[١]

وفي الواقع فإن التنمية الثقافية تنطوي على بُعدين يستندان إلى بعضهما: فإنها من جهة تتخذ موقفًا من الأنشطة والأمور الثقافية التقليدية، ومن ناحية أخرى لا تقصر التنمية على البُعد الاقتصادي فقط، بل ترى أن سائر المؤسسات والمرافق الاجتماعية وفي المجموع كل ما من شأنه أن يمكّن الإنسان من تحسين وضعه في قبال الآخرين، له بُعد ثقافي. وعلى هذا الأساس فإن إحدى المؤسسات الاجتماعية المهمّة التي يمكن أن تلعب دورًا أساسيًا في توسيع دائرة التنمية الثقافية في المجتمع هي (الأسرة) . إن الأسرة تمثّل حلقة الوصل بين الفرد والمجتمع، حيث تلعب دورًا جوهريًا في التنمية العامّة والتنمية الثقافية في المجتمع.

إن الأسرة بوصفها اللبنة الأولى في المجتمع، تلعب في ضوء التعاليم الإسلامية ـ دورًا محوريًا في تربية الفرد والمجتمع، ولو تمّ النظر من الناحية التأسيسية، تعدّ الأسرة من الناحية الكمية والكيفية المركز الأصلي لتبلور وانتقال القيَم والمعايير الثقافية. إن القيَم والمعايير التي هي من قبيل الفضائل الأخلاقية، والسلوكيات المعيارية، وأسلوب الحياة الإيمانية والحضارية وما إلى ذلك، إنما تكون ممكنة في إطار الحصول على أسرة مؤمنة وسالمة وناجعة وحيوية وناشطة.

ومع ذلك فإن الذي يتمّ بحثه في نماذج التنمية في البلدان النامية، لا ينطوي على اهتمام بالأسرة بوصفها اللبنة الأساسية في المجتمع.

(وبطبيعة الحال فإن الحكومات والدول من الناحية الخطابية لم تحمل نظرة سلبية تجاه

---

١. پهلوان، فرهنگ شناسی: گفتارهایی در زمینه فرهنگ و تمدن، ص ١٣٧.

الأسَـر، وإنما تطالب بالمحافظة والنزعة التقليدية واستمرارها وانتشارها، وذلك لاعتبارها أن الأسرة مؤسسة تعمل على تعزيز النظم الاجتماعي).[١]

بيد أن المسـألة الأصلية في البين هي أن نماذج التنمية لا يسـتند أيّ منها إلى المشـاركة من قبل الناس والأسَـر والطاقات الاجتماعية، وهي تخضع ـ دون أن تكون هناك دراسـات تجريبية حول المجتمع ـ للسلطة البيروقراطية والمقتضيات الإدارية.[٢] وبطبيعة الحال فإن هذه النواقص في نماذج التنمية الثقافية ـ في الحدّ الأدنى ـ لا وجود لها على المسـتوى النظري؛ وذلـك لأن التنمية الثقافية تعني التأكيد على الثقافة الوطنية للمجتمع والظرفيات الكامنة فيه من أجـل التنمية والتقدّم. إن التنمية الثقافية ـ في جانبهـا الإيجابي ـ تعني تعزيز المعتقدات الدينية السـامية، والقيَم الكامنة في الثقافة الوطنية، وتقوية وتعميق ثقافة المشاركة والرقابة، وإشاعة العلم والفن، والنظم الجماعي وما إلى ذلك.[٣] ومن هنا فإن مشاركة مؤسسة الأسرة وسائر القوى الاجتماعية، تعدّ واحدة من خصائصها.

نسـعى في هذه المقالة بالاستناد إلى التعاليم الإسلامية إلى بحث دور الأسرة ـ بوصفها واحدة من أهمّ المؤسسات الاجتماعية ـ في التنمية الثقافية. وعلى هذا الأساس فإن السؤال الذي يطرح نفسـه: في ضوء التعاليم الإسـلامية ما هو دور الأسرة ـ بوصفها اللبنة الأساسية وباعتبارها إحدى المؤسسات الاجتماعية ـ في التنمية الثقافية؟

إن الجواب عن هذا السـؤال يتضمن الخوض في الأسـئلة الآتية: ما هو مفهوم (التنمية الثقافية)؟ وما هي عناصرها وخصائصها؟ وما هو موقع الأسـرة في التعاليم الإسلامية؟ وما هي الظرفيات التي تمتلكها الأسرة في انتقال القيَم والمعايير الثقافية؟

---

١. فاضلي، «سرنوشت خانواده در برنامه هاى توسعه»، ص ١٧.

٢. م.ن.

٣. خانيكى، «جايگاه و نقش مطبوعات در توسعه فرهنگى ايران»، ص ١١١ ـ ١٢٤.

١. جذور البحث

إن موضوع هذه المقالة ينقسم إلى قسمين، وهما: (التنمية الثقافية)، و(دور الأسرة في التنمية الثقافية على أساس التعاليم الإسلامية). وفيما يتعلق بالقسم الأول (التنمية الثقافية) وخصائصها وعناصرها تمّ تقديم دراسات وأبحاث جيدة، ويبدو أنه ليست هناك حاجة إلى ذكر عناوينها. وأما في خصوص موقع الأسرة في التنمية الثقافية على أساس التعاليم الإسلامية، فلم نعثر على دراسة جامعية في هذا الشأن. وإن الدراسة الوحيدة القريبة من هذا العنوان عبارة عن المقالة الآتية:

مقالة: (نقش و جايگاه خانواده در فرايند توسعه فرهنگي جامعه ديني)،[١] حيث لها في الغالب اتجاه نفسي – تربوي، ضمن إشارة مختصرة إلى مفهوم (التنمية الثقافية) وأهمية الأسرة من وجهة نظر الإسلام، ذكرت ستة عوامل دينية، وثقافية – اجتماعية، واقتصادية، وعاطفية، وسياسية، ومعرفية، في تقوية الأسرة في الأبحاث النظرية. إن النتائج الحاصلة من هذه الدراسة تعبّر عن أن الاعتقاد وعدم الاعتقاد، وضبط المسألة، والتعويل على النساء والرجال المطالبين بالطلاق، معدل درجاتهم دون الرجال والنساء غير المطالبين بالطلاق. وأما فيما يتعلق بـ(الإبداع) فلم نشاهد اختلافًا مفهوميًا بين فئتي المطالبين وغير المطالبين.

وعلى الرغم من تجاهل المحققين لدور الأسرة في التنمية الثقافية، هناك دراسات وتحقيقات واسعة حول دور النساء في التنمية والتقدّم الثقافي والاجتماعي والسياسي؛ حيث يؤكد أكثرها على قدرة ومشاركة النساء في الأمور الاجتماعية. إن هذا النوع من التحقيقات وإن لم يتعرّض إلى بحث دور الأسرة بوصفها مؤسسة اجتماعية مهمّة في التنمية الثقافية، ولكنها قد اهتمّت بجزء مهم من الأسرة ـ وهو الجزء المتمثّل بالمرأة ـ في هذا الشأن.

عمدت مقالة (ملاحظاتي درباره نقش زنان در توسعه فرهنگي)،[٢] إلى التفكيك بين مفهومي (البيت) بمعنى (مكان) السكن و(المأوى) أو (المنزل) بمعنى (الفضاء العاطفي)

١. آقا محمديان شعرباف، «نقش و جايگاه خانواده در فرايند توسعه فرهنگی جامعه دينی».

٢. گيوه چيان، «ملاحظاتی درباره نقش زنان در توسعه فرهنگی».

للسكن، وقد ذهب كاتبها إلى الاعتقاد بأن الرجال قبل العصر الصناعي كانوا هم الذين يبنون (البيت) عمومًا، وأما النساء فقد كنّ يصنعن (المأوى). ولكن بالنظر إلى الدور الأساسي للبيت بمعنى الفضاء العاطفي (المأوى) في التنمية الثقافية، فيجب في عصر الصناعي وما بعد الصناعي؛ حيث دخلت النساء بدورهم في معترك العمل، فقد أخذن يساهمن في إيجاد وتنمية الفضاء العاطفي في البيت جنبًا إلى جنب الرجال.

وإن مقالة (مشاركت سياسي زنان و توسعه فرهنگي)، بعد الدراسة المفهومية والنظرية لـ(المشاركة الاجتماعية)، ترى أن العوامل الأربعة: الثقافية والتعليمية وقوانين الأسرة، والموانع الاقتصادية – الاجتماعية، تشكل مانعًا يحول دون المشاركة السياسية للنساء، وتقدّم للمشاركة السياسية للنساء بعض الاستراتيجيات على المدى البعيد والمتوسط والقريب. ويرى كاتب هذه المقالة ضرورة إلى إحداث التغيير في البنى والأسس الثقافية والاجتماعية والسياسية على المدى البعيد. وأن يتمّ إيجاد مؤسسات مساهة، ولا سيما في البعد السياسي على المدى المتوسط، وإن يتمّ إحداث التغيير في رؤية وثقافة الفرد تجاه الثقافة المتناسبة مع المشاركة على المدى القريب.

وقد تعرّضت مقالة (بررسي تأثير توسعه فرهنگي زنان بر كاركردهاي خانواده)،[1] إلى بيان تأثير التنمية الثقافية على مهام الأسرة. وقد توصل كاتبا هذه المقالة إلى هذه النتيجة وهي أن زيادة حجم التعليم ترصد الوزن الأكبر (ما يعادل ١ / ٠٦٦) في مهام الأسرة. ويرى كاتبا هذه المقالة أن ارتفاع المستوى الدراسي بالإضافة إلى الاستقلال المالي يؤدّي إلى إحداث تغيير في رؤية وسلوك النساء، ويكون له تأثير كبير على أداء الأسرة.

وبالإضافة إلى الموارد أعلاه، تمّ نشر الكثير من الأبحاث في خصوص أهمية الأسرة في الثقافة الإسلامية، ودورها في نقل القيَم والمعايير المتحققة، حيث تساهم في إيضاح الفضاء المفهومي والنظري للأسرة وموقعها من التنمية الثقافية.

---

١. مهدوي، ووكيل ها، «بررسی تأثير توسعه فرهنگی زنان بر كاركردهای خانواده».

٢. المفاهيم

الأسرة

إن لمفهوم (الأسـرة) ـ بسـبب أبعاده المعقدة، والبيئة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية المتعـددة ـ تعريفات متكثرة ومتنوّعة، حيث لكل واحد منها اهتمام خاص بالنسـبة إلى هذا المفهوم، ويعمل على بيان وإبراز بعض أبعاده.

قال لووي في تعريفه للأسـرة: (الأسـرة عبارة عـن وحدة اجتماعية تقوم على أسـاس الزواج).[١] إن هذا التعريف يعمل على التعريف بـ(الأسـرة) بوصفها ظاهرة ثقافية بالكامل، ويتجاهل سـائر أبعادها وخصائصهـا الأخرى. وبالنظر إلى هذه النقطـة ذهب آلن بيرو إلى الادعاء قائلًا: (يمكن اسـتعمال مصطلح (الأسـرة) في معنى مجموع الأسلاف والأخلاف والأقـارب (من أمثال: الأخوة والأخـوات وأولادهم) والأبوين اللذيـن ينتميان إلى أرومة أو مجمـوع الزوجين وأولادهما، والتي تشـكل النـواة الأولى أو وحدة الحيـاة الطبيعية – الاجتماعية).[٢]

إن بيـرو في إطار اهتمامه بعدد أعضاء الأسـرة، قد أكد على بعدها التأسيسـي بوصفها الوحدة الطبيعية – الاجتماعية الأولى، بيد أنه لا يتحدّث عن سائر أبعادها ومهامها الأخرى. ويبدو أن التعريف الذي يشـمل الماهية الحياتية – الثقافية وسائر خصائص الأسرة الأخرى، عبارة عن تلك الخصائص التي ذكرها جي. كلين للأسرة، على النحو الآتي:

١. إيجاد الارتباط من طريق الزواج بين شـخصين أو عدد من الأشـخاص من جنسين مختلفين.

٢. وجود علاقة الدم رسـميًا على نحو حقيقي أو افتراضي، حيث تقوم على أساسـها العلاقات والالتزامات الأسرية.

٣. وجود شكل من أشكال المساكنة (الإقامة).

---

١. غولد، وكلب، فرهنگ علوم اجتماعی، ص ٣٨٢.

٢. بيرو، فرهنگ علوم اجتماعی، ص ١٣٠.

٤. توفر الوظائف الشخصية والاجتماعية المتنوّعة، من قبيل: الرقابة الجسدية، والتخطيط للنشاط الجنسي، والانتقال المخطط للثقافة والمهمات الاقتصادية، وفي بعض الموارد الرقابة الأسرية على العمل والنشاط السياسي والديني وما إلى ذلك.[١]

بالنظر إلى التعاريف المذكورة أعلاه، يبدو أن (الأسرة) عبارة عن: مؤسسة اجتماعية تتشكّل من طريق الزواج بين شخصين أو عدد من الأشخاص من جنسين مختلفين على أساس القواعد الرسمية أو الافتراضية، وتحتوي على نوع من اختيار السكن والوظائف الشخصية والاجتماعية المتنوّعة، ومن بينها انتقال الثقافة بالنسبة إلى الأعضاء، ولا سيّما الأطفال منهم.

الثقافة

إن مصطلح (الثقافة) (يعادل مصطلح (culture) في اللغة الإنجليزية)، ومصطلح (فرهنگ) في اللغة الفارسية). وإن الثقافة بهذا المعنى تتطابق مع مادة (educate, education) و(Edure) في اللغة اللاتينية التي تعني السحب كما تعني التربية والتعليم أيضًا.[٢]

وقد تمّ استعمالها في النصوص الفارسية القديمة بمعنى الأدب والتربية والعلم والمعرفة والعقل والتفكير والتدبير.[٣] وأما مصطلح (culture) في اللغة الإنجليزية فقد كان في البداية يُستعمل للدلالة على الزراعة والعمل والتنمية، وإن مصطلح (agriculture) (الزراعة) و(horticulture) (البستنة) مأخوذ من هذه المادة.[٤]

وقد بدأ المفهوم الجديد لـ(الثقافة) (culture) مع تايلور؛ حيث كان متأثرًا بمفكري مرحلة التنوير، ولا سيّما منهم جوستاف كليم.[٥] وقد عمد في كتابه (فرهنگ ابتدائي (١٨٧١ م) إلى تعريف (الثقافة) على النحو الآتي: (إن (الثقافة) أو (الحضارة) مجموعة متداخلة تشمل العلم

---

١. غولد، وكلب، فرهنگ علوم اجتماعي، ص ٣٨٣.

٢. دهخذا، لغت نامه دهخدا، مدخل: «فرهنگ».

٣. آشوري، تعريف ها و مفهوم فرهنگ، ص ١٦ ـ ٢٥.

٤. م.ن، ص ٢٦.

٥. كوش، مفهوم فرهنگ در علوم اجتماعي، ص ٢٧.

والدين والفن والقانون والأخلاق والآداب والأعراف والتقاليد، وكل مقدرة أو عادة يكتسبها الإنسان بوصفه واحدًا من أعضاء المجتمع).[١]

إن هذا التعريف الذي أدّى إلى التأسيس لعلم الأنثروبولوجيا، قد عمد إلى توسيع دائرة الثقافة، بحيث أصبحت تشمل جميع الأمور المكتسبة للبشر.

وفي سياق هذا المسار، صار يتمّ التعرّف على الثقافة في الغالب بوصفها أمرًا نموذجيًا ومثاليًا. وعلى أساس هذا الاتجاه فإن الثقافة تشمل النماذج الظاهرة وغير الظاهرة من الأفعال، وللأفعال التي تتحقق ويتمّ تناقلها بواسطة الأمثلة والرموز التي هي حصيلة المعطيات المتمايزة للجماعات البشرية ومن بين تجلياتها في الأعمال البنيوية. إن النواة الأصلية للثقافة تشمل العقائد التقليدية (أي الناشئة والمنتخبة في مسار التاريخ) ولا سيّما القيَم التابعة لها. يمكن اعتبار الأنظمة الثقافية من محاصيل العمل من جهة، ويمكن اعتبارها من جهة أخرى من شرائط عناصر العمل اللاحق أيضًا.[٢]

يمكن ملاحظة فهم الثقافة ـ بوصفها أمرًا مثاليًا ومفهومًا، وبوصفها بنيوية ومنسجمة ـ في الكثير من تعاريف (الثقافة). ويبدو أن التعريف أدناه من أوضح التعاريف وأكثرها انسجامًا من بين مجموع التعاريف المتعددة التي تمّ بيانها للثقافة:

(إن (الثقافة) هي النظام المفهومي الأشمل أو البرامج المرنة الأصلية التي تضفي الهوية وتعمل على توجيه الأفعال الإنسانية في مسار الحياة الفردية والاجتماعية في المجتمع، وتتألف من مجموعة متناغمة نسبيًا من العناصر الوجودية (الرؤية الكونية) والقيَميّة (الأيديولوجيا أو منظومة الواجبات والمحظورات المنبثقة عن تلك الرؤية الكونية)).[٣]

يمكن لهذا التعريف أن يكون هو التعريف المختار لهذه المقالة، مع إيضاح أن الثقافة

---

١. آشوري، تعريف ها و مفهوم فرهنگ، ص ٣٩.

٢. أوتويت، وباتامور، فرهنگ علوم اجتماعی قرن بيستم، ص ٦٣٠.

٣. شوراي عالي انقلاب فرهنگي، نقشه مهندسی فرهنگی كشور، ص ١٦؛ شرف الدين، «علامه طباطبائی و بنيادهای هستی شناختی فرهنگ» ص ٦٥ ـ ٩٢.

بالإضافة إلى ما تقدّم ذكره عبارة عن نسيج يشكل أرضية أيضًا. وإن إضافة هذا الشاخص إلى التعريف المذكور، توفّر إمكانية الحديث عن الثقافات المتنوّعة، وقد يمكن أن نحصل على اتجاه نقدي في خصوص بعض عناصر الثقافة.

التنمية الثقافية

إن مفهوم (التنمية الثقافية) يحتوي على غموض مضاعف؛ وذلك لأن مفاهيم (الثقافة) و(التنمية) لا تشتمل لوحدها على معان واضحة، بل هناك أفهام وتوصيفات مختلفة لكل واحدة منها؛ حيث تحوّلت في حدّ ذاتها إلى مجموعة من الانتقادات والآراء. ومن هنا فإن تركيب هذين المفهومين يحدث غموضًا مضاعفًا يخلق لدى كل واحد من الباحثين والمحققين إبهامًا بشأن هذا المصطلح. ومن هنا نضطر ـ للحصول على فهم وإدراك واضح لهذا المفهوم ـ إلى بحث ودراسة المسار التاريخي لظهور هذا المفهوم وتحوّله.

لقد كانت (التنمية) في بداية الأمر تُعدّ في الغالب نتيجة للتحوّل الحاصل في المجتمعات الغربية، حيث شهدت تقدّمًا في الأبعاد الاقتصادية والعلمية والفنية. ولكن بعد الاستدارة الثقافية (Cultural Turn) التي طرأت على التفكير الغربي في النصف الثاني من القرن العشرين، حلّت الثقافة في محور اهتمام العلوم الإنسانية، ولا سيّما منها العلوم الاجتماعية. والأهم من ذلك فشل النماذج ذات البُعد الواحد في تمحورها حول الاقتصاد، ولا سيّما التكاليف الثقافية والاجتماعية الباهظة الثمن والتي فرضتها هذه النماذج على المجتمعات غير الغربية، حيث دفعت بالمفكرين وواضعي سياسة التنمية إلى إعادة التفكير. فإن البلدان النامية بالتزامن مع المتغيّرات المتزايدة في الحقول العلمية بفعل اتساع رقعة النشاط الاستعماري من جهة، ومن جهة أخرى البلدان غير الغربية الرازحة ـ في الغالب ـ تحت سلطة الاستعمار أو المستقلة حديثًا، ترى أن الطريق الوحيد للحصول على الاستقلال يكمن في القضاء على الاستعمار والتأكيد على الهوية الثقافية.[١]

١. پهلوان، فرهنگ شناسی: گفتارهایی در زمینه فرهنگ و تمدن، ص ١٥١.

في ظل هذه الظروف، عقدت منظمة (اليونسكو) ـ المنبثقة من بين أطلال الحرب العالمية الثانية ـ مؤتمرات حول دور وموقع الثقافة في التنمية. لقد كان هدف اليونسكو من وراء عقد هذه المؤتمرات هو تقديم الاستراتيجيات من أجل التنمية المتوازنة والواعية في إطار البرامج التعليمية، والسياسة العلمية، والسياسة الثقافية، والسياسة المعلوماتية، دون تجاهل أهمية برامج التنمية الاقتصادية.

ونتيجة لثلاثة عقود من جهود (اليونسكو) وإقامة المؤتمرات العالمية والإقليمية، قامت الجمعية العامّة للأمم المتحدة ـ في شهر كانون الأول سنة ١٩٨٦ م ـ بالمصادقة في نهاية المطاف على القرار رقم (٤١ / ١٨٧) القاضي بتسمية الأعوام العشرة من ١٩٨٨ ـ ١٩٩٧ م بـ (العقد العالمي للتنمية الثقافية. وقد تضمن هذا القرار دعوة المؤسسات والمنظمات العالمية إلى السعي من أجل تحقيق الأهداف الأربعة الآتية:

١. الإقرار بالبُعد الثقافي للتنمية: يجب العثور على الطرق التي تربط الإنتاج بالإبداع، والبحث عن جذور الاقتصاد.

٢. الحفاظ على الهوية الثقافية وتقويتها: تشجيع جميع الطاقات والإبداعات الفردية والجماعية.

٣. توسيع نطاق المشاركة في الحياة الثقافية: تحشيد طاقات حرية البيان والإبداع في الفرد والمجتمع باسم (حقوق الإنسان) والإرادة الحرة والاستقلال الفكري.

٤. رفع مستوى التعاون الثقافي على الصعيد العالمي والدولي: البحث وزيادة وتعزيز الأدوات والآليات التي تتمكن الثقافة الحرّة بموجبها إلى التأثر بالآخرين والتأثير بهم، والعمل في الوقت نفسه على احترام نواة من الحقائق العالمية المقبولة.[1]

وعلى هذا الأساس فإن البُعد الثقافية للتنمية في التنمية الثقافية، يرى أن (الثقافة) تشمل جميع أبعاد حياة الإنسان، وأن (التنمية) تحتوي على الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، ويدّعي أن التنمية يجب أن تقوم على الهوية الثقافية للمجتمع.

1.Mayor, "The World Decade for Cultural Development", P. 6.

وعلى هذا الأســاس فإنه بالنظر إلى المســار التاريخي لمقولة (التنمية الثقافية) وأبعادها وأهدافها من جهــة، ومفاهيم (التنمية) و(الثقافة) من جهة أخرى، يبــدو أن (التنمية الثقافية) عبــارة عن: الحركة الصاعــدة لمجموع النظــام الاجتماعي من طريق حفــظ وتقوية الهوية الثقافية، والمشــاركة في الحياة الثقافية ورفع مســتوى التعاون الدولي. وعلى هذا الأساس فــإن الثقافة في التنمية الثقافية تعدّ وســيلة للتنمية كما تعدّ هدفًــا أيضًا. فإنها هدف من حيث أن غاية التنمية يتمّ تحديدها على أســاس القيَم والمعتقدات الثقافية، وهي وسيلة وأداة؛ لأن هذه الغايات والأهداف إنما يتمّ الحصــول عليها من طريق الظرفيات والآليات الثقافية (أي من طريق تعزيز الهوية الثقافية)، ومشــاركة الأفراد في الحياة الثقافية ورفع مســتوى التعاون الدولي.

٣. المباني النظرية

فيمــا يتعلــق بالتنمية الثقافية، لم نشــهد تنظيرات واســعة في هذا الشــأن، وقد اتجهت الخطوات المتخذة في هذا الشــأن في الغالب نحو وضع السياسات التفيذية. ومع ذلك فإن نظريتــي (علم اجتماع التنمية الثقافية)، ونظرية (الأداء الثقافي) قد تمّ بيانهما بالتحديد ضمن محورية (التنمية الثقافية).

علم اجتماع التنمية الثقافية

إن نظرية (علم اجتماع التنمية الثقافية) قد تمّت صياغتها من قبل المفكر الفرنسي جوفر دومازديه،[1] لغرض التغلّب على اغتراب الإنسان في المجتمع الرأسمالي. فقد ذهب إلى الاعتقاد بأن العمل في المجتمع الرأسمالي يؤدّي بالإنسان إلى الاغتراب، وإن الحياة الحقيقية للكثير من العمال إنما يمكن أن تتحقق في أوقات الفراغ فقط.[2]

ومن هنا فإن التنمية الثقافية بمنزلة تنمية شخصية العمال وتنمية الثقافة العامة. وقد ذهب إلى الادعاء بان جميع المجتمعات النامية أو التي هي في طور النمو، تسعى إلى إيجاد التعادل بين الأصالة والتجديد، وإن الاتجاه النظري الوحيد الذي يمكن له تحقيق هذا الأمر المهم، هو (علم اجتماع التنمية الثقافية)؛ وذلك لأن علم اجتماع التنمية الثقافية حيث يدلّ على التحول الثلاثي للتنمية (التنمية الاقتصادية الأنجع، وتقليل عدم المساواة، والمشاركة الاجتماعية)، يقدّم فهمًا أشمل عن مسار موضوع هذه الدراسة.[3]

وعلى هذا الأساس فإن الغاية الأصلية للتنمية الثقافية، هي العمل على إيجاد الذهنيات المنسجمة مع التنمية من طريق الثقافة، ومن هنا فإنها تبحث عن خصائص تحسين الموضوع الاجتماعي ضمن موقعيتها، وتسعى إلى تحسين المجتمع من داخله.

الفعل الثقافي

لقد تمّ بيان نظرية (الأداء الثقافي) من قبل أوغسطين جيرار في سياق تكميل نظرية (علم اجتماع التنمية الثقافية) مع تكرار ثنائية (الأصالة) و(التجديد) وضرورة التعادل بين هذين المفهومين. إن جيرار بسبب المنصب السياسي الذي كان يحتله في منظمة (اليونسكو) بالإضافة إلى التداعيات السلبية للتجديد في الغرب، كان يلقي شبه نظرة إلى إخفاق نماذج التنمية في ما يُصطلح عليه بالعالم الثالث وهوية الأشخاص والشعوب.[4]

---

1. Jofre Dumazedier
2. Dumazedier, "Problèmes Du Loisir: (Enquête Psycho-Sociologique Sur Le Développement Socio-Culturel de l'agglomération d'Annecy)", p. 117 – 118.
3. Ibid, p. 5 – 6.
4. Vestheim, "UNESCO Cultural Policies 1966 – 1972 – the Founding Years of 'New Cultural Policy", p. 174.

إن التنمية الثقافية الراهنة من وجهة نظره ليست أمرًا كماليًا أو ترفًا ناتجًا عن الوفرة، بل لها ارتباط عميق بشرائط التنمية العامة. إنه لا يرى حق الاستفادة من الثقافة بسبب العدالة فحسب، بل بسبب تطابقها مع الاحتياجات الملحة للبشر والتي لا يمكن تجاهلها؛ لأنها تمثل الهوية الثقافية للإنسان.[١] وعلى هذا الأساس فإن الإنسان المعاصر ـ من وجهة نظر جيرار ـ يحتاج إلى عودة إلى الحياة الثقافية (ما يمنحه الهوية)، والحياة الثقافية إنما تتحقق من طريق الفعل الثقافي.

وعلى هذا الأساس فإن نظرية (علم اجتماع التنمية الثقافية)، ونظرية (الأداء الثقافي) كلتاهما تمثلان الطريق الوحيد لنجاة الإنسان المعاصر من هيمنة التجديد والنظام الرأسمالي في الغرب، ويرى أن التغلّب على النماذج التنموية غير المجدية واتخاذ الاتجاه الوطني في البلدان النامية يكمن في العودة إلى الثقافة، وكلتا النظريتين تسعى إلى تحسين المجتمع من طريق الثقافة والظرفيات الكامنة في المجتمع من جهة، والاهتمام بالعلم والتقنية المعاصرة من جهة أخرى.

بيد أن السؤال الذي يتبلور هنا يقول: ما هو موقع الأسرة من التنمية الثقافية؟ إن الجواب عن هذا السؤال ـ بالنظر إلى الاتجاه الأصلي للتنمية الثقافية القائمة على العودة إلى الهوية الثقافية للمجتمع ـ يعود إلى موقع الأسرة ضمن كل ثقافة. ومن الواضح أن الأسرة يتم أخذها بوصفها واحدة من أهم عناصر التنشئة الاجتماعي.

الأسرة والتنشئة الاجتماعية

إن (التنشئة الاجتماعية) من أهم الآليات التي يمكن للأفراد من خلالها تحصيل القيَم والمعايير الاجتماعية. لقد تمّ تعريف هذا المفهوم بسبب الموقع المحوري له من قبل المفكرين المختصين في العلوم الاجتماعية وعلم والعلوم التربوية. يقول آلان بيرو في هذا الشأن:

(إن هذه المفردة تبيّن مسار التأثير المتبادل بين شخص وبيئته الاجتماعية، ونتيجة ذلك

١. جيرار، توسعه فرهنگی: تجارب و خط مشی ها، ص ٢ ـ ٣.

هي القبول بالنماذج السلوكية الاجتماعية في تلك البيئة وظهور نوع من التطابق المتبادل بين الفرد والمجتمع. وفي المعنى الأخير يكون التنشئة الاجتماعي مسارًا نفسيًا – اجتماعيًا يتبلور على أساس الشخصية الأساسية تحت تأثير البيئة ولا سيّما المؤسسات التربوية والدينية والأسرية).[١]

وعلى هذا الأساس فإن التنشئة الاجتماعية يلعب دورًا أساسيًا في نقل القيّم والمعايير الاجتماعية على الأفراد ولا سيّما الأطفال منهم. وإن موقع الأسرة ـ سواء بوصفها واحدة من عناصر التنشئة الاجتماعية أو الممهّدة له ـ بارز للغاية؛ وذلك لأن للوالدين على الدوام بوصفهما نموذجين سلوكيين دورًا ملحوظًا في التربية النفسية والفكرية ومسار التنشئة الاجتماعية لأولادهما. وهي النماذج التي أظهرت دورها في المجتمع على جميع المجالات في المسار التنموي للصغار واليافعين، وكان لها ظهور عيني. ومن هنا ربما كانت الصيغة الأقل كلفة والأنجع والأبسط التي تعمل الدول من خلالها على إدارة المجتمع، هي العمل على توفير الدعم والحماية لكيان الأسرة.

إن الإسلام ـ وهو الدين العالمي وخاتم الأديان ـ يعتبر دور الأسرة في التنشئة الاجتماعي للأطفال على أساس الأصول الإسلامية، وتبعًا لذلك إيجاد المجتمع الفاعل والمتعالي، دورًا بارزًا.

(إذا أردنا بناء مجتمع يقوم أساسه على العدل والحركة نحو الفضيلة والكمال، يجب أن نغرس بذرته في محيط الأسرة؛ وذلك لأن الأسرة تلعب دورًا قيّمًا في بناء الحضارة الإنسانية وإقامة علاقات التعاون في المجتمع، وكذلك فإن الفضائل الأخلاقية في كل مجتمع رهن بتعليم وتربية الأولاد على الأخلاق والآداب الأسرية الصحيحة).[٢]

وعلى هذا الأساس يذهب الكثير من المفكرين المختصين بالعلوم التربوية إلى الاعتقاد والقول: (إن حياة ومصير كل إنسان يخضع لتأثير تجارب مرحلة الطفولة، وإن علاقة الطفل

١. بيرو، فرهنگ علوم اجتماعى، ص ٣٦٣.

٢. القرشي، نظام تربيتى اسلام، ص ١٥.

بأعضاء الأسرة، مثل الأب والأم تشكل عاملًا أساسيًا لتبلور شخصيته على المستوى الروحي والأخلاقي).[١]

كما أن القرآن الكريم ـ بالنظر إلى موقع الأسـرة في أمـر تربية الطفل وجعله متماهيًا مع المجتمع ـ يأمر بسيادة العلاقات الحسنة بين أفراد الأسرة. من ذلك أنه قد تمّ تصوير العلاقات الإسـلامية لدى الأسـرة في الآية الخامسة عشرة من سـورة الأحقاف. ففي بداية هذه الآية أوصى الله تعالى الإنسان بالإحسان إلى والديه، وذكّره بالعناء الذي كابداه في تنشئته وتربيته. يجب على كل مسـلم في ضوء هذه الآية الكريمة أن يعمل على ربط نفسـه ووالديه والجيل اللاحق له بالله سـبحانه وتعالى، وأن يستعين بالله في أمر إصلاحهم. وفي الحقيقة فإن هذا النـوع من الارتباط بين الأجيال في المجتمع القرآني المطلوب إنما يتحقق بمحورية البحث عن الله وإخلاص العبودية له، وإن كل شخص يترتبط بالجيل السابق واللاحق له برباط وثيق من المحبّة.[٢] وعلى هذا الأساس يكون دور وموقع الأسرة في التنشئة الاجتماعي ونقل القيَم على أساس التعاليم الإسلامية دورًا بارزًا.

يمكن للأسرة ـ في ضوء الاتجاه المحوري للثقافة في نظرية (علم اجتماع التنمية الثقافية)، ونظرية (الأداء الثقافي) ـ أن تلعب بوصفها واحدة من أهم عوامل التماهي دورًا أساسـيًا في التنمية الثقافية للمجتمع، وإن هذا الموقع يزداد وضوحًا في الثقافة الإسـلامية بسبب التأكيد الكبير على أهمية الأسرة.

٤. عناصر التنمية الثقافية

إن (التنمية الثقافية) تتألف ـ في ضوء ما تقدم من المفاهيم والنظريات ـ من ثلاثة عناصر، قاعدتها (تعزيز الهوية الثقافية)، وضلعاها الآخرين هما: (المشاركة)، و(رفع مستوى التعاون الدولي). إن البنية العامّة لهذه العناصر تقوم على اسـتدلال قياسي؛ بمعنى أن التنمية الثقافية

١. كوهستاني، «نقش خانواده در تربيت فرزندان»، ص ٣٠ ـ ٣٩.

٢. حسيني، «تحكيم خانواده در آموزه هاى قرآنى»، ص ٤٦ ـ ٨١.

بمقتضى ضرورتها الذاتية ليست سوى العودة إلى الثقافة والهوية الثقافية. ومن هنا فإن الاعتماد الثقافي على النفس، والتعويل على الهوية الذاتية للمجتمع تعدّ بمنزلة القاعدة لهذه العناصر الثلاثة.

ولكن بالنظر إلى أن الثقافة تتألف من مختلف المعتقدات والقيَم المتنوّعة، ولا تكون بأجمعها منسجمة مع تقدّم المجتمع وتكامله، وليس بوسع مشاركتهم أن تضع المجتمع على طريق التقدّم والتعالي، يجب أن تتوفر هناك بعض المعايير التي يمكن تقييم العناصر الثقافية على أساسها. ومن هنا تعد (التصفية الثقافية) هي العنصر الثاني في التنمية الثقافية.

يتمّ بيان العنصر الثالث للتنمية الثقافية في الارتباط مع اتجاه الولادة الذاتية للتنمية الثقافية؛ بمعنى أن النقطة المحورية في التنمية الثقافية عبارة عن الاستناد إلى الثقافة الوطنية والداخلية؛ بيد أن هذا الاستناد لا يعني تجاهل أهمية المعتقدات والقيَم البشرية، بل يمكن من طريق الارتباط الواعي أو ـ بعبارة أدق ـ اختيار الأبعاد الإيجابية وطرد الأبعاد السلبية، مدّ جسور التواصل مع سائر الثقافات الأخرى. وعلى هذا الأساس، تتألف التنمية الثقافية في ضوء بنيتها الذاتية من العناصر الثلاثة الآتية:

١. الاعتماد الثقافي على الذات.

٢. التصفية الثقافية.

٣. الارتباط الواعي مع سائر الثقافات الأخرى.

٤. خصائص عناصر التنمية الثقافية

إن العناصر بسبب كليّتها وانتزاعيتها، لا تمتلك قابلية البحث في مجال التحقيق؛ ومن هنا فإنها تحتاج إلى اجتراح الخصائص. إن (صياغة الخصائص) مسار يتمّ فيه تحليل وتجزئة مفهوم ما، وتحويله إلى خصائص يمكن دراسة مصاديقها في محل البحث. إن (صياغة الخصائص) في الأساليب الكمية عبارة عن تحويل المفهوم الكيفي إلى كمّي، ولكن في الأساليب الكيفية حيث لا تتوفّر إمكانية بيان الكمية، فإنه يتم اللجوء في الغالب إلى توظيف الخصائص التحليلية. وعلى هذا الأساس يتمّ السعي في هذه المقالة ـ من أجل تقييم دور

الأسرة في التنمية الثقافية ـ إلى التعريف بخصائصها من خلال تجزئة وتحليل عناصر التنمية الثقافية، وذلك على النحو الآتي:

٥. خصائص الاعتماد الثقافي على النفس

إن (خصائص الاعتماد الثقافي على النفس) عبارة عن: معرفة وإدراك القيَم والمعايير الثقافية للمجتمع، والاعتماد على القابليات والعمل على أساسها. يتم بيان الثقة بالنفس على المستوى الفردي والاجتماعي في مواجهة التحديات؛ بمعنى أن الفرد أو المجتمع بعد اتخاذ القرار قد يواجه بعض العقبات والتحدّيات. وفي هذه الحالة فإن الطريق الوحيد للنجاح (على المستوى الاجتماعي) هو الاعتماد الثقافي على النفس؛ بمعنى معرفة الذات الثقافية والعلم بالقابليات، والاعتماد عليها والعمل على أساسها. ومن هنا فإن خصائص الاعتماد الثقافي على الذات عبارة عن: أبسط الحقوق الفردية والاجتماعية؛ من قبيل: الهوية الثقافية، وحرية التفكير والبيان، وحق الاختيار واتخاذ القرار.

خصائص التصفية الثقافية

إن (التصفية الثقافية) تعني مسار تقييم الثقافة على أساس المعايير، حيث يكون الاهتمام الأصلي لها بالتقدم وتنمية المجتمع، ضمن الاتجاه الانتقادي بالنسبة إلى الثقافة. وعلى هذا الأساس تكون الخصائص المذكورة عبارة عن: المشاركة الاجتماعية، ومحورية العدالة، ومركزية العلم، والإبداع ونظائر ذلك.

خصائص الارتباط الواعي مع سائر الثقافات الأخرى

إن الارتباط الواعي مع سائر الثقافات الأخري، يعني أن التنمية الثقافية ضمن طرد اتجاه (المحورية الذاتية) تعتبر الارتباط مع الثقافات الأخرى ـ على أساس القيَم والمعايير المقبولة ـ أمرًا وطنيًا. وعلى هذا الأساس فإن شاخص هذا الارتباط في المجتمع الإسلامي، عبارة عن: أصل (نفي السبيل / الهيمنة).

٦. أسلوب التحقيق

بالنظر إلى الاتجاه الديني لهذه المقالة، واستخراج عناصر التنمية الثقافية على أساس الاستدلال القياسي، يكون أسلوب التحقيق هنا عبارة عن (التحليل الوثائقي). إن الأسلوب (الوثائقي) واحد من الأساليب الكيفية؛ حيث يندرج في الغالب بلحاظ المباني المعرفية ضمن النماذج التفسيرية.[١]

إن البحث الوثائقي يقوم على أساس دراسة النص، حيث تعد الوثيقة ركنًا أساسيًا لها. إن الوثيقة بشكل عام (الأعم من المتن والمستند) عبارة عن: النص المكتوب أو المضبوط والذي يحتوي على المعطيات أو المعلومات حول موضوع أو ظاهرة ما. ويمكن العثور على هذا النوع من الوثائق والمستندات في المكتبات العامة، وأراشيف الصحف، ومكاتب المؤسسات التاريخية، والملفات التنظيمية أو المؤسسات الدراسية.[٢] وإن من بين أهم قوالبها عبارة عن: الكتب، والصحف، والمستندات. وعلى هذا الأساس فإن مستندات هذه المقالة، عبارة عن:

أ. النصوص الدينية: القرآن الكريم والسنة المطهّرة.

ب. مؤلفات ومقالات المفكرين الإسلاميين حول محور التعاليم الإسلامية.

إن أسلوب تطبيق هذه الدراسة يمكن بحثه على ثلاثة مستويات، على النحو الآتي:

١. مستوى جمع المعطيات: وفي هذا المستوى يتمّ العمل على معرفة المصادر والإطلالة المنهجية والهادفة.

٢. مستوى التحليل والتقييم: يتمّ العمل في هذه المرحلة على تجزئة وتحليل النصوص المنشودة على أساس الخصائص المحدّدة، ويستمر هذا الأمر إلى إشباعه دراسة (والحصول إلى الجواب المقنع).

٣. النتيجة والتقرير النهائي.

---

١. صادقی فسائی، وعرفان منش، «مبانی روش شناختی پژوهش اسنادی در علوم اجتماعی؛ مورد مطالعه: تأثیرات مدرن شدن بر خانواده ایرانی»، ص ٦١ ـ ٩٢.

2.Bowen,"Document Analysis as a Qualitative Research Method", p. 28.

٧. بحث وتقييم دور الأسرة في التنمية الثقافية على أساس التعاليم الإسلامية

بالنظر إلى الخصائص السابقة، ننتقل الآن إلى بيان المفاهيم الدينية. ويتمّ تحليل وتجزئة معطيات البحث بالنظر إلى الخصائص، على هامش كل شاخص:

الاعتقاد الثقافي بالذات

إن (الاعتقاد الثقافي بالذات) يُعدّ واحدًا من أهم خصائص التقدّم والتنمية في أيّ بلد. إن هذا الشاخص يتمّ بيانه على مستويين، وهما: (المستوى الفردي) و(المستوى الاجتماعي). فعلى المستوى الفردي تعني (الثقة بالنفس) الاعتقاد بـ(الذات) و(النفس). وأما على المستوى الاجتماعي فإن الثقة الثقافية بالنفس تعني الاعتقاد والإيمان بالمعتقدات والقيَم والمعايير الثقافية للمجتمع. ومع ذلك فإن هذا الشاخص يُعدّ واحدًا من التحديات الأصلية لعدم تقدّم المجتمعات الإسلامية؛ بحيث يقول الإمام الخميني رحمه الله: (لقد عملوا على إخافتنا من تقدّمنا ومن قواهم الشيطانية بحيث لم تعد لدينا الجرأة على القيام بأيّ إبداع، وسلّمناهم جميع ممتلكاتنا ووضعنا مصيرنا بين أيديهم، وأصبحنا نتبعهم على غير هدى، وقد أدّى هذا الخواء الفكري الصناعي إلى أن لا نعتمد على تفكيرنا في أيّ أمر من الأمور، وأن نقلّد الشرق والغرب بشكل أعمى).[١]

إن الأسرة تعدّ واحدة من الحواضن الأصلية لتعزيز وتنمية الثقة الثقافية بالذات. يمكن للأسرة بسبب ظرفياتها المتعددة، من قبيل: التواصل العاطفي، والفرص الطويلة، أن تلعب دورًا بارزًا في إيجاد وتعزيز الثقة بالنفس. إن الإسلام بدوره ضمن تأكيده على أهمية الثقة بالذات والاعتماد على النفس في الأمور الفردية والاجتماعية، يعمل على بيان التعاليم أدناه في إطار التأسيس لها وتعزيزها لدى الأسرة:

---

١. الخميني، صحيفه امام، ج ٢١، ص ٤١٥.

إكرام الأولاد

روي عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، أنه قال: (أكرموا أولادكم وحسّنوا آدابهم يغفر لكم).[١] إن من بين الأمور التي تستوجب تكريم الأولاد، عبارة عن: تجنب معاقبتهم جسديًا، لا سيّما قبل بلوغهم سنّ العاشرة،[٢] وإلقاء التحية عليهم،[٣] وتحسين اسمه.[٤]

الحنوّ على الصغار

إن المحبة والحنوّ يلعب دورًا فريدًا في بلورة الشخصية الأخلاقية للأفراد ولا سيّما الصغار منهم. وفي رواية تمّ عدّ الحبّ مساويًا للدين: (هل الدين إلا الحبّ).[٥] وعلى هذا الأساس فقد روي عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، أنه قال: (أحبّوا الصبيان وارحموهم).[٦]

كما تمّ التأكيد في الكثير من الأحاديث على تقبيل الأولاد. من ذلك على سبيل المثال، ما يروى عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، أنه قال: (أكثروا من قبلة أولادكم، فإن لكم بكل قبلة درجة في الجنة).[٧]

تجنّب الإلحاح في اللوم بشكل متواصل

إن العتاب واللوم المتكرر والمتتابع يؤدّي إلى ضرب الثقة بالنفس، ويلعب دورًا سلبيًا في خفض مستوى الثقة والاعتماد على الذات. ومن هنا فإنه ورد النهي عنه في الكثير من الأحاديث.[٨]

---

١. المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٠٤، ص ٩٥.
٢. محمدي ري شهري، ميزان الحكمة، ج ١، ص ١٠٩.
٣. الصدوق، الخصال، ج ١، ص ٢٧٢.
٤. الكليني، الكافي، ج ٦، ص ٤٨.
٥. م.ن، ج ٨، ص ٨٠.
٦. م.ن، ج ٦، ص ٣٩.
٧. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.
٨. التميمي الآمدي، غرر الحكم ودرر الكلم، ح: ٣٧٤٨.

الحرية الفكرية

إن موقف الإسلام من (الحرية الفكرية) يقوم على أساس رؤية الإسلام إلى الإنسان. إن أساس الإنسانية من وجهة نظر الإسلام يقوم على أساس الحرية، وإن مبدأ الحرية ينطلق من بحث إرادة الإنسان واختياره.[١] ومن هنا فإن الإسلام لا يذهب إلى القول بأهمية الحرية الفكرية فحسب، بل وقد ورد التأكيد في القرآن الكريم على التدبّر والتعقل مرارًا وتكرارًا أيضًا.

إن من بين الحواضن المهمّة والمؤثرة التي يمكن لها أن تعدّ الأرضية للتنمية الفكرية، هي الأسرة. إن الأسرة بجميع أبعادها المتنوّعة، ومن بينها تسهيل وإعداد أرضية اللعب، يمكن أن تلعب دورًا مهمًا في تنمية وتطوير قابليات الطفل. وإن الدين الإسلامي الحنيف بدوره يعدّ اللعب بالنسبة إلى الأطفال واحدًا من العناصر المؤثرة في التنمية الفكرية والجسدية والعاطفية لدى الصغار، وقد تمّ التأكيد على ذلك في الكثير من الأحاديث وسيرة الأئمة الأطهار عليهم السلام. وبشكل عام يتمّ تقسيم هذه التعاليم إلى قسمين، وذلك على النحو الآتي:

التأكيد على توفير فرص اللعب

روي عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، أنه قال: (من كان عنده صبيّ فليتصاب له).[٢] وعن الإمام الصادق عليه السلام في رواية أخرى، أنه قال: (دع ابنك يلعب سبع سنين).[٣] وعن الإمام الكاظم عليه السلام، أنه قال [ما معناه]: (المتعجلون والمتسرعون في الكبر، هم الذين لم ينالوا قسطًا كافيًا من اللعب في الصغر).[٤]

الأمثلة العملية على لعب الأئمة الأطهار عليهم السلام مع الأطفال

إن هذه الطائفة تشتمل على مجموعة من الألعاب العملية – الفكرية، من قبيل: المصارعة،

---

١. الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن.
٢. الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ص ٤٨٣.
٣. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٤٧٣.
٤. المجلسي، بحار الأنوار، ج ٦٠، ص ٣٦٢.

وأداء دور الجمل أو الحصان من قبل الوالدين، والشعر، والألغاز، واللعب بالتراب وما إلى ذلك. من ذلك ـ على سبيل المثال ـ ما ورد في سيرة النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: دخلت على النبي صلى الله عليه وآله والحسن والحسين صلى الله عليه وآله على ظهره وهو يجثو لهما، ويقول: (نعم الجمل جملكما، ونعم العدلان أنتما).[١]

لقد تكررت هذه السيرة من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في الكثير من الموارد، وقد عمد الصحابة إلى نقلها وروايتها بمضامين مختلفة. وروي أيضًا عن السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام أنها كانت تلاعب أولادها وتناغيهم بأبيات شعرية ذات مضامين أخلاقية، ومن بينها هذه الأبيات التي تقول فيها:

أشبه أباك يا حسن .. واخلع عن الحق الرسن
واعبد إلهًا ذا منن .. ولا توال ذا الإحن[٢]

ومن بين الألعاب الفكرية الأخرى المأثورة في سيرة الإمام الصادق عليه السلام، من قبيل لعبة الأستاذ والتلميذ في إطار حدس الكلمات أو الألعاب اللفظية ذات الوزن الواحد، كأن يذكر الأستاذ خصائص فاكهة ما، ويتعيّن على التلاميذ أن يحدسوا اسم تلك الفاكهة، ومن ينجح منهم في ذلك يأخذ دور الأستاذ. أو أن يتمّ تكرار الكلمات ذات الوزن الواحد (من قبيل: الشراعية، الذراعية، الوداعية وما إلى ذلك) حتى يقع الشخص في الخطأ، ويخرج من اللعبة.[٣]

١. المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٢٨٥.
٢. م.ن، ص ٢٨٦.
٣. منصوری، مغز متفکر جهان شیعه، ص ٩ ـ ١٠.

محورية العدل

إن العدل بوصفه واحدًا من الأركان الأصلية لتقدّم وتنمية المجتمعات، يُعدّ من الأهداف الأصلية للإسلام وفلسفة إرسال الأنبياء وإنزال الكتب السماوية.[١] وقد قدّم الإسلام طرقًا وتعاليم متعددة في مختلف الأبعاد وعلى مختلف الأصعدة من أجل إقامة النظام العادل. وإن أحد الحواضن والأرضيات المهمة والمؤثرة في إقامة العدل، تتمثّل في الأسرة.

يتمّ طرح العدل في الأسرة ضمن بُعدين، وهما: (العلاقة بين الزوج والزوجة)، و(العلاقة بين الوالدين والأولاد). وفيما يتعلق بالبُعد الأول، بالنظر إلى أن العدل في الإسلام عبارة عن (رعاية حقوق الأشخاص وإعطاء كل ذي حقّ حقّه)،[٢] و(وضع كل شيء في موضعه المناسب)،[٣] تكون مراعاة حقوق الزوجة (من قبيل: النفقة والمهر والتمكين وما إلى ذلك) عدلًا، وهضمها وتضييعها ظلمًا في حق الزوجة وبالنسبة إلى هذه المؤسسة الاجتماعية المؤثرة.

وأما في البُعد الثاني، فإن المفاهيم الإسلامية تندرج ضمن طائفتين: بعضها يُشير إلى أصل (العدل)، وبعضها الآخر يُشير إلى آثاره. في المجموعة الأولى يكون (العدل) عبارة عن السلوك المتناسب مع سن وجنس وخصائص الأولاد، من قبيل: العدل بين الأولاد في توزيع الهدايا،[٤] والتقبيل،[٥] والاحتضان،[٦] وتوزيع المال.[٧]

وأما الطائفة الثانية التي تشير إلى آليات وآثار العدل، من قبيل الحديث المأثور عن النبي

---

١. الحديد: ٢٥.

٢. الترمذي، الجامع الصحيح أو (سنن الترمذي)، ج ٤، ح: ٢١٢١.

٣. نهج البلاغة، الحكمة رقم: ٤٣٧.

٤. البخاري، صحيح البخاري، ج ٣، ح: ٢٥٨٦.

٥. محمدي ري شهري، ميزان الحكمة، ج ١٣، ص ٤٨٧.

٦. البغدادي، العيال، ج ١، ص ١٧٣، ح: ٣٦.

٧. البخاري، صحيح البخاري، ج ٣، ح: ٢٥٨٦.

الأكـرم ﷺ، أنه قال: (اعدلوا بين أولادكم كما تحبّون أن يعدلوا بينكم في البر واللطف).[١] وبشكل عام يمكن بحث هذه الآثار ضمن أربع مجموعات:

١. الإحسان ورعاية الحقوق المتبادلة بين الوالدين والأولاد.[٢]

٢. الحيلولة دون التحاسد والتباغض بين الأولاد.[٣]

٣. رعاية العدل بين الأولاد.

٤. توفير الأرضية لبسط العدل في المجتمع.

حق الاختيار واتخاذ القرار

إن جميع أنواع الحياة الفردية والاجتماعية للإنسان عبارة عن مساحات من الاختيارات ضمـن الدوائر المحدودة أو الواسـعة. ومن هنا فإن اتخاذ القـرارات واختيارها يلعب دورًا جوهريًا في تنمية وتكامل الفرد والمجتمع. ومع ذلك فإن هذه الطاقة الداخلية والذاتية لدى الإنسـان، تحتاج إلى تقويـة وتعزيز ثقافة حق الاختيار والانتخـاب. وإن من بين الحواضن الأصلية التي يمكن أن تسـاعد على إيجاد وتقوية وانتشـار ثقافتها فـي المجتمع، عبارة عن حاضنة الأسرة. ويمكن للوالدين ـ من خلال إيجاد الأرضية المناسبة للطفل في إبداء الرأي وحق الاختيار ـ أن يلعبا دورًا في تطوير الشـخصية المسـتقلة والمسؤولة لدى الطفل القادر على اتخاذ القرارات.

إن التعاليم الإسـلامية في إطار تأكيدها على أهمية حـق الاختيار واتخاذ القرار،[٤] تعمل على بيان الخصائص أدناه من أجل تعزيزها وتنميتها في الأسرة:

---

١. الطبرسي، مكارم الأخلاق، ص ٢٢٠.

٢. م.ن.

٣. النوري، مستدرك الوسائل، ومستنبط المسائل، ج ١٥، ص ١٧٣.

٤. الزمر: ١٨؛ الإنسان: ٣؛ إبراهيم: ٧.

الرؤية التدريجية الموجهة

إن مراحل تربية الأولاد تنقسم ـ في ضوء التعاليم الإسلامية ـ إلى ثلاث مراحل تستغرق كل واحدة منها سبع سنوات، وهي على النحو الآتي: مرحلة السيادة والإمرة، ومرحلة الطاعة والانصياع، ومرحلة الاستشارة وإبداء الرأي.[١] وعلى هذا الأساس فإن المشورة ـ التي تلعب دورًا أساسيًا في تعزيز وتقوية حق الاختيار والانتخاب ـ تندرج ضمن المرحلة الثالثة من هذه المراحل. وقد ورد في الكثير من الأحاديث إعطاء الأولاد مسؤوليات تتناسب مع أعمارهم.

تعزيز القدرة المعرفية

إن (معرفة النفس) و(معرفة الآخر) تلعب دورًا أساسيًا في اتخاذ القرارات الواعية والمدروسة. ومن هنا فقد ورد في الأثر عن الإمام علي عليه السلام، أنه قال [ما معناه]: (خير ما يتعلمه المرء في صغره، ما ينفعه في كبره).[٢] وعنه في حديث آخر أيضًا، أنه قال: (تعلموا العلم صغارًا، تسودوا به كبارًا).[٣]

تقوية الشخصية والثقة بالنفس

إن بلوغ الشخصية واستقلالها يُعدّ واحدًا من العوامل المهمّة في اتخاذ القرارات. ومن هنا فقد ورد الحديث في النصوص الدينية عن تكريم الأولاد، من قبيل: إلقاء التحية عليهم،[٤] وتجنّب الإلحاف في لومهم وتقريعهم.[٥]

طلب العلم

إن طلب العلم يُعدّ من الركائز الأصلية لتطوير وتكامل الفرد والمجتمع، وإن مسار التقدّم

---

١. المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٢٨٥.
٢. ابن أبي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة، ج ٢٠، ص ٣٣٣.
٣. م.ن، ص ٢٦٧.
٤. الصدوق، الخصال، ج ١، ص ٢٧٢.
٥. التميمي الآمدي، غرر الحكم ودرر الكلم، ح: ٣٧٤٨.

والتنمية في المجتمع إنما يمرّ عبر قناة العلم. وتبلغ أهمية طلب العلم في الإسلام بحيث كانت الدعوة إلى (القراءة) و(القلم) و(العلم) و(التعلم) هي أول ما صدع به الخطاب الإلهي في باكورة الإسلام ونزول القرآن.[١] بالإضافة إلى عدّ ذلك واحدًا من أهمّ أهداف الأنبياء عليهم السلام؛ حتى ورد في المأثور عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، أنه قال: (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة)، وقال أيضًا: (اطلبوا العلم ولو كان في الصين).[٢]

وعلى الرغم من اضطلاع المدرسة في المجتمع المعاصر بحمل أعباء التعليم، بيد أن دور الأسرة ـ من خلال توفير الأرضية والأجواء الدراسية للأولاد وتعليمهم بشكل غير مباشر ـ يزيد من ثراء وكيفية التعليم. وفي خصوص دور الأسرة في التعليم، تؤكد التعاليم الإسلامية على الخصائص أدناه:

الرؤية المرحلية

إن التعاليم الإسلامية في خصوص تربية الأولاد في الأسرة تقوم على أساس التدرّج والمرحلية. ومن هنا نجد الروايات المأثورة في النصوص الدينية تقسّم المراحل التربوية للأولاد إلى ثلاثة مراحل، وكل مرحلة تستغرق سبعة أعوام، ولكل مرحلة طريقة في التعليم تتناسب مع شخصية الولد فيها. ومن ذلك ـ مثلًا ـ أنه ورد في المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: (الغلام يلعب سبع سنين ويتعلم الكتاب سبع سنين ويتعلم الحلال والحرام سبع سنين).[٣]

١. العلق: ١ ـ ٤.
٢. الحلي، عدّة الداعي ونجاح الساعي، ج ١، ص ٧٢.
٣. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٤٧٥.

التربية والتعليم

إن طلب العلم في المنهج التعليمي الإسلامي مقرون بالتربية، وينظر إلى هذا الأمر برؤية جامعة وشاملة.

التربية في المعارف الدينية

إن تأكيد الإسلام على الرؤية الدينية التربوية، أدى إلى اكتساب شمولية المعارف الدينية أهمية بالغة. ففي ضوء الرواية أعلاه تمّ إدراج تعلّم الحلال والحرام ضمن المرحلة الثالثة، بيد أنه قد ورد في بعض الروايات الأخرى عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: (بادروا أولادكم بالحديث قبل أن يسبقكم إليهم المرجئة).[١]

التأكيد على التعلّم في الصغر

على الرغم من تأكيد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله على عدم وجود محدودية زمنية لطلب العلم، نجد الإسلام يولي أهمية خاصية للتعلم. فقد روي عن الإمام علي عليه السلام، أنه قال: (العلم من الصغر، كالنقش في الحجر).[٢]

وكذلك قال الإمام علي عليه السلام في وصيته لابنه الإمام الحسن عليه السلام: (إنما قلب الحدث كالأرض الخالية، ما ألقي فيها من شيء قبلته، فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك، ويشتغل لبّك).[٣]

تعلّم فنون ومهارات الحياة

إن من بين التعاليم الإسلامية التي ورد التأكيد عليها في النصوص الدينية، هي مهارات الحياة (من قبيل: الرماية والسباحة). ويبدو بالنظر إلى الظروف والشرائط المعاصرة، أن بالإمكان إضافة بعض المهارات الاجتماعية السليمة الأخرى إلى هذه المهارات أيضًا.

---

١. الكليني، الكافي، ج ٦، ص ٤٧.

٢. المجلسي، بحار الأنوار، ج ١، ص ٢٢٤.

٣. م.ن، ج ١، ص ٢٢٣.

الإبداع

إن الإبداع يلعب دورًا أساسيًا في التنمية الفكرية للأفراد، وإن أحد الأصول الأولى لتقدّم وتنمية المجتمع هو وجود الأفراد المبدعين الذين لا يكتفون بالطرق العادية والمسارات المحدّدة مسبقًا ويبحثون عن طرق جديدة. إن الأسرة بالإضافة إلى المدرسة تلعب دورًا محوريًا في تنمية قابليات الأطفال. فحيث أن الأسرة تمتلك الكثير من الفرَص لتربية الأولاد، يمكن لها أن تعمل على تنمية القدرة الفكرية والخيالية لدى الأطفال، وتشجيعهم على اكتشاف الطرق الجديدة والأهم من ذلك عدم تخويفهم من ارتكاب الأخطاء. وقد ذهبت التعاليم الإسلامية إلى تشبيه الناس بمعادن الذهب والفضة في طاقاتهم الخاصة،[1] وأن هناك حاجة إلى استخراج هذه الطاقات والقوى الكامنة.

وعلى هذا الأساس فإن الإسلام بالإضافة إلى التأكيد على التدبّر والتعقّل في الأمور وتعزيز وتقوية القدرة المعرفية لدى الطفل، فإنه يؤكد كثيرًا على لعب الأطفال أيضًا. وكما تقدّم في قسم (الحرية الفكرية)، فإن اللعب بشكل عام يؤدّي إلى التنمية الفكرية والعقلية لدى الأطفال. إن الشاخص الثاني الذي يؤكد عليه الإسلام هو نشر العطف والمحبّة في المناهج التعليمية والتغاضي عن أخطاء الصغار.

روي عن الإمام زين العابدين عليه السلام، أنه قال: (أما حق الصغير فرحمته وتثقيفه وتعليمه والعفو عنه والستر عليه والرفق به).[2]

والمعيار الآخر الذي يؤكد عليه الإسلام هو الاهتمام بحاجة المستقبل. ومن هنا يقول الإمام علي عليه السلام: (لا تقسروا أولادكم على آدابكم؛ فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم).[3]

---

١. الكليني، الكافي، ج ٨، ص ١٧٧.

٢. الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٦٢٥.

٣. ابن أبي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة، ج ٢٠، ص ٢٦٧.

المشاركة الاجتماعية

إن من بين الأسس الأصلية لبناء المجتمع الحيوي والنشيط، هو (المشاركة الاجتماعية) لأفراد المجتمع. إن المجتمع الذي لا يهتمّ أفراده بالأمور الاجتماعية، لن يكون غير متقدم فحسب، بل وسوف ينهار في نهاية المطاف. ومن هنا فإن الدولة تعمل على توظيف مختلف الأدوات من أجل تحشيد الناس ودعوتهم إلى المشاركة والاهتمام بالأمور الاجتماعية. بيد أن هذا الشاخص يجب أن يتبلور في الأسرة قبل أيّ شيء آخر.

يمكن للأسرة من خلال انتهاج الأصول التربوية الصحيحية أن توفر الأرضية بشكل أكبر لأفراد المجتمع. وبطبيعة الحال فإن هذا الأمر إنما يمكن بالنظر إلى نماذج بنية القدرة في الأسرة. إن بنية القدرة في الأسرة يمكن أن تكون متشدّدة، أو متساهلة، أو مقتدرة،[1] إن الأسلوب المقتدر هو وحده الذي يمكنه الإعداد لجيل مستقل ومثابر ومنضبط وفعّال. إن التعاليم الإسلامية بدورها ضمن رفضها للأسلوب المتشدّد (تجنّب اللوم الكثير ومنع العقاب) والأسلوب المتساهل (تكريم الطفل المصيب نكاية بالطفل الخاطئ)، تشجّع على الاهتمام بمشاركة الأطفال في أمور البيت.

ولهذا السبب تمّ التأكيد على التشاور مع الأولاد (الولد وزير إلى سبع سنين)، ويكون ذلك بطبيعة الحال بعد بلوغ سن الرابعة عشرة. وعلى هذا الأساس فإنه بالنظر إلى مشاركة الأولاد في أمور البيت حيث يمكن أن تشكل أرضية للمشاركة الاجتماعية، ورد التأكيد عليها في التعاليم الدينية.

---

١. مريجي، «بررسى نقش خانواده در كاهش انحرافات اجتماعى»، ص ٤٩ ـ ٧٢.

أصل (نفي السبيل)

إن مــن بين العناصر الأصليــة للتنمية الثقافية، عبارة عن (الارتبــاط الواعي مع الثقافات الأخرى). بيد أن هذا الارتباط ليس بشــكل مطلق، بــل يجب أن يتحقق ضمن أطر الأصول والقيَــم الثقافية للمجتمــع. إن من بين الأصول الفقهية للنظام الحقوقية في الإســلام، أصل (نفي الســبيل) الذي يجري في جميع المجالات السياســية والاقتصادية والثقافية. وقد ورد هذا الأصل في صريح القرآن الكريم؛ إذ يقول تعالى: ﴿ **لَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا** ﴾.[١]

إن من بين موارد اســتعمال هذا الأصل هو الأســرة. فإن الإسلام بسبب الاهتمام الكبير الذي يوليه لكيان الأسرة في تنمية وتكامل الفرد والمجتمع، فقد وضع حريمًا خاصًا للحفاظ عليهــا وصيانتها. ومن هنا فإنه في ضوء هذه الآية الكريمة تمّ منع الكافرين من أن يكون لهم سبيل على المسلمين. وقد ذهب الفقهاء المسلمون إلى اعتبار الموارد أدناه من مصاديق هذه القاعدة فيما يتعلق بأمور الأسرة:

أ . حضانة وتربية الأولاد: فيما كان أحد الوالدين كافرًا، تتنقل حضانة الطفل إلى المسلم منهما.[٢]

ب . الولاية: يتفق الفقهاء بأجمعهم على أن الكفر يســتوجب ســقوط حق الولاية (على زواج السفيه والمجنون والصغير وما إلى ذلك).[٣]

ج ـ الإرث: إن الكفر ـ في ضوء فقه الإســلام، ولا ســيّما فقه أهل البيت عليهم السلام ـ يمنع من إرث الكافر من المسلم.[٤]

---

١. النساء: ١٤١.

٢. النجفي، جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، ج ٣٢، ص ٢٨٧.

٣. العاملي، مسالك الأفهام إلى تنقيح شرائع الإسلام، ج ١٥، ص ١٤١.

٤. النجفي، جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، ج ٣٩، ص ١٦.

د ـ الزواج: هناك صوَر متعدّدة يمكن تصوّرها للزواج بين المسلم وغير المسلم، بيد أن هناك صورتين من هذا الزواج لا تجوزان بإجماع الفقهاء استنادًا إلى هذه الآية:

١. زواج المرأة المسلمة من الرجل الكافر.[١]

٢. زواج المرأة المسلمة من الرجل الكافر من غير أهل الكتاب.[٢]

من الواضح أن هذه الموارد بسبب وجود السبيل وتبعًا للتأثير على عقائد وعادات وأفعال الأفراد ـ ومن بينهم الأطفال ـ فإن الإسلام من خلال هذا الأصل، قضى على أسباب هذا السبيل والاستعلاء.

١. الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، ص ٦٥٣.

٢. النجفي، جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، ج ٢٧، ص ١٠٢.

النتيجة

إن (التنمية الثقافية) تعني تكامل الحياة في المجتمع على أساس القيَم الثقافية المتعالية. وفي الأساس فإن الهدف الأصلي من التنمية الثقافية ليس هو مجرّد الإنتاج والاستثمار ورفع مستوى الدخل العام والتنمية الاقتصادية في المجتمع فحسب، بل يضاف إلى ذلك التنمية البشرية وإعداد الأجيال الحيوية والناشطة والفاعلة والواعية التي تتحلى بالثقة بالنفس.

إن (التنمية الثقافية) تعني أن الثقافة تلعب دورًا أساسيًا ومحوريًا في التنمية. وعلى هذا الأساس فإن أي نموذج للتنمية من دون أخذ الثقافة بنظر الاعتبار يكون محكومًا عليه بالفشل منذ البداية. وعلى هذا الأساس فإن الاهتمام بعناصر الثقافة الوطنية وتصفيتها، وكذلك الاهتمام بسائر الثقافات الأخرى يُعدّ أمرًا ضروريًا في مسار التنمية والتقدّم أيضًا. ومن هنا فإن الأبعاد الثلاثة، وهي (الثقة النفسية بالذات)، و(التصفية الثقافية)، و(الارتباط الواعي مع الثقافات الأخرى)، يُعدّ من بين العناصر الأصلية للتنمية الثقافية.

إن الأسرة بوصفها حلقة الوصل بين الفرد والمجتمع، تلعب دورًا بارزًا في التنمية الثقافية. وعلى الرغم من أن الخطط في بلدان ما يُصطلح عليه بالعالم الثالث، لم تلتفت إلى هذا الأمر المهم. بيد أن الدين بوصفه مقدّمًا للنماذج السلوكية يلعب على الدوام دورًا ملحوظًا في التربية النفسية والفكرية ومسار اجتماعية الأفراد ولا سيّما الصغار منهم. وبالنظر إلى العناصر الثلاثة والخصائص المتعدّدة للتنمية الثقافية، تثبت المعطيات أن دور الأسرة بارز في جميع هذه الخصائص المذكورة، وإن الدين الإسلامي يؤكد بشدّة على منزلة الأسرة في هذا الشأن.

المصادر

١. نهج البلاغة، الحكمة، قم، انتشارات هجرت، ١٣٧٩ هـ.

٢. ابن أبي الحديد المعتزلي، عبد الحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، قم، مكتبة آية الله المرعشي النجفي، ١٤٠٤ هـ.

٣. آشوري، داريوش، تعريف ها و مفهوم فرهنگ، طهران، انتشارات مركز فرهنگي آسيا، ١٣٥٧ هـ ش.

٤. آقا محمديان شعرباف، حميد رضا، «نقش و جايگاه خانواده در فرايند توسعه فرهنگی جامعه دينی»، في: همايش ملی توسعه و تحول در فرهنگ و هنر، ج ١، قم، نشر سوره مهر، ١٣٨٧ هـ ش.

٥. أوتويت، ويليام؛ وتام باتامور، فرهنگ علوم اجتماعی قرن بيستم، طهران، نشر نی، ١٣٩٢ هـ ش.

٦. البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، ترجمه إلى اللغة الفارسية: عبد العلي نور أحراري، وتربت جام، وشيخ الإسلام أحمد جام، ١٣٩٢ هـ.

٧. البغدادي، عبد الله محمد عبيد، العيال، تحقيق: نجم عبد الرحمن خلف، المدينة المنوّرة، دار ابن القيم، ١٤١٠ هـ.

٨. بيرو، آلن، فرهنگ علوم اجتماعی (إنجليزي - فرنسي - فارسي)، ترجمه إلى اللغة الفارسية: باقر ساروخانی، طهران، انتشارات كيهان، ١٣٨٠ هـ ش.

٩. پودارتچي، مصطفى، «مشاركت سياسی زنان و توسعه فرهنگی»، في: مجموعه مقالات دانشگاه علامه طباطبائی، العدد: ١٨٥، ص ٣٣٧ ـ ٣٥٦، ١٣٨٣ هـ ش.

١٠. پهلوان، چنگيز، فرهنگ شناسی: گفتارهايی در زمينه فرهنگ و تمدن، طهران، انتشارات پيام امروز، ١٣٧٨ هـ ش.

١١. الترمذي، محمد بن عيسى، الجامع الصحيح أو (سنن الترمذي)، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، القاهرة، دار الحديث، ١٤١٩ هـ.

١٢. التميمي الآمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم، تحقيق: السيد مهدي رجائي، قم، دار الكتاب الإسلامي، ط ٢، ١٤١٠ هـ.

١٣. الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، تحقيق: محمد رضا الحسيني الجلالي، قم، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، ١٤١٢ هـ ش.

١٤. حسيني، أكرم السادات، «تحكيم خانواده در آموزه های قرآنی»، مجله مطالعات راهبردی زنان، العدد: ٢٦، ص ٨١، ١٣٨٣ هـ ش.

١٥. الحلي، ابن فهد، عدّة الداعي ونجاح الساعي، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٧ هـ.

١٦. خانيكی، هادی، «جايگاه و نقش مطبوعات در توسعه فرهنگی ايران»، مجله نامه پژوهش فرهنگی، العدد التجريبي: ١، ص ١١١ ـ ١٢٤، ١٣٧٥ هـ ش.

١٧. دهخدا، علي أكبر، لغت نامه دهخدا، طهران، مؤسسه لغت نامه دهخدا و مركز بين المللی آموزش زبان فارسی دانشگاه طهران، ١٣٧٧ هـ ش.

١٨. الزحيلي، وهبة، الفقه الإسلامي وأدلته، دمشق، دار الفكر المعاصر، ١٤١٨ هـ..

١٩. جيرار، أوغسطين، توسعه فرهنگی: تجارب و خط مشی ها، ترجمه إلى اللغة الفارسية: پروانه سپرده و علی هاشمی گيلانی، طهران، مركز پژوهش های بنيادی، ١٣٧٢ هـ ش.

٢٠. شرف الدين، سيد حسين، «علامه طباطبائی و بنيادهای هستی شناختی فرهنگ»، مجله معرفت فرهنگی اجتماعی، السنة الخامسة، العدد: ٢، ص ٦٥ ـ ٩٢، ١٣٩٣ هـ ش.

٢١. شورای عالی انقلاب فرهنگی، نقشه مهندسی فرهنگی كشور، طهران، دبيرخانه شورای عالی انقلاب فرهنگی، ١٣٩٢ هـ ش.

٢٢. صادقی فسائی، سهیلا؛ وإیمان عرفان منش، «مبانی روش شناختی پژوهش اسنادی در علوم اجتماعی؛ مورد مطالعه: تأثیرات مدرن شدن بر خانواده ایرانی»، مجله: راهبرد فرهنگ، العدد: ٢٩، ص ٦١ ـ ٩٢، ١٣٩٤ هـ ش.

٢٣. الصدوق، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه، تحقيق: على أكبر غفارى، قم، دفتر انتشارات اسلامي، ط ٢، ١٤١٣ هـ.

٢٤. الصدوق، محمد بن علي، الخصال، تحقيق وتصحيح: علي أكبر الغفاري، قم، جامعة المدرسين، ١٣٦٢ هـ ش.

٢٥. الطباطبائي، السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ترجمه إلى اللغة الفارسية: محمد باقر موسوي، قم، دفتر انتشارات اسلامي، ١٣٧٨ هـ ش.

٢٦. الطبرسي، الحسن بن الفضل، مكارم الأخلاق، قم، انتشارات الشريف الرضي، ١٣٧٠ هـ ش.

٢٧. العاملي، زين الدين بن علي (الشهيد الثاني)، مسالك الأفهام إلى تنقيح شرائع الإسلام، قم، مؤسسة المعارف الإسلامية، ١٤١٣ هـ.

٢٨. فاضلي، نعمة الله، «سرنوشت خانواده در برنامه‌های توسعه»، صحيفة إيران، العدد: ٥٨٩٩، ص ١٧، ١٣٩٤ هـ ش.

٢٩. القرشي، باقر شريف، نظام تربيتى اسلام (النظام التربوي في الإسلام)، طهران، انتشارات فجر، ١٣٦٢ هـ ش.

٣٠. الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٤٠٧ هـ.

٣١. كوش، دني، مفهوم فرهنگ در علوم اجتماعى، ترجمه إلى اللغة الفارسية: فريدون وحيدا، طهران، انتشارات سروش، ١٣٨١ هـ ش.

٣٢. كوهستاني، حسين علي، «نقش خانواده در تربيت فرزندان»، مجله پيوند، العدد: ١٥٨، ص ٣٠ ـ ٣٩، ١٣٧١ هـ ش.
٣٣. غولد جوليوس و ويليام ل. كلب، فرهنگ علوم اجتماعي، طهران، انتشارات مازيار، ١٣٧٦ هـ ش.
٣٤. گيوه چيان، فاطمه، «ملاحظاتي درباره نقش زنان در توسعه فرهنگي»، مجله زن در توسعه و سياست، العدد: ٢، ص ١٠٩ ـ ١٢٤، ١٣٨٠ هـ ش.
٣٥. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، بيروت، مؤسسة الوفاء، ط ٢، ١٤٠٣ هـ ش.
٣٦. محمدی ری شهری، محمد، ميزان الحكمة، قم، انتشارات دار الحديث، ١٣٨٦ هـ ش.
٣٧. مريجي، شمس الله، «بررسي نقش خانواده در كاهش انحرافات اجتماعي»، مجله معرفت فرهنگي اجتماعي، العدد: ٤، ص ٤٩ ـ ٧٢. ١٣٩٠ هـ ش.
٣٨. منصوري، ذبيح الله، مغز متفكر جهان شيعه، طهران، انتشارات جاويدان، ١٣٨٤ هـ ش.
٣٩. الخميني، السيد روح الله، صحيفه امام، طهران، مؤسسة تنظيم و نشر آثار إمام خميني رحمه الله، ط ٤، ١٣٨٥ هـ ش.
٤٠. مهدوي، سيد محمد صادق، و سميرا وكيل ها، «بررسي تأثير توسعه فرهنگي زنان بر كاركردهاي خانواده»، مجلة مطالعات توسعه اجتماعي ايران، السنة السابعة، العدد: ٢، ص ٧٣ ـ ٨٤، ١٣٩٤ هـ ش.
٤١. النجفي، محمد حسن، جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٤ هـ.
٤٢. النوري، حسين بن محمد تقي، مستدرك الوسائل، و مستنبط المسائل، بيروت، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ١٤٠٨ هـ.

43. Bowen, Glenn A, "Document Analysis as a Qualitative Research Method", ***Qualitative Research Journal***, V. 9, 2009, p. 27 - 40.

44. Dumazedier, Joffre, "Problèmes Du Loisir: (Enquête Psycho-Sociologique Sur Le Développement Socio-Culturel de l'agglomération d'Annecy)", ***Revue Internationale de l'Education*** 4, N. 1, 1958, p. 117 – 120.

45. Dumazedier, Joffre, "Défense Du Concept De Développement Culturel En Sociologie", ***World Leisure & Recreation***, N. 33, 1991, p. 5 - 6.

46. Mayor, Fredrico, "The World Decade for Cultural Development", ***The Courier***, Paris UNESCO, 1988,.

47. Vestheim, Geir, "UNESCO Cultural Policies 1966 – 1972 – the Founding Years of 'New

48. Cultural Policy", ***Nordisk Kulturpolitisk Tidsskrift***, N. 22, 2019, p. 174 – 195.

Women's Studies

A Critical Appraisal

Family

هذا الكتاب

تعتبر قضايا المرأة والأسرة من القضايا التي تشكل حاجة ملحّة في العصر الحاضر الذي نعيشه، وخاصة بما يلوح من أفكار وأراء دخيلة على الفكر الأصيل الإسلامي، ولذا كان المتن الذي بين أيدينا استجابة لهذه الحاجة، حيث سعينا فيه لتغطية أهم المسائل المتعلقة بالأسرة من قبيل سبل الإسلام الموجودة في المتون الدينية للارتقاء بالأسرة وكيفية بناء نموذج نظري مؤسس للتعامل بين أفراد الأسرة وغير ذلك، ولم يُغفل المتن أيضًا معالجة ومناقشة الإشكالات والآراء الحديثة حول مسائل الأسرة من قبيل تأثيرات الحركة النسوية وبعض الآراء المطروحة في العلوم الإنسانية.

تطبيق المركز

http://www.iicss.iq
islamic.css@gmail.com